(٤) شهاب الدين أبو فراس رسالة «مطالع الشموس في معرفة النفوس» تحقيق عارف تامر ضمن أربع مسائل إسماعيلية، دار الكشاف لبنان سنة ١٩٥٢ (ص ٣٠).

(٥) د. مصطفى غالب «تاريخ الدعوة الإسماعيلية»، (ص ٣٩).

(٦) الداعي أحمد حميد الدين الكرماني «راحة العقل» تحقيق د. مصطفى غالب، دار الأندلس، الطبعة الأولى، سنة ١٩٨٣، (ص ٥٨٩).

(٧) الداعي القرمطي عبدان، كتاب «شجرة اليقين»، تحقيق عارف تامر، دار الآفاق الجديدة، بيروت الطبعة الأولى سنة ١٩٨٢ (ص ١٠- ١٢).

(٨) الداعي الأجل جعفر بن منصور اليمن كتاب «الكشف» تحقيق د. مصطفى غالب، دار الأندلس، بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٤، (ص ٦٣، ٦٤).

تعقيب ودفاع عن موقف الصحابي الجليل سعد بن عبادة يوم السقيفة

ورد في عدد رجب ١٤١٦ هـ من هذه المجلة الطيبة في مقالة (البعد التاريخي لمشكلة الإمامة) للأستاذ الدكتور سعيد مراد - في معرض الكلام على بيعة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه.

(**أما** موقف سعد بن عبادة فكان أكثر تشددًا؛ لأنه مات على غير بيعة لأحد ... إلى آخر ما قال).

وفي الحقيقة أن هذه الرواية مردود عليها وإن كانت مروية في «تاريخ الطبري» (جـ٣ ص٢٢٢ط دار المعارف) - إلَّا أنها مخالفة للروايات الصحيحة - فقد ذكر الإمام المحقق ابن كثير في «البداية والنهاية» (جـ٥ ص٢٤٧ط دار الفكر العربي) - تحت عنوان (ذكر اعتراف سعد بن عبادة بصحة ما قاله الصديق يوم السقيفة) روى الإمام أحمد عن حميد بن عبد الرحمن قال: توفي رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه في صائفة في المدينة قال: فجاء [فكشف] عن وجهه فَقَبَّلَهُ، وقال: فداك أبي وأمي ما أطيبك حيًّا وميتًا، مات محمد ورب الكعبة، فذكر الحديث، قال: فانطلق أبو بكر وعمر يتعادان حتى اتوهم، فتكلم أبو بكر فلم يترك شيئًا أنزل في الأنصار ولا ذكره رسول الله من شأنهم إلا ذكره، وقال: لقد علمتم أن رسول الله ﷺ قال: «لو سلك الناس واديًا وسلكت الأنصار واديًا سلكتُ وادي الأنصار»، ولقد علمت يا سعد أن رسول الله ﷺ قال: - وأنت قاعد - «قريش ولاة هذا الأمر فَبَرُّ الناسِ تبعٌ لِبَرِّهم، وفاجرهم تبع لفاجرهم» فقال له سعد: صدقت نحن الوزراء وأنتم الأمراء.

قال ابن حجر الهيثمي في كتابه (الصواعق المحرقة) (ص١٢): - (ويؤخذ منه ضعف ما حكاه ابن عبد البر أن سعد أبي أن يبايع أبا بكر حتى لقي الله، وذكر في موضع آخر من كتابه أن ما حكي من تخلف سعد بن عبادة عن البيعة مردود) مما يؤكد أن بيعة الصديق - رضي الله عنه - لم تستغرق سوى لقاء واحد، لا يمكن على أقصى تقدير أن يستغرق أكثر من ساعتين أو ثلاثة، وفي هذا اللقاء تم حسم الأمر، واجتمع المهاجرون والأنصار على بيعة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه.

وهذا هو الصواب، وهو المظنون واللائق بهذا الصحابي الجليل - رضي الله عنه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مصطفى محمود البصراتي
محافظة السويس

ملف خاص

بليتنا عظيمة ..

كتبه : مصطفى محمود البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ..
أما بعد :

فإن الله تعالى جعل الموت محتومًا على جميع العباد ، فهو نهاية المرء وغاية الاقتصاد ، من دار الاعتداد ، قضى فأسقم الصحيح ، وعافى السقيم وقسم عباده قسمين : طائع وأثيم ، وجعل مآلهم إلى دارين : دار النعيم ، ودار الجحيم ، فلا مفرّ لأحد من الموت ولا أمان ، لقوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ ، فسوى فيه بين الحر والعبد ، والصغير والكبير والغني والفقير ، والعالم والجاهل ، وكل ذلك بتقدير العليم الخبير ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

فالكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والحازم من بادر بالعمل قبل حلول الموت ، والمسلم من استسلم للقضاء والقدر ، والمؤمن من تيقن بصبره الثواب على المصائب والضرر .

لقد فجعنا وصدمنا بسماع خبر موت شيخنا العلامة الشيخ : صفوت الشوادفي ، عليه رحمة الله ، وكم حزنا لفراقه وصدمنا بهذا الخبر الأليم ، لقد أثر فينا رحمه الله وترك في قلوبنا جراح عظيمة ؛ لأنه مات ونحن في أمس الحاجة إلى علمه ومحاضراته ومقالاته وإنا لفراقه لمحزونون ، ولكن لابد وأن نصبر على فراقه ، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ؛ لأن التحلي بالصبر من شيم الأفذاذ الذين يتلقون المكاره برحابة صدر وبقوة إرادة وبمناعة أبيّة ، وإن لم أصبر أنا وأنت فماذا نصنع ؟ هل عندك حل لنا غير الصبر؟ هل تعلم لنا زادا غيره ؟ كان أحد العظماء ، مسرحًا تركض فيه المصائب ، وميدانًا تتسابق فيه النكبات ، كلما خرج من كربة زارته كربة أخرى ، وهو متترس بالصبر ، متدرع بالثقة بالله ، يقول عن حاله :

تنكر لي دهرى ولم يدر أنني
أعز وأحداث الزمان تهون
فبات يريني الدهر كيف عتوه
وبت أريه الصبر كيف يكون

هكذا يفعل النبلاء ، يصارعون الملمات ، ويطرحون النكبات أرضًا بصبرهم وقوة إرادتهم ؛ صبر آدم على مفارقة الوطن الأول من الجنة ، وصبر نوح على فقد الولد ، وصبر إبراهيم ومقامه على ذبح الابن ، وصبر يعقوب على فراق يوسف ، وصبر موسى على أذى الطاغية ، وصبر داود على مرارة الندم ، وصبر سليمان على فتنة الدنيا ، وصبر عيسى على ألم الفقر.

وأما رسولنا ﷺ فصبر عليها كلها ، وعاشها كلها ، وذاقها كلها ، ففاز بالمقامات كلها ، صبر على فراق الوطن ، ومراتع الفتوة[1] ، وملاعب الصبا ، وربوع الشباب ، فترك الأهل والعشيرة والدار والمال ، وصبر على فقد الولد ، فسالت أرواح أبنائه بين يديه ، وفعقعت أنفسهم أمام ناظريه ، وصبر على ألم الأذى فأوذي في المنهج والوطن ، والسمعة والخُلق والرسالة والزوجة .

وصبر على شماتة العدو ، وتنكر الصديق ، وعقوق القريب ، ونيل الحاسد ، وتشفي الحاقد ، وتألب الخصوم ، وتكالب الأحزاب ، وتكاثر المناوئين ، وصولة الباطل ، وقلة الناصر ، وصبر على شظف العيش ، وجفاف الفقر ، ومضض الحاجة ، وقلة ذات اليد ، وجدب النفقة وحرارة الجوع ، ومرارة الفاقة . نسأل الله تعالى أن يرفع درجة شيخنا صفوت الشوادفي فوق كثير من خلقه وأن ينفعه بما ترك من علم نافع وسلامة سريرة ، وحسن سيره ، ونسأله تعالى أن يعطيه أشرف المنازل في القصور ، وسكن الجنة بالحبور ، ومصاحبة النعيم والحور ، والنضرة والسرور. وأن يصبرنا وأهله على فقده ، إنه ولى ذلك والقادر عليه .

---

(١) الفتوة : الكرم والسخاء .

مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية
العاشر من رمضان المنطقة الصناعية ب ٢ - تليفاكس : ٣٦٣٣١٤ - ٣٦٢٣١٣
مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هانيء الأندلسي ت : ٤٠٣٨١٣٧ - تليفاكس : ٤٠١٧٠٥٣
دار الطباعة والنشر الإسلامية

مختارات من علوم القرآن

جمع القرآن وتدوينه

الحلقة الأولى

إعداد: مصطفى البصراتي

كلمة جمع القرآن تطلق تارة ويراد منها حفظه واستظهاره في الصدور، وتطلق تارة أخرى ويراد منها كتابته كله حروفًا وكلمات وآيات وسورًا، هذا جمع في الصحائف والسطور، وذاك جمع في القلوب والصدور.

ثم إن جمعه بمعنى كتابته حدث في الصدر الأول ثلاث مرات:

الأولى: في عهد النبي ﷺ.

الثانية: في خلافة أبي بكر.

والثالثة: على عهد عثمان، وفي هذه المرة الأخيرة نسخت المصاحف وأرسلت إلى الآفاق.

أولاً: في عهد النبي ﷺ:

نزل القرآن الكريم جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، فكان نزوله حدثًا جليلاً أشعر العالم العلوي من ملائكة الله بشرف الأمة المحمدية التي أكرمها الله بهذه الرسالة لتكون خير أمة أخرجت للناس، ثم بدأ ينزل منجمًا ؛ أي مفرقًا في ثلاث وعشرين سنة: منها ثلاث عشرة بمكة- على الرأي الراجح - وعشر بالمدينة، فكان ينزل بحسب الحاجة؛ خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل من ذلك لحكم بليغة؛ منها تثبيت فؤاد رسول الله ﷺ، وتيسير وتسهيل حفظه وفهمه، والتدرج في التشريع، وغير ذلك، وكان نزول القرآن آنذاك على سبعة أحرف لتيسير قراءته وحفظه على قوم أميين، لكل قبيلة منهم لهجة ولسان، ولا عهد لهم بحفظ الشرائع، وتحقيقًا لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة حتى تواتر عن رسول الله ﷺ أن القرآن أُنزل على سبعة أحرف أذكر منها ما رواه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أقرأني جبريل عليه السلام على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف».

قال الزرقاني: وفي تعدد النزول وأماكنه، مرة في اللوح، وأخرى في بيت العزة، وثالثة على قلب النبي ﷺ ؛ في ذلك التعدد مبالغة في نفي الشك عن القرآن وزيادة للإيمان وباعث على الثقة فيه ؛ لأن الكلام إذا سُجل في سجلات متعددة، وصحت له وجودات كثيرة كان ذلك أنفى للريب وأدعى إلى تسليم ثبوته، وأدنى إلى وفرة الإيقان به مما لو سجل في سجل واحد أو كان له وجود واحد. [«مناهل العرفان» (ص٤٦)].

ولقد كان رسول اللَّه ﷺ يلقى من المعاناة والشدة عند نزول الوحي عليه، وقد كان يزيد من هذه الشدة حرصه الشديد على حفظ ما يلقى من الوحي، فكان ﷺ يعجل بتحريك لسانه وشفتيه بما يلقى إليه مخافة أن يضيع منه شيء، فنهاه الله عز وجل عن ذلك وأمره بالإنصات الكامل، وضمن الله له أن يجمع له القرآن في صدره وأن ينطقه على لسانه وأن يبين له معناه، قال تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [القيامة: ١٦- ١٩].

يقول ابن كثير في تفسير الآية: هذا تعليم من الله عز وجل لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملك فإنه كان يبادر إلى أخذه ويسابق الملك في قراءته فأمره عز وجل إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له وتكفل الله له أن يجمعه في صدره وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه وأن يبينه له ويفسره ويوضحه، فالحالة الأولى جمعه في صدره والثانية تلاوته والثالثة تفسيره وإيضاح معناه.

وبهذا، ومع نزول هذه الآية الكريمة يتحقق أول جمع للقرآن على الصعيد البشري ممثلا في حفظه ﷺ للقرآن، مع توثيق إلهي من الله عز وجل بضمان الحفظ والقراءة والبيان وانطلاقا من هذا الجمع الموثق من الله عز وجل، بدأت حركة انتشار واسع ودائم ومستمر عبر الأجيال والقرون.. بدأت هذه الحركة بإقبال صحابة النبي ﷺ في تلهف على تلقف القرآن من فمه الطاهر ثم العكوف على تلاوته والحرص على محاكاته والتصميم على حفظه حتى أصبح شأن الآيات النازلات وكأنها تنتقل من صدر رسول الله ﷺ على لسانه الطاهر لتنقش بهيئاتها وكيفياتها في صدور صحابته، لينقلوها بدورهم إلى من بعدهم - بهيئاتها وكيفياتها - وهكذا من وقتها ذاك وإلى وقتنا هذا، ثم إلى أن يرث الله الأرض وما عليها، كما قد صاحب هذا الجمع الأول الموثق من الله عز وجل جمع تدويني بشري تمثل في استدعائه ﷺ فور نزول الوحي لواحد أو أكثر من الكُتَّاب - والذين اشتهروا فيما بعد بكُتاب الوحي - ليكتب من إملائه ﷺ وتحت نظره وإشرافه وتوجيهه ما أوحي إليه من آيات.

وطبيعي أن تتم الكتابة على الطريقة المعروفة في وقتها وبالوسائل الموجودة في حينها فكانت الصحف في ذلك هي العُسُب[١]، واللّخاف[٢]، والرِّقاع[٣]، والأكتاف[٤]، والأضَلاع[٥]، والأديم[٦]، وبعد تمام الكتابة كانت الصحيفة، أو الصحائف تحفظ كوثيقة رسمية موثقة في أحد بيوت النبي ﷺ ولدى إحدى زوجاته رضوان الله عليهن.

إضافة إلى ما تقدم، ومصداقًا للضمان الإلهي والتوثيق الرباني - بالجمع والقراءة والبيان - فقد كانت تتم عملية مراجعة وتوثيق على رأس كل عام في شهر الإنزال - شهر رمضان - حيث كان يلتقي جبريل عليه السلام مع النبي ﷺ فيعارضه بالقرآن - بكل ما سبق نزوله من القرآن - حتى إذا كان العام الأخير من حياته المباركة ﷺ وشارف القرآن تمامه. عارضه به مرتين تأكيدا وتوثيقا وإيذانا بقرب تمام الرسالة وختام الوحي كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ - ومن هذا نرى أنه لم يلحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى حتى كان القرآن الكريم وفور إنزاله أولا بأول - مجموعًا في الصدور مسجلا في السطور، مضموما ومحفوظا وموثقا من الله رب العالمين

خلاصة القول أن القرآن كان مكتوبًا كله على عهد الرسول ﷺ، وكانت كتابته ملحوظًا فيها أنها تشمل الأحرف السبعة التي نزل عليها، غير أن بعض الصحابة كان قد كتب منسوخ التلاوة، وبعض ما هو ثابت بخبر الواحد، وربما كتب غير مرتَّب ولم يكن القرآن على ذلك العهد مجموعًا في صحف ولا مصاحف عامة.

لماذا لم يجمع القرآن في عهد النبي ﷺ في صحف ولا مصاحف؟

وإنما لم يجمع القرآن في صحف ولا مصاحف لاعتبارات كثيرة:

أولها: أنه لم يوجد من دواعي كتابته في صحف أو مصاحف مثل ما وجد على عهد أبي بكر حتى كتبه في صحف. ولا مثل ما وجد على عهد عثمان حتى نسخه في مصاحف.

فالمسلمون وقتئذ بخير، والقراء كثيرون، والإسلام لم يتسع عمرانه بعد، والفتنة مأمونة والتعويل لا يزال على الحفظ أكثر من الكتابة، وأدوات الكتابة غير ميسورة، وعناية الرسول باستظهار القرآن تفوق الوصف وتُوفي على الغاية، وحتى في طريقة آدائه على حروفه السبعة التي نزل بها.

ثانيها: أن النبي ﷺ كان بصدد أن ينزل عليه الوحي بنسخ ما شاء الله من آية أو آيات.

ثالثها: أن القرآن لم ينزل مرة واحدة، بل نزل منجمًا في مدى عشرين سنة أو أكثر.

رابعها: أن ترتيب آياته وسوره ليس على ترتيب نزوله، فقد علمت أن نزوله كان على حسب الأسباب، أما ترتيبه فكان لغير ذلك من الاعتبارات وأنت خبير بأن القرآن لو جمع في صحف أو مصاحف والحال على ما ذكر لكان عرضة لتغيير الصحف أو المصاحف كلما وقع نسخ، أو حدث سبب مع أن الظروف لا تساعد، وأدوات الكتابة ليست ميسورة، والتعويل كان على الحفظ قبل كل شيء.

ولكن لما استقر الأمر بختام التنزيل ووفاة الرسول ﷺ وأُمن النسخ، وتقرر الترتيب، ووجد من الدواعي ما يقتضي نسخه في صحف أو مصاحف، ووفق الله الخلفاء الراشدين فقاموا بهذا الواجب حفظًا للقرآن، وحياطة لأصل التشريع الأول، مصداقا لقوله سبحانه: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

هذا بالنسبة للجمع الأول على عهد النبي ﷺ وإن شاء الله نتحدث بعد ذلك عن جمع أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما.

الهوامش:

(١) العسب: بضم العين والسين جمع عسيب - وهو جريد النخل كانوا يكشطون الخوض ويكتبون في الطرف العريض.

(٢) اللخاف: جمع لخفة - وهي رقائق الحجارة.

(٣) الرقاع: جمع رقعة وقد تكون من جلد أو ورق.

(٤) الأكتاف: جمع كتف، وهو العظم الذي للبعير أو الشاة كانوا إذا جف كتبوا عليه.

(٥) الأضلاع: جمع ضلع من العظام.

(٦) الأديم: الجلد.

مختارات من علوم القرآن

جمع القرآن وتدوينه

أسبابه. طبيعته

الحلقة الثانية

إعداد: مصطفى البصراتي

قام أبو بكر بأمر الإسلام بعد رسول الله ﷺ، وواجهته أحداث جسام في ارتداد بعض القبائل العربية عن الإسلام لأسباب مختلفة ومنعوا بعض حقوق الإسلام كالزكاة وانضم بعضهم إلى مدعي النبوة «مسيلمة الكذاب» فجهز أبو بكر الجيوش وأوفدها لحروب المرتدين، وكانت غزوة اليمامة سنة اثنتي عشرة للهجرة تضم عددًا كبيرًا من الصحابة القراء، فاستشهد في هذه الغزوة سبعون قارئا من الصحابة فلما رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما حدث لقراء القرآن وخشى الموت على من بقي منهم في وقائع أخرى أشار على أبي بكر رضي الله عنه بجمع القرآن، حفاظا عليه من الضياع بموت حفظته. فتردد أبو بكر في ذلك مخافة الابتداع وظل الأمر مراجعة بينهما حتى شرح الله صدره له، واستقر الرأي على انتداب زيد بن ثابت للقيام بتلك المهمة بمؤازرة عمر بن الخطاب وتحت إشراف أبي بكر وكبار صحابة رسول الله ﷺ.

ولعل خير ما يصور هذا الأمر والبواعث الداعية إليه، وحالة القائمين عليه هو حديث زيد بن ثابت يرويه عنه البخاري - قال: «أرسل إليّ أبو بكر الصديق مقتل أهل اليمامة (أي عقب استشهاد القراء السبعين في اليمامة)، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحرّ (اشتد) يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستحرّ القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تامر بجمع القرآن. قلت لعمر: كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ؟! قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه، قال زيد: فوالله لو كلّفاني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمراني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟! قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب (جمع عسيب وهو

جـريد النخل كـانوا يكشطون الخـوص ويكتبـون في الطرف العـريض)، واللخـاف (وهي الحجارة الرقيقة) وصدور الرجال حتى وجـدتُّ آخـر سورة التـوبة مع أبي خـزيمة الأنصاري، لم أجدها مع أحد غيره (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم...) حتى خـاتمة براءة، فكانت الصـحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهما.

خطة زيد في جمع القرآن

وقد راعى زيد بن ثابت نهاية التثبت، فكان لا يكتـفي بالحـفظ دون الكتـابة، وقـوله في الحـديث: «ووجـدت آخـــر سورة التوبة مع أبي خـزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره» لا ينافي هذا، ولا يعني أنهـا ليـست مـتـواترة، وإنما المراد أنه لم يجدها مكتوبة عند غيره، وكان زيد يحـفظهـا، وكـان كـثـيـر من الصحابة يحفظونها كذلك، لأن زيدًا كان يعتمد على الحفظ والكتابة معًا، فكانت هذه الآية محـفوظة عند كثير منهم، ويشـهدون بأنها كتبت، ولكنها لم توجد مكتوبة إلا عند أبي خزيمة الأنصاري.

جمـع القـرآن

من المعلوم أن زيد بن ثابت الذي اخـتـير لهذا العمل كان حـافظًا للقرآن الكريم، إلا أنه وضع لنفسه منهجًا يسير عليه، يليق بمكانة القرآن الكريم وصونه عن أن يضاف إليه ما ليس منه، أو ينقص منه حرف أو كلمة، فكان لا يكتب آية إلا بشـهادة اثنين من الصحـابة على أن تلك الآية كـتـبت بين يدي النبي ﷺ وعلى أن ذلك المكتوب من الوجـوه التي نزل بها القرآن، لا من مجرد الحفظ وأنه لم ينسخ، واستقر في العرضة الأخيرة.

وعلى هذا الدستور الرشيد تم جمع القرآن بإشراف أبي بكر وعمر وأكابر الصحـابة وإجماع الأمة عليه دون نكير، وكان ذلك منقبة خالدة لا يزال التاريخ يذكرها بالجميل لأبي بكر في الإشراف، ولعمر في الاقـتراح ولزيد في التنفيذ، وللصحابة في المعاونة والإقرار. قال علي رضي الله عنه: «أعـظـم الناس أجـرًا أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر أول من جمع كتاب الله» أخرجه ابن أبي داود في المصاحف بسند حسن.

وقد قوبلت تلك الصحف التي جمعها زيدٌ بما تستحق من عناية فائقة، فحفظها أبو بكر عنده ثم حفظها عمر بعده ثم حفظتها أمُّ المؤمنين حفصة بنت عمر بعد وفاة عمر حتى

طلبها منها خليفة المسلمين عثمان بن عفان رضي الله عنه حيث اعتمد عليها في استنساخ مصاحف الأمصار. ثم ردها إليها كما يأتيك بيانه إن شاء الله.

مزايا هذا الجمع

وامتازت هذه الصحف:

أولا: بأنها جمعت القرآن على أدقّ وجوه البحث والتحري وأسلم أصول التثبت العلمي.

ثانيًا: أنه اقْتُصِرَ فيها على ما لم تنسخ تلاوته.

ثالثًا: أنها ظفرت بإجماع الأمة عليها وتواتر ما فيها ولا يطعن في ذلك التواتر ما مرَّ عليك من أن آخر سورة براءة لم يوجد إلا عند أبي خزيمة فإن المراد أنه لم يوجد مكتوبًا إلا عنده، وذلك لا ينافي أنه وُجد محفوظًا عند كثرة غامرة من الصحابة بلغ حدَّ التواترِ، والمعروف أن المُعوَّل عليه وقتئذ كان هو الحفظ والاستظهار وإنما اعتمد على الكتابة كمصدر من المصادر، زيادة في الاحتياط ومبالغة في الدقة والحذر. ولا يَعزُبَن عن بالك أن هذا الجمع كان شاملا للأحرف السبعة التي نزل بها القرآن تيسيرا على الأمة الإسلامية كما كانت الأحرف السبعة في الرقاع كذلك.

الخلاصة

يستفاد من كل ما تقدم:

أولا: أن السبب في جمع القرآن في عهد أبي بكر - رضي الله عنه - هو الخوف من ذهاب شيء منه بموت حفظته في الوقائع الحربية، على غرار ما حدث في واقعة اليمامة.

ثانيًا: يستفاد منه طبيعة هذا الجمع، وهي أنها مجرد نقل وتجميع لما كان مكتوبًا في حياة الرسول ﷺ، لأنه لم يكن مجموعًا في مكان واحد، وإنما كان مفرقا في العُسُب واللخاف والرقاع - كما تقدم - فأصبح مجموعًا في مكان واحد، مرتب السور والآيات وأطلق عليه اسم «المصحف».

قال أبو عبد الله المحاسبي:

«كتابة القرآن ليست محدثة، وإنما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان، وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله ﷺ فيها القرآن منتشرا فجمعها جامع، وربطها بخيط، حتى لا يضيع منها شيء.

هذا هو الجمع الثاني للقرآن - ويليه إن شاء الله الجمع الثالث على عهد عثمان رضي الله عنه.

والحمد لله رب العالمين.

والله من وراء القصد.

مختارات من علوم القرآن

نزول القرآن على سبعة أحرف

إعداد / مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وبعد:

من موضوعات علوم القرآن التي تتشعب فيها الآراء «نزول القرآن على سبعة أحرف» فهو موضوع شائك، صحَّت أحاديثه، وتعددت طرقها بما يشبه التواتر، ونحن في هذه الكلمات نوضح معنى الأحرف السبعة الواردة في الأحاديث، ونستعرض آراء العلماء في هذا الموضوع، والوجوه التي تختلف فيها لغات العرب، وكذلك الحكمة من نزول القرآن على سبعة أحرف.

اختلاف اللهجات العربية

إن هذه الأمة المنتشرة في الأصقاع المترامية في شبه جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق، رغم أنها كانت تتكلم لغة واحدة، فإنها بالاتصال مع غيرها من الأمم واقتباسها منها، وانفراد كل قبيلة عن بقية أمتها، جعلها مختلفة عن غيرها في النطق باللغة من وجوه حتى غدا لكل قبيلة منها لهجة خاصة.

ولقد أسمى علماء اللغة الإسلاميون هذه اللهجات «لغات» تجوُّزًا، وألفوا فيها كتبًا عرفت بـ(كتب اللغات)، وتسمى هذه اللغات في اصطلاح علماء اللغة المعاصرين «لهجات». واللهجة في الاصطلاح العلمي الحديث هي مجموعة من الصفات اللغوية التي تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة.

الوجوه التي تختلف فيها لغات العرب

تختلف اللغات العربية في بعض الكلمات والتراكيب؛ فيقول بنو تميم في صيغة فعل الأمر من المضاعف: شُدَّ، وضُنَّ، وفِرَّ، واستعِدَّ، واصطبَّ يا رجل، واطمئن يا غلام. بينما يقول أهل الحجاز: أشدُدْ، واضنُنْ، وافرِرْ، واصطبِبْ، وأطمئنِنْ. (يقال: اصطب من القربة ماء: صبَّه منها ليشربه).

وذكر القرآن لغتين في (استطاع) قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف:٦٧]، ثم قال في آخر القصة ﴿... ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:٨٢]، وفيه لغة ثالثة، استعتُ «بحذف الطاء كحذف التاء». ولغة رابعة: «أسطعت» (بقطع الهمزة مفتوحة).

وكذلك كلمة (قسطاس) فيها سبع لغات منها: قسطاس، وقِصطاس، وقستاط، وقِسَّاط وقَسَّاط، أما لغة عرب اليمن (حمير ومن معهم) فإنها أكثر بعدًا عن لغة بني نزار: مثال ذلك: حكى الكسائي عن قُضاعة أنها تقول: مررت بَهْ «بفتح الباء» والمال لَهْ «بكسر اللام مع سكون الهاء فيهما».

قال ابن فارس في فقه اللغة: «اختلاف لغات العرب من وجوه»:

أحدها: الاختلاف في الحركات، نحو: نَستعين ونِستعين - بفتح النون وكسرها. قال الفرَّاء: هي مفتوحة في لغة قريش. وأسد وغيرَهم يكسرها.

والوجه الآخر: الاختلاف في الحركة والسكون نحو: مَعَكم، ومَعْكم.

ووجه آخر: وهو الاختلاف في إبدال الحروف، نحو: أولئك، وأولالك ومنها قولهم: إنَّ زيدًا وعِنَّ زيدًا.

ومن ذلك: الاختلاف في الهمز والتليين، نحو مستهزئون، ومستهزون.

ومنها: الاختلاف في التقديم والتأخير نحو: صاعقة، وصاقعة.

ومنها: الاختلاف في التذكير والتأنيث، فإن من العرب من يقول: هذه البقر وهذه النخل. ومنهم من يقول: هذا البقر، وهذا النخل. وكل هذه اللغات منسوبةٌ إلى أصحابها.

الأحاديث الواردة في السبعة الأحرف

وهي كثيرة نذكر منها حديثين:

الأول: أخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس أنه قال، قال رسول الله ﷺ: «أقرأني جبريلُ على حرف فراجعتُهُ، فلم أزل استزيدُه ويزيدُني حتى انتهى إلى سبعة أحرف»، زاد مسلم: قال ابن شهاب: بلغني أن تلك السبعة إنما هي في الأمر الذي يكون واحدا لا يختلف في حلال ولا حرام.

الثاني: وأخرجا أيضا عن عمر بن الخطاب أنه قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يُقرِئْنيها رسولُ الله ﷺ، فكدتُ أساورُهُ في الصلاة، فتصبرتُ حتى سلَّم، فلببتهُ بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتُك تقرأ؟ فقال: أقرأنيها رسول الله ﷺ. فقلتُ كذبت، فإنَّ رسول الله ﷺ أقرأنيها على غير ما قرأت. فانطلقت به أقودُهُ إلى رسول الله ﷺ، فقلت إني سمعتُ هذا يقرأُ بسورة الفرقان على حروف لم تُقرِئْنيها، فقال رسول الله ﷺ: «أرْسِلْهُ، اقرأ يا هشام»، فقرأ عليه القراءة التي سمعتُه يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: «كذلك أنزلت»، ثم قال: «اقرأ يا عمر» فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله ﷺ: «كذلك أنزِلَتْ، إن هذا القرآن أُنزِل على سبعة أحرف فاقرؤا ما تيسر منه».

معنى الحرف:

أصل معناه: طرف الشيء وَحَدُّه الذي ينتهي إليه. وقد ورد بمعانٍ متعددة منها: الطرف والحدّ والجانب والناحية وسمي الواحد من حروف الهجاء «حرفًا» لأنه جزء من كلمة وطرفها، ويستعمل في الدلالة على وجه من وجوه القراءة المتعددة، وتسمى قراءة كل قارئ حرفًا، يقال: حرف أُبيّ بن كعب، وحرف ابن مسعود... أي قراءته.

وبالمطابقة بين هذه المعاني اللغوية لكلمة «حرف» وبين ما جاء في الأحاديث الدالة على نزول القرآن على سبعة أحرف يتبين أن أنسب هذه المعاني بالنسبة لكلمة (حرف) في الأحاديث هو: (الوجه) أو الجهة التي يؤدَّى عليها الشيء، وكيفية التصريف والتغيير فيه، كما تؤكد أن ذلك التعدد أيضا كان في الأداء اللفظي فحسب دون أن يتناول تغيير المعاني أو تعددها فضلا عن الجمع بين متناقضاتها.

أقوال العلماء في المراد بالأحرف السبعة

اتفق العلماء على أنه لا يمكن أن يكون المراد بها هؤلاء السبعة القراء المشهورين كما يظنه بعض العوام وكثير من الناس؛ لأن هؤلاء القراء السبعة لم يكونوا قد وجدوا أثناء نزول القرآن الكريم، ثم إن القراءات المتواترة عشر وليست سبعًا.

وقد اختلف العلماء في تفسير هذه الأحرف اختلافًا كثيرًا وافترقوا على أقوال، أكثرها متداخل فيما بينها.

- فذهب بعضهم إلى أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب كلها يمنها ونزارها وهي: لغة قريش، وهذيل، وثقيف، وهوازن، وكنانة، وتميم، واليمن - وقيل في تحديد اللغات السبع غير هذا.

وقد اعترض على هذا الرأي بأن القرآن الكريم فيه أكثر من سبع لغات؛ ويذكر ابن عبد البر وجهًا آخر في توهين هذا الرأي فيقول: «قد أنكر أهل العلم أن يكون معنى سبعة أحرف» سبع لغات؛ لأنه لو كان كذلك لم ينكر بعضهم على بعض في أول الأمر، لأن ذلك من لغته التي طبع عليها، وأيضا فإن عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم كلاهما قرشي، وقد اختلفت قراءتهما، ومحال أن ينكر عليه عمر لغته».

- وقال بعضهم: المراد معاني الأحكام، كالحلال والحرام، والمحكم والمتشابه، والأمثال، والإنشاء والإخبار.

- وقيل المراد بها: الأمر والنهي، والطلب، والدعاء، والخبر، والاستخبار والزجر.

- وقيل المراد بها: الوعد، والوعيد، والمطلق، والمقيد، والتفسير، والإعراب، والتأويل.

ومع الاحتفاظ بالقيمة العلمية والعقلية لكل ما استنبطه العلماء من آراء حول المراد بهذه الأحرف السبعة، ومن وسط هذا الحشد الهائل من الآراء في هذا الموضوع والتي أوصلها البعض إلى أربعين رأيًا.

نذكر رأي الإمام أبي الفضل الرازي، وهو رأي اجتمع عليه كثير من الفضلاء الكاتبين في هذا الموضوع، فقد ذهب إليه أبو حاتم السجستاني وابن قتيبة وأبو بكر الباقلاني وأبو الحسن السخاوي وابن الجزري، وسبقهم جميعًا إلى نحوٍ منه أبو العباس أحمد بن واصل، وهو اختيار أبي علي الأهوازي ومكي بن أبي طالب وابن شريح من القدامى. ومن المعاصرين الشيخ عبد العظيم الزرقاني والشيخ محمد نجيب المطيعي والعلامة الخضري الدمياطي والشيخ عبد الفتاح القاضي والدكتور شعبان محمد إسماعيل وغيرهم كثير.

ولا يفوتني أن أنبه هنا إلى أن هناك اختلافًا يسيرًا بين هؤلاء الأعلام في تحديد الأوجه السبعة بالاستقراء وهذا الرأي الذي ذهبوا إليه في معنى الأحرف السبعة هو: الأوجه التي يقع بها التغاير والاختلاف.

وكلمة «الأوجه» ترجيح لأحد معاني «الحرف». لأنه باستقراء ألفاظ الحديث لا يستقيم إلا هذا المعنى، وإليه ذهب أعلام القراء، وكلمة «التغاير» إشارة إلى وجود الاختلاف بين هذه الأوجه، وفيه رد على من يحصر الاختلاف في نوع واحد فقط كالترادف نحو هلم وأقبل وتعال.

والأوجه التي يقع بها هذا التغاير والاختلاف لا تخرج عن سبعة:

الأول: اختلاف الأسماء في الإفراد والتثنية والجمع: نحو قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ [البقرة:١٨٤]، قرئ لفظ مسكين هكذا بالإفراد وقُرئ مساكين بالجمع، وقوله تعالى في الحجرات: ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات:١٠]، قُرئ بفتح الهمزة والخاء بلفظ التثنية وقرئ بكسر الهمزة وسكون الخاء وبعد الواو تاء مكسورة على أنه جمع أخ.

واختلاف الأسماء أيضا في التذكير والتأنيث: نحو قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ [البقرة:٤٨]، قرئ يُقبل بياء التذكير وتاء التأنيث، وقوله تعالى في سورة النحل: ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ [النحل: ٢٨ - ٣٢]، قرئ يتوفاهم بياء التذكير.

الثاني: اختلاف تصريف الأفعال من ماض ومضارع وأمر نحو: قوله

تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ [البقرة:١٨٤]، قرئ يَطَّوَّع بياء مفتوحة وبعدها طاء مشددة مفتوحة مع جزم العين على أنه فعل مضارع. وقوله تعالى بسورة يوسف: ﴿فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾ [يوسف:١١٠]، قرئ بزيادة نون ساكنة بعد النون المضمومة مع تخفيف الجيم وسكون الياء على أنه فعل مضارع.

الثالث: اختلاف أوجه الإعراب نحو: قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ [البقرة:١١٩]، على أن لا نافية، وقرئ بفتح التاء وجزم اللام على أنها ناهية. وقوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ قرئ بخفض الهاء من لفظ الجلالة وقرئ برفعها.

الرابع: الاختلاف بالنقص والزيادة، كقوله تعالى بسورة آل عمران: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران:١٣٣]، قرئ بإثبات الواو قبل السين وقرئ بحذفها، وقوله تعالى في سورة يوسف: ﴿قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ﴾ [يوسف:١٩]، قرئ بزيادة الياء المفتوحة بعد الألف وقرئ بحذفها، وقوله تعالى في سورة الشورى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠]، قرئ «فبما» بفاء قبل الباء وقرئ «بما» بحذف الفاء.

الخامس: الاختلاف بالتقديم والتأخير، كقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ [آل عمران:٩٥]، قرئ بتقديم وقاتلوا وتأخير وقتلوا وقرئ بتقديم وقتلوا وتأخير وقاتلوا، وقوله في سورة المطففين ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ [المطففين:٢٦]، قرئ «خَاتَمُهُ» بفتح الخاء وتقديم الألف على التاء المفتوحة.

السادس: الاختلاف بالإبدال، أي جعل حرف مكان آخر، كقوله تعالى في سورة يونس: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾ [يونس:٣٠]، قرئ تبلو بتاء مفتوحة فباء ساكنة وقرئ «تَتْلُو» بتاءين الأولى مفتوحة والثانية ساكنة، وقوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [الشعراء:٢١٧]، قرئ وتوكل بالواو وقرئ فتوكل بالفاء. وقوله تعالى في سورة التكوير: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير:٢٤]، قرئ بالضاد والظاء.

السابع: الاختلاف في اللهجات: كالفتح والإمالة، والإظهار والإدغام، والتسهيل والتحقيق، والتفخيم والترقيق وهكذا، ويدخل في هذا النوع الكلمات التي اختلفت فيها لغات القبائل وتباينت ألسنتهم في النطق بها نحو: خطوات، بيوت، خفية، زبورًا، شنآن، الأذن، وهي كلها تعتمد على كيفية النطق والأداء، ولا يكون ذلك إلا من أفواه المشايخ.

ومع جودة هذا الرأي ودقته وإحكامه واستحقاقه لاختيار الفحول من العلماء إلا أنه لا يسعنا إلا ما وسع السلف الصالح والقرون الأولى من الاكتفاء بالقراءات الصحيحة المتواترة عن رسول الله ﷺ والتي استقرت كتابةً وخطًا وقراءةً من مصحف عثمان رضي الله عنه وانتشرت حفظا ومشافهة عبر الأجيال.

حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف

١ ـ تيسير القراءة والحفظ على قوم أميين، لكل قبيلة منهم لسان ولا عهد لهم بحفظ الشرائع فضلا عن أن يكون ذلك مما أَلِفوه، وهذه الحكمة نصَّت عليها الأحاديث.

٢ ـ التخفيف على الأمة وتسهيل القراءة عليها خاصة الأمة العربية التي شوفهت بالقرآن.

٣ ـ جمع الأمة الإسلامية الجديدة على لسان واحد بينها وهو لسان قريش الذي نزل به القرآن والذي انتظم كثيرًا من مختارات ألسنة القبائل العربية التي كانت تختلف إلى مكة في موسم الحج.

والله من وراء القصد.

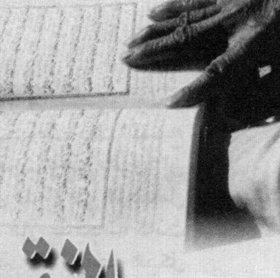

النقط والشكل في القرآن الكريم

كتبه: مصطفى البصراتي

كان القرآن الكريم في الكَتْبَةِ الأولى ثم في مصاحف عثمان بغير نقط ولا شكل ولم يكن ثمَّة إشكال في هذا الجانب، إذ الأمة إنما تتلقى القراءة بالمشافهة، وعلى ذلك العمدة، والسلائق سليمة لا تحتاج إلى الشكل بالحركات، ولا إلى الإعجام بالنقط، وكان الحفاظ متوافرين.

وقد ساعد ذلك على صلاحية الكلمات التي فيها أكثر من قراءة لأداء ذلك، إلا أنه بعد فترة من الزمان، وبعد اتساع رقعة الإسلام، وبعد دخول أفواج من الأمم غير العربية في دين الله، كادت هذه السليقة أن تختفي تحت موجات غير العرب ولهجاتهم، حتى أدى ذلك إلى شيوع لكنات من اللحن في كتاب الله، وقد أحسن أولو الأمر بضرورة تحسين كتابة المصحف بالشكل والنقط وغيرهما مما يساعد على القراءة الصحيحة، وقد قيل إن أبا الأسود الدؤلي سمع قارئًا يقرأ قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٣]، فقرأها بجر اللام من كلمة «رسوله»، فأفزع هذا اللحنُ الشنيع أبا الأسود، وقال: عز وجه الله أن يبرأ من رسوله، ثم ذهب إلى زياد والي البصرة وقال له: قد أجبتك إلى ما سألت. وكان زياد قد سأله أن يجعل للناس علامات يعرفون بها كتاب الله، فتباطأ في الجواب حتى راعه هذا الحادث. وهنا جَدَّ جِدُّه، وانتهى به اجتهاده إلى أن جعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف، وجعل علامة الكسرة نقطة أسفله، وجعل علامة الضمة نقطة بين أجزاء الحرف، وجعل علامة السكون نقطتين.

ثم طفق الناس ينهجون منهجه، ثم امتدَّ الزمان بهم فبدؤا يزيدون ويبتكرون، حتى جعلوا للحرف المشدد علامة كالقوس، ولألف الوصل جرَّة فوقها أو تحتها أو وسطها، على حسب ما قبلها من فتحة أو كسرة أو ضمة، ودامت الحال على هذا حتى جاء عبد الملك بن مروان، فرأى بنافذ بصيرته أن يميز ذوات الحروف من بعضها، وأن يتخذ سبيله إلى ذلك التمييز بالإعجام والنقط.

وهنالك اضطرَّ أن يستبدل بالشكل الأول الذي هو النقط شكلاً جديدًا هو ما نعرفه اليوم من علامات الفتحة والكسرة والضمة والسكون.

والذي اضطره إلى هذا الاستبدال، أنه لو أبقى العلامات الأولى على ما هي عليه نقطًا، ثم جاءت هذه الأخرى نقطًا كذلك لتشابها، واشتبه الأمر فميز بين الطائفتين بهذه الطريقة قال أبو عمرو الداني في المحكم: اعلم أيدك الله بتوفيقه أن الذي دعا السلف رضي الله عنهم إلى نقط المصاحف، بعد أن كانت خالية من ذلك وعارية منه وقت رسمها وحين توجيهها إلى الأمصار ما شاهدوه من أهل عصرهم- مع قربهم من زمن الفصاحة- وما شاهد أهلها من فساد ألسنتهم واختلاف ألفاظهم، وتغيُّر طباعهم، ودخول اللحن على كثير من خواص الناس وعوامّهم وما خافوه مع مرور الأيام، وتطاول الأزمان من تزايد ذلك، وتضاعفه فيمن يأتي بعدُ، ممَّن هو- لا شك- في العلم والفصاحة والفهم والدراية دون من شاهدوه، ممَّن عرض له الفساد، ودخل عليه اللحن، لكن يرجع إلى نقطها ويصار إلى شكلها عند دخول الشكوك، وعدم المعرفة، ويتحقق بذلك إعراب الكلم، وتدرك به كيفية

الألفاظ.

ثم إنهم لما رأوا ذلك، وقادهم الاجتهاد إليه بَنَوْه على وصل القارئ للكلم، دون وقفه عليهن، فأعربوا أواخرهن لذلك؛ لأن الإشكال أكثر ما يدخل على المبتدئ المتعلم، والوهم أكثر ما يعرض لمن لا يبصر الإعراب ولا يعرف القراءة في إعراب أواخر الأسماء والأفعال، فلذلك بنوا النَّقْط على الوصل دون الوقف.

وأيضًا فإن القارئ قد يقرأ الآية والأكثر في نفس واحد، ولا يقطع على شيء من كلمها، فلابد من إعراب ما يصله من ذلك ضرورة.

والنقط تنقسم إلى قسمين: نقط إعراب، ونقط إعجام.

فنقط الإعراب (وهو ما نسميه بالتشكيل): هو العلامة الدالة على ما يعرض للحرف من حركة أو سكون أو شد أو مد إلى آخره، واختلف في أول من وضعه، فقيل: الخليل بن أحمد، وقيل: نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر، وقيل: عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي أستاذ أبي عمرو بن العلاء.

والصحيح كما نص عليه جماعة من العلماء منهم أبو عمرو الداني، وأبو داود، وأبو حاتم: أن أول من وضعه (أبو الأسود الدؤلي) بأمر زياد بن أبي زياد والي البصرة في خلافة معاوية بن أبي سفيان.

وسبب وضعه: كما ذكر العلماء أن معاوية بعث إلى زياد يطلب منه إرسال ولده عبيد الله بن زياد فلما قدم عليه وكلمه معاوية وجده يلحن في الكلام، فرده إلى أبيه، وبعث إليه كتابًا يلومه فيه على وقوع ابنه في اللحن، فبعث زياد إلى أبي الأسود وقال له: إن الأعاجم قد أفسدوا لغة العرب فلو وضعت شيئًا يصلح الناس به كلامهم ويعربون به كلام الله. فامتنع أبو الأسود فأجلس زياد رجلا في طريق أبي الأسود وقال له إذا مر بك أبو الأسود فاقرأ شيئًا من كتاب الله وتعمد اللحن فيه، فلما مر أبو الأسود قرأ الرجل: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ بجر لَام (رسوله). فقال أبو الأسود معاذ الله أن يبرأ من رسوله، ثم رجع إلى زياد وقال: قد أجبتك إلى طلبك، ورأيت أن أبدأ بإعراب القرآن. فاختار رجلاً من قبيلة عبد القيس، وقيل من قريش وقال له : خذ المصحف ومدادًا يخالف لونه لون المصحف، فإذا فتحت شفتي فانقط فوق الحرف نقطه، وإذا ضممتهما فانقط أمامه نقطه، وإذا كسرتهما فانقط تحته نقطه، وإذا أتبعته غنَّة (أي تنوينًا) فانقط نقطتين حتى أتى على آخر المصحف.

وعن أبي الأسود أخذ العلماء النقط، وأدخلوا عليه بعض التحسين إلى أن جاء عصر الدولة العباسية، وظهر العالم الجليل «الخليل بن أحمد» البصري فأخذ نقط أبي الأسود وأدخل عليه تحسينًا، فجعل علامة الفتح ألفًا صغيرة مبطوحة لأن الفتحة إذا أشبعت تولد منها ألف، وعلامة الضم واوًا صغيرة لأن الضمة إذا أشبعت تولد منها واو، وعلامة الكسر ياء صغيرة لأن الكسرة إذا أشبعت تولد منها ياء وهو المسمى الآن بالشكل وزاد على ذلك فجعل علامة للتشديد وهي رأس شين، وعلامة للسكون وهي رأس خاء، وأخرى للهمز، وعلامة للاختلاس والإشمام. وقيل إن علامات الشد والسكون والاختلاس والإشمام والهمز وضعت في عصر الدولة العباسية أي: بعد زمن الخليل وظل الأمر على ذلك مع إدخال بعض تحسين طفيف حتى عصرنا هذا.

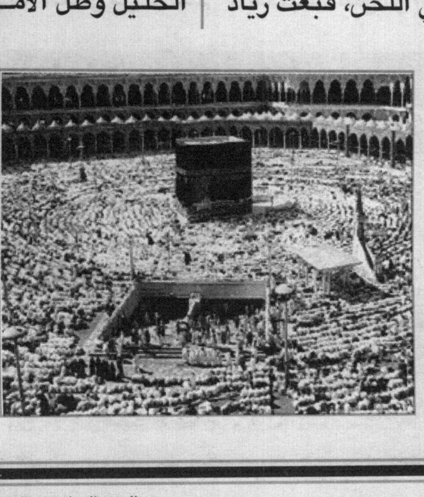

نقط الإعجام (وهو ما نسميه بالتنقيط): هو العلامات التي تميز الحروف بعضها من بعض كي لا يلتبس معجم بمهمل. والحروف المعجمة خمسة عشر حرفًا وهي: (ب، ت، ث، ج، خ، ذ، ز، ش، ض، غ، ف،

ق، ن، ي).

وقد جرى العمل على عدم نقط الياء في خمسة أحوال:

الأولى: إذا كانت متطرفة نحو: محياي.

الثانية: إذا كانت صورة للهمز نحو: لئلا.

الثالثة: إذا كانت عوضًا عن حرف؛ سواء أكانت متوسطة نحو: هداهم أم متطرفة نحو: تهوى.

الرابعة: إذا كانت محذوفة لاجتماع مثلين وأريد إلحاقها سواء أكانت متوسطة نحو: النبيين، أم متطرفة نحو: يستحي.

الخامسة: إذا ألحقت للدلالة على الصلة نحو: به، كثيرا، فيه، هدى.

والحروف المهملة ثلاثة عشر حرفًا وهي: (ا، ح، د، ر، س، ص، ط، ع، ك، ل، م، هـ، و).

وقد اختلف في أول من وضع نقط الإعجام وأصح الأقوال أنه «نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر» بأمر الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق من قبل أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان.

سبب وضعه: كما ذكر العلماء أنه لما كثرت الفتوحات الإسلامية، وكثر الداخلون في الإسلام من الأعاجم كثر تبعًا لذلك التحريف في لغة العرب، وخِيف على القرآن الكريم أن يمتد إليه بعض التحريف أمر عبد الملك بن مروان أن يعمل الحجاج بن يوسف على أن لا يصل التحريف إلى حمى القرآن الكريم، فاختار الحجاج بن يوسف لتلك المهمة «نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر»، وكانا من أبرز العلماء وقتئذ في فنون القراءات وتوجيهها، وعلوم اللغة العربية وأسرارها فوضعا ذلك النقط لتتميز عن نقط أبي الأسود.

ومن ذلك يعلم أن نقط الإعراب متقدم على نقط الإعجام لتقدم زمن زياد وأبي الأسود على زمن الحجاج ونصر بن عاصم ويحيى بن يعمر، والشكل متأخر على النقط بمعنييه لتأخر زمن الخليل عن زمن أبي الأسود ونصر بن عاصم ويحيى بن يعمر.

وموضوعه: العلامات الدالة على ما يعرض للحرف من وضع حركة وتركها ومحلها ولونها إلى غير ذلك.

وفائدته: إزالة اللبس عن الحروف، فلا يلتبس مشدد بمخفف، ولا ساكن بمتحرك، ولا مفتوح بمكسور ولا مضموم. والعلامات التي تضبط بها الحروف خمسة أشياء وهي:

١- الحركة.
٢- السكون.
٣- الشد.
٤- المد.
٥- الهمز.

ولكل منها هيئة مخصوصة، ولون مخصوص، ووضع مخصوص.

وهكذا فقد مرت عملية تحسين الرسم بمرحلتين: نقط الإعراب، وهو ما نسميه بالتشكيل، ونقط الإعجام وهو ما نسميه بالتنقيط، لم يعتبروا الشكل تنزيلا وإنما اعتبروه تعليمًا، فكانت المصاحف تختلف شكلا بحسب القراءة المتواترة التي ينهج عليها صاحب المصحف، ولا شك هنا أنه كان في العالم الإسلامي بدءًا من عصر أبي الأسود الدؤلي حتى زماننا هذا مصاحف مختلفة الشكل- حركات الإعراب والصرف- بحسب ما يؤدي إليه مقصد التواتر إسنادًا، فثمة مصحف مرسوم بما يوافق قراءة أبي عمرو، وآخر مرسوم بما يوافق قراءة نافع وهكذا. غاية الأمر أن هذه المصاحف متفقة في أصل الرسم العثماني قبل الشكل.

والله من وراء القصد.

مختارات من علوم القرآن

آيات القرآن

كتبه/ مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وبعد:

تعتبر الآيات هي وحدات الإنزال التي كان النبي ﷺ يتلقاها عن الوحي؛ حيث اقتضت الحكمة نزول القرآن منجّمًا (أي مفرّقًا)، وكان ذلك هو الأمر الغالب وقليلاً ما كانت تنزل سورة بتمامها- وهي مؤلفة في جملتها من مجموع آياتها- وأقل منه نزول كلمة أو بعض آية لتلحق بآية سابقة في مكانها، وآيات القرآن تختلف طولاً وقِصَرًا، فأقصرها قوله تعالى: ﴿طه﴾، ثم مثيلاتها مما كان على كلمة واحدة، ثم تتدرج إلى أطول آية في القرآن وهي آية الدين [البقرة: ٢٨٢]، ويعتبر لفظ «آية» في اللغة من المشترك اللفظي الذي يَصْدُق على معان متعددة منها:

أولاً: المعجزة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ [البقرة: ٢١١] أي: معجزة واضحة.

ثانيًا: العلامة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨] أي: علامة ملكه.

ثالثًا: العبرة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ [الشعراء: ٦٧] أي عبرة لمن يعتبر.

رابعًا: الأمر العجيب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠].

خامسًا: البرهان والدليل، نحو قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ [الروم: ٢٢]، والمعنى: أن من براهين وجود الله واقتداره واتصافه بالكمال؛ خلق عوالم السماوات والأرض واختلاف الألسنة والألوان.

تلك كلها إطلاقات لغوية، وقد يستلزم بعضها بعضًا.

ثم خُصَّت الآية في الاصطلاح بأنها: طائفة ذات مَطْلَع ومَقْطَع مندرجة في سورة من القرآن، والمناسبة بين هذا المعنى الاصطلاحي والمعاني اللغوية السالفة واضحة؛ لأن الآية القرآنية معجزة ولو باعتبار انضمام غيرها إليها، ثم هي علامة على صدق من جاء بها عليه الصلاة والسلام، وفيها عبرة وذكرى لمن أراد أن يتذكر، وهي من الأمور العجيبة لمكانها من السموّ والإعجاز، وفيها معنى البرهان والدليل على ما تضمنته من هداية وعلم، وعلى قدرة الله وعلمه وحكمته وصدق رسوله في رسالته.

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: «وتسمية هذه الأجزاء آيات هو من مبتكرات القرآن، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، وقال: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود: ١]، وإنما سُميت آية؛ لأنها دليل على أنها موحى بها من عند الله إلى النبي ﷺ لأنها تشتمل على ما هو من الحدّ الأعلى في بلاغة نَظْم الكلام، ولأنها لوقوعها مع غيرها من الآيات جُعلت دليلاً على أن القرآن منزَّل من عند الله وليس من تأليف البشر؛ إذ قد تحدى النبيُّ به أهلَ الفصاحة والبلاغة من أهل اللسان العربي فعجزوا عن تأليف مثل سورة من سوره، فلذا لا يحقّ لجُمل التوراة والإنجيل أن تسمى آيات؛ إذ ليست فيها هذه الخصوصية في اللغة العبرانية والآرامية، وأما ما ورد في حديث رجم اليهوديَيْن

اللذين زنيا من قول الراوي: «فوضع الذي نَشَر التوراة يده على آية الرجم»، فذلك تعبير غلب على لسان الراوي على وجه المشاكلة التقديرية تشبيهًا بجمل القرآن؛ إذ لم يَجِدْ لها اسمًا يعبِّر به عنها». انتهى.

تحديد مقادير الآيات

قال بعض العلماء: معرفة الآيات تتوقف على التوقيف(١)، ولا مجال للقياس فيها، واستدل على ذلك بما يأتي: وهو أن العلماء عدُّوا: ﴿ المص ﴾ [الأعراف: ١] آية، ولم يعد نظيرها وهو ﴿ المر ﴾ [الرعد: ١] آية، وعدُّوا ﴿ يس ﴾[يس: ١] آية، ولم يعدوا نظيرها وهو ﴿طس﴾ [النمل: ١] آية، وعدّوا ﴿ حم (١) عسق ﴾ [الشورى: ١، ٢] آيتين، ولم يعدوا نظيرها وهو ﴿ كهيعص ﴾ [مريم: ١] آيتين، بل آية واحدة، فلو كان الأمرُ في ذلك مبنيًا على القياس لكان حُكمُ المثلين فيما ذُكر واحدًا ولم يكن مختلفًا.

وتحديد مقادير الآيات مروي عن النبي ﷺ، وكان المسلمون في عصر النبوة وما بعده يُقدِّرون أحيانًا بعض الأوقات بمقدار ما يقرأ القارئ عددًا من الآيات، كما ورد في حديث سُحور النبي ﷺ أنه كان بينه وبين طلوع الفجر مقدارُ ما يقرأ القارئ خمسين آية. قال الزمخشري: «الآيات علم توقيفي».

ترتيب آيات القرآن

وأما ترتيب الآي بعضها عقب بعض فهو بتوقيف من النبي ﷺ حسب نزول الوحي، ومن المعلوم أن القرآن نزل منجّمًا (أي مفرّقًا)، فربما نزلت عدة آيات متتابعة أو سورة كاملة.

قال الزركشي: «فأما الآيات في كل سورة ووضع البسملة أوائلها فترتيبها توقيفي بلا شك ولا خلاف فيه، ولهذا لا يجوز تعكيسها»، وقال مكي وغيره: «ترتيب الآيات في السور هو من النبي ﷺ، ولمَّا لم يأمر بذلك في أول براءة تُركت بلا بسملة». وقال القاضي أبو بكر: «ترتيب الآيات أمر واجب وحكم لازم؛ فقد كان جبريل يقول: ضعوا آية كذا في موضع كذا».

وفي كتاب «فضائل القرآن» لأبي عبيد عن أبي وائل قيل لابن مسعود: إن فلانًا يقرأ القرآن منكوسًا، فقال: «ذاك منكوس القلب». رواه البيهقي.

ووقف عثمان في جمع القرآن عند موضع كل آية من سورتها في القرآن، ولو كانت منسوخة الحكم لا يغيّرها، وهذا يدل على أن كتابتها بهذا الترتيب توقيفية.

عن ابن الزبير قال: «قلت لعثمان: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا ﴾ [البقرة: ٢٣٤] » قد نسختها الآية الأخرى فلِمَ تكتبها أو تدعها؟ (أي لِمَ تكتبها وهي منسوخة أو لِمَ تدعها مكتوبة وقد نسخت، فـ«أو» للشك من الراوي أي اللفظين قال) قال: «يا ابن أخي، لا أغيّر شيئًا من مكانه». أخرجه البخاري.

قال ابن الحصار: ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها إنما كان بالوحي، كان رسول الله ﷺ يقول: «ضعوا آية كذا في موضع كذا». وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله ﷺ، ومما أجمع الصحابة على وضعه هكذا في المصحف.

وقال مكي بن أبي طالب القيسي: «الذي نذهب إليه أن جميع القرآن الذي أنزله الله وأمر بإثبات رسمه ولم ينسخه، ولا رفع تلاوته بعد نزوله هو هذا الذي بين الدفَّتَين، والذي حواه مصحف عثمان، وإنه لم ينقص منه شيء ولا زيد فيه، وإن ترتيبه ونظمه ثابت على ما نظمه الله، ورتبه عليه رسوله من آي السور، لم يقدَّم من ذلك مؤخَّر ولا أُخِّر منه مقدَّم، وإن الأمة ضبطت عن النبي ﷺ ترتيب آي كل سورة ومواضعها وعرفت مواقعها، كما ضبطت عنه نفس القراءة وذات التلاوة».

وجاءت الأحاديث الدالة على فضل آيات من سور بعينها، ويستلزم هذا أن يكون ترتيبها توقيفيًا؛ إذْ لو جاز تغييرُها لما صدقت عليه الأحاديث، فقد روى مسلم عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف، عصم من الدجال». كما جاءت الأحاديث الدالة على آية بعينها في موضعها، فقد روى مسلم عن عمر قال: ما سألت النبي ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة حتى طعن بإصبعه في صدري وقال: «يكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء».

وثبتت قراءة رسول اللّه ﷺ لسور عديدة بترتيب آياتها في الصلاة أو في خطبة الجمعة كسورة البقرة وآل عمران والنساء، وصح أنه قرأ «الأعراف» في المغرب، وأنه كان يقرأ في صبح الجمعة: «الم» السجدة و«هل أتى على الإنسان» «الدهر»، وكان يقرأ سورة «ق» في الخطبة، ويقرأ «الجمعة» و«المنافقون» في صلاة الجمعة، وكان جبريل يعارض رسول اللّه ﷺ بالقرآن في كل عام مرة في رمضان، وعارضه في العام الأخير من حياته مرتين، وكان ذلك العرض على الترتيب المعروف الآن، وبهذا يكون ترتيب آيات القرآن كما هو في المصحف المتداول في أيدينا توقيفيًا لا مِراءَ في ذلك. قال السيوطي بعد أن ذكر أحاديث السور المخصوصة «تدل قراءته ﷺ لها

بمشهد من الصحابة على أن ترتيب آياتها توقيفي، وما كان الصحابة ليرتبوا ترتيبًا سمعوا النبي ﷺ يقرأ على خلافه، فبلغ مبلغ التواتر».

ترتيب الآي ليس على حسب النزول:

من المجمع عليه أن ترتيب الآيات ليس بحسب نزولها، وإنما يرجع إلى المناسبات والروابط البلاغية، فقد تنزل الآية بعد الآية بسنين وتكون في ترتيب الكتابة قبلها وليس أدل على هذا من تقدم بعض الآيات الناسخة على الآيات المنسوخة، مع أن الناسخ متأخر عن المنسوخ في النزول قطعًا، وذلك مثل آية: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة: ٢٣٤]، فإنها ناسخة لآية: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، فالأولى متقدمة في الترتيب متأخرة في النزول، وكذلك فإن ترتيبه على حسب النزول غير مستطاع لأحد من البشر لأن الله لم يُرِد أن يكون تأليف كتابه المعجز على حسب النزول، وإنما اقتضت حكمته أن يكون على حسب المناسبات البلاغية، وأسرار الإعجاز.

عدد آيات القرآن

اتفق العادُّون لآيات القرآن الكريم من العلماء على أن عددها يزيد على ستة آلاف ومائتي آية إلا أنهم اختلفوا في تحديد الزيادة على هذا العدد المتفق عليه وقد تردد اختلافهم بين الأربع والخمس، والإحدى عشرة، والأربع عشرة، والسبع عشرة، والعشرين، والست والعشرين، والست والثلاثين.

سبب هذا الاختلاف

سبب هذا الاختلاف أن النبي ﷺ كان يقف على رؤوس الآي تعليمًا لأصحابه أنها رؤوس آي، حتى إذا علموا ذلك وصل ﷺ الآية بما بعدها طلبًا لتمام المعنى، فيظن بعض الناس أن ما وقف عليه النبي ﷺ ليس فاصلة، فيصلها بما بعدها معتبرًا أن الجميع آية واحدة، والبعض يعتبرها آية مستقلة فلا يصلها بما بعدها.

وأمر هذا الاختلاف في هذا القدر من العدد أمر هيّن لأنه لا يؤدي إلى زيادة في حروف القرآن أو في معناه، ولا إلى نقص فيهما. وإنما هو محصور في التقسيم العددي فقط.

فوائد معرفة الآيات

قال الزرقاني: «يزعم بعض الناس أنه لا فائدة من معرفة آيات القرآن. وللرد عليه نذكر لهذه المعرفة ثلاث فوائد لا فائدة واحدة:

الفائدة الأولى: العلم بأن كلَّ ثلاث آيات قصار معجزة للنبي ﷺ وفي حكمها الآية الطويلة التي تعدل بطولها تلك الثلاث القصار، ووجه ذلك أن الله تعالى أعلن التحدي بالسورة الواحدة فقال سبحانه: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٣]، والسورة تصدق بأقصر سورة كما تصدق بأطول سورة، وأقصر سورة في القرآن هي سورة الكوثر وهي ثلاث آيات قصار، فثبت أن كل ثلاث آيات قصار معجزة، وفي قوتها الآية الواحدة الطويلة التي تكافئها.

الفائدة الثانية: حسن الوقف على رؤوس الآي عند من يرى أن الوقف على الفواصل سنة بناءً على ظاهر الحديث الذي استدلوا به فيما يرويه أبو داود عن أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا قرأ قطع قراءته آيةً آية، يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم»، ثم يقف، «الحمد لله رب العالمين»، ثم يقف، «الرحمن الرحيم»، ثم يقف. وقد قال بعض العلماء: إن في الاستدلال بهذا الحديث نظرًا؛ لأنه حديث غريب غير متصل الإسناد، والأصح ما رواه الليث عن ابن أبي مليكة عن يعلى ابن مالك أنه سأل أم سلمة عن قراءة رسول الله ﷺ وصلاته، فقالت: ما لكم وصلاتُه؟ ثم نعتت قراءته مفسرة حرفًا حرفًا. ذكر ذلك الترمذي.

أقول: ويمكن الجمع بين هذين الحديثين بأن النبي ﷺ كان تارة يقف على كل فاصلة ولو لم يتم المعنى، بيانًا لرؤوس الآي، وكان تارةً يتبع في الوقف تمام المعنى فلا يلتزم أن يقف على رؤوس الآي، لتكون قراءته مفسرة حرفًا حرفًا.

وإن كان المشهور والمقدم بالنسبة للقارئ الوقف على رؤوس الآي لأنه الأكثر من فعل النبي ﷺ وهو المنقول عنه وهو كذلك سنة متبعة.

الفائدة الثالثة: اعتبار الآيات في الصلاة والخطبة. قال السيوطي ما نصه: «يترتب على معرفة الآي وعددها وفواصلها أحكام فقهية، منها اعتبارها فيمن جهل الفاتحة فإنه يجب عليه بدلها سبع آيات، ومنها اعتبارها في الخطبة، فإنه يجب فيها قراءة آية كاملة، ولا يكفى شطرها إن لم تكن طويلة، وكذا الطويلة على ما حققه الجمهور- ثم قال-: ومنها اعتبارها في السورة التي تقرأ في الصلاة أو ما يقوم مقامها، وفي الصحيح أنه ﷺ كان يقرأ في الصبح بالستين إلى المائة، ومنها اعتبارها في قراءة قيام الليل...» إلى آخر ما قاله. اهـ بتصرف. والحمد لله رب العالمين.

هامش:

(١) التوقيف: هو ما أتى به الشرع، ولم يكن لأحد الحق في الزيادة عليه أو النقصان منه ولا مجال فيه للرأي.

سُوَر القرآن

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وبعد:

السورة في اللغة تطلق على ما ذكره صاحب القاموس بقوله: «والسورة: المنزلة، ومن القرآن معروفة، لأنها منزلة بعد منزلة مقطوعة عن الأخرى، الشرف، وما طال من البناء وحسن، والعلامة» وقال ابن جني: إنما سميت سورة لارتفاع قدرها، لأنها كلام الله تعالى، وفيها معرفة الحلال والحرام، ومنه رجل سوار لأنه يعلو بفعله ويشتط. وجمع السورة من القرآن سور بفتح الواو، وجمع سورة البناء سور بسكونها ويمكن تعريفها اصطلاحا، بأنها طائفة مستقلة من آيات القرآن ذات مطلع ومقطع.

قالوا: وهي مأخوذة من سور المدينة، وذلك إما لما فيها من وضع كلمة بجانب كلمة وآية بجانب آية، كالسور توضع كل لبنة فيه بجانب لبنة ويقام كل صف منه على صف، وإما لما في السورة من معنى العُلُوِّ والرفعة المعنوية الشبيهة بعلُوِّ السُّور ورفعته الحسية.

ورود لفظ سورة في القرآن

ورد لفظ السورة في القرآن الكريم في عشرة مواضع، تسعة منها بلفظ الإفراد وهي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ..﴾ [البقرة:٢٣]، ﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ..﴾ [التوبة:٨٦]، ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ..﴾ [التوبة:٦٤]، ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ..﴾ [التوبة:١٢٤]، ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ..﴾ [التوبة:١٢٧]، ﴿.. قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ..﴾ [يونس:٣٨]، ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا..﴾ [النور:١] ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ..﴾ [محمد:٢٠].

وأما الموضع العاشر فجاء بلفظ الجمع في قوله تعالى: ﴿.. قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ..﴾ [هود:١٣].

عدد سور القرآن

القرآن العظيم يتكون من مائة وأربع عشرة سورة، أولها سورة الفاتحة وآخرها سورة الناس وذلك ما اتفق عليه جمهور الصحابة في تدوينهم للقرآن، واثبتوه في مصحف عثمان الذي هو بأيدي المسلمين وفي صدورهم منذ ذلك التاريخ، وسيظل - بوعد الله - إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ولا اعتداد بما ورد عن مجاهد وغيره من أن عدد السور مائة وثلاث عشرة سورة، معتبرًا الأنفال والتوبة سورة واحدة، لعدم وجود البسملة في أول براءة،

وللتشابه الكبير بين موضوعيهما، لأنه مردود بما ثبت من أن رسول الله ﷺ سمى كلا منهما بذاتها، وباتفاق جمهور الصحابة على العدد الأول وإثباته في المصحف، وبما روي عن ابن عباس وعن علي رضي الله عنهما في حكمة مجيء براءة بدون بسملة.

حكمة سقوط البسملة أول براءة

في المستدرك عن ابن عباس قال: سألت علي بن أبي طالب: لِمِ لَمْ تكتب في براءة «بسم الله الرحمن الرحيم» قال: لأنها أمان، وبراءة نزلت بالسيف ليس فيها أمان.

وقال القشيري: والصحيح أن البسملة لم تكن فيها، لأن جبريل عليه السلام ما نزل بها فيها.

وقيل: كان من شأن العرب في الجاهلية إذا كان بينهم وبين غيرهم عهد، وأرادوا نقضه كتبوا لهم كتابًا، ولم يكتبوا في أوله باسم الله - وكان من عادتهم أن يكتبوا في أول كتبهم باسم الله - فلما نزلت بنقض الذي كان للكفار كانت بدون بسملة، وقرأها عليهم علي رضي الله عنه يوم الحج ولم يبسمل على ما جرت به عادتهم.

أقسام السور

قَسَّمَ العلماء سور القرآن إلى أربعة أقسام، خَصُّوا كلا منها باسم معين، وهي:

١ - الطوال. ٢ - المئين.
٣ - المثاني. ٤ - المفصل.

فالطوال: سبع سور: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام والأعراف فهذه ستة، والسابعة، قيل: هي الأنفال وبراءة معًا لعدم الفصل بينهما بالبسملة، وقيل هي يونس.

والمئون: هي السور التي تزيد آياتها على مائة أو تقاربها.

والمثاني: هي التي تلي المئين في عدد الآيات. وقال الفراء: هي السور التي آياتها أقل من مائة آية لأنها تثني (أي تكرر) أكثر مما تثني الطوال والمئون.

والمفصل: هو أواخر القرآن واختلفوا في تعيين أوله فقيل: من أول سورة «ق» وقيل: من أول «الحجرات» وقيل: غير ذلك.

وسمي بالمفصل لكثرة الفصل بين سُوَره بالبسملة وقيل لقلة المنسوخ منه، ولهذا يسمى المحكم أيضا، كما روى البخاري عن سعيد بن جبير قال: «إن الذي تدعونه المفصل هو المحكم» والمفصل ثلاثة أقسام: طوال، وأوساط، وقصار. فطواله من «أول الحجرات» إلى سورة «البروج» وأوساطه من سورة «الطارق» إلى سورة «لم يكن» وقصاره من سورة «إذا زلزلت» إلى آخر القرآن.

حكمة تسوير السور

لتجزئة القرآن إلى سُور فوائد وحكم:

منها: التيسير على الناس وتشويقهم إلى مدارسة القرآن وحفظه، لأنه لو كان سبيكة واحدة لا حلقات بها لصعب عليهم حفظه وفهمه.

ومنها: الدلالة على موضوع الحديث ومحور الكلام، فإن في كل سورة موضوعًا بارزًا تتحدث عنه كسورة البقرة، وسورة يوسف، وسورة النمل، وسورة الجن.

ومنها: الإشارة إلى أن طول السورة ليس شرطًا في إعجازها، بل هي معجزة وإن بلغت الغاية في القصر كسورة الكوثر وهي ثلاث آيات وهي معجزة إعجاز سورة البقرة.

ثم ظهرت لذلك حكمة في التعليم، وتدريج الأطفال من السور القصار إلى ما فوقها يسيرًا يسيرًا، تيسيرًا من الله تعالى على عباده لحفظ كتابه، فترى الطفل يفرح بإتمام السورة فرح من حصل على حد معتبر. وكذلك المطيل في التلاوة يرتاح عند ختم كل سورة ارتياح المسافر إلى قطع المراحل المسماة، مرحلة بعد مرحلة أخرى. إلا أن لكل سورة نمطا مستقلا، فسورة يوسف تترجم عن قصته، وسورة براءة تترجم عن أحوال المنافقين وكامن أسرارهم وغير ذلك.

وقال الزمخشري: الفوائد في تفصيل القرآن وتقطيعه سورًا كثيرة منها:

- أن الجنس إذا انطوت تحته أنواع وأصناف، كان أحسن وأفخم من أن يكون بابًا واحدًا.

- أن القارئ إذا أتمَّ سورة أو بابًا من الكتاب ثم أخذ في آخر كان انشط له وأبعث على التحصيل منه لو استمرَّ على الكتاب بطوله، ومثله المسافر إذا قطع ميلا أو فرسخًا نفَّس ذلك عنه ونشط للسير، ومن ثم جُزِّئ القرآن أجزاءً وأخماسًا.

- أن الحافظ إذا حفظ السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها فيعظم ومن ثم كانت القراءة في الصلاة بسورة أفضل.

ترتيب السور في المصحف

اختلف في ترتيب السُور على ما هو عليه الآن على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنه كان بتوقيف من النبي ﷺ.

القول الثاني: أنه كان باجتهاد من الصحابة.

القول الثالث: أن ترتيب بعض السور كان بتوقيف من النبي ﷺ وترتيب بعضها كان باجتهاد من الصحابة، وباختصار فإن أمر ترتيب سور القرآن يعتبر من الأمور المشهورة والمستفيضة عن النبي ﷺ والتي أخذها المسلمون وظلوا يأخذونها - من فعله ﷺ - تلاوة وكتابة وتعليمًا على مدى نزول القرآن وترتيبه له ﷺ حسب ما كان يتلقى من جبريل عليه السلام عن الله عز وجل حتى كانت العرضة الأخيرة بينهما والتي استقر عليها القرآن على هذه الصورة التي هو عليها منذ لحق رسول الله ﷺ بربه إلى اليوم.

فاجتهاد بعض الصحابة في ترتيب مصاحفهم الخاصة كان اختيارًا منهم قبل أن يجمع القرآن جمعًا مرتبًا، فلما جمع في عهد عثمان بترتيب الآيات والسور على حرف واحد، واجتمعت الأمة على ذلك تركوا مصاحفهم، ولو كان الترتيب اجتهاديًا لتمسكوا به.

فالثابت أن المصحف الإمام كان على هذا الترتيب، وقالوا: إنه ما ارتضاه زيد بن ثابت ووافقه عليه الشيخان أبو بكر وعمر وصحابة النبي ﷺ وذو النورين عثمان وهو المتبع فلا يغير ولا يبدل، والمصحف الإمام هو الذي يصور العرضة الأخيرة للقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وبهذا يترجح أن ترتيب السور توقيفي كترتيب الآيات، قال أبو بكر بن الأنباري: «أنزل الله القرآن كله إلى سماء الدنيا، ثم فرقه في بضع وعشرين، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث، والآية جوابًا لمستخبر، ويوقف جبريل النبي ﷺ على موضع الآية والسورة فاتّساق السور كاتّساق الآيات والحروف كله عن النبي ﷺ. فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن.

وقال الكرماني في «البرهان» ترتيب السور هكذا هو عند الله في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب وعليه كان ﷺ يعرض على جبريل كل سنة ما كان يجتمع عنده منه. وعرضه عليه في السنة التي توفي فيها مرتين وكان آخر الآيات نزولا: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ..﴾ [البقرة:٢٨١]. فأمره جبريل أن يضعها بين آيتي الربا والدين.

احترام هذا الترتيب:

وسواء أكان ترتيب السور توقيفيًا عن رسول الله ﷺ أم اجتهاديا من الصحابة رضوان الله عليهم فإنه ينبغي احترامه، خصوصا في كتابة المصاحف لأنه عن إجماع الصحابة والإجماع حجة، ولأن خلافه يجرُّ إلى الفتنة، ودرء الفتنة وسدُّ ذرائع الفساد واجب.

أما ترتيب السور في التلاوة، فليس بواجب، إنما هو مندوب. وإليك ما قاله الإمام النووي في كتاب «التبيان»، إذ جاء في هذا الموضوع بما نصه: «قال العلماء: الاختيار أن يقرأ على ترتيب المصحف فيقرأ الفاتحة، ثم البقرة ثم آل عمران، ثم ما بعدها على الترتيب سواء أقرأ في الصلاة أم في غيرها، حتى قال بعض أصحابنا: إذا قرأ في الركعة الأولى سورة «قل أعوذ برب الناس» يقرأ في الثانية بعد الفاتحة من البقرة. وقال بعض أصحابنا إذا قرأ سورة أن يقرأ بعدها التي تليها، ودليل هذا أن ترتيب المصحف إنما جُعل هكذا لحكمة، فينبغي أن يحافظ عليها إلا فيما ورد الشرع باستثنائه كالقراءة في صلاة الصبح يوم الجمعة وصلاة العيد وركعتي الفجر وركعات الوتر، ولو خالف الموالاة فقرأ سورة لا تلي الأولى، أو خالف الترتيب فقرأ سورة قبلها جاز. فقد جاءت بذلك آثار كثيرة منها حديث حذيفة في صحيح مسلم قال: «صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح بالبقرة، فقلت: يركع عند المائة الأولى ثم مضى فقلت يصلي بها في ركعة فمضى، فقلت يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها ثم افتتح آل عمران... الحديث».

وقد نقل ابن حجر في الفتح عن ابن بطال: قال: لا نعلم أحدًا قال بوجوب ترتيب السور في القرآن لا داخل الصلاة ولا خارجها، بل يجوز أن يقرأ الكهف قبل البقرة، والحج قبل الكهف مثلا، وأما ما جاء عن السلف من النهي عن قراءة القرآن منكوسًا فالمراد به أن يقرأ من آخر السورة إلى أولها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

نسخ القرآن

مختارات من علوم القرآن

إعداد/ مصطفى البصراتي

•• الحلقة الأولى ••

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وبعد:

معنى النسخ

النسخ في اللغة قد يُطلقُ على معنى الإزالة، ومنه يقال: نسخت الشمسُ الظل. أي أزالته، ونسخت الريحُ أثر المشي. أي أزالته، ونسخ الشيب الشباب إذا أزاله، والإزالة هي الإعدام وقد يطلق بمعنى نقل الشيء وتحويله من حالة إلى حالة مع بقائه في نفسه.

أما في الإصطلاح فهو (رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر عنه. ويسمى هذا الدليل بالناسخ ويسمى الحكم الأول بالمنسوخ ويسمى هذا الرفع بالنسخ.

والنسخ قد يكون كليا، أي برفع الحكم الأول كله، كما في نسخ القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، وقد يكون جزئيا، أي برفع الحكم السابق عن بعض أفراده الذين كان الحكم ينطبق عليهم ومثاله: قوله تعالى في القذف: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ [النور:٤]، فقد نسخ حكم هذه الآية عند الحنفية بالنسبة للأزواج إذا قذفوا أزواجهم بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور:٦]، فصار حكم الزوج إذا قذف زوجته ولم يكن عنده بيّنة أن يلاعن أي يحلف أمام القاضي أربع مرات بالله تعالى إنه لمن الصادقين فيما رماها به من الزنى، ويحلف الخامسة أن عليه لعنة الله إن كان من الكاذبين. ثم تحلف الزوجة أربع مرات بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماها به من الزنى، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، فإذا تم اللعان بين الزوجين فرق القاضي بينهما، ومثل: أن الله سبحانه قد حكم بأن عدة المتوفى عنها زوجها حول كامل، وذلك بخطاب شرعي وهو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة:٢٤٠] بعد ذلك بزمن رفع هذا الحكم بخطاب متأخر عنه وهو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة:٢٣٤].

الدليل على وقوع النسخ في الشرائع:

وأما ما يدل على وقوع النسخ في الشرائع فيرد بالنسبة إلى من خالف من المسلمين في ذلك بأن الصحابة والسلف أجمعوا على أن شريعة محمد ﷺ ناسخةٌ لجميع الشرائع السالفة، وأجمعوا على نسخ وجوب التوجه إلى بيت المقدس باستقبال الكعبة، وعلى نسخ الوصية للوالدين والأقربين بآية المواريث، ونسخ صوم عاشوراء بصوم رمضان، ونسخ وجوب تقديم الصدقة بين يدي مناجاة النبي ﷺ ووجوب

التربص حولا كاملا على المتوفى عنها زوجها، ووجوب ثبات الواحد للعشرة المستفاد من قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال:٦٥]، بقوله: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الأنفال:٦٦]، إلى غير ذلك من الأحكام المتعددة.

وأما بالنسبة إلى منكر ذلك من اليهود فيردّ عليه بأنه ورد في التوراة أن الله تعالى أمر آدم أن يزوج بناته من بنيه، وقد حَرم ذلك في شريعة من بعده، وأيضا فإن الله تعالى قال لنوح عند خروجه من الفلك: «إني جعلتُ لك كل دابةٍ مأكلا لك ولذريتك وأطلقت ذلك لكم كنبات العشب، ما خلا الدم فلا تأكلوه» وقد حَرَّم كثيرا من الدواب على من بعده من أرباب الشرائع وهو عين النسخ.

والله سبحانه وتعالى قدَّر في غيبه الأول بلا أمد تغيير الشرائع وتبديل الملل على ألسنة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام. واختلاف أحكامها كما أراد، فأتى كلّ رسولٍ قومه بشرع شرعَهُ الله له مخالفٍ لشرع من كان قبله من الرسل بدليل قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤].

سبب وقوع النسخ

ولأجل ما أراد الله من النسخ رفقًا بعباده وصلاحا لهم أنزلَ القرآن شيئًا بعد شيءٍ ولم يُنْزله جملةً واحدةً لأنه لو نزل جملةً واحدةً، لم يَجُزْ أن يكون فيه ناسخٌ ولا منسوخ إذ غير جائز أن يقول في وقتٍ واحدٍ: افعلوا كذا ولا تفعلوا كذا لذلك الشَّيء بعينه. فأنزله تعالى شيئا بعد شيءٍ ليتمَّ مراده في تعبده خلْقَه بما شاء إلى وقت ثم ينقلهم من ذلك التعبُّد إلى غيره في وقتٍ آخر، أو يزيل عنهم التعبد بما أمرهم به بغير عِوَض تخفيفا عليهم لما في ذلك من الصلاح لهم مع أنه كان إنزاله القرآن منجَّما يعني ليس جُملةً أخفَّ في التعبد.

فلو نزل الفرض كُلُّهُ جملة واحدة لشق العمل به ولسبق الحوادث التي من أجلها نزل كثيرٌ من القرآن. فغير جائز أن ينزل قرآن في حادثةٍ يخبر عنها بالحدوثِ ويحكُم فيها وهي لم تقع، فينبغي فهم الأصل الذي عليه ينبني الناسخ والمنسوخ.

قال القاسمي في محاسن التأويل: وقد تقرر أن النسخ في الشرائع جائز، موافق للحكمة وواقع، فإن شرع موسى نسخ بعض الأحكام التي كان عليها إبراهيم. وشرع عيسى نسخ بعض أحكام التوراة، وشريعة الإسلام نسخت جميع الشرائع السابقة لأن الأحكام العلمية التي تقبل النسخ، إنما تشرع لمصلحة البشر والمصلحة تختلف باختلاف الزمان، فالحكيم العليم يشرع لكل زمن ما يناسبه. وكما تنسخ شريعة بأخرى، يجوز أن تنسخ بعض أحكام شريعة بأحكام أخرى في تلك الشريعة.

بيان النص على جواز النسخ للقرآن

قال الله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد:٣٩]، قال ابن عباسٍ وغيرُه: معناه: يمحو ما يشاءَ من أحكام كتابه فينسخه ببدلٍ أو بغير بدل، ويثبتُ ما يشاءُ فلا يمحوه ولا ينسخه ثم قال تعالى ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ قال ابن عباس: معناه: عنده ما ينسخ ويبدل من الآي والأحكام، وعنده ما لا ينسخ ولا يبدل، كل في أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ، ومثل هذا المعنى قال قتادةُ وابنُ زيد وابن جريج وغيرهم في هذه الآية، وقد قيل غيرُ ذلك.

فهذا يَدلُّ على جواز النَّسخ بنصِّ القرآن.

ويدلُّ على جواز النسخ للقرآن أيضا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ [النحل:١٠١]، فهذا نصٌ ظاهرٌ في جواز زوال حُكم آيةٍ ووضْع أخرى موضعَها، وهذا النَّسخُ من قولهم: نسخَت الشَّمسُ الظِّلَّ، إذا أزالته وحلّت محله.

ويَدُل على جواز النَّسخ للقرآن أيضا قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة:١٠٦]، فهذا نصٌ ظاهر في جواز النسخ للقرآن بالقرآن.

والمعنى على قراءة الجماعة: أن الله - جل وعلا - يخبرُ عن نفسه يقول: ما نَرفَع من حُكْم آيةٍ ونبقي تلاوتها أو نُنْسِكَها يا محمد فلا تحفظ تلاوتها نأت بخير منها لكُم، أي نأت بآيةٍ أخرى هي أصلح لكم وأسهل في التعبد أو نأت بمثلها في العمل وأعظم في الأجر، فهذا قول صحيح معروف.

وقد قيل: إن معناها: ما نرفع من حكم آيةٍ وتلاوتها نأت بخير منها، أي أصلح لكم منها.

قال ابن زيد: إنساؤُها: محوُها وتركها.

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى

نسخ القرآن

•• الحلقة الثانية ••

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وبعد:

أركان النسخ

للنسخ ركنان:

١ ـ الناسخ: وهو اسم فاعل من نسخ، أي الناقل، وهو الخطاب الشرعي المتأخر المنافي للمتقدم والمنفصل عنه ويجب العمل به.

٢ ـ المنسوخ: هو اسم مفعول من نُسِخَ، أي المنقول، وهو الخطاب الشرعي المتقدم والمنافي للمتأخر، ولا يجوز العمل به.

بم يعرف الناسخ من المنسوخ

أ ـ بتصريح النبي ﷺ كقوله صلوات الله وسلامه عليه: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة» [رواه مسلم].

ب ـ بتصريح صحابي نحو قول عائشة رضي الله عنها «كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن ثم نسخن بخمس معلومات..» [رواه مسلم].

ج ـ بمعرفة التاريخ أي المتقدم من المتأخر، نحو قوله تعالى: ﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ ﴾ [الأنفال:٦٦]، فلفظ الآن يدل على تأخر الخطاب الشرعي المقترن بها، وكذلك كقول الصحابي رُخِّصَ لنا في كذا فإن الرخصة تكون بعد العزيمة.

شروط النسخ أربعة:

الشرط الأول

أن يكون الحكم المنسوخ قد ثبت بخطاب متقدم، أما لو ثبت الحكم بدليل العقل أو البراءة كاستباحة الناس الخمر على عادة كانت لهم، فرفع ذلك، فإن ذلك ليس بنسخ لأنه لم يثبت الحكم السابق بخطاب متقدم، وكتحديد عدد الزوجات بأربع لأنه لم يكن محددا في الجاهلية بعدد معين، ومشروعية القصاص والدية، وقد كان عند بني إسرائيل القصاص فقط كما قال ابن عباس في رواية البخاري ـ ومثل هذا ليس نسخا، وإنما هو رفع للبراءة الأصلية.

الشرط الثاني

أن يكون الحكم المنسوخ مطلقا لم يُحدَّد بمدة معلومة، فيأتي الناسخ فجأة دون انتظار من المكلفين.

الشرط الثالث

أن يكون الناسخ خطابًا شرعيًا، فلو ارتفع الحكم بموت المكلف أو جنونه أو غير ذلك من العوارض فليس هذا بنسخ.

الشرط الرابع

أن يكون الناسخ منفصلا عن المنسوخ متأخرًا عنه، فإن اتصل واقترن به كالشرط أو الغاية فإنه يسمى تخصيصًا.

وزاد ابن الجوزي شرطا خامسًا هو: أن يكون الحكم في الناسخ والمنسوخ متناقضا فلا

يمكن العمل بهما.

أقسام النسخ أربعة:

النوع الأول: نسخ القرآن بالقرآن

ومثاله نسخ عدة المتوفى عنها زوجها وكان حولا كاملا (أي سنة كاملة) وهو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة:٢٤٠] نُسخ بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة:٢٣٤]، فصارت عدتها إلى أربعة أشهر وعشرة أيام.

النوع الثاني: نسخ القرآن بالسنة

ومثاله نسخ الوصية للوالدين والأقربين الثابتة بالقرآن في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١٨٠]، بقوله ﷺ: «لا وصية لوارث» وقيل إن الآية منسوخة بالكتاب وهذا لا يمنع فإنه من باب توارد الأدلة.

النوع الثالث: نسخ السنة بالقرآن

ومثاله تحويل القبلة من بيت المقدس وهي ثابتة بالسنة إلى الكعبة بقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة:١٤٤].

وكذلك تحريم مباشرة النساء في ليالي رمضان بعد النوم أو صلاة العشاء الآخرة ثبت بالسنة ونسخ بالقرآن.

النوع الرابع: نسخ السنة بالسنة

ومثاله قوله ﷺ: «كنت نهيتكم عن النبيذ في الأوعية فاشربوا فيما شئتم ولا تشربوا مسكرا» [رواه أحمد].

أقسام المنسوخ

المنسوخ من القرآن ينقسم إلى ستة أقسام:

الأول: ما رفع الله جل وعلا - رسمه من كتابه بغير بدل منه (أي بغير آية أخرى) ومنع الإجماع من تلاوته على أنه قرآن، وبقى حكمه مجمعًا عليه، نحو آية الرجم ﴿الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة﴾.

الثاني: ما رفع الله حكمه من الآي بحكم آية أخرى، (وكلاهما ثابت في المصحف) مجمع على تلاوته، وهذا هو الأكثر في المنسوخ، ولا يكونُ في الأخبار على ما قدَّمنا، وقد مضى تمثيلُه في آية الزواني: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ [النساء:١٥] المنسوخة بالجلد المجمع عليه الوارد في سورة النور: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور:٢] وكلاهما باقٍ متلو كُلُّهُ.

الثالث: ما فُرضَ العملُ به لعِلَّةٍ، ثم زال العملُ به لزوال تلك العلة وبقى متلوًا ثابتًا في المصحف نحو قوله: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ [الممتحنة:١١]، أي بأن فرت امرأة أحدكم إلى الكفار مرتدة ولحقت بهم ولم يعطوكم مهرها ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ أي الكفار فغنمتم منهم غنائم ﴿فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ [الممتحنة:١١] أي فأعطوا الذين ذهبت أزواجهم إلى الكفار مثل ما انفقوا عليهم من مهور. وقال: ﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا﴾ [الممتحنة:١٠] أي وطالبوا بمهور نسائكم إذا ارتددن، وليطالبوا بمهور نسائهم اللآئي هاجرن إلى المسلمين.

أمروا بذلك كُلِّه وفُرضَ عليهم لسبب المهادنة التي كانت بين النبي ﷺ وبين قريش في سنة ستٍ في غزوة الحديبية، إذ صدُّوه عن البيت، فلما ذهبت المهادنةُ وزال وقتُها سقط العمل بذلك كله وبقي اللفظ متلوًا ثابتًا في المصحف.

الرابع: ما رفع اللهُ تعالى رسمه من كتابه فلا يُتلى، وأزالَ حكمه، ولم يرفع حفظه من القلوب، ومَنَع الإجماعُ من تلاوته على أنه قرآن. وهذا أيضا إنما يُؤخذُ من طريق الأخبار نحو ما ذكر من حديث عائشة رضي الله عنها - في العشر الرضعات والخمس. فالأمَّةُ مُجمعةٌ على أن حكم العشر غيرُ لازم، ولا معمول به عند أحد. وإنما وقع الاختلاف في التحريم برضعة على نص القرآن في قوله تعالى: ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ﴾ [النساء:٢٣]، أو بخمس رضعاتٍ على قول عائشة أنها نسخت العشر - وكانت مما يتلى.

الخامس: ما حصل من مفهوم الخطاب فنُسخَ بقرآن متلوٍّ وبقى المفهوم ذلك منه متلوًا

نحو قوله: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ فهم من هذا الخطاب أن السُّكْرَ في غير قرب الصلاة جائزٌ فنسخ ذلك المفهوم قوله ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ إلى قوله ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ فحرَّم الخمر، والسُّكرُ: مثل الخمر، وبقي المفهوم ذلك منه متلوًا قد نُسِخَ أيضا بما نُسِخ ما فهم منه، فيكون فيه نسخان: نسخ حكم ظاهرٍ متلوٍّ ونسخُ حُكم ما فهم من مَتْلُوِّه.

السادس: نحو ما نسخ الله من فعل النبيِّ وأصحابه مما كانوا عليه من الكلام في الصلاة فنسخَه الله بقوله: (وقوموا لله قانتين) ونحو (استغفاره) ﷺ لعمه أبي طالب، فنسخَهُ الله بقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة:١١٣] وهو كثير. وقد يدخل في هذا نسخ القبلةِ نحو بيت المقدس ـ على قول من قال: إن النبي صلى إليها (باجتهاده) لا بنصٍّ من الله. فأما من قال: إنه ﷺ ـ صلَّى إليها بأمرٍ من الله له بدليل قوله ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ [البقرة:١٤٣]، فليس من هذا الفصل. وهو من الفصل الثاني لأن (الناسخ والمنسوخ) مَتْلُوَّانِ باقيان.

أقسام الناسخ

الناسخ من القرآن على ثلاثة أقسام:

الأول: أن يكون الناسخُ فرضًا نسخ ما كان فرضا، ولا يجوزُ فعلُ المنسوخ، نحو قوله تعالى ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ [النساء:١٥] فرض الله فيها حبسَ الزانية حتى تموتَ أو يجعلَ الله لها سبيلًا. ثم جعل لها السَّبيل بالحدود في سورة النور بقوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور:٢] ـ فكان الأول فرضًا فنسخه فرْضُ آخر. ولا يجوز فِعْلُ الأول المنسوخ وكلاهُما متلوٌّ.

الثاني: أن يكونَ الناسخُ فرضًا نسخ فرضًا ونحن مخيرون في فعل الأوّل وتركه وكلاهما متلو. وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا﴾ [الأنفال:٦٥] فَفَرَضَ الله على الواحد المؤمن ألا ينهزم لعشرة من المشركين ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾ [الأنفال:٦٦]. ففرض على الواحد المؤمن ألا ينهزم لاثنين من المشركين، فنسخ فرضُ فرضًا وكلاهما متلو. ولو وقف الواحدُ لعشرة من المشركين فأكثر لجاز. فنحنُ مخيرونَ في فعل المنسوخ وتركه، ومن هذا النوع أيضا فرض صوم شهر رمضان نَسَخَ ما كان قد فُرض علينا في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:١٨٣]. قال عطاء وغيرُه: كان جل جلاله قد كتَب على من كان قبلنا صيامَ ثلاثةِ أيام من كُلِّ شهر، وكتبه علينا بقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ثم نَسخَه بفرض صوم شهر رمضان. ونحنُ مخيَّرونَ في صيام ثلاثةِ أيَّام من كُلِّ شهرٍ أو تركِهِ. وفي هذا خلاف. وقد قيل: إن الله جل وعلا ـ فَرَضَ علينا صومَ يوم عاشوراء، كما فرضه على مَن كان قبلنا ثم نَسخَه بفرض صوم شهر رمضان، ونحن مخيرون في صوم يوم عاشوراء أو تركه.

وقت النسخ

النسخ إنما يكون في حياة النبي ﷺ فقط، فلا يجوز بعد وفاته، لأن النسخ يكون بالوحي ولا وحي بعد رسول الله ﷺ ولأن النسخ يجب أن يكون بقوة المنسوخ ولا شيء في قوة الوحي إلا الوحي، وقد انقطع بعد وفاة الرسول الكريم ﷺ.

ما يجوز نسخه من الأحكام وما لا يجوز

أما الأحكام التي يجوز نسخها، فهي الأحكام الفرعية التي تقبل التبديل والتغيير مثل الفرائض والأوامر والنواهي والحدود والعقوبات من الأحكام الدنيا.

أما ما لا يجوز نسخه فهو:

١ ـ الأحكام التي تتعلق بأصول الدين كالإيمان بالله، وملائكته وكتبه ورسله والقدر والأسماء والصفات ومثل حرمة الشرك بالله.

٢ ـ الأحكام الكلية كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحو ذلك.

٣ ـ الأحكام التي لا تحتمل عدم المشروعية وهي أمهات الأخلاق والفضائل كالعدل والأمانة

والصدق، والوفاء وبر الوالدين فهذه حُسْنُها لا تتغير بتغير الأزمان، ولذلك لا يمكن أن تنسخ.

٤ ـ الأحكام التي لا تحتمل المشروعية وهي: أمهات الرذائل، مثل الكذب والظلم والخيانة. والغدر فهذه لا يمكن أن تنسخ لأن قبحها لا تتغير بمرور الزمن.

٥ ـ الأحكام الفرعية التي لحق بها ما جعلها مؤبدة لا يجوز نسخها مثل قوله ﷺ: «الجهاد ماض إلى يوم القيامة» وتحريم زوجاته ﷺ.

٦ ـ كُلَّ ما أخبرنا الله تعالى عنه أنه سيكون أو أنه كان أو وعدنا به أو قصَّ علينا من أخبار الأمم الماضية وما قصَّ علينا من أخبار الجنة والنار والحساب والعقاب والبعث والحشر وخَلْق السموات والأرضين وتخليد الكفار في النار والمؤمنين في الجنة هذا كُلَّهُ وشبَهُه من الأخبار لا يجوز نسخه لأنه سبحانه يتعالى أن يخبر عن الشيء على غير ما هو به.

لا يجوز في ذلك كُلِّه أن يُنْسخ ببدل منه.

فهذه الأحكام لا يتصور أن تكون في وقت أو حال أو ظرف على صفة تستدعي تبديلها أو تغييرها، فهي ثابتة مهما تغيرت الظروف والأحوال والأزمان.

فأما جوازُ أن يُنسَخَ ذلك كُله بإزالة حفظه من الصدور ـ ونعوذ بالله من ذلك ـ فذلك جائزٌ في قدرته تعالى يفعل ما يشاء.

شُبَهُ النَّسخ

وللناسخ والمنسوخ أمثلة كثيرة إلا أن العلماء في هذا:

أ ـ منهم المكثر الذي اشتبه عليه الأمر فادخل في النسخ ما ليس منه.

ب ـ ومنهم المتحري الذي يعتمد على النقل الصحيح في النسخ.

ومنشأ الاشتباه عند المكثرين أمور أهمها:

١ ـ اعتبار التخصيص نسخًا ـ ومثال التخصص ـ قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة:٢٢٨]، فهو عام في كل مطلقة حاملا كانت أو غير حامل، مدخولا بها أو غير مدخول بها، خُصَّ بقوله ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:٤].

وبقوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾ [الأحزاب:٤٩] فاشتبه على هؤلاء أن هذا التخصيص ناسخا.

٢ ـ اعتبار البيان نسخا (هو ما يعرف في كتاب الله المعجز «بمطلق القرآن ومقيده») والمطلق هوما دل على الحقيقة بلا قيد، فهو يتناول واحدا لا بعينه من الحقيقة، كلفظ (رقبة) في مثل (فتحرير رقبة) فإنه يتناول عتق إنسان مملوك ـ وهو شائع في جنس العبيد مؤمنهم وكافرهم على السواء، لأن المعنى: فعليه تحرير رقبة. أما المقيد فهو ما دل على الحقيقة بقيد، كالرقبة المقيدة بالإيمان في قوله تعالى: ﴿فتحرير رقبة مؤمنة﴾ فاشتبه على هؤلاء أن هذا نسخٌ.

٣ ـ اعتبار ما شرع لسبب ثم زال السبب من المنسوخ، كالحث على الصبر وتحمل أذى الكفار في مبدأ الدعوة حين الضعف والقلة، ففرض الله على الواحد المؤمن ألا ينهزم لعشرة من المشركين لقوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا﴾ [الأنفال:٦٥] ثم حينما زال الضعف والقلة وصار المسلمون كثرة في العدد والقوة نزل التخفيف في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾ [الأنفال:٦٦] فإذا وجدت الكثرة والقوة وجب الدفاع عن العقيدة بالقتال وهو الحكم الثاني، ولو وقف الواحد لعشرة من المشركين لجاز وهو الحكم الأول وكلاهما متلوّ فنحن مخيرون في فعل الحكم الثاني وتركه ولا يعتبر ناسخًا كما شُبِّه على هؤلاء.

٤ ـ اعتبار ما أبطله الإسلام من أمر الجاهلية أو من شرائع الأمم السابقة نسخا كتحديد الزوجات بأربع، ومشروعية القصاص والدية، وقد كان عند بني إسرائيل القصاص فقط كما في البخاري عن ابن عباس ـ وكما مر بك أن من شروط النسخ أن يكون الحكم المنسوخ قد ثبت بخطاب متقدم. ومثل هذا ليس نسخًا. والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين.

مراحل تنزيل القرآن وكيفياتها

إعداد: مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه.. وبعد:

فقد أنزل الله القرآن على رسولنا محمد ﷺ لهداية البشرية، فكان نزوله حدثًا جللاً يؤذن بمكانتـه لدى أهل السمـاء وأهل الأرض، ومما لا خلاف فيه أن العلم بنزول القرآن مهم للغاية لأنه أساس للإيمان به وأنه كلام الله سبحانه وتعالى.

ويستفاد من الأخبار الصحيحة والآراء الموثوق بها من العلماء أن القرآن الكريم نزل من لدن الحق تبارك وتعالى على ثلاث مراحل أو ثلاث تنزلات:

التنزيل الأول

هو صدور القرآن وانبثاقه من الذات الإلهية إلى اللوح المحفوظ وذلك أمر من الأمور الغيبية الأزلية التي جاء بها الخبر الصادق ولزمنا الإيمان بها دون علم بكيفيتها إذ لا يعلم كيفية ذلك إلا الله تعالى، وكان هذا التنزيل جملة لا مفرقًا، والله تعالى يقول: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾.

والظاهر أن تنزل القرآن إلى اللوح المحفوظ كان بطريقة وفي وقت لا يعلمها إلا الله، وكان جملة لا مفرقًا فوجب الإيمان به مع تفويض علم كيفيته إلى الله عز وجل. وربما يسأل سائل ويقول: ما الحكمة في تنزل القرآن إلى اللوح المحفوظ؟

والجواب: أن الحكمة في هذا التنزل ترجع إلى الحكمة العامة من وجود اللوح المحفوظ نفسه، حيث جعله الله سجلاً جامعًا لكل ما قضى الله وقدّر وكل ما كان وما يكون فهو شاهد ناطق ومظهر من أروع المظاهر الدالة على عظمة الله سبحانه وتعالى.

أما التنزيل الثاني

فكان من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فقد دلت هذه الآيات الثلاث على أن القرآن أنزل في ليلة واحدة توصف بأنها مباركة أخذًا من آية الدخان، وتسمى ليلة القدر أخذًا من آية القدر، وهي من ليالي شهر رمضان أخذًا من آية البقرة، وإنما قلنا ذلك جمعًا بين هذه النصوص في العمل بها، ومعلوم بالأدلة القاطعة أن القرآن أنزل على النبي ﷺ مفرقًا لا في ليلة واحدة، بل على مدى سنين عديدة، فيتعين أن يكون هذا النزول الذي نوهت به الآيات الثلاث نزولاً آخر غير النزول على النبي ﷺ، وقد جاءت الأخبار الصحيحة مبينة لمكان هذا النزول، وأنه بيت العزة من السماء الدنيا، فعن ابن عباس أنه قال: «فصل القرآن من الذكر فوضع في بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على

النبي ﷺ».

وعن ابن عباس أيضًا قال: أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا، وكان بمواقع النجوم، وكان الله ينزله على رسوله ﷺ بعضه في أثر بعض.

وقد ذكر الحافظ السيوطي في كتابه الإتقان روايات عن ابن عباس بهذا المعنى وقال: أسانيدها كلها صحيحة، وهذا لا يقوله ابن عباس بمحض الرأي والاجتهاد، بل له حكم المرفوع. وإذا كانت هذه الآيات لا تنافي بينها فهي لا تتنافى في الواقع الثابت من أنه نزل على النبي ﷺ في غير شهر رمضان وليلة القدر؛ لأن ذلك في نزوله إلى السماء الدنيا كما علمت، وهذا في نزوله على النبي ﷺ منجمًا (أي مفرقًا) بحسب الوقائع والأحوال وجواب الأسئلة والأمثال في عشرين سنة، أو ثلاث وعشرين سنة، أو خمس وعشرين سنة، على الخلاف في مدة إقامته في مكة بعد البعثة، وهذا البيان الذي ذكرناه في المراد من الآيات المذكورة وطرق الجمع بينها هو الصحيح المعتمد حتى حكى بعضهم الإجماع عليه.

التنزيل الثالث

وهو المرحلة الأخيرة التي منها شع النور على العالم، ووصلت هداية الله إلى الخلق، وكان النزول بواسطة أمين الوحي جبريل يهبط به على قلب النبي ﷺ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣- ١٩٥]، حيث كان ينزل به مفرقًا على حسب الحوادث والأحوال حسب مشيئة الله تعالى فيوحي به إلى النبي ﷺ، حيث كان الله تعالى يجمعه له في صدره، وينطقه على لسانه، وصدق الله العظيم: ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾، ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾.

وقد دام هذا التنزيل ثلاثة وعشرين سنة حيث ابتدأ من بدء الوحي بالآيات الأولى وانتهى بآخر ما أنزل من القرآن قبيل وفاته.

حكمة تعدد التنزلات

وقد استنبط العلماء لتعدد تنزلات القرآن الكريم حكمًا كثيرة نجتزئ بذكر بعضها حيث لا يخلو بعضها من تكلف، وفوق ذلك كله حكمة العليم الحكيم سبحانه.

يقول السيوطي في الإتقان نقلاً عن الزركشي في البرهان، كما حكاه الزرقاني في مناهل العرفان: فإن قيل: ما السر في إنزاله جملة إلى السماء الدنيا؟ قيل: فيه تفخيم لأمره وأمر من نزل عليه وذلك بإعلان سكان السماوات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل، لأشرف الأمم، ولقد قربناه إليهم لننزله عليهم، ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم منجمًا «مفرقًا» بحسب الوقائع لهبط به إلى الأرض جملة- كسائر الكتب المنزلة قبله- ولكن الله باين بينه وبينها فجعل له الأمرين: إنزاله جملة، ثم إنزاله مفرقًا، تشريفًا للمنزل عليه.

قال السيوطي: ذكر ذلك أبو شامة في المرشد الوجيز.

وقال السخاوي في

جمال القراء: في نزوله إلى السماء جملة تكريم بني آدم وتعظيم شأنهم عند الملائكة، وتعريفهم عناية الله بهم ورحمته لهم، ولهذا المعنى أمر سبعين ألفًا من الملائكة أن تشيع سورة الأنعام، وزاد سبحانه في هذا المعنى بأن أمر جبريل بإملائه على السفرة الكرام وإنساخهم إياه وتلاوتهم له. قال: وفيه أيضًا التسوية بين نبينا محمد ﷺ وبين موسى عليه السلام في إنزاله كتابه جملة، والتفصيل لنبينا محمد في إنزاله عليه مفرقًا ليحفظه.

ثم يتابع الزرقاني فيقول: وفي تعدد النزول وأماكنه مرة في اللوح، وأخرى في بيت العزة، وثالثة على قلب النبي ﷺ، في ذلك التعدد مبالغة في نفي الشك عن القرآن، وزيادة الإيمان به، وباعث على الثقة فيه؛ لأن الكلام إذا سجل في سجلات متعددة وصحت له وجودات كثيرة، كان ذلك أنفى للريب عنه، وأدعى إلى تسليم ثبوته، وأدنى إلى وفرة الإيقان به مما لو سجل في سجل واحد أو كان له وجود واحد.

أول ما نزل من القرآن

أول ما نزل من القرآن على وجه الإطلاق قطعًا الآيات الخمس الأولى من سورة العلق وهي قوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١- ٥]، ثم فتر الوحي مدة ثم نزلت الآيات الخمسُ الأولى من سورة المدثر، وهي قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ [المدثر: ١- ٥].

ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي قالت: حتى جاءه الحقُ، وهو في غار حراء، فجاءه المَلَكُ فقال: اقرأ، فقال النبي ﷺ: «ما أنا بقارئ» أي: لست أعرف القراءة، فذكر الحديث، وفيه ثم قال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ إلى قوله: ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١- ٥]، وفيهما عن جابر رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: وهو يحدث عن فترة الوحي: «بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء...» فذكر الحديث، وفيه: فأنزل الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ [المدثر: ١- ٥].

وهناك آيات يقال فيها: أول ما نزل، والمراد أول ما نزل باعتبار شيء معين، فتكون أولية مقيدة مثل: حديث جابر رضي الله عنه في «الصحيحين» أن أبا سلمة بن عبد الرحمن سأله: أي القرآن أُنزل أول؟ قال جابر: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ قال أبو سلمة: انبئت أنه: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ فقال جابر: لا أخبرك إلا بما قال رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «جاورت في حراء فلما قضيت جواري هبطت...» فذكر الحديث، وفيه: «فأتيت خديجة فقلت: دثروني، وصبُّوا عليَّ ماءً باردًا، وأنزل عليّ: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾، فهذه الأولية التي ذكرها جابر رضي الله عنه باعتبار أول ما نزل بعد فترة الوحي، أو أول ما نزل في شأن الرسالة؛ لأن ما نزل من سورة «اقرأ» ثبت به نبوة النبي ﷺ، وما نزل من سورة المدثر ثبت به الرسالة في قوله: ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ [المدثر: ٢]، ولهذا قال أهل العلم: إن النبي ﷺ نُبِّئ بـ ﴿ اقْرَأْ ﴾ [العلق: ١]، وأرسل بـ ﴿ الْمُدَّثِّرُ ﴾ [المدثر: ١].

رزقني الله وإياكم العلم النافع والعمل الصالح. والله من وراء القصد.

مختارات من علوم القرآن

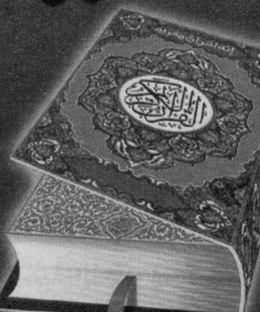

نزول القرآن منجما «مفرقا»

بقلم

مصطفى البصراتي

يقول تعالى في التنزيل: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢- ١٩٥].

ويقول: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢]، ويقول: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجاثية: ٢]، ويقول: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، ويقول: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧].

فهذه الآيات ناطقة بأن القرآن الكريم كلام الله بألفاظه العربية، وأن جبريل نزل به على قلب رسول الله ﷺ، وأن هذا النزول غير النزول الأول إلى سماء الدنيا، فالمراد به نزوله منجمًا «مفرقًا»، ويدل التعبير بلفظ التنزيل دون الإنزال على أن المقصود النزول على سبيل التدرج والتنجيم، فإن علماء اللغة يفرقون بين الإنزال والتنزيل، فالتنزيل لما نزل مفرقًا، والإنزال أعم. وقد نزل القرآن منجمًا في ثلاث وعشرين سنة منها ثلاث عشرة بمكة على الرأي الراجح، وعشر بالمدينة، وجاء التصريح بنزوله مفرقًا في قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]، أي جعلنا نزوله مفرقًا كي تقرأه على الناس على مهل وتثبت، ونزلناه تنزيلاً بحسب الوقائع والأحداث.

أما الكتب السماوية الأخرى- كالتوراة والإنجيل والزبور- فكان نزولها جملة ولم تنزل مفرقة، يدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]، فهذه الآية دليل على أن الكتب السماوية السابقة نزلت جملة، وهو ما عليه جمهور العلماء، ولو كان نزولها مفرقًا لما كان هناك ما يدعو الكفار إلى التعجب من نزول القرآن منجمًا، فمعنى قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ هلا أنزل عليه القرآن دفعة واحدة كسائر الكتب؟ وما له أنزل على التنجيم؟ ولم أنزل مفرقًا؟ ولم يرد الله عليهم بأن هذه سنته في إنزال الكتب السماوية كلها كما رد عليهم في قولهم: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧] بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وكما رد عليهم في قولهم: ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] بقوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء: ٧]، بل أجابهم الله تعالى ببيان وجه الحكمة من تنزيل القرآن منجمًا بقوله: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾، أي: كذلك أنزل مفرقًا لحكمة تقوية قلب رسول الله، ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ أي: قدرناه آية بعد آية بعضه إثر بعض، أو بيناه تبيينًا، فإن إنزاله مفرقًا حسب الحوادث أقرب إلى الحفظ والفهم وذلك من أعظم أسباب التثبت.

والذي استقرئ من الأحاديث الصحيحة أن القرآن كان ينزل بحسب الحاجة خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل، وقد صح نزول العشر آيات في قصة الإفك جملة، وصح نزول عشر آيات في أول المؤمنين جملة، وصح نزول «غير أولي الضرر» وحدها

وهي بعض آية.

الحكمة من نزول القرآن منجماً

الحكمة الأولى: تثبيت قلب النبي ﷺ:

لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢، ٣٣].

لقد وجه رسول الله ﷺ دعوته إلى الناس، فوجد منهم نفورًا وقسوة، وتصدى له قوم غلاظ الأكباد فُطروا على الجفوة، وجبلوا على العناد، يتعرضون له بصنوف الأذى والعنت مع رغبته الصادقة في إبلاغهم الخير الذي يحمله إليهم، حتى قال الله فيه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

فكان الوحي يتنزل على رسول الله ﷺ فترة بعد فترة، بما يثبت قلبه على الحق، ويشحذ عزمه للمضي قدمًا في طريق دعوته، لا يبالي بظلمات الجهالة التي يواجهها من قومه.

يبين الله له سنته في الأنبياء السابقين الذين كذبوا وأوذوا فصبروا حتى جاءهم نصر الله وأن قومه لم يكذبوه إلا علوًا واستكبارًا، فيجد عليه الصلاة والسلام في ذلك السنة الإلهية في موكب النبوة عبر التاريخ التي يتأسى بها تسلية له إزاء أذى قومه، وتكذيبهم إياه، وإعراضهم عنه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٣، ٣٤]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤]، ويأمره القرآن بالصبر كما صبر الرسل من قبله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

ويطمئن نفسه بما تكفل الله به من كفايته أمر المكذبين، ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ [المزمل: ١٠- ١١]، وهذا هو ما جاء في حكمة قصص الأنبياء بالقرآن: ﴿وَكُلاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]، وكلما اشتد ألم رسول الله ﷺ لتكذيب قومه، وداخله الحزن لأذاهم نزل القرآن دعمًا وتسلية له، يهدد المكذبين بأن الله يعلم أحوالهم، وسيجازيهم على ما كان منهم: ﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [يس: ٧٦]، ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يونس: ٦٥]، كما يبشره الله تعالى بآيات المنعة والغلبة والنصر: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ٣]، ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

وهكذا كانت آيات القرآن تتنزل على رسول الله ﷺ تباعًا تسلية له بعد تسلية وعزاء بعد عزاء، حتى لا يأخذ منه الحزن مأخذه ولا يستبد به الأسى، ولا يجد اليأس إلى نفسه سبيلاً، فله في قصص الأنبياء أسوة، وفي مصير المكذبين سلوى، وفي العدة بالنصر بشرى، وكلما عرض له شيء من الحزن بمقتضى الطبع البشري تكررت التسلية فثبت قلبه على دعوته، وأطمأن إلى النصر.

وهذه الحكمة هي التي رد الله بها على اعتراض الكفار في تنجيم القرآن بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان: ٣٢].

قال أبو شامة: «فإن قيل: ما السِّرُّ في نزله منجمًا؟ وهلا أنزل كسائر الكتب جملة؟ قلنا: هذا سؤال قد تولى الله جوابه، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ يعنون: كما أنزل على من قبله من الرسل، فأجابهم تعالى بقوله: «كذلك» أي أنزلناه مفرقًا ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي لنقوى به قلبك، فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى للقلب، وأشد عناية بالمرسل إليه، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك إليه، وتجدد العهد به، وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة، ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان لكثرة لقياه جبريل».

الحكمة الثانية: التحدي والإعجاز:

فالمشركون تمادوا في غيهم، وبالغوا في عتوهم، وكانوا يسألون أسئلة تعجيز وتحدٍ يمتحنون بها رسول الله ﷺ في نبوته ويسوقون له من ذلك كل عجيب من باطلهم، كعلم الساعة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، واستعجال العذاب: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧]، فيتنزل القرآن بما يبين وجه الحق لهم، وبما هو أوضح معنى في مؤدى أسئلتهم كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣] أي: ولا يأتونك بسؤال عجيب من أسئلتهم الباطلة إلا أتيناك نحن بالجواب الحق، وبما هو أحسن معنى من تلك الأسئلة التي هي مثل في البطلان.

الحكمة الثالثة: مسايرة الحوادث والطوارئ في تجددها وتفرقها:

فكلما جدّ منهم جديد نزل من القرآن ما يناسبه، وفصّل لهم الله من أحكامه ما يوافقه، وتشتمل هذه الحكمة على أمور أربعة:

أولها: إجابة السائلين عن أسئلتهم عندما يوجهونها إلى الرسول ﷺ سواء أكانت تلك الأسئلة لغرض التثبت من رسالته كما قال تعالى في جواب سؤال أعدائه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥]، أم كانت لغرض التنور ومعرفة حكم الله كقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة:

٢١٩].

ثانيها: مجاراة الأقضية والحوادث في حينها ببيان حكم الله فيها عند حدوثها، ومعلوم أن تلك الأقضية والحوادث لم تقع جملة واحدة وإنما وقعت متفرقة.

ومن ثم كان لا بد من نزول القرآن مفرقًا على حسب هذه الأقضية والوقائع، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١].

ثالثها: لفت أنظار المسلمين إلى تصحيح الأخطاء التي كانوا فيها، مثال ذلك: قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٢١]، فقد نزل هذا القول الكريم في غزوة أحد إرشادًا للمسلمين إلى موقع الخطأ الذي وقعوا فيه.

رابعها: كشف حال أعداء الله المنافقين، وهتك أستارهم للنبي ﷺ والمسلمين، ويظهر هذا واضحًا من قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٨- ٢٠]. فالآيات المذكورة فضحت المنافقين وكشفت أستارهم.

الحكمة الرابعة: التدرج في تشريع الأحكام:

وذلك حتى يصل إلى درجة الكمال، فالله عز وجل لم يكلف عباده ما لا يطيقونه، بل سلك بهم طريقًا وسطًا، فاهتم القرآن أولاً بزرع وتثبيت العقيدة في النفوس، ولم يكلفهم من العبادات في مكة إلا القليل، فالصلاة لم تفرض عليهم إلا قبل الهجرة بقليل، ثم فرض الصيام والزكاة في السنة الثانية من الهجرة، ثم فرض الحج في السنة السادسة من الهجرة.

ولم يحرم القرآن عليهم ما كان يجري في نفوسهم جرى الدم في العروق مرة واحدة، كما في آيات الخمر الذي نشأ الناس عليه، وألفوه، وكان من الصعب عليهم أن يُجابهُوا بالمنع منه منعًا باتًا، فنزل في شأنه أولاً قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، فكان في هذه الآية تهيئة للنفوس لقبول تحريمه، حيث إن العقل يقتضي أن لا يمارس شيئًا إثمه أكبر من نفعه، ثم نزل ثانيًا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، فكان في هذه الآية تمرين على تركه في بعض الأوقات وهي أوقات الصلوات، ثم نزل ثالثًا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٠- ٩٢]، فكان في هذه الآيات المنع من الخمر منعًا باتًا في جميع الأوقات، بعد أن هُيئت النفوس، ثم مرنت على المنع منه في بعض الأوقات، وكذا الربا لم يحرمه القرآن إلا بعد الهجرة أيضًا.

الحكمة الخامسة: تنشيط الهمم لقبول ما نزل من القرآن وتنفيذه:

حيث يتشوق الناس بلهف وشوق إلى نزول الآية، لا سيما عند اشتداد الحاجة إليها كما في آيات الإفك واللعان.

الحكمة السادسة: تيسير حفظه وفهمه:

لقد نزل القرآن الكريم على أمة أمية لا تعرف القراءة والكتابة، سجلها ذاكرة حافظة ليس لها دراية بالكتابة والتدوين حتى تكتب وتدون، ثم تحفظ وتفهم، ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فما كان للأمة الأمية أن تحفظ القرآن كله بيسر لو نزل جملة واحدة، وأن تفهم معانيه وتتدبر آياته، فكان نزوله مفرقًا خير عون لها على حفظه في صدورها وفهم آياته، كلما نزلت الآية أو الآيات حفظها الصحابة، وتدبروا بيانها ووقفوا عند أحكامها، واستمر هذا منهجًا للتعليم في حياة التابعين، عن أبي نضرة قال: «كان أبو سعيد الخدري يعلمنا القرآن خمس آيات بالغداة، وخمس آيات بالعشي، ويخبران جبريل نزل بالقرآن خمس آيات خمس آيات». أخرجه ابن عساكر. وعن خالد بن دينار قال: «قال لنا أبو العالية: تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات فإن النبي ﷺ كان يأخذه من جبريل خمسًا خمسًا». أخرجه البيهقي. وعن عمر قال: «تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات فإن جبريل كان ينزل بالقرآن على النبي ﷺ خمسًا خمسًا». أخرجه البيهقي في شعب الإيمان.

الحكمة السابعة: الدلالة القاطعة على أن القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد:

إن هذا القرآن الذي نزل منجمًا على رسول الله ﷺ في أكثر من عشرين تنزل الآية أو الآيات على فترات من الزمن يقرؤه الإنسان ويتلو سُوَرَهُ فيجده مُحكم النسج، مترابط المعاني، رصين الأسلوب، متناسق الآيات والسور، كأنه عقد فريد نظمت حباته بما لم يعهد له مثيل في كلام البشر: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، ولو كان هذا القرآن من كلام البشر قيل في مناسبات متعددة، ووقائع متتالية، وأحداث متعاقبة، لوقع فيه التفكك والانفصام، واستعصي أن يكون بينه التوافق والانسجام: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. هذا والله أعلم.

مختارات من علوم القرآن

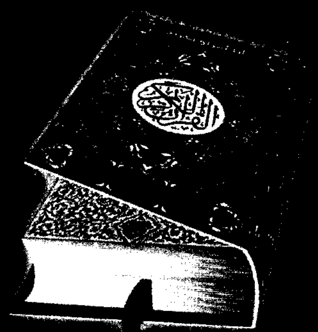

أسباب النزول

بقلم
مصطفى البصراتي

مع سلسلة مختارات من علوم القرآن والتي نحاول بحول من الله تعالى أن نُقرّب من خلالها علوم القرآن بين يدي الأمة، فنواصل الحديث معكم إن شاء الله تعالى هذا العام لنقف مع القارئ الكريم مع علم من علوم القرآن الكريم أصيل هو علم أسباب النزول.

والذي ينقسم نزول القرآن إلى قسمين:

القسم الأول: ابتدائي

وهو ما لم يتقدم نزوله سبب يقتضيه وهو غالب آيات القرآن، وهو ما نزل ابتداءً بعقائد الإيمان وواجبات الإسلام وما نزل ليهدي الإنسانية إلى المحجة الواضحة، ويرشدها إلى الطريق المستقيم ويقيم لها أسس الحياة الفاضلة التي تقوم دعامتها على الإيمان بالله ورسالاته ويقرر أحوال الماضي، ووقائع الحاضر وأخبار المستقبل وأكثر القرآن نزل ابتداءً لهذه الأهداف العامة.

القسم الثاني: سببي

وهو ما نزل مرتبطًا بسبب من الأسباب الخاصة وهو موضوع البحث الآن:

والسبب:

أ- إما سؤال يجيب الله عنه، مثل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وسواء أكان ذلك السؤال المرفوع إلى النبي ﷺ يتصل بأمر مضى نحو قوله سبحانه في سورة الكهف: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ [آية: ٨٣] أم يتصل بحاضر أو مستقبل إلى غير ذلك.

ب- أو حادثة وقعت تحتاج إلى بيان وتحذير مثل: قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥] الآيتان نزلتا في رجل من المنافقين قال في غزوة تبوك في مجلس: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء، يعني رسول الله ﷺ وأصحابه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، ونزل القرآن فجاء الرجل يعتذر إلى النبي ﷺ فيجيبه بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: ٦٥].

ج- أو فعل واقع يحتاج إلى معرفة حكمه، مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

د- أو تمنيًا من التمنيات، كموافقات عمر رضي الله عنه، ومن أمثلتها ما أخرجه البخاري وغيره عن أنس رضي الله عنه قال: قال عمر رضي الله عنه: وافقت ربي في ثلاث: قلت: يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم

مصلى، فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البرُّ والفاجرُ، فلو أمرتهن أن يحتجبن، فنزلت آية الحجاب، واجتمع على رسول الله نساؤه في الغيرة، فقلت لهن: «عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجًا خيرًا منكن»، فنزلت كذلك، وهذه في سورة التحريم [الآية: ٥].

طريق معرفة سبب النزول

لا طريق لمعرفة أسباب النزول إلا النقل الصحيح، والعلماء يعتمدون في معرفة سبب النزول على صحة الرواية عن رسول الله ﷺ، أو عن الصحابة فإن إخبار الصحابي عن مثل هذا إذا كان صريحًا لا يكون بالرأي، بل يكون له حكم المرفوع، قال الواحدي: «لا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الأسباب، وبحثوا في علمها وجدّوا في الطلب» وهذا هو نهج علماء السلف، فقد كانوا يتورعون عن أن يقولوا شيئًا في ذلك دون تثبت، قال محمد بن سيرين: سألت عبيدة عن آية من القرآن، فقال: اتق الله وقل سدادًا، ذهب الذين يعلمون فيما أنزل الله من القرآن. وهو يعني الصحابة، وإذا كان هذا هو قول «ابن سيرين» وهو من أعلام علماء التابعين تحريًا للرواية، ودقة في الفصل، فإنه يدل على وجوب الوقوف عند أسباب النزول الصحيحة، ولذا فإن المعتمد من ذلك فيما روى من أقوال الصحابة ما كانت صيغته جارية مجرى المسند بحيث تكون هذه الصيغة جازمة بأنها سبب النزول.

التعبير عن سبب النزول

تختلف عبارات القوم في التعبير عن سبب النزول، فتارة يُصرِّح فيها بلفظ السبب فيقال: «سبب نزول الآية كذا»، وهذه العبارة نصٌّ في السببية لا تحتمل غيرها، وتارة لا يُصرِّحُ بلفظ السبب ولكن يُؤتي بفاء داخلةٍ على مادة نزول الآية عقب سَرْد حادثة، وهذه العبارة مثل تلك في الدلالة على السببية أيضًا.

ومثاله ما أخرجه مسلم عن جابر قال: كانت اليهود تقول: «من أتى امرأته من دُبرها في قُبلها جاء الولد أحول»، فأنزل الله: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

وما أخرجه البخاري عن ابن عمر قال: «أنزلت: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ في إتيان النساء في أدبارهن، فالمعول عليه في بيان السبب هو رواية جابر الأولى، لأنها صريحة في الدلالة على السبب، ومرةً يُسأل الرسول، فيوحَى إليه ويُجيب بما نزل عليه ولا يكون تعبيرٌ بلفظ سبب النزول، ولا تعبيرٌ بتلك الفاء، ولكن السببية تُفهم قطعًا من المقام، مثاله ما أخرجه البخاري عن ابن مسعود قال: «كنتُ أمشي مع النبي ﷺ بالمدينة، وهو يتوكأ على عسيب فمرَّ بنفر من اليهود، فقال بعضهم: لو سألتموه فقالوا: حدِّثنا عن الروح، فقام ساعة ورفع رأسه فعرفت أنه يوحى إليه حتى صعد الوحي، ثم قال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وما أخرجه الترمذي وصححه عن ابن عباس قال: «قالت قريش لليهود أعطونا شيئًا نسأل هذا الرجل، فقالوا: اسألوه عن الرُّوح، فسألوه، فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾، فهذا الخبر الثاني يدلُ على أنها نزلت بمكة، وأن سبب نزولها سؤال قريش إياه، أما الأول فصريح في أنها نزلت بالمدينة بسبب سؤال اليهود إياه، وحكم هذا أيضًا حكم ما هو نصٌّ في السببية.

ومرة أخرى لا يُصرح بلفظ السبب ولا يؤتى بتلك الفاء، ولا بذلك الجواب المبني على سؤال، بل يقال: نزلت هذه الآية في كذا (مثلاً)، وهذه العبارة ليست نصًا في السببية، بل تحتملها وتحتمل أمرًا آخر، هو بيان ما تضمنته الآية من الأحكام. والقرائن وحدها هي التي تعيِّن أحد هذين الاحتمالين أو تُرجِّحه.

ومن هنا نعلم أنه إذا وردت عبارتان في موضوع واحد: إحداهما نص في السببية لنزول آية أو آيات، والثانية ليست نصًا في السببية لنزول تلك الآية أو الآيات هنالك نأخذ في السببية بما هو نصٌ، ونحمل الأخرى على أنها بيان لمدلول الآية لأن النصَّ أقوى في الدلالة من المحتمل.

وللحديث بقية بإذن الله تعالى.

مختارات من علوم القرآن

أسباب النزول

الحلقة الثانية

إعداد

مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن اهتدى بهداه وبعد:وقفنا في الحلقة السابقة مع علم أسباب النزول، وذكرنا أنه ينقسم إلى قسمين؛ ابتدائي وسببي، وقلنا أن الطريق الوحيد لمعرفة أسباب النزول هو النقل الصحيح، وأوضحنا أن سبب النزول قد يُعَبّر عنه بالتصريح بلفظ السبب فيقال «سبب نزول الآية كذا» أو يُفهم من المعنى بأن يُقال «نزلت هذه الآية في كذا»، وقد يؤتى بفاء داخلة على مادة نزول الآية فيقال: «فأنزل الله» أو تأتي الآيات جوابًا على سؤال.

وفي هذه الحلقة إن شاء الله تعالى نذكر من صور أسباب النزول.

أولا: تعدد الأسباب والنازل واحد

قد تتعدد الروايات في سبب نزول آية واحدة وهذه الحالة لها صور أربع :

الصورة الأولى

وهي ما صحت فيه إحدى الروايتين دون الأخرى- فحكمها الاعتماد على الصحيحة في بيان السبب، وَرَدُّ الأخرى غير الصحيحة. مثال ذلك ما أخرجه الشيخان وغيرُهما عن جُندب قال: اشتكى (مرض) النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتتهُ امرأةٌ فقالت: يا محمدُ ، ما أرى شيطانك إلا قد تركك. فأنزل الله : ﴿ وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ [الضحى: ١- ٣].

وأخرج الطبراني وابن أبي شيبة عن حفص بن ميسرة عن أمه عن أمها وكانت خادم رسول الله ﷺ أن جروًا (كلب صغير) دخل بيت النبي ﷺ ، فدخل تحت السرير فمات فمكث النبي ﷺ أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي، فقال: يا خولة ، ما حدثَ في بيت رسول اللّه ﷺ ، جبريل لا يأتيني. فقلتُ في نفسي: لو هيأت البيت وكنستيه، فأهويتُ بالمكنسة تحت السرير ، فأخرجت الجَرْوَ، فجاء النبي ﷺ تَرْعدُ لحيتهُ، وكان إذا نزل عليه أخذته الرِّعْدةُ. فأنزل الله: ﴿ وَالضُّحَى ﴾ إلى قوله: ﴿ فَتَرْضَى ﴾ فنحن بين هاتين الروايتين نُقدِّم الأولى في بيان السبب لصحتها، دون الثانية لأن في إسنادها من لا يعرف . قال ابن حجر: «قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة، لكن كونها سبب نزول الآية غريب، وفي إسناده من لا يُعرف، فالمعتمد الصحيح». اهـ.

الصورة الثانية

وهي صحة الروايتين كلتيهما ولإحداهما مرجّح- فحكمها أن نأخذ في بيان السبب بالراجحة دون المرجوحة، والمرجّح أن تكون إحداهما أصح من الأخرى أو أن يكون راوي إحداهما مشاهدًا للقصة دون راوي الأخرى، يوضح ذلك

الروايتان اللتان ذكرناهما في التعبير عن سبب النزول وهو ما أخرجه البخاري عن ابن مسعود قال: «كنت أمشي مع النبي ﷺ بالمدينة وهو يتوكأ على عسيب، فمرّ بنفر من اليهود، فقال بعضهم: لو سألتموه. فقال: حدّثنا عن الروح، فقام ساعة ورفع رأسه، عرفتُ أنه يوحى إليه، حتى صعد الوحي، ثم قال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾»، وما أخرجه الترمذي وصححه عن ابن عباس قال: «قالت قريشٌ لليهود، أعطونا شيئًا نسأل هذا الرجل، فقالوا: اسألوه عن الرُّوح، فسألوه، فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ فهذا الخبر الثاني يدلُّ على أنها نزلت بمكة وأن سبب نزولها سؤال قريش إياه. أما الأول فصريحٌ في أنها نزلت بالمدينة بسبب سؤال اليهود إياه، وهو أرجح من وجهين: أحدهما أنه رواية البخاري، وأما الثاني فإنه رواية الترمذي، ومن المقرَّر أن ما رواه البخاري أصحُّ مما رواه غيره. ثانيهما أن راوي الخبر الأول وهو ابن مسعود كان مشاهد القصة من أولها إلى آخرها كما تدلُّ على ذلك الرواية الأولى، بخلاف الخبر الثاني فإن رواية ابن عباس لا تدلُّ على أنه كان حاضر القصة، ولا ريب أن للمشاهدة قوةً في التحمل وفي الأداء، وفي الاستيثاق ليست في غير المشاهدة ومن هنا أعملنا الرواية الأولى، وأهملنا الثانية.

الصورة الثالثة

وهي ما استوى فيه الروايتان في الصحة، ولا مرجّح لإحداهما لكن يمكن الجمع بينهما، بأن كلاً من السببين حصل ونزلت الآية عقب حصولهما معًا، لتقارب زمنيهما- فحكم هذه الصورة أن نحمل الأمر على تعدُّد السبب لأنه الظاهر ولا مانع يمنعه.

قال ابن حجر: «لا مانع من تعدُّد الأسباب». مثال ذلك ما أخرجه البخاري من طريق عكرمة عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء. فقال النبي ﷺ: «البينة أو حدٌ في ظهرك». فقال: يا رسول الله، إذا وجد أحدنا مع امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة. وفي رواية أنه قال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، ولينزلن الله تعالى ما يُبرئُ ظهري من الحد، فنزل جبريل عليه السلام وأنزل عليه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ حتى بلغ: ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور: ٦ - ٩].

وأخرج الشيخان - واللفظ للبخاري- عن سهل بن سعد أن عويمرًا أتى عاصم بن عَديّ وكان سيد بني عجلان، فقال: كيف تقولون في رجل وجد مع امرأته رجلاً، أيقتله فتقتلونه، أم كيف يصنع؟ سلْ لي رسول الله ﷺ عن ذلك، فأتى عاصمٌ النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله - وفي رواية مسلم فسأل عاصمٌ رسول الله ﷺ - فكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها، فقال عُويمرٌ: والله لا أنتهي حتى أسأل رسول الله ﷺ عن ذلك، فجاءه عويمر، فقال: يا رسول الله، رجلٌ وجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه، أم كيف يصنع؟ فقال رسول الله ﷺ: قد أنزل الله القرآن فيك وفي صاحبك، فأمرهما رسول الله ﷺ بالملاعنة بما سمَّى الله في كتابه فلاعنها.

فهاتان الروايتان صحيحتان، ولا مرجّحَ لإحداهما على الأخرى، ومن السهل أن نأخذ بكلتيهما لقرب زمانيهما، على اعتبار أن أول من سأل هو هلال بن أمية، ثم تبعه عويمر قبل إجابته. فسأل بواسطة عاصم مرةً وبنفسه مرةً أخرى، فأنزل الله الآية إجابة للحادثين معًا. ولا ريب أن إعمال الروايتين بهذا الجمع، أولى من إعمال إحداهما وإهمال الأخرى إذ لا مانع يمنع الأخذ بهما على ذلك الوجه ثم لا يجوز أن نردهما معًا، لأنهما صحيحتان ولا تعارض بينهما، ولا يجوز أيضًا أن نأخذ بواحدة ونرد الأخرى، لأن ذلك ترجيح بلا مرجح فتعين المصير إلى أن نأخذ بهما معًا. وإليه جنح النووي وسبقه إليه الخطيب فقال: «لعلهما اتفق لهما ذلك في وقت واحد».

ويمكن أن يفهم من الرواية الثانية أن آيات الملاعنة نزلت في هلال أولاً، ثم جاء عُويمر فأفتاه الرسول ﷺ بالآيات التي نزلت في هلال. قال ابن الصباغ: قصة هلال تُبيِّن أن الآية نزلت فيه أولاً. وأما قوله ﷺ لعويمر: «إن الله أنزل فيك وفي صاحبك». فمعناه ما نزل في قصة هلال، لأن ذلك حكم عام لجميع الناس.

الصورة الرابعة

وهي استواء الروايتين في الصحة، دون مرجّح لإحداهما دون إمكان للأخذ بهما معًا لبُعد

الزمان بين الأسباب - فحكمها أن نحمل الأمر على تكرار نزول الآية بعدد أسباب النزول التي تحدثت عنها هاتان الروايتان، أو تلك الروايات لأنه إعمال لكل رواية، ولا مانع منه.

قال الزركشي : «وقد ينزل الشيء تعظيمًا لشأنه ، وتذكيرًا عند حدوث سببه خوف نسيانه». مثال ذلك ما أخرجه البيهقي والبزار عن أبي هريرة أن النبي ﷺ وقف على حمزة حين استشهد وقد مُثل به ، فقال: لأمثِّلن بسبعين منهم مكانك. فنزل جبريل والنبي ﷺ واقف - بخواتيم سورة النحل : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ إلى آخر السورة وهن ثلاث آيات .

وأخرج الترمذي والحاكم عن أبي بن كعب قال: «لما كان يومُ أحدٍ أصيب من الأنصار أربعة وستون ومن المهاجرين ستة منهم حمزةُ ، فمثلوا به ، فقالت الأنصار : لئن أصبنا منهم يومًا مثل هذا لَنُربِيَنَّ (لنزيدنَّ) عليهم. فلمَّا كان يوم فتح مكة أنزل الله : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ الآية . فالرواية الأولى تفيد أن الآية نزلت في غزوة أحد ، والثانية تفيد أنها نزلت يوم فتح مكة ، على حين أن بين غزوة أحد وغزوة الفتح الأعظم خمس سنوات فبَعُدَ أن يكون نزول الآية كان مرة عقبهما معًا . وإذن لابد لنا من القول بتعدد نزولها مرة في أحد ومرة في يوم الفتح .

فيما نزل مكررًا

وقد يُنزَّل الشيء مرتين تعظيمًا لشأنه ، وتذكيرًا به عند حدوث سببه خوف نسيانه ، وهذا كما قيل في الفاتحة نزلت مرتين : مرة بمكة، وأخرى بالمدينة ، وكما ثبت في الصحيحين عن أبي عثمان النهديِّ عن ابن مسعود: أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة، فأتى النبي ﷺ فأخبره ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾، فقال الرجل: إليَّ هذا ؟ فقال : بل لجميع أمتي.

فهذا كان في المدينة ، والرجل قد ذكرَ الترمذي أو غيره أنه أبو اليسر ، وسورة هود مكية بالإتفاق ، ولهذا أشكل على بعضهم هذا الحديث مع ما ذكرنا ، ولا إشكال ؛ لأنها نزلت مرة بعد مرة ، ومثله ما في الصحيحين عن ابن مسعود في قوله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ أنها نزلت لما سأله اليهود عن الروح وهو في المدينة ، ومعلومٌ أن هذه في سورة «سبحان» وهي مكية بالإتفاق، فإن المشركين لما سألوه عن ذي القرنين وعن أهل الكهف قيل ذلك بمكة وأن اليهود أمروهم أن يسألوه عن ذلك ، فأنزل الله الجواب كما قد بسط في موضعه .

وكذلك ما ورد في ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أنها جواب للمشركين بمكة وأنها جواب لأهل الكتاب بالمدينة . وكذلك ما ورد في الصحيحين من حديث المسيب لما حضرت أبا طالب الوفاة ، وتلكأ عن الشهادة ، فقال رسول الله ﷺ : «والله لاستغفرن لك ما لم أُنْهَ». فأنزل الله : ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى﴾ [التوبة: ١١٣] ، وأنزل الله في أبي طالب : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] ، وهذه الآية نزلت في آخر الأمر بالإتفاق وموت أبي طالب كان بمكة، فيمكن أنها نزلت مرةً بعد أخرى ، وجُعلت أخيرًا في «التوبة».

ثانيا: الحكمة من تكرار النزول

والحكمة في هذا كلِّه أنه قد يحدث سببٌ من سؤال أو حادثة تقتضي نزول آية، وقد نزل قبل ذلك ما يتضمنها ، فتؤدى تلك الآية بعينها إلى النبي ﷺ تذكيرًا لهم بها، وبأنها تتضمن هذه ، والعالم قد يحدث له حوادث فيتذكر أحاديث وآيات تتضمن الحكم في تلك الواقعة وإن لم تكن خطرت له تلك الحادثة قبلُ ، مع حفظه لذلك النص.

وهناك حكمة عالية في هذا التكرار ، وهي تنبيه الله لعباده ولفت نظرهم إلى ما في طيِّ تلك الآيات المكررة من الوصايا النافعة، والفوائد الجُمة التي هم في أشد الحاجة إليها.

فخواتيم سورة النحل (وهي الثلاث الآيات الأخيرة) نلاحظ أن الحكمة في تكرارها هي تنبيه لعباده أن يحرصوا على العمل بما احتوته من الإشارة السامية في تحرِّي العدالة، وضبط النفس عند الغضب، ومراقبة الخالق حتى في القصاص من الخلق ، والتذرُّع بالصبروالثبات والاعتماد على الله والثقة بتأييده ونصره، لكل من اتقاه وأحسن في عمله، أضف إلى هذه الحكم ما ذكره الزركشي من أن تكرار النزول تعظيم لشأن المكرر وتذكير به خوف نسيانه .

مختارات من علوم القرآن

أسباب النزول

الحلقة الثالثة

إعداد
مصطفى البصراتي

ثالثًا: تعدد نزول الآيات لسبب واحد

الحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن ولاه. وبعد:

فقد وقفنا في الحلقتين السابقتين مع علم أسباب النزول، وذكرنا قسميه وكيفية معرفته أو استخراجه من النقل الصحيح، وصور تعدد الروايات في نزول آية واحدة.

وفي هذه الحلقة إن شاء الله نكمل الحديث بذكر صورة أخرى من صور أسباب النزول وهي: تعدد نزول الآيات لسبب واحد.

قد يكون أمرٌ واحدٌ سببًا لنزول آيتين أو آيات متعددة ولا مانع من ذلك، لأنه لا ينافي الحكمة في إقناع الناس، وهداية الخلق، وبيان الحق عند الحاجة، بل إنه قد يكون أبلغ في الإقناع وأظهر في البيان.

مثال السبب الواحد تنزل فيه آيتان، ما أخرجه ابن جرير الطبري والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ جالسًا في ظلِّ شجرة، فقال: «إنه سيأتيكم إنسانٌ ينظرُ إليكم بعيني شيطان، فإذا جاء فلا تكلموه، فلم يَلْبَثُوا أن طلع رجلٌ أزرقُ العينين، فدعاهُ رسول اللَّه ﷺ فقال: علام تشتُمني أنت وأصحابُك، فانطلق الرجلُ فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم». فأنزل الله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ٧٤].

وأخرج الحاكم وأحمد هذا الحديث بهذا اللفظ وقالا: فأنزل الله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٨- ١٩].

ومثال السبب الواحد ينزل فيه أكثر من آيتين ما أخرجه الحاكم والترمذي عن أم سلمة أنها قالت: يا رسول الله، لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء، فأنزل الله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وأخرج الحاكم أيضًا عنها أنها قالت: قلت: يا رسول الله، تذكرُ الرجال ولا تذكر النساء، فأُنزلت: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وأنزلت: ﴿أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وأخرج الحاكم أيضًا أنها قالت: تغزو الرجال ولا تغزو النساء وإنما لنا نصف الميراث، فأنزل الله: ﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢]، وأنزل: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

خصوص السبب وعموم اللفظ:

قال الزركشي في البرهان: «وقد يكون السبب خاصًا والصيغة عامة، لينبِّه على أن العِبرة بعموم اللفظ». وقال الزمخشري في تفسير سورة الهمزة: يجوز أن يكون السبب خاصًا والوعيد عامًا ليتناول كلَّ من باشر ذلك القبيح، وليكون جاريًا مجرى التعريض بالوارد فيه، فإن ذلك أزجر له وأنكى فيه. اهـ.

فإذا نزلت الآية لسبب خاص، ولفظها عام كان حكمها شاملاً لسببها، ولكل ما يتناوله لفظها، لأن القرآن نزل تشريعًا عامًا لجميع الأمة فكانت العبرة بعموم لفظه لا بخصوص سببه. مثال ذلك: آيات اللعان، وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور: ٦- ٩] .ففي صحيح البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء، فقال النبي ﷺ: «البينة أو حدٌ في ظهرك»، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، فلينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد، فنزل جبريل وأنزل عليه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ [النور: ٦]، فقرأ حتى بلغ: ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور: ٩] الحديث. فهذه الآيات نزلت بسبب قذف هلال بن أمية لامرأته، لكن حكمها شامل له ولغيره، بدليل ما رواه البخاري من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه أن عويمر العجلاني جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله رجل وجد مع امرأته رجلاً يقتله فتقتلونه أم كيف يصنع؟ فقال النبي ﷺ: «قد أنزل الله القرآن فيك وفي صاحبتك». فأمرهما رسول الله ﷺ بالملاعنة بما سمى الله في كتابه، فلاعنها. الحديث. فجعل النبي ﷺ حكم هذه الآيات شاملاً لهلال بن أمية وغيره.

تقدم نزول الآية على الحكم:

ذكر هذا النوع الزركشي فقال: «واعلم أنه قد يكون النزول سابقًا على الحكم، وهذا كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾» [الأعلى: ١٤]، فإنه يُستدل بها على زكاة الفطر. روى البيهقي بسنده إلى ابن عمر أنها نزلت في زكاة رمضان، ثم أسند مرفوعًا نحوه.

وقال بعضهم: لا أدري ما وجهُ هذا التأويل لأن هذه السورة مكية، ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة. وأجاب البغوي في تفسيره بأنه يجوز أن يكون النزول سابقًا على الحكم كما قال تعالى: ﴿لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾، فالسورة مكية، وظهر أثر الحل يوم فتح مكة، حتى قال عليه السلام: «أُحلَّتْ لي ساعةً من نهار». وكذلك نزل بمكة: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾، قال عمر بن الخطاب: كنت لا أدري أيُ الجمع يُهزم، فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يقول: «سيهزم الجمع ويولون الدبر».

فوائد معرفة أسباب النزول:

معرفة أسباب النزول مهمة جدًا، لأنها تؤدي إلى فوائد كثيرة، منها:

١- بيان أن القرآن نزل من الله تعالى، وذلك لأن النبي ﷺ يسأل عن الشيء فيتوقف عن الجواب أحيانًا، حتى ينزل عليه الوحي، أو يخفى عليه الأمر الواقع فينزل الوحي مبينًا له.

مثال الأول: قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥]، ففي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً من اليهود قال: يا أبا القاسم، ما الروح؟ فسكت، وفي لفظ: فأمسك النبي ﷺ، فلم يرد عليهم شيئًا، فعلمت أنه يُوحى إليه، فقمت مقامي، فلما نزل الوحي قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥].

ومثال الثاني: قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨].

ففي صحيح البخاري أن زيد بن أرقم رضي الله عنه سمع عبد الله بن أبي رأس المنافقين يقول ذلك يريد أنه الأعزُ ورسول الله ﷺ وأصحابه الأذل، فأخبر زيد عمه بذلك، فأخبر به النبي ﷺ فدعا النبي ﷺ زيدًا، فأخبره بما سمع، ثم أرسل إلى عبد الله بن أبي وأصحابه فحلفوا ما قالوا، فصدقهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله تصديق زيد في هذه الآية، فاستبان الأمر لرسول الله ﷺ.

٢- بيان عناية الله تعالى برسوله ﷺ في الدفاع عنه:

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان: ٣٢]، وكذلك آيات الإفك، فإنها دفاع عن فراش النبي ﷺ عما دنسه به الأفاكون.

٣- بيان عناية الله تعالى بعباده في تفريج كرباتهم وإزالة غمومهم:

مثال ذلك آية التيمم، ففي صحيح البخاري أنه ضاع عِقدٌ لعائشة رضي الله عنها وهي مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، فأقام النبي ﷺ لطلبه، وأقام الناس على غير ماء، فشكوا ذلك إلى أبي بكر، فذكر الحديث، وفيه: فأنزل الله آية التيمم فتيمموا، فقال

أسيد بن حضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر. والحديث في البخاري مطولاً.

٤- فهم الآية على الوجه الصحيح وإزالة الإشكال أو التعارض المتوهم فيها مع غيرها:

فمعرفة سبب النزول خير سبيل لفهم معاني القرآن، وكشف الغموض الذي يكتنف بعض الآيات في تفسيرها ما لم يعرف سبب نزولها. قال ابن دقيق العيد: «بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن». وقال ابن تيمية: «معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب».

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨]، أي: يسعى بينهما، فإن ظاهر قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ أن غاية أمر السعي بينهما، أن يكون من قسم المباح. وفي صحيح البخاري عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنس بن مالك رضي الله عنه عن الصفا والمروة، قال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] إلى قوله: ﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ وبهذا عرف أن نفي الجناح ليس المراد به بيان أصل حكم السعي، وإنما المراد نفي تحرجهم بإمساكهم عنه، حيث كانوا يرون أنهما من أمر الجاهلية، أما أصل حكم السعي فقد تبين بقوله: ﴿مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨].

وقالت عائشة رضي الله عنها: وقد سن رسول الله ﷺ الطواف بينهما- أي شرع ذلك- فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما.

ومن أمثلة فوائد معرفة أسباب النزول في إزالة الإشكال والتعارض قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]، فظاهر هذه الآية يفيد أن للمصلي أن يتوجه في صلاته إلى حيث يشاء دون التقيد بجهة القبلة، وذلك يتعارض مع الأمر بذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٤٤]، لكن هذا التعارض يزول حينما يعرف سبب نزول الآية الأولى وهو ما روى عن ابن عمر رضي الله عنهما أنها نزلت في صلاة المسافر على الراحلة حيثما توجهت به راحلته تيسيرًا له في التطوع بالنافلة وتيسيرًا عليه في الأداء، لأنه لو ألزم بجهة القبلة كالفريضة لاضطر إلى التوقف عن المسير أو الامتناع عن التطوع وفي كليهما من الحرج ما لا يخفى.

ومثال آخر على إزالة الإشكال والتعارض، تحريم المعنى المراد من الآية ما روى أن مروان بن الحكم وقف عند قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨]، وأرسل إلى ابن عباس رضي الله عنهما يقول: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذب، لنعذبن أجمعون.

فأجابه ابن عباس رضي الله عنهما ببيان سبب نزول الآية وأنها نزلت في أهل الكتاب حين سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره، متظاهرين أنهم أخبروه بما سألهم عنه، وامتنوا عليه بذلك طالبين أن يحمدوا بما لم يفعلوا.

٥- من هذه الفوائد لأسباب النزول- دفع توهم الحصر فيما يوهم ظاهره ذلك- مثل قوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

فظاهر نص هذه الآية الكريمة يفيد حصر المحرمات في هذه الأربع المذكورة فيها، بينما جاءت آيات أخر تعدد المحرمات في أكثر من ذلك، مثل آية سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣]، وقد تمسك بعض الأئمة بظاهر الحصر في نص الآية الأولى قائلاً بعدم وجود شيء من المحرمات إلا ما كان من هذه الأربع الواردة في الآية، وأنها نزلت في دحض افتراءات الكفار الذين أحلوا هذه الأنواع من المحرمات بينما يحرمون ما أحل الله فيما زعموه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام.

قال إمام الحرمين: وهذا في غاية الحسن ولولا سبق الشافعي إلى ذلك لما كنا نستجيز مخالفة في حصر المحرمات فيما ذكرته الآية.

٦- بيان الحكمة التي دعت إلى تشريع حكم من الأحكام وإدراك مراعاة الشرع للمصالح العامة في علاج الحوادث رحمة بالأمة.

مختارات من علوم القرآن

المكي والمدني

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .... وبعد:

عنى العلماء بتحقيق المكي والمدني عناية فائقة، فتتبعوا القرآن آية آية، وسورة سورة لترتيبها وفق نزولها، مراعين في ذلك الزمان والمكان والخطاب، لا يكتفون بزمن النزول ولا بمكانه، بل يجمعون بين الزمان والمكان والخطاب، وهو تحديد دقيق يعطي للباحث المنصف صورة للتحقيق العلمي في علم المكي والمدني، وهو شأن علمائنا في تناولهم لمباحث القرآن الأخرى.

إنه جهد كبير أن يتتبع الباحث منازل الوحي في جميع مراحله، ويتناول آيات القرآن الكريم فيعين وقت نزولها، ويحدد مكانها، ويضم إلى ذلك الضوابط القياسية لأسلوب الخطاب فيها، أمن قبيل المكي أم من قبيل المدني؟ مستعينًا بموضوع السورة أو الآية، أمن الموضوعات التي ارتكزت عليها الدعوة الإسلامية في مكة أم من الموضوعات التي ارتكزت عليها الدعوة في المدينة؟

بقلم/ مصطفى البصراتي

وإذا اشتبه الأمر على الباحث لتوافر الدلائل المختلفة رجح بينها فجعل بعضها شبيهًا بما نزل في مكة، وبعضها شبيهًا بما نزل في المدينة.

وإذا كانت الآيات نزلت في مكان ثم حملها أحد من الصحابة فور نزولها لإبلاغها في مكان آخر ضبط العلماء هذا كذلك، فقالوا: ما حمل من مكة إلى المدينة، وما حمل من المدينة إلى مكة.

وقد حرص العلماء على الدقة، فرتبوا السور حسب منازلها سورة بعد سورة، وقالوا سورة كذا نزلت بعد سورة كذا، وازدادوا حرصًا في الاستقصاء، ففرقوا بين ما نزل ليلاً وما نزل نهارًا وما نزل صيفًا وما نزل شتاءً، وما نزل في الحضر وما نزل في السفر.

تعريف المكي والمدني

ما الذي يُقصدُ بوصف السورة بأنها مكية أو مدنية؟

وقبل أن نتحدث عن تعريف المكي والمدني ثمة سؤال يطرح نفسه في هذا المقام، وهو ما الذي يُقصد بوصف السورة بأنها مكية أو مدنية؟

هل هي بأجمعها، أو أن المراد بعض السورة، أو العبرة بالغالب؟ إذ قد يكون في السورة المكية بعض آيات مدنية، وفي السورة المدنية بعض آيات مكية.

وللجواب على هذا السؤال نقول: إن هذا وصف بحسب أكثر الآيات التي تغلب على السورة، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله- منتقدًا ما قاله النحاس رحمه الله- من أن سورة النساء مكية بدعوى أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨] نزل في مكة، قال: فلا يلزم من نزول آية أو آيات من سورة طويلة بمكة إذا نزل معظمها بالمدينة أن تكون مكية، بل الأرجح أن جميع ما نزل بعد الهجرة معدود من المدني. وقد وضع أهل العلم اصطلاحات ثلاثة للتعريف بهذين المصطلحين، وهذه الاصطلاحات الثلاثة مبنية باعتبارات مختلفة، ففي الوقت الذي جعله بعضهم باعتبار الزمان، اعتبره آخرون بحسب المكان، وهكذا قال فريق ثالث: إنه باعتبار المخاطب.

للعلماء ثلاثة اصطلاحات في تعريف كل من المكي والمدني:

أحدها: اتخذ المكان أساسًا له:
فقال: إن المكي هو كل ما نزل بمكة أو بأحد ضواحيها كمنى وعرفات والحديبية، حتى لو كان ذلك بعد الهجرة، فالاعتبار على هذا الاصطلاح للمكان وحده.

الثاني: اتخذ الخطاب والمخاطبين به أساسًا فقال: إن المكي ما كان خطابًا لأهل مكة، والمدني ما كان خطابًا لأهل المدينة، وعليه حمل قول من قال: كل خطاب بلفظ «يا أيها الناس» فالمقصود به أهل مكة لغلبة الكفر عليهم وكل خطاب بلفظ: «يا أيها الذين آمنوا» فالمقصود به أهل المدينة لغلبة الإيمان عليهم، فالاعتبار على هذا للموضوع وحده.

الثالث: اتخذ الزمان أساسًا له: فقال: إن المكي هو كل ما نزل قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة حتى ولو كان شيء منه نزل خارج مكة لأن تلك الفترة هي العصر المكي من حياة النبي ﷺ وحياة دعوته، وإن المدني هو كل ما نزل بعد هجرته عليه الصلاة والسلام إلى المدينة حتى ولو كان نزوله خارجها بل حتى ولو كان نزوله بمكة ذاتها كالذي نزل بعرفة في حجة الوداع، وذلك لأن ما بعد الهجرة هو العصر المدني من حياته ﷺ وحياة دعوته، والاعتبار على هذا للزمان وحده، وهذا الاصطلاح الثالث هو المشهور والأصح في هذا الموضوع لأنه أكثر وضوحًا وأقوى حجة وأبسط تعليلاً وأقرب إلى العقول قبولاً وهو أرجحها، وبناءً على ذلك فإن كل ما نزل من القرآن قبل هجرته ﷺ إلى المدينة يسمى مكيًا سواء نزل في مكة أو في الطائف أو في أي جهة أخرى، وكل ما نزل بعد الهجرة فهو مدني، سواء نزل بالمدينة أو في الأسفار والغزوات أو في مكة في عام الفتح.

الأسباب التي أدت إلى اختيار هذا الاصطلاح

أولاً: أن هذا الاصطلاح ضابط وحاصر ومطرد(كامل مُتَمَّمْ)، إذ تنعدم على القول به الواسطة(وهو وجود قسم ثالث لا يوصف بأنه مكي أو مدني)، ولا يرد عليه ما ينقضه، فلذا كان الراجح المقبول الذي اعتمده العلماء واشتهر بينهم، وعليه فآية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] مدنية مع أنها نزلت يوم الجمعة بعرفة في حجة الوداع ومعروف أن عرفة من ضواحي مكة.

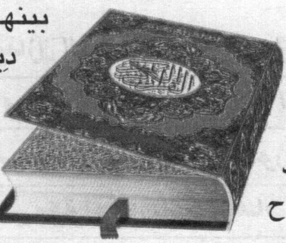

وكذلك آية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، فإنها مدنية مع أنها نزلت بمكة في جوف الكعبة عام الفتح الأعظم. وقل مثل ذلك فيما نزل بأسفاره عليه الصلاة والسلام كفاتحة سورة الأنفال وقد نزلت ببدر، فإنها مدنية لا مكية على هذا الاصطلاح المشهور.

ثانيًا: يبدو لمن تأمل في هذا الاصطلاح أنه الذي كان يقصده الصحابة من قولهم: نزل كذا من السور بمكة، ونزل كذا من السور بالمدينة.

ومما يؤيد ذلك أنهم قد عدوا من المدني سورة التوبة وسورة الفتح وسورة المنافقون، ولم تنزل سورة التوبة كلها بالمدينة، فقد نزل كثير من آياتها على رسول الله ﷺ وهو في طريق عودته من تبوك، ونزلت سورة الفتح على النبي ﷺ وهو عائد من صلح الحديبية ونزلت سورة المنافقون عليه وهو في غزوة بني

المصطلق.

ثالثًا: أن الاعتماد على هذا الاصطلاح يقضي على معظم الخلافات التي أثيرت حول تحديد المكي والمدني.

رابعًا: أن هذا الاصطلاح هو الذي درج عليه كثير من الباحثين في علوم القرآن قديمًا وحديثًا.

قال ابن عطية رحمه الله: وكل ما نزل من القرآن بعد هجرة النبي ﷺ فهو مدني سواء ما نزل بالمدينة أو في سفر من الأسفار، أو بمكة، وإنما يوسم بالمكي ما نزل قبل الهجرة.

وقال أيضًا: وما نزل بعد الهجرة فإنما هو مدني وإن نزل في مكة، أو في سفر من أسفار النبي ﷺ.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: فالمكي ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعد الهجرة سواء كان بالمدينة أو بغيرها من أي البلاد كان، حتى ولو كان بمكة أو عرفة.

وقال العلامة البقاعي: «وكلُّ ما نزل قبل الهجرة فهو مكي، وكل ما نزل بعدها فهو مدني، ولو كان النبي ﷺ وقت نزوله في بلد آخر».

وقال أيضًا: فإن العبرة بالمدني بالنزول بعد الهجرة.

هذا وقد ذكر الزركشي والسيوطي رحمهما الله أن هذا القول هو أشهر الأقوال.

الطريق الموصلة إلى معرفة المكي والمدني

لا سبيل إلى معرفة المكي والمدني إلا بما ورد عن الصحابة والتابعين في ذلك، لأنه لم يرد عن النبي ﷺ بيانٌ للمكي والمدني، وذلك لأن المسلمين في زمانه لم يكونوا في حاجة إلى هذا البيان، كيف وهم يشاهدون الوحي والتنزيل، ويشهدون مكانه وزمانه وأسباب نزوله عيانًا «وليس بعد العيان بيان».

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «والله الذي لا إله غيره، ما نزلت سورةٌ من كتاب الله إلا وأنا أعلمُ أين نزلت ولا نزلت آيةٌ من كتاب الله إلا وأنا أعلمُ فيما نزلت ولو أعلم أن أحدًا أعلمُ مني بكتاب الله تبلغُهُ الإبل لَركبتُ إليه».

وقال أيوب: سأل رجلٌ عكرمة عن آية من القرآن، فقال: «نزلت في سفح ذلك الجبل» وأشار إلى سَلع.

قال القاضي أبو بكر في الانتصار، ولم يَرد عن النبي ﷺ في ذلك قول، لأنه لم يأمر به، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة، وإن وجب في بعضه على أهل العلم معرفةُ تاريخ الناسخ والمنسوخ، فقد يُعرف ذلك بغير نص الرسول.

ورغم هذا الكلام المقبول من القاضي أبي بكر في عدم تعيين المكي والمدني عن طريق التوقيف، وعدم لزوم معرفته دينًا، يسوق الزركشي كلامًا في لزوم معرفته، فيقول: قال أبو القاسم الحسن بن محمد النيسابوري في كتاب «التنبيه على فضل علوم القرآن»: من أشرف علوم القرآن نزوله وجهاته وترتيب ما نزل بمكة ابتداءً ووسطًا وانتهاء، وترتيب ما نزل بالمدينة كذلك، ثم ما نزل بمكة وحكمه مدني، وما نزل بالمدينة وحكمه مكي، وما نزل بمكة في أهل المدينة، وما نزل بالمدينة في أهل مكة ثم يشبه نزول المكي في المدني، وما يشبه نزول المدني في المكي، ثم ما نزل بالجحفة وما نزل ببيت المقدس، وما نزل بالطائف، وما نزل بالحديبية، ثم ما نزل ليلاً، وما نزل نهارًا، وما نزل مشيعًا، وما نزل مفردًا، ثم الآيات المدنيات في السور المكية، والآيات المكية في السور المدنية، ثم ما حمل من مكة إلى المدينة، وما حمل من المدينة إلى مكة، وما حمل من المدينة إلى أرض الحبشة، ثم ما نزل مجملاً وما نزل مفسرًا، وما نزل مرموزًا ثم اختلفوا فيه، فقال بعضهم: مدني، وقال بعضهم مكي. هذه خمسة وعشرون وجهًا، من لم يعرفها ويميز بينها لم يحل له أن يتكلم في كتاب الله تعالى. اهـ.

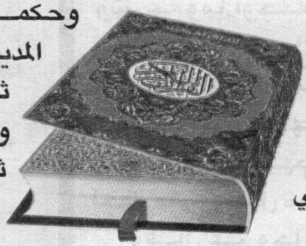

ومن الواضح أن العلم بالمكي والمدني وإن لم يكن منصوصًا عليه توقيفًا، ولا مطلوبًا تحصيله بنص فإنه من بين علوم القرآن اللازمة لبيانه وتفسيره والوقوف على مقاصده.

وللحديث بقية إن شاء الله.

مختارات من علوم القرآن

خصائص القرآن المكي والمدني

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

ذكرنا في الحلقة السابقة مقدمة عن أهمية معرفة المكي والمدني من آيات وسور القرآن الكريم، وعرَّفنا المكي والمدني.

وأشرنا إلى أن الطريق الموصل إلى معرفة المكي والمدني هو ما ورد عن الصحابة والتابعين في ذلك.

وفي هذه الحلقة نذكر إن شاء الله تعالى خصائص القرآن المكي والمدني.

بقلم/ مصطفى البصراتي

أ- خصائص القرآن المكي

أولاً: الخصائص الأسلوبية

١- قصر أكثر آياته وسوره، وذلك لنزوله بمكة، وأكثر أهلها يومئذ يمتازون بعلو كعبهم في الفصاحة والبلاغة، وتملكهم لناصية القول، والخطابة والشعر وبلوغهم الغاية في لطف الحس، وذكاء العقل، وسرعة الخاطر، فكان من المناسب لهم النذر القارعة والعبارات الموجزة، والفقرات القصيرة ذات اللفظ الجزل، والجرس القوي، والمعنى الفحل، فَتَصُخُّ الآذان وتستولى على المشاعر وتلجمُ ألسنتهم عن المعارضة وتدعهم في حيرة ودهشة مما يسمعون فلا يلبث البليغ منهم بعد سماعها أن يلقي عصا العجز ويرسلها قولة صريحة تشهد بالإعجاز كما قال الوليد بن المغيرة القرشي لما سمع القرآن: «والله لقد سمعت كلامًا ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما هو بقول بشر، وإنه ليعلو ولا يعلى، وإنه لَيَحْطِمُ ما تحته».

٢- كثرة أسلوب التأكيد ووسائل التقرير ترسيخًا للمعاني، كالإكثار من القسم وضرب الأمثال، والتشبيه.

٣- كل سورة فيها لفظ «كلا» فهي مكية وقد ذكر هذا اللفظ في القرآن ثلاثًا وثلاثين مرة، في خمس عشرة سورة كلها في النصف الأخير من القرآن.

قال العماني: «وحكمة ذلك أن نصف القرآن الأخير نزل أكثره بمكة، وأكثرها جبابرة، فتكررت فيه على وجه التهديد والتعنيف لهم والإنكار عليهم بخلاف النصف الأول، وما نزل منه في اليهود لم يحتج إلى إيرادها فيه لذلتهم وضعفهم». اهـ.

٤- كل سورة في أولها حروف التهجي فهي مكية سوى سورة البقرة وآل عمران فإنهما مدنيتان بالإجماع. وفي الرعد خلاف.

ثانيًا: الخصائص الموضوعية

١- تقرير أسس العقيدة ودعوة الناس جميعًا إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة وعلى بعث الأجساد مع أرواحها من بعد الموت للحساب.

٢- ذكر قصص الأنبياء والأمم الخالية ودعوة الناس إلى الاعتبار بهم، إلا ما يتعلق بالحديث عن مريم وعيسى عليه السلام وقضية ولادته فقد نزل بعض ذلك في المدينة محاججًا لأهل الكتاب.

٣- محاجة المشركين ومجادلتهم وإقامة الحجة عليهم في بطلان عبادتهم الأصنام وبيان أنها بمعزل عن الألوهية واستحقاق العبادة وأنها لا تضر ولا تنفع ولا تخلق، ولا تحس، ولا تعي أي

شيء، ودعوتهم إلى استعمال عقولهم ونبذ التقليد بغير حجة وعلم، قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢- ٢٤]. وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٣٠]، وإقامة الأدلة على أن القرآن حق لا شك فيه وأنه من عند الله، وقد وقع التحدي بالقرآن في ثلاث سور مكية ولم يقع التحدي به في القسم المدني إلا في سورة البقرة.

٤- الدعوة إلى أصول التشريعات العامة والآداب والفضائل الثابتة التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان ولا سيما ما يتعلق منها بحفظ الدين والنفس والمال والعقل والنسب وهي الكليات الخمس التي تتفق فيها جميع الشرائع وذلك كالحث على الثبات على العقيدة والاستهانة بكل شيء في سبيلها والأمر بالصلاة والصدقة، والصدق، والعفاف وبر الوالدين وصلة الرحم، والعفو والعدل، والإحسان والتواصي بالحق، والخير، والصبر، والنهي عن القتل ووأد البنات والظلم والزنا وأكل أموال الناس بالباطل وذلك مثل قوله تعالى في أواخر الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ الآيتين- وفي سورة الأعراف: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.

ب- خصائص القرآن المدني

أولاً: الخصائص الأسلوبية:

١- طول أكثر آياته وسوره لاشتمالها على الأشياء السابقة، وهي تقتضي البسط والإطناب وإطالة النَّفَس كما أن أهل المدينة لم يكونوا في درجة أهل مكة في البلاغة والفصاحة ولا سيما اليهود الذين كانوا يساكنونهم في المدينة، فكان الحال باعثاً على الإطالة، والإطناب في مقام الإطناب لازم، والإيجاز في مقام الإيجاز واجب، ووضع أحدهما مكان الآخر ليس من البلاغة في شيء، وقد سلك القرآن كلتا الطريقتين مع كونه في أعلى درجات البلاغة والفصاحة.

٢- الأسلوب الهادئ والحجة الباهرة عندما يتعرض لأهل الكتاب، والأسلوب التهكمي عندما يتعرض للمنافقين وفضح نواياهم الخبيثة.

ثانياً: الخصائص الموضوعية:

١- التحدث عن التشريعات التفصيلية والأحكام العملية في العبادات والمعاملات كأحكام الصلاة، والصيام، والزكاة، والقصاص، والنكاح، والطلاق، والبيوع، والمداينات، والربا، والحدود كحد الزنى، والسرقة، والكفارات، ككفارة القتل الخطأ والظهار والأيمان إلى غير ذلك مما اشتملت عليه السور المدنية كما في سورة البقرة والنساء والمائدة والنور، وذلك لأن حياة المسلمين في المدينة بدأت في الاستقرار وأصبح لهم كيان ودولة وسلطان، ومن شأن الجماعة التي لها رابطة تربطها أن تكون في مسيس الحاجة إلى تشريع يتكفل بما تحتاج إليه في دينها ودنياها.

٢- الأمر بالجهاد والقتال والتعليق على الغزوات، وما تعلق بها من شأن الغنائم والأسرى والمنافقين.

٣- البحث في شئون الحكم والشورى وضرورة الرجوع فيهما إلى الكتاب والسنة.

٤- محاجة أهل الكتاب وبيان ضلالهم في عقائدهم التي ضاهوا بها أسلافهم من زائغي الأمم السابقة كقولهم بالتثليث أو الحلول أو الإبنية أو الصلب.

٥- كل سور فيها إذن بالجهاد وبيان لأحكام الجهاد فهي مدنية.

٦- كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية ما عدا سورة العنكبوت، والتحقيق أن سورة العنكبوت مكية ما عدا الآيات الإحدى عشرة الأولى منها، فإنها مدنية وهي التي ذكر فيها المنافقون.

وبعد: فهذه خصائص القرآن المكي والمدني ذكرتها بإيجاز، إلا أن الشيء الذي ينبغي التنبيه عليه قبل أن ننتقل من هذا المبحث هو أن بعض هذه الخصائص خصائص غالبية كالضوابط، إذ لا يعني حينما يقال: إن القسم المكي امتاز بتقرير أسس العقيدة لا يعني ذلك- أن القسم المدني يخلو من الحديث عن العقيدة، وإنما تعني هذه الخاصية أنها في القسم المكي أوسع منها في المدني.

والله من وراء القصد

مختارات من علوم القرآن

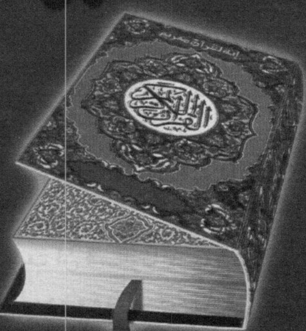

فوائد معرفة المكي والمدني

إعداد: مصطفى البصراتي

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين. أما بعد:

لكي ينكشف لنا معالم موضوع المكي والمدني فحري بنا أن نذكر هنا الفوائد التي نجنيها من دراستنا لموضوع المكي والمدني، وتتلخص تلك الفوائد في الأمور الآتية:

أولاً: تمييز الناسخ من المنسوخ

فيما إذا وردت آيتان أو آيات من القرآن الكريم في موضوع واحد، وكان الحكم في إحدى هاتين الآيتين أو الآيات مخالفًا للحكم في غيرها، ثم عُرف أن بعضها مكي وبعضها مدني، فإننا نحكم بأن المدني منها ناسخ للمكي نظرًا إلى تأخر المدني عن المكي.

قال الحارث المحاسبي رحمه الله- عند حديثه عن الناسخ والمنسوخ، قال: «فأول ذلك معرفة السور المكية والمدنية ليعرف أن ما فيها من الأمر والأحكام نزل بمكة أو بالمدينة، فإذا اختلف كان الذي نزل بالمدينة هو الناسخ، لأنه الآخر في النزول».

وقال مكي بن أبي طالب رحمه الله: «ويجب أن تعلم المكي من السور من المدني، فذلك مما يقوي ويفهم معرفة الناسخ والمنسوخ».

ويقول أبو جعفر النحاس رحمه الله: «وإنما يذكر ما نزل بمكة والمدينة، لأن فيه أعظم الفائدة في الناسخ والمنسوخ، لأن الآية إذا كانت مكية وكان فيها حكم، وكان في غيرها مما نزل بالمدينة حكم غيره عُلم أن المدنية نسخت المكية».

وللقرطبي رحمه الله كلام نفيس في هذا المقام ذكره في مقدمة تفسيره، فيقول: «وينبغي له- أي المفسر- أن يعرف المكي من المدني، ليفرق بين ما خاطب الله به عباده في أول الإسلام، وما ندبهم إليه في آخره، فالمدني هو الناسخ للمكي في أكثر القرآن».

وقال الجعبري رحمه الله: «وجل فائدته تظهر في علم الناسخ والمنسوخ بسبب معرفة المتقدم والمتأخر».

نموذج تطبيقي للفائدة الأولى:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١]، «أمر الله عباده في هذه الآية أن لا يحنثوا في يمين أكدوها بالحلف، وكان هذا قبل نزول آية الكفارة في

المائدة، وقبل نزول قوله تعالى في أمر الإفك: ﴿وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى﴾ [النور: ٢٢] ، فنسخ الله ذلك بالكفارة المذكورة في المائدة، وبما أمر به أبا بكر الصديق رضي الله عنه في قوله: ﴿وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ﴾ وبقوله: ﴿وَلاَ تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤]، والنحل مكية والمائدة والبقرة والنور مدنيات، فحسن نسخ المدني المكيَّ.

ثانيًا: الاستعانة به في تفسير القرآن الكريم

إذ إن معرفة مكان نزول الآية يعين على فهم المراد بالآية ومعرفة مدلولاتها، وما يراد منها، فإن لكل مقام مقالا، ومراعاة مقتضى الحال من أخص معاني البلاغة، وخصائص أسلوب المكي في القرآن والمدني منه تعطى الدارس منهجًا لطرائق الخطاب في الدعوة إلى الله بما يلائم نفسية المخاطب، ويمتلك عليه لبه ومشاعره، ويعالج فيه دخيلته بالحكمة البالغة ولكل مرحلة من مراحل الدعوة موضوعاتها وأساليب الخطاب فيها، كما يختلف الخطاب باختلاف أنماط الناس ومعتقداتهم وأحوال بيئتهم، ويبدو واضحًا جليًا بأساليب القرآن المختلفة في مخاطبة المؤمنين والمشركين والمنافقين وأهل الكتاب.

أخرج الخطيب البغدادي رحمه الله بسنده عن الشافعي قال: «لا يحل لأحد أن يفتي في دين الله إلا رجلاً عارفًا بكتاب الله، بناسخه ومنسوخه، وبمحكمه ومتشابهه، وتأويله، ومكيه ومدنيه، وما أريد به، وفيما أنزل، ثم يكون بعد ذلك بصيرًا بحديث رسول الله ﷺ وبالناسخ والمنسوخ، ويعرف من الحديث ما عرف من القرآن».

وقال ابن الأنباري رحمه الله- كما نقله عنه القرطبي في مقدمة تفسيره: «فمن عمل على ترك الأثر والإعراض عن الإجماع ونظم السور على منازلها بمكة والمدينة، لم يدر أين تقع الفاتحة، لاختلاف الناس في موضع نزولها، ويضطر إلى تأخير الآية التي في رأس خمس وثلاثين ومائتين من البقرة إلى رأس الأربعين، ومن أفسد نظم القرآن فقد كفر به، وردَّ على محمد ﷺ ما حكاه عن ربه تعالى».

ويقول الإمام أبو القاسم النيسابوري بعد تعداده خمسة وعشرين وجهًا من وجوه المكي والمدني: «فهذه خمسة وعشرون وجهًا من لم يعرفها ويميز بينها لم يحلَّ له أن يتكلم في كتاب الله عز وجل».

ويدلي الدكتور مصطفى زيد رحمه الله بدلوه في هذا المقام فيقول: «إن دراسة علوم القرآن ضرورة لا غنى عنها لمن ينصب نفسه للتفسير، فتمييز المكي والمدني يفيد المفسر كثيرًا».

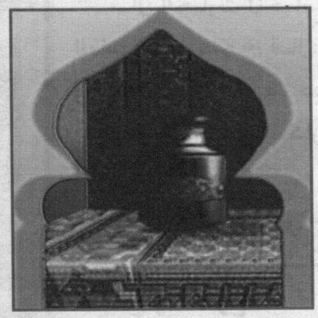

نموذج تطبيقي للفائدة الثانية:

هب أن قارئًا قرأ سورة «الكافرون» وبالتحديد في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ ولم يعلم زمن نزول الآية وهل هي مكية أو مدنية، فإنه يحار- بلا شك- في معنى الآية، إذ أنه يفهم من الآية أن المسلمين غير مكلفين بالجهاد، ولكن إذ علم أن السورة إنما نزلت بمكة أدرك أن هذه السورة علاج للمرحلة التي كان فيها الرسول ﷺ في مكة حينما قال بعض صناديد قريش لرسول الله ﷺ: تعال يا محمد نعبد إلهك يومًا وتعبد إلهنا يومًا، فعُلِم من هذا أن هذه السورة إنما هي علاج لتلك المرحلة، وأنها ليست دليلاً على عدم مشروعية الجهاد الذي نزلت فيه آيات كثيرة أخرى في المدينة.

ثالثًا: ومن فوائد معرفة المكي والمدني

«التبصر بالمراحل التاريخية التي سار عليها تشريعنا السامي والوقوف على سنة الله الحكيمة التي في تشريعه، وهي التدرج في التشريعات بتقديم الأصول على الفروع والإجمال على

التفصيل، وقد أثمرت هذه السياسة التشريعية ثمرتها وعادت على الدعوة الإسلامية بالقبول والإذعان والانتشار، وقد ضربت أمثلة لهذا التدرج في التشريع في حكم نزول القرآن مفرقًا.

نموذج تطبيقي للفائدة الثالثة:

أخرج البخاري رحمه الله في صحيحه بسنده عن عائشة رضي الله عنها في حديثها مع الرجل العراقي، وفيه: «إنما نزل أول ما نزل سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس للإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل أول شيء لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا». رواه البخاري.

رابعًا: أن معرفة المكي والمدني تساعدنا على استخراج سيرة الرسول ﷺ

وذلك بمتابعة أحواله بمكة، ومواقفه في الدعوة، ثم أحواله في المدينة، وسيرته في الدعوة إلى الله فيها.

يقول الدكتور صبحي الصالح رحمه الله: «كان العلم بالمكي والمدني إذًا خليقًا بالعناية التي أحيط بها، وجديرًا أن يُعَدّ بحق منطلق العلماء لاستيفاء البحث في مراحل الدعوة الإسلامية». ويقول مناع القطان: «إنه جهد كبير أن يتتبع الباحث منازل الوحي في جميع مراحله، ويتناول آيات القرآن الكريم فيعين وقت نزولها، ويحدد مكانه، ويضم إلى ذلك الضوابط القياسية لأسلوب الخطاب فيها، أهو من قبيل المكي أم من قبيل المدني؟ مستعينًا بموضوع السورة أو الآية أهو من الموضوعات التي ارتكزت عليها الدعوة الإسلامية في مكة أم من الموضوعات التي ارتكزت عليها في المدينة».

نموذج تطبيقي للفائدة الرابعة:

إن من يرى سيرة الرسول ﷺ في المرحلة المكية يجد أن القرآن المكي اعتنى ببعض الموضوعات كتقرير القضايا الإيمانية، في حين أن القرآن المدني قد كان يعتني ببيان جزئيات التشريع، وتفاصيل الأحكام، وقضايا علاقة الأمة بغيرها من الأمم، هكذا يقرر القرآن الكريم في مختلف مراحل نزوله بما يلائم نفسية المخاطب، انظر مثلاً سورة كسورة الحجر- وهي سورة مكية- ودعوتها إلى أصول الإيمان، وانظر مثلاً سورة كسورة البقرة والنساء والمائدة- وهن مدنيات- وما يشملن من تشريعات تفصيلية وأحكام عملية في العبادات والمعاملات.

وفي هذا يقول القرطبي رحمه الله في سورة النساء: «ومن تبين أحكامها علم أنها مدنية لا شك فيها». وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في سورة المائدة: «أجمع سورة في القرآن لفروع التشريع من التحليل والتحريم والأمر والنهي». وهكذا يبدو أن لكل مرحلة من مراحل الدعوة موضوعاتها وأساليبها إذ كما يقال: «لكل مقام مقال».

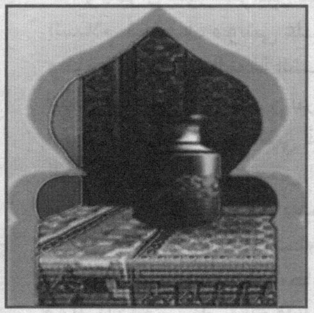

خامسًا: بيان عناية المسلمين بالقرآن الكريم

واهتمامهم به، حيث إنهم لم يكتفوا بحفظ النص القرآني فحسب، بل تتبعوا أماكن نزوله، ما كان قبل الهجرة، وما كان بعد الهجرة، ما نزل بالليل وما نزل بالنهار، وما نزل في الصيف وما نزل في الشتاء، إلى غير ذلك من الأحوال.

سادسًا: معرفة أسباب النزول

إذ إننا أثناء دراستنا لمكان نزول الآية نقف على الأحوال والملابسات التي احتفت بنزول الآية.

سابعًا: «الثقة بهذا القرآن وبوصوله إلينا سالمًا من التغيير والتحريف»

تلك هي مجمل الفوائد التي نستطيع أن نحصل عليها من معرفتنا للمكي والمدني، والحق هي فوائد يستفيد منها كل من أراد الاشتغال في مجال التفسير وعلوم القرآن.

مختارات من علوم القرآن

السورة المكية والمدنية والمختلف فيها

إعداد
مصطفى البصراتي

■■ الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، أما بعد:

فقد اختلف العلماء في بيان المكي والمدني من السور على أقوال كثيرة ذكرها السيوطي في إتقانه، ومن السور ما اتفق العلماء على مكيتها أو مدنيتها ، ومنها ما اختلفوا في كونها مكيةً أو مدنية ، ولا يهولنك تشعب الاختلاف في هذا فمرد معرفة المكي والمدني إلى الأحوال والقرائن والملابسات ، ومثل هذه مما تختلف فيها الأنظار ، وتتنوع الاستنتاجات ، ومن هذه الأقوال ما ذكره الزركشي في البرهان أن جميع ما نزل في مكة خمس وثمانون سورة ، وجميع ما نزل في المدينة تسع وعشرون سورة على اختلاف الروايات ، فيكون مجموعها مائة وأربع عشرة سورة. ■■

ونحن نذكر هنا كلام الزركشي في البرهان بنصه لأنه ذكر السور المكية والمدنية على ترتيب نزولها بما في ذلك السور المختلف فيها وذلك لنتعرف على ترتيب نزول السور المكية والمدنية بصرف النظر عن كونه لم يذكر السور المختلف فيها سوى الفاتحة والمطففين، ثم نُتْبِعُ كلام الزركشي بأقرب ما قيل إلى الصحة في هذه المسألة .

قال الزركشي في البرهان تحت عنوان :

ذكر ما نزل من القرآن بمكة ثم ترتيبه

أول ما نزل من القرآن بمكة : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ ، ثم ﴿ ن وَالْقَلَمِ ﴾ ، ثم ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ ، ثم ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ ، ثم ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ ، ثم ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ، ثم ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾، ثم ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ ، ثم ﴿وَالْفَجْرِ﴾ ، ثم ﴿ وَالضُّحَى﴾ ، ثم ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ ، ثم ﴿ وَالْعَصْرِ﴾ ، ثم ﴿ وَالْعَادِيَاتِ﴾ ، ثم ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ ، ثم ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ، ثم ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي﴾ ، ثم ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ، ثم سورة «الفيل» ، ثم «الفلق» ، ثم «الناس» ، ثم ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ، ثم ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ ، ثم ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ ، ثم ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾، ثم ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ ، ثم ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ ، ثم ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ ، ثم ﴿ لإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾ ، ثم ﴿ الْقَارِعَةِ﴾ ، ثم ﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ، ثم الهمزة ، ثم المرسلات ، ثم ﴿ق وَالْقُرْآنِ﴾ ، ثم ﴿ لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ ، ثم الطارق ، ثم ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ ، ثم ﴿ص وَالْقُرْآنِ﴾ ثم الأعراف ، ثم الجن ، ثم «يس» ، ثم الفرقان ، ثم الملائكة (أي فاطر) ، ثم مريم ، ثم طه ، ثم الواقعة ، ثم الشعراء ، ثم النمل ، ثم القصص ، ثم بني إسرائيل (أي الإسراء) ، ثم يونس ، ثم هود ، ثم يوسف ، ثم الحِجْر ، ثم الأنعام ، ثم الصافات ، ثم لقمان ، ثم سبأ ، ثم الزمر ، ثم حم المؤمن (أي غافر) ، ثم حم السجدة (أي فصلت) ، ثم حم عسق (أي الشورى) ، ثم حم الزخرف ، ثم حم الدخان ، ثم حم الجاثية ، ثم حم الأحقاف ، ثم (الذاريات) ، ثم الغاشية، ثم الكهف ، ثم النحل ، ثم نوح ، ثم إبراهيم ، ثم الأنبياء ، ثم المؤمنون ، ثم ﴿ الم × تَنْزِيلُ﴾ أي السجدة ، ثم (الطور) ، ثم الملك ، ثم

(الحاقة) ، ثم ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ (أي المعارج) ، ثم ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ، ثم ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾ ، ثم ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ ، ثم ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ ، ثم الروم .

واختلفوا في آخر ما نزل بمكة ، فقال ابن عباس : العنكبوت . وقال الضحاك وعطاء المؤمنون ، وقال مجاهد : ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ فهذا ترتيب ما نزل من القرآن بمكة ، وعليه استقرت الرواية من الثقات ، وهي خمس وثمانون سورة .

ثم قال رحمه الله :

ذكر ترتيب ما نزل بالمدينة

وهو تسع وعشرون سورة :

فأول ما نزل فيها : سورة البقرة ، ثم الأنفال ، ثم آل عمران ، ثم الأحزاب ، ثم الممتحنة ، ثم النساء ، ثم ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ ، ثم الحديد ، ثم محمد ، ثم الرعد ، ثم الرحمن ، ثم ﴿هَلْ أَتَى﴾ أي الإنسان ، ثم الطلاق ، ثم ﴿لَمْ يَكُنْ﴾ أي البينة ، ثم الحشر ، ثم ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ ثم النور ، ثم الحج ، ثم المنافقون ، ثم المجادلة ، ثم الحجرات ، ثم ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ أي التحريم ، ثم الصف ، ثم الجمعة ، ثم التغابن ، ثم الفتح ، ثم التوبة ، ثم المائدة .

ومنهم من يقدِّم المائدة على التوبة ، وقرأ النبي ﷺ المائدة في خطبة حجة الوداع وقال : «يا أيها الناس إن آخر القرآن نزولاً سورة المائدة ، فأحلوا حلالها وحرّموا حرامها» ، فهذا ترتيب ما نزل بالمدينة . وأما ما اختلفوا فيه : ففاتحة الكتاب ، قال ابن عباس والضحاك ومقاتل وعطاء : إنها مكية . وقال مجاهد : مدنية ، واختلفوا في ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ فقال ابن عباس : مدنية ، وقال عطاء : هي آخر ما نزل بمكة ، فجميع ما نزل بمكة خمس وثمانون سورة ، وجميع ما نزل بالمدينة تسع وعشرون سورة على اختلاف الروايات . انتهى كلام الزركشي في البرهان .

وأما أقرب ما قيل في تعداد السور المكية والمدنية إلى الصحة أن المدني عشرون سورة وأن المختلف فيه اثنتا عشرة سورة ، وما عدا ذلك مكي ، وهذا ما ذهب إليه ابن الحصار ونقله عنه السيوطي في الإتقان . وخلاصة ما قاله ابن الحصّار :

أن السور المدنية هي : (١) البقرة (٢) وآل عمران (٣) والنساء (٤) والمائدة (٥) والأنفال (٦) والتوبة (٧) والنور (٨) والأحزاب (٩) ومحمد (١٠) والفتح (١١) والحجرات (١٢) والحديد (١٣) والمجادلة (١٤) والحشر (١٥) والممتحنة (١٦) والجمعة (١٧) والمنافقون (١٨) والطلاق (١٩) والتحريم (٢٠) والنصر .

وأما المختلف فيه فهي : (١) الفاتحة (٢) والرعد (٣) والرحمن (٤) والصف (٥) والتغابن (٦) والتطفيف (٧) والقدر (٨) ولم يكن (البينة) (٩) وإذا زلزلت (١٠) والإخلاص (١١) قل أعوذ برب الفلق (١٢) قل أعوذ برب الناس .

وأما المكي فهو ما عدا ذلك ، وهي اثنتان وثمانون سورة .

صلات تتعلق بالمكي والمدني

هناك أنواع تتعلق بالمكي والمدني مثل الحضري والسفري والليلي والنهاري والصيفي والشتائي وغيرها من الأنواع التي ذكرها أهل العلم ، وقد أفاض السيوطي في الإتقان والزركشي في البرهان والزرقاني في مناهل العرفان ، وكذلك الدكتور محمد أبو شهبة في المدخل، أفاض هؤلاء جزاهم الله خيرًا في ضرب الأمثلة على هذه الأنواع ، ولن نفعل مثل ما فعلوا ولكنا سنكتفي بضرب بعض الأمثلة، ومن أراد الاستيعاب فعليه النظر في الكتب التي ذكرناها .

الصلة الأولى: الحضري والسفري

أكثر القرآن نزل في الحضر ولكن حياة رسول الله ﷺ كانت عامرة بالجهاد والغزو في سبيل الله ، حيث يتنزل عليه الوحي في مسيره وأسفاره ، فمن أمثلة ما نزل في السفر:

١- قوله تعالى : ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾ [النساء: ١٠٢] نزلت بعسفان بين الظهر والعصر ، كما أخرجه أحمد عن أبي عياش الزُّرقي .

٢- قوله تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة : ٣] ، ففي الصحيح عن عمر أنها نزلت عشية عرفة يوم الجمعة عام حجة الوداع.

٣- قوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ﴾ [التوبة: ٤٢ وما بعدها] نزلت

في غزوة تبوك ، كما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس .

٤- سورة الفتح ، ففي صحيح البخاري في قصة عمر مع رسول الله ﷺ أن النبي ﷺ قال: لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ ، وكان ذلك منصرفه من الحديبية ، وأخرجه الحاكم في المستدرك عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا : «نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية من أولها إلى آخرها».

الصلة الثانية: النهاري والليلي

أمثلة النهاري كثيرة جدًا ، قال ابن حبيب النيسابوري : نزل أكثر القرآن نهارًا ، وأما الليلي فمن أمثلته :

١- قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠] ، فقد أخرج ابن حبان في صحيحه ، وابن المنذر وابن مردويه وابن أبي الدنيا في كتاب «التفكر» عن عائشة أن بلالاً أتى النبي ﷺ يؤذنه لصلاة الصبح ، فوجده يبكي ، فقال : يا رسول الله، ما يبكيك؟ قال : وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل عليَّ هذه الليلة : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ ﴾ الآية ، ثم قال : ويل لمن قرأها ولم يتفكر.

٢- آية الثلاثة الذين خُلفوا : وهي : ﴿ وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾ [التوبة: ١١٨]، ففي الصحيحين من حديث كعب بن مالك : فأنزل الله توبتنا حين بقي الثلث الأخير من الليل ، والثلاثة هم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع .

٣- سورة مريم ، روى الطبراني عن أبي مريم الغسالي ، قال : أتيت رسول الله ﷺ ، فقلت : وُلدت لي الليلة جارية ، فقال : والليلة أنزلت عليَّ سورة مريم ، سمِّها مريم.

الصلة الثالثة: الصيفي والشتائي

والظاهر أن مرادهم بالصيف أيام الحر وما يقرب منها وبالشتاء أيام البرد وما يدنو منها ، وبهذا الاعتبار تكون السنة ما بين صيف وشتاء ، إذ أيام الاعتدالين الربيع والخريف إما قريبة من الصيف أو قريبة من الشتاء ، وقد أحصى أحد العلماء بعضًا من ذلك .

فمن أمثلة الصيفي :

١ ـ روى مسلم في صحيحه عن عمر قال : ما راجعت رسول الله ﷺ في شيء ما راجعته في الكلالة ، وما أغلظ في شيء ما أغلظ لي فيه ، حتى طعن بأصبعه في صدري وقال : يا عمر ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر النساء وهي قوله تعالى: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ ﴾ [النساء:١٧٦]؟ وقد كان ذلك في سفر حجة الوداع ، فيعد من الصيفي ما نزل فيها كأول المائدة و﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ .

٢- ومن الصيفي الآيات النازلة في غزوة تبوك ، فقد كانت في شدة الحر كما دل عليه القرآن والسنة . وذلك مثل : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَتَّبَعُوكَ ﴾ [التوبة: ٤٢] ، ومثل آية : ﴿ وَقَالُوا لاَ تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ٨١]، وآية : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ [التوبة: ٤٩] .

ومن أمثلة الشتائي :

١- قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [النور : ١١] . ففي الصحيح عن عائشة أنها نزلت في يوم شات .

٢- الآيات التي نزلت في غزوة الخندق في سورة الأحزاب ، فقد كانت في شدة البرد كما يدل على ذلك القرآن ، وما ذكر في المغازي ، ففي حديث حذيفة تفرق الناس عن رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب إلا اثني عشر رجلاً فأتاني رسول الله ﷺ فقال : «قم فانطلق إلى معسكر الأحزاب». قلت : يا رسول الله ، والذي بعثك بالحق ما قمت لك إلا حياءً من البرد . الحديث . وفيه : فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾ [الأحزاب: ٩ وما بعدها] . أخرجه البيهقي في الدلائل .

مختارات من علوم القرآن

السور المكية والمدنية والاختلاف فيها

إعداد

مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد: سبق أن تحدثنا في العدد الماضي عن السور المكية والمدنية، وبيَّنا أن هناك أنواعًا من الصلات تتعلق بسور القرآن الكريم المكي والمدني منها، والحضري والسفري والنهاري والليلي، والصيفي والشتائي، ونكمل إن شاء الله تعالى بعض هذه الصلات والتي منها:

الصلة الرابعة: ما تأخر حكمه عن نزوله وما تأخر نزوله عن حكمه

فمن أمثلة ما تأخر حكمه عن نزوله:

(١) قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى:١٤-١٥] فقد روى البيهقي وغيره عن ابن عمر أنها نزلت في زكاة الفطر، وقد استشكل ذلك، لأن السورة مكية ولم يكن بمكة عيد مشروع ولا زكاة ولا صوم، وقد أجاب البغوي بأنه يجوز أن يكون النزول سابقا على الحكم وهو جواب حسن.

(٢) قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر:٤٥] فقد نزلت بمكة قطعا ولم يكن شرع الجهاد، وقد استشكل عمر ذلك ثم تبين له أن المراد بالجمع جمع بدر، فقد روى عنه أنه قال حيث نزلت الآية: أي جمع؟ فلما كان يوم بدر وانهزمت قريش نظرت إلى رسول الله ﷺ في آثارهم مصلتا بالسيف يقول ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ فكانت ليوم بدر. أخرجه الطبراني في الأوسط فيكون من الإشارات والنبوءات الغيبية التي أظهرت الأيام صدقها، وكانت من دلائل النبوة.

(٣) قوله تعالى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ:٤٩] أخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود أن المراد بالحق السيف، يعني الجهاد، واستشكل بأن الآية مكية متقدمة على فرض القتال، والجواب أن هذا مما تقدم نزوله على حكمه، ويؤيد تفسير ابن مسعود ما أخرجه الشيخان من حديثه أيضا قال: دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح وحول الكعبة ثلثمائة وستون نصبًا فجعل يطعنها بعود كان في يده ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١] ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾

أقول: والمتبادر من الحق أنه الأمر الثابت، فتفسيره بالجهاد غير قوي، ويكون المراد بالحق الدين الحق، أو كلمة التوحيد.

(٤) قوله تعالى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام:١٤١] فالمراد بها الزكاة وقوله تعالى في سورة المزمل: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [المزمل:٢٠] فهذا مما تأخر حكمه عن نزوله، إذ الزكاة إنما شرعت بالمدينة وهذا على رأي بعض العلماء، وعلى أن السورتين كلتيهما مكيتان، ولكن بعض العلماء يرى أن آية ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ...﴾ الآية مدنية وأنها ناسخة لوجوب قيام الليل في صدر السورة، ويرى فريق من العلماء أن فرض الزكاة كان بمكة أما تفصيل أحكامها وأنصبتها، وبيان مصارفها فكان بالمدينة، وعلى هذا فلا تكون الآيتان من هذا القبيل.

وأما الحكمة في تقدم النزول عن الحكم: فقد أشار إليها ابن الحصار بقوله: «قد ذكر الله الزكاة في السور المكيات كثيرًا تصريحا وتعريضًا بأن الله سينجز وعده لرسوله ويقيم دينه، ويظهره حتى يفرض الصلاة والزكاة وسائر الشرائع ولم تؤخذ الزكاة إلا بالمدينة بلا خلاف» ولعل مراده بالأخذ التنفيذ العملي، فإن ذلك لم يكن إلا بالمدينة قطعًا، أما أصل المشروعية فللعلماء فيها خلاف كما ذُكر، وأيضا ليكون ذلك من أعلام صدقه، ودلائل نبوته ﷺ.

ومن أمثلة ما تأخر نزوله عن حكمه:

(١) آية الوضوء، ففي صحيح البخاري عن عائشة قالت: سقطت قلادة لي بالبيداء ونحن داخلون المدينة، فأناخ رسول الله ﷺ ونزل فثنى رأسه في حجري راقدا، وأقبل أبو بكر فلكزني لكزة شديدة، وقال: حبست الناس في قلادة، ثم إن النبي ﷺ استيقظ وحضرت الصبح فالتمس الماء فلم يوجد. فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٦] فالآية مدنية إجماعا، وفرض الوضوء كان بمكة مع فرض الصلاة قال ابن عبد البر: معلوم عند جميع أهل المغازي أنه ﷺ لم يصلِّ منذ فرضت عليه الصلاة إلا بوضوء، ولا يدفع ذلك إلا جاهل أو معاند، قال: والحكمة في نزول آية الوضوء مع تقدم العمل به ليكون فرضه متلوا بالتنزيل، وجوز غيره أن يكون أول الآية نزل مقدما مع فرض الوضوء، ثم نزل بقيتها، وهو ذكر التيمم في هذه القصة، ويرد هذا الاحتمال أن الآية مدنية بالإجماع.

(٢) آية الجمعة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة:٩] فإنها مدنية، والجمعة فرضت بمكة، وأما ما قاله ابن الغرس: إن إقامة الجمعة لم تكن بمكة قط فيرده ما ورد عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، قال: كنت قائد أبي حين ذهب بصره، فكنت إذا خرجت به إلى الجمعة فسمع الآذان يستغفر لأبي أمامة أسعد بن زرارة فقلت: يا أبتاه أرأيت صلاتك على أسعد بن زرارة كلما سمعت النداء بالجمعة لم هذا؟ قال: أي بني كان أول من صلى بنا الجمعة قبل مقدم رسول الله ﷺ من مكة، أقول: وهذا إنما يصلح للرد إن أراد ابن الغرس بقوله هنا إنها لم تفرض قبل الهجرة، أما إن أراد أنها لم تؤد بجماعة بمكة فلا يصلح ردًا عليه.

الصلة الخامسة: ما حمل من مكة إلى المدينة

فمن أمثلة ذلك سورة سبح، فقد أخرج البخاري عن البراء بن عازب أنه قال: أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، فجعلا يقرآننا القرآن ثم جاء عمار وبلال وسعد ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين ثم جاء النبي ﷺ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون هذا رسول الله ﷺ قد جاء، فما جاء حتى قرأت ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ في سور مثلها من المفصل.

ما حمل من المدينة إلى مكة

من ذلك قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٧] وهذا إنما يتجه على أن السائل هم المشركون، فقد روى أن وفدا منهم قدموا على النبي ﷺ بعد سرية عبد

الله بن جحش وقتلهم ابن الحضرمي من المشركين، وكان ذلك في آخر يوم من جمادى الآخرة، وأرجف المشركون، وقالوا: إنهم قتلوه في الشهر الحرام أي رجب، فأنزل الله الآية دفاعًا عن السرية، واعتذارا عما بدر منها، وأنه شيء قليل بجانب ما يصدر عن المشركين من إجرام في حق الله ودينه وبيته والمسلمين فيكون الوفد لما قرئت عليه حملها معه، أو أرسل النبي ﷺ من حملها إليهم في مكة.

ومن ذلك صدر سورة براءة، فقد أرسل النبي ﷺ به عليا ليقرأه على الناس في الموسم سنة تسع، كما في الصحيح، ومن ذلك آية الربا في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٧٨] فقد اختلف بنو عمرو بن عمير من ثقيف مع بني المغيرة بن عبد الله، ورفعوا الأمر إلى أمير مكة عتاب بن أسيد فرفع الأمر إلى رسول الله فنزلت فأرسل بها النبي إلى عتاب بن أسيد.

ما حمل من مكة إلى الحبشة

كسورة مريم فقد صح أن جعفر بن أبي طالب قرأها على النجاشي لما ذهب رسولا قريش كي يرد المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة إلى مكة، فأبى حتى يسمع كلامهم، فتكلم ابن أبي طالب فأحسن وأجاد، فقال له النجاشي: هل معك من شيء مما جاء به عن الله تقرؤه عليَّ؟ فقال جعفر: نعم، وقرأ عليه سورة مريم، فلما سمع النجاشيُّ السورة قال: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاةٍ واحدةٍ، وقال البطارقة: هذه كلمات تصدرُ من النبع الذي صدرت منه كلماتُ سيدنا يسوع المسيح.

ما حمل من المدينة إلى الروم

ومثاله قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤] فقد صح أن رسول الله ﷺ كتبها في الكتاب الذي بعث به إلى هرقل عظيم الروم والمقوقس عظيم مصر.

الصلة السادسة: ما نزل مفرقا وما نزل جمعا

أما الأول فأمثلته كثيرة لا يحصيها العدُّ، لأن غالب القرآن نزل كذلك فمن ذلك في السور القصار سورة (اقرأ)، فقد نزل صدرها إلى (ما لم يعلم) و(المدثر) نزل صدرها إلى (والرجز فاهجر) و(الضحى) نزل صدرها إلى (فترضى) ثم نزلت أواخرها بعد هذا، وفي السور الطوال صدر سورة (براءة) وصدر سورة (آل عمران) إلى بضع وثمانين آية، بسبب وفد نجران لما قدموا على النبي ﷺ.

ومثال الثاني: في السور القصار (الفاتحة)، (والإخلاص)، (والكوثر)، (وتبت) (ولم يكن)، (والنصر) (والمعوذتان) وفي السور الطوال من المفصل (المرسلات) (وسورة الصف)، ومما ذكروه من السور الطوال (سورة الأنعام) فقد أخرج أبو عبيد والطبراني عن ابن عباس قال: نزلت سورة الأنعام بمكة ليلا جملة حولها سبعون ألف ملك وأخرج الطبراني عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «نزلت سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك» وهذا الذي ذكروه غير مسلم، فإن سورة الأنعام، وإن كانت مكية إلا أن منها آيات مدنية قطعا مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام:٩١] إلى ثلاث آيات فقد نزلت بسبب مالك بن الصيف أحد أحبار اليهود، كما يدل على ذلك سبب النزول، واستثنى بعض العلماء غير هذه الآيات الثلاث، وأما الآثار التي ذكروها فلم تثبت، قال ابن الصلاح في فتاويه: الحديث الوارد في أنها نزلت جملة واحدة رويناه من طريق أبي بن كعب، وفي إسناده ضعف ولم نر له إسنادًا صحيحًا، أما نزولها مشيعة فأمر محتمل إذا ثبتت به الرواية، ويكون التشييع يجلِّها وما نزل منها لا لجميعها كما ذكروا، أو نقول: إن المراد بنزولها يشيعها سبعون ألف ملك نزولها من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في بيت العزة، ويكون نزولها مفرقة على النبي ﷺ فيما بعد ذلك.

مختارات من علوم القرآن

الشبهات التي أثيرت حول المكي والمدني والرد عليها

إعداد
مصطفى البصراتي

من الأمور الملموسة لدى الجميع أنه على امتداد عمر الإسلام منذ ظهوره حتى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وجد وسيوجد أعداء كثيرون- ما دام الصراع قائمًا بين الحق والباطل- هؤلاء الأعداء يتحينون كل فرصة للطعن في الإسلام عمومًا وفي القرآن الكريم خصوصًا، ونحن أمام هذه الهجمة ينبغي لنا أن نقوم بواجب الدفاع عن ديننا والذب عن القرآن الكريم الذي هو أصل الدين ومنبع الصراط المستقيم، ومما يؤسف له أن بعض الذين تسموا بأسماء المسلمين، وصنعتهم أوربا بيديها وربَّتهم على عينيها ومن على شاكلتهم قد استهوتهم هذه الأباطيل فصاروا ينشرونها ويذيعونها في الناس وفي بعض الدروس والكتب التي يزعمون أنها أدبية.

وفيما يلي بعض تلك الشبهات التي أثيرت حول أسلوب القرآن المكي والمدني مع تفنيد هذه الشبهات والرد عليها حتى لا ينخدع بها ضعاف النفوس من المسلمين:

الشبهة الأولى

«إن الباحث الناقد، يلاحظ أن في القرآن أسلوبين متعارضين، لا تربط الأول بالثاني صلة ولا علاقة، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذا الكتاب قد خضع لظروف مختلفة، وتأثر ببيئات متباينة، فنرى القسم المكي منه يمتاز بكل مميزات الأوساط المنحطة، كما نشاهد القسم المدني منه تلوح عليه أمارات الثقافة والاستنارة، فالقسم المكي ينفرد بالعنف والشدة، والقسوة والحدة».

والرد على هذه الشبهة:

إن دعوى أن القسم المكي قد تفرد بالعنف والشدة ينقضه أن في القسم المدني كذلك شدة وعنفًا، فدعوى تفرد القسم المكي بذلك باطلة، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آية: ٢٤]، وإنما اشتمل القرآن بقسميه المكي والمدني على الشدة والعنف، لأن ضرورة التربية الرشيدة، في إصلاح الأفراد والشعوب، وسياسة الأمم والدول، تقضي أن يمزج المصلح في قانون هدايته، بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، والشدة واللين.

فإن كان قد استخدم العنف ردًا على أبي لهب في قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]، فإنه قد قال في سورة الشورى المكية أيضًا: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]، وكما وجد في الأسلوب المكي ذلك العنف فقد وجد أيضًا في الأسلوب المدني الذي يفترى على القرآن أنه هادنهم فيه، اقرأ في سورة البقرة: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]، وقال فيها أيضًا: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ

الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة:٢٧٥]، وقال فيها أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة:٢٧٨]، وإذا كانت الشدة في المكي أكثر منها في المدني فلأن أهل مكة بطبعهم كانوا شديدي المعارضة مسرفين في العناد والإباء، لم يتركوا بابًا من الشر إلا دخلوه على الرسول ﷺ وعلى أصحابه، ولم يكفهم أن يخرج من بلده وأهله بل وجهوا له الأذى في مهاجره.

الشبهة الثانية

جاء في الموسوعة البريطانية: «إن أسلوب السور المكية يؤدي إلى تقطيع الفكرة، واقتضاب المعاني، كما أن السور المدنية تتناول مواضيع مختلفة في سورة واحدة، وهذا يعطي للقارئ انطباعًا بأنه مجرد إنشاء جاء بطريقة عشوائية».

الرد على هذه الشبهة:

إن من لوازم هذه الشبهة- كما ترى- عدم الترابط بين الآيات القرآنية مكيها ومدنيها، وهذه دعوى باطلة تدل على بطلانها بنفسها، وقد رد على ذه الشبهة الدكتور محمد محمد أبو شهبة فقال: «إن القول بأن القسم المكي يمتاز بتقطع الفكرة واقتضاب المعاني بخلاف القسم المدني قول من لم يتمعن في القرآن، ولم يعن بدراسته ومن يرسل القول على عواهنه ولم يأخذ من اللغة العربية وأسرارها وآدابها بحظ وافر». ولو توجهنا نسأل هؤلاء الأعداء: أين النصوص القرآنية التي يظهر فيها عدم الترابط؟ لما وجدوا لهذا السؤال جوابًا.

إن علم المناسبات بين آيات القرآن وسوره يفند هذه الشبهة من أساسها، انظر كتابًا ككتاب البقاعي «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور»، و«أسرار التنزيل» للسيوطي وانظر تفسيرًا كتفسير الرازي فإنك واجد في هذه المؤلفات نظرات عميقة في مناسبات السور والآيات.

الشبهة الثالثة

جاء في الموسوعة البريطانية ما نصه: «إن أسلوب الوحي المحمدي نثرًا مقفى، أو ما يسميه العرب بالسجع، وقد استعمل هذا الأسلوب سابقًا من قبل الكهنة ومن قبل المنجمين.

فالسور الأولى- أي المكية- تتصف آياتها بالقصر وبقوتها الشعرية وبتعبيرها الحيويّ أما السور الأخيرة فجاءت آياتها طويلة، مفصلة ومعقدة نثرية في مظهرها ولغتها، مما تسبب عنها اختلاف في ترقيم الآيات».

الرد على هذه الشبهة:

ينبغي أن نعلم بدايةً أن التفرقة بين أسلوب المكي وأسلوب المدني عند الأعداء كانت لها أبعادها ومقدماتها ونتائجها، ومن ذلك أنهم يريدون أن يصلوا إلى إثبات أن هذا القرآن كان خاضعًا للبيئات المختلفة، ولا شك أن هذه فرية من جملة أكاذيبهم التي لا تقوم على دليل.

والحق في سبب هذه التفرقة هو أن اختلاف الموضوع ينتج عنه تنوع في الأسلوب مع المحافظة على الجودة وحسن الصياغة لكل منهما.

فالقرآن المكي- كما سبق- جاء ليعالج موضوع العقيدة بشكل رئيسي، أما القرآن المدني فكان تركيزه على إيجاد نظام شامل لكل متطلبات الحياة.

وحسبنا في إبطال هذه الفرية أن نذكر هؤلاء التائهين أن سورة الأنعام من طوال السور وهي مكية، وسورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ من قصار السور وهي مدنية.

وأن الاختلاف بين الطول والقصر غير دال على قطع الصلة، فكلاهما في أعلى مراتب الفصاحة، يدرك ذلك من له تذوق بقواعد علوم البلاغة.

كذلك توجد آيات مدنية في سور مكية، وآيات مكية في سور مدنية ولا خلل ولا اضطراب بل دقة انسجام وجميل ترتيب، وما علم المناسبات بين الآيات والسور إلا مرآة تكشف ما في ترتيب الآيات والسور من إحكام.

إن تحدي القرآن كما هو موجود في سور مكية كسورة يونس والإسراء موجود كذلك في سور مدنية كسورة البقرة.

وعلى العموم:

مَنْ سلفكم في هذه الفرية، بل هذه الافتراءات؟ أليس كل الناس متفقين على أنَّ العرب هم أعلم الناس باللغة والفصاحة والبلاغة والبيان وبكل أساليب النقد، ورغم كل ذلك لم يواجهوا القرآن وآياته بشيء مما تقولون وتزعمون، بل ظهر منهم الإعجاب والثناء إلى الحد الذي فتنوا به عجبًا من هذا الأسلوب البديع الذي عجز الجميع عن أن يأتي بآية من مثله.

فهل أنتم أعلم أم هم؟!

مختارات من علوم القرآن

الشبهات التي أثيرت حول المكي والمدني والرد عليها

الحلقة الثانية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فقد بينا في الحلقة السابقة بحمد الله تعالى الردود على بعض الشّبه التي أثيرت حول المكي والمدني من القرآن الكريم، وفندنا بعض تلك الأباطيل التي قيلت حول أسلوب القرآن المكي والمدني، ونكمل بمشيئة الله تعالى تفنيد بعض تلك الشبه حول هذا الموضوع في هذه الحلقة.

إعداد
مصطفى البصراتي

الشبهة الرابعة

يقولون: إن القسم المكي قد خلا من التشريع والأحكام على حين أن القسم المدني مشحون بتفاصيل التشريع والأحكام، وذلك يدل على أن القرآن من وضع محمد ﷺ وتأليفه تبعًا لتأثره بالوسط الذي يعيش فيه، فعندما كان في مكة بين أميين خلا كتابه من العلوم والمعارف العالية، ولما حل بالمدينة بين أهل الكتاب المثقفين جاء كتابه مليئًا بتلك العلوم والمعارف.

الرد على هذه الشبهة:

ومما ينقض هذه الشبهة ما يلي:

أ- أن القسم المكي لم يخل جملة من التشريع والأحكام، بل عرض لها ولكن بطريقة إجمالية موجزة كما في الوصايا العشر من سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ إلى تمام ثلاث آيات بعدها، فقد أشار إلى مقاصد الدين الخمسة: حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، على أن التشريع بمعناه العام يشمل كل ما شرع الله لعباده مما يقربهم إليه ويعرفهم به، فيشمل العقائد والأخلاق والمعاملات وغير ذلك، لكنه صار عرفًا في تنظيم علاقة الناس بعضهم ببعض، وهذا موجود في الوصايا العشر.

ب- تفصيل التشريع في المدينة ليس نتيجة لما زعموه، بل تمشيًا مع الحكمة الرشيدة في سياسة الأمم، فلابد من التمهيد قبل التوجيه، والإجمال قبل التفصيل، وذلك أن الطفرة نتيجتها الخيبة، والتدرج نتيجته السداد والتوفيق، وتقديم الأهم على المهم واجب من حيث الحكمة.

ج- أن ما زعموه لو كان صحيحًا لظهر أثر أهل الكتاب المدنيين فيمن معهم من عرب أهل المدينة، وفيمن حولهم من أهل مكة وآفاق الجزيرة، ولكانوا هم الأحرى بالنبوة والرسالة، ولسبق محمدًا إليها كثير غيره من فصحاء العرب وتجار قريش الذين كانوا يختلطون

بأهل الكتاب في المدينة والشام أيما اختلاط.

د- أن القرآن الكريم تحدى الناس كافة مكيين ومدنيين، فهلا كان من أهل المدينة هؤلاء من يستطيعون أن يجاروه ولو في مقدار سورة قصيرة واحدة لو كانوا كما يزعم أولئك المبطلون مصدر الإلهام والتعليم؟

لقد كان في مكة الأميون والبلغاء، وفي المدينة أهل الكتاب والعرب الأميون، فكان أهل مكة يلمحون بذكاء خارق الإشارات إلى التعميم والتفصيل المرتقب من مثل قوله تعالى في سورة فصلت المكية: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت:٦-٧]، بل إن التدرج بدأ في مكة وانتهى في المدينة عندما قال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا، ثم توالت الآيات في التدرج في تحريم الخمر بالمدينة.

الشبهة الخامسة

يقولون: إن القرآن أقسم كثيرًا بالضحى، والليل، والتين والزيتون، وطور سينين، وكثير من المخلوقات، ولا ريب أن القسم بالأشياء الحسية يدل على تأثر القرآن بالبيئة في مكة؛ لأن القوم فيها كانوا أميين، لا تعدوا مداركهم حدود الحسيات، أما بعد الهجرة واتصال محمد ﷺ بأهل المدينة، وهم قوم مثقفون مستنيرون، فقد تأثر القرآن بالوسط الراقي وخلا من تلك الأيمان الحسية الدالة على البساطة والسذاجة.

الرد على هذه الشبهة:

ومما يبطل هذه الشبهة ما يلي:

أ- أن القسم بالأمور الحسية لم يكن مرده إلى انحطاط القوم، بل إلى رعاية مقتضى الحال فيما سيق لأجله، وقد تفشت في القوم عقائد الشرك فلم يكن من سبيل إلى استئصالها إلا بلفت عقولهم إلى ما في الكون من خلق الله وشئون الله، وفتح عيونهم على طائفة كبيرة من نعم الله المحيطة بهم ليصلوا من وراء ذلك إلى الإيمان بالله وحده وإلى عبادته وحده.

ب- وما من محسوس وَقَع مُقْسَمًا به في القرآن إلا وفيه أسرار عجيبة تنأى به عن السذاجة والبساطة، وتشهد ببراعة المخاطبين به وتفوقهم في الفهم والذكاء والبيان لأن في القسم به إشارة إلى تلك الأسرار العظيمة التي أودعها الله فيه، وهذه الأسرار لا يدركها إلا اللبيب، ولا يفهمها إلا من كمل عقله وسلم ذوقه، كما قال تعالى في سورة الواقعة المكية: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥]، لقد أقسم الله جل وعلا بالضحى والليل إذا سجى، وفي هذا القسم إشارة إلى أن تنزل الوحي أشبه بضحوة النهار، وأن فترة الوحي أشبه بهدأة الليل.

وسبب نزول هذه الآيات أن النبي ﷺ فتر عنه الوحي مرة فرماه أعداؤه بأن ربه ودعه وقلاه أي تركه أو أبغضه، فنزلت هذه الآيات مصدرة بهذا القسم، مشيرة إلى أن ما كان من سطوع الوحي على قلبه بمنزلة الضحى، وأن ما عرض بعد ذلك من فترة الوحي فإنه بمنزلة الليل إذا سجى، فإذا كانوا يتقبلون الضحى والليل بالتسليم والرضا لما فيهما من نفع للإنسان بالسعى والحركة في النهار والنوم والاستجمام بالليل فيجب أن يتقبلوا ما يجري على محمد ﷺ من نزول الوحي وفترته للمعنى الذي سلف.

وأقسم بالتين إشارة إلى العهد الأول للإنسان، حيث آدم، وبالزيتون إشارة إلى العهد الثاني حيث نوح، وقد أغرق الله الأرض، ولم يبق فيها جافًا سوى الزيتون، وطور سنين تذكيرًا بعهد موسى، والبلد الأمين تذكيرًا بتلك الشريعة الغراء حيث نشأ محمد صلى الله عليه وعلى سائر الأنبياء وسلم تسليمًا.

وهكذا كالقسم بالعصر الذي ينشط فيه الإنسان والفجر الذي يبدأ فيه نشاطه، والليالي العشر التي فيها ليلة القدر، هي خير من ألف شهر، والنجم الذي يقتدي به ويهتدي إشارة إلى نبيه ﷺ ومعراجه، وكن يقظًا متأملاً في سائر الأقسام، فسوف تجد فيها من الأسرار العِجَاب ما لا يدركه إلا من كمل عقله وسلم ذوقه.

قلت: جاءت الأحاديث الصحيحة في النهي عن القسم بغير الله فليس لعباده أن يقسموا بغيره وهو سبحانه يقسم بما شاء من مخلوقاته، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون.

والحمد لله رب العالمين.

مختارات من علوم القرآن

إعجاز القرآن

الحلقة الأولى

إعداد
مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه أما بعد:

بعد أن استعرضنا بعض المختارات من علوم القرآن، فإننا نُطوّف حول الإعجاز القرآني، لنلقي الضوء على بعض وجوه الإعجاز فيه، فسبحان من هذا كلامه، فأنّى يستطيع البشر أن يعارضوه، وكيف يُشبه كلام الخالق كلام المخلوقين، قال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨].

تعريف المعجزة في اللغة:

اسم فاعل مشتق من الإعجاز، والإعجاز: مصدر أعجز، يقال: عجز فلان عن الأمر إذا حاوله فلم يستطعه، ولم تتسع له مقدرته وجهده. فهو إثبات العجز أو نسبة العجز إلى الغير، وتسمى المعجزة معجزة لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها لأنها أمر خارق للعادة خارج عن حدود الأسباب المعهودة.

والمعجزة شرعًا: أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي، يظهره الله تعالى على يد كل رسول ليكون دليلا على صدق رسالته.

وإعجاز القرآن معناه: إثبات عجز البشر متفرقين ومجتمعين عن الإتيان بمثله.

ويتحقق الإعجاز بوجود التحدي، وقيام الدافع إلى رد هذا التحدي، وانتفاء المانع من ذلك.

وقد ثبت أن الله عز وجل تحدى العرب بالقرآن على مراحل مختلفة، فمن عجيب أمر هذا القرآن وأمر هؤلاء العرب، أنه طاولهم في المعارضة، وتنازل لهم عن التحدي بجميع القرآن إلى التحدي بعشر سور مثله، ثم إلى التحدي بسورة واحدة من مثله، وكانوا أفصح الفصحاء، وهم على رغم هذه المطاولة ينتقلون من عجز إلى عجز ومن هزيمة إلى هزيمة، وهو في كل مرة من مرات هذا التحدي وهذه المطاولة، ينتقل من فوز إلى فوز ويخرج من نصر إلى نصر.

لقد قال لهم في سورة الطور أول ما تحداهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لاَ يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور:٣٣-٣٤]. فلما

انقطعوا مد لهم في الحبل

وقال في سورة هود: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [هود:١٣-١٤] فلما عجزوا هذه المرة أيضًا طاولهم مرة أخرى وأرخى لهم الحبل إلى آخره، وتحداهم بسورة فقال في سورة يونس ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ... ﴾ [يونس:٣٨] ثم كرر في سورة البقرة: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ... ﴾ [البقرة:٢٣] فكان عجزهم بعد ذلك أشنع وأبشع، وسجل الله عليهم الهزيمة أبد الدهر فلم يفعلوا ولن يفعلوا، ودحضت حجتهم وافتضح أمرهم، وظهر أمر الله وهم كارهون، ولما عجزوا بإظهار العجز وإعجاز القرآن فقال: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٨] هذا وهم الفصحاء وقد كانوا أحرص شيء على إطفاء نوره وإخفاء أمره، فلو كان في مقدرتهم معارضته لعدلوا إليها قطعا للحجة، ولم يُنقل عن أحد منهم أنه حدث نفسه بشيء من ذلك بل عدلوا إلى العناد تارة وإلى الاستهزاء أخرى فتارة قالوا: (سحر) وتارة قالوا: (شعر) وتارة قالوا: (أساطير الأولين) كل ذلك التحير والانقطاع ثم رضوا بتحكيم السيف في أعناقهم وسَبْي ذراريهم واستباحة أموالهم.

وقد توافرت لدى العرب الدوافع لرد هذا التحدي الذي يعلنه عليهم من يشهد عليهم بالكفر ويسفه أصنامهم ويفرق بهذا الدين بين الولد وأبيه.

ولم يكن لدى العرب مانع يَحُولُ بينهم وبين رد هذا التحدي لو كانوا يستطيعون فهم أرباب الفصاحة والبلاغة التي شهد بها الأولون والآخرون، والإعجاز لسائر الأمم على مر العصور ظل ولا يزال في موقف التحدي شامخ الأنف، فأسرار الكون التي يكشف عنها العلم الحديث ما هي إلا مظاهر للحقائق العليا التي ينطوي عليها سر هذا الوجود في خالقه ومدبره، وهو ما أجمله القرآن أو أشار إليه ـ فصار القرآن بهذا معجزا للإنسانية كافة.

قال السيوطي رحمه الله في الإتقان: اعلم أن المعجزة أمرٌ خارق للعادة مقرون بالتحدي، سالم من المعارضة، وهي إما حسية وإما عقلية. وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية، لبلادتهم وقلة بصيرتهم، وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم، ولأن هذه الشريعة ـ لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خصت بالمعجزة العقلية الباقية، ليراها ذوو البصائر، كما قال ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أُعطِيَ ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا». [رواه البخاري]

التحقيق في اسم المعجزة والآية والكرامة وإطلاقهن:

إن الأولى في تسمية ما أجراه الله لأنبيائه من الخوارق أن تسمى: آيات أو بينات أو براهين، وذلك أجدر بها من تسميتها معجزات لوجوه:

الوجه الأول: أن لفظ «المعجزة» لم يرد في الكتاب ولا في السنة.

قال شيخ الإسلام في الجواب الصحيح: والآيات والبراهين الدالة على نبوة محمد ﷺ كثيرة متنوعة، وهي أكثر وأعظم من آيات غيره من الأنبياء، ويسميها من يسميها من النُّظَّار (معجزات) وتسمى (دلائل النبوة) و(أعلام النبوة).

وهذه الألفاظ إذا سميت بها آيات الأنبياء كانت أدل على المقصود من لفظ المعجزات ولهذا لم يكن لفظ (المعجزات) موجودا في الكتاب والسنة، وإنما فيه لفظ (الآية) و(البينة) و(البرهان) كما قال تعالى في قصة

موسى: ﴿.. فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ..﴾ [القصص:٣٢] في العصا واليد، وقال الله تعالى في حق محمد ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء:١٧٤].

وقد قال في مطالبة أهل الدعاوي الكاذبة بالبرهان: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:١١١].

وأما لفظ (الآيات) فكثير في القرآن كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ...﴾ [الأنعام:١٢٤]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ...﴾ [الإسراء:١٠١] وقال قوم صالح له: ﴿.. فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء:١٥٤].

وقال: ﴿.. هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً..﴾ [الأعراف:٧٣] وقال المسيح: ﴿... قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ...﴾ [آل عمران:٤٩] وقال في حق محمد ﷺ ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام:٤]. وغير ذلك كثير.

وأما لفظ المعجزة، فإنما يدل على أنه أعجز فيه، كما قال تعالى: ﴿.. وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر:٥١] وقال: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ [الشورى:٣١].

الوجه الثاني: أن لفظ «الآية» و«البينة» و«البرهان» في تسمية خوارق الأنبياء أدل على مقصودها من تسميتها معجزة، ولذلك اختصت بها هذه الألفاظ فلا تقع على غيرها إذ حدها حد الدليل والبرهان والمراد بها إقامة الدليل على صدق النبي ولم تقم لمجرد الإعجاز. أما لفظ المعجزة فإنه وإن كان من بعض صفات آيات الأنبياء وشرط فيها وهو من لوازمها إلا أن العجز عن معارضتها غير مقصود لذاته وليس هو بمراد الله من إيتائه الآيات لأنبيائه بل المراد كونها دليلا على ثبوت النبوة وبرهانا لها وآية عليها.

الوجه الثالث: أن عرف الأئمة المتقدمين كالإمام أحمد بن حنبل وغيره جرى على تسميتها آيات وقد جرى عرف من صنف في معجزات النبي ﷺ على تسمية مصنفاتهم فيها باسم «دلائل النبوة» ولم يسموها معجزات، ومن ذلك: (دلائل النبوة لابن قتيبة) (دلائل النبوة لابن أبي الدنيا) (دلائل النبوة لإبراهيم بن إسحاق الحربي) (دلائل النبوة لأبي بكر الفريابي) (دلائل النبوة لأبي نعيم) (دلائل النبوة لابن شاهين) (دلائل النبوة للمستغفري) وغير ذلك كثير.

وربما سموا تصانيفهم في معجزات النبي ﷺ بـ «أعلام النبوة» ومنه: (أعلام النبوة لأبي داود السجستاني) (أعلام النبوة لابن قتيبة) (أعلام النبوة لابن أبي الدنيا) (أعلام النبوة للماوردي) (أعلام النبوة للبكري) (أعلام النبوة لابن ظفر).

وإطلاق لفظ «المعجزة» و«الإعجاز» في ذكر آيات الأنبياء كان معروفا في أواخر القرن الثالث وكان ربما يقرن بلفظ الدلائل ولفظ الأعلام، ومن هذا تسمية أبي عوان الإسفرائيني كتابا له في دلائل النبوة باسم «دلائل الإعجاز».

وكان لفظ المعجزة يطلق على كل خارق سواء ظهر لنبي أو لولي غير نبي، لا فرق في ذلك عندهم ويدل عليه قول الأشعري رحمه الله في كتابه مقالات الإسلاميين:

«واختلفوا هل يجوز أن تظهر الأعلام على غير الأنبياء فقال قائلون: لا تجوز أن تظهر الأعلام المعجزات على غير الأنبياء» إلى أن قال: «وقال قائلون: جائز أن تظهر المعجزات على الصالحين الذين لا يدعون النبوة».

ولكن استقر الاصطلاح عند المتأخرين على قصر اسم «المعجزة» على خارق النبي، وسموا خارق الولي «كرامة».

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

وجوه إعجاز القرآن الكريم

الحلقة الثانية

مختارات من علوم القرآن

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

وجوه إعجاز القرآن الكريم:

بعد أن أجمع أهل العلم على إعجاز القرآن بذاته، وعلى عدم استطاعة أحد من البشر أن يأتي بمثله، تعددت أقوالهم في وجوه إعجاز هذا الكتاب المبارك.

فمن إعجاز القرآن: حسن تأليفه، وفصاحته، ووجوه إعجازه، وبلاغته الخارقة عادة العرب، وذلك أنهم كانوا أرباب هذا الشأن وفرسان الكلام، قد خُصوا من البلاغة والحِكَم ما لم يُخص به غيرهم من الأمم، وأوتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت إنسان، جعل الله لهم ذلك طبعًا وخِلْقَةً، وفيهم غريزة وقوة، يأتون منه على البديهة بالعجب، وتساجلوا في النظم والنثر، فما راعهم إلا رسول كريم، بكتاب عزيز: ﴿ لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢].

إعداد
مصطفى البصراتي

أحكمت آياته وفصلت كلماته، وبهرت بلاغته العقول، وظهرت فصاحته على كل مقول، ولهذا لما سمع الوليد بن المغيرة من النبي ﷺ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ﴾ [النحل: ٩٠]، قال: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر، ما يقول هذا بشر- وهو تشبيه منه بأنه كشجرة مُثمرةٍ.

وذكر أبو عبيد أن أعرابيًا سمع رجلاً يقرأ: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ [الحجر: ٩٤]، فسجد وقال: سجدت لفصاحته. وسمع آخر رجلاً يقرأ: ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نجيا ﴾ [يوسف: ٨٠]. فقال: أشهد أن مخلوقًا لا يقدر على مثل هذا الكلام.

وحكى الأصمعي أنه سمع جارية تتكلم فقال لها: قاتلك الله، ما أفصحك؟ فقالت: أو يُعد هذا فصاحة بعد قول الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧]، فجمع في آية واحدة بين أمرين، ونهيين، وخبرين، وبشارتين.

فهذا نوع من إعجازه، منفرد بذاته، غير مضاف إلى غيره على التحقيق والصحيح من القولين.

وكون القرآن أتى به النبي من عند الله معلوم ضرورة، وكونه ﷺ متحديًا به معلوم ضرورة، وعجز العرب عن الإتيان به معلوم ضرورة، وكونه في فصاحته خارقًا للعادة معلوم ضرورة للعالمين بالفصاحة ووجوه البلاغة.

وإذا تأملت قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقوله: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلاَ فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ [سبأ: ٥١].

وقوله: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤]، وقوله: ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وأشباهها من الآي- بل أكثر القرآن- حققت ما بينته من إيجاز ألفاظها وكثرة معانيها وحسن تأليف حروفها، وأن تحت كل لفظة منها جملاً كثيرة، وفصولاً

جمة، وعلومًا زواخر، ملئت الدواوين من بعض ما استفيد منها، وكثرت المقالات في المستنبطات عنها.

ثم هو في سرد القصص الطوال وأخبار القرون السوالف التي يضعف في عادة الفصحاء عندها الكلام آية لمتأمله من ربط الكلام بعضه ببعض، كقصة يوسف على طولها، ثم إذا ترددت قصصه اختلفت العبارات عنها على كثرة ترددها حتى تكاد كل واحدة تُنسي في البيان صاحبتها، ولا نفور للنفوس من ترديدها ولا معاداة لمعادها.

ومن إعجازه: الإخبار عن السابقين:

أخبر القرآن عن الأمم المتقدمة على لسان نبي أُميّ لا يعرف الكتابة ولا يقرأ المكتوب كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]، إلى قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

وأخبر عن خلق آدم وقصته مع الشيطان وقصص الأنبياء مع قومهم وخبر موسى والخضر وأصحاب الكهف وذي القرنين ولقمان وابنه وعن بعض أحكام التوراة حتى تحداهم الله بقوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [المائدة: ١٥]. بل قد شهد له من هداه الله من أهل الكتاب فقال تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [الأحقاف: ١٠].

يتحداهم ذلك النبي الأمي فلا يستطيعون رد شيء مما يقول كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

ومن إعجازه: الإخبار عن الأمور المستقبلة:

إخباره عن أمور مستقبلة وما انطوى عليه من الأخبار بالمغيبات، وما لم يكن ولم يقع فوقعت مطابقة لما أخبر الله به في كتابه.

كقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ٣]، وقوله عز وجل: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣]، وقوله جل وعلا: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] إلى آخرها.

فكان جميع هذا كما قال تعالى: فغلبت الروم فارس في بضع سنين، ودخل الناس في دين الإسلام أفواجًا، فما مات ﷺ وفي بلاد العرب كلها موضع لم يدخله الإسلام، واستخلف الله المؤمنين في الأرض ومكن فيها دينهم وملكهم إياها من أقصى المشارق إلى أقصى المغارب كما قال ﷺ: «زويت لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها». رواه مسلم.

ومنه قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]، وذلك قبل أن يُفرض القتال لأن السورة مكية.

وقوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]، فهزموا يوم بدر، وقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ﴾ [آل عمران: ١١١]، فكان كل ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فكان كذلك، فكم من ملحد وضال ومجرم قد أجمعوا كيدهم وحولهم وقوتهم، فما قدروا على إطفاء شيء من نوره ولا تغيير كلمة من كلامه، ولا تشكيك المسلمين في حرف من حروفه والحمد لله، فإن الله تكفل بحفظه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وعلى الرغم مما حوته كتب الشيعة الروافض من الطعن في القرآن- ونقلهم عن أئمة أهل البيت كذبًا وافتراءً تغييره بالزيادة والنقصان- وكذلك ما تمخض عن داري نشر أمريكيتين فقذفتا لنا أخيرًا آيات شيطانية في مصحف مزعوم أسمته: «الفرقان الحق» ويوزع في إحدى الدول العربية على المتفوقين من أبنائنا الطلبة في المدارس الأجنبية الخاصة، يتألف من ٧٧ سورة حرفوا فيه كتاب الله ونشروا فيه الباطل، فإن كل ذلك لم يؤثر في تواتر صحته عند المسلمين شيئًا، بل لم يزدد إلا تعظيمًا وتقديرًا وانتشارًا.

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى

وجوه إعجاز القرآن الكريم

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

وجوه إعجاز القرآن الكريم

بعد أن أجمع أهل العلم على إعجاز القرآن بذاته، وعلى عدم استطاعة أحد من البشر أن يأتي بمثله، تعددت أقوالهم في وجوه إعجاز هذا الكتاب المبارك.

فمن إعجاز القرآن: حسن تأليفه، وفصاحته، ووجوه إعجازه، وبلاغته الخارقة عادة العرب، وذلك أنهم كانوا أرباب هذا الشأن وفرسان الكلام، قد خُصوا من البلاغة والحِكَم ما لم يُخص به غيرهم من الأمم، وأوتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت إنسان، جعل الله لهم ذلك طبعًا وخِلْقَةً، وفيهم غريزة وقوة، يأتون منه على البديهة بالعجب، وتساجلوا في النظم والنثر، فما راعهم إلا رسول كريم، بكتاب عزيز: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

أحكمت آياته وفصلت كلماته، وبهرت بلاغته العقول، وظهرت فصاحته على كل مقول، ولهذا لما سمع الوليد بن المغيرة من النبي ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل: ٩٠]، قال: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر، وما يقول هذا بشر- وهو تشبيه منه بأنه كشجرة مُثمرةٍ.

وذكر أبو عبيد أن أعرابيًا سمع رجلاً يقرأ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]، فسجد وقال: سجدت لفصاحته. وسمع آخر رجلاً يقرأ: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠]. فقال: أشهد أن مخلوقًا لا يقدر على مثل هذا الكلام.

وحكى الأصمعي أنه سمع جارية تتكلم فقال لها: قاتلك الله، ما أفصحك؟ فقالت: أو يُعد هذا فصاحة بعد قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]، فجمع في آية واحدة بين أمرين، ونهين، وخبرين، وبشارتين.

فهذا نوع من إعجازه، منفرد بذاته، غير مضاف إلى غيره على التحقيق والصحيح من القولين.

وكون القرآن أتى به النبي من عند الله معلوم ضرورة، وكونه ﷺ متحديًا به معلوم ضرورة، وعجز العرب عن الإتيان به معلوم ضرورة، وكونه في فصاحته خارقًا للعادة معلوم ضرورة للعالمين بالفصاحة ووجوه البلاغة.

وإذا تأملت قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سبأ: ٥١].

وقوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، وقوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وأشباهها من الآي- بل أكثر القرآن- حققت ما بينته من إيجاز ألفاظها وكثرة معانيها وحسن تأليف حروفها، وأن تحت كل لفظة منها جملاً كثيرة، وفصولاً جمة، وعلومًا زواخر،

ملئت الدواوين من بعض ما استفيد منها، وكثرت المقالات في المستنبطات عنها.

ثم هو في سرد القصص الطوال وأخبار القرون السوالف التي يضعف في عادة الفصحاء عندها الكلام آية لمتأمله من ربط الكلام بعضه ببعض، كقصة يوسف على طولها، ثم إذا ترددت قصصه اختلفت العبارات عنها على كثرة ترددها حتى تكاد كل واحدة تُنسي في البيان صاحبتها، ولا نفور للنفوس من ترديدها ولا معاداة لمعادها.

ومن إعجازه: الإخبار عن السابقين

أخبر القرآن عن الأمم المتقدمة على لسان نبي أميّ لا يعرف الكتابة ولا يقرأ المكتوب كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٢]، إلى قوله: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ [يوسف: ١١١].

وأخبر عن خلق آدم وقصته مع الشيطان وقصص الأنبياء مع قومهم وخبر موسى والخضر وأصحاب الكهف وذي القرنين ولقمان وابنه وعن بعض أحكام التوراة حتى تحداهم الله بقوله: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ [المائدة: ١٥]. بل قد شهد له من هداه الله من أهل الكتاب فقال تعالى: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ [الأحقاف: ١٠].

يتحداهم ذلك النبي الأمي فلا يستطيعون رد شيء مما يقول كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

ومن إعجازه: الإخبار عن الأمور المستقبلة

إخباره عن أمور مستقبلة وما انطوى عليه من الأخبار بالمغيبات، وما لم يكن ولم يقع فوقعت مطابقة لما أخبر الله به في كتابه.

كقوله تعالى: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ [الفتح: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ [الروم: ٣]، وقوله عز وجل: ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ [التوبة: ٣٣]، وقوله جل وعلا: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ [النور: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ [النصر: ١] إلى آخرها.

فكان جميع هذا كما أخبر تعالى: فغلبت الروم فارس في بضع سنين، ودخل الناس في دين الإسلام أفواجًا، فما مات ﷺ إلا وقد دخل الإسلام بلاد العرب كلها، واستخلف الله المؤمنين في الأرض ومكن فيها دينهم وملكهم إياها من أقصى المشارق إلى أقصى المغارب كما قال ﷺ: «زويت لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها». رواه مسلم.

ومنه قوله تعالى: ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [المزمل: ٢٠]، وذلك قبل أن يُفرض القتال لأن السورة مكية.

وقوله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٥]، فهزموا يوم بدر، وقوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ [التوبة: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ﴾ [آل عمران: ١١١]، فكان كل ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، فكان كذلك، فكم من ملحد وضال ومجرم قد أجمعوا كيدهم وحولهم وقوتهم، فما قدروا على إطفاء شيء من نوره ولا تغيير كلمة من كلامه، ولا تشكيك المسلمين في حرف من حروفه والحمد لله، فإن الله تكفل بحفظه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وعلى الرغم مما حوته كتب الشيعة الروافض من الطعن في القرآن- ونقلهم عن أئمة أهل البيت كذبًا وافتراءً تغييره بالزيادة والنقصان- وكذلك ما تمخض عن داري نشر أمريكيتين فقذفتا لنا أخيرًا

آيات شيطانية في مصحف مزعوم اسمته: «الفرقان الحق» ويوزع في إحدى الدول العربية على المتفوقين من أبنائنا الطلبة في المدارس الأجنبية الخاصة، يتألف من ٧٧ سورة حرفوا فيه كتاب الله ونشروا فيه الباطل، فإن كل ذلك لم يؤثر في تواتر صحته عند المسلمين شيئًا، بل لم يزدد إلا تعظيمًا وتقديرًا وانتشارًا.

ومن إعجازه: تأثر المستمع به

تأثر مستمعه به ثابت في نصوص القرآن والسنة، قال سبحانه وتعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال تعالى مخبرًا عن تأثر الجن بالقرآن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١، ٢]، روى البخاري عن ابن عباس قال: «انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجع الشياطين فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء، قال: فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة وهو عامد إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن تسمعوا له فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١، ٢]، وأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ١] وإنما أوحى إليه قول الجن.

تأثر النصارى بالقرآن

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٣- ٨٤].

وكذلك تأثر كفار قريش به: كما روى البخاري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥- ٣٧]، كاد قلبي أن يطير.

ولما سمع الوليد بن المغيرة النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن رق فجاءه أبو جهل منكرًا عليه، قال: والله ما منكم أحد أعلم بالأشعار مني، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا، وفي خبر الآخرين جمع قريشًا عند حضور الموسم وقال: إن وفود العرب ترد فأجمعوا فيه رأيًا لا يكذب بعضكم بعضًا، فقالوا: نقول: كاهن. قال: والله ما هو بكاهن، ما هو بزمزمته ولا سجعه. قالوا: مجنون. قال: ما هو بمجنون ولا بخنقه ولا وسوسته. قالوا: فنقول: شاعر. قال: ما هو بشاعر، وقد عرفنا الشعر كله، ما هو بشاعر. قالوا: فنقول ساحر. قال: ما هو بساحر، ولا نفثه ولا عقده. قالوا: فما نقول؟ قال: ما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا وأنا أعرف أنه باطل، وإن أقرب القول أنه ساحر، فإنه سحر يفرق بين المرء وابنه، والمرء وأخيه، والمرء وزوجه، والمرء وعشيرته، فتفرقوا وجلسوا على السبل يحذرون الناس، فأنزل الله تعالى في الوليد: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: ١١]، وقال عتبة بن ربيعة حين سمع القرآن: يا قوم قد علمتم أني لم أترك شيئًا إلا وقد علمته وقرأته وقلته، والله لقد سمعت قولاً، والله ما سمعت مثله قط، ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة.

هدانا الله وإياكم إلى صراطه المستقيم، وللحديث بقية إن شاء الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

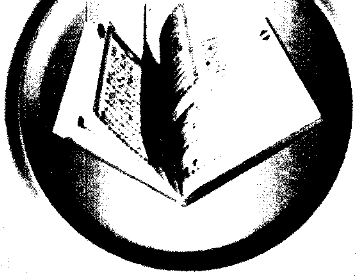

الإعجاز العلمي في القرآن

إعداد

مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

وبعد:

فإن الإعجاز العلمي في القرآن يقصد به عدم تعارض شيء من حقائق العلم مع مقررات القرآن الكريم، كما يقصد به مطابقة الحقائق العلمية لما ورد في شأنها من الآيات القرآنية.

ويخطئ كثير من الناس حين يحرصون على أن يتضمن القرآن الكريم كل نظرية علمية، وكلما ظهرت نظرية جديدة التمسوا لها محملاً في آية يتأولونها بما يوافق هذه النظرية، ومنشأ الخطأ في هذا أن العلوم تتجدد نظرياتها مع الزمن تبعًا لسنة التقدم، فلا تزال في نقص دائم يكتنفه الغموض أحيانًا، والخطأ أحيانًا أخرى، وتستمر هكذا حتى تقرب من الصواب، وتصل إلى درجة اليقين، وأي نظرية منها تبدأ بالتخمين وتخضع للتجربة حتى يثبت يقينها، أو يتضح زيفها وخطؤها، ولهذا كانت عرضة للتبديل، وكثير من القواعد العلمية التي ظن الناس أنها أصبحت من المسلمات تتزعزع بعد ثبوت، وتتقوض بعد رسوخ، ثم يستأنف الباحثون تجاربهم فيها مرة أخرى.

والذين يفسرون القرآن الكريم بما يطابق مسائل العلم، ويحرصون على أن يستخرجوا منه كل مسألة تظهر في أفق الحياة العلمية، يسيئون إلى القرآن من حيث يظنون أنهم يحسنون صنعًا؛ لأن هذه المسائل التي تخضع لسنة التقدم تتبدل، وقد تتقوض من أساسها وتبطل، فإذا فسرنا القرآن بها تعرضنا في تفسيره للنقائض كلما تبدلت القواعد العلمية أو تتابعت الكشوف بجديد ينقض القديم، أو يقين يبطل التخمين.

والقرآن الكريم كتاب عقيدة وهداية، يخاطب الضمير فيحيي فيه عوامل النمو والارتقاء وبواعث الخير والفضيلة.

وإعجازه العلمي ليس في اشتماله على النظريات العلمية التي تتجدد وتتبدل وتكون ثمرة للجهد البشري في البحث والنظر، وإنما في حثه على التفكير، فهو يحث الإنسان على النظر في الكون وتدبره، ولا يشل حركة العقل في تفكيره، أو يحول بينه وبين الاستزادة من العلوم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وليس ثمة كتاب

من كتب الشرائع السابقة يكفل هذا بمثل ما يكفله القرآن.

يقول العلماء في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ [البقرة:١٨٩]، اتجه الجواب إلى واقع حياتهم العملي لا إلى مجرد العلم النظري، وحدثهم عن وظيفة الأهلة في واقعهم وفي حياتهم ولم يحدثهم عن الدورة الفلكية للقمر وكيف تتم؟ وهي داخلة في مدلول السؤال...

إن القرآن قد جاء لما هو أكبر من تلك النظريات الجزئية، ولم يجئ ليكون كتاب علم فلكي، أو كيميائي أو طبي... كما يحاول بعض المتحمسين له أن يلتمسوا فيه هذه العلوم أو كما يحاول بعض الطاعنين فيه أن يلتمسوا مخالفاته لهذه العلوم، إن كلتا المحاولتين دليل على سوء الإدراك لطبيعة هذا الكتاب ووظيفته ومجال عمله، إن مجال عمله هو النفس الإنسانية والحياة الإنسانية، وإننا لنعجب لسذاجة هؤلاء المتحمسين الذين يحاولون أن يضيفوا إليه ما ليس منه وأن يحملوا عليه ما لم يقصد إليه، وأن يستخرجوا منه جزئيات في علوم الطب والكيمياء والفلك وما إليها، كأنما ليعظموه بهذا ويكبروه، إن الحقائق القرآنية حقائق نهائية قاطعة مطلقة، أما ما يصل إليه البحث الإنساني أيًا كانت الأدوات المتاحة له- فهي حقائق غير نهائية ولا قاطعة وهي مقيدة بحدود تجارية وظروف هذه التجارة وأدواتها، فمن الخطأ المنهجي- بحكم المنهج العلمي الإنساني ذاته أن تعلق الحقائق النهائية القرآنية بحقائق غير نهائية وهي كل ما يصل إليه العلم البشري- هذا بالقياس إلى الحقائق العلمية، فهي قابلة دائمًا للتغيير والتعديل والنقص والإضافة بل قابلة لأن تنقلب رأسًا على عقب، بظهور أداة كشف أو بتفسيرات جديدة لمجموعة الملاحظات القديمة، وكل محاولة لتعليق الإشارات القرآنية العامة بما يصل إليه العلم من نظريات متجددة متغيرة أو حتى بحقائق علمية ليست مطلقة كما أسلفنا- تحتوي أولاً على خطأ منهجي أساسي، كما أنها تنطوي على معان ثلاثة لا تليق بجلال القرآن الكريم.

الأول: هو الهزيمة الداخلية التي تخيل لبعض الناس أن العلم هو المهيمن والقرآن تابع ومن يحاولون تثبيت القرآن بالعلم، أو الاستدلال له من العلم، على حين أن القرآن كتاب كامل في موضوعه، ونهائي في حقائقه، والعلم لا يزال في موضوعه ينقض اليوم ما أثبته بالأمس وكل ما يصل إليه غير نهائي ولا مطلق، لأنه مقيد بوسط الإنسان وعقله وأدواته، وكلها ليس من طبيعتها أن تعطي حقيقة واحدة نهائية مطلقة.

الثاني: سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته وهي أنه حقيقة نهائية جاء لهداية البشرية إلى طريق الله المستقيم باتباع رسوله الأمين ﷺ.

الثالث: هو التأويل المستمر مع التكلف لنصوص القرآن كي نحملها ونلهث بها وراء الفروض والنظريات التي لا تثبت ولا تستقر، وكل يوم يوجد فيها جديد.

ومع هذه الحقيقة التي أثبتناها وهي أن الحقائق القرآنية حقائق نهائية قاطعة مطلقة وما يصل إليه البحث العلمي أيًا كانت الأدوات المتاحة له فهي حقائق غير نهائية ولا قاطعة وأنها قابلة دائمًا للتغيير والتعديل والنقص والإضافة، فإن أي مسألة من مسائل العلم، أو قاعدة من قواعده، يثبت رسوخها، ويتبين يقينها، تكون محققة لما حث عليه القرآن من تفكير سليم، ولا تتعارض معه بحال من الأحوال، وقد تقدمت العلوم وكثرت مسائلها ولم يتعارض شيء ثابت منها مع آية من آيات القرآن، وهذا وحده إعجاز.

وكون القرآن كتاب هداية لا يمنع من ورود إشارات علمية سيقت مساق الهداية، هذه الإشارات تعقد من أجلها المؤتمرات في الطب والفلك وغيرهما بين حين وآخر، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾. [فصلت:٥٣]

وقد أمرنا أن نتلو القرآن حق تلاوته وأن نتدبره حق تدبره، فقال سبحانه: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وقد أمر جل وعلا عباده بإطلاق البصر للتدبر والتأمل في الآيات المبثوثة على صفحات الكون: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

[آل عمران: ١٩٠، ١٩١]

وهذا المعنى مذكور في مواضع كثيرة من كتاب الله.

وفي كل شيء له آية
تدل على أنه الواحد

ولسنا بصدد استقراء هذه الإشارات القرآنية فإنها أكثر من أن يستوعبها الحصر ولا يزال هذا القرآن يهب كنوزه ويتفجر عطاؤه ولا تنقضي عجائبه.

ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام أن القرآن كتاب هداية وإرشاد في المقام الأول، وأن ما ورد فيه من إشارات علمية إنما ورد في مقام الهداية والإرشاد، وأن مقصودها الأول أن تكون دليلاً على عصمة هذا الكتاب وأن الذي جاء به رسول من عند الله.

وقد تعامل الناس مع الإعجاز العلمي بطرائق ثلاث:

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نذكر أن الناس في قضية الإعجاز طرفان ووسط بينهما:

١- فمنهم من غلا في هذا الباب، فأخذ يلهث وراء كل جديد في نظريات العلم يفسر به بعض آيات الكتاب لعله يتكلف إعجازًا أو يعتسف برهانًا مع ما في ذلك من التقرير بصدق هذا الكتاب عندما تتبدل هذه النظريات ويظهر عوار هذه التفسيرات.

٢- ومنهم من فرط فأغلق هذا الباب بالكلية فرارًا من المحاذير التي تورط فيها الفريق الأول مع ما في ذلك من تفويت الإفادة من هذا الوجه الحيوي من وجوه الإعجاز.

٣- والمتوسطون بين هؤلاء وهؤلاء من أحكموا ضوابط البحث في هذا المجال، ففرقوا بين الحقائق والنظريات، ولم يربطوا كتاب الله بنظريات متغيرة، كما لم يتعسفوا في تفسير الآيات القرآنية لتلتقي مع الحقائق العلمية، بل أقاموا منهجهم في البحث على ثلاث دعائم:

الأولى: الحقيقة الشرعية، وفيها يحرصون على التثبت من أنهم أمام حقيقة شرعية مستيقنة، وسبيلهم إلى ذلك تحقيق هذا الجانب مع الثقات العدول الفحول من علماء الشريعة.

الثانية: الحقيقة الكونية، وفيها يحرصون على التثبت من أنهم أمام حقيقة كونية قد اتفق عليها قادة هذا التخصص على مستوى العالم، وأجمعوا على تجاوزها مرحلة الاحتمالات والنظريات.

الثالثة: وجه الإعجاز، ويشترط فيه ألا يتضمن الربط بين الحقيقتين: الكونية والشرعية نوعًا من التكلف أو التعسف أو الخروج على الظاهر المتبادر بغير برهان ساطع، وإن من بوادر الخير في هذا المقام تأسيس هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة بمكة، وهي أول هيئة علمية متخصصة تعني بدراسة هذا الوجه من وجوه الإعجاز.

بطلان القول بالصرفة:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الجواب الصحيح: «ومن أضعف الأقوال قول من يقول من أهل الكلام: إنه معجز بصرف الدواعي مع تمام الموجب لها، أو بسلب القدرة التامة أو بسلبهم القدرة المعتادة في مثله سلبًا عامًا». انتهى.

وقد زعم النظام وهو أحد رءوس المعتزلة وإليه تنسب فرقة النظَّامية وهو شيخ الجاحظ وكالمرتضي من الشيعة إلى أن إعجاز القرآن كان بالصرفة، أي أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها فكان هذا الصرف خارقًا للعادة، أو أن الله سلبهم العلوم التي يحتاجون إليها في المعارضة ليجيئوا بمثل هذا القرآن، ويؤول هذا القول إلى أن القرآن ليس معجزًا لذاته، وإنما يرجع إعجازه إلى هذا الصارف الإلهي الذي زهدهم في المعارضة أو إلى العارض المفاجئ الذي عطل مواهبم البيانية وقدرتهم البلاغية.

وهذا القول باطل من جملة وجوه:

أولاً: أنه لو صح لكان الإعجاز في الصرفة لا في القرآن ذاته، وهو باطل بالإجماع.

ثانيًا: أنه لو صح لكان تعجيزًا لا إعجازًا، لأنه يكون بمثابة ما لو قطعنا لسان إنسان وكلفناه بالكلام فهو من باب التعجيز وليس من باب العجز.

ثالثًا: قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سُلبوا القدرة لم يبق فائدة لاجتماعهم فإنه يصبح بمنزلة اجتماع الموتى وليس عجز الموتى بالأمر الكبير الذي يحتفل بذكره.

وإلى لقاء إن شاء الله

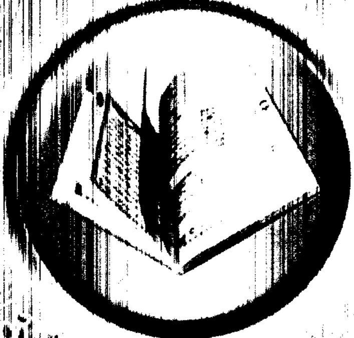

مختارات من علوم القرآن

فضائل القرآن

إعداد

مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه. وبعد:

فإن القرآن الكريم- كتاب الله عز وجل- هو منهاج حياتنا كلها وهو أصل الأدلة والأحكام الشرعية، جعله الله سبحانه وتعالى آخر رسالاته لهداية البشرية وإخراجها من الظلمات إلى النور وتحقيق مصالحها الدينية والدنيوية.

والقرآن الكريم هو كلام الله المعجز المنزل على سيدنا محمد ﷺ باللفظ العربي المتعبد بتلاوته، والمنقول إلينا بالتواتر في المصاحف، والمبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس، أودع الله سبحانه فيه الهدى والنور والرحمة والسعادة والشفاء، وأبان فيه العلم والحكمة والحكم والتشريع. من سار عليه وعمل به سلم وهدي إلى صراط مستقيم.

قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

إن القرآن الكريم هو هدى الله تعالى، الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ ليكون طريقًا للمؤمنين، يسيرون على هديه ويتبعون منهجه.

والقرآن الكريم هو روح الأمة الإسلامية، به حياتها وعزها ورفعتها، قال تعالى مخاطبًا رسوله محمدًا ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

فالقرآن الكريم روح يبعث الحياة ويحركها وينميها في القلوب، وفي الواقع العملي المشهود. والأمة بغير القرآن أمة هامدة لا حياة لها ولا وزن ولا مقدار.

والقرآن الكريم هو النور الهادي إلى الصراط المستقيم، نور تخالط بشاشته القلوب التي يشاء الله لها أن تهتدي به، قال تعالى:

﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

إن القرآن الكريم هو الكتاب الخالد الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢].

وقد تكفل الله تعالى بحفظه فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر:٩].

فضل القرآن الكريم:

فضل القرآن الكريم كبير وعظيم، فهو الكتاب الذي أخرج به الله عز وجل هذه الأمة من الضلالة العمياء، والجاهلية البغيضة إلى نور الهداية وسبل السلام، هو كتاب ختم الله سبحانه به الكتب، وأنزله على نبي ختم به الأنبياء وأرسله بدين ختم به الأديان.

نهل من معينه العلماء، وخشعت لهيبته الأبصار، ورقت له القلوب وقام بتلاوته العابدون الراكعون الساجدون، هو كما يقول الإمام الشاطبي في موافقاته: «كلية الشريعة وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة ونور الأبصار والبصائر، فلا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره ولا تمسك بشيء يخالفه».

هو كتاب عقائد وعبادات وحكم وأحكام وآداب وأخلاق وقصص ومواعظ وعلوم وأخبار وهداية وإرشاد، هو أساس رسالة التوحيد والرحمة المسداة للناس أجمعين، والنور المبين، والمحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨]، قال ابن عباس: المهيمنُ الأمينُ. قال: القرآن أمين على كلّ كتاب قبله، وفي رواية شهيدٌ عليه.

وفي أسماء الله تعالى: ﴿ الْمُهَيْمِنُ ﴾ [الحشر: ٢٣]، وهو الشهيد على كل شيء الرقيب الحفيظ بكل شيء. وقال الله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ [يونس: ٥٨]، قال ابن عباس: فضل الله: الإسلام، ورحمتهُ: أن جعلكم من أهل القرآن.

وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

فالقرآن مشتمل على الشفاء والرحمة، وليس ذلك لكل أحد، وإنما ذلك للمؤمنين به المصدقين بآياته العالمين به، وأما الظالمون بعدم التصديق به أو عدم العمل به، فلا تزيدهم آياته إلا خسارًا.

وقال تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١٥]، وهو القرآن، يستضاء به في ظلمات الجهالة وعماية الضلالة.

وقال الله تعالى: ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، «وهذا» أي القرآن. «ذكر مبارك أنزلناه» فوصفه بوصفين جليلين، كونه ذكرًا يتذكر به جميع المطالب من معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، ومن صفات الرسل والأولياء وأحوالهم ومن أحكام الشرع من العبادات والمعاملات وغيرها، ومن أحكام الجزاء والجنة والنار، وسماه ذكرًا، لأنه يذكر ما ركزه الله في العقول والفطر من التصديق بالأخبار الصادقة والأمر بالحسن والنهي عن القبيح- وكونه «مباركًا» يقتضي كثرة خيراته ونماءها وزيادتها ولا شيء أعظم بركة من هذا القرآن.

وقال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ [الأنبياء: ١٠] أي شرفكم وفخركم وارتفاعكم، وما تُذكرون به.

وقوله تعالى: ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ ﴾ [المؤمنون: ٧١] أي: بما فيه شرفُهم.

والحمد لله رب العالمين

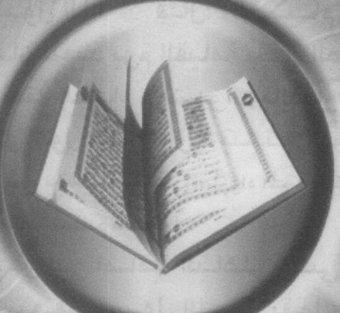

مختارات من علوم القرآن

فضائل القرآن

الحلقة الثانية

إعداد

مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد:

فقد تناولنا في العدد السابق الحديث عن فضائل القرآن وذكرنا بعض الآيات الدالة على فضائل القرآن الكريم، وفي هذا العدد :

١. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة». [رواه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الكبرى وفي الدلائل والبغوي في شرح السنة]

التعليق:

قال ابن كثير رحمه الله في مقدمة تفسيره: وفي هذا الحديث فضيلةٌ عظيمة للقرآن المجيد على كُلِّ معجزة أعطيها نبيٌّ من الأنبياء وعلى كلِّ كتاب أنزلَهُ.

وذلك أن معنى الحديث: ما من نبيٍّ إلا أُعْطِيَ - أي من المعجزات - ما آمن عليه البشر».

أي: ما كان دَليلا على تصديقه فيما جاءَهُم به واتَّبَعَهُ من اتَّبعَهُ من البشر، ثم لما مات الأنبياء لم تبقَ لهم معجزةٌ بعدهم إلا ما يحكيه أتباعُهُم عما شاهدوه في زمانِه. وأما الرسولُ الخاتمُ للرسالة محمد ﷺ فإنَّما كان معظمُ ما آتاهُ الله وحيًا منه إليه منقُولا إلى الناس بالتواتُر، ففي كلِّ حين هو كما أُنزلَ.

فلهذا قال: «فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا» وكذلك وَقعَ. فإن اتباعه أكثر من اتباع الأنبياء لعموم رسالته، ودوامها إلى قيام السَّاعة واستمرار معجزته.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١]. وقال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨] ثم تحداهم أن يأتو بعشر سور منه،

ثم تحداهم إلى أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، وأخبر أنهم عاجزون عن معارضته بمثله وأنهم لا يفعلون ذلك في المستقبل أيضًا، هذا وهم أفصحُ الخلق وأعلمهُم بالبلاغة والشعر وضروب الكلام لكن جاءهم من الله ما لا قبل لأحد من البشر به من الكلام الفصيح البليغ الوجيز المحتوي على العلوم الكثيرة الصحيحة النافعةِ والأخبار الصادقة، عن الغيوب الماضية والآتية والأحكام العادلة المحكمة، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ [الأنعام:١١٥]. انتهى بتصرف.

٢.عن ابن شهاب قال: أخبرني أنس بن مالك أن الله تابع الوحي على رسوله ﷺ قبل وَفَاتِهِ حتى توفاه أكثر ما كان الوَحيُ، ثم تُوفِّي رسول الله ﷺ بَعْدُ».

ومعناه: أن الله تعالى - تابع نزول الوحي على رسوله ﷺ شيئا بعد شيء كلَّ وقتٍ بما يحتاجُ إليه، ولم تقع فترةٌ بعد الفترة الأولى التي كانت بعد نزول الملك أولَ مَرَّةٍ بقوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ [العلق:١] فإنه استلبثَ الوحيُ بعدها حيناً، يقال: قريبًا من سنتين أو أكثر، ثم حميَ الوحي وتتابع، وكان أولُ شيء نزل بعد تلك الفترة ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر:١-٢].

٣. عن الأسود بن قيس قال: سمعت جُنْدبًا يقول: اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتته امرأةٌ فقالت: يا محمدُ ما أرى شيطانك إلا تركك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى:١-٣].

[رواه البخاري ومسلم والترمذي والنَّسائيُّ]

قال ابن كثير: والمناسبة في ذكر هذا الحديث والذي قبله في فضائل القرآن أن الله تعالى له برسوله عناية عظيمة ومحبة شديدة، حيث جعل الوحي متتابعًا عليه ولم يقطعه عنه، ولهذا إنما أنزل عليه القرآن مفرقًا ليكون ذلك أبلغ في العناية والإكرام.

[انتهى كلام ابن كثير في مقدمة التفسير]

٤. عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «الصيام والقرآنُ يشفعان للعبد يومَ القيامة يقولُ الصيام: أي رَبِّ منعتُهُ الطعامَ والشهوات بالنهار فشفعني فيه، ويقولُ القرآنُ: رب مَنعتُهُ النَّوم بالليل فشفعني فيه فيُشَفَّعَانِ». [رواه أحمد واللفظ له، وقال الشيخ شاكر إسناده صحيح]

٥. عن أبي أمامة البَاهليّ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرؤوا القرآنَ، فإنه يأتي يوم القيامةِ شفيعًا لأصحابه...». [رواه أحمد ومسلم في كتاب الصلاة - فضل تعلم القرآن وقراءته]

التعليق:

هذه الشفاعةُ علي تقدير أن يكونَ القارئ صاحب كبيرة فيخلصه من النَّار، وإن لم يكن عليه ذنوبٌ شفع له في رفع درجاته في الجنة، أو في المسابقةِ والمسارعة إليها، أو في جميع ذلك، أو ما شاء اللهُ منها، إذ كُلُّ ذلك بكرمه تعالي وتفضله.

٦. عن ابن مسعود رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «إن هذا القرآن مأدُبةُ الله فاقبلوا مأدُبَتهُ ما استطعتُم، إن هذا القرآن حَبلُ الله، والنورُ المبين والشفاءُ النافعُ عصمةٌ لمن تمسَّك به ونجاة لمن اتبعَهُ، لا يزيغ فيستعتبُ ولا يَعْوَجُّ فيقومُ ولا تنقضي عجائبُهُ، ولا يخلُقُ من كثرة الردِّ، اتلوهُ فإن الله يأجُرُكمْ علي تلاوتهِ بكل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول الم حرفٌ، ولكن ألف عشر ولام عشر وميم عشر».

أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن، والحاكم في المستدرك في فضائل القرآن، وابن أبي شيبة في المصنف والدارمي وعبد الرزاق وذكره الهيثمي موقوفا على ابن مسعود، والحديث ذكره الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٦٠) وقال: هذا إسناد لا بأس به في المتابعات، رجاله كلهم ثقات غير الهجري وهو لين الحديث.

التعليق:

قال أبو عبيد في غريبه عن عبد الله قال: «إن هذا القرآن مأدبة الله فمن دخل فيه فهو آمن». قال وتأويل الحديث: أنه مَثلُ شَبَّه القرآن بصنيع صنعه الله عز وجل للناس، لهم فيه خير ومنافع ثم دعاهم إليه.

يقال مأدُبة، فمن قال: مأدُبة (أي بضم الدال) أراد الصنيع يصنعه الإنسان فيدعو إليه الناس ومن قال مأدَبة (أي بفتح الدال) فإنه يذهب إلى الأدب يجعله مَفْعَلة من الأدب. ومعنى: حبل الله: أي نور هداه، وقيل: عهده وأمانه الذي يؤمن مِن العذاب، والحبل العهد والميثاق.

لا يَخْلَقُ: أي لا يبلى، والمعنى: لا تزول لذة قراءته وتلاوته.

لا يزيغ: لا يميل عن الهدى والقصد.

فضل تلاوة القرآن وحفظه:

إن لتلاوة القرآن الكريم وحفظه وتعهده بالقراءةِ من الفضل ما لا يخفى ويكفي لإثبات ذلك ما جاءت به الآيات الكريمةُ والأحاديث الشريفة وآثار الصحابة رضوان الله عليهم فمن الآيات قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر:٢٩-٣٠]. وقد كان قتادةُ رضي الله عنه إذا قرأ هذه الآية يقول: هذه آية القراء، وذلك لما أثبتهُ لهم من الأجر العظيم والثواب المضاعف فهم لا ينعمونَ بالأجر وافيًا وإنما يزيدُهُم الله إكراما وفضلا.

قال القرطبيُّ: هذه الزيادةُ هي الشفاعةُ في الآخرة، وقد ربط المولى عز وجل بين تلاوةِ القرآن والإيمان به، فقال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة:١٢١].

وقد جاء عن ابن مسعود في تفسير هذه الآية أن من حق التلاوة أن يقرأه كما أنزله الله ولا يُحرفَ الكلم عن مواضعِهِ، ولا يتأولَ منه شيئًا على غير تأويله، وهنا رَبطٌ واضح بين التلاوة الحقة والإيمان بكتاب الله، أما الذين أوتُوا الكتاب فقيل: هم أصحابُ النبي ﷺ والكِتابُ على هذا هو القرآنُ، وقيل هم من أسلم من بني إسرائيل والصوابُ كما قال القرطبي أن الآية تَعُمُّ، وحقُّ التلاوة يجوزُ أن يكون بمعنى الاتباع أو العمل بمحكمه والإيمان بمتشابهه، ويجُوز أن تكون بمعنى: يقرءونَهُ ولا تعارض بين الرأيين «لأن بترتيل ألفاظِهِ وفهم معانيه يكون الاتباع لمن وُفِّقَ، لقد شبَّهَ المصطفى ﷺ الذي يقرأ القرآن بالأترجَّة ريحها طيب وطعمها طيب، والأترجة هي ثمرة جامعة لطيب الطعم والرائحة وحسن اللون».

كما أخبرنا ﷺ أن الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررةِ وأن الذي يقرأ القرآن ويتعتعُ فيه وهو عليه شاق له أجران - والأجران أحدهما بالقراءة والآخر لمحاولة الحفظ - والتعتعة هي التردد في القراءة لضعف الحفظ.

وأيُّ فضلٍ وأيُّ شرفٍ يرنُو إليه مُسلمٌ يعلُو ما أخبر به ﷺ من أن القرآن يأتي يوم القيامة يُلبسُهُ تاج الكرامة ويجعله ممن رضي الله عنهم، وعندما يتم الرضوان يقالُ له: اقرأ وارقَ، ورتل كما كنت ترتلُ في الدُّنيا فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها، وأخبر الصادقُ المصدوق أيضا «أن القرآن يأتي شفيعا لأصحابه يوم القيامة، وقال أبو موسى الأشعريُّ رضي الله عنه - من يتتبع القرآن يهبط به على رياض الجنة.

وفي الأعداد القادمة إن شاء الله نستعرض الأحاديث الواردة في فضل تلاوة القرآن وحفظه وكذلك فضائل السور وغيرها من الأحاديث المتعلقة بفضائل القرآن مع التعليق عليها.

والله الموفق للصواب وبه الثقة وعليه التكلان.

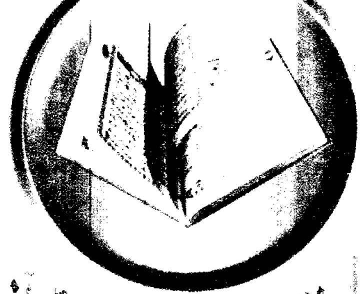

مختارات من علوم القرآن

تلاوة القرآن

إعداد

مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله صحبه وسلم ومن والاه، وبعد:

ويراد بترتيل القرآن: تلاوته تلاوةً تُبينُ حروفها ويُتأنَّى في أدائها ليكُونَ أدنى إلى فهم المعاني.

والتلاوةُ بمعنى القراءة من أعظم خصائص القرآن الكريم، فالكتب المتقدمة ليس من خصائصها هذه التلاوة.

الفرق بين القراءة والتلاوة

القراءة أعم من التلاوة، فكل تلاوةٍ قراءة وليس كل قراءة تلاوة، لا يقال: تلوتُ رقعتك وإنما يقال في القرآن في شيء إذا قرأته وجب عليك اتباعه، كذا قال الراغب ويفهم منه أن التلاوة خاصةٌ بالقرآن الكريم مع الاتباع وليست القراءةُ كذلك، وفرَّقَ التهانَوِيُّ بين القراءة والتلاوة والأداء فقال: والفرق بينها وبين الأداء والقراءة: أن الأداء الأخذُ عن المشايخ والقراءة تُطلق عليهما معًا أي الأداء والتلاوة إذ هي أعمُّ منهما.

حسن الصوت مطلوب من القارئ

علَّم النبي ﷺ أصحابه ضرورة تزيين القرآن بالأصوات في عدة أحاديث كالذي رواه أبو داود عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «زينوا القرآن بأصواتكم». صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، ورواه الحاكم في المستدرك بلفظ: «زينوا أصواتكم بالقرآن».

وروى أبو داود في سننه وصححه الألباني عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن». وقال البخاري بعد ذكر أحاديث تحسين الصوت بالقرآن: «وعامة هذه الأخبار مستفيضة عند أهل العلم».

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله

عنه عن النبي ﷺ قال: «ما أذن الله لشيء أذنه لنبي يتغنى بالقرآن».

وقد قيل لابن أبي مليكة: يا أبا محمد! أرأيت إذا لم يكن حسن الصوت؟ قال: «يُحَسِّنُهُ ما استطاع». صحيح سنن أبي داود.

قال ابن حجر في الفتح: والذي يتحصل من الأدلة أن حسن الصوت بالقرآن مطلوب فإن لم يكن حسنًا فليحسنه ما استطاع كما قال ابن أبي مُليكة، وقد أخرج ذلك عنه أبو داود بإسنادٍ صحيح.

ومن جملة تحسينه أن يراعي فيه قوانين النغم فإن الحَسَن الصوت يزداد حسنًا بذلك وإن خرج عنها أَثَّر ذلك في حسنه، وغير الحسن ربما انجبر بمراعاتها ما لم يخرج عن شرط الأداء المعتبر عند أهل القراءات، فإن خرج عنها لم يف تحسين الصوت بقبح الأداء، ولعل هذا مستند من كره القراءة بالأنغام لأن الغالب على من راعى الأنغام أن لا يراعي الأداء، فإن وُجد من يراعيهما معًا فلا شك في أنه أرجح من غيره لأنه يأتي بالمطلوب من تحسين الصوت ويجتنب الممنوع من حرمة الأداء والله أعلم. اهـ فتح الباري.

معنى التزيين

تدور معاني زَيَّن على الملاحة والغاية في الحسن، قال ابن بطال: المرادُ بقوله: «زينوا القرآن بأصواتكم» المد والترتيل، والمهارةُ في القرآن جودةُ التلاوة بجودة الحفظ فلا يتلعثم ولا يتشكك وتكونُ قراءتُهُ سهلةً بتيسير الله تعالى كما يسَّره على الكرام البررة.

وقال السندي في قوله ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم». أي بتحسين أصواتكم عند القراءة، فإن الكلام الحسن يزيد حسنًا وزينة بالصوت الحسن، وهذا مشاهد.

معنى الحديث: «زينوا القرآن بأصواتكم»: اختلف العلماء في معناه حتى ذكر القرطبي ستة تأويلات في معناه، ونحن نذكر هنا أشهرها مما يتعلق بموضوعنا:

التأويل الأول: معناه اللهج بقراءته، وكثرة ترداده حتى يصير زينة الصوت، وحليته في الكلام، أي اشغلوا أصواتكم بالقرآن والهجوا بقراءته، واتخذوه زينة وشعارًا: فعلى هذا هو مقلوبٌ أي زينوا أصواتكم بالقرآن، والمعنى الهجوا بقراءته وتزينوا به وليس ذلك على تطريب القول والتحزين.

وقالوا: «فالزينة للصوت لا للقرآن»، وبين أصحاب هذا المذهب أنهم اضطروا إلى هذا التأويل اضطرارًا، لأنه لا يجوز على القرآن- في نظرهم- وهو كلام الخالق أن يزينه صوت مخلوق بل هو بالتزيين لغيره والتحسين له أَوْلى، ولذا فقد توقى هذه الرواية قوم، وقالوا: لم يُرِدْ تطريب الصوت به والتحزين له إذ ليس هذا في وسع كل أحد فلعل من الناس من إذا أراد التزيين له أفضى به إلى التهجين.

التأويل الثاني: وقيل هو تزيين القرآن بجمال الصوت؛ فإن القرآن قد يُخرجُ بصوتٍ جاف فظٍ يلقيه قارئه ولا يبالي بتجميله فلا تلتفت إليه القلوب لا لأنه كلام الله بل لأن المتلفظ به ما أبان البلاغ، ولا أجمل الأداء وعلى هذا فلا حاجة إلى القلب وإنما معناه الحث على الترتيل الذي أمر به في قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾، فحقيقة الحديث: أنه يحث على ترتيل القرآن ورعاية إعرابه وتحسين الصوت به وتنبيه على التحرز من اللحن والتصحيف؛ فإنه إذا قرئ كذلك كان أوقع في القلب وأشد تأثرًا وأرق لسامعه، والرواية الأخرى- إن ثبتت- فهي تتميمٌ لها فـ «زينوا أصواتكم بالقرآن»، أي الهجوا بقراءته واشغلوا أصواتكم به، واتخذوه شعارًا وزينة لأصواتكم كما ينبغي لكم أن تخرجوه بأحسن لفظ وأجمل أداء.

ويكون للحديث على هذا توجيهٌ حسنٌ جدا إذ تكون «الزينة للمرتل لا للقرآن كما يُقال ويل للشِّعر من الراوية السَّوء فهو راجعٌ إلى الراوي لا للشعر». وسماه تزيينًا: «لأنه تزيين للفظ والمعنى فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حُسنًا وفي أدائه بحسن الصوت وجودة الأداء بعثٌ للقلوب على استماعه، وتدبره، والإصغاء إليه». ويؤيد هذا المعنى للحديث الأحاديث المستفيضة الأخرى التي تحض على التحبير والترتيل والتحسين والتحزين مما هو في المستوى العلمي الضروري، كما يؤيد هذا المعنى رواية: «حسنوا أصواتكم». والمعنى: «رتلوه واجهروا به». قال الطيبي: هذا الحديث لا يحتمل القلب لتعليله بقوله فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنًا.

ويشهد لصحة هذا التأويل حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ استمع إلى قراءته فقال: «لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود» فقال لو علمت أنك تستمع لحبَّرتُه لك تحبيرًا أي حَسَّنتُ قراءته وزينتها، ويؤيد ذلك تأييدًا لا شبهة فيه حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «لكل شيء حلية وحلية القرآن حسنُ الصوت».

فالنبي ﷺ قد علمهم تحسين الصوت بالقرآن، وتحسين القرآن بالصوت بعد أن وجدنا الروايات تذكر ذلك ولا شذوذ يظهر لنا.

وواقع المسلمين بشيبهم وشبابهم وذكورهم وإناثهم، وكبارهم وصغارهم شاهدٌ على ذلك فإنك تجد كل واحدٍ منهم لو كان أميًا إن أراد أن يقرأ غَيَّر صوته على هيئة تتشابه بينهم جميعًا وإن كانت تتفاوت في حسنها، وانضباط قواعدها في ظاهرة عجيبة تدل على مقدار الحفظ الإلهي للقرآن الكريم.

ويبقى- بعد ذلك- الاختلاف في الأصوات البشرية مسألة طبيعية كما قال الإمام البخاري: فبين النبي ﷺ أن أصوات الخلق وقراءاتهم ودراستهم وتعلمهم وألسنتهم مختلفة بعضها أحسن وأزين وأحلى وأصوت وأرتل وألحن وأعلى وأخف وأغض واخشع وقال: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ «طه: ١٠٨»، وأجهر وأخفى وأمهر وأحد وألين واخفض من بعض». ذكره البخاري في خلق أفعال العباد.

وهنا نلحظ معلمًا هامًا هو أن النبي ﷺ علمهم تقديم حسن الصوت في الأذان؛ فأحرى أن يكون ذاك في القرآن: فعن عبد الله بن زيد قال: لما أصبحنا أتينا رسول الله ﷺ فأخبرته بالرؤيا فقال: «إن هذه الرؤيا حق فقم مع بلال فإنه أندى أو أَحَدُّ صوتًا منك فالق عليه ما قيل لك فينادى بذلك». رواه ابن خزيمة.

و«أندى» أصله: من الندى أي الرطوبة يقال صوتٌ ندى أي رفيع واستعارة الندى للصوت من حيث إن من تكثر رطوبة فمه يحسن كلامه فأندى أي أرفع وأعلى وقيل أحسنُ وأعذب وقيل أبْعَدُ فالأحسن أن يراد بأندى ههنا: أحسن وأعذب وإلا لكان في ذكر قوله أحَدّ بعده تكرار وعلى هذا ففي الحديث: دليل اتخاذ المؤذن حَسَن الصوت.

لكن لا يفوتنا في هذا المقام أن نؤكد على أن الأصل في إمامة الصلاة والمقدم في ذلك الحفظ وإتقان القراءة ثم يأتي بعد ذلك حلاوة الصوت ونداوته فلا يكفي أن يكون الإمام نديَّ الصوت فقط دون حفظ لكتاب الله وإتقان له.

والدليل على ذلك ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي مسعود البدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواءً فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في السنة سواءً فأقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواءً فأقدمهم سلمًا -أي إسلامًا- ولا يؤمَّنَّ الرجل الرجل في

سلطانه، ولا يقعد في بيته على تكرمته- أي الفراش الخاص به- إلا بإذنه».

فضيلة التغني بالقرآن

بين النبي ﷺ فضيلة التغني بالقرآن وذلك في حديث البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يقول: قال رسول الله ﷺ: «لم يأذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن». وقال صاحب له: يريد يجهر به، و(يأذن): «معناه الاستماع ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾»، فالمعنى- كما قال أبو عبيد- يعني ما استمع الله لشيء كاستماعه لنبي يتغنى بالقرآن، والمراد بالاستماع هنا الاستماع الخاص، وذلك كتفريق العلماء بين المعية العامة الواردة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ «الحديد: ٤»، والمعية الخاصة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ «النحل: ١٢٨»، وهو ما يعني قرب القارئ من الله تعالى وعظيم شرفه بالقراءة.

معنى التغني الوارد في الأحاديث

اختلف العلماء في معنى التغني الوارد في الحديث على قولين مشهورين:

المعنى الأول: معنى التغني الاستغناء وحدوث الكفاية به، وقد ذهب إلى هذا الإمام البخاري فقال: «باب من لم يتغنَّ بالقرآن، وقوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ «العنكبوت:٥١»، وهو مذهب سفيان بن عيينة، قال: تفسيره يستغني به.

المعنى الثاني: معناه التطريب به وتحزين القراءة وترقيقها وفق قواعد معلومة لأنه أوقع في النفوس، وأنجع في القلوب، وقد ذهب إلى هذا الشافعي وأصحابه وأكثر العلماء، يحسن صوته به.

وقال صالح: قلت لأبي- أي أحمد بن حنبل-: «زينوا القرآن بأصواتكم» ما معناه؟ قال: أن يحسنه، وقيل له: ما معنى: «من لم يتغن بالقرآن» قال: «يرفع صوته به»، وقال الليث: يتحزن به، ويتخشع به ويتباكى به.

ورد الإمام الشافعي على ابن عيينة تأويله، فقال رحمه الله: نحن أعلم بهذا، لو أراد النبي ﷺ الاستغناء به لقال ليس منا من لم يستغن بالقرآن فلما قال ليس منا من لم يتغن بالقرآن علمنا أنه التغني به، وقال: معناه يقرأه حزنًا وتحزينًا.

وعلى هذا فالوسائل التي يجوز بها استعمال قوانين التغني عند التلاوة هي:

١- الالتزام بضوابط التجويد وأركان الترتيل دون شطط.

٢- إبقاء الجو القرآني على حاله من التحزين والخشوع والإخبات.

٣- أن لا يتولد منه حروف ليست من القرآن كزيادة ألف أو تطويل الحركة القصيرة، وهو ما يعبر عنه العلماء التمطيط.

٤- أن لا يترتب على ذلك التقصير في أداء حركة طويلة، أو البتر في حرفٍ لينٍ أو حرفٍ مشدد مثل التقصير في تشديد (ذريَّة) في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ﴾ «البقرة: ٢٦٦». ونحو ذلك.

٥- عدم الغلو في التلحين حتى يظهر أنه الغاية من القراءة لا أنه يعين على تدبر القراءة، فيكون صاحبه مفتونًا قلبه وقلب من يسمعه لدرجة أنه لا يسمع القرآن إلا له، لا لأنه القرآن.

٦- عدم الغلو في طلب اللحن حتى يبحث عن أصوله من غناء اللاهين ويصبح فنا مستقلا عن المراد منه، يبذل له التكلف، ويخرج عن طبيعة المرء كما قال ابن الجزري:

مكمَّلاً من غير ما تكلف
باللطف في النطق بلا تعسف

والحمد لله رب العالمين.

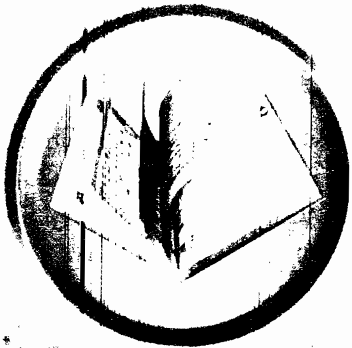

مختارات من علوم القرآن

قراءة القرآن فوائد وأحكام

إعداد
مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.. وبعد:

فلقراءةِ القرآن من الثمرات ما لا يُحصى، وقد جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة والآثار الواردة عن الصحابة والتابعين، وقد لخصها بعض العلماء فيما يلي:

١- إن قارئ القرآن في مصاف العظماء ومن أفضل الناس، وأعلاهم درجةً.

٢- يكتسبُ القارئ عن كل حرفٍ حسنةً والحسنة بعشرِ أمثالها.

٣- تشملُ القارئ ظلةُ الرحمةِ ويُحاطُ بالملائكة وتتنزل عليه السكينة.

٤- يُضيءُ الله قلبَ القارئ، ويقيه ظلمات يوم القيامة.

٥- القارئُ رائحتُهُ ذكيَّةٌ ومذاقُهُ حُلو كالأُتْرجّةِ (وهي ثمرةٌ جامعة لطيب الطعم والرائحة وحسن اللون)، ومن هنا فهو جليس صالح يقترب منه الصالحون العاملون ليشموا منه عطره وينفحوا من شذاه.

٦- قارئ القرآن لا يَحْزُنُهُ الفزعُ الأكبر؛ لأنه في حماية الله ولأن القرآن يشفع له.

٧- قارئ القرآن سببٌ في رحمة والديه، وإغداقهما بالنعيم ويمدهما الله بالأنوار المتلألئة جزاء قراءة ولدهما.

٨- قارئ القرآن يرقى إلى قمة المعالي في الجنة ويصعد إلى ذروة النعيم.

٩- يَغْبط الصالحون قارئ القرآن ويتمنون أن يكونوا في درجته السامية عند الله تعالى ويودون أن يعملوا مثله.

١٠- قارئ القرآن تدعو له الملائكة الكرام بالرحمةِ والمغفرة.

١١- قارئ القرآن مُستمسكٌ بالعروة الوثقى، ويتمتعُ بالشِّفاء الناجع، ويُعصم من الزيغ، وينجو من الشدائد.

١٢- قارئُ القرآن من أهل الله وخاصته

المتقربين إليه، ومن العاملين الشغوفين بطاعة الله والقانتين له.

١٣- قارئ القرآن يرتفع به درجات في الدنيا أيضًا إذ يرفع الله به أقوامًا ويخفض آخرين (ممن أعرضوا عنه أو هجروه).

١٤- قارئ القرآن يُكتبُ عند الله من الذاكرين الله كثيرًا.

١٥- قارئ القرآن ممن يشهدُ لهم رسول الله ﷺ يوم القيامة.

١٦- الماهرُ بالقرآن يبعث يوم القيامة مع السَّفرةِ الكرام البررة (السفرة: الملائكة الكتبة، البررة: جمع بار وهو المطيع).

١٧- قارئ القرآن تبتعدُ عنه الشياطين وتخرج من بيته.

١٨- قارئ القرآن يستنير عقله ويمتلئ قلبه بالحكمة وتتفجر منه ينابيع العلم.

١٩- قارئ القرآن فيه قبسٌ من النبوة (غير أنه لا يُوحى إليه).

٢٠- حامل القرآن لا يجهل مع من يَجْهَل لأن القرآن في جوفه يحميه من الحِدَّة والغضب.

٢١- بالقرآن الكريم تعمرُ القلوبُ والبيوت، ويعمها الخير والبركة.

٢٢- قراءة القرآن تُورث القلبَ خُشوعًا والنفس صَفاءً.

٢٣- قارئ القرآن يسأل الله به فَيُجيبُهُ فَضلاً منه وكرمًا.

٢٤- أهلُ القرآن يذكرهم الله فيمن عنده وكفى بذلك فضلاً وشرفًا.

٢٥- في القرآن غِنىً لأهلِهِ تسعدُ به قلوبهم كما يَسْعَدُ صاحب المال بمالِهِ.

حكم القراءة ومقدار ما يقرأ

قراءةُ القرآن سنة من سنن الإسلام، والإكثار منها مُستحب حتى يكون المسلم مستنير الفؤاد بما يقرأ من كتاب الله، والتلاوة مع إخلاص النية وتحسين القصد عبادة يؤجرُ عليها المسلم بدليل ما ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه من قوله ﷺ: «من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة... الحديث». رواه الترمذي وقال: حسن صحيح، وما جاء في حديث أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعًا: «اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه....» رواه مسلم. وكان السلف رضوان الله عليهم يحافظون على قراءة القرآن.

مقدار القراءة

أما القدر الذي ينبغي قراءته فإنه يختلف باختلاف الناس، يقول الإمام النووي في الأذكار: ينبغي أن يحافظ على تلاوته ليلاً ونهارًا، سفرًا وحضرًا، وقد كان للسلف رضي الله عنهم عادات مختلفة في القدر الذي يختمون فيه، فكان جماعة منهم يختمون في كل شهرين ختمة، وآخرون في كل شهر ختمة، وآخرون في كل عشر ليال ختمة، وآخرون في كل ثمان ليال ختمة، وآخرون في كل سبع ليالٍ ختمة، وهذا فعل الأكثرين من السلف، وآخرون في كل ست ليال، وآخرون في خمس، وآخرون في أربع، وكثيرون في كل ثلاث ختمة.. وذكر أن بعضهم ختم أربعًا في الليل وأربعًا في النهار، قال النووي: والمختار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ومعارف فليقتصر على قدر يحصل له معه كمال فهم ما يقرأ، وكذا من كان مشغولاً بنشر العلم، أو فصل الحكومات بين المسلمين، أو غير ذلك من مهمات الدين، والمصالح العامة للمسلمين فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مُرصد له، ولا فوات كماله، ومن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليستكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حدِّ الملل أو الهَذْرَمَةِ (وهي الإسراع الزائد) في القراءة.

وقد كرهَ جماعةٌ من المتقدمين الختم في يوم وليلة، ويدل عليه ما رويناه بالأسانيد الصحيحة في سنن أبي داود والترمذي والنسائي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «لا يفقهُ من قرأ القرآن في أقل من ثلاث».

[انتهى كلام النووي بتصرف يسير]

الأوقات التي تستحب فيها القراءة

قال النووي: أفضل القراءة ما كان في الصلاة، ومذهب الشافعي وآخرين رحمهم الله: أن تطويل القيام في الصلاة بالقراءة أفضل من تطويل السجود وغيره.

وأما القراءة في غير الصلاة فأفضلها قراءة الليل، والنصفُ الأخير منه أفضل من الأول، والقراءةُ بين المغرب والعشاء محبوبةٌ.

وأما قراءة النهار فأفضلها ما كان بعد صلاة الصبح، ولا كراهة في القراءة في وقت من الأوقات، ولا في أوقات النهي عن الصلاة (النافلة).

ومن السنة كثرةُ الاعتناء بالقراءة في شهر رمضان، وفي العشر الأُخَر منهُ أفضل وليالي الوتر آكد ومن ذلك العَشْرُ الأوَل من ذي الحجة، ويوم عرفة، ويوم الجمعة.

آيات وسور مخصوصة في صلوات مخصوصة

قال النووي: السنة أن يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة بعد الفاتحة في الركعة الأولى (السجدة) بكمالها، وفي الثانية ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ﴾ بكمالها، ولا يفعل ما يفعله كثير من أئمة المساجد من الاقتصار على آيات من كل واحدة منهما مع تمطيط القراءة بل ينبغي أن يقرأهما بكمالهما ويدرج قراءته مع ترتيل.

والسنة أن يقرأ في صلاة الجمعة في الركعة الأولى سورة (الجمعة) بكمالها، وفي الثانية سورة (المنافقون) بكمالها، وإن شاء ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ وفي الثانية ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ فكلاهما صحيح عن رسول الله ﷺ.

والسنة في صلاة العيد في الركعةِ الأولى أن يقرأ سورة (ق) وفي الثانية ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ بكمالها، وإن شاء (سبح اسم ربك الأعلى)، و﴿هَلْ أَتَاكَ﴾، فكلاهما صح عن رسول الله ﷺ.

ويقرأ في ركعتي سنة الصبح بعد الفاتحة في الأولى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ وفي الثانية ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وإن شاء قرأ في الأولى ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٢٦]، وفي الثانية: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤]، فكلاهما صحيح من فعل رسول الله ﷺ.

ويقرأ في سُنة المغرب في الأولى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، وفي الثانية ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ويقرأهما أيضًا في ركعتي الطواف وركعتي الاستخارة.

ويقرأ من أوتر بثلاث ركعات في الركعة الأولى: «سبح اسم ربك الأعلى»، وفي الثانية ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ وفي الثالثة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين (الفلق) و(الناس).

سور مخصوصة في أوقات ومواضع مخصوصة

أما في غير الصلاة فمن المستحب أن يقرأ سورة الكهف يوم الجمعة، كما يستحب أيضًا أن يقرأها ليلة الجمعة لما جاء في حديث الدارمي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه موقوفًا، قال: «من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النور فيما بينه وبين البيت العتيق» قال محقق التبيان حديث صحيح.

[وذكره الألباني في صحيح الجامع مرفوعًا ح(٦٤٧١) وفيه «... يوم الجمعة»]

ويستحب الإكثار من تلاوة آية الكرسي في جميع المواطن وأن يقرأها كل ليلة إذا أوى إلى فراشه، وأن يقرأ المعوذتين عقب كل صلاة، فقد صحّ عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: «أمرني رسول اللَّه ﷺ أن أقرأ المعوذتين دبر كل صلاة». [رواه أبو داود والترمذي والنسائي. قال الترمذي: حديث حسن صحيح]

وأن يقرأ إذا استيقظ من نومه آخر آل عمران من قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (الآية ١٩٠- إلى آخر السورة) لما ثبت في الصحيحين أن رسول اللَّه ﷺ كان يقرأ خواتيم آل عمران (الآيات العشر الأواخر) إذا استيقظ من الليل للصلاة.

ويستحب أن يقرأ عند المريض بالفاتحة، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمُعوذتين.

وعن طلحة بن مصرف قال: كان يقال: إن المريض إذا قُرئَ عنده القرآن وجد لذلك خفة، فدخلت على خيثمة بن سليمان وهو مريض، فقلت: إني أراك اليوم صاحكًا، فقال: إنه قُرئَ عندي القرآن، وروى الخطيب أبو بكر البغدادي بإسناده: أن أحمد بن منصور الرمادي رحمه الله كان إذا اشتكى شيئًا قال: هاتوا أصحاب الحديث، فإذا حضروا قال: اقرؤوا عليَّ الحديث فهذا في الحديث فالقرآن أوْلى.

والله من وراء القصد.

مختارات من علوم القرآن

فضائل سورة الفاتحة

إعداد

مصطفى البصراتي

القرآن الكريم كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن أنعم الله عليه بقراءته كله أو حفظه كله، فتلك هي الغاية العليا، والمنزلة السامية التي تشرئب إليها الأعناق، أما إذا لم يتيسر ذلك، فإن الله عز وجل لم يحرم غير القادر على ذلك عظيم الأجر، وجعل لقراءة بعض السور أو الآيات من الثواب الجزيل والأجر العظيم ما يطيب به خاطر القارئ ويجعله مطمئنًا إلى سعة رحمة الله وعظيم فضله، فمن ذلك:

فضل قراءة الفاتحة

هذه السورة على قصرها ووجازتها- قد حوت أسرار القرآن، واشتملت على مقاصده الأساسية بالإجمال، ولهذا تسمى أم القرآن فهي تتناول أصول الدين وفروعه، تتناول العقيدة والعبادة والتشريع والجزاء والإيمان بأسماء الله الحسنى، وصفاته العليا، وتأمر بإفراده بالعبادة والاستعانة والدعاء والتوجه إليه تعالى بطلب الهداية إلى الدين الحق والصراط المستقيم، والتضرع إليه بالتثبيت على الإيمان، ونهج سبيل الصالحين وتجنب طريق المغضوب عليهم والضالين، وفيها الحديث عن منازل السعداء ومراتب الأشقياء، وفيها التعبد بأمر الله تعالى ونهيه إلى غير ما هنالك من مقاصد وأهداف، وقد تكلم في فضل هذه السورة كثير من العلماء والمفسرين، ولأهمية ما كتبوه ننقل بعضًا منه ثم نُتبِع ذلك بالأحاديث الواردة في فضلها مع شرح معانيها، والله المستعان.

قال الإمام القرطبي رحمه الله في تفسيره: وفي الفاتحة من الصفات ما ليس لغيرها حتى قيل: إن جميع القرآن فيها وهي خمس وعشرون كلمة تضمنت جميع علوم القرآن.

ومن شرفها أن الله سبحانه قسمها بينه وبين عبده، ولا تصح الصلاة إلا بها، ولا يلحق عمل بثوابها، وبهذا المعنى صارت أم القرآن العظيم، كما صارت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن؛ إذ القرآن توحيد وأحكام ووعظ، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيها التوحيد كله، وبهذا المعنى وقع البيان في قوله عليه الصلاة السلام لأبيّ: «أي آية في القرآن أعظم؟» قال: «الله لا إله إلا هو الحي القيوم». وإنما كانت أعظم آية لأنها توحيد كلها كما صار قوله: «أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له». أفضل الذكر لأنها كلمات حوت جميع العلوم في التوحيد، والفاتحة تضمنت التوحيد والعبادة والوعظ والتذكير.

وقال العلامة ابن عثيمين رحمه الله في تفسير القرآن الكريم (٣/١): سورة الفاتحة سميت بذلك لأنه افتتح بها القرآن الكريم، وقد قيل إن أول سورة نزلت كاملة، هذه السورة قال العلماء: إنها تشتمل على مجمل معاني القرآن في التوحيد والأحكام والجزاء، وغير ذلك، ولذلك سميت «أم القرآن» والمرجع للشيء يسمى «أمًا».

مميزات سورة الفاتحة

وهذه السورة لها مميزات تتميز بها عن غيرها، منها أنها ركن في الصلوات التي هي أفضل أركان الإسلام بعد الشهادتين فلا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب، ومنها أنها رقية إذا قرئ بها على المريض شفي بإذن الله، لأن النبي ﷺ قال للذي قرأ على اللديغ فبرئ: «وما يدريك أنها رقية؟». رواه البخاري ومسلم.

وقال العلامة برهان الدين البقاعي في نظم الدرر (١٢/١):

وقد ظهر في علم هذا الكتاب أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها، لأن اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسماه وعنوانه الدال إجمالاً على تفصيل ما فيه، وذلك هو الذي أنبأ به آدم عليه السلام عند العرض على الملائكة عليهم الصلاة والسلام ومقصود كل سورة هاد إلى تناسبها، فالفاتحة اسمها «أم الكتاب» و«الرقية» و«الحمد» و«الشكر» و«الدعاء» و«الصلاة»، فمدار هذه الأسماء كما ترى على أمر خفي كاف لكل مراد وهو المراقبة، وهي أم كل خير، وأساس كل معروف ولا يعتد بها إلا إذا ثنيت فكانت دائمة التكرار، وهي كنز لكل شيء شافية لكل داء، كافية لكل هم وافية بكل مرام، واقية من كل سوء، وهي إثبات للحمد الذي هو الإحاطة بصفات الكمال، وللشكر الذي هو تعظيم المنعم، وهي عين الدعاء فإنه التوجه إلى المدعو، وأعظم مجامعها الصلاة.

إذا تقرر ذلك فالغرض الذي سيقت له الفاتحة هو إثبات استحقاق الله تعالى لجميع المحامد وصفات الكمال واختصاصه بملك الدنيا والآخرة، وباستحقاق العبادة والاستعانة بالسؤال في التزام صراط الفائزين والإنقاذ من طريق الهالكين مختصًا بذلك كله، ومدار ذلك كله مراقبة العباد ربهم، لإفراده بالعبادة فهو مقصود الفاتحة بالذات وغيره وسائل إليه.

وقال ابن القيم عليه رحمة الله في مدارج السالكين (٢٥/١):

اعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتمال، وتضمنتها أكمل تضمن، فاشتملت على التعريف بالمعبود- تبارك وتعالى- بثلاثة أسماء، مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها، ومدارها عليها وهي (الله والربُّ والرحمنُ)، وبنيت السورة على الإلهية والربوبية والرحمة، فـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مبنيٌّ على الإلهية، و﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على الربوبية، وطلب الهداية إلى صراطه المستقيم بصفة الرحمة، والحمدُ يتضمن الأمور الثلاثة، فهو المحمودُ في إلهيته وربوبيته ورحمته، والثناءُ والحمد كمالان لحمده، وتضمنت إثبات المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم حَسَنِها وسيِّئها وتفرد الرب تعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلائق، وكون حكمه بالعدل وكل هذا تحت قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

وتضمنت إثبات النبوات من جهات عديدة:

أحدها: كونه رب العالمين، فلا يليقُ به أن يترك عبادهُ سُدىً هَمَلا، لا يُعَرِّفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم وما يضرهم فيهما، فهذا هضمٌ للربوبية ونسبة الرب تعالى إلى ما لا يليق به، وما قَدَرَهُ حق قدره من نسبه إليه.

الثاني: أخذها من اسم «الله» وهو المألوهُ المعبود، ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق رسله.

الموضع الثالث: من اسمه «الرحمن» الذي رحمته تمنع إهمال عباده، وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالِهم، فمن أعطى اسم «الرحمن» حقَّهُ عَلِمَ أنه متضمنٌ لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، أعظم من تضمُّنِهِ إنزال الغيث وإنبات الكلأ، وإخراج الحب، فاقتضاء الرحمة لما يحصلُ به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضائها لما يحصل به حياة الأبدان والأشباح لكنِ المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظَّ البهائم والدواب، وأدرك منه أولو الألباب أمرًا وراء ذلك.

الموضع الرابع: من ذكر «يوم الدين» فإنه اليومُ الذي يُدينُ اللهُ العبادَ فيه بأعمالهم، فيثيبهم على الخيرات، ويعاقبهم على المعاصي والسيئات، وما كان الله ليعذب أحدًا قبل إقامة الحجةِ عليه، والحجةُ إنما قامت برسله وكتبه، وبهم اسْتُحِق

الثواب والعقاب، وبهم قام سوق يوم الدين، وسيق الأبرارُ إلى النعيم، والفجارُ إلى الجحيم.

الموضع الخامس: من قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، فإن ما يُعبدُ به الرب تعالى لا يكونُ إلا على ما يحبه ويرضاه، وعبادتُه- هي شكرُهُ، وحبه وخشيته- فطريٌ ومعقول للعقول السليمة، لكنَّ طريق التعبد وما يُعبدُ به لا سبيل إلى معرفته إلا برسله وبيانهم، وفي هذا بيان أن إرسال الرسل أمرٌ مستقر في العقول، يستحيل تعطيل العالم عنه، كما يستحيلُ تعطيله عن الصانع.

فمن أنكر الرسول فقد أنكر المُرْسِل، ولم يؤمن به، ولهذا جعل الله سبحانه الكفر برسله كفرًا به.

الموضع السادس: من قوله: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾، فالهداية: هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهما بعد البيان والدلالة، ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل، فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق، وجعلُ الإيمان في القلب، وتحبيبه إليه، وتزيينه في قلبه، وجعله مؤثرًا له، راضيًا به، راغبًا فيه. وهما هذان اللذان، لا يحصلُ الفلاح إلا بهما.

الموضع السابع: من معرفة نفس المسؤول- وهو الصراط المستقيم- ولا تكونُ الطريقُ صراطًا حتى يتضمن خمسة أمور: الاستقامةُ، والإيصالُ إلى المقصود، والقربُ وسعته للمارين عليه، وتعينه طريقًا للمقصود، ولا يخفى تضمنُ الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة، فوصفه بالاستقامة يتضمن قربه؛ لأن الخط المستقيم هو أقربُ خط فاصل بين نقطتين، وكلما تعوَّج طالَ وبَعُدَ، واستقامته تتضمن إيصالهُ إلى المقصود ونصْبهُ لجميع من يمرُّ عليه يستلزمُ سَعتهُ، وإضافته إلى المُنعَم عليه، ووصفهُ بمخالفة صراط أهل الغضب والضَّلال، يستلزم تَعَيُّنَهُ طريقًا.

و«الصراط» تارة يُضَافُ إلى الله، إذ هو الذي شَرَعَهُ ونصبه، كقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ ﴾ [الشورى: ٥٢- ٥٣]، وتارة يضاف إلى العباد، كما في الفاتحة، لكونهم أهل سلوكه، وهو المنسوبُ لهم، وهم المارُّونَ عليه.

الموضع الثامن: من ذِكرِ المنعَمِ عليهم، وتمييزهم عن طائفتي الغضب والضلال، فانقسم الناسُ بحسب معرفةِ الحقِّ والعمل به إلى هذه الأقسام الثلاثة، لأن العبد إمَّا أن يكون عالمًا بالحق، أو جاهلاً به، والعالِمُ بالحق إما عاملٌ بموجبه أو مخالف له.

فهذه أقسام المكلفين، لا يخرجون عنها البتة، فالعالمُ بالحقِّ العاملُ به: هو المنعم عليه وهو الذي زكى نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح، وهو المفلحُ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ [الشمس: ٩]، والعالِمُ به المُتَّبعُ هواه: هو المغضوبُ عليه، والجاهلُ بالحقِّ: هو الضالُّ، والمغضوب عليه، ضالٌ عن هداية العمل، والضالُّ مغضوب عليه لضلالِهِ عن العلم الموجب للعمل فكل منهما ضال مغضوب عليه، ولكنْ تارك العمل بالحق بعد معرفته به أَوْلى بوصف الغضب وأحقُّ به، ومن هاهنا كان اليهودُ أحق به، وهو متغلظٌ في حقهم كقوله تعالى في حقهم: ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾ [البقرة: ٩٠].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٦٠].

والجاهل بالحق: أحقُّ باسم الضلال، ومن هاهنا وُصفتِ النصارى به في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٧٧]، فالأُولى: في سياق الخطاب مع اليهود، والثانية: في سياقه مع النصارى. وفي الترمذي وصحيح ابن حبان من حديث عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالُّون».

ففي ذكر المُنعم عليهم- وهم من عَرف الحق واتبعه- والمغضوب عليهم- وهم من عرفه واتبع هواه- والضالين- وهم من جَهلهُ- ما يستلزم ثبوت الرسالة والنبوة؛ لأن انقسام الناس إلى ذلك هو الواقع المشهود، وهذه القسمة إنما أوجبها ثبوت الرسالة.

وإلى لقاء إن شاء الله تعالى

مختارات من علوم القرآن

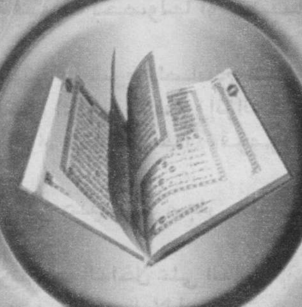

فضائل سورة الفاتحة

إعداد
مصطفى البصراتي

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد، فحديثنا في هذه الحلقة عن فضائل سورة الفاتحة، فمن ذلك أن:

سورة الفاتحة أعظم سورة في القرآن الكريم

عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال: كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أُجبه، فقلت: يا رسول الله، إني كنت أصلي، فقال: «ألم يقل الله: ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]؟ ثم قال لي: «لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد». ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟ قال: «الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته». [أخرجه البخاري وأحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والدارمي والبيهقي في الشُّعب]

التعليق:

قوله ﷺ: «هي السبع المثاني» أراد به فاتحة الكتاب هي سبع آيات؛ سميت الفاتحة مثاني؛ لأنها تثنى في الصلاة في كل ركعة، وقيل: سميت الفاتحة مثاني؛ لأنها استثنيت لهذه الأمة، لم تنزل على من قبلها، وقيل: سميت مثاني، لما فيها من الثناء على الله، فهي مفاعل من الثناء، والواحد مثنى، وقد وصف القرآن كله بالمثاني.

قال الله تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ ﴾ [الزمر: ٢٣]، لأن القصص والأمثال ثنيت فيه، وقد أطلق المثاني على السور التي تقصر عن المئين وتزيد على المفصل، قيل لها مثاني كأن المئين جعلت مبادي والتي تليها مثاني.

وفي الحديث دليل على جواز تفضيل بعض القرآن على بعض. قال ابن التين في الكلام على قول النبي ﷺ: «لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن»: معناه أن ثوابها أعظم من غيرها، واستدل به على جواز تفضيل بعض القرآن على بعض، وقد منع ذلك الأشعري وجماعة، لأن المفضول ناقص عن درجة الأفضل، وأسماء الله وصفاته وكلامه لا نقص فيها، وأجابوا عن ذلك بأن معنى التفاضل أن ثواب بعضه أعظم من ثواب بعض، فالتفضيل إنما هو من حيث المعاني لا من حيث الصفة، ويؤيد التفضيل قوله تعالى: ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ

مِثْلِهَا﴾، وقد روى ابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ أي في المنفعة والرفق والرفعة، وفي هذا تعقب على من قال: فيه تقديم وتأخير، والتقدير نأت منها بخير، وهو كما قيل في قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾، لكن قوله في آية الباب: ﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾ يرجح الاحتمال الأول، فهو المعتمد، والله أعلم. [ذكره ابن حجر في الفتح]

لا شك أن المعاني تتفاوت وتتفاضل، فمعاني ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أفضل من معاني ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾، ومعاني ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أفضل من معاني ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ مع أن الكل مشترك في الصفة وهي كونه كلام الله.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ في مسير له، فنزل، ونزل رجل إلى جانبه فالتفت إليه النبي ﷺ فقال: «ألا أخبرك بأفضل القرآن؟» قال: فتلا عليه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [أخرجه النسائي في الكبرى وابن حبان والحاكم وصححه واقره الذهبي والبيهقي في الصغرى وفي شعب الإيمان، وذكره الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ١٤٩٩، وقال: الحديث صحيح]

وعن عبد الله بن جابر رضي الله عنه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وقد أهراق الماء (أي صبه) فقلت: السلام عليك يا رسول الله، فلم يرد عليَّ، فقلت: السلام عليك يا رسول الله، فلم يرد عليَّ، فقلت: السلام عليك يا رسول الله، فلم يرد عليَّ، فانطلق رسول الله ﷺ يمشي وأنا خلفه حتى دخل على رحله (أي منزله)، ودخلت أنا المسجد كئيبًا حزينًا، فخرج عليَّ رسول الله ﷺ وقد تطهر فقال: «عليك السلام ورحمة الله، وعليك السلام ورحمة الله، وعليك السلام ورحمة الله». ثم قال: «ألا أخبرك يا عبد الله بن جابر بخير سورة في القرآن الكريم». قلت: بلى يا رسول الله، قال: «اقرأ الحمد لله رب العالمين حتى تختمها».

[أخرجه الإمام أحمد والبيهقي في شعب الإيمان وذكره الحافظ ابن حجر في الإصابة وعزاه للإمام أحمد وإسناده حسن. قال الحافظ ابن كثير بعد أن ذكر هذا الحديث: هذا إسناد جيد]

هي السبع المثاني والقرآن العظيم

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم».

[أخرجه البخاري والترمذي والحاكم والإمام أحمد والدارمي والبغوي في شرح السنة والبيهقي في الصغرى]

التعليق:

قال الإمام البخاري في صحيحه: باب ما جاء في فاتحة الكتاب، وسميت أم الكتاب؛ لأنه يبدأ بكتابتها في المصاحف، ويبدأ بقراءتها في الصلاة، قال الحافظ ابن حجر: سميت أم القرآن؛ لاشتمالها على المعاني التي في القرآن، من الثناء على الله تعالى، والتعبد بالأمر والنهي، والوعد والوعيد، وعلى ما فيها من ذكر الذات والصفات والأفعال واشتمالها على ذكر المبدأ والمعاد والمعاش.

قال الحافظ ابن كثير بعد أن ذكر هذا الحديث: هذا نص أن سورة الفاتحة هي السبع المثاني والقرآن العظيم، ولكن لا ينافي وصف غيرها من السبع الطوال بذلك، لما فيها من هذه الصفة كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضًا كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]، فهو مثاني من وجه، ومتشابه من وجه، وهو القرآن العظيم أيضًا. اهـ.

ووصف الفاتحة بأنها القرآن العظيم راجع إلى كونها سورة فيه، ولم ينزل مثلها في الكتب المنزلة.

لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور مثلها

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج على أبيّ بن كعب فقال رسول الله ﷺ: «يا أبيّ وهو يصلي، فالتفت أبيُّ ولم يجبه، وصلى أبيّ فخفف، ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: وعليك السلام، ما منعك يا أبي أن تجيبني إذ دعوتك؟» فقال: يا رسول الله، إني كنت في الصلاة، قال: «أفلم تجد فيما أوحي إليّ: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]». قال: بلى ولا أعود إن شاء الله، قال: «تحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها؟» قال: نعم يا رسول الله، قال رسول الله ﷺ: «كيف تقرأ في الصلاة؟» قال: فقرأ أم القرآن، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ما أنزلت في التوراة ولا في

الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها، وإنها سبع من المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته».

[أخرجه النسائي ومالك وأحمد والدارمي والحاكم والبغوي في شرح السنة والبيهقي في السنن الصغير وعبد بن حميد والطحاوي في مشكل الآثار، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي وقال البغوي: صحيح]

التعليق:

في هذا الحديث الشريف، إرشاد للمؤمنين إلى سرعة الاستجابة لله وللرسول ﷺ لما في ذلك من الفوائد الكثيرة وأهمها: الحياة الطيبة لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وأن الاستجابة للرسول ﷺ لا تبطل الصلاة إذا كان المنادى عليه يصلي.

وفي الحديث إشارة إلى حرص أبيّ بن كعب رضي الله عنه على العلم لقوله ﷺ له: «أتحب أن أعلمك سورة». فأشار بذلك إلى أنه يعلم ما عنده من الحرص على العلم، وأن يتشوق إلى فضل ما يخبره به ويتطلع إليه حتى يكون أكثر تحصيلاً له، فقال له أبيّ: نعم يا رسول الله. وقال الخطابي: في هذا الحديث دلالة على أن الفاتحة هي القرآن العظيم، وأن الواو في قوله: «إنها السبع المثاني والقرآن العظيم»، ليست عاطفة تفصل بين شيئين وإنما هي التي تجيء بمعنى التفصيل كقوله تعالى: ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [الرحمن:٦٨].

الفاتحة رقية شافية بإذن الله تعالى من الأمراض

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «انطلق نفر من أصحاب النبي ﷺ في سفرة سافروها، حتى نزلوا على حي من أحياء العرب فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم، فلدغ سيد ذلك الحي، فسعوا له بكل شيء، لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعله أن يكون عند بعضهم شيء. فأتوهم. فقالوا: يا أيها الرهط إن سيدنا لدغ، وسعينا له بكل شيء لا ينفعه، فهل عند أحد منكم شيء؟ فقال بعضهم: نعم والله، إني لأرقي، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا، فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لنا جعلاً، فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يتفل عليه ويقرأ: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾، فكأنما نشط من عقال، فانطلق يمشي وما به قَلَبَةٌ. قال: فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه. فقال بعضهم: اقسموا، فقال الذي رقى: لا تفعلوا حتى نأتي النبي ﷺ فنذكر له الذي كان فننظر ما يأمرنا. فقدموا على رسول الله ﷺ فذكروا له، فقال: «وما يدريك أنها رقية؟» ثم قال: «قد أصبتم، اقسموا واضربوا لي معكم سهمًا، فضحك النبي ﷺ.

[أخرجه البخاري في كتاب الإجارة باب ما يعطى في الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب، وكذلك أخرجه في فضائل القرآن، وأخرجه أيضًا في كتاب الطب، وأخرجه مسلم في كتاب السلام باب جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن، وأخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن الجارود في المنتقى وابن ماجه]

التعليق:

قد تكرر ذكر الرقية والرقى والاسترقاء في الحديث، والرقية: (هي تلاوة شيء من القرآن أو المأثورات ونحوها على المريض وصاحب الآفة كالحمى والصرع وغير ذلك للشفاء أو الحفظ). والرقية مشروعة بإجماع إذا تحققت فيها شروط معلومة.

قال ابن حجر في الفتح: وقد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط:

أن تكون بكلام الله تعالى وبأسمائه وصفاته وباللسان العربي وبما يعرف معناه وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بقدر الله تعالى. اهـ.

أما عن الحديث فقد قال ابن القيم رحمه الله بعد ذكره: فقد أثر هذا الدواء في هذا الداء وأزاله حتى كأنه لم يكن. وهو أسهل دواء وأيسره، ولو أحسن العبد التداوي بالفاتحة لرأى لها تأثيرًا عجيبًا في الشفاء، ومكثت بمكة مدة يعتريني أدواء (أمراض)، ولا أجد طبيبًا ولا دواء، فكنت أعالج نفسي بالفاتحة فأرى لها تأثيرًا عجيبًا، فكنت أصف ذلك لمن يشتكي ألمًا، فكان كثير منهم يبرأ سريعًا.

وقال رحمه الله في موضع آخر: «وقد قيل: إن موضع الرقية منها (أي من الفاتحة) ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، ولا ريب أن هاتين الكلمتين من أقوى أجزاء هذا الدواء، فإن فيهما من عموم التفويض والتوكل، والالتجاء والاستعانة، والافتقار والطلب والجمع بين أعلى الغايات، وهي عبادة الرب وحده، وأشرف الوسائل وهي الاستعانة به على عبادته ما ليس في غيرها، ولقد

مر بي وقت بمكة سقمت فيه، وفقدت الطبيب والدواء، فكنت أتعالج بها، آخذ شربة من ماء زمزم، وأقرؤها عليها مرارًا، ثم أشربه فوجدت بذلك البرء التام، ثم صرت أعتمد ذلك عند كثير من الأوجاع، فانتفع بها غاية الانتفاع». اهـ.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه أن نفرًا من أصحاب النبي ﷺ مروا بماء (أي بقوم نزلوا على ماء) فيهم لديغٌ أو سليمٌ (والسليم هو اللديغ؛ سمي بذلك تفاؤلاً من السلامة لكون غالب من يلدغ يعطب)، فعرض لهم رجل من أهل الماء فقال: هل فيكم راقٍ؟ إن في الماء رجلاً لديغًا أو سليمًا فانطلق رجلٌ منهم فقرأ بفاتحة الكتاب على شاءٍ فبرأ فجاء بالشاء إلى أصحابه فكرهوا ذلك وقالوا أخذت على كتاب الله أجرًا؟ حتى قدموا المدينة فقالوا: يا رسول الله، أخذ على كتاب الله أجرًا؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله».

[أخرجه البخاري وابن حبان والبيهقي والدارقطني]

التعليق:

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: إذا ثبت أن لبعض الكلام خواصَّ ومنافع فما الظن بكلام رب العالمين، ثم بالفاتحة التي لم ينزل في القرآن ولا في غيره من الكتب مثلها لتضمنها جميع معاني الكتاب، فقد اشتملت على ذكر أصول أسماء الله ومجامعها، وإثبات المعاد وذكر التوحيد والافتقار إلى الرب في طلب الإعانة به والهداية منه، وذكر أفضل الدعاء وهو طلب الهداية إلى الصراط المستقيم المتضمن كمال معرفته وتوحيده وعبادته بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه والاستقامة عليه، ولتضمنها ذكر أصناف الخلائق وقسمتهم إلى: منعم عليه لمعرفته بالحق والعمل به، ومغضوب عليه لعدوله عن الحق بعد معرفته وضال لعدم معرفته له، مع ما تضمنته من إثبات القدر والشرع والمعاد والتوبة وتزكية النفس وإصلاح القلب والرد على جميع أهل البدع.

وحقيق بسورة هذا بعض شأنها أن يستشفى بها من كل داء والله أعلم.

ويستفاد من الحديث جواز الرقية بكتاب الله، ويلتحق به ما كان بالذكر والدعاء المأثور وكذا غير المأثور مما لا يخالف ما في المأثور، وأما الرقى بما سوى ذلك فليس في الحديث ما يثبته وفيه الاجتهاد عند فقد النص، وعظمة القرآن في صدور الصحابة خصوصًا الفاتحة. وفيه أن الرزق المقسوم لا يستطيع من هو في يده منعه ممن قسم له، لأن أولئك منعوا الضيافة وكأن الله قسم للصحابة في ما لهم نصيبًا فمنعوهم فسبب لهم لدغ العقرب حتى سيق لهم ما قسم لهم، وفيه الحكمة البالغة حيث اختص بالعقاب من كان رأسًا في المنع لأن من عادة الناس الائتمار بأمر كبيرهم فلما كان رأسهم في المنع اختص بالعقوبة دونهم جزاء وفاقًا.

وقوله ﷺ: «إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله». هذا تصريح لجواز أخذ الأجرة على الرقية بالفاتحة والذكر، وأنها حلال لا كراهة فيها، وكذا الأجر على تعليم القرآن. قال الترمذي: رخص الشافعي للمعلم أن يأخذ على تعليم القرآن أجرًا ويرى له أن يشترط على ذلك واحتج بحديث أبي سعيد الخدري في الرقية بفاتحة الكتاب.

وقال الإمام الزركشي: ويجوز أخذ الأجرة على التعليم، ففي صحيح البخاري: «إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله».

إذا قرئت على من به جنون برئ بإذن الله تعالى

عن خارجة بن الصلت التميمي عن عمه أنه أتى رسول الله ﷺ فأسلم، ثم أقبل راجعًا من عنده فمر على قوم عندهم رجل مجنون موثق بالحديد، فقال أهله: إنا حُدثنا أن صاحبكم هذا قد جاء بخير، فهل عندكم شيء تَدَاوَوْنه؟ فرقيته بفاتحة الكتاب فبرأ، فأعطوني مائة شاة، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: «هل قلت إلا هذا؟» قلت: لا. قال: «خذها فلعمري لمن أكل برقية باطل، لقد أكلت برقية حق». [أخرجه أبو داود والنسائي وأحمد وابن حبان والحاكم وصححه وأقره الذهبي]

التعليق:

فقوله: «فلعمري لمن أكل برقية باطل» أي من الناس من يأكل برقية باطل كذكر الكواكب والاستعانة بها وبالجن: «لقد أكلت برقية حق»، أي بذكر الله تعالى وكلامه، وإنما حلف بعمره لما أقسم الله به حيث قال: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر: ٧٢]. قال الطيبي: لعله كان مأذونًا بهذا الإقسام وأنه من خصائصه ﷺ، وقد أقسم الله تعالى بحياته وما أقسم بحياة أحد قط كرامة له ﷺ.

والحمد لله رب العالمين

فضائل الفاتحة

إعداد/ مصطفى البصراتي

الفاتحة نور أوتيه النبي ﷺ لم يؤته نبي قبله

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضًا (أي صوتًا كصوت الباب إذا فتح) من فوقه، فرفع رأسه، فقال: «هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم». فنزل منه ملك فقال: «هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم» فسلم وقال: «أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك؛ فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته». [رواه مسلم]

في هذا الحديث الشريف يبين لنا النبي ﷺ طرفًا من فضائل سورة الفاتحة وخواتيم سورة البقرة، فهما نوران أوتيهما النبي ﷺ لم يعطهما أحد قبله، وهما دعاء مستجاب، حيث قيل له ﷺ: «لن تقرأ بحرف منهما إلا أوتيته».

لا تصح الصلاة إلا بقراءتها

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب». [رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه]

قال الإمام النووي رحمه الله: في الحديث وجوب قراءة الفاتحة وأنها متعينة لا يجزئ غيرها عنها إلا لعاجز، وهذا مذهب الشافعي ومالك وجمهور العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم، وقال أبو حنيفة وطائفة معه: لا تجب الفاتحة بل الواجب آية من القرآن لقوله ﷺ: «اقرأ ما تيسر معك من القرآن». [رواه مسلم] ودليل الجمهور: قوله ﷺ: «لا صلاة إلا بأم القرآن» فإن قالوا: المراد لا صلاة كاملة. قلنا: هذا خلاف ظاهر اللفظ ومما يؤيده حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لا يجزئ صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب». [رواه ابن خزيمة بإسناد صحيح]، وأما الحديث: «اقرأ ما تيسر» فمحمول على الفاتحة فإنها ميسرة أو ما زاد على الفاتحة بعدها، أو على من عجز عن الفاتحة.

والصحيح الذي عليه جمهور العلماء من السلف والخلف: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة لقوله ﷺ للأعرابي: «ثم افعل ذلك في صلاتك كلها».

- وعن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «لعلكم تقرءون والإمام يقرأ؟» مرتين أو ثلاثًا، قالوا: يا رسول الله إنا لنفعل. قال: «فلا تفعلوا إلا أن يقرأ أحدكم بفاتحة الكتاب». أخرجه الإمام أحمد وأخرجه البخاري في القراءة خلف الإمام وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى. والحديث صحيح رواته ثقات، وجهالة الصحابي لا تضر، فالصحابة رضوان الله عليهم كلهم عدول والحديث ذكره ابن حجر في التلخيص وقال: إسناده حسن.

ـ عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: كنا خلف رسول الله ﷺ في صلاة الفجر فقرأ رسول الله ﷺ، فثقلت عليه القراءة، فلما فرغ قال: «لعلكم تقرأون خلف إمامكم؟» قلنا: نعم هذًا يا رسول الله، قال: «لا تفعلوا إلا بفاتحة الكتاب فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها».

ومعنى هذًا: الهذ والهذذ: سرعة القطع وسرعة القراءة. رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن حبان وابن الجارود في المنتقى والحاكم والبخاري في القراءة خلف الإمام والطحاوي في شرح معاني الآثار والبيهقي في السنن الكبرى والبغوي في شرح السنة وإسناده حسن، قال الترمذي: هذا حديث حسن. وقال الدارقطني: هذا إسناد حسن. والحديث ذكره ابن حجر في التلخيص الحبير وقال: أخرجه أحمد والبخاري في جزء القراءة، وصححه أبو داود والترمذي والدارقطني وابن حبان والحاكم والبيهقي.

ـ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كان يأمر ويحب أن يقرأ خلف الإمام في الظهر والعصر بفاتحة الكتاب وسورة، وفي الأخرين بفاتحة الكتاب. أخرجه البخاري في القراءة خلف الإمام والحاكم وقال: صحيح، وأقره الذهبي، فقال: صحيح. والدارقطني وصححه.

ـ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «تقرءون خلفي؟» قالوا: نعم إنا لنهذ هذًا، قال: «فلا تفعلوا إلا بأم القرآن». أخرجه البخاري في القراءة خلف الإمام والبيهقي في القراءة خلف الإمام وإسناد الحديث حسن.

قراءة سورة الفاتحة في الصلوات

عن أبي قتادة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر في الأولين بأم الكتاب وسورتين، وفي الركعتين الأخريين بأم الكتاب ويسمعنا الآية، ويطول في الركعة الأولى ما لا يطول في الركعة الثانية، وهكذا في العصر، وهكذا في الصبح. [رواه البخاري في كتاب الأذان ومسلم في الصلاة وأبو داود في الصلاة والنسائي وابن ماجه وأحمد]

قال الصنعاني في سبل السلام: في الحديث دلالة على شرعية قراءة الفاتحة في الأربع الركعات في كل واحدة، وقراءة سورة معها في كل ركعةٍ من الأولين.

وإسماعهم الآية أحيانًا دليل على أنه لا يجب الإسرارُ في السرِّية، وأن ذلك لا يقتضي سجود السهو وفي قوله في الرواية الأخرى: «ويُسمعُ الآية أحيانًا» ما يدل على أنه تكرر ذلك منه ﷺ، وقد أخرج النسائي من حديث البراء قال: «كنا نصلي خلف النبي ﷺ الظهر ونسمعُ منه الآية من سورة لقمان والذاريات».

الآثار الواردة في قراءة الفاتحة في الصلوات

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «كنا نقرأ في الظهر والعصر خلف الإمام في الركعتين الأولين بفاتحة الكتاب وسورة، وفي الأخرين بفاتحة الكتاب». أخرجه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة، قال الحافظ المزي في تحفة الأشراف بعد هذا الحديث: موقوف، وقال الإمام البوصيري في مصباح الزجاجة: رجاله ثقات.

ـ وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: لا تصلين صلاة حتى تقرأ بفاتحة الكتاب في كل ركعة. أخرجه عبد الرزاق في كتاب الصلاة، والطحاوي في شرح معاني الآثار، وإسناده صحيح.

ـ قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: لا يركع أحدكم حتى يقرأ بأم القرآن. أخرجه البخاري في القراءة خلف الإمام وإسناده حسن.

ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: في كل صلاة يقرأ، فما أسمعنا رسول الله ﷺ أسمعناكم وما أخفى عنا أخفينا عنكم، وإن لم تزد على أم القرآن أجزأت، وإن زدت فهو خير». رواه البخاري ومسلم.

ـ عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أم القرآن عوض من غيرها وليس غيرها منها عوض». أخرجه الحاكم في كتاب الصلاة باب أم القرآن عوض من غيرها، ورواته ثقات، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع.

وذكر القرطبي في تفسيره فقال: ومن أسماء سورة الفاتحة: الكافية، لأنها تكفي عن سواها ولا يكفي سواها عنها.

سورة الفاتحة قسمة ربانية مباركة ومناجاة بين العبد وربه

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج» ثلاثًا، غير تمام. فقيل لأبي هريرة: إنا نكون وراء الإمام. فقال: اقرأ بها في نفسك، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: حمدني عبدي. وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي، فإذا قال: مالك يوم الدين، قال: مجدني عبدي، وقال مرة: فوض إليَّ عبدي- فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين. قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل». [رواه مسلم]

قال الإمام النووي رحمه الله: قوله سبحانه وتعالى: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين». قال العلماء: المراد بالصلاة هنا الفاتحة، وسميت بذلك لأنها لا تصح إلا بها كقوله ﷺ: «الحج عرفة» ففيه دليل على وجوبها بعينها في الصلاة، قال العلماء: والمراد قسمتها من جهة المعنى، لأن نصفها الأول تحميد لله تعالى وتمجيد وثناء عليه وتفويض إليه والنصف الثاني سؤال وطلب وتضرع وافتقار.

التأمين عقب سورة الفاتحة

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا قال الإمام: ﴿غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ فقولوا: آمين، فإن الملائكة تؤمن، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه». [رواه البخاري ومسلم]

سورة الفاتحة دعاء أمر النبي ﷺ المصلين أن يقولوا آمين بعد قراءتها، فمن هذا الحديث يتبين لنا استحباب التأمين عقب الفاتحة للإمام والمأموم والمنفرد، وأنه ينبغي أن يكون تأمين المأموم مع تأمين الإمام لا قبله ولا بعده؛ لقوله ﷺ: «وإذا قال: ﴿وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ فقولوا آمين»، وقد أجمعت الأمة على أن المنفرد يؤمن وكذلك الإمام والمأموم في الصلاة السرية، وكذلك الجهرية على رأي الجمهور، ويسن للإمام والمأموم الجهر بالتأمين في الصلاة الجهرية على المذهب الصحيح.

وللحديث بقية إن شاء الله.

مختارات من علوم القرآن

الأحاديث الضعيفة والموضوعة الواردة في فضائل سورة الفاتحة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وبعد:

فقد ذكرنا في الأعداد السابقة كلام بعض أئمة المسلمين حول فضائل سورة الفاتحة وما ورد فيها من أحاديث صحيحة والتعليق عليها وتوضيح ما فيها من معانٍ جليلة، وإتمامًا للفائدة رأيت أن أجمع الأحاديث الضعيفة والموضوعة الواردة في فضائل سورة الفاتحة ليحذر القارئ منها، وإليك نصوصها:

١- «بسم الله الرحمن الرحيم مفتاح كل كتاب» ضعيف جدًا.

رواه الخطيب في «الجامع» كما في «المنتقى منه» (١/١٩) قال الشيخ الألباني في السلسلة الضعيفة رقم (١٧٤١): وهذا إسناد ضعيف مسلسل بالضعف والعلل، فإنه مع كونه مرسلاً أو معضلاً سقط من إسناده الصحابي والتابعي على الأقل.

٢- «أتاني جبريل عليه السلام، فقرأ: (بسم الله الرحمن الرحيم) فجهر فيها». موضوع.

قال الشيخ الألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة رقم (٢٤٥١): موضوع: أخرجه الدارقطني في «السنن» (١/٣٠٧/١٨) ثم قال رحمه الله: هذا إسناد تالف، والمتهم به (خالد بن إلياس) فإنه متروك، بل قال ابن حبان في المجروحين (١/٢٧٩): يروي الموضوعات عن الثقات، حتى يسبق إلى القلب أنه الواضع لها.

قال الشيخ الألباني: ولا يصح في الجهر بالبسملة حديث، وكل ما ورد في الباب لا يصح إسناده وفي الصحيح خلاف ذلك، فراجع «نصب الراية» وغيرها.

٣- «من كتب: بسم الله الرحمن الرحيم ولم يَعُم الهاء التي في (الله) تعالى كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة ورفع له ألف ألف درجة». موضوع.

ذكره المُلا علي القاري في «الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة» رقم (١١٣٨)، وقال: رواه ابن العباس بن الضحاك البلخي، كذاب أشر. وابن عراق الكناني في «تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة»، وقال: فيه العباس بن الضحاك.

وذكره الشوكاني في «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» بلفظ: «من كتب بسم الله الرحمن الرحيم ولم يُعَوِّر الهاء...» ثم قال: قال ابن حبان: المبتدئ يعلم أن هذا (موضوع)، والعباس بن الضحاك البلخي - يعني المذكور في إسناده - دجال.

والمراد والله أعلم من كلمة (يُعْم) المذكورة في هذا الخبر (الطول).

قال ابن فارس في معجم المقاييس في اللغة: (عَمّ) العين والميم أصلٌ صحيح واحد يدلُّ على الطُّول والكثرة والعلو.

٤- «فاتحة الكتاب شفاء من السم». موضوع.

رواه سعيد بن منصور في سننه والبيهقي عن أبي سعيد، وأبو الشيخ في الثواب عن أبي هريرة وأبي سعيد معًا، وأخرجه الديلمي في «فردوس الأخبار» رقم (٤٢٦٤)، وقد حكم عليه الشيخ الألباني بالوضع في السلسلة الضعيفة (٣٩٩٧).

٥- «إن الله عز وجل أعطاني فيما مَنَّ به عليَّ، إني أعطيتك فاتحة الكتاب، وهي من كنوز عرشي، ثم قسمتها بيني وبينك نصفين». ضعيف.

رواه الديلمي في «فردوس الأخبار» رقم (٦٣٦)، عن صالح بن بشير المري عن ثابت عن أنس مرفوعًا، وذكره السيوطي في الجامع الصغير رقم (١٦٨٧)، وذكره العقيلي في الضعفاء (٢/١٩٩) في ترجمة صالح بن بشير المري وضعفه. وذكره الألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة رقم (٣٠٥١) وقال: وهذا إسناد ضعيف، صالح هذا - وهو ابن بشير - قال

الحافظ في التقريب: ضعيف، وقال الذهبي في «الضعفاء»: قال النسائي وغيره: متروك.

٦- «نزلت فاتحة الكتاب من كنز تحت العرش». ضعيف.

أخرجه الديلمي من طريق أحمد بن بديل. قال الشيخ الألباني بعد ما ذكر سنده: هذا إسناد ضعيف. (السلسلة الضعيفة رقم ٤٠٢٤).

٧- «قال ربكم: ابن آدم أنزلتُ عليك سبع آيات، ثلاث لي وثلاث لك، وواحدة بيني وبينك، فأما التي لي فـ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، والتي بيني وبينك: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منك العبادة وعليَّ العون لك، وأما التي لك، فـ ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ هذه لك، ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ اليهود، ﴿ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ النصارى». ضعيف جداً.

أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٤١١) من طريق سليمان بن أرقم عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن أبي بن كعب، قال: قرأ رسول الله ﷺ فاتحة الكتاب، ثم قال:... فذكره.

وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد برقم (٢٦٥٨).

وقال فيه سليمان بن أرقم وهو متروك. وقال الألباني رحمه في السلسلة الضعيفة رقم (٥٤٤٢)، وهذا إسناد ضعيف جدًا، آفتُه ابن أرقم هذا، فإنه متروك، كما قال الذهبي في «الكاشف» والهيثمي في المجمع وبه أعله.

ثم إن في متنه نكارة، فقد صح بلفظ: «قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: (الحمد لله رب العالمين)، قال الله: حمدني عبدي...). الحديث. رواه مسلم وأبو عوانة في صحيحيهما وغيرهما، وهو مخرج في الإرواء (٥٠٢).

٨- «إذا وضعت جنبك على الفراش، وقرأت فاتحة الكتاب و(قل هو الله أحد) فقد أمنت من كل شيء إلا الموت». ضعيف.

أخرجه البزار من حديث أنس مرفوعًا، وقال المنذري: رجاله رجال الصحيح إلا غسان بن عُبيد. وكذا قال الهيثمي في مجمع الزوائد رقم (١٧٠٣٠): فيه غسان بن عبيد، وهو ضعيف، ووثقه ابن حبان وبقية رجاله رجال الصحيح. وإليه أشار الحافظ ابن حجر بقوله في «بذل الماعون في فضائل الطاعون» وفي سنده راوٍ ضعيف. وانظر السلسلة الضعيفة للألباني رقم (٥٠٦٢).

١٠- «إن فاتحة الكتاب وآية الكرسي والآيتين من (آل عمران): ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾ و﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ إلى قوله: ﴿ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ هن مُشفعات ما بينهن وبين الله حجاب. فقلن: يا رب: تهبطنا إلى أرضك وإلى من يعصيك؟ قال الله: بي حلفت لا يقرؤهن أحد من عبادي دبر كل صلاة إلا جعلت الجنة مأواه على ما كان فيه، وإلا اسكنته حظيرة الفردوس، وإلا قضيت له كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة». موضوع.

رواه ابن حبان في المجروحين، وابن السني، عن محمد بن زنبور، عن الحارث بن عمير: ثنا جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرفوعًا. وقال ابن حبان: موضوع لا أصل له، والحارث كان ممن يروى عن الأثبات الموضوعات. قال الشيخ الألباني في السلسلة الضعيفة رقم (٦٩٨): قلت: وثقه المتقدمون مثل ابن معين وغيره، لكن قال الذهبي في «الميزان»: وما أراه إلا بَيِّنَ الضعف فإن ابن حبان قال في «الضعفاء»: روى عن الأثبات الأشياء الموضوعات.

وقال الحاكم: روى عن حميد وجعفر الصادق أحاديث موضوعة.

وقال ابن الجوزي عقب هذا الحديث: قلت: كنت قد سمعت هذا الحديث في زمن الصبا فاستعملته نحوًا من ثلاثين سنة لحسن ظني بالرواة، فلما علمت أنه موضوع تركته، فقال لي قائل: أليس هو استعمال خير؟ قلت: استعمال الخير ينبغي أن يكون مشروعًا، فإذا علمنا أنه كذب خرج عن المشروعية.

١١- «كل صلاة لا يقرأ فيها بأم الكتاب فهي خداج (أي ناقصة) إلا أن يكون وراء إمام».

رواه الدارقطني في سننه رقم (٢٢٨)، عن يحيى بن سلام عن مالك ابن أنس، عن وهب بن كيسان، عن جابر بن عبد الله: أن النبي ﷺ قال: «كل صلاة لا يقرأ...» وقال عقبه، يحيى بن سلام ضعيف، والصواب موقوف. وأورده الغساني في تخريج الأحاديث الضعاف رقم (١٢٢٨).

١٢- «فاتحة الكتاب تجزئ ما لا يجزئ شيء من القرآن، ولو أن فاتحة الكتاب جعلت في كفة الميزان، وجعل القرآن في الكفة الأخرى لفضلت فاتحة الكتاب على القرآن سبع مرات». ضعيف جداً.

أخرجه الديلمي في (فردوس الأخبار) رقم (٤٢٦٣). عن أبي نعيم معلقًا، من طريق إسماعيل بن عمرو البجلي: حدثنا يوسف بن عطية، عن سفيان، عن زاهر الأزدي، عن أبي سلمة، عن أبي الدرداء رضي الله عنه رفعه.

قال الشيخ الألباني رحمه الله في السلسلة

الضعيفة رقم (٣٩٩٦): هذا سند ضعيف جدًا، آفته يوسف بن عطية متروك، وزاهر الأزدي، لم أعرفه، وإسماعيل بن عمرو، ضعيف.

١٣- «لما نزلت (الحمد لله رب العالمين)، وآية الكرسي و(شهد الله) و(قل اللهم مالك الملك) إلى (بغير حساب)، تعلقن بالعرش، وقلن: أنزلتنا على قوم يعملون بمعاصيك؟ فقال: وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني لا يتلوكن عبد دبر كل صلاة مكتوبة إلا غفرت له ما كان فيه وأسكنته جنة الفردوس ونظرت إليه كل يوم سبعين مرة، وقضيت له سبعين حاجة أدناها المغفرة». موضوع.

قال الشيخ الألباني في السلسلة الضعيفة (٦٩٩): رواه الديلمي في «مسند الفردوس» من طريق محمد بن عبد الرحمن بن مُجَبَّر: حدثنا عمرو بن الربيع بن طارق: حدثنا يحيى بن أيوب: حدثنا إسحاق بن أسيد، عن يعقوب بن إبراهيم، عن محمد بن ثابت بن شرحبيل، عن عبد الله بن يزيد الخطمي، عن أبي أيوب رضي الله عنه مرفوعًا.

وابن ريسان هذا قال عنه الذهبي: اتهمه ابن عدي، وقال ابن يونس: ليس بثقة، وقال أبو الخطيب: كذاب، ثم ساق له حديثين ثم قال: وهذان باطلان، وقال ابن حبان في المجروحين: كان ممن ينفرد بالمعضلات عن الثقات، ويأتي بأشياء مناكير عن أقوام مشاهير لا يحتج به.

١٤- «كان يقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، إلى آخر السورة، قطعها آية آية، وعدها عد الأعراب، وعدّ: بسم الله الرحمن الرحيم آية، ولم يعد: عليهم». رواه الدارقطني في سننه رقم (١١٦٢).

وأورده الغساني في «تخريج الأحاديث الضعاف» رقم (٢١٤).

١٥- «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج غير تمام». قال: فقلت: يا أبا هريرة، إني ربما كنت مع الإمام قال: فغمز ذراعي ثم قال: اقرأ بها في نفسك، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: إني قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها له، يقول عبدي إذا افتتح الصلاة بسم الله الرحمن الرحيم، فيذكرني عبدي، ثم يقول: الحمد لله رب العالمين، فأقول: حمدني عبدي، ثم يقول: الرحمن الرحيم، فأقول: أثنى عليّ عبدي، ثم يقول: مالك يوم الدين، فأقول: مجدني عبدي، ثم يقول: إياك نعبدُ وإياك نستعين، فهذه الآية بيني وبين عبدي نصفين، وآخر السورة لعبدي، ولعبدي ما سأل».

رواه الدارقطني في سننه عن ابن سمعان، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها...». قال الدارقطني عقبه: ابن سمعان هو عبد الله بن زياد بن سمعان، متروك الحديث.

وأورده الغساني في «تخريج الأحاديث الضعاف» رقم (٢٢٢).

١٦- «لا أخرج من المسجد حتى أخبرك بآية، أو قال: بسورة لم تنزل على نبي بعد سليمان غيري». قال: فمشى، وتبعته حتى انتهى إلى باب المسجد، فأخرج رجله من أسكفة المسجد، وبقيت الأخرى في المسجد، فقلت بيني وبين نفسي: أنسي؟ قال: فأقبل عليَّ بوجهه، وقال: «بأي شيء تفتح القراءة إذا افتتحت الصلاة؟ قال: قلت: ببسم الله الرحمن الرحيم، قال: «هي هي». ثم خرج».

رواه الدارقطني رقم (١١٧٠)، عن سلمة بن صالح الأحمر، عن يزيد بن أبي خالد، عن عبد الكريم أبي أمية، عن ابن بريدة، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أخرج من المسجد حتى... وذكره». وأورده الغساني في «تخريج الأحاديث الضعاف» رقم (٢١٨).

١٧- «من صلى صلاة مكتوبة مع الإمام فليقرأ بفاتحة الكتاب في سكتاته، ومن انتهى إلى أم القرآن فقد أجزأه».

رواه الدارقطني في سننه رقم (١١٩٦)، عن محمد بن عبد الله بن عبيد الله بن عمير، عن عطاء، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى صلاة...» وقال عقبه، محمد بن عبدالله بن عبيد الله ضعيف.

وأورده الغساني في «تخريج الأحاديث الضعاف» رقم (٢٦٠) بلفظ: «من صلى صلاة مكتوبة، أو تطوعًا، فليقرأ فيها بأم الكتاب وسورة معها، فإن انتهى إلى أم الكتاب فقد أجزأ، ومن صلى صلاة مع إمام يجهر فليقرأ بفاتحة الكتاب في بعض سكتاته، فإن لم يفعل فصلاته خداج (أي ناقصة) غير تمام».

وقال عقبه: محمد بن عبد الله بن عبيد ضعيف.

١٨- «آمين قوة للدعاء». ضعيف جدًا.

رواه ابن عدي عن عبد الله بن بزيع عن الحسن بن عمارة: حدثني الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا. قال الشيخ الألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة (١٤٨٨): وهذا سند ضعيف جدًا، وفيه علتان:

الأولى: ابن عمارة، قال الحافظ: متروك. بل قال الإمام أحمد: كان منكر الحديث وأحاديثه موضوعة.

الثانية: عبد الله بن بزيع فإنه ضعيف، وقال ابن عدي في «الكامل» (٥/٤١٧): ليس هو عندي ممن يحتج بحديثه.

فضائل سورة البقرة

إعداد / مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وبعد:

فإن سورة البقرة من السور المدنية، التي تُعنى بجانب التوجيه والتشريع، وهي أطول سور القرآن على الإطلاق، وشأنها كشأن سائر السور المدنية التي تعالج النُّظم والقوانين التشريعية للدولة الإسلامية.

اشتملت هذه السورة الكريمة «سورة البقرة» على معظم الأحكام التشريعية في العبادات، والمعاملات، والأخلاق، وفي أمور النكاح، والعدة، والطلاق، وسائر الأحكام الشرعية من صلاة، وصيام، وحج، وزكاة، لأن المسلمين كانوا في بداية تكوين «الدولة الإسلامية» وهم في أمسِّ الحاجة إلى التشريع الإلهي، والمنهاج الرباني، الذي يعصمهم من الخطأ والزَّلل، والذي يسيرون عليه في حياتهم الدنيوية، سواء فيها ما كان في العبادات أو المعاملات.

ولهذا نجد السورة الكريمة تهتم بجانب التشريع، وإن كانت هناك لفتاتٌ دقيقة، تتناول جانب العقيدة والإيمان، ولكنها لا تأخذ مجالاً فسيحًا في السورة الكريمة، وفي ذلك الإطار العام الذي رسمته السورة، بهدف توجيه المسلمين إلى التشريع والأحكام.

وقد تكلم في فضل هذه السورة كثير من العلماء والمفسرين، ولأهمية ما كتبوه أنقل بعضًا منه ثم أتبعُ ذلك بالأحاديث الصحيحة الواردة في فضلها مع التعليق عليها وشرح معانيها ثم أختم الكلام حولها بالأحاديث الضعيفة والموضوعة الواردة في فضل هذه السورة في هذا المقال وما يليه.

قال القرطبي رحمه الله في تفسيره: سورة البقرة مدنية، نزلت في مدد شتى، وقيل: هي أول سورة نزلت بالمدينة، إلا قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ فإنه آخر آية نزلت من السماء، ونزلت يوم النحر في حجة الوداع بمنى، وآيات الربا أيضًا من أواخر ما نزل من القرآن.

وهذه السورة فضلها عظيم وثوابها جسيم، ويقال لها فُسطاط القرآن (ما يحيط بالمكان لإحاطتها بأحكام كثيرة)، قاله خالد بن معدان، وذلك لعظمها وبهائها، وكثرة أحكامها ومواعظها، وتعلمها عمر رضي الله عنه بفقهها وما تحتوي عليه في اثنتي عشرة سنة، وابنه عبد الله في ثمانية أعوام.

قال ابن العربي: سمعت بعض أشياخي يقول: فيها ألف أمر، وألف نهي، وألف حكم، وألف خبر، وبعث رسول الله ﷺ بعثًا وهم

ذوو عدد وقدم عليهم أحدثهم سنًا، لحفظه سورة البقرة، وقال: «اذهب فأنت أميرهم». أخرجه الترمذي عن أبي هريرة، وصححه، وروى مسلم عن أبي أمامة الباهلي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة، وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة». قال معاوية: بلغني أن البطلة: السحرة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة».

وفي كتاب الاستيعاب لابن عبد البر: وكان لبيد بن ربيعة (بن عامر) بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة من شعراء الجاهلية، أدرك الإسلام فحسن إسلامه، وترك قول الشعر في الإسلام، وسأله عمر في خلافته عن شعره واستنشده، فقرأ سورة البقرة، فقال: إنما سألتك عن شعرك، فقال: ما كنت لأقول بيتًا من الشعر بعد إذ علمني الله البقرة وآل عمران، فأعجب عمر قوله، وكان عطاؤه ألفين فزاده خمسمائة. اهـ. بتصرف.

قال الصابوني في «قبس من نور القرآن»: أما الأحكام الشرعية التي تناولتها السورة الكريمة فهي كثيرة متنوعة ويمكن أن نجملها في الآتي:

«أحكام الصيام، أحكام القصاص، أحكام الحج والعمرة، أحكام الجهاد والقتال، ثم شئون الأسرة وما يتعلق بها من النكاح، والرضاع، والعدة والطلاق، والخلع، والإيلاء، وسائر الأمور المتعلقة بالأسرة كالتحذير من معاشرة النساء في الحيض وتحريم نكاح المشركات.

وكذلك فقد تناولت السورة أحكام الحلف «اليمين» وأحكام الدَّين، وأحكام القبلة، والنسخ في القرآن، وتحدثت بالتفصيل عن «جريمة الربا» التي تقوض بنيان المجتمع، وتهدم أركانه.

وفي خلال السورة الكريمة: تناولت الحديث عن أهل الكتاب، وبخاصة بني إسرائيل «اليهود» لأنهم كانوا مجاورين للمؤمنين في المدينة، فنبهت إلى خبثهم ومكرهم، وما تنطوي عليه نفوسهم الشرِّيرة من اللؤم والكيد والغدر، والخيانة ونقض العهود والمواثيق، وذلك للتحذير من هذه العصبة المجرمة الطاغية، لئلا يقع المسلمون فريسة كيدهم ومكرهم، وهم الزمرة الأولى من أهل الكتاب، أما الزمرة الثانية وهم «النصارى» فقد تناولتهم سورة آل عمران، وقد ختمت السورة الكريمة بتوجيه المؤمنين إلى التوبة والإنابة، والاعتصام بحبل الله عز وجل.

قال العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير»:

كذا سُميت السورةُ سورة البقرة في المروي عن النبي ﷺ وما جرى في كلام السلف، فقد ورد في الصحيح أن النبي ﷺ قال: من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه، وفيه عن عائشة لما نزلت الآيات من آخر البقرة في الربا قرأهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قام فحرم التجارة في الخمر.

ووجه تسميتها أنها ذكرت فيها قصة البقرة التي أمر الله بني إسرائيل بذبحها لتكون آية ووصف سوء فهمهم لذلك، وهي مما انفردت به هذه السورة بذكره، وعندي أنها أضيفت إلى قصة البقرة تمييزًا لها عن السور آل الم من الحروف المقطعة لأنهم كانوا ربما

جعلوا تلك الحروف المقطعة أسماء للسور الواقعة هي فيها وعرفوها بها نحو: طه ويس، وص، وفي الإتقان عن المستدرك أن النبي ﷺ قال: «إنها سَنام القرآن»، وسنام كل شيء أعلاه وهذا ليس علمًا ولكنه وصف تشريف، وكذلك قول خالد بن مَعْدان إنها فسطاط القرآن والفسطاط ما يحيط بالمكان لإحاطتها بأحكام كثيرة.

نزلت سورة البقرة بالمدينة بالاتفاق وهي أول ما نزل في المدينة وحكى ابن حجر في شرح البخاري الإتفاق عليه، وقيل: نزلت سورة المطففين قبلها بناءً على أنها سورة مدنية، ولا شك أن سورة البقرة فيها فرض الصيام، والصيام فرض في السنة الأولى من الهجرة، فرض فيها صوم عاشوراء، ثم فرض صيام رمضان في السنة الثانية؛ لأن النبي ﷺ صام سبع رمضانات أولها رمضان من العام الثاني من الهجرة فتكون سورة البقرة نزلت في السنة الأولى من الهجرة في أواخرها أو في الثانية.

وفي البخاري عن عائشة: ما نزلت سورة البقرة إلا وأنا عنده (تعني النبي ﷺ)، وكان بناء رسول الله ﷺ بعائشة في شوال من السنة الأولى للهجرة.

وقيل في أول السنة الثانية، وقد روى عنها أنها مكثت عنده تسع سنين فتوفي وهي بنت ثمان عشرة سنة وبنى بها وهي بنت تسع سنين، إلا أن اشتمال سورة البقرة على أحكام الحج والعمرة وعلى أحكام القتال من المشركين في الشهر الحرام والبلد الحرام ينبئ بأنها استمر نزولها إلى سنة خمس وسنة ست وقد يكون ممتدًا إلى ما بعد سنة ثمان كما يقتضيه قوله: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾، على أنه قد قيل إن قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ الآية، هو آخر ما نزل من القرآن، وقد بينا في المقدمة الثامنة أنه قد يستمر نزول السورة فتنزل في أثناء مدة نزولها سورٌ أخرى.

وقد عدت سورة البقرة السابعة والثمانين في ترتيب نزول السور نزلت بعد سورة المطففين وقبل سورة آل عمران.

وإذ قد كان نزول هذه السورة في أول عهدٍ بإقامة الجماعة الإسلامية واستقلال أهل الإسلام بمدينتهم كان من أول أغراض هذه السورة تصفية الجماعة الإسلامية من أن تختلط بعناصر مفسدة لما أقام الله لها من الصلاح سعيًا لتكون المدينة الفاضلة النقية من شوائب الدجل والدخل (كناية عن الفساد والعداوة)، وإذ كانت أول سورة نزلت بعد الهجرة فقد عُني بها الأنصار وأكبوا على حفظها، يدل لذلك ما جاء في السيرة أنه لما انكشف المسلمون يوم حنين قال النبي ﷺ للعباس: «اصرُخ يا معشر الأنصار يا أهل السَّمُرَة (يعني شجرة البيعة في الحديبية) يا أهل سورة البقرة». فقال الأنصار: لبيك لبيك يا رسول الله، أبشر.

وفي الموطأ قال مالك: إنه بلغه أن عبد الله بن عمر مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها، وعدد آيها مائتان وخمس وثمانون آية عند أهل العدد بالمدينة ومكة والشام، وست وثمانون عند أهل العدد بالكوفة، وسبع وثمانون عند أهل العدد بالبصرة.

وللحديث بقية بإذن الله تعالى.

مختارات من علوم القرآن

الأحاديث الصحيحة الواردة في فضائل سورة البقرة والتعليق عليها

إعداد / مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

١.قارئها أمير على غيره:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ بعثًا وهم ذوو عدد فاستقرأهم فاستقرأ كل رجل منهم ما معه من القرآن، فأتى على رجل منهم من أحدثهم سنًا، فقال: «ما معك يا فلان ؟» قال: معي كذا وكذا وسورة البقرة، قال: «أمعك سورة البقرة؟» قال: نعم. قال: «فاذهب فأنت أميرهم»، فقال رجل من أشرافهم: والله يا رسول الله ما منعني أن أتعلم سورة البقرة إلا خشية ألا أقوم بها، فقال رسول الله ﷺ: «تعلموا القرآن فاقرأوه وأقرئوه، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشو مسكًا يفوح بريحه كل مكان، ومثل من تعلمه فيرقد وهو في جوفه كمثل جراب وكئ على مسك».

[أخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن، وأخرجه النسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه وابن خزيمة في صحيحه]

إعلاء لمكانة حافظ القرآن وخاصة سورة البقرة فقد جعله النبي ﷺ أميرًا على قومه وهو أصغرهم سنًا، وذلك حينما أراد النبي ﷺ أن يرسل جيشًا فطلب من كل واحد منهم أن يقرأ ما يحفظه من القرآن، فقال النبي ﷺ لرجل من أصغرهم سنًا: ما معك يا فلان ؟ قال: معي كذا وكذا وسورة البقرة، فقال النبي ﷺ: «أمعك سورة البقرة ؟» قال: نعم. قال: فاذهب فأنت أميرهم، وهذا تشريع من النبي ﷺ وعلينا أن نقتدي به.

٢.وهي سنام القرآن وطاردة للشيطان:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن لكل شيء سنامًا، وسنام القرآن سورة البقرة، وإن الشيطان إذا سمع سورة البقرة تقرأ خرج من البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة». [أخرجه الحاكم في كتاب فضائل القرآن وقال: صحيح الإسناد وأقره الذهبي فقال: صحيح، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان باب في تعظيم القرآن، والحديث ذكره الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (٥٨٨) وقال: أخرجه الحاكم وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي وهو عندي حسن]

قال العلامة المباركفوري في «تحفة الأحوذي» ١٤٦/٨: قوله ﷺ: «لكل شيء سنام» بفتح السين أي رفعة وعلو استعير من سنام الجمل ثم كثر استعماله فيها حتى صار مثلاً، ومنه سميت سورة البقرة سَنام القرآن قاله الطيبي. وقال ابن الأثير في النهاية: سَنَام كل شيء أعلاه.

وقوله ﷺ: «وإن سنام القرآن سورة البقرة» إما لطولها واحتوائها على أحكام كثيرة أو لما فيها من الأمر بالجهاد وبه الرفعة الكبيرة.

وفي رواية: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر». قال المباركفوري في «تحفة الأحوذي»: قوله: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر» أي خالية من الذكر والدعاء فتكون كالمقابر وتكونون كالموتى فيها، أو معناه لا تدفنوا موتاكم فيها، ويدل على المعنى الأول قوله: «وإن البيت الذي تقرأ البقرة فيه لا يدخله الشيطان»، هذه رواية الترمذي، أما رواية مسلم الأولى ففيها: «إن الشيطان ينفر من

البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة».

وفي حديث سهل بن سعد عند ابن حبان: «من قرأها - يعني سورة البقرة - ليلاً لم يدخل الشيطان بيته ثلاث ليال، ومن قرأها نهارًا لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام»، وخص سورة البقرة بذلك لطولها وكثرة أسماء الله تعالى والأحكام فيها.

وقد قيل فيها ألف أمر وألف نهي وألف حكم وألف خبر. كذا في المرقاة.

وفي هذا الحديث ترغيب في تلاوة القرآن في البيوت وخصوصًا سورة البقرة.

وقد رويت كلمة «ينفر» و«يفر» في الروايتين السابقتين وكلاهما صحيح.

٣.نادى النبي ﷺ أصحابه بها:

عن كثير بن عباس عن أبيه قال: كنت مع النبي ﷺ يوم حنين ورسول الله ﷺ على بغلته التي أهداها له الجذامي (فروة بن عمرو بن النافرة) فلما ولى المسلمون قال لي رسول الله ﷺ: «يا عباس ناد قل: يا أصحاب السَّمرة (هي الشجرة التي كانت عندها بيعة الرضوان) يا أصحاب سورة البقرة»، وكنت رجلاً صيتًا (شديد الصوت عاليه) فقلت: يا أصحاب السمرة، يا أصحاب سورة البقرة، فرجعوا عطفةً كعطفة البقرة على أولادها، وارتفعت الأصوات وهم يقولون: معشر الأنصار، معشر الأنصار، ثم قصرت الدعوة على ابن الحارث بن الخزرج قال: وتطاول رسول الله ﷺ وهو على بغلته فقال: «هذا حين حمى الوطيس» (كناية عن شدة الأمر واضطرام الحرب) وهو يقول: «قدمًا يا عباس»، ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهن ثم قال: «انهزموا ورب الكعبة». رواه الإمام أحمد واللفظ له ومسلم والبيهقي.

قال العلماء: ركوبه ﷺ البغلة في موطن الحرب وعند اشتداد البأس هو النهاية في الشجاعة والثبات، ولأنه يكون معتمدًا يرجع إليه المسلمون وتطمئن قلوبهم به وبمكانه وإنما فعل هذا عمدًا، وإلا فقد كان له ﷺ أفراس معروفة، وقد أخبر الصحابة رضي الله عنهم بشجاعته ﷺ في جميع المواطن.

وكونه ﷺ يأمر العباس أن ينادي على من فر يوم حنين ويذكر من حفظ منهم سورة البقرة بأنه لا ينبغي لمن حفظ منهم هذه السورة أن يفر ويترك ساحة القتال لعظم هذه السورة وما اشتملت عليه من الإيمان واليقين بالله والأمر بقتال أعداء الله في قوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]. فكون النبي ﷺ يأمر العباس أن ينادي بها فهذا دليل على عظمة هذه السورة.

وفي هذا المعنى من المراسيل: عن طلحة بن مصرف اليامي قال: لما انهزم المسلمون يوم حنين نودوا: يا أصحاب سورة البقرة، فرجعوا ولهم خنين (يعني بكاء). مرسل رجاله ثقات.

وفي هذا المعنى من الموقوفات: «عن هشام بن عروة عن أبيه قال: كان شعار أصحاب النبي ﷺ يوم مسيلمة: يا أصحاب سورة البقرة». أخرجه ابن أبي شيبة وسعيد بن منصور وإسناده صحيح.

٤- تنزل الملائكة لقراءتها:

عن أسيد بن حضير قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوط عنده إذ جالت الفرس، فسكت فسكنت، فقرأ فجالت الفرس، فسكت وسكنت الفرس، ثم قرأ فجالت الفرس فانصرف، وكان ابنه يحيى قريبًا منها فأشفق أن تصيبه، فلما اجتره رفع رأسه في السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى، وكان منها قريبًا، فرفعت رأسي فانصرفت إليه فرفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها، قال: «وتدري ما ذاك». قال: لا. قال: «تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم». أخرجه البخاري ومسلم وأحمد وابن حبان والحاكم.

وقد وقع نحو من هذا لثابت بن قيس بن شمَّاس رضي الله عنه، وذلك فيما رواه أبو عبيد عن جرير بن يزيد - أن أشياخ أهل المدينة حدَّثوه «أن رسول الله ﷺ قيل له: ألم تر ثابت بن قيس بن شماس لم تزل داره البارحة تزهر

مصابيح. قال: «فلعله قرأ سورة البقرة». قال: (فسُئل ثابت) فقال: قرأت سورة البقرة».

قال ابن كثير: وهذا إسنادٌ جيدٌ إلا أن فيه إبهامًا، ثم هو مرسل، والله أعلم.

لكلام الله تعالى فضيلة، ولتلاوته سكينة وطمأنينة ورهبة ولتدبره خشوع وخضوع ولذة، لقد قال كافرهم حين سمعه: والله إن له لحلاوة إن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وكل كلام يعاد ويتكرر يمل ويضعف إلا القرآن لا يَخْلَق على كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء، يزيده حلاوة وطراوة صوت حسن، وتلاوة دقيقة رقيقة، وإذا كان هذا أثره في البشر فما بالنا بأثره في ملائكة الله ؟

لقد كان أسيد بن حضير الصحابي الجليل ذو الصوت الحسن الرقيق يقرأ سورة البقرة في منزله في جوف الليل وقد ربط فرسه في مربطه بحبل مزدوج، لأنه فرس جموح ونام ابنه يحيى على الأرض قريبًا من الفرس، وجلس أسيد أو قام يصلي في مكان قريب من ابنه، في حائط صغير يتخذ مخزنًا للتمر يجفف فيه ويحفظ، وما كان لهم بيوت بحجرات ولا فرش وأسرة، وفي هدوء الليل وروعته تجلجل صوت أسيد بن حضير بالقرآن الكريم وسورة البقرة، وسمعت ملائكة الله الصوت الرقيق يقرأ سورة البقرة، فتنزلت له من قرب، حتى دنت من الفرس، ورآها الفرس كأن سحابة تهبط عليه فنفر وأخذ يضرب الأرض بقوائمه ويشيح ذات اليمين وذات الشمال بعنقه ورأسه ويحاول الجري والفرار خوفًا ورعبًا، سكت أسيد عن القراءة فهدأ الفرس، وسكن كأن السحابة تلاشت حين سكت، فقرأ فنفر الفرس، وسكت فسكن الفرس فقرأ فهاجت، عجبًا يرى ظلة فيها مصابيح تدنو وتقرب والفرس يُحس بها ويراها وينفر، والولد قريب من الفرس، يخشى عليه أن تطأه بحوافرها أثناء جموحها، لقد دفعته عاطفة الأبوة أن يرفع ولده ويبعده عن الفرس ثم يعود للقراءة، لكنه - واأسفاه - ما إن قام نحو ابنه حتى رأى الظلة تعرج وتمضي نحو السماء حتى اختفت عن ناظريه، فأصبح يحدث رسول الله ﷺ بهذا الأمر العجيب، فقال له ﷺ «ليتك مضيت في القراءة حتى الصباح، إنها السكينة والملائكة جاءت تستمع لقراءتك، ولو بقيت حتى الصباح تقرأ لبقيت مشغولة بالسماع لا تتستر حتى يراها الناس».

٥.تعظيم الصحابة لها:

عن هشام بن عروة عن أبيه أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه صلى الصبح فقرأ فيها سورة البقرة في الركعتين كلتيهما. [أخرجه الإمام مالك في كتاب الصلاة والطحاوي في شرح معاني الآثار وإسناده صحيح]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أبا بكر قرأ في صلاة الصبح بالبقرة فقال له عمر حين فرغ: كادت الشمس أن تطلع، قال: لو طلعت لم تجدنا غافلين. [أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف وعبد الرزاق في مصنفه والبيهقي في السنن الكبرى، وذكره ابن حجر في فتح الباري وقال: رواه عبد الرزاق بإسناد صحيح]

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه انتهى إلى الجمرة الكبرى جعل البيت عن يساره، ومنى عن يمينه، ورمى بسبع وقال: هكذا رمى الذي أنزلت عليه سورة البقرة. رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه.

قال ابن المنير: خص عبد الله بن مسعود رضي الله عنه سورة البقرة بالذكر، لأنها التي ذكر فيها الرمي فأشار بذلك إلى أن فعله ﷺ مبين لمراد الله تعالى.

قال ابن حجر: ولم أعرف موضع ذكر الرمي من سورة البقرة، والظاهر أنه أراد أن يقول: إن كثيرًا من أفعال الحج مذكورة فيها منبهًا بذلك على أن أفعال الحج توقيفية وقيل: خص البقرة بذلك لطولها وعظم قدرها وكثرة ما فيها من الأحكام، أو أشار بذلك إلى أنه يشرع الوقوف عندها بقدر سورة البقرة، وفي هذا الحديث بيان لما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من مراعاة حال النبي ﷺ في كل حركة وهيئة، ولا سيما في أعمال الحج.

فضائل سورة البقرة

إعداد / مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فقد تحدثنا في المقال السابق عن بعض فضائل سورة البقرة، وكان آخرها تعظيم الصحابة لها، واليوم نكمل - إن شاء الله تعالى - بقية فضائل هذه السورة الكريمة:

٦- تخصيصها مع الفاتحة بأنهما نوران:

روى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: بينما جبريل قاعدٌ عند النبي ﷺ سمع نقيضًا من فوقه فرفع رأسه فقال: «هذا باب من السماء فُتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم: فنزل منه ملك فقال: هذا ملكٌ نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فَسَلَّم وقال: أبشر بنُورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيتهُ».

قال القرطبي: قوله: «سمع نقيضًا من فوقه» أي صوتًا. والنقيض: صوتُ الباب عند فتحه- وقوله: «بنورين» أي: بأمرين عظيمين، نيِّرين، تُبيِّن لقارئهما، وتنوره، وخُصَّت الفاتحةُ بهذا، لما ذكرناه: من أنها تضمنت جملة معاني الإيمان والإسلام والإحسان، وعلى الجملة: فهي آخذة بأصول القواعد الدينية.

وخُصَّت خواتيم سورة البقرة بذلك؛ لما تضمنته من الثناء على النبي ﷺ وعلى أصحابه رضي الله عنهم، بجميل انقيادهم لمقتضاها، وتسليمهم لمعناها وابتهالهم إلى الله، ورجوعهم إليه في جميع أمورهم، ولما حصل فيها من إجابة دعواتهم، بعد أن علموا فخفَّف عنهم، وغفر لهم ونُصروا، وفيها غير ذلك مما يطول تتبعُه.

٧- كفاية آيتين منها لمن قرأهما:

روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه».

قال ابن حجر في الفتح (٦٨/١٠): قوله (كفتاه) أي أجزأتا عنه عن قراءة القرآن مطلقًا سواء كان داخل الصلاة أم خارجها، وقيل: معناه أجزأتاه فيما يتعلق بالاعتقاد لما اشتملتا عليه من الإيمان والأعمال إجمالاً، وقيل: معناه كفتاه كل سوء، وقيل: كفتاه شر الشيطان، وقيل: دفعتا عنه شر الإنس والجن، وقيل: معناه كفتاه ما حصل له بسببهما من الثواب عن طلب شيء آخر، وكأنهما اختصتا بذلك لما تضمنتاه من الثناء على الصحابة بجميل انقيادهم إلى الله وابتهالهم ورجوعهم إليه وما حصل لهم من الإجابة إلى مطلوبهم، وذكر الكرماني عن النووي أنه قال: كفتاه عن قراءة سورة الكهف وآية الكرسي، كذا نقل عنه جازمًا به، ولم يقل ذلك النووي وإنما قال ما نصه: قيل: معناه كفتاه من قيام الليل، وقيل: من الشيطان، وقيل: من الآفات ويحتمل من الجميع. هذا آخر كلامه. انتهى.

قال ابن حجر: «وعلى هذا فأقول: يجوز أن يراد جميع ما تقدم، والله أعلم».

وروى مسلم عن عبد الرحمن بن يزيد، قال: لقيتُ أبا مسعُود الأنصاري عند البيت، فقلت: حديثٌ بلغني عنك في الآيتين من سُورة البقرة. فقال: نعم، قال رسول الله ﷺ: «الآيتان من آخر سورة البقرة،

من قرأهما في ليلة كفتاه».

عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال: «الآيتان ختم بهما سورة البقرة لا تقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان». [أخرجه أحمد والترمذي والنسائي والدارمي والبغوي في شرح السنة وصححه الحاكم ووافقه الذهبي]

من فوائد الآيتين من آخر سورة البقرة:

الآية الأولى وهي: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

١- من فوائد الآية: أن محمدًا ﷺ مكلف بالإيمان بما أنزل إليه، ولهذا قال ﷺ: «أشهد أني رسول الله» في قصة دين جابر رضي الله عنه كما في صحيح البخاري.

٢- ومنها: أن القرآن كلام الله، لقوله تعالى: ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾ والمنزل هو الوحي، والكلام وصف لا يقوم إلا بمتكلم، لا يمكن أن يقوم بنفسه، وعلى هذا يكون في الآية دليل على أن القرآن كلام الله - الوحي الذي أنزل على محمد ﷺ.

٣- ومنها: إثبات علوّ الله عز وجل، لأن النزول لا يكون إلا من أعلى، لقوله تعالى: ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾.

٤- ومنها: إثبات رسالة النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾، وقوله تعالى: ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾.

٥- ومنها: أن المؤمنين تبع للرسول ﷺ لقوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ وجه التبعية أنه ذكر ما آمن به قبل أن يذكر التابع - أي أنه لم يقل: «آمن الرسول والمؤمنون بما أنزل إليه»، وهذا يدل على أنهم أتباع للرسول ﷺ لا يستقلون بشريعة دونه.

٦- ومنها: أنه كلما كان الإنسان أقوى إيمانًا بالرسول ﷺ كان أشد اتباعًا له، وجهه أنه تعالى قال: ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، يعني: والمؤمنون آمنوا بما أنزل على محمد ﷺ من ربه، وعليه فكل من كان أقوى إيمانًا كان أشد اتباعًا.

٧- ومنها: أن الإيمان بالرسل ليس فيه تفريق، لا نقول مثلاً: نؤمن بمحمد ﷺ ولا نؤمن بعيسى لأن عيسى من بني إسرائيل، ونحن لا نفرق بين الرسل (لا نفرق) بقلوبنا وألسنتنا (بين أحد من رسله)، فالكل عندنا حق، فمحمد ﷺ صادق فيما جاء به من الرسالة، وعيسى ابن مريم عليه السلام صادق، وموسى عليه السلام صادق، وصالح عليه السلام صادق، ولوط عليه السلام صادق، وإبراهيم عليه السلام صادق، وهكذا، لا نفرق بينهم في هذا الأمر أي في صدق رسالتهم، والإيمان بهم، ولكن نفرق بينهم فيما كلفنا به: فنعمل بشريعة محمد ﷺ، وأما شريعة أولئك فما جاءت شريعتنا بخلافه فالعمل على ما جاءت به شريعتنا؛ لأنه منسوخ، وأما ما لا يخالف شريعتنا فاختلف العلماء في العمل به، والصحيح أنه يعمل به، وبسط ذلك في أصول الفقه، وليعلم أن التوراة التي بأيدي اليهود اليوم، والإنجيل الذي بأيدي النصارى لا يوثق بهما، لأنهم حرّفوا وبدلوا، وكتموا الحق.

٨- ومنها: أن من صفات المؤمنين السمع والطاعة، لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥١- ٥٢].

والناس في هذا الباب على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من لا يسمع ولا يطيع، بل هو معرض، ولم يرفع لأمر الله ورسوله رأسًا.

القسم الثاني: من يسمع ولا يطيع، بل هو مستكبر، اتخذ آيات الله هزوًا، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧]، وكقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة:٩٣]، وهذا أعظم جرمًا من الأول.

القسم الثالث: من يسمع ويطيع وهؤلاء هم المؤمنون الذين قالوا سمعنا وأطعنا، وقال الله سبحانه وتعالى فيهم: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧١].

٩- ومنها: أن كل أحد محتاج إلى مغفرة الله، لقوله تعالى: ﴿غُفْرَانَكَ﴾، فكل إنسان محتاج إلى المغفرة - حتى النبي ﷺ محتاج إلى المغفرة، ولهذا

قال النبي ﷺ: «لن يُدخل أحدًا عملُه الجنة». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله منه برحمة». [رواه مسلم]

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح:١،٢].

وقال تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد: ١٩]، واعلم أن الإنسان قد يكون بعد الذنب أعلى مقامًا منه قبل الذنب، لأنه قبل الذنب قد يكون مستمرئًا للحال التي كان عليها، وماشيًا على ما هو عليه معتقدًا أنه كامل، وأنه ليس عليه ذنوب، فإذا أذنب، وأحس بذنبه رجع إلى الله، وأناب إليه وأخبت إليه فيزداد إيمانًا، يرتفع مقامه عند الله، وهذا كثيرًا ما يقع، إذا أذنب الإنسان عرف قدر نفسه وأنه محتاج إلى الله ورجع إلى الله وأحس بالخطيئة، وأكثر من الاستغفار، وصار مقامه بعد الذنب أعلى من مقامه قبل الذنب.

الآية الأخيرة من البقرة، وهي: ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

١- من فوائد الآية: بيان رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده، حيث لا يكلفهم إلا ما استطاعوه.

٢- ومنها: إثبات القاعدة المشهورة عند أهل العلم وهي: لا واجب مع العجز، ولا محرم مع الضرورة.

٣- ومنها: أن الإنسان لا يحمل وزر غيره، لقوله تعالى: ﴿ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾.

٤- ومنها: يسر الدين الإسلامي، لقوله تعالى: ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾.

فالقادر على القيام في الفريضة يلزمه القيام، والعاجز عن القيام يصلي قاعدًا، والعاجز عن القعود يصلي على جنب، وكذلك القادر على الجهاد ببدنه يلزمه الجهاد ببدنه إذا كان الجهاد فرضًا، والعاجز لا يلزمه، وكذلك القادر على الحج ببدنه وماله يلزمه أداء الحج ببدنه، والعاجز عنه ببدنه عجزًا لا يرجى زواله القادر بماله يلزمه أن ينيب من يحج عنه والعاجز بماله وبدنه لا يلزمه الحج.

٥- ومنها: أن للإنسان طاقة محدودة لقوله تعالى: ﴿ إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ فالإنسان له طاقة محدودة في كل شيء، في العلم والفهم، والحفظ، فيكلف بحسب طاقته.

٦- ومنها: رحمة الله سبحانه وتعالى بالخلق، حيث علمهم دعاءً يدعونه به، واستجاب لهم إياه في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾.

٧- ومنها: أن النسيان وارد على البشر، والخطأ وارد على البشر، وجه قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ فقال تعالى: «قد فعلت»، وهذا إقرار من الله سبحانه وتعالى على وقوع النسيان والخطأ من البشر.

٨- ومنها: امتنان الله على هذه الأمة برفع الآصار التي حملها على من قبلنا لقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ فقال الله تعالى: «فقد فعلت».

٩- ومنها: أن من كان قبلنا مكلفون بأعظم مما كلفنا به؛ لقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾.

١٠- ومنها: أنه ينبغي للإنسان سؤال الله العفو؛ لأن الإنسان لا يخلو من تقصير في المأمورات، فيسأل الله العفو عن تقصيره، لقوله تعالى: ﴿ وَاعْفُ عَنَّا ﴾ وسؤال الله المغفرة من ذنوبه التي فعلها؛ لقوله تعالى: ﴿ وَاغْفِرْ لَنَا ﴾ لأن الإنسان إن لم يُغفر له تراكمت عليه الذنوب، ورانت على قلبه، وربما توبقه وتهلكه.

١١- ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يسأل الله أن يرحمه في مستقبل أمره، فيعفو عما مضى ويغفر ويرحم في المستقبل لقوله تعالى: ﴿ وَارْحَمْنَا ﴾.

١٢- ومنها: أن المؤمن لا وليَّ له إلا ربه، لقوله تعالى: ﴿ أَنْتَ مَوْلاَنَا ﴾.

إلى غير ذلك من الفوائد التي احتوت عليها الآية. والله أعلم.

من فضائل سورة البقرة وآل عمران

الحلقة العاشرة..

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه، وبعد:

فمازال الحديث متصلاً حول فضائل سورة البقرة، وآل عمران، فنقول مستعينين بالله تعالى:

١١- روى مسلم في صحيحه عن أبي أمامة الباهلي قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «اقرؤوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه، اقرؤوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف، تحاجان عن أصحابهما، اقرؤوا سورة البقرة فإن أخذها بركة، وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة». قال معاوية: بلغني أن البطلة السحرة.

قال في «فتح المنعم»: وفي القرآن سورة تفضل الله بزيادة الأجر لقارئها، وحث عليها، لما فيها من عظات وآلاء وتمجيد وتحميد فالبقرة وآل عمران لهما من أنوار التنزيل ما استحقا به أن يسميا بالزهراوين أي الكوكبين النيرين، يأتيان يوم القيامة كالظلة لقارئهما من حر الموقف وتدافعان عنه وتشفعان له يوم القيامة، نعم القرآن كله يشفع لقارئه لكن البقرة وآل عمران تتقدمان القرآن كما يتقدم الوفد رؤساؤه، وفي آخر البقرة آيتان فيهما اعتراف وإيمان وثناء ودعاء، من قرأهما أجيب دعاؤه، ومن بات عليهما بات محصنًا لا يقربه شر الشيطان، قوله ﷺ: «اقرءوا الزهراوين: البقرة وآل عمران». قالوا: سميتا الزهراوين لنورهما وهدايتهما وعظيم أجرهما، يقال: زهر السراج والقمر والوجه زهورًا تلألأ كالزهر و«البقرة وآل عمران» بدل من الزهراوين، والبدل على نية تكرار العامل، والتعبير يفيد المبالغة في المدح حيث جمع لهما الوصف العام أولاً ثم حصره فيهما. اهـ.

وقال القاضي عياض في إكمال المعلم: قوله: «اقرؤوا الزهراوين: البقرة وآل عمران» حجة لمن أجاز أن يقال: سورة البقرة وآل عمران، واختار بعضهم أن يقال: السورة التي تذكر فيها كذا، ومعنى «الزهراوين» المنيرتان إما لهدايتهما قارئهما، أو لما يسبب له أجرهما من النور يوم القيامة.

وقوله ﷺ: «كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان» قال أهل اللغة: الغمامة والغياية كل شيء أظل الإنسان من فوق رأسه من سحابة وغبرة وغيرهما. نقله النووي. وفي القاموس: الغمامة: السحابة أو البيضاء من السحب. والغياية كل ما أظل الإنسان من فوق رأسه كالسحاب ونحوه. والمراد أن ثوابهما يأتي بهذا المنظر.

وقوله ﷺ: «أو كأنهما فرقان من طير صواف» الفرقان والحزقان: معناهما واحد، وهما قطيعان وجماعتان، يقال في الواحد: فرق وحزق وحزيقه، أي جماعة، ومعنى «صواف»: باسطة أجنحتها ملتصق بعضها ببعض كما

كانت تظلل سليمان عليه السلام، وقوله ﷺ: «تحاجان عن أصحابهما» أي تدافعان بالحجة عن أصحابهما.

قوله ﷺ: «فإن أخذها بركة وتركها حسرة» أي قراءتها بركة وترك قراءتها حسرة وخسارة.

قوله ﷺ: «ولا تستطيعها البطلة» فُسرت البطلة: بالسحرة، تسمية لهم باسم فعلهم، لأن ما يأتون به الباطل، وإنما لم يقدروا على قراءتها ولم يستطيعوها لزيغهم عن الحق وانهماكهم في الباطل، ويصح أن يكون المعنى ولا يستطيع دفعها واختراق تحصينها لقارئها السحرة.

وقيل: المراد من البطلة أهل البطالة، أي لا يستطيعون قراءتها وتدبر معانيها لكسلهم.

١٢- وروى مسلم عن النوّاس بن سمعان الكِلابيِّ، قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «يُؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تَقدمُهُ سورة البقرة وآل عمران»، وضرب لهما رسولُ الله ﷺ ثلاثة أمثال. ما تستهُن بَعد، قال: «كأنهما غمامتان أو ظلتان سَوداوان بينهما شرقٌ، أو كأنهما حِزقان من طير صَوافَّ، تُحاجّانِ عن صَاحِبِهما».

قال القرطبي في المفهم (٤٣٢/٢): وقوله ﷺ في حديث النَّواس: «كأنهما غمامتان، أو ظلتان سَوْدَاوان أو كأنهما حزقان»، هذا يدلُّ على أن (أو) ليست للشك، لأنه مثَّل السورتين بالثلاثة الأمثال، فيحتمل أن يكون «أو» بمعنى الواو، كما قال الكوفيُّ، وأنشدوا عليه:

نال الخلافة أو كانت له قدرًا
كما أتى ربَّهُ مُوسى على قدر

وأنشدوا أيضًا:

وقد زعمت ليلى بأني فاجر
لنفسي تقاها أو عليها فجورها

وقالوه في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ﴾ [البقرة: ١٩].

والغمام: السَحابُ الملتف. وهي الغياية، إذا كانت قريبًا من الرأس والظلة أيضًا وصفتا بالسواد لتكاثفهما وتراكم بعضها على بعض وهو أنفع ما يكون من الظلال. و(الشرق): قال القاضي عياض: رويناه بكسر الراء وفتحها، قيل: وهو الضياء والنور. قلتُ: والأشبه أن الشرق بالسكون بمعنى المشرق.

يعني: أن بين تلك الظلتين السوداوين مشارق الأنوار، وبالفتح: هو الضياء نفسه، وإنما نبَّه في هذا الحديث على هذا الضياء؛ لأنه لما قال: سوداوان، قد يُتوهم أنهما مظلمتان، فنفى ذلك بقوله: «بينهما شرق» أي مشارق الأنوار أو أنوار، حسب ما قررناه، ويعني بوصفهما بسوداوين: أي: من كثافتهما التي بسببها حالتا بين من تحتهما، وبين حرارة الشمس وشدة اللهب، والله أعلم.

١٣- عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً كان يكتب للنبي ﷺ وكان قد قرأ البقرة وآل عمران، وكان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا - يعني عظم - فكان النبي ﷺ يملي عليه غفورًا رحيمًا فيكتب عليمًا حكيمًا فيقول له النبي ﷺ: اكتب كذا وكذا، اكتب كيف شئت. ويملي عليه عليمًا حكيمًا. فيقول: اكتب سميعًا بصيرًا. فيقول: اكتب كيف شئت فارتد ذلك الرجل عن الإسلام، فلحق بالمشركين. وقال: أنا أعلمكم بمحمد، إن كنت لأكتب ما شئت. فمات ذلك الرجل فقال النبي ﷺ: «إن الأرض لم تقبله». وقال أنس: فحدثني أبو طلحة أنه أتى الأرض التي مات فيها ذلك الرجل فوجدوه منبوذًا، فقال أبو طلحة: ما شأن هذا الرجل ؟ قالوا: قد دفناه مرارًا فلم تقبله الأرض». أخرجه الإمام أحمد برقم (١٢٢١٥)].

والحديث أخرجه البخاري ومسلم بدون ذكر الشاهد، فأخرجه البخاري في كتاب المناقب ولفظه: «عن أنس رضي الله عنه قال: كان رجل نصرانيًا فأسلم وقرأ البقرة وآل عمران، فكان

يكتب للنبي ﷺ، فعاد نصرانيًا، فكان يقول: ما يدري محمد إلا ما كتبت له، فأماته اللَّه، فدفنوه فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه، لما هرب منهم نبشوا عن صاحبنا فألقوه فحفروا له فأعمقوا، فأصبح وقد لفظته الأرض. فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه نبشوا عن صاحبنا لما هرب منهم فألقوه خارج القبر فحفروا له وأعمقوا له في الأرض ما استطاعوا فأصبح قد لفظته الأرض، فعلموا أنه ليس من الناس، فألقوه». وأخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين.

في هذا الحديث الشريف يبين الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه أن من قرأ سورتي البقرة وآل عمران كان له شأن عظيم بين الصحابة رضوان اللَّه عليهم، لما فيهما من علم كثير وأحكام عظيمة، ولما لهما من مكانة عظيمة عند اللَّه تعالى، وهذا الرجل لما ارتد عن الإسلام وكانت له هذه المنزلة العظيمة، فإن اللَّه تعالى عاقبه عقابًا شديدًا، فأهلكه وقصم عنقه، وأمر الأرض فنبذته على ظهرها ليكون عبرة لغيره، وهذا من علامات النبوة لسيدنا محمد ﷺ، حيث أخبر أن الأرض لن تقبله.

اللهم أحينا مسلمين، وأمتنا مسلمين، واحشرنا في زمرة الصالحين.

وقد التبس فهم هذا الحديث على بعض الناس، بل على بعض أهل العلم ممن لم يكلفوا أنفسهم بالبحث عن معانيه، ظنًا منهم أن الرجل كان من كتاب الوحي، وأن النبي ﷺ كان يملي عليه (غفور رحيمًا) فيكتب (عليمًا حكيمًا)، فيقول له النبي ﷺ أكتب ما شئت - إلى آخر الحديث - وبئس ما ظنوا وحاشاه أن يُغير أو يبدل شيئًا مما أوحاه اللَّه إليه من القرآن؛ لأن النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى، فعامة الروايات في هذا الحديث جاءت مطلقة غير مقيدة، وليس فيها أنه كان يكتب الوحي، وقد ذهب الطحاوي إلى أنه كان يكتب الرسائل يبعث بها رسول اللَّه ﷺ في دعائه الناس إلى الإسلام.

قال الطحاوي في «مشكل الآثار» (٨/٢٤١): «والذي في هذا الحديث قد يحتملُ أن يكون فيما كان رسول الله ﷺ يُمليه على ذلك الكاتب من كتبه إلى الناس في دعائه إيَّاهم إلى اللَّه عز وجل، وفي وصفهم له ما هو جلَّ وعزَّ عليه من الأشياء التي كان يأمرُ ذلك الكاتب بها، ويكتب الكاتب خلافها فما معناها، معناها (أي مما يقارب المعنى المقصود)، إذ كانت كلها من صفات اللَّه عز وجل، فبان بحمد اللَّه وبنعمته أن لا تضاد في شيء من ذلك ولا اختلاف». اهـ بتصرف.

فيهما اسم اللَّه الأعظم:

١٤- عن أبي أمامة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «اسم اللَّه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في سور ثلاث: في البقرة، وآل عمران، وطه، يعني: الحي القيوم». أخرجه الفريابي وابن ماجه والحاكم والطحاوي في مشكل الآثار وأبو يعلى وابن مردويه بإسناد حسن.

ويشهد له هذا الحديث:

١٥- حديث أسماء بنت يزيد رضي اللَّه عنها أن النبي ﷺ قال: «اسم اللَّه الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وفاتحة آل عمران: ﴿الم (١) اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ﴾. أخرجه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح.

ومن قرأهما برئ من النفاق:

عن سعيد بن عبد العزيز التنوخي، أن يزيد بن الأسود الجرشي كان يحدث: أنه من قرأ البقرة وآل عمران في يوم برئ من النفاق حتى يمسي، ومن قرأهما في ليلة برئ من النفاق حتى يصبح، فكان يقرؤهما في كل يوم وكل ليلة سوى جزئه. (أي سوى ورده الذي يقرؤه كل يوم). وللحديث بقية بإذن اللَّه.

مختارات من علوم القرآن

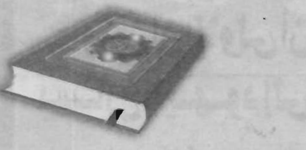

فضائل آية الكرسي وتفسيرها

الحلقة الحادية عشرة

إعداد / مصطفى البصراتي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على [إم]ام الأنبياء والمرسلين، وبعد:

آية الكرسي أعظم آية في كتاب الله تعالى، [و]لها شأن عظيم، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ بأنها أفضل آية في كتاب الله، فقد روى مسلم [ف]ي صحيحه عن أُبي بن كعب رضي الله عنه قال: [ق]ال رسول الله ﷺ: «يا أبا المنذر، أتدري أيُّ آية من [ك]تاب الله معك أعظم؟» قال: قلت: الله ورسوله [أ]علم. قال: «يا أبا المنذر، أتدري أيُّ آية من كتاب [ا]لله معك أعظم؟» قال قلت: «اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ [ا]لْقَيُّومُ». قال: فضرب في صدري وقال: «والله [لي]هنِكَ العلم أبا المنذر».

قال الإمام النووي في شرح مسلم: قوله ﷺ: «لأبي بن كعب ليهنك العلم أبا المنذر» فيه منقبة عظيمة لأبيّ، ودليل على كثرة علمه، وفيه تبجيل العالم فضلاء أصحابه وتكنيتهم، وجواز مدح الإنسان في وجهه إذا كان فيه مصلحة، ولم يخف عليه إعجاب ونحوه لكمال نفسه، ورسوخه في التقوى.

وقوله ﷺ: «أي آية من كتاب الله معك أعظم؟» قلت: «اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ الْقَيُّومُ» قال القاضي عياض في «إكمال المعلم» فيه حجة للقول بتفضيل بعض القرآن على بعض، وتفضيل القرآن على سائر كتب الله عند من أجازه، منهم إسحاق بن راهويه، وغيره من العلماء والمتكلمين، وذلك راجع إلى عظم أجر قارئ ذلك وجزيل ثوابه والمختار جواز قول هذه الآية أو السورة أعظم أو أفضل، بمعنى: أن الثواب المتعلق بها أكثر، وهو معنى الحديث. والله أعلم.

قال العلماء: إنما تميزت آية الكرسي بكونها أعظم لما جمعت من أصول الأسماء والصفات من الإلهية، والوحدانية والحياة، والعلم، والملك، والقدرة، والإرادة. وهذه السبعة أصول الأسماء والصفات.

وقد ذكر البخاري في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «وكَّلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آتٍ فجعل يَحثُو من الطعام، فأخذتهُ وقلتُ: والله لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، قال: إني محتاج، وعليَّ عيال، ولي حاجةٌ شديدة. قال: فخليتُ عنه. فأصبحتُ، فقال النبي ﷺ: يا أبا هريرة، ما فعلَ أسيرك البارحة؟ قال: قلت: يا رسول الله، شكا حاجة شديدة وعيالاً، فرحمتُه فخليتُ سبيلهُ. قال: أما إنهُ قد كذبك وسيعود. فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ: إنه سيعودُ، فرصدته، فجعل يحثو من الطعام فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، قال: دعني فإني محتاج، وعليَّ عيال، لا أعود. فرحمته

فخليتُ سبيله. فأصبحتُ، فقال لي رسول الله ﷺ: يا أبا هريرة، ما فعل أسيرُك؟ قلتُ: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالاً، فرحمته فخليتُ سبيله. قال: أما إنه قد كذبك، وسيعود. فرصدته الثالثة فجعل يحثو من الطعام، فأخذتُه فقلتُ: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ وهذا آخر ثلاث مرات، إنك تزعم لا تعود ثم تعود. قال: دعني أعلمكَ كلمات ينفعك الله بها. قلتُ: ما هُن؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: «اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ»، حتى تختم الآية فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنَّك شيطان حتى تصبح. فخليت سبيله. فأصبحتُ فقال لي رسول الله ﷺ: ما فعل أسيرك البارحة». قلت: يا رسول الله، زعم أنه يُعلِّمني كلمات ينفعني الله بها فخليتُ سبيله. قال: «ما هي». قلت: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم «اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ»، وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، وكانوا أحرص شيء على الخير. فقال النبي ﷺ: «أما إنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟ قال: لا. قال: ذاك شيطان».

قال ابن حجر في الفتح (٢٥٩/٥): وفي الحديث من الفوائد غير ما تقدم أن الشيطان قد يعلم ما ينتفع به المؤمن، وأن الحكمة قد يتلقاها الفاجر فلا ينتفع بها وتؤخذ عنه فينتفع بها، وأن الشخص قد يعلم الشيء ولا يعمل به، وأن الكافر قد يصدق، وبأن الشيطان من شأنه أن يكذب، وأنه قد يتصور ببعض الصور فتمكن رؤيته، وأن قوله تعالى: «إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ» مخصوص بما إذا كان على صورته التي خلق عليها، وأن من أقيم في حفظ شيء سمي وكيلاً، وأن الجن يأكلون من طعام الإنس، وأنهم يظهرون للإنس لكن بالشرط المذكور، وأنهم يتكلمون بكلام الإنس وأنهم يسرقون ويخدعون، وفيه فضل آية الكرسي وفضل آخر سورة البقرة، وأن الجن يصيبون من الطعام الذي لا يذكر اسم الله عليه. وفيه أن السارق لا يقطع في المجاعة، ويحتمل أن يكون القدر المسروق لم يبلغ النصاب ولذلك جاز للصحابي العفو عنه قبل تبليغه إلى الشارع، وفيه قبول العذر والستر على من يظن به الصدق. وفيه اطلاع النبي ﷺ على المغيبات. وفيه جواز جمع زكاة الفطر قبل ليلة الفطر وتوكيل البعض لحفظها وتفرقتها. وقوله ﷺ: «وهو كذوب». من التتميم البليغ الغاية في الحسن لأنه أثبت له الصدق فأوهم له صفة المدح، ثم استدرك ذلك بصفة المبالغة في الذم بقوله: «وهو كذوب». اهـ.

فمن قرأها في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح. قال العلامة السهارنفوري في «بذل المجهود» (٢٩٨/٤): «وإنما كان آية الكرسي أعظم آية لاحتوائها على بيان توحيد الله تعالى وتمجيده وتعظيمه وذكر أسمائه الحسنى وصفاته العلى، وكل ما كان من الأذكار في تلك المعاني أبلغ كان في باب التدبر والتقرب به إلى الله أجلَّ وأعظمَ.

وقال ابن القيم في «بدائع التفسير» (٤١٣/١): «ففي آية الكرسي ذكر الحياة التي هي أصل جميع الصفات، وذكر معها قيوميته المقتضية لذاته وبقائه وانتفاء الآفات جميعها عنه من النوم والسِّنة والعجز وغيرها، ثم ذكر كمال ملكه. ثم عقبه بذكر وحدانيته في ملكه، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ثم ذكر سعة علمه وإحاطته ثم عقبه بأنه لا سبيل للخلق إلى علم شيء من الأشياء إلا بعد مشيئته لهم أن يعلموه، ثم ذكر سعة كرسيه منبهًا به على سعته سبحانه وعظمته وعلوه، وذلك توطئة بين يدي ذكر علوه وعظمته، ثم أخبر عن كمال

اقتداره ولا تعب، ثم ختم الآية بهذين الاسمين الجليلين الدالين على علو ذاته وعظمته في نفسه وهما: العلي العظيم».

قال الإمام القرطبي في تفسيره (١١٩٢/٢): «هذه آية الكرسي سيدة آي القرآن وأعظم آية ونزلت ليلاً ودعا النبي ﷺ زيدًا فكتبها. روي عن محمد ابن الحنفية أنه قال: لما نزلت آية الكرسي خر كل صنم في الدنيا، وكذلك خر كل ملك في الدنيا وسقطت التيجان عن رؤوسهم، وهربت الشياطين يضرب بعضهم على بعض، إلى أن أتوا إبليس فأخبروه بذلك فأمرهم أن يجثوا عند ذلك، فجاءوا إلى المدينة فبلغهم أن آية الكرسي قد نزلت». اهـ.

وقال القاسمي في «محاسن التأويل» (٣٢٢/٢): آية الكرسي هذه لها شأن عظيم وفضل كبير. وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ بأنها أعظم آية في كتاب الله وأنها مشتملة على اسم الله الأعظم.

أما عن تفسيرها

فقوله تعالى: «اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ» إخبار بأنه المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق. و(إله) بمعنى مألوه، و«المألوه» بمعنى المعبود حبًا وتعظيمًا، ولا أحد يستحق هذا الوصف إلا الله سبحانه وتعالى، والآلهة المعبودة في الأرض، أو المعبودة وهي في السماء - كالملائكة - كلها لا تستحق العبادة، وهي تسمى آلهة، لكنها لا تستحق ذلك، الذي يستحقه رب العالمين، كما قال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ» [البقرة: ٢١]. وقال تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ» [الحج: ٦٢].

والمعنى: لا إله حق إلا هو، وهذه الجملة العظيمة تدل على نفي الألوهية الحق نفيًا عامًا قاطعًا إلا لله تعالى وحده.

وقوله تعالى: «الْحَيُّ الْقَيُّومُ» هذان اسمان من أسمائه تعالى، وهما جامعان لكمال الأوصاف، والأفعال، فكمال الأوصاف في (الحي) وكمال الأفعال في (القيوم) لأن معنى (الحي) ذو الحياة الكاملة، ويدل على ذلك «أل» المفيدة للاستغراق، وكمال حياته تعالى: من حيث الوجود، والعدم، ومن حيث الكمال، والنقص، فحياته من حيث الوجود والعدم أزلية أبدية- لم يزل، ولا يزال حيًا ومن حيث الكمال والنقص. كاملة من جميع أوصاف الكمال- فعلمه كامل، وقدرته كاملة، وسمعه وبصره، وسائر صفاته كاملة، و(القيوم): أصلها من القيام، ووزن «قيوم» فيعول، وهي صيغة مبالغة، فهو القائم على نفسه فلا يحتاج إلى أحد من خلقه، والقائم على غيره فكل أحد محتاج إليه.

فمعنى (الحي القيوم) أي الحي في نفسه الذي لا يموت أبدًا القيم لغيره. ولا قوام للموجودات بدون أمره.

وقوله تعالى: «لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ» أي لا يعتريه نعاس، ولا نوم فالنوم معروف، والنعاس مقدمته.

وقوله تعالى: «لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ» إخبار بأن الجميع عبيده وفي ملكه وتحت قهره وسلطانه. كقوله تعالى: «إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا».

وقوله تعالى: «مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ» والمراد بالاستفهام هنا النفي بدليل الإثبات بعده، حيث قال تعالى: «إِلاَّ بِإِذْنِهِ».

و«الشفاعة» في اللغة: جعل الوتر شفعًا، وفي الاصطلاح: التوسط للغير لجلب منفعة، أو دفع مضرة، فشفاعة النبي ﷺ في أهل الموقف أن يقضي الله بينهم بعدما يلحقهم من الهمّ، والغمّ ما لا يطيقون: شفاعة لدفع مضرة.

وشفاعته في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة: شفاعة في جلب منفعة.

وقوله تعالى: «إِلاَّ بِإِذْنِهِ» أي الكوني، يعني:

إلا إذا أذن في هذه الشفاعة حتى أعظم الناس جاهًا عند الله لا يشفع إلا بإذن الله، فالنبي ﷺ يوم القيامة وهو أعظم الناس جاهًا عند الله، ومع ذلك لا يشفع إلا بإذن الله لكمال سلطانه جل وعلا وهيبته، وكلما كمل السلطان صار أهيب للملك، وأعظم، حتى إن الناس لا يتكلمون في مجلسه إلا إذا تكلم، وانظروا وصف رسول قريش النبي ﷺ مع أصحابه حيث وصفهم بأنه إذا تكلم سكتوا، كل ذلك من باب التعظيم.

فمن عظمة الله تعالى وجلاله وكبريائه عز وجل، أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له في الشفاعة.

قوله تعالى: «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ» دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات، ماضيها وحاضرها ومستقبلها، فالله عز وجل يعلم الأشياء علمًا تامًا شاملاً لها جملة، وتفصيلاً، وعلمه ليس كعلم العباد، ولذلك قال تعالى: «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ» أي المستقبل، «وَمَا خَلْفَهُمْ» أي الماضي، و(ما) من صيغ العموم، فهي شاملة لكل شيء سواء كان دقيقًا أم جليلاً، وسواء كان من أفعال الله أم من أفعال العباد.

قوله تعالى: «وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ» لها معنيان:

المعنى الأول: لا يحيطون بشيء من علم نفسه، أي لا يعلمون عن الله سبحانه وتعالى من أسمائه، وصفاته، وأفعاله، إلا بما شاء أن يعلمهم إياه، فيعلمونه.

المعنى الثاني: ولا يحيطون بشيء من معلومه - أي مما يعلمه في السموات والأرض إلا بما شاء أن يعلمهم إياه، فيعلمونه.

قوله تعالى: «وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ» أي شمل، وأحاط، كما يقول القائل: وسعني المكان، أي شملني، وأحاط بي، و«الكرسي» هو موضع قدمي الله عز وجل، وهو بين يدي العرش كالمقدمة له، وقد صح ذلك عن ابن عباس موقوفًا (مستدرك الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وأقره الذهبي ٢٨٢/٢ والطبراني في المعجم الكبير حديث رقم (١٢٤٠٤) وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح). ومثل هذا له حكم المرفوع، لأنه لا مجال للاجتهاد فيه وما قيل من أن ابن عباس رضي الله عنهما يأخذ عن بني إسرائيل فلا صحة له، بل الذي صح عنه في البخاري أنه كان ينهى عن الأخذ عن بني إسرائيل، فأهل السنة والجماعة عامتهم على أن الكرسي موضع قدمي الله عز وجل، وبهذا جزم شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، وغيرهما من أهل العلم وأئمة التحقيق.

وقد قيل: إن «الكرسي» هو العرش، ولكن ليس بصحيح، فإن العرش أعظم، وأوسع وأبلغ إحاطة من الكرسي، فالكرسي موضع القدمين، وذكر ابن أبي العز أن المحفوظ عن ابن عباس أن الكرسي هو موضع القدمين، وذكر محقق المسند: أن أثر ابن عباس في تفسير الكرسي بأنه موضع القدمين أصح إسنادًا وذكر محمود شاكر في حاشية تفسير الطبري بأن أثر ابن عباس في تفسير الكرسي بأنه موضع القدمين صحيح الإسناد.

وقوله تعالى: «لا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا» أي: لا يثقله ولا يكترثه حفظ السموات والأرض، ومن فيهما، ومن بينهما، بل ذلك سهل عليه، يسير لديه، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء، فلا يعزب عنه شيء، ولا يغيب عنه شيء والأشياء كلها حقيرة بين يديه متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه، محتاجة فقيرة وهو الغني الحميد، الفعال لما يريد، الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون.

وقوله تعالى: «وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ»: مثل هذه الجملة التي طرفاها معرفتان تفيد الحصر، فهو وحده العلي، أي ذو العلو المطلق، وهو الارتفاع فوق كل شيء، و(العظيم) أي ذو العظمة في ذاته، وسلطانه، وصفاته.

والله أعلم.

مختارات من علوم القرآن

الأحاديث الضعيفة والموضوعة في فضائل سورة البقرة

إعداد
مصطفى البصراتي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد تحدثنا في حلقات سابقة عن فضائل سورة البقرة، وعن فضائل آية الكرسي وتفسيرها، وفي هذه الحلقة نتحدث عن الأحاديث الضعيفة والموضوعة في فضائل سورة البقرة، فمن هذه الأحاديث ما يلي:

١- «مَن قرأ سورة البقرةِ، تُوِّجَ بتاجٍ في الجنَّةِ».

موضوع: أخرجه البيهقي في «الشعب». قال الشيخ الألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة رقم (٤٦٣٣): وهذا إسناد موضوع، آفتة ابن الضَّوْءِ، قال الخطيب (٣٧٥/٥): «ومحمد بن الضوء ليس بمحلٍّ لأن يؤخذ عنه العلم، لأنه كان كذابًا، وكان أحد المتهتكين المشتهرين بشرب الخمور، والمجاهرين بالفجور». وقال الجوزقاني في «الموضوعات»: «محمد بن الضوء كذاب».

٢- «أُعطيت سورة البقرة من الذكر الأول، وأعطيتُ طه والطواسين من ألواح موسى، وأعطيت فاتحة الكتاب وخواتيم البقرة من تحت العرش، وأعطيتُ المفصَّل نافلةً».

ضعيف: رواه ابن عساكر (٢/١١٠/١٨)، وأخرجه ابن السني في «اليوم والليلة» (٦٧٨) مختصرًا، قال الشيخ الألباني في السلسلة الضعيفة رقم (٢٨٢٦): وهذا إسناد ضعيف، يحيى بن يعلى بن منصور لم أعرفه.

٣- «إن لكل شيء سنامًا، وسنام القرآن سورة البقرة، فيها آية سيدة آي القرآن، لا تقرأ في بيت فيه شيطان إلا خرج منه: آية الكرسي».

ضعيف بهذا اللفظ: أخرجه الترمذي رقم (٢٨٨١)، وابن نصر في «قيام الليل»، والحاكم، وعبد

الرزاق في «المصنف»، وابن عدي في الكامل، وضعفه الترمذي، وضعفه الشيخ الألباني في السلسلة الضعيفة برقم (١٣٤٨) وقال: وبالجملة فالحديث ضعيف، غير أن طرفه الأول قد وجد ما يشهد له من حديث عبد الله بن مسعود، وهو مخرج في «الصحيحة» برقم (٥٨٨).

٤- «إن لكل شيء سنامًا، وإن سنام القرآن سورة البقرة، من قرأها في بيته ليلاً لم يدخله الشيطان ثلاث ليال، ومن قرأها في بيته نهارًا لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام».

ضعيف: أخرجه العقيلي في «الضعفاء»، وابن حبان وأبو نعيم في «أخبار أصبهان»، وقد ضعفه الشيخ الألباني رحمه الله في «الضعيفة» برقم (١٣٤٩) وقال: ولم نجد للحديث شاهدًا نقويه به إلا طرفه الأول منه، وهو مخرج في الصحيحة رقم (٥٨٨).

٥- «من قرأ آية الكرسي، لم يتول قبض نفسه إلا الله تعالى».

موضوع: أخرجه الخطيب (١٧٤/٧)، وقال الألباني في «الضعيفة» رقم (٢٠١٤): وهذا إسناد ضعيف جدًا، بل هو موضوع، وعلته محمد بن كثير هذا، فإنه متروك كما قال الحافظ في «التقريب»، وقال ابن عدي: «روى أباطيل والبلاء منه».

٦- «أربع أنزلت من كنز تحت العرش: أم الكتاب، وآية الكرسي، وخواتيم البقرة، والكوثر».

ضعيف: رواه الديلمي عن الوليد بن جميل عن القاسم عن أبي أمامة مرفوعًا، وقد ضعفه الشيخ الألباني في السلسلة الضعيفة برقم (٢٧٣٥) وقال: وهذا إسناد ضعيف.

٧- «أعطيتُ آية الكرسيِّ من تحتِ العرش».

ضعيف: أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» معلقًا، وضعفه الشيخ الألباني في السلسلة الضعيفة رقم (٢٨٢٥)، وقال: وهذا إسناد ضعيف، فإن الحسن - وهو البصري - قد أرسله.

٨- «آيةُ الكرسيِّ رُبعُ القرآن».

ضعيف: أخرجه أحمد (٢٢١/٣): ثنا عبد الله بن الحارث قال: حدثني سلمة ابن وردان أن أنس بن مالك صاحب النبي صلى الله عليه وسلم حدثه: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل رجلاً من صحابته فقال: أي فلان هل تزوجت؟ قال: لا وليس عندي ما أتزوج به، قال: أليس معك (قل هو الله أحد)؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: أليس معك: (قل يا أيها الكافرون)؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: أليس معك (إذا زلزلت الأرض)؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: أليس معك (إذا جاء نصر الله؟) قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: أليس معك آية الكرسي: (الله لا إله إلا هو)؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: تزوج، تزوج، تزوج، ثلاث مرات».

قال الشيخ الألباني في السلسلة الضعيفة رقم (١٤٨٤): هذا إسناد ضعيف، سلمة بن وردان قال الحافظ في «التقريب»: «ضعيف».

سورة آل عمران فضائل ولطائف

▫▫ الحلقة الأولى ▫▫

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وبعد:

فقد تحدثنا في الحلقات السابقة عن فضائل سورة البقرة، وفي هذه السلسلة نتحدث عن سورة آل عمران من حيث الفضائل التي اشتملت عليها واللطائف التي فيها.

هذه السورة مدنية باتفاق جميع المفسرين، وكذلك كلُّ سورة تشتمل على ذكر أهل الكتاب، وعدد آياتها مائتان بإجماع القراء.

وكلماتها ثلاثة آلاف وأربعمائة وثمانون كلمة، وحروفها أربعة عشر ألفًا وخمسمائة وعشرون حرفًا.

ومن أسمائها سورة آل عمران، والزهراء. وعمران المذكور في الموضع الأول هو عمران والد موسى وهارون عليهما السلام وهو ابن يصهر ابن فاهث بن لاوي بن يعقوب، وأما عمران وهو المذكور في الموضع الثاني والد مريم فهو ابن ماتان بن أسعراد بن أبي ثور.

ومضمون السورة مناظرة وفد نجران (بلد في اليمن من ناحية مكة) إلى نحو ثمانين آية من أولها، وبيان المحكم، والمتشابه، وذم الكفار، ومذَمَّة الدنيا وشرف العُقبى، ومدح الصحابة، وشهادة التوحيد، والرد على أهل الكتاب، وحديث ولادة مريم، وحديث كفالة زكريا، ودعائه، وذكر ولادة عيسى، ومعجزاته، وقصة الحواريين، وخبر المباهلة (من البهلة وهي اللعنة) والاحتجاج على النصارى، ثم أربعون آية في ذكر المرتدين، ثم ذكر خيانة علماء يهود، وذكر الكعبة ووجوب الحج، واختيار هذه الأمة الفُضلى، والنهي عن موالاة الكفار، وأهل الكتاب، ومخالفي الملة الإسلامية، ثم خمس وخمسون آية في قصة حرب أحد وفي التخصيص والشكوى من الرماة الذين أمرهم الرسول ﷺ أن يلزموا أماكنهم بجانب أحد، وعذر المنهزمين، ومنع الخوض في باطل المنافقين، (وتقرير قصة الشهداء وتفصيل غزوة بدر الصغرى، ثم رجع إلى ذكر المنافقين) في خمس وعشرين آية والطعن على علماء اليهود، والشكوى منهم في نقض العهد، وترك بيانهم نعتَ رسول الله ﷺ المذكور في التوراة، ثم دعواتِ الصحابة، وجدهم في حضور الغزوات واغتنامهم درجة الشهادة، وختم السورة بآيات الصبر والمصابرة والرِّباط.

[بصائر ذوي التمييز للفيروزأبادي - بتصرف]

وقال الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير: سميت هذه السورة في كلام النبي ﷺ وكلام الصحابة: سورة آل عمران.

ففي صحيح مسلم عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا الزهراوين البقرة وآل عمران». وفيه عن النوَّاس بن سمعان رضي الله عنه

قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة تقدمه سورة البقرة وآل عمران».

وسمَّاها ابن عباس رضي الله عنهما كذلك في حديثه في الصحيح، قال: «بِتُّ في بيت رسول الله ﷺ فنام رسول الله ﷺ حتى إذا كان نصفُ الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل استيقظ رسول الله ﷺ فقرأ الآيات من آخر سورة آل عمران».

ووجه تسميتها بسورة آل عمران

أنها ذكرت فيها فضائل آل عمران، وهو عمران بن ماتان أبو مريم، وآله هم زوجه حنة وأختها زوجة زكريا النبي، وزكريا كافل مريم إذ كان أبوها عمران توفي وتركها حملاً فكفلها زوج خالتها.

ووصفها رسول الله ﷺ بالزهراء في حديث أبي أمامة المتقدم.

وهذه السورة نزلت بالمدينة بالاتفاق، بعد سورة البقرة، فقيل: إنها ثانية لسورة البقرة، على أن البقرة أولُ سورة نزلت بالمدينة، وقيل: نزلت بالمدينة سورة المطففين أولاً، ثم البقرة، ثم آل عمران، ثم نزلت الأنفال في وقعة بدر، وهذا يقتضي: أن سورة آل عمران نزلت قبل وقعة بدر، للاتفاق على أن الأنفال نزلت في وقعة بدر، ويبعد ذلك أن سورة آل عمران اشتملت على التذكير بنصر المسلمين يوم بدر، وأن فيها ذكر يوم أحد، ويجوز أن يكون بعضها نزل متأخرًا، وقد عدت هذه السورة الثامنة والأربعين في عداد نزول سور القرآن.

سبب نزول هذه السورة

سبب نزول هذه السورة قضية وفد نجران من بلاد اليمن، ووفد نجران هم قوم من نجران بلغهم مبعث النبي ﷺ ، وكانوا نصارى وفدوا على رسول الله ﷺ بالمدينة في ستين راكبًا، فاجتمع وفد منهم يرأسه العاقب - واسمُه عبد المسيح - وهو أمير الوفد، ومعه السيد واسمه الأيْهم، وهو ثمال القوم وولي تدبير الوفد ومشيره وذو الرأي فيه، وفيهم أبو حارثة بن علقمة البكري وهو أسقفهم وصاحب مدراسهم وولي دينهم، وفيهم أخو أبي حارثة، ولم يكن من أهل نجران، ولكنه كان ذا رتبة، شرَّفه ملوك الروم ومولُوه، فلقوا النبي ﷺ وجادلهم في دينهم وفي شأن ألوهية المسيح، فلما قامت الحجة عليهم أصروا على كفرهم وكابروا فدعاهم النبي ﷺ إلى المباهلة (الابتهال: مشتق من البَهْل وهو الدعاء باللعن)، فأجابوا ثم استعظموا ذلك، وتخلصوا منه، ورجعوا إلى أوطانهم، ونزلت بضع وثمانون آية من أول هذه السورة في شأنهم.

وقد أجمع أهل العلم على أن سورة آل عمران من أوائل المدنيات، أي من أوائل السور التي نزلت بالمدينة، فمن ظنَّ من أهل السير أن وفد نجران وفدوا في سنة تسع فقد وهم وهمًا انجرّ إليه من اشتهار سنة تسع بأنها سنة الوفود.

وترجيحُ أنها نزلت في وفد نجران يعين أن وفد نجران كان قبل سنة الوفود.

ما اشتملت عليه السورة

وقد اشتملت هذه السورة من الأغراض: على الابتداء بالتنويه بالقرآن، ومحمد ﷺ ، وتقسيم آيات القرآن، ومراتب الأفهام في تلقيها، والتنويه بفضيلة الإسلام وأنه لا يَعْدلُه دين، وأنه لا يُقبل دين عند الله، بعد ظهور الإسلام غير الإسلام، والتنويه بالتوراة والإنجيل، والإيماء إلى أنهما أنزلا قبل القرآن، تمهيدًا لهذا الدين، فلا يحق للناس أن يكفروا به، وعلى التعريف بدلائل إلهية الله تعالى وانفراده، وإبطال ضلالة الذين اتخذوا آلهة من دون الله، من جعلوا له شركاء، أو اتخذوا له أبناء، وتهديد المشركين بأن أمرهم إلى زوال وألا يغرّهم ما هم فيه من البذخ، وأن ما أعدّ للمؤمنين خير من ذلك، وتهديدهم بزوال سلطانهم، ثم الثناء على عيسى عليه السلام، وآل بيته، وذكر معجزة ظهوره، وأنه مخلوق لله، وذكر الذين آمنوا به حقًا، وإبطال إلهية عيسى، ومن ثمّ أفضى إلى قضية وفد نجران ولجاجتهم، ثم محاجة أهل الكتابين في حقيقة الحنيفية وأنهم بُعداءُ عنها، وما أخذ الله من العهد على الرسل كلّهم: أن يؤمنوا بالرسول الخاتم، وأن الله جعل الكعبة أول بيت وضع للناس وقد أعاد إليه الدين الحنيف كما ابتدأه فيه، وأوجب حَجَّهُ على المؤمنين، وأظهر ضلالات اليهود، وسوء مقالتهم، وافتراءهم في دينهم وكتمانهم ما أنزل إليهم، وذكر المسلمين بنعمته عليهم بدين الإسلام، وأمرهم بالاتحاد والوفاق وذكَّرهم بسابق سوء حالهم في الجاهلية، وهون عليهم تظاهر معانديهم من أهل الكتاب والمشركين، وذكَّرهم بالحذر من كيدهم وكيد الذين أظهروا الإسلام ثم عادوا إلى الكفر فكانوا مثلاً لتمييز الخبيث من الطيب، وأمرهم بالاعتزاز بأنفسهم، والصبر على تلقي الشدائد، والبلاء، وأذى العدوّ، ووعدهم على ذلك بالنصر والتأييد وإلقاء الرعب منهم في نفوس عدوِّهم، ثم ذكرهم بيوم أُحد، ويوم بدر، وضرب لهم الأمثال بما حصل فيهما، ونوَّه، بشأن الشهداء من المسلمين، وأمر المسلمين بفضائل الأعمال من بذل المال في مواساة الأمة، والإحسان، وفضائل الأعمال، وترك البخل، ومذمة الربا وختمت السورة بآيات التفكير في ملكوت الله.

وللحديث بقية إن شاء الله.

مختارات من علوم القرآن

سورة آل عمران

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وبعد:

فقد تحدثنا في الحلقة السابقة عن وجه تسمية سورة آل عمران وسببُ نزولها وما اشتملت عليه وفي هذه الحلقة نستكمل الحديث حول ما اشتملت عليه من فضائل ولطائف، فنقول مستعينين بالله:

وقال الشيخ الصابوني في «قبس من نور القرآن»:

«سورة آل عمران من السور المدنية الطويلة، وقد اشتملت هذه السورة الكريمة على ركنين هامين: أولهما ركن العقيدة الإسلامية الصافية، مع ذكر الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين، والثاني ركن التشريع، وبخاصة فيما يتعلق بأحكام الجهاد في سبيل الله.

أما الركن الأول: ركن العقيدة فقد تناولت الآيات الكريمة أدلة الوحدانية والنبوّة وإثبات صدق القرآن، وأنَّه تنزيل الرحيم الرحمن، وردت بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة، على الشبهات التي أثارها أهل الكتاب «اليهود والنصارى» وإذا كانت سورة البقرة قد تناولت الحديث عن الزمرة الأولى من أهل الكتاب، وهم «اليهود» فكشفت عن خفاياهم ونواياهم، وأظهرت حقيقتهم وما انطوت عليه نفوسهم الشريرة، من خبث، ومكر، وكيد.

فإن سورة آل عمران قد تناولت الزمرة الثانية من أهل الكتاب، وهم النصارى، الذين جادلوا الرسول ﷺ في أمر السيد المسيح «عيسى بن مريم» عليه السلام فزعموا بنوّته لله، وادعوا أنه ثالث ثلاثة، بل إن بعضهم غالى في شأنه، فزعم أنه هو الله، تجسد وتمثل في صورة بشر، إلى آخر ما افتراه النصارى، تعالى الله وتقدَّس عما يقول الظالمون علوًا كبيرا.

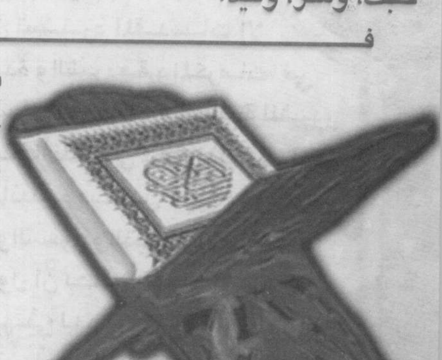

أما الركن الثاني: فقد تناول الحديث عن الجهاد والشهداء، وعن بعض الغزوات وبخاصة عن غزوة أحد وما فيها من دروس وعبر.

المقاصد التي سيقت لها هذه السورة

والمقاصد التي سيقت لها هذه السورة إثبات الوحدانية لله سبحانه وتعالى، والإخبار بأن رئاسة الدنيا بالأموال والأولاد وغيرهما مما آثره الكفار على الإسلام غير مغنية عنهم شيئًا في الدنيا ولا في الآخرة، وأن ما أعد المتقين من الجنة والرضوان هو الذي ينبغي الإقبال عليه والمسارعة إليه، وفي وصف المتقين بالإيمان والدعاء والصبر والصدق والقنوت والإنفاق والاستغفار ما يتعطف عليه كثير من أساليب هذه السورة، هذا ما كان ظهر لي أولاً، وأحسن منه أن

فضائل ولطائف

الحلقة الثانية

إعداد/ مصطفى البصراتي

نخص القصد الأول وهو التوحيد بالقصد فيها فإن الأمرين الآخرين يرجعان إليه، وذلك لأن الوصف بالقيومية يقتضي القيام بالاستقامة، فالقيام يكون على كل نفس، والاستقامة العدل كما قال سبحانه: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران:١٨] أي بعقاب العاصي وثواب الطائع بما يقتضي للموفق ترك العصيان ولزوم الطاعة، وهذا الوجه أوفق للترتيب، لأن الفاتحة لما كانت جامعة للدين إجمالا جاء ما به التفصيل محاذيًا لذلك، فابتدئ بسورة الكتاب المحيط بأمر الدين، ثم بسورة التوحيد الذي هو سر حرف الحمد وأول حروف الفاتحة لأن التوحيد هو الأمر الذي لا يقوم بناء إلا عليه، ولما صح الطريق وثبت الأساس جاءت التي بعدها داعية إلى الاجتماع على ذلك، وأيضا فلما ثبت بالبقرة أمر الكتاب في أنه هدى وقامت به دعائم الإسلام الخمس جاءت هذه لإثبات الدعوة الجامعة في قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] فأثبت الوحدانية له بإبطال الإلاهية غيره بإثبات أن لكل عبيده دعت سورة النساء إلى إقبالهم إليه واجتماعهم عليه، ومما يدل على أن القصد بها هو التوحيد تسميتها بآل عمران، فإن لم يعرب عنه في هذه السورة ما أعرب عنه ما ساقه سبحانه وتعالى فيها من أخبارهم بما فيها من الأدلة على القدرة التامة الموجبة للتوحيد الذي ليس في درج الإيمان أعلى منه، فهو التاج الذي هو خاصة الملك المحسوسة كما أن التوحيد خاصته المعقولة، والتوحيد موجب لزهرة المتحلى به فلذلك سميت الزهراء. [ذكره البقاعي في نظم الدرر]

وجوه التلازم بين سورة البقرة وآل عمران

ورد في صحيح مسلم تسمية آل عمران والبقرة الزهراوين ووجه تلازمها ومناسبتها لتلك السورة أن كثيرًا من مجملاتها تشرح بما في هذه السورة وأن سورة البقرة بمنزلة إقامة الحجة وهذه بمنزلة إزالة الشبهة ولهذا تكرر فيها ما يتعلق بالمقصود الذي هو بيان حقية الكتاب من إنزال الكتاب وتصديقه للكتب قبله والهدي إلى الصراط المستقيم، وتكررت آية ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة:١٣٦] بكمالها، ولذلك ذكر في هذه ما هو تال لما ذكر في تلك أو لازم له، فذكر هناك خلق الناس، وذكر هنا تصويرهم في الأرحام، وذكر هناك مبدأ خلق آدم، وذكر هنا مبدأ خلق أولاده، وألطف من ذلك أنه افتتح البقرة بقصة آدم وخلقه من تراب ولا أم، وذكر في هذه نظيره في الخلق من غير أب وهو عيسى، ولذلك ضرب له المثل بآدم، واختصت البقرة بآدم لأنها أول السور وهو أول في الوجود وسابق، ولأنها الأصل وهذه كالفرع والتتمة لها فاختصت بالأغرب، ولأنها خطاب لليهود الذين قالوا في مريم ما قالوا وأنكروا وجود ولد بلا أب ففوتحوا بقصة آدم

لتثبت في أذهانهم فلا تأتي قصة عيسى إلا وقد ذكر عندهم ما يشهد لها من جنسها ولأن قصة عيسى قيست على قصة آدم والمقيس عليه لابد وأن يكون معلومًا لتتم الحجة بالقياس فكانت قصة آدم والسورة التي هي فيها جديرة بالتقديم.

وقد ذكر بعض المحققين من وجوه التلازم بين السورتين أنه قال في البقرة في صفة النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] مع افتتاحها بذكر المتقين والكافرين معًا وقال في آخر هذه: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. فكأن السورتين بمنزلة سورة واحدة، ومما يقوي المناسبة والتلازم بينهما أن خاتمة هذه مناسبة لفاتحة تلك لأن الأولى افتتحت بذكر المتقين وأنهم المفلحون وختمت هذه بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠، ٢٢٠].

وافتتحت الأولى بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة:٤] وختمت آل عمران بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٩] وقد ورد أن اليهود قالوا لما نزل ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٤٥، والحديد: ١١] يا محمد، افتقر ربك يسأل عباده القرض فنزل: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] وهذا مما يقوى التلازم أيضًا، ومثله أنه وقع في البقرة حكاية قول إبراهيم: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] وهنا ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] إلى غير ذلك.

وقال العلامة البقاعي في «نظم الدرر»:

ومناسبة هذا الأول (آل عمران) بالابتدائية لآخر ما قبلها (البقرة) أنه لما كان آخر البقرة في الحقيقة آية الكرسي وما بعدها إنما هو بيان، لأنها أوضحت أمر الدين بحيث لم يبق وراءها مرمى لمتعنت، أو تعجب من حال من جادل في الإلهية أو استبعد شيئًا من القدرة ولم ينظر فيما تضمنته هذه الآية من الآدلة مع وضوحه، أو إشارة إلي الاستدلال على البعث بأمر السنابل في قالب الإرشاد إلى ما ينفع في اليوم الذي نفى فيه نفع البيع والخلة والشفاعة من النفقات، وبيان بعض ما يتعلق بذلك، وتقرير أمر ملكه لما منه الإنفاق من السماوات والأرض، والإخبار بإيمان الرسول واتباعه بذلك، وبأنهم لا يفرقون بين أحد من الرسل المشار إليهم في السورة وبصدقهم في التضرع برفع الأثقال التي كانت على من قبلهم من بني إسرائيل وغيرهم، وبالنصرة على عامة الكافرين، لما كان ذلك على هذا الوجه ناسب هذا الاختتام غاية المناسبة ابتداء هذه السورة بالذي وقع الإيمان به سبحانه وتعالى، وأحسن منه أنه لما نزل إلينا كتابه فجمع مقاصده في الفاتحة على وجه أرشد فيه إلى سؤال الهداية ثم شرع في تفصيل ما جمعه في الفاتحة، فأرشد في أول البقرة إلى أن الهداية في هذا الكتاب وبيّنَ ذلك بحقية المعنى والنظم كما تقدم - إلى أن ختم البقرة بالإخبار عن خُلّص عباده بالإيمان بالمنزل بالسمع والطاعة، وأفهم ذلك مع التوجه بالدعاء إلى المنزل له أن له سبحانه وتعالى كل شيء وبيده النصر، عُلم أنه واحد لا شريك له حيّ لا يموت قيوم لا يغفل وأن ما أنزل هو الحق، فصرح أول هذه (آل عمران) بما أفهمه آخر تلك (البقرة)، كما يصرح بالنتيجة بعد المقدمات المنتجة لها فقال: (الله) أي الذي لا يذل من والاه ولا يعز من عاداه لأن له الإحاطة بجميع أوصاف الكمال والنزاهة الكاملة من كل شائبة نقص.

وللحديث بقية.

سورة آل عمران

الحمد لله رب العالمين، وصلاة وسلامًا على إمام الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه وسلم..

وبعد:

فقد تحدثنا في حلقات سابقة عن فضائل سورة آل عمران وبعض لطائفها، وفي هذا العدد نواصل الكلام عن لطائف هذه السورة المباركة، فنقول مستعينين بالله:

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ الم ﴾ [آل عمران:١].

قال القرطبي: اختلف أهل التأويل في الحروف التي في أوائل السور، فقال الشعبي وسفيان الثوري وجماعة من المحدثين: هي سر الله في القرآن، ولله في كل كتاب من كتبه سر، فهي من المتشابه الذي انفرد الله تعالى بعلمه، ولا نحب أن نتكلم فيها، ولكن نؤمن بها ونمرها كما جاءت، وروي هذا القول عن أبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب، رضي الله عنهما، قال: وذكر أبو الليث السمرقندي عن عمر وعثمان وابن مسعود رضي الله عنهم أنهم قالوا: الحروف المقطعة من المكتوم الذي لا يُفسر، وفائدة ذكرها طلب الإيمان بها ولا يلزم البحث عنها فهي مما استأثر الله بعلمه.

الحروف التي في أوائل السور

هذا هو خلاصة ما ذكره أهل العلم في الكلام على الحروف التي في أوائل السور، وهناك أقوال كثيرة في هذه المسألة أعرضت عنها خشية الإطالة.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [آل عمران: ٢]. «الله»، علمٌ على الربِّ عز وجل، وأصله الإله بمعنى المألوه، وحذفت الهمزة تخفيفًا كما حذفت الهمزة من (خير) و(شر) في مثل قول الرسول ﷺ: «خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها».

[أخرجه مسلم]

أي: أخيرها وأشرها، وكما حذفت الهمزة من (الناس)، وأصلها أناس.

وهو أعرف المعارف على الإطلاق، ومعناه: المعبود حُبًا وتعظيمًا، وجيء بالاسم العَلَم: لتربية المهابة عند سماعه.

وقوله: ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾: أي: لا معبود حقٌّ إلا هو. فـ «إله»: اسم لا النافية للجنس، وخبرها محذوف، تقديره: حق (أي لا معبود حق إلا الله).

وهناك آلهة باطلة ولكنها آلهة وُضِعَت عليها الأسماء بدون حق، كما قال تعالى: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ [النجم: ١٩-٢٣].

وبهذا التقدير للخبر في (لا إله إلا هو)، يزول الإشكال، وهو أنه كيف يُنفى الإله في مثل هذه الجملة، ويُثبت في مثل قوله: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [هود: ١٠١] ؟ والجمع بينهما: أن تلك الآلهة باطلة، والإله في قوله «لا إله إلا هو» إله حق، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

وقوله: «هُوَ»، (هو) ضمير وليس اسمًا لله تعالى، بخلاف قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، فلفظ: «الله» هنا عَلَم، وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، فـ «أنا» هنا ضمير.

بطلان ذكر الصوفية

فعلى هذا نقول: «أنا» و«هو» في قوله: «لا إله إلا أنا»، وقوله: «لا إله إلا هو» كلاهما ضمير رفع منفصل. فكما أن الذاكر لا يجعل (أنا) اسمًا لله، فلا يجوز أن يجعل (هو) اسمًا لله، وبهذا نعرف بطلان ذكر الصوفية الذين يذكرون الله بلفظ: هُوْ هُوْ. ويرون أن هذا الذكر أفضل الأذكار، وهو ذكر باطل.

وجملة (لا إله إلا هو) جملة معترضة أو حالية، ردًا على المشركين، وعلى النصارى خاصة، وأتبع بالوصفين «الحي القيوم» لنفي اللبس عن مسمًى هذا الاسم والإيماء

الحلقة الثالثة

فضائل ولطائف

إعداد/ مصطفى البصراتي

إلى وجه انفراده بالإلهية، وأن غيره لا يستأهلها، لأنه غير حيّ أو غير قيُّوم فالأصنام لا حياة لها، وعيسى عليه السلام في اعتقاد النصارى قد أميت، فما هو الآن بقيّوم ولا هو في حال حياته بقيوم على تدبير العالم، وكيف وقد أُوذي في الله، وكُذِّب واختفى عن أعدائه.

وقوله: «الحي»: «أل» هنا للاستغراق، أي الكامل الحياة، وحياة الله عز وجل كاملة في وجودها، وكاملة في زمنها، فهو حي لا أول له، ولا نهاية له. حَياتُه لم تُسْبَقْ بعَدَم، ولا يلحقها زوال، وهي أيضًا كاملة حال وجودها، لا يدخلها نقص بوجه من الوجوه، فهو كامل في سمعه وعلمه وقدرته وجميع صفاته، فإذا رأينا الآدمي بل إذا رأينا غير الله عز وجل وجدنا أنه ناقص في حياته زمنًا ووجودًا، حياته مسبوقة بعدم، ملحوقة بزوال وفناء، وهي أيضًا ناقصة في وجودها، ليس كامل السمع ولا البصر ولا العلم ولا القدرة، فكلُّ حي سوى الله ناقص.

وقوله: «القيوم» على وزن فيْعُول، وهو مأخوذ من القيام، ومعناه: القائم بنفسه، القائم على غيره، القائم بنفسه فلا يحتاج إلى أحد، والقائم على غيره فكل أحد محتاج إليه.

وفي الجمع بين الاسمين الكريمين (الحي القيوم) استغراق لجميع ما يوصف الله به بجميع الكمالات، ففي «الحي» كمال الصفات، وفي «القيوم» كمال الأفعال، وفيهما جميعًا كمال الذات، فهو كامل الصفات والأفعال والذات.

وأما قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣].

فقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ﴾ اختلاف التعبير يدل على اختلاف المعنى.

القرآن نزل متدرجًا

قال أهل العلم: إن التوراة والإنجيل نزلتا دفعة واحدة بدون تدرج بخلاف القرآن، فإنه نزل بالتدريج، وهذا من رحمة الله عز وجل بهذه الأمة، لأنه إذا نزل بالتدريج صارت أحكامه أيضًا بالتدريج، لكن لو نزل دفعة واحدة لزم الأمة أن تعمل به جميعًا بدون تدرج، وهذا من الآصار التي كتبت على من سبقنا، إذ نزلت عليهم الكتب مرة واحدة فأُلزموا بالعمل بها من حين نزولها فيما ألفوه وفيما لم يألفوه، بخلاف القرآن الكريم.

وقوله: «التوراة والإنجيل»: التوراة: هي الكتاب الذي أنزله الله على موسى عليه الصلاة والسلام. والإنجيل: هو الكتاب الذي أنزله الله على عيسى عليه الصلاة والسلام.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٤] أي: نزّل عليك الكتاب هدًى للناس، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس، أي: من أجل هداية الناس، والمراد بالهداية هنا هداية الدلالة التي يترتب عليها هداية التوفيق. لكن الأصل في هذه الكتب أنها هداية دلالة، ولهذا قال: «هدًى للناس» عمومًا، حتى الكفار تهديهم وتدلهم، وتبين لهم الحق من الباطل، لكن قد يُوفَّقون لقبول الحق والعمل به، وقد لا يُوفَّقون.

والهدى ضد الضلال، واهتدى بمعنى سار على الطريق الصواب، وضلَّ بمعنى انحرف وتاهَ وضاع، ومنه سميت (الضالة) يعني البعير التائه الضائع.

وقوله: «هدى للناس» والمراد بالناس: البشر وهم بنو آدم.

وقوله: «وأنزل الفرقان» كلمة «الفرقان» كلمة واسعة تشمل كل ما به الفرق من جميع الوجوه بين أهل الحق وأهل الباطل، وبين النافع والضار، وبين الأنفع والنافع، وبين الأضر والضار وغير ذلك.

والفرقان في الأصل مصدر فرَّق كالشكران والكُفران والبُهتان، ثم أطلق على ما يفرق به بين الحق والباطل، وَسُمِّي به القرآن، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]، والمراد بالفرقان هنا القرآن، لأنه يفرق بين الحق والباطل.

وفي وصفه بذلك تفضيل لهديه على هدى التوراة والإنجيل، لأن التفرقة بين الحق والباطل أعظم أحوال الهدى، لما فيها من البرهان وإزالة الشبهة، وإعادة قوله: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ بعد قوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ للاهتمام، وليُوصل الكلام به في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي بآياته في القرآن.

وإلى لقاء قادم - بإذن الله - حول «المحكم والمتشابه» في سورة آل عمران. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

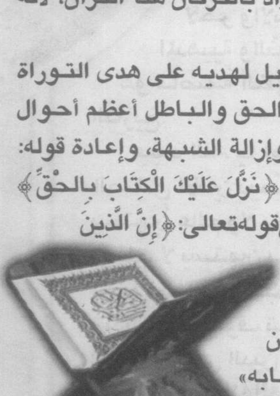

مختارات من علوم القرآن

سورة آل عمران

الحمد لله رب العالمين، وصلاة وسلامًا على إمام الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه، أما بعد:

اللطيفة الثالثة:

في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧].

تعريف المحكم:

المحكم لغة: قال ابن فارس «الحاء والكاف والميم أصل واحد وهو المنع، وأول ذلك: الحُكم، وهو المنع من الظلم وسُمِّيَت حَكَمَة الدابة لأنها تمنعها...».

وتقول: أحكمت الشيء أي اتقنته. والمحكم عمومًا هو المتقن، وبمعنى أخص: ما لا يعرض فيه شبهة من حيث اللفظ ولا من حيث المعنى.

المحكم اصطلاحًا:

ذكر العلماء له تعريفات كثيرة، أكتفي بذكر اثنين منها مع ما بينها من تقارب في المعنى:

أ- ما اتضح معناه، واستقل بنفسه.

ب- ما لا يعرض فيه شبهة من حيث اللفظ، ولا من حيث المعنى، وهو المشار إليه في المعنى اللغوي.

وهذان التعريفان يدوران حول قضية واحدة، وهي أن المحكم ما استقل بنفسه في الدلالة على معناه من غير التباس، ويقابله المتشابه وهو:

تعريف المتشابه:

المتشابه لغة: قال ابن فارس: «الشين والباء والهاء أصل واحد يدل على تشابه الشيء وتشاكله لونًا ووصفًا... والمشبهات من الأمور المشكلات، واشتبه الأمران إذا أشكلا».

المتشابه اصطلاحًا:

ذكر له العلماء تعريفات كثيرة أيضًا، ولعل أفضل التعريفات المذكورة أربعة، وهي متقاربة المعنى، وهي:

١- ما لم يتضح معناه، إما لاشتراك أو إجمال أو غيره.

٢- ما لا يستقل بنفسه إلا برده إلى غيره.

٣- ما أشكل تفسيره لمشابهته بغيره.

٤- ما لا يغني ظاهره عن مراده.

فهذه التعريفات الأربعة تدور حول معنى واحد وهو أن المتشابه لا يفي بالمعنى على وجهٍ يستقل به.

أقوال أهل العلم في المحكم والمتشابه:

اختلف العلماء في المحكمات والمتشابهات على أقوال عديدة نذكرها فيما يلي:

الأول: أن المتشابه هو المنسوخ فمعنى المنسوخ معروف.

وهذا القول مأثور عن ابن مسعود وابن عباس وقتادة والسُّدي وغيرهم، وابن مسعود وابن عباس، وقتادة، هم الذين نقل عنهم أن الراسخين في العلم لا يعلمون تأويله، ومعلوم قطعًا باتفاق المسلمين أن الراسخين يعلمون معنى المنسوخ، وأنه منسوخ، فكان هذا النقل عنهم يناقض ذلك النقل، ويدل على أنه كذب إن كان هذا صدقًا، وإلا تعارض النقلان عنهم، والمنقول عنهم أن الراسخين يعلمون معنى المتشابه.

الثاني: مأثور عن جابر بن عبد الله أنه قال:

المحكم ما علم العلماء تأويله، والمتشابه ما لم يكن للعلماء إلى معرفته سبيل، كقيام الساعة.

ومعلوم أن وقت قيام الساعة مما اتفق المسلمون على أنه لا يعلمه إلا الله، فإذا أريد بلفظ التأويل هذا كان المراد به لا يعلم وقت تأويله إلا الله وهذا حق، ولا يدل ذلك على أنه لا يعرف معنى الخطاب بذلك، وكذلك إن أُريد بالتأويل حقائق ما يوجد، وقيل: لا يعلم كيفية ذلك إلا الله.

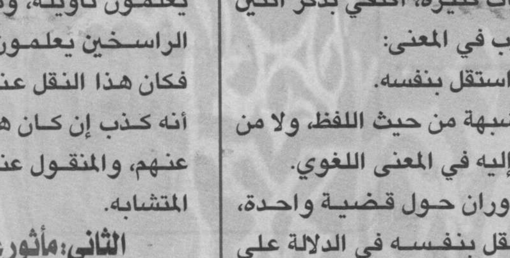

الثالث: أن المتشابه الحروف المقطعة

فضائل ولطائف

إعداد/ مصطفى البصراتي

في أوائل السور

يروى هذا عن ابن عباس، وعلى هذا القول فالحروف المقطعة ليست كلامًا تامًا من الجمل الاسمية والفعلية، وإنما هي أسماء موقوفة، ولهذا لم تعرب، فإن الإعراب إنما يكون بعد العقد والتركيب، وإنما نطق بها موقوفة كما يقال: ا ب ت ث، ولهذا تكتب بصورة الحرف، لا بصورة الاسم الذي ينطق به، فإنها في النطق أسماء.

الرابع: أن المتشابه ما اشتبهت معانيه

قاله مجاهد، وهذا يوافق قول أكثر العلماء، وكلهم يتكلم في تفسير هذا المتشابه، ويبين معناه.

الخامس: أن المتشابه ما تكررت ألفاظه

قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسد. قال المحكم: ما ذكر الله تعالى في كتابه، من قصص الأنبياء ففصله وبينه، والمتشابه هو ما اختلفت ألفاظه في قصصهم عند التكرير كما قال في موضع من قصة نوح: ﴿ احْمِلْ فِيهَا ﴾ [هود: ٤٠]، وقال في موضع آخر: ﴿ اسْلُكْ فِيهَا ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، وقال في عصى موسى: ﴿ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾ [طه: ٢٠]، وفي موضع آخر: ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾ [الشعراء: ٣٢]، وصاحب هذا القول جعل المتشابه اختلاف اللفظ مع اتفاق المعنى، كما يشتبه على حافظ القرآن هذا اللفظ بذاك اللفظ.

وقد صنف بعضهم في هذا المتشابه ؛ لأن القصة الواحدة يتشابه معناها في الموضعين، فاشتبه على القارئ أحد اللفظين بالآخر، وهذا التشابه قد ينفي معرفة المعاني بلا ريب.

السادس: أنه ما احتاج إلى بيان كما نقل عن الإمام أحمد.

السابع: أنه ما احتمل وجوهًا، كما نقل عن الشافعي

وأحمد، وقد روى عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: إنك لا تفقه كُلَّ الفقه حتى ترى للقرآن وجوهًا.

الثامن: أن المتشابه هو القصص والأمثال وهذا أيضًا يعرف معناه.

التاسع: أنه ما يؤمن به ولا يعمل به، وهذا أيضًا مما يعرف معناه.

العاشر: قول بعض المتأخرين أن المتشابه آيات الصفات، وأحاديث الصفات، وهذا أيضًا مما يعلم معناه، فإن أكثر آيات الصفات اتفق المسلمون على أنه يعرف معناها، والبعض الذي تنازع الناس في معناه إنما ذم السلف منه تأويلات الجهمية، ونفوا علم الناس بكيفيته: كقول مالك: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة.

وكذلك قال سائر أئمة السنة، وحينئذٍ فرق بين المعنى والمعلوم، وبين الكيف المجهول. هذه هي معظم الأقوال التي قيلت في المحكم والمتشابه.

واعلم أن المتشابه في هذه الآية من باب الاحتمال والاشتباه من قول: ﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾ أي: التبس علينا، أي يحتمل أنواعًا كثيرة من البقر، والمراد بالمحكم ما في مقابلة هذا، وهو ما لا التباس فيه ولا يحتمل إلا وجهًا واحدًا.

وقيل: إن المتشابه ما يحتمل وجوهًا، ثم إذا رُدت الوجوه إلى وجه وأبطل الباقي صار المتشابه محكمًا، فالمحكم: أبدًا أصلٌ تُرد إليه الفروع والمتشابه هو الفرع.

السلف فسروا جميع القرآن لأن التشابه نسبي إضافي.

لقد أنزل الله تعالى كتابه بلسان عربي مبين، على نبي من العرب، وخاطب به أول

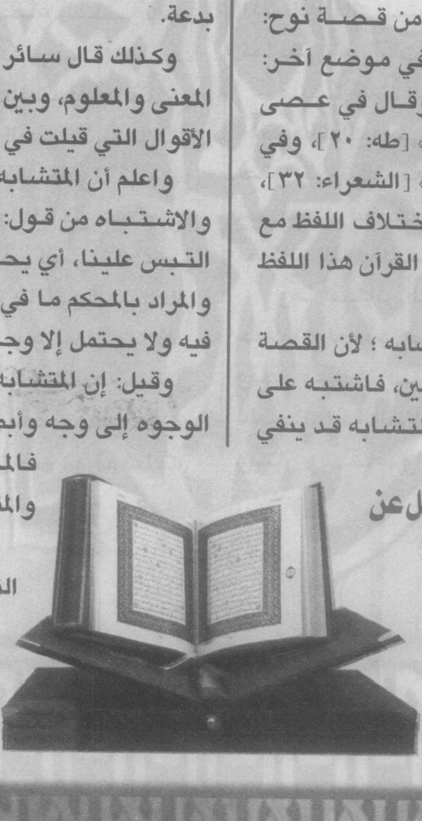

من خاطب أمة عربية، كي يكون هاديًا ومرشدًا إلى الحق، وهذا يعني أنه مفهوم لدى المخاطبين به، كي تقوم الحجة، وتنقطع المعذرة.

هذا، وقد جلّى هذه المسألة وفصلها، ورد على المخالفين لها من وجوه عدة الإمام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله، ومن ذلك قوله: «والمقصود هنا: أنه لا يجوز أن يكون الله أنزل كلامًا لا معنى له، ولا يجوز أن يكون الرسول ﷺ وجميع الأمة لا يعلمون معناه، كما يقول ذلك من يقوله من المتأخرين، وهذا القول يجب القطع بأنه خطأ، سواء كان مع هذا تأويل القرآن لا يعلمه الراسخون أو كان للتأويل معنيان: يعلمون أحدهما، ولا يعلمون الآخر.

فإن معنى الدلائل الكثيرة من الكتاب والسنة وأقوال السلف على أن جميع القرآن مما يمكن علمه وفهمه وتدبره، وهذا مما يجب القطع به، وليس معناه قاطعًا على أن الراسخين في العلم لا يعلمون تفسير المتشابه، فإن السلف قد قال كثير منهم إنهم يعلمون تأويله، منهم مجاهد - مع جلالة قدره - والربيع بن أنس، ومحمد بن جعفر بن الزبير، ونقلوا ذلك عن ابن عباس، وأنه قال: أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله.

قالوا: والدليل على ما قلناه إجماع السلف، فإنهم فسروا جميع القرآن، وقال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته أقِفُه عند كل آية وأسأله عنها، وتلقوا ذلك عن النبي ﷺ، كما قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يُقْرِئوننا القرآن: عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا.

وكلام أهل التفسير من الصحابة والتابعين شامل لجميع القرآن، إلا ما قد يُشْكل على بعضهم فيقف فيه، لا لأن أحدًا من الناس لا يعلمه، لكن لأنه هو لم يعلمه.

وأيضًا فإن الله قد أمر بتدبر القرآن مطلقًا ولم يستثن منه شيئًا لا يُتدبَّر، ولا قال: لا تدبَّروا المتشابه، والتدبر بدون الفهم ممتنع، ولو كان من القرآن ما لا يتدبر لم يعرف، فإن الله لم يجعل المتشابه مميزًا بحد ظاهر حتى يجتنب تدبره.

وهذا أيضًا مما يحتجون به، ويقولون: المتشابه أمر نسبي إضافي فقد يشتبه على هذا ما لا يشتبه على غيره، قالوا: ولأن الله أخبر أن القرآن بيان وهدى وشفاء ونور، ولم يستثن منه شيئًا عن هذا الوصف، وهذا ممتنع بدون فهم المعنى، قالوا: ولأن من العظيم أن يقال: إن الله أنزل على نبيه كلامًا لم يكن يفهم معناه لا هو ولا جبريل، بل وعلى قول هؤلاء كان النبي ﷺ يحدث بأحاديث الصفات والقدر والمعاد ونحو ذلك مما هو نظير متشابه القرآن عندهم، ولم يكن يعرف معنى ما يقوله، وهذا لا يظن بأقل الناس. وأيضًا فالكلام إنما المقصود به الإفهام، فإذا لم يقصد به ذلك كان عبثًا وباطلاً والله تعالى قد نزّه نفسه عن فعل الباطل والعبث، فكيف يقول الباطل والعبث ويتكلم بكلام ينزله على خلقه لا يريد به إفهامهم، وهذا من أقوى حجج الملحدين.

وأيضًا فما في القرآن آية إلا وقد تكلم الصحابة والتابعون لهم بإحسان في معناها وبينوا ذلك، وإذا قيل فقد يختلفون في بعض ذلك، قيل كما قد يختلفون في آيات الأمر والنهي، وآيات الأمر والنهي مما اتفق المسلمون على أن الراسخين في العلم يعلمون تفسير المتشابه، فإن المتشابه قد يكون في آيات الأمر والنهي، كما يكون في آيات الخبر.

وأيضًا فلفظ التأويل على ذلك، وهم يعلمون معنى المحكم فكذلك معنى المتشابه، وأي فضيلة في المتشابه حتى ينفرد الله بعلم معناه، والمحكم أفضل منه وقد بيَّن معناه لعباده، فأي فضيلة في المتشابه حتى يستأثر الله بعلم معناه ؟

وما استأثر الله بعلمه كوقت الساعة لم ينزل به خطابًا، ولم يذكر في القرآن آية تدل على وقت الساعة، ونحن نعلم أن الله استأثر بأشياء لم يطلع عباده عليها وإنما النزاع في كلام أنزله، وأخبر أنه هدًى وبيان وشفاء، وأمر بتدبره، ثم يقال إن منه ما لا يعرف معناه إلا الله، ولم يبين الله ولا رسوله ذلك القدر الذي لا يعرف أحد معناه. [تفسير سورة الإخلاص لشيخ الإسلام ابن تيمية، بتصرف].

والله من وراء القصد.

سورة آل عمران فضائل ولطائف

الحمد لله رب العالمين، وصلاة وسلامًا على إمام الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فنواصل بإذن الله تعالى حديثنا عن المحكم والمتشابة في القرآن الكريم فنقول:

ماذا أراد الله بإنزال المتشابه في القرآن؟

أجاب عنه ابن قتيبة في «تأويل مشكل القرآن» فقال: إن القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها، ومذاهبها في الإيجاز والاختصار والإطالة والتوكيد، والإشارة إلى الشيء، وإغماض بعض المعاني حتى لا يظهر عليه إلا اللَّقن (سريع الفهم) وإظهار بعضها، وضرب الأمثال لما خَفِيَ ولو كان القرآن كله ظاهرًا مكشوفًا حتى يستوي في معرفته العالم والجاهل، لَبَطَلَ التفاضلُ بين الناس، وسقطت المحنة، وماتت الخواطر ومع الحاجة تقع الفكرة والحيلة، ومع الكفاية يقع العجز والبلادة.

وقالوا: عَيْبُ الغِنَى أنه يورث البَلَه، وفضيلة الفقر أنه يبعث الحيلة.

وقال «أكثم بن صَيْفيّ»: ما يَسُرُّني أني مَكفِيٌّ كل أمر الدنيا. قيل له: ولم ؟ قال: أكره عادة العجز.

وكل باب من أبواب العلم: من الفقه والحساب والفرائض والنحو، فمنه ما يَجِلُّ ومنه ما يَدِقُّ، ليرتقي المتعلم فيه رُتبةً بعد رتبة، حتى يبلغ منتهاه، ويُدركَ أقصاه، ولتكون للعالم فضيلةُ النظر، وحسنُ الاستخراج، ولتقع المثوبةُ من الله على حسن العناية.

ولو كان كل فن من العلوم شيئًا واحدًا: لم يكن عالم ولا متعلم، ولا خَفيٌّ ولا جَليٌّ لأن فضائل الأشياء تُعرف بأضدادها، فالخيرُ يُعرف بالشر، والنفعُ بالضرّ، والحلو بالمر، والقليلُ بالكثير، والصغيرُ بالكبير، والباطن بالظاهر. [تأويل مشكل القرآن ص٨٦- ٨٧].

قال العلامة ابن عثيمين في الآية السابقة: «والاشتباه قد يكون اشتباهًا في المعنى، بحيث يكون المعنى غير واضح، أو اشتباهًا في التعارض، بحيث يظن الظان أن القرآن يعارض بعضه بعضًا، وهذا لا يمكن أن يكون، لأن الله عز وجل قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، والقرآن يصدق بعضه بعضًا».

والتعارض الذي يفهمه من قد يفهمه من الناس يكون للأسباب التالية:

١- إما لقصور في العلم.

٢- أو قصور في الفهم.

٣- أو تقصير في التدبر.

٤- أو سوء في القصد ؛ بحيث يظن أن القرآن يتعارض، فإذا ظن هذا الظن لم يوفق للجمع بين النصوص، فيحرم الخير لأنه ظن ما لا يليق بالقرآن.

قوله تعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾.

«الآيات»: جمع آية وهي العلامة، وكل آية في القرآن فهي علامة على مُنْزِلها لما فيها من الإعجاز والتحدي، وقوله: «محكمات» أي: متقنات في الدلالة والحكم والخبر، فأخبارها وأحكامها متقنة معلومة ليس فيها إشكال.

وقوله تعالى: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾.

يعني: أن أحكامها غير معلومة، وأخبارها غير معلومة، فصار المحكم هو المتقن في الدلالة سواء كان خبرًا أو حكمًا والمتشابه هو الذي دلالته غير واضحة سواء كان خبرًا أو حكمًا.

ولهذا نجد أن بعض الآيات لا تدل دلالة صريحة على الحكم الذي استُدلَّ بها عليه، وبعض الآيات الخبرية أيضًا لا تدل دلالة صريحة على الخبر الذي استدل بها عليه.

قال تعالى: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾:

المحكم والمتشابه

إعداد/ مصطفى البصراتي

قدَّم وصف هذه المحكمات وبيان حالها ليتبادر إلى الذهن أول ما يتبادر أنه يرد المتشابهات إلى المحكمات لأنها أمٌّ، وأمُّ الشيء مرجعه وأصله، كما قال الله تعالى: ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد: ٣٩] أي المرجع وهو اللوح المحفوظ الذي ترجع الكتابات كلها إليه، ومنه سميت الفاتحة أمَّ الكتاب، لأن مرجع القرآن إليها، فهذه المحكمات يجب أن ترد إليها المتشابهات.

ينقسم الناس بالنسبة إلى هذه المتشابهات إلى قسمين:

١- قسم يتبعون المتشابه ويضعونه أمام الناس ويعرضونه عليهم فيقولون: كيف كذا وكيف كذا؟

٢- وقسم آخر يقولون: آمنا به كل من عند ربنا، فإذا كان من عند ربنا فلا يمكن أن يتناقض، ولا يمكن أن يتخالف، بل هو متحد متفق، فيرد المتشابه منه إلى المحكم، ويكون جميعه محكمًا.

وقوله: ﴿ ...الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾: الزيغ: بمعنى الميل، من قولهم: زاغت الشمس إذا مالت عن كبد السماء (أي وسط السماء).

أي: في قلوبهم ميل عن الحق، فهم لا يريدون الحق، وإنما يتبعون المتشابه، فتجدهم - والعياذ بالله - يأخذون آيات القرآن التي فيها اشتباه حتى يضربوا بعضها ببعض وما أكثر هؤلاء، ليصدوا عن سبيل الله ويشككوا الناس في كلام الله عز وجل، وأما الذين ليس في قلوبهم زيغ وهم الراسخون في العلم الذين عندهم من العلم ما يتمكنون به أن يجمعوا بين الآيات المتشابهة، وأن يعرفوا معناها، فهؤلاء لا يكون عندهم هذا التشابه، بل يقولون: ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾، فلا يرون في القرآن شيئًا متعارضًا متناقضًا.

وكل أهل البدع من الرافضة والخوارج والمعتزلة والجهمية وغيرهم كلهم اتبعوا ما تشابه منه، لكن مستقل ومستكثر، فهؤلاء يتبعون ما تشابه لهذين الفرضين أو لأحدهما:

١- «ابتغاء الفتنة» أي: صد الناس عن دين الله؛ لأن الفتنة بمعنى الصد عن دين الله، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ [البروج: ١٠]، فتنوهم: يعني صدوهم عن دين الله.

٢- «وابتغاء تأويله»، أي: طلب تأويله لما يُريدُون، فهُم يُفسِّرونه على مرادهم لا على مراد الله.

قال أبو بكر الأنباري: وقد كان الأئمة من السلف يعاقبون من يسأل عن تفسير الحروف المشكلات في القرآن ؛ لأن السائل إن كان يبغي بسؤاله تخليد البدعة وإثارة الفتنة فهو حقيق بالنكير وأعظم التعزير، وإن لم يكن ذلك مقصده فقد استحق العتب بما اجترم من الذنب، إذ أوجد للمنافقين الملحدين في ذلك الوقت سبيلاً إلى أن يقصدوا ضعفة المسلمين بالتشكيك والتضليل في تحريف القرآن عن مناهج التنزيل وحقائق التأويل.

قال القرطبي وهو ينقل كلام أبي بكر الأنباري: فمن ذلك ما ذكر عن سليمان بن يسار أن صبيغ بن عسل قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن وعن أشياء، فبلغ عمر - رضي الله عنه - فبعث إليه عمر فأحضره وقد أعد له عراجين النخل، فلما حضر قال له عمر: من أنت ؟ قال: أنا عبد الله صبيغٌ، فقال عمر رضي الله عنه: وأنا عبد الله عمر، فقام إليه فضرب رأسه بعرجون فشجه، ثم تابع ضربه حتى سال دمه على وجهه، فقال: حسبك يا أمير المؤمنين، فقد والله ذهب ما كنت أجد في رأسي، ثم إن الله تعالى ألهمه التوبة وقذفها في قلبه فتاب وحسنت توبته. وقد ذكر قصة صبيغ بن عسل القرطبي في تفسير سورتي البقرة والذاريات، ونقل رحمه الله في الذاريات أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه سأله ابن الكواء فقال: يا أمير المؤمنين: ما ﴿ الذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴾، قال: ويلك، سل تفقُّهًا ولا تسأل تعنتًا، «والذاريات: الرياح».

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

مختارات من علوم القرآن

سورة آل عمران

فضائل ولطائف

إعداد / مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، أما بعد:

فما زال حديثنا متصلاً حول «المحكم والمتشابه» في القرآن الكريم، فنقول- وبالله تعالى التوفيق-:

قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ «آل عمران».

اختلف السلف في الوقف عليها، فأكثر السلف على الوقف في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾، ثم نبتدئ فنقول: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾، وعلى هذا تكون الواو في ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ للاستئناف، و«الراسخون»: مبتدأ، وجملة «يقولون» خبر المبتدأ، ويصبح المعنى: أن هذا المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله عز وجل، وأما الراسخون في العلم الذين لم يعلموا تأويله فيقولون: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾، وليس في كلام ربنا تناقض ولا تضارب، فيسلِّمون الأمر إلى الله عز وجل لأنه هو العالم بما أراد.

وينقسم الناس إذن إلى قسمين:

١- ﴿الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾.

٢- ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾.

ووصل بعض السلف ولم يقف، فقرأ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ فتكون الواو للعطف، والراسخون: معطوفة على لفظ الجلالة، أي: لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم، بخلاف الذين في قلوبهم زيغ، فهؤلاء لا يعلمون، والحقيقة أن ظاهر القراءتين التعارض؛ لأن:

القراءة الأولى: تقتضي أنه لا يعلم تأويل هذا المتشابه إلا الله.

والقراءة الثانية: تقتضي أن هذا المتشابه يعلم تأويله الله والراسخون في العلم.

فيكون ظاهر القولين التعارض، ولكن الصحيح أنه لا تعارض بينهما، وأن هذا الخلاف مبني على الاختلاف في معنى التأويل في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾، فإن كان المراد بالتأويل التفسير فقراءة الوصل أولى، لأن الراسخين في العلم يعلمون تفسير القرآن المتشابه، ولا يخفى عليهم، لرسوخهم في العلم، وبلوغهم عمقه، لأن الراسخ في الشيء هو الثابت فيه المتمكن منه فهم لتمكنهم وثبوت أقدامهم في العلم وتعمقهم فيه يعلمون ما يخفى على غيرهم.

أما إذا جعلنا التأويل بمعنى العاقبة والغاية المجهولة، فالوقف على «إلا الله» أولى؛ لأن عاقبة هذا المتشابه وما يؤول إليه أمره مجهول لكل الخلق.

والتأويل يكون بمعنى التفسير، وبمعنى العاقبة المجهولة التي لا يعلمها إلا الله، وكلا المعنيين موجود في القرآن؛ فمن الأول: قول أحد صاحبي السجن ليوسف عليه السلام: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ «يوسف: ٣٦» أي: بتفسير هذه الرؤية ما معناها؟ ففسرها، ومن ذلك قول الرسول ﷺ في ابن عباس: «اللهم فقه في الدين، وعلمه التأويل». رواه أحمد بإسناد صحيح، كما قال الشيخ أحمد شاكر. أي تفسير الكلام ومعرفة معناه.

ومن الثاني: قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ «الأعراف: ٥٣».

فقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ﴾ يعني: عاقبته التي وعدوا بها.

ومنه كذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ «النساء: ٥٩»، يعني: أحسن عاقبة ومآلاً.

فائدة: اعلم أن كثيرًا من الناس الذين يتكلمون في العقائد فسروا المتشابه بآيات الصفات. قالوا: إن المتشابهات هن آيات الصفات، ولكن لا شك أن تفسير المتشابهات بآيات الصفات على الإطلاق ليس بسديد، لأن آيات الصفات معلومة مجهولة، فهي من حيث المعنى معلومة، ولا يمكن أن يخاطبنا الله عز وجل ويحدثنا عن نفسه بأمر مجهول لا نستفيد منه، وليس هو بالنسبة إلينا إلا كنسبة الحروف الهجائية التي ليس فيها معنى، هذا غير ممكن إطلاقًا، نعم، هي مجهولة من جهة أخرى وهي الحقيقة والكيفية التي هي عليها، فهذا مجهول لنا، لا نعلم كيف يد الله، ولا ندرك حقيقتها، ولا نعلم وجه الله، ولا ندرك حقيقته، ولا ندرك حقيقة علم الله عز وجل، ولا ندرك كل صفاته ولا ندرك حقائقها، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ «طه: ١١٠». فمن زعم أن آيات الصفات من المتشابه على سبيل الإطلاق فقد أخطأ، والواجب التفصيل، فنقول: إن أردت بكونها من المتشابه تشابه الحقيقة التي هي عليها فأنت مصيب، وإن أردت بالمتشابه المعنى، وأن معناها مجهول لنا فأنت مخطئ غاية الخطأ، وقد ذهب إلى هذا من قال: إن آيات الصفات وأحاديثها مجهولة لا نعلمها، لا يعلمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا ابن مسعود ولا ابن عباس ولا فقهاء الصحابة ولا فقهاء التابعين ولا أئمة الإسلام، كلهم لا يدرون معناها، نقول لهم: ما معنى استوى على العرش؟ فيقول: الله أعلم، ما معنى ﴿يَدُ اللَّهِ﴾ «المائدة: ٦٤»، ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ «المائدة: ٦٤»؟ يقول: الله أعلم، ما معنى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ «الرحمن: ٢٧»؟ يقول: الله أعلم، فكل ما يتعلق بصفات الله يقول: الله أعلم. والغريب أن هذا القول في غاية السقوط، وإن كان بعض الناس يظن أنه مذهب أهل السنة أو أنه مذهب السلف، حتى أدى بهم الأمر إلى هذه الكلمة الكاذبة: «طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم واحكم»، وهذه القضية من أكذب القضايا؛ أن تكون طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم، لكن نقول: «طريقة السلف أسلم وأعلم وأحكم».

فمن الناس من يظن أن مذهب السلف هو التفويض؛ أي عدم معرفة المعنى وعدم الكلام به، حتى رسول الله ﷺ على زعمهم يقول: «يضحك الله إلى رجلين أحدهما يقتل الآخر، كلاهما يدخل الجنة». البخاري.

لو سألته وقلت: يا رسول الله، ما معنى يضحك؟ قال: لا أدري! وقوله: «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر». لو سألته: ما معنى ينزل؟ قال: لا أدري!

هكذا زعموا! وهو أمرٌ يدعو للعجب، وزعمٌ بعيدٌ عن الصواب.

إذن نقول: آيات الصفات من المتشابه في الحقيقة والكيفية التي هي عليها؛ لأن الإنسان بشر لا يمكن أن يدرك هذه الصفات العظيمة، لكن في المعنى محكمة معلومة لا تخفى على كل أحد، كلنا يعرف ما معنى العلم، كلنا يعرف ما معنى الاستواء، كلنا يعرف ما معنى الوجه، وما معنى اليد.. لهذا قال الإمام مالك رحمه الله قوله المشهور: «الاستواء غير مجهول (أي معلوم)، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة». «رواه اللالكائي في شرح السنة، وقال الحافظ في الفتح: إسناده جيد».

فمثلاً: نحن نعلم معنى «العين»، لكن حقيقة عين الله وكيفيتها غير معلومة، عين المخلوق معروفة مكونة من طبقات متعددة ومن عروق، ومن كذا... لكن عين الله لا يمكن أن نقول فيها هكذا لأنها مجهولة لنا، إذن حقيقتها غير معلومة، لكن معنى العين وهي التي يحصل بها النظر والرؤية أمر معلوم.

وكذا يد الله عز وجل، فاليد معروفة، والأصابع معروفة، والقبض باليد معروف، والأخذ باليد معروف، لكن حقيقة هذه اليد وكيفيتها بالنسبة لله عز وجل لا نستطيع أن نتكلم فيها، ومن ادعى العلم بها فهو كاذب.

وقوله: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ أي: صدّقنا به، بالمحكم والمتشابه، فإيمانهم به هو التسليم، ولهذا قال فيه: ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾، ولا يمكن أبدًا أن يكون فيه تعارض أو تناقض.

في هذه الآية قسَّم الله القرآن إلى قسمين، ولكنه في موضع آخر جعله قسمًا واحدًا، فقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ «الزمر: ٢٣».

وقال في آية أخرى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ «يونس: ١». وقال: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ «هود: ١».

ولم يذكر التشابه، وهذا أيضًا من التشابه، فكيف يوصف القرآن بأوصاف ظاهرها التعارض؟

فالراسخون في العلم يعلمون أنه لا تعارض، فيقولون: المتشابه الذي وصف به القرآن غير مقرون بالمحكم، فيراد به التشابه في الكمال والجودة والهداية فهو متشابه أي: كل آياته متشابهة، كلها كاملة البلاغة، كلها كاملة في الخير، كاملة في الأمر والنهي، فهي متشابهة من حيث الكمال والجودة والإحكام والإخبار وغير ذلك.

وإذا ذكر محكم بغير ذكر المتشابه فالمعنى: أنه واضح متقن، ليس فيه تناقض ولا تعارض، ولا كذب في خبر، ولا جور في حكم، فيحمل الإحكام على معنىً، والتشابه على معنى آخر.

قال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ «آل عمران». أي: لا يتعظ وينتفع بالقرآن إلا أولو الألباب، أي إلا أصحاب العقول لأن الألباب جمع لُب، واللب هو العقل، والمراد بالعقل هنا عقل الإدراك الذي ضده الجنون، وعقل التصرف الذي ضده السفه.

فالذي يتذكر بالقرآن هو الإنسان الذي أعطاه الله عقلاً يدرك به الأشياء وأعطاه الله رشدًا يحسن به التصرف، وأما من لم يعطه عقلاً يحسن به التصرف وهو العقل المضاد للسفه فهو لا ينتفع بالقرآن.

الحكمة في جعل القرآن ينقسم إلى محكم ومتشابه:

ووجه الحكمة أنه بهذا يحصل الابتلاء والامتحان، فالمؤمن لا يضل بهذا الانقسام، والذي في قلبه زيغ يضل، فكما أن الله يمتحن العباد بالأوامر والنواهي فهو يمتحنهم أيضًا بالأدلة، فيجعل هذا محكمًا وهذا متشابهًا، ليتبين المؤمن من غير المؤمن، ولو كان القرآن كله محكمًا لم يحصل الابتلاء، ولو كان متشابهًا لم يحصل البيان، والله سبحانه وتعالى جعل القرآن بيانًا وجعله محكمًا متشابهًا للاختبار والامتحان.

والله من وراء القصد

مختارات من علوم القرآن

سورة آل عمران

فضائل ولطائف

إعداد / مصطفى البصراتي

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الصادق الوعد الأمين، صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على طريقته وانتهج نهجه إلى يوم الدين، أما بعد:

فما يزال حديثنا متصلاً حول فضائل سورة «آل عمران» ولطائفها، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

المراد بالراسخين في العلم

والمراد بالراسخين في العلم: الذين تمكنوا في علم الكتاب، ومعرفة محامله، وقام عندهم من الأدلة ما أرشدهم إلى مراد الله تعالى، بحيث لا تروج عليهم الشبه.

والرسوخ في كلام العرب: الثبات والتمكن في المكان، يقال: رسخت القدم ترسخ رسوخًا إذا ثبتت عند المشي ولم تتزلزل، واستعير الرسوخ لكمال العقل والعلم بحيث لا تضلله الشبه، ولا تتطرق إليه الأخطاء غالبًا، وشاعت هذه الاستعارة حتى صارت كالحقيقة.

فالراسخون في العلم: الثابتون فيه العارفون بدقائقه، فهم يحسنون مواقع التأويل ويعلمونه.

والله سبحانه وتعالى أثبت للراسخين في العلم فضيلة، ووصفهم بالرسوخ، فآذن بأن لهم مزية في فهم المتشابه، لأن المحكم يستوي في علمه جميع من يفهم الكلام، وحكى إمام الحرمين عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في هذه الآية: «أنا ممن يعلم تأويله».

والراسخون في العلم يعلمون أن الذي يكون من عند الله لا يكون فيه تناقض، لقوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾.

من فوائد الآية الكريمة ولطائفها

١- أن هذا القرآن كلام الله، لقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾، ولا يَرِدُ مثل قوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ (الحديد: ٢٥) وقوله: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ (الأنعام: ٩٩) لأن الكلام صفة لا تقوم بذاتها، لا تقوم إلا بمتكلم، بخلاف الحديد والماء فإنهما عين قائمة بنفسها، فتكون مخلوقة، وأما القرآن فليس بمخلوق، لأنه صفة الخالق عز وجل، والمخلوق شيء بائن عن الخالق منفصل عنه.

٢- إثبات علو الله عز وجل، لقوله: ﴿ أَنْزَلَ ﴾ والإنزال لا يكون إلا من أعلى إلى أسفل، فإذا كان القرآن كلامه ونزل فالله تعالى فوق، وهو كذلك، ومذهب أهل السنة والجماعة بل مذهب الرسل كلهم أن الله تعالى فوق كل شيء، ألم تروا إلى فرعون قال: ﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾ (غافر: ٣٦-٣٧) وهذا يدل على أن موسى قال له: إن الله فوق.

فالعلو لله عز وجل ثابت بخمسة أنواع من الأدلة: الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة.

أما الكتاب

فأدلته أكثر من أن تحصى، أدلة متنوعة تارة بذكر

العلو نحو قوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ (الأعلى: ١).

وتارة بذكر الفوقية: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (النحل: ٥٠).

وتارة بنزول الأشياء نحو قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٩٩).

وتارة بصعود الأشياء: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر: ١٠).

وتارة بذكر كونه في السماء كما في آيتي سورة الملك: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ﴾ ،﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ (الملك: ١٦، ١٧).

وأما السنة

فمتواترة في علو الله، ومتنوعة، فتارة بقول الرسول، وتارة بفعله، وتارة بإقراره.

أما قوله: فكان يقول في كل صلاة: «سبحان ربي الأعلى». (رواه مسلم كتاب صلاة المسافرين).

وأما فعله: فقد أشار إلى السماء غير مرة، يشير إلى السماء في الدعاء، يرفع يديه إلى السماء. (أخرجه البخاري، كتاب الفتن).

وأشار إلى السماء حين أشهد ربه على أمته أنهم أقروا بإبلاغه الرسالة في حجة الوداع في يوم عرفة. (أخرجه مسلم كتاب الحج). في أكبر مجمع للمسلمين في عهد الرسول ﷺ .

وأما إقراره: فسأل الجارية: «أين الله؟» قالت: في السماء. قال: «اعتقها فإنها مؤمنة». (قصة الجارية أخرجها مسلم، كتاب المساجد).

وأما الإجماع

فقد أجمع السلف من الصحابة والتابعين وأئمة الهدى بعدهم على أن الله تعالى فوق كل شيء، ولم يُنقل عن واحد منهم أنه قال: إن الله في كل مكان، ولا أنه قال: إن الله لا يوصف بأنه فوق العالم ولا تحته، ولا داخله ولا خارجه، ولا متصل ولا منفصل.

وأما العقل:

فإننا لو سألنا أي إنسان: ماذا تقول في العلو ؟ أهو صفة كمال أو نقص ؟ لقال: هو صفة كمال، والعقل يقول: كل صفة كمال فهي ثابتة لله عز وجل، فيثبت العلو لله بدلالة العقل من هذه الناحية.

وأما الفطرة

فحدث ولا حرج، الإنسان الذي لم يتعلم ولا يدري عن كلام العلماء في هذا إذا سأل الله يرفع يديه إلى السماء، وما رأينا أحدًا لما أراد أن يدعو ركز يديه إلى الأرض، ولا ذهب يمينًا ولا يسارًا، بل يرفعهما إلى السماء، ولهذا استدل أبو العلاء الهمداني على أبي المعالي الجويني بهذا الدليل الفطري حتى إن الجويني لم يتمالك أن صرخ وضرب على رأسه وقال: حيرني، لأن أبا المعالي الجويني رحمه الله كان يحدث الناس، ويقول: كان الله ولا شيء، وهذا صحيح، لأن الله هو الأول الذي ليس قبله شيء، ويقول: وهو الآن على ما كان عليه!!

وهذه الكلمة موهمة. يعني: غير مستوٍ على العرش، لأن العرش لم يكن وقد كان الله ولا شيء، وهو الآن على ما كان عليه، إذن فلم يستو على العرش. فقال أبو العلاء الهمذاني: يا أستاذ، دعنا من ذكر العرش، لأن الاستواء على العرش دليله غير عقلي بل دليله سمعي، فلولا أن الله أخبرنا أنه استوى على العرش ما علمنا ذلك، أخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في نفوسنا، ما قال عارف قط: يا الله، إلا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو.

فصرخ أبو المعالي، وضرب على رأسه، وقال: حيرني!! لأنه لا يجد جوابًا عن هذه الفطرة.

فعلو الله- ولله الحمد - دلَّ عليه الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة.

٣- أنه لا يتذكر بهذا القرآن ولا بغيره إلا أصحاب العقول لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ﴾.

٤- أنه كلما ازداد الإنسان عقلاً ازداد تذكرًا بكلام الله عز وجل، وكلما نقص تذكره بالقرآن دلَّ على نقص عقله، لأنه إذا كان الله حصر التذكر بأولي الألباب، فإنه يقتضي انتفاء هذا التذكر عمَّن ليس عنده لبٌ.

٥- أن العقل غير الذكاء ؛ لأننا نجد كثيرًا من الناس أذكياء، ولكن لا يتذكرون بالقرآن، وهؤلاء لا نسميهم عقلاء، لكن الذي انتفى عنهم من العقل هو عقل التصرف والرشد، أما الإدراك فهم يدركون، ولهذا تقوم عليهم الحجة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مختارات من علوم القرآن

سورة آل عمران

فضائل و لطائف

إعداد / مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فنكمل حديثنا حول فضائل سورة آل عمران، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

اللطيفة الرابعة

في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

هذه سبعة: النساء، والبنون، والقناطير من الذهب والفضة، والخيل المسومة، والأنعام، والحرث.

قال القرطبي: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ زُيِّن من التزيين، واختلف الناس من المُزيِّن، فقالت فرقة: الله تعالى زَيَّن ذلك، وهو ظاهر قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ذكره البخاري، وفي التنزيل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾.

وقالت فرقة: المزين هو الشيطان، وهو ظاهر قول الحسن، فإنه قال: من زينها؟ ما أحد أشد لها ذما من خالقها، فتزيين الله تعالى - إنما هو بالإيجاد والتهيئة للانتفاع وإنشاء الجبلة على الميل إلى هذه الأشياء، وتزيين الشيطان إنما هو بالوسوسة والخديعة وتحسين أخذها من غير وجوهها.

والآية على كلا الوجهين ابتداء وعظ لجميع الناس، وفي ضمن ذلك توبيخ لمعاصري النبي محمد ﷺ من اليهود وغيرهم. اهـ.

أما رأي جمهور أهل العلم فهو أن الذي زينها هو الله سبحانه وتعالى، وهو الصحيح لقول الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٧].

ويشهد لذلك أيضًا قول رسول الله ﷺ: «لما خلق الله الجنة قال لجبريل: اذهب فانظر إليها فذهب فنظر إليها، ثم جاء فقال: أي رب وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، ثم حفّها بالمكاره، ثم قال: يا جبريل: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، ثم جاء فقال: أي رب وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد.

قال: فلما خلق الله النار قال: يا جبريل، اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، ثم جاء فقال: أي ربِّ وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها، فحفها بالشهوات، ثم قال: يا جبريل، اذهب فانظر إليها فذهب فنظر إليها، ثم جاء فقال: أي ربِّ وعزتك لقد خشيت ألا

يبقى أحد إلا دخلها». رواه أبو داود والترمذي والنسائي وأحمد بإسناد حسن.

قال ابن عثيمين رحمه الله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾: أي جعلت هذه الأشياء مزينة في قلوبهم، والمزين هو الله، وقد أضاف الله التزيين إلى نفسه في عدة آيات: قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾

[الأنعام: ١٠٨]،

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل: ٤].

وأضاف التزيين إلى الشيطان، فقال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [النمل: ٢٤].

لكن تزيين الشيطان إنما كان بالنسبة لأعمال هؤلاء، يعني: زين لهم الأعمال، أما الأشياء المخلوقة فالذي يزينها هو الله عز وجل ابتلاءً واختبارًا، لأنه لولا تزيين هذه الأشياء في قلوب الناس ما عرف المؤمن حقًا.

لو كان الإنسان لا يهتم بمثل هذه الأمور، لم يكن ما يصده عن دين الله. فإذا ألقي في قلبه حب هذه الشهوات، فإن قويَّ الإيمان لا يقدمها على محبة الله عز وجل، ألم تروا إلى قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله». رواه البخاري.

وهذا ممن يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، والمرأة ذات المنصب والجمال هي من أشد ما يتعلق به الإنسان في النساء، ودعته في موضع خالٍ ليس فيه أحد، لكن قال: إني أخاف الله، فالموانع منتفية، وأسباب الفاحشة موجودة متوفرة، ومع ذلك قال: إني أخاف الله. إذن فهذا التزيين ابتلاءً واختبار من الله عز وجل.

كيف نجمع بين قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [آل عمران: ١٤]، وبين قول النبي ﷺ: «حُبِّبَ إليَّ من دنياكم الطيب والنساء». (أخرجه أحمد والنسائي والحاكم وصححه وحسنه الحافظ في التلخيص).

ولا تعارض أصلاً بين الآية الكريمة والحديث الشريف، فالآية الكريمة لا تفيد تحريم المذكور فيها، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وقال النبي ﷺ: «الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة». [رواه مسلم].

ولذلك قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ ولم يقل حب النساء، يعني: أن يتزوج الإنسان المرأة لمجرد الشهوة، لا لأمر آخر، ولهذا لا يدخل في هذا رسول الله ﷺ، ولا يقال: إنه ممن زين له حب الشهوات، لأنه ﷺ لم يتزوج امرأة بكرًا سوى عائشة رضي الله عنها، ولو كان يريد الشهوة لاختار الأبكار الجميلات، ولا يمنعه مانع من ذلك، ولكنه قال: «حُبب إليَّ من دنياكم: النساء، والطيب»، لما في اختيار النساء من قِبَلِهِ عليه الصلاة والسلام من المصالح العظيمة، كاتصاله بالناس وقبائل العرب، وكذلك نشر العلم عن طريق النساء، لاسيما العلوم البيتية التي لا يطلع عليها إلا النساء، إلى غير ذلك من المصالح، لأن تزيين حب النساء إذا كان لغير مجرد الشهوة قد يحمد عليه الإنسان، لكن إذا كان لمجرد الشهوة فهذا من الفتنة، ولهذا قال: ﴿حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾.

قال ابن القيم رحمه الله: أخبر سبحانه أن هذا الذي زين به الدنيا من ملاذها وشهواتها، وما هو غاية أماني طلابها ومؤثريها على الآخرة، وهو سبعة أشياء:

النساء اللاتي هن أعظم زينتها وشهواتها وأعظمها فتنة، والبنون الذين بهم كمال الرجل وفخره وكرمه وعزه، والذهب والفضة اللذان هما مادة الشهوات على اختلاف أجناسها وأنواعها، والخيل المسومة التي هي عزّ أصحابها وفخرهم وحصونهم، وآلة قهرهم لأعدائهم في طلبهم وهربهم، والأنعام التي منها ركوبهم وطعامهم ولباسهم وأثاثهم وأمتعتهم، وغير ذلك من مصالحهم. والحرث الذي هو مادة قُوتهم وقُوت أنعامهم ودوابهم وفاكهتهم وأدويتهم وغير ذلك.

ثم أخبر سبحانه أن ذلك كله متاع الحياة الدنيا، ثم شوق عباده إلى متاع الآخرة، وأعلمهم أنه خير من هذا المتاع، وأبقى فقال: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ

تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ١٥].

ثم ذكر سبحانه من يستحق هذا المتاع ومن هم أهله الذين هم أولى به، فقال: ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران: ١٦، ١٧].

فأخبر سبحانه أن ما أعد لأوليائه المتقين من متاع الآخرة خير من متاع الدنيا، وهو نوعان: ثواب يتمتعون به، وأكبر منه وهو رضوانه عليهم.

من فوائد الآية الكريمة

١- حكمة الله عز وجل في ابتلاء الناس بتزيين حب الشهوات لهم في هذه الأمور السبعة:

ووجه الحكمة: أنه لولا هذه الشهوات التي تنازع الإنسان في اتجاهه إلى ربه لم يكن للاختبار في الدين فائدة، فلو كان الإنسان لم يغرس في قلبه أو في فطرته هذا الحب لم يكن في الابتلاء في الدين فائدة، لأن الانقياد إلى الدين إذا لم يكن له منازع يكون سهلاً ميسرًا، ولهذا أول من يستجيب إلى الرسل الفقراء الذين - غالبًا - حُرموا من الدنيا؛ لأنه ليس لديهم شيء ينازعهم لا مال ولا رئاسة ولا غير ذلك.

٢- أنه لا يذم من أحب هذه الأمور على غير هذا الوجه، وهو محبة الشهوة وذلك لأنه إذا زينت له محبة هذه الأمور لا لأجل الشهوة لم يكن ذلك سببًا لصده عن دين الله، لأن أكثر ما يفتن الإنسان الشهوة إذا لم يكن هناك شبهة، فإن كان هناك شبهة واجتمع عليه شبهة وشهوة حصلت له الفتنتان.

ويدل على ذلك أن النبي ﷺ قال: «حبب إليَّ من دنياكم النساء والطيب».

ويدل لذلك أيضًا أن النبي ﷺ رغَّب في النكاح وحثَّ عليه وأمر به الشباب، والنبي ﷺ حث على تزوج المرأة الولود، والولود كثيرة الولادة، وإذا كانت ولودًا كثر نسلها، ومن نسلها البنون، فالمهم أن محبة هذه الأشياء لا من أجل الشهوة أمر لا يذم عليه الإنسان.

٣- قوة التعبير القرآني، وأنه أعلى أنواع الكلام في الكمال، ولهذا قال: «حب الشهوات ولم يقل: حب النساء، أو حب البنين، أو حب القناطير المقنطرة، بل قال: حب الشهوات من هذه الأشياء، فسلط الحب على الشهوات، لا على هذه الأشياء لأن هذه الأشياء حبها قد يكون محمودًا.

٤- تقديم الأشد فالأشد، ولهذا قدَّم النساء، ففتنة شهوة النساء أعظم فتنة، ولهذا قال النبي ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء». [أخرجه البخاري ومسلم].

ولهذا بدأ بها فقال: «من النساء».

٥- أن البنين قد يكونون فتنة، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]، والأولاد أعم من البنين.

٦- أنه كلما كثر المال كانت الفتنة في شهوته، لقوله: ﴿ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ﴾، ولهذا نجد بعض الفقراء يجود بكل ماله، والغني لا يجود بكل ماله، بل بعض الأغنياء- نسأل الله العافية - يُبْتَلَوْنَ كلما كثر مالهم اشتد بخلهم ومنعهم.

٧- التزهيد في التعلق بهذه الأشياء ؛ لقوله: ﴿ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾، وكل ما كان للدنيا فلا ينبغي للإنسان أن يتبعه نفسه لأنه زائل، فلا تتبع نفسك شيئًا من الدنيا إلا شيئًا تستعين به على طاعة الله تعالى، وأنت سوف تنال منه ما يناله من أتبع نفسه متاع الحياة الدنيا للدنيا، فمثلاً: الطعام، من الناس من يأكله لأجل أن يحفظ بدنه امتثالاً لأمر الله، واستعانة به على طاعة الله، فيؤجر على ذلك، ومن الناس من يأكله لمجرد شهوة ليملأ بطنه، فَيُحْرَمُ لهذا الأَجْرَ لأنه نوى به مجرد الشهوة فقط.

٨- -تنقيص هذه الحياة ؛ لقوله: ﴿ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فوالله إنها لناقصة؛ إنَّ دارًا لا يدري الإنسان إقامته فيها، وإن دارًا لا يكون صفوها إلا منغصًا بكدر، وإن دارًا فيها الشحناء والعداوة والبغضاء بين الناس وغير ذلك من المنغصات، إنها لدنيا.

٩- أن ما عند الله خير من هذه الدنيا ؛ لقوله: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾، فذكر ذلك من أجل ترغيب الإنسان فيما عند الله عز وجل، وألا يتعلق بمتاع الحياة الدنيا.

رمضان شهر القرآن

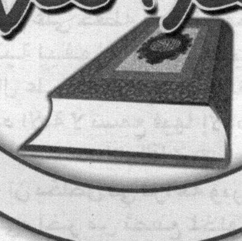

إعداد / مصطفى البصراتي

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على نبينا محمد خاتم النبيين وإمام المتقين، المبعوث رحمة للعالمين، وقدوة للعاملين، وحجة على العباد أجمعين.

أما بعد: فإن الله بعث محمدًا ﷺ بأكمل الأديان وأقومها بمصالح العباد وأنفعها لهم في المعاش والمعاد، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩].

ومن ثم ختم الله به الأديان، وجعله صالحًا لكل زمان ومكان، ومصلحًا لشئون الناس الدينية والدنيوية المجتمعية والفردية.

وكانت الأركان التي بني عليها الدين الإسلامي متنوعة التكليف، فمنها الأعمال البدنية المحضة، ومنها الأعمال المالية المحضة، ومنها الأعمال الجامعة بين البدنية والمالية، ومنها ما يكون المطلوب فيها فعلاً، ومنها ما يكون المطلوب فيها كفًا عن محبوب، نوعت هذا التنويع ليشمل الدين جميع أنواع العمل والتكليف فيتم فيه التعبد لله تعالى من كل وجه، وتهذيب النفوس وتعويدها على طاعة الله من كل ناحية.

وكان من دعائم الإسلام وأركانه صيام شهر رمضان كما في الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان». هذا لفظ البخاري، وفي لفظ لمسلم: «وصيام رمضان والحج»، فقال رجل: والحج وصيام رمضان، قال ابن عمر: لا، صيام رمضان، هكذا سمعته من رسول الله ﷺ، وإنما خص الله الصوم بشهر رمضان في هذه الملة، لأنه الشهر الذي نزل فيه القرآن، الذي هو أعظم كتاب سماوي نزل لهداية البشر، وإصلاح دينهم ودنياهم، وسيرهم إلى ربهم، ومعاملتهم فيما بينهم، وهو الكتاب الذي لا يصلح الخلق إلا التمسك به.

لقد أكرم الله هذه الأمة بالقرآن الذي فيه نبأ ما قبلها، وخبر ما بعدها، وحكم ما بينها، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، والذكر الحكيم والصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به ألسنة الضعفاء، ولا يشبع منه العلماء، لا يُخْلَقُ عن كثرة الرد، ولا تنتهي عجائبه، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم.

وقد وصفه الله عز وجل بأوصاف عظيمة منها أنه هدى للمتقين: ﴿ الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾، وهو هدى للناس: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾، كما وصفه الله عز وجل بأنه روح تحيا به القلوب، ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾، وهو الذي يهدي للطريق المستقيم ويحمل البشارات العظيمة: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾، وهو الفرقان والنذير: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾، كما وصفه الله عز وجل بأنه شفاء وهدى ورحمة: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

ورتب الله عز وجل الأجر العظيم والثواب الجزيل لمن تعلم القرآن وعلمه، وجعلهم خيرة هذه الأمة، قال ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه». [رواه البخاري].

وقال عليه الصلاة والسلام: «من قرأ حرفًا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ألم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف». رواه الترمذي وقال: حديث صحيح. وقد تسابق المتسابقون لهذا الفضل العظيم والأجر الجزيل وتطلعت النفوس إلى قراءته وحفظه

وتطبيق أحكامه والعبرة بما فيه من قصص ومواعظ. فترك العلماء قراءة الحديث وتعليم العلم في رمضان وأقبلوا على المصحف وكان منهم من يختم كل ثلاث ليال مرة، وبعضهم كل ليلتين مرة، وآخرون لهم في كل ليلة ختمة، والسنة أن يختم القرآن في كل شهر مرة. [رواه البخاري من حديث عبد الله بن عمرو].

وهذا القرآن سهلٌ قراءته، سريعٌ حفظه، ميسرٌ فهمه، قال الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾، وتأمل في حال الصغار وكيف يسره عليهم قراءة وتلاوة وحفظًا.

قال ابن القيم: هجر القرآن أنواع: هجر سماعه والإيمان به، وهجر العمل به، وهجر تدبره، وهجر الاستشفاء به في أمراض القلوب والأبدان، وهذا داخل في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: والمطلوب في القرآن هو فهم معانيه والعمل به، فإن لم يكن هذه همة حافظه لم يكن من أهل العلم والدين.

ومن أحسن صُحبة القرآن وتلاوته وتدبر معانيه وتطبيق أحكامه فإن القرآن يصحبه حتى يقوده إلى الجنة في درجاتها العليا، كما في الحديث أن النبي ﷺ قال: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها». رواه أبو داود وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨١٢٢).

وإذا أردت - أخي القارئ - الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾.

قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام ربكم.

وقال الحسن البصري - في نصيحة غالية-: يا ابن آدم، والله إن قرأت القرآن ثم آمنت به ليطولن في الدنيا حزنك، وليشتدن في الدنيا خوفك، وليكثرن في الدنيا بكاؤك.

أما حال المنافقين والكسالى فإن حالهم كما قال أوس ابن عبد الله: «نقل الحجارة أهون على المنافقين من قراءة القرآن».

فاحرص أخي المسلم - على الاستفادة من أوقاتك، والزم نفسك الجد والمثابرة، ولو رتبت لنفسك قراءة جزأين أو ثلاثة بعد كل صلاة لحصلت خيرًا عظيمًا، وإذا كانت قراءتك في المسجد فإن لك نصيبًا من حديث الرسول ﷺ: «المسجد بيت كل تقي، وتكفل الله لمن كان المسجد بيته بالروح والرحمة والجواز على الصراط إلى رضوان الله في الجنة». رواه الطبراني وصححه الألباني في الترغيب والترهيب.

ولا تقتصر همتك على ذلك، بل احرص أن تكون ذا همة عالية وممن يختم القرآن في كل ثلاث ليالٍ، فإن هذه أيام فاضلة كان السلف يغتنمونها، وليكن لك قراءة في بيتك وطريقك، واحذر مصاحبة البطالين فارغي العقول والأوقات.

وقد أوصى بعض السلف أصحابه فقال: إذا خرجتم من عندي فتفرقوا لعل أحدكم يقرأ القرآن في طريقه، ومتى تجمعتم تحدثتم.

وعلى كل من استرعاه الله رعية أن يحثهم على قراءة القرآن ويشجعهم على حفظه ويجعل لهم الجوائز القيمة والعطايا السنية ليفوز بالأجر العظيم ليكون له مثل أجورهم، فالدال على الخير كفاعله، ولتكن بيوتنا مثل بيوت سلف هذه الأمة لا تسمع فيها إلا أصوات القرآن.

آداب القارئ

يجب عليه أن يخلص في قراءته ويريد بها وجه الله تعالى دون شيء آخر من تصنع لمخلوق أو اكتساب محمدة عند الناس أو محبة أو نحو ذلك، وأن لا يقصد بها توصلاً إلى غرض من أغراض الدنيا من مال أو رياسة أو وجاهة أو ارتفاع على أقرانه أو ثناء عند الناس أو صرف وجوههم إليه ونحو ذلك.

وأن يراعي الأدب مع القرآن فيستحضر في ذهنه أنه يناجي ربه ويقرأ كتابه فيتلوه على حالة من يرى الله تعالى، فإن لم يكن يراه، فإن الله سبحانه وتعالى يراه، وذلك بأن يقدر كأنه واقف بين يدي الله تعالى، وهو ناظر إليه ومستمع منه، ويستحب له إذا أراد القراءة أن ينظف فاه بالخلال ثم السواك أو نحوه، وأن يجلس عند القراءة مستقبل القبلة مستويًا متخشعًا، ذا سكينة ووقار مطرقًا رأسه غير مسترفع ولا على هيئة التكبر.

ويُسن أن يقرأ على ترتيب المصحف، وتستحب القراءة بالترتيل وتحسين الصوت بشرط ألا تخرج عن حدود الواجب شرعًا من إخراج كل حرف من مخرجه موفى حقه ومستحقه.

ويستحب أن يكثر من البكاء عند القراءة والتباكي لمن لا يقدر عليه والحزن والخشوع وطريقة تكلف البكاء أن يحضر قلبه الحزن، فمن الحزن ينشأ البكاء، ووجه إحضار الحزن أن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود، ثم يتأمل في امتثال أوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويبكي، فإن لم يحضره حزن وبكاءٌ كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد ذلك منه فإنه من أعظم المصائب.

ويُسن أن يتعاهد القرآن ويكثر من قراءته ما أمكن في كل وقت بلا استثناء.

اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا وغمومنا وسائقنا ودليلنا إلى جناتك، جنات النعيم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مختارات من علوم القرآن

سورة آل عمران

فضائل ولطائف

إعداد / مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فما نزال نتحدث عن لطائف سورة آل عمران وفضائلها، ونتحدث هنا بعون الله تعالى عن قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].

قال شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى»: قد تنوعت عبارات المفسرين في لفظ «شهد»، فقالت طائفة منهم مجاهد والفراء وأبو عبيدة: أي حكم وقضى. وقالت طائفة منهم ثعلب والزجاج: أي بَيَّنَ. وقالت طائفة: أي أَعْلَمَ. وكذلك قالت طائفة معنى شهادة الله الإخبار والإعلام. ومعنى شهادة الملائكة والمؤمنين الإقرار.

وعن ابن عباس أنه شهد بنفسه لنفسه قبل أن يخلق الخلق حين كان، ولم يكن سماء ولا أرض، ولا بر ولا بحر، فقال: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾.

وكل هذه الأقوال وما في معناها صحيحة، وذلك أن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وقوله وخبره عما شهد به، وهذا قد يكون مع أن الشاهد نفسه يتكلم بذلك ويقوله ويذكره، وإن لم يكن معلمًا به غيره، ولا مخبرًا به سواه، فهذه أول مراتب الشهادة.

ثم قد يخبره ويعلم، فتكون الشهادة إعلامًا لغيره وإخبارًا له، ومن أخبر غيره بشيء فقد شهد به، سواء كان بلفظ الشهادة أو لم يكن، كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾.

فالشهادة هنا تضمنت مرتبتين:

إحداهما: تكلم الشاهد وقوله وذكره لما شهد في نفسه به.

والثاني: إخباره وإعلامه لغيره بما شهد به.

فمن قال: حكم وقضى فهذا من باب اللازم، فإن الحكم والقضاء هو إلزام وأمر، ولا ريب أن الله ألزم الخلق التوحيد وأمرهم به وقضى به وحكم، فقال تعالى: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾، وقال: ﴿ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾. وهذا كثير في القرآن يوجب على العباد عبادته وتوحيده، ويحرم عليهم عبادة ما سواه، فقد حكم وقضى: أنه لا إله إلا هو.

ودلالة لفظ الشهادة على ذلك: أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو فقد أخبر وبين وأعلم أن ما سواه ليس بإله فلا يعبد. وأنه وحده الإله الذي يستحق العبادة، وهذا يتضمن الأمر بعبادته والنهي عن عبادة ما سواه، فإن النفي والإثبات في مثل هذا يتضمن الأمر والنهي.

والشهادة قد تكون بالقول، وقد تكون بالفعل، وشهادة الله سبحانه وتعالى لنفسه بانفراده بالألوهية هنا، كشهادته لرسوله ﷺ بأنه أنزل عليه الكتاب بقوله: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦]، فقد شهد عز وجل هو وملائكته لنفسه بالوحدانية، ولنبيه ﷺ بالرسالة، والشهادة في الموضعين قولية.

وأما الشهادة الفعلية ففيما يظهره الله سبحانه وتعالى من آياته، فكل الكائنات تشهد لله عز وجل بالوحدانية بلسان الحال، وكذلك تأييده لنبيه ﷺ بالنصر، وجعل العاقبة له، هو شهادة الله بأنه رسول الله حقًا.

وقال ابن القيم: تضمنت هذه الآية الكريمة: إثبات حقيقة التوحيد والرد على جميع الطوائف - والشهادة ببطلان أقوالهم، ومذاهبهم.

وهذا إنما يتبين بعد فهم الآية، ببيان ما تضمنته من المعارف الإلهية، والحقائق الإيمانية.

فتضمنت هذه الآية: أجل شهادة وأعظمها، وأعدلها وأصدقها، من أجلِّ شاهد، بأجل مشهود.

وعبارات السلف في «شهد» تدور على: الحكم والقضاء، والإعلام والبيان والإخبار. قال مجاهد: حكم وقضى. وقال الزجاج: بين. وقالت طائفة: أعلم وأخبر. وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها. فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد، وخبره وقوله، وتتضمن إعلامه وإخباره وبيانه.

للشهادة أربع مراتب

فأول مراتبها: علم ومعرفة، واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته.

وثانيها: تكلمه بذلك ونطقه به، وإن لم يُعلم به غيره، بل يتكلم هو به مع نفسه، ويذكرها وينطق بها، أو يكتبها.

وثالثها: أن يُعلم غيره بما شهد به، ويخبره به، ويبينه له.

ورابعها: أن يلزمه بمضمونها، ويأمره به.

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية، والقيام بالقسط: تضمنت هذه المراتب الأربعة: علم الله سبحانه بذلك، وتكلمه به، وإعلامه، وإخباره خلقه به، وأمرهم وإلزامهم به.

أما مرتبة العلم: فإن الشهادة بالحق تتضمنها ضرورة، وإلا كان الشاهد شاهدًا بما لا علم له به. قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]،

وقال النبي ﷺ: «على مثلها فاشهد». وأشار إلى الشمس.

وأما مرتبة التكلم والخبر: فمن تكلم بشيء وأخبر به فقد شهد به، وإن لم يتلفظ بالشهادة. قال تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]، فجعل ذلك منهم شهادة، وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة، ولم يؤدوها عند غيرهم. قال النبي ﷺ: «عدلت شهادة الزور الإشراك بالله». وشهادة الزور: هي قول الزور، كما قال تعالى: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج: ٣١]، وعند هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «عدلت شهادة الزور الإشراك بالله». فسمى قول الزور شهادة، وسمى الله تعالى إقرار العبد على نفسه شهادة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [المائدة: ١٣٥].

فشهادة المرء على نفسه: هي إقرار المرء على نفسه. وفي الحديث الصحيح في قصة ماعز: «فلما شهد على نفسه أربع مرات رجمه رسول الله ﷺ».

وقال تعالى: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٣٧].

وأما مرتبة الإعلام والإخبار: فنوعان: إعلام بالقول، وإعلام بالفعل، وهذا شأن كل مسلم معلم لغيره بأمر: تارة يعلمه بقوله، وتارة بفعله.

ولهذا كان من جعل دارًا مسجدًا وفتح بابها لكل من دخل إليها، وأذن بالصلاة فيها معلمًا أنها وقف، وإن لم يتلفظ به.

وكذلك شهادة الرب جل جلاله وبيانه وإعلامه: يكون بقوله تارة، وبفعله تارة أخرى.

فالقول: هو ما أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، مما قد علم بالاضطرار: أن جميع الرسل أخبروا عن الله أنه شهد لنفسه بأنه لا إله إلا هو، وأخبر بذلك،

وأمر عباده أن يشهدوا به.

وشهادته سبحانه: ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ معلومة من جهة كل من بلغ عنه كلامه. وأما بيانه وإعلامه بفعله: فهو ما تضمنه خبره تعالى عن الأدلة الدالة على وحدانيته التي تعلم دلالتها بالعقل والفطرة.

وهذا أيضًا يستعمل فيه لفظ الشهادة، كما يستعمل فيه لفظ الدلالة، والإرشاد والبيان، فإن الدليل يبين المدلول عليه ويظهره، كما يبينه الشاهد والمخبر بل قد يكون البيان بالفعل أظهر وأبلغ، وقد يسمى شاهد الحال نطقًا وقولاً له وكلامًا لقيامه مقامه، وأدائه مؤداه.

والمقصود: أنه سبحانه يشهد بما جعل آياته المخلوقة دالة عليه، فإن دلالتها إنما هي بخلقه وجعله، ويشهد بآياته القولية الكلامية المطابقة لما شهدت به آياته الخلقية، فتطابقت شهادة القول وشهادة الفعل، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

أي: أن القرآن هو الحق، فأخبر أنه يدل بآياته الخَلْقية على صدق آياته القولية الكلامية.

وهذه الشهادة الفعلية: قد ذكرها غير واحد من أئمة العربية والتفسير.

قال ابن كيسان: شهد الله بتدبيره العجيب، وأموره المحكمة عند خلقه: أنه لا إله إلا هو.

وأما المرتبة الرابعة: وهي الأمر بذلك والإلزام به، وإن كان مجرد الشهادة لا يستلزمه، لكن الشهادة في هذا الموضع تدل عليه، وتتضمنه، فإنه سبحانه شهد به شهادة من حكم به، وقضى وأمر، وألزم عباده به، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النحل: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، والقرآن كله شاهد بذلك، ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك: أنه إذا شهد: «أنه لا إله إلا هو، فقد أخبر وبيَّن وأعلم وحكم وقضى: أن ما سواه ليس بإله، وأن إلهية ما سواه أبطل الباطل، وإثباتها أظلم الظلم، فلا يستحق العبادة سواه، كما لا تصلح الإلهية لغيره، وذلك يستلزم الأمر باتخاذه وحده إلهًا، والنهي عن اتخاذ غيره معه إلهًا.

وقوله تعالى: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾: «القسط» هو: العدل. فشهد سبحانه أنه قائم بالعدل في توحيده، وبالوحدانية في عدله، والتوحيد والعدل: هما جماع صفات الكمال، فإن التوحيد يتضمن تفرده سبحانه بالكمال والجلال، والمجد والتعظيم الذي لا ينبغي لأحد سواه، والعدل يتضمن وقوع أفعاله كلها على السداد والصواب، وموافقة الحكمة.

فهو سبحانه وتعالى قائم بالقسط، أي بالعدل، وذلك في أحكامه التكليفية وأحكامه القضائية والجزائية، فليس فيها جور، وتتضمن الفضل والعفو والإحسان، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٨٦]، وقال عز وجل: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، هذا أمر زائد على العدل، ومن ذلك أنه يجزي الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والسيئة بمثلها أو يعفو، إلا من كان كافرًا فليس أهلاً للعفو، فلا يُعْفَى عنه.

والله سبحانه وتعالى يقتص للمظلوم من الظالم، إما بإجابة دعوة المظلوم إن دعا على ظالمه في الدنيا، كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل، وقد بعثه إلى اليمن: «إياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب». رواه البخاري ومسلم، وإما بالأخذ من حسناته يوم القيامة.

وقوله: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: هذا حكم بعد الشهادة، فشهد الله لنفسه أن لا إله إلا هو، وحكم لنفسه أيضًا بأن لا إله إلا هو، فاجتمع في كلامه عز وجل الشهادة والحكم فكان شاهدًا لنفسه، حاكمًا لها بالألوهية، لأن المعروف في المحاكمات والمرافعات، أن تؤدى الشهادة أولاً، ثم يأتي الحكم، فالله تعالى شهد أولاً، وأخبر بمن شهد معه، ثم حكم ثانيًا.

وقوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: «العزيز»: أي ذو العزة، و«الحكيم»: مأخوذ من الحكم ومن الإحكام، فهو ذو الحكم وذو الإحكام.

وقال ابن كثير: العزيز: الذي لا يرام جنابه، الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فضائل ولطائف سورة آل عمران

مختارات من علوم القرآن

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وبعد:

فنستكمل حديثنا حول لطائف وفضائل سورة آل عمران، ونتحدث بعون الله سبحانه وتعالى عن قول الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

إعداد/ مصطفى البصراتي

الخطاب للرسول ﷺ، ومناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب إذا دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم تولوا، يريدون أن تكون السيادة لهم، لا لغيرهم، فأمر الله نبيه ﷺ أن يبتهل إلى الله بهذا الدعاء المتضمن قدرة الله على نقل النبوة التي يتبعها المُلك من بني إسرائيل إلى العرب.

فصدر الآية سبحانه بتفرده بالملك كله، وأنه هو سبحانه هو الذي يؤتيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء لا غيره.

فالأول: تفرده بالملك، والثاني: تفرده بالتصرف فيه، وأنه سبحانه هو الذي يعز من يشاء بما يشاء من أنواع العز، ويذل من يشاء بسلب ذلك العز عنه، وأن الخير كله بيديه ليس لأحد معه منه شيء، ثم ختمها بقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فتناولت الآية ملكه وحده وتصرفه وعموم قدرته، وتضمنت أن هذه التصرفات كلها بيده وأنها كلها خير، فسلبه الملك عمن يشاء، وإذلاله من يشاء خير، وإن كان شراً بالنسبة إلى المسلوب الذليل، فإن هذا التصرف دائر بين العدل والفضل، والحكمة والمصلحة لا تخرج عن ذلك، وهذا كله خير يُحمد عليه الرب ويثنى عليه به كما يحمد ويثنى عليه بتنزيهه عن الشر، وأنه ليس إليه كما ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كان يثني على ربه بذلك في دعاء الاستفتاح في قوله: «لبيك وسعديك، والخير في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت». فتبارك وتعالى عن نسبة الشر إليه، بل كل ما نسب إليه فهو خير، والشر إنما صار شراً لانقطاع نسبته وإضافته إليه، فلو أضيف إليه لم يكن شراً.

وهو سبحانه خالق الخير والشر، فالشر في بعض مخلوقاته لا في خلقه وفعله، وخلقه وفعله وقضاؤه وقدره خير كله، ولهذا تنزه سبحانه عن الظلم الذي حقيقته وضع الشيء في غير موضعه، فلا يضع الأشياء إلا في مواضعها اللائقة بها، وذلك خير كله، والشر: وضع الشيء في غير محله، فإذا وضع في محله، لم يكن شراً، فعلم أن الشر ليس إليه، وأسماؤه الحسنى تشهد بذلك، فإن منها القدوس، السلام، العزيز، الجبار، المتكبر. فالقدوس المنزه من كل شر ونقص وعيب.

قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾. ﴿اللهم﴾: في كلام العرب خاص بنداء الله تعالى في الدعاء، قال الخليل بن أحمد وسيبويه وجميع البصريين أن أصل (اللهم): يا الله. ولما كثر حذف النداء معه، قال النحاة: إن الميم عوض من حرف النداء. يريدون أن لحاق الميم باسم الله في هذه الكلمة لما لم يقع إلا عند إرادة الدعاء صار غنياً عن جلب حرف النداء اختصارًا، وليس المراد أن الميم تفيد النداء، فجمهور النحاة على أن الميم عوض عن حرف النداء المحذوف، وأنه تعويض غير قياسي، وأن ما وقع على خلاف ذلك شذوذ.

قال النضر بن شميل: من قال «اللهم» فقد دعا الله بجميع أسمائه كلها، وقال الحسن: «اللهم» مجمع الدعاء.

ومعنى قول النضر: إن «اللهم» هو الله زيدت فيه الميم فهو الاسم العلم المتضمن لجميع أوصاف الذات.

وقوله: ﴿مالك الملك﴾. مالك: اسم فاعل، والملك: يحتمل أن يكون بمعنى المملوك، أي: مالك المملوكات كلها، ويحتمل أن يكون المراد به: التدبير، أي مالك تدبير الخلائق كلها.

والأمران ثابتان لله عز وجل، فهو مالك المملوكات كلها بأعيانها، وهو مالك التصرف فيها، لا يشاركه في ذلك أحد، هو الذي يدبر الأمر ويملك المأمور.

﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾، والأصح أن «تؤتي» هذه جملة استئنافية لبيان كيف يكون ملك الله عز وجل لهذا المملوك، فقال: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾، وقال: ﴿تؤتي﴾ أي: تعطي، ولم يقل: تُمَلِّك؛ لأن ما يكون للعبد من المُلك إنما هو من إعطاء الله تعالى إياه، وتسليطه عليه، ولهذا لا يتصرف المالك من المخلوقين فيما ملك، إلا على حسب الشريعة التي شرعها الله عز وجل، وقوله تعالى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾: الفعل «تؤتي» من الأفعال التي تتضمن مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر، ومفعول الأول: الملك، ومفعول الثاني: من تشاء، وكل شيء له سبب إما شرعي، وإما كوني، لأن هذا مقتضى حكمة الله سبحانه وتعالى، وإذا كان كذلك فإن إيتاء الله الملك لمن يشاء مقيد بسببه، فلا بد أن يكون له سبب، فالملك قد يكون مستقلاً عن الرسالة، وقد يكون تابعًا للرسالة، فإذا كان مبنيًا على الشريعة صار تابعًا للرسالة، وإذا كان غير مبنيٍّ على الشريعة كان مستقلاً، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فهذا ملك مستقل عن الرسالة؛ لأن الذي حاج إبراهيم كافر، وأما قول النبي ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوى لي منها». (رواه مسلم)، فالمراد بذلك هنا: ملك تابع للرسالة.

والمشيئة هنا ككثير من الآيات متعلقة بالحكمة.

وقوله: ﴿وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾:

قوله: ﴿وتنزع الملك﴾: يحتمل وجهين:

الوجه الأول: نزع بعد ثبوت.

والوجه الثاني: نزع بمعنى المنع.

فعلى الأول: يكون فيه إشارة إلى أن الله تعالى يملِّك من يشاء من خلقه، ثم ينزع عنه الملك، وكم من ملِكٍ مَلَكَ ثم زال ملكه، إما بالغلبة له، أو بموت أو بغير ذلك، ويحتمل أن تكون بمعنى المنع، أي: تُمَلِّك من شئت، ولا تُمَلِّك من شئت، وكلا المعنيين صحيح.

وقوله: ﴿وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾:

والإعزاز هنا: يعني التقوية، أي تجعله عزيزًا قويًا غالبًا على غيره، وكذلك ﴿تذل من تشاء﴾، وهذا عام، قد يعز الله الإنسان بدينه وعلمه وإيمانه، وإن لم يكن ملكًا، وقد يعزه بملكه، وكذلك في الذل قد يذله بالمعصية، وبالغلبة، فالذل بالمعصية في مقابل العز بالإيمان، والذل بالغلبة في مقابل العز بالملك، والذين يعزهم الله هم من ذكرهم الله بقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، فالله يعز الرسل وأتباعهم، كما قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

ومن أسباب العزة: الإيمان، سواء كان الإنسان ملكًا أم غير ملك. ومن أسباب العزة: الاستعداد والحذر والحزم والقوة والنشاط.

ومن أسباب الذل: أن يعجب الإنسان بنفسه، وأن يتعرض لما لا يمكنه دفعه، ولهذا جاء في الأثر: «لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه». قالوا: وكيف يذل نفسه؟ قال: «يتعرض من البلاء لما لا يطيق». رواه أحمد والترمذي وقال عنه: هذا حديث حسن غريب.

وقوله: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾: «الخير»: بيد الله عز وجل، والخير كل ما فيه مصلحة ومنفعة للعبد، سواء كان ذلك في أمور الدنيا أو في أمور الآخرة، فالرزق والصحة والعلم والخير والعمل الصالح أيضًا خير، وهذا كله بيد الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وهنا قد يقال: لماذا ذكر أن الخير بيده ولم يذكر الشر، مع أن الخير من الله والشر من الله؟ فقال بعض المفسرين: إن هذا من باب حذف المقابل المعلوم، كقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، وزعموا أن تقدير الآية: بيده الخير والشر.

ولكن هذا وهمٌ باطل، وليس المقام مقام حذف واقتصار، بل المقام مقام ثناء، والثناء ينبغي فيه البسط والتوسع في الكلام، فالحذف غير مناسب لفظًا، وهو باطل معنى، لأن الله عز وجل لا يضاف إليه الشر، ولا يجوز أن نقول: بيده الشر؛ لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «والشر ليس إليك».

(رواه مسلم).

فلا يُنسب إلى الله الشر قولاً ولا فعلاً، فالله يقول الحق وهو يهدي السبيل، ويفعل الخير ولا يفعل الشر، وإذا وجد شر في المفعولات فهو شر من وجه،

وخير من وجه آخر، لكن إيجاد الله لهذه الأشياء الشريرة ليس شراً، بل هو خير محض، فالشر إذن هو في المفعولات لا في الأفعال، أما الخير فهو في المفعولات والأفعال، ولهذا ينسب إلى الله فيقال: بيده الخير، ولنضرب لهذا مثلاً بالسباع والهوام، فالسباع: فيها شر، والهوام اللاسعة واللادغة فيها شر بلا شك، والشياطين كلها شر، لكن إيجاد الله لهذه الأشياء خير، والحكمة توجبه، لأنه لا يمكن أن تعرف تمام قدرة الله إلا بخلق الأشياء المتضادة. ثم في خلق هذه الأشياء من إصلاح العبد، واللجوء إلى ربه، والاستعاذة به من هذه الأمور الشريرة، خير كثير، والخير لا يعرف إلا بضده.

إذن يجب أن نُبقي الآية على ظاهرها بدون تقدير.

وقوله: ﴿ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾: ومن قدرتك تغيير هذه الأشياء العظيمة، إيتاء الملك ونزعه، والإعزاز والإذلال، كل هذه أمور عظيمة لا يقوم بها إلا القادر عليها، سبحانه وتعالى، والآية عامة، فهو قدير على كل شيء، على ما شاءه وما لم يشأه، ولهذا نعرف أن تقييد بعض الناس القدرة بالمشيئة خطأ، لأن الله قادر على ما يشاء وعلى ما لا يشاء، وأما قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: ٢٩]،

فالمشيئة هنا ليست عائدة على القدرة، ولكنها عائدة على الجمع، يعني: إذا أراد جمعهم، وشاء جمعهم، فهو قدير عليه، لا يعجز عنه.

من فوائد الآية الكريمة:

١- تعليم الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ أن يفوض الأمر إليه في قوله: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ﴾، والخطاب الموجه للرسول ﷺ موجه لأمته، إما عن طريق التأسي، وإما لأنه الإمام، والخطاب للإمام خطاب له ولمن اتبعه، إلا إذا دلَّ الدليل على أنه خاص به فيكون خاصاً به.

٢- أن ملك المخلوقين ليس ملكًا استقلاليًا، بل هو بإعطاء، لقوله: ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ ﴾، والملك الذي بإعطاء لا شك أنه ناقص عن ملك المعطي، وقد جاء في الحديث الصحيح: «اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى».

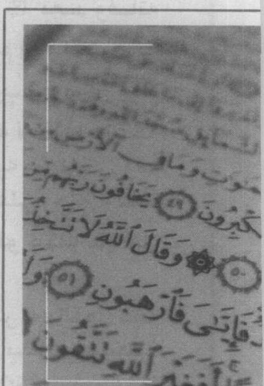

٣- أن الله سبحانه وتعالى تام الملك والسلطان، لكونه يذل من يشاء، ولو بلغ ما بلغ من العزة البشرية، فإن يد الله فوقه مهما بلغ الإنسان من العز، فالله سبحانه قادر على إذلاله، ولذلك أمثلة كثيرة ؛ منها: قصة فرعون، فإن فرعون طغى وقال: «أنا ربكم الأعلى»، وافتخر بما عنده من الأنهار، فأهلكه الله بمثل ما افتخر به، فأغرقه بالماء، وعادٌ استكبروا في الأرض وقالوا: «من أشد منا قوة»، فأهلكهم الله تعالى بالريح، وهي من ألطف الأشياء، لكنها من أشد الأشياء مع لطافتها، فالله عز وجل يذل من يشاء.

ويتفرع على هذه الفائدة: أننا متى علمنا أن الإعزاز والإذلال بيد الله، فإننا لا نطلب العزة إلا به عز وجل، ولهذا نقول: من ابتغى العزة من غير الله فهو ذليل، وكذلك يتفرع على هذا أنه ينبغي للإنسان أن يستعيذ بالله دائمًا من الذل الحسي والمعنوي، لأن الله تعالى هو الذي بيده الإذلال، من شاء أذله، ومن شاء أعزه.

٤- أن الله سبحانه بيده الخير، ويتفرع على هذه الفائدة: أنه إذا كان الخير بيده، فلا يطلب الخير إلا منه ؛ لأنه لا أحد بيده الخير إلا الله سبحانه وتعالى، فهو الذي يطلب منه الخير.

٥- أن الشر لا يضاف إلى الله، وإن كان عز وجل هو الذي خلق كل شيء، لأن أفعاله كلها خير، والشر في المفعولات، ثم إن هذا الشر في المفعولات قد يكون خيرًا، فكم من مرض صار سببًا لصحة الجسم، وكم من آفات في الزروع وغيرها، صارت أسبابًا للنمو الاقتصادي من جهة أخرى.

٦- عموم قدرة الله؛ لقوله: ﴿ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، وهذا يشمل ما كان من أفعاله وما كان من أفعال الخلق، فيكون في ذلك رد على القدرية الذين يقولون: إن الله لا يخلق أعمال العباد ولا يريدها، وأن الإنسان مستقل بإرادته وعمله، فإذا كانت بقدرة الله قلنا: يلزم أن يكون مرادًا ومخلوقًا لله، لأنه ما دام الأمر بقدرته، فلا شك أنه يكون مخلوقًا له، ومرادًا له.

٧- الاستغناء بالثناء عن الدعاء ؛ لأنك إذا تأملت الآية هذه لم تجد فيها دعاء أي طلبًا، لكن الثناء مما يتوسل به إلى الله.

فهنا الثناء يتضمن ما تدل عليه هذه الجملة، فإذا قلت: أنت الذي تعز وأنت الذي تذل، فمعنى هذا، أو فمقتضى هذا: أنك تسأل الله أن يعزك ولا يذلك.

وفقنا الله وإياك إلى ما يحبه ويرضاه، وللحديث بقية بإذن الله تعالى.

سورة آل عمران

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فلا يزال حديثنا متصلاً حول لطائف سورة آل عمران، وحديثنا في هذه الحلقة يدور حول قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران: ٢٨].

إعداد/ مصطفى البصراتي

قال صاحب «فتح البيان»: فيه النهي للمؤمنين عن موالاة الكفار، بسبب من أسباب المصادقة والمعاشرة كقرابة أو صداقة جاهلية ونحوهما، وعن الاستعانة بهم في الغزو وسائر الأمور الدينية ومثله قوله تعالى: ﴿لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، وقوله: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقوله: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المائدة: ٥١]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥١]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١].

فقوله: «لا يتخذ»: لا: ناهية، والفعل بعدها مجزوم، وكسر لالتقاء الساكنين، وكلمة «اتخذ» تدل على اصطناع الشيء، والركون إليه والالتجاء إليه، مثل قوله: اتخذت هذا صاحبي، أي: جعلته واصطنعته واخترته، فالمعنى: لا يختار المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين.

«الكافرين»: مفعول، «اتخذ» الأول، و«أولياء»: مفعوله الثاني. وقوله: «أولياء» أي: لا ينصرونهم، ولا ينتصرون بهم، فلا يتولون الكفار، ولا يجعلون الولاية للكفار عليهم، فالنهي عن الأمرين، فإذا كان الأمر في سعة والمؤمنون في قوة، فإنهم لا يجوز لهم أن يتخذوا من الكفار من ينصرهم، لأن الكفار مهما كانوا أعداء المسلمين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨]، فليس لنا أن نستعين بالكفار، إلا إذا دعت الحاجة، فلنا أن ننتصر بهم بأخذ السلاح، وما أشبه ذلك، بل وبالعهد معهم أيضًا، فإن النبي ﷺ استعار من صفوان بن أمية دروعًا، فقال له: أغصبًا يا محمد ؟ قال: «بل عارية مضمونة». رواه أحمد وأبو داود.

فدل هذا على جواز الاستعانة بالمشرك بأخذ سلاحه.

كذلك حالف النبي ﷺ خزاعة في صلح الحديبية. رواه أحمد وابن ماجه بسند حسن.

والناس في ذلك الوقت ليسوا على قوة، فيجوز أيضًا أن يحالف المسلمون الكفار إذا دعت الحاجة إلى ذلك، لأنه قد يكون هذا من مصلحة المسلمين، فإن المسلمين إذا كانوا ضعفاء تسلط عليهم كفار آخرون، فإذا حالفوا كفارًا أقوياء انتصروا بهم، فصار في ذلك مصلحة.

ومع ذلك لا يجوز أن نجعل هذا الانتصار بهم على حساب ديننا، يعني: أن نداهنهم ونمكنهم من أفعالهم القبيحة في بلادنا، بلاد الإسلام، لأن المداهنة في دين الله تفسد على المسلمين دينهم.

وأيضًا النهي عن ولاية الكفار، هو من أجل ألا يذل المسلمون بين أيديهم، فإذا كان في مثل هذه الأمور مصلحة للمسلمين وقوة، صار ذلك جائزًا، هذا

بالنسبة للانتصار بهم.

أما بالنسبة للانتصار لهم، فهذا لا يجوز أبدًا، لا يجوز أن ننصر كافرًا على مؤمن بأي حال من الأحوال، ولكن هل يجوز أن ننصر كافرًا على كافر إذا اقتضت المصلحة ذلك ؟

إن المؤمنين فرحوا حين غلبت الروم الفرس وهم كفار على كفار، كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [الروم: ٤، ٥].

فإذا كان هناك عدو مشترك لنا ولهذه الطائفة من الكفار، فحينئذ يكون عونه للحاجة جائزًا، لأننا نعينه لا لذاته، ولكن لمصلحة المسلمين، وهذا كله يعود إلى المصلحة، أما لو طلب منا الكافر العون على مسلم فإننا لا نعينه مهما كان الأمر، ولهذا قال تعالى: ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعني: من سوى المؤمنين، يعادون المؤمنين، ويوالون الكفار.

ثم قال: ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ﴾، المشار إليه: الاتخاذ، وعادت الإشارة... على المفهوم من الفعل، لأن الفعل يدل على حدث وفاعله، فعاد الضمير هذا على الاتخاذ المفهوم من (يتخذ)، مثل قوله تعالى: ﴿ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ [المائدة: ٨]، فعاد الضمير إلى العدل المفهوم من كلمة «اعدلوا».

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ﴾:

أي: يتخذهم أولياء من دون المؤمنين: ﴿ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾: يعني أي من ولايته، وقيل من دينه، وقيل: التقدير ليس كائنًا من الله (في شيء من الأشياء، هو منسلخ عنه بكل حال، والله بريء منه، لأن الله تعالى لا يرضى أن يتولى أحدٌ من المؤمنين أحدًا من الكافرين، لأن الكافر عدو لله، بل هو عدو للمؤمنين أيضًا: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ ﴾ [الممتحنة: ١] مهما كان، فإن الكافر لا يمكن أن يضمر لك المحبة أو الولاية أبدًا، ولا يمكن أبدًا أن يناصرك إلا لمصلحته هو، لأنه عدو، والعدو لا يحب أن يريد منفعة عدوه.

ثم قال الله تعالى: ﴿ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾:

قال ابن كثير: أي إلا من خاف في بعض البلدان والأوقات من شرهم فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته، روى البخاري عن أبي الدرداء رضي الله عنه: أنه قال: إنا لنبش في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم، وروى الثوري: عن ابن عباس: ليس التقية بالعمل، إنما التقية باللسان، ويؤيد هذا ما قاله الله تعالى: ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾، وروى البخاري قال الحسن: التقية إلى يوم القيامة.

قال ابن عثيمين رحمه الله: و«إلا»: هنا حرف استثناء، والصواب أنه منقطع، بل يتعين، لأنه في حال التقاة لا نتخذهم أولياء، ولكن نوافقهم في الظاهر، ونخالفهم في الباطن. والمعنى: أن هؤلاء الكفار لهم سيطرة وقوة وقدرة نخشاهم، فنتقي منهم، أي: نتخذ وقاية من بطشهم وتنكيلهم بنا، لكن في الظاهر دون الباطن، ولا يجوز إلا في حال الخوف على النفس لضعف المسلمين وقوة الكفار.

ولا بد أن تكون هذه الموالاة في الظاهر باللسان فقط، أما في الباطن فيجب أن نضمر لهم العداوة والبغضاء، وعدم الولاية.

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ في هذا التفات من الغيبة إلى الحضور، ولولا الالتفات لقال: «إلا أن يتقوا منهم تقاة».

قال صاحب «فتح البيان» في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾: على صيغة الخطاب بطريق الالتفات أي إلا أن يخافوا منهم أمرًا يجب اتقاؤه وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال، وتقاة مصدر واقع موقع المفعول به، وهو ظاهر قول الزمخشري وزنه فُعلة ويجمع على تُقى كرطبة ورطب، وأصله وقيه لأنه من الوقاية، والتقوى والتقى واحد، والتقاة التقية، يقال: اتقى تقية وتقاة.

وفي القاموس: تقيت الشيء أتقيه من باب ضرب، وفي ذلك دليل على جواز الموالاة لهم مع الخوف منهم ولكنها تكون ظاهرًا لا باطنًا، وخالف في ذلك قوم من السلف فقالوا: لا تقية بعد أن أعز الله الإسلام.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: التقية باللسان من حُمل على أمر يتكلم به وهو معصية لله فيتكلم به مخافة الناس، وقلبه مطمئن بالإيمان فإن ذلك لا يضره، إنما التقية باللسان، وعنه قال: التقاة التكلم باللسان، والقلب مطمئن بالإيمان ولا يبسط يده فيقتل ولا يبسطها إلى إثم، فإنه لا عذر له.

وعن أبي العالية قال: التقية باللسان وليس بالعمل، وقال قتادة: إلا أن تكون بينك وبينه قرابة فتصله لذلك. وقال ابن حجر في الفتح في معنى الآية: لا يتخذ المؤمن الكافر وليًا في الباطن ولا في الظاهر إلا للتقية في الظاهر فيجوز أن يواليه إذا خافه ويعاديه باطنًا.

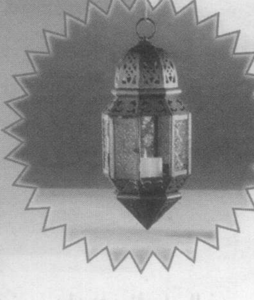

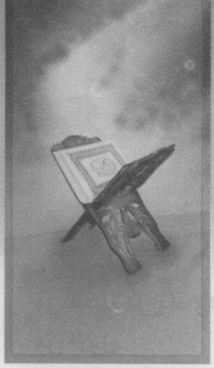

فضائل ولطائف في سورة آل عمران

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فما يزال حديثنا متصلاً حول فضائل ولطائف في سورة آل عمران، ونتحدث بإذن الله تعالى عن قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

والحب والمحبة ميل النفس إلى الشيء لكمال أدركته فيه، يُقال: أحبه فهو محب، وَحَبَّهُ يَحِبُّهُ بالكسر فهو محبوب، قال ابن الدهان في حَبَّ لغتان: حَبَّ وأَحَبَّ. وقد فسرت المحبة لله سبحانه بإرادة طاعته، قال الأزهري: محبة العبد لله ولرسوله طاعته لهما واتباعه أمرهما، ومحبة الله للعباد إنعامه عليهم بالغفران.

وهذه الآية يسميها بعض السلف آية المحنة، يعني: آية الاختبار والامتحان، وذلك أن قومًا ادعوا أنهم يحبون الله، فأمر الله نبيه أن يتحداهم بهذا الميزان، وهو: إن كانوا صادقين فليتبعوا الرسول ﷺ سواء كانوا من اليهود أم من النصارى أم من المنافقين. ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]، إذا كانوا صادقين فليتبعوا الرسول.

كل يدعي أنه يحب الله، لأن الدعوى سهلة، فإذا كانوا يحبون الله حقًا فليتبعوا النبي ﷺ، لينالوا ما هو أعظم من دعواهم، وهو محبة الله لهم، ولهذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾، فالشأن ليس أن تُحِب بل الشأن أن تُحَب، أما أن تُحب ولا تُحَب، فهذا عذاب. انظروا إلى بريرة ومغيث: بريرة تبغض مغيثًا، ومغيث يحبها، فعُذب بحبها لما عتقت، خيرها النبي ﷺ، قال: «اختاري لنفسك». قالت: لا أريد الرجل، تعني: زوجها، فطلبت الخيار لنفسها والشرع يمكنها من ذلك، فكان زوجها يبكي وراءها في السوق في أروقة المدينة، يطلب ألا تختار نفسها، فجاء إلى النبي ﷺ وقال له: اشفع لي يا رسول الله عندها. فكلمها النبي ﷺ قال لها: «ارجعي إلى مغيث». قالت: يا رسول الله، إن كنت تأمرني، فسمعًا وطاعة، وإن كنت تشير عليَّ فلا حاجة لي فيه. قال: «بل أشير». قالت: لا حاجة لي فيه. (رواه البخاري).

يعني: أنها لم تقبل شفاعة النبي ﷺ ولم ترحم الرجل. قال الحافظ ابن كثير: الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله عز وجل ولم يتبع محمداً ﷺ في شرعه وطريقه وسنته، فإنه كاذب في دعواه ولتكون دعواه صحيحة يجب عليه اتباع الشرع المحمدي، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ قال: «مَن عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد». ولهذا قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ أي: يحصل لكم ما طلبتم

من محبتكم إياه وهو محبته إياكم وهو أعظم وأجل من الأول.

وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية، فقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

وقوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: بسبب اتباعكم الرسول ﷺ تحصل لكم هذه المغفرة والرحمة من بركة الاقتداء به ﷺ.

والله تعالى قد جعل محبته موجبة لاتباع رسوله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾، وهذا لأن الرسول هو الذي يدعو إلى ما يحبه الله، وليس شيء يحبه الله إلا والرسول يدعو إليه، وليس شيء يدعو إليه الرسول إلا والله يحبه، فصار محبوب الرب ومدعو الرسول متلازمين، بل هذا هو هذا في ذاته، وإن تنوعت الصفات.

فكل من ادعى أنه يحب الله ولم يتبع الرسول فقد كذب، وليست محبته لله وحده، بل إن كان يحبه فهي محبة شرك، فإنما يتبع ما يهواه كدعوى اليهود والنصارى محبة الله، فإنهم لو أخلصوا له المحبة لم يحبوا إلا ما أحب، فكانوا يتبعون الرسول، فلما أحبوا ما أبغض الله مع دعواهم حبه كانت محبتهم من جنس محبة المشركين.

وهكذا أهل البدع، فمن قال: إنه من المريدين لله المحبين له، وهو لا يقصد اتباع الرسول، والعمل بما أمر به، وترك ما نهى عنه، فمحبته فيها شوب (خلط) من محبة المشركين واليهود والنصارى، بحسب ما فيه من البدعة، فإن البدع التي ليست مشروعة وليست مما دعا إليه الرسول لا يحبها الله، فإن الرسول دعا إلى كل ما يحبه الله، فأمر بكل معروف ونهى عن كل منكر.

وقال الشيخ الألباني تعليقًا على هذه الآية: واعلم أيها الأخ المسلم: أنه لا يمكن لأحد أن يرقى إلى هذه المنزلة من الحب لله ورسوله إلا بتوحيد الله تعالى في عبادته دون سواه، وبإفراد النبي ﷺ بالاتباع دون غيره من عباد الله، لقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾. وقال عليه الصلاة والسلام: «لا والذي نفسي بيده، لو أن موسى كان حيًا ما وسعه إلا أن يتبعني». قلت: فإذا كان مثل موسى كليم الله لا يسعه أن يتبع غير النبي ﷺ، فهل يسع ذلك غيره ؟ فهذا من الأدلة القاطعة على وجوب إفراد النبي ﷺ في الاتباع، وهو من لوازم شهادة «أن محمدًا رسول الله»، ولذلك جعل الله تبارك وتعالى في الآية المتقدمة اتباعه ﷺ دون سواه دليلاً على حب الله إياه. ومما لا شك فيه أن من أحبه الله كان الله معه... كما في الحديث القدسي الصحيح: «وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه». وإذ كانت هذه العناية الإلهية إنما هي بعبده المحبوب من الله، كان واجبًا على كل مسلم أن يتخذ السبب الذي يجعله محبوباً عند الله ؛ ألا وهو اتباع رسول الله ﷺ دون سواه، ألست ترى أنه لا سبيل إلى معرفة الفرائض وتمييزها عن النوافل إلا باتباعه ﷺ وحده ؟ وأن مما لا شك فيه أن المسلم كلما كان بسيرة رسول الله ﷺ أعلم، وبمحاسنه وفضائله أعرف، كان حبه إياه أكثر، واتباعه إياه أوسع وأشمل، ثم قال: إذا عرفت ما سبق بيانه أن حب الله لا يُنال إلا باتباع نبيه ﷺ فاحرصْ إذًا على اتباع سُنته كلَّ الحرص، وأنفق في سبيل ذلك كل جهاد ونفس، ولا تغتر بما عليه بعض الضالين المغرورين إلى أن قال: والخلاصة: إنني أنصح كل من قرأ هذه الرسالة أن لا يقف عند العلم بما فيها وإنما يتبع ذلك بالثمرة المرجوة، ألا وهي إخلاص الاتباع لهذا الرسول العظيم المستلزم لحب الله إياه، ومغفرته لذنوبه: ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم. اهـ.

وقال العلامة الشنقيطي في أضواء البيان: ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أن علامة المحبة الصادقة لله ورسوله ﷺ هي اتباعه، فالذي يخالفه ويدّعي أنه يحبه فهو كاذب مفترٍ، إذ لو كان محبًا له لأطاعه، ومن المعلوم عند العامة أن المحبة تستجلب الطاعة، ومنه قول الشاعر:

لو كان حبك صادقًا لأطعته
إن المحب لمن يحب مطيع

والخطاب في الآية للرسول ﷺ إذا وجه إليه بـ «قل» في القرآن فهو دليل على العناية بهذا القول الذي أمر أن يقوله، لأن هذا أمر بالتبليغ الخاص لهذا القول، أما القرآن كله فقد أمر أن يقوله كله، لكن بعض الأشياء- يُخص بـ «قل» مثل ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]،

وما أشبه ذلك، فهذا أمرٌ بتبليغ هذا الشيء الخاص بعينه فيكون في ذلك توكيدًا ودليلاً على العناية به، وهذه لا شك يجب الاعتناء بها.

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾: أي: قل لمن ادعى أنه يحب الله، والجملة هنا شرطية، وفعل الشرط: «كنتم»، وجوابه: «فاتبعوني»، وجاءت الفاء في الجواب لأنه جملة طلبية، وإذا كانت جملة الجواب طلبيةً وجب اقترانها بالفاء، وقوله: ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ أي: على ما أنا عليه من الشريعة، عقيدةً وقولاً وفعلاً وتركًا.

عقيدة: بحيث تكون عقيدته على ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه لا تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، ولا شك ولا تردد، بل إيمان كامل خال من جميع الشوائب، وقولاً: لا يزيد ولا ينقص عما جاءت به الشريعة من الأقوال.

وفعلاً: كذلك لا يزيد ولا ينقص.

وتركًا: بحيث يترك ما لم يعمله الرسول عليه الصلاة والسلام، فكل ما لم يتعبد به الرسول يجب أن لا يتعبد به، فإن تعبد به ثم يقول إنه يحب الرسول فإن دعواه كاذبة، لو كنت تحبه حقًا لاتبعته حقًا.

فمن اتبع الرسول ﷺ بهذه الأربعة صدق في اتباعه، ومن خالف فهو غير صادق. ولذا نجد الإنسان من بني آدم إذا أحب شخصًا غير الرسول، تجده يترسم خطاه، يعجب به وينظر ماذا يفعل ليفعله.

قال تعالى: ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ هذه الثمرة الأولى: والنتيجة التي يسعى إليها كل إنسان أن يكون محبوبًا لدى الله سبحانه وتعالى، والثانية: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

فهما فائدتان عظيمتان: محبة الله لك ومغفرة ذنوبك.

وقوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي كل ما عملتم من الذنوب يغفرها لكم، ولكن هل نقول: إنه يغفر وإن لم يستغفر الإنسان منه؛ لأن حسنة الاتباع تمحو هذا الذنب، ومحبة الله للإنسان توجب عدم عقوبته، أو نقول: «ويغفر لكم ذنوبكم» بأن ييسر لكم أسباب المغفرة إن لم يغفر لكم بدون سبب، يحتمل أنه سبحانه وتعالى أراد أنه يغفر الذنوب بسبب هذا الاتباع والمحبة، أو أنه وإن فعل الإنسان ما فعل فإنه ييسر له أسباب المغفرة بأن يعود من معصية الله إلى طاعته، والله أعلم.

لكن على كل حال الوعد هنا محقق، وهو مغفرة الذنوب إما بسبب من العبد أو بمحض فضل الله.

وقوله: «ذنوبكم» الذنب هو المعصية، وهو كما ترون جمع مضاف لمعرفة، والجمع المضاف إلى معرفة يفيد العموم.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: الجملة اسمية اشتملت على ثلاثة أسماء من أسماء الله: الله، الغفور، والرحيم، وأما معنى (لفظ الجلالة) «الله» فقد سبق أنه المألوه المعبود حبًا وتعظيمًا، وأن أصل (الله) الإله، فحذفت الهمزة تخفيفًا لكثرة الاستعمال، وأما الغفور: فالغفور هنا يحتمل أن يكون صيغة مبالغة، ويحتمل أن يكون صفة مشبهة، لأن الله لم

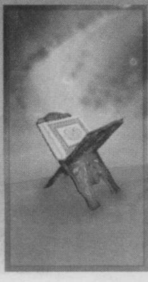

يزل ولا يزال غفورًا، وصيغة مبالغة لكثرة من يغفر له من الخلق وكثرة ما يغفره من الذنوب.

والمغفرة: ستر الذنب والتجاوز عنه، وليست مجرد الستر لوجهين لغوي وسمعي.

أما اللغوي: فلأن المغفرة مأخوذة من المِغْفَر الذي يستر به المقاتل رأسه ويتقي به السهام، والمغفر جامع للستر والوقاية.

وأما السمعي فلما ورد في كيفية محاسبة الله لعبده المؤمن أن يخلو به ويقرره بذنوبه، فيقول: «قد سترتها عليك في الدنيا وأنا اغفرها لك اليوم».

رواه البخاري.

وأما الرحيم: فهو ذو الرحمة، وهو صالح أيضًا لأن يكون صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، والرحمة: صفة تقتضي العطف والإحسان على المرحوم، والجمع بينهما بين الغفور والرحيم، لفائدة عظيمة: وهي الجمع بين الوقاية والعناية، بين الوقاية بالمغفرة يقيه الله سبحانه وتعالى شر الذنوب، والعناية بالرحمة، يعتني الله بك فييسرك لليسرى ويجنبك العسرى.

من فوائد الآية الكريمة:

١- أن الله أمر نبيه محمدًا ﷺ أن يتحدى هؤلاء المدعين لمحبته بهذا الميزان القسط وهو اتباعهم للرسول ﷺ.

٢- جواز مخاطبة المدعي بالتحدي لأن هذا هو الحق، لأنه لو كان يعرف نفسه ما ادعى اتصافه بشيء لم يتصف به، فهو الذي أذل نفسه في الواقع فلا تخش من تحديه ليقيم الدليل والبرهان على دعواه.

٣- أنها مصداق لقول النبي ﷺ: «البينة على المدعي». رواه الترمذي.

وهذه وإن كانت في دعوى الناس بعضهم مع بعض لكنها في الحقيقة قاعدة عامةً، فكل مدَّعٍ لا بد أن يقيم بينة على دعواه.

٤- أن محبة الله تعالى غاية لكل الناس حتى من غير المؤمن لقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾.

٥- أنه كلما قوي اتباع الإنسان للرسول ﷺ كان أقوى برهانًا على صدق محبته له، فهذه من علامة محبة الإنسان لربه، فإذا رأيت الإنسان شديد الاتباع لرسول الله ﷺ فاعلم أنه شديد المحبة له.

٦- أن اتباع النبي ﷺ سبب لمحبة الله للعبد لقوله: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

٧- الثمرة الجليلة باتباع رسول الله ﷺ وذلك بمحبة الله للعبد.

٨- أن الجزاء من جنس العمل، لقوله: «فاتبعوني» حيث جعل الاتباع برهانًا على صدق دعوى المحبة، وجعل الجزاء من جنسها، أن الله يحب العبد.

٩- أن اتباع الرسول سبب لمغفرة الله للذنب، لقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

١٠- كما أن إحسان الله سبحانه وتعالى لجزائه على العمل أكثر منه، لأن الذي يتبع الرسول يحصل له محبة الله ومغفرة الذنوب.

١١- إثبات هذين الاسمين وما تضمناه من صفة في قوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، ففيهما إثبات الاسمية لله في هذين الاسمين، والثاني إثبات الصفة التي تضمناها، ومن المعلوم أن كل اسم من أسماء الله يدل على معناه الخاص به، لكن اجتماع الاسمين يدل على معنى ثالث، وهو: الجمع بين مغفرة الغائب من الذنوب والرحمة بالعناية بالفضائل، لأن المغفرة مقابل الذنوب، والرحمة مقابل العناية بالإنسان، إن الله تعالى يرحم الإنسان، فيحصل من اجتماع هذين الاسمين صفة ثالثة، وهي جمع الرب سبحانه وتعالى بين الإحسان والوقاية من الذنوب وآثارها بالمغفرة.

والحمد لله رب العالمين.

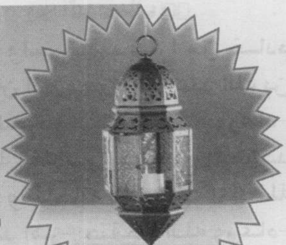

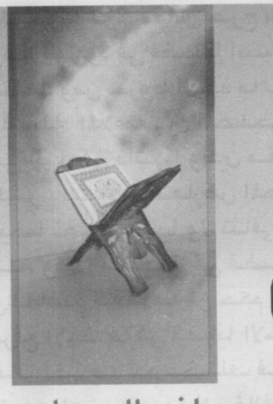

فضائل ولطائف سورة آل عمران

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وبعد:

فما يزال حديثنا متصلاً حول فضائل ولطائف سورة آل عمران ونتحدث بإذن الله تعالى في هذا العدد عن الآيتين «الثالثة والثلاثين والرابعة والثلاثين» من السورة، وهما قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٣، ٣٤].

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا﴾، هذه الجملة مؤكدة (بإن) لأن المقام يقتضي ذلك، لأن المقصود بيان أن الله تعالى يصطفي من الناس من شاء: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، يعني ومن الناس رسلاً.

معنى اصطفى: اختار. والتقدير: إن الله اصطفى دينهم وهو دين الإسلام فحذف المضاف، وقال الزجاج: اختارهم للنبوة على عالمي زمانهم. وقال القرطبي في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾ أي: اخترناه للرسالة، فجعلناه صافياً من الأدناس، والأصل في اصطفيناه اصتفيناه، أبدلت التاء طاء، واللفظ مشتق من الصفوة، ومعناه تخير الأصفى.

وقال ابن عثيمين رحمه الله: ومعنى الاصطفاء: أن الله اختارهم وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠]، ليس على كل من خلقنا، بل على كثير ممن خلقنا، والاصطفاء: بمعنى الاختيار، لأن أصله مأخوذ من الصفوة، وصفوة الشيء خياره، واصطفى: أي أخذ صفوته.

قال ابن كثير رحمه الله: يخبر تعالى أنه اختار أهل هذه البيوت على سائر أهل الأرض، فاصطفى آدم عليه السلام، خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء وأسكنه الجنة، ثم أهبطه منها لما له في ذلك من الحكمة، واصطفى نوحاً عليه السلام وجعله أول رسول بعثه إلى أهل الأرض لما عبد الناس الأوثان وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، وانتقم له لما طالت مدته بين ظهراني قومه يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً سراً وجهاراً، فلم يزدهم ذلك إلا فراراً، فدعا عليهم فأغرقهم الله عن آخرهم ولم ينج منهم إلا من اتبعه على دينه الذي بعثه الله به، واصطفى آل إبراهيم ومنهم سيد البشر خاتم الأنبياء على الإطلاق محمد ﷺ وآل عمران، والمراد بعمران هذا هو والد مريم بنت عمران أم عيسى ابن مريم عليهما السلام.

معنى الآل:

قال ابن عاشور: وآل الرجل أهله، وأصل آل أهل

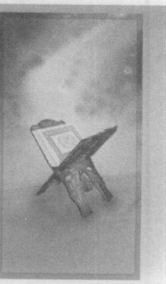

قلبت هاؤه همزة تخفيفًا ليتوصل بذلك إلى تسهيل الهمزة مدًا، والدليل على أن أصله أهل رجوع الهاء في التصغير إذ قالوا: أهيل ولم يسمع أويل خلافًا للكسائي، والأهل والآل يراد به الأقارب والعشيرة والموالي وخاصة الإنسان وأتباعه.

وآدم عليه السلام هو أبو البشر، خلقه الله تعالى خلقًا مستقلاً وليس متطورًا من جنس آخر ومن نوع آخر قبله كما يقول أهل الإلحاد، ومن ادعى ذلك فقد كفر بالله، لأن الله تعالى أخبر في كتابه في عدة مواضع أنه خلق آدم من تراب، من صلصال كالفخار، من طين، خلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، فمن زعم غير ذلك فهو كافر مصدق لغير الله، مكذب لله- والعياذ بالله- مع العلم بأنه مهما أتى أحد بكلام عن آدم وابتداء خلقه وكيفية خلقه غير مستند في ذلك إلى الوحي، فإن قوله غير مقبول، لأنه لم يشاهده، قال الله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩]، فمن ادعى علم شيء عمن سبق فهو كاذب إلا ببرهان، وآدم كما نعلم بيننا وبينه أزمنة طويلة جدًا، فلا يمكن أن نقبل قولاً فيه إلا عن طريق الوحي الصحيح.

«ونوحًا»: ذكره الله عز وجل بعد ذكر آدم، لأنه الأب الثاني للبشرية، فإن نوحًا عليه السلام لما كذبه قومه إلا القليل أهلكهم الله تعالى بالغرق، فجعل الله ذريته هم الباقين، كما في سورة الصافات: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ١٧]، فصار الأب الثاني للبشرية.

«وآل إبراهيم»: لا شك أنه يدخل فيهم إبراهيم بالأولى، ولكن نص على آله لكثرة الرسل فيهم، ولا سيما أن فيهم أفضلَ الرسل محمداً ﷺ، فإن محمداً ﷺ من آل إبراهيم.

«وآل عمران»: آل عمران اختلفوا في المراد بهم، فقيل: آل عمران أبي موسى لأن موسى أفضل أنبياء بني إسرائيل، وقيل: آل عمران أبي مريم ومريم ابنة عمران، وهذا ما رجحه ابن كثير وغيره، فذكر آل عمران لأن فيهم آخر الرسل قبل محمد ﷺ، وهو عيسى ابن مريم الذي ينتمي إليه النصارى، وخص آل عمران بذلك لأن المقام يقتضيه أيضًا، فإن هذه السورة نزل أولها في وفد نجران وهم من النصارى، وسواء كان هذا أو ذاك، فإنه يدل على أن الله اصطفى هذه القبيلة، فكان هؤلاء السادة من البشر هم الذين اصطفاهم الله تعالى.

وقد بيَّن العلماء أن نبينا محمدًا ﷺ من آل إبراهيم، فجدير بنا حتى تتم الفائدة أن نتكلم على آل نبينا محمد ﷺ.

«آل محمد ﷺ»: قال ابن القيم عليه رحمة الله في جلاء الأفهام: واختلف في آل النبي ﷺ على أربعة أقوال:

أحدها: هم الذين تحرم عليهم الصدقة، وفيهم ثلاثة أقوال للعلماء.

١- أنهم بنو هاشم، وبنو المطلب، وهذا مذهب الشافعي، وأحمد- رحمهما الله- في رواية عنه.

٢- أنهم بنو هاشم خاصة، وهذا مذهب أبي حنيفة- رحمه الله- ورواية عن أحمد رحمه الله واختيارات ابن القاسم صاحب مالك.

٣- أنهم بنو هاشم ومن فوقهم إلى غالب (فيدخل فيهم بنو المطلب وبنو أمية وبنو نوفل، ومن فوقهم إلى بني غالب)، وهو اختيار أشهب من أصحاب مالك، حكاه في «الجواهر» عنه، وحكاه اللخمي في «التبصرة» عن أصبغ ولم يحكه عن أشهب.

وهذا القول في الآل، أعني: أنهم الذين تحرم عليهم الصدقة، هو منصوص الشافعي رحمه الله، وأحمد، والأكثرين، وهو اختيار جمهور أصحاب أحمد والشافعي.

والقول الثاني: أن آل النبي ﷺ هم ذريته وأزواجه خاصة، حكاه ابن عبد البر في «التمهيد» قالوا: والآل والأهل سواء، وآل الرجل وأهله سواء، وهم: الأزواج والذرية.

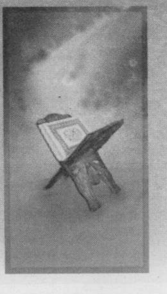

والقول الثالث: أن آله ﷺ أتباع أتباعه إلى يوم القيامة، حكاه ابن عبد البر عن بعض أهل العلم، وأقدم من روى عنه هذا القول جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما، ذكره البيهقي عنه، ورواه عن سفيان الثوري وغيره، واختاره بعض أصحاب الشافعي، حكاه عنه أبو الطيب الطبري في «تعليقه»، ورجحه النووي في شرح مسلم، واختاره الأزهري.

والقول الرابع: أن آله ﷺ هم الأتقياء من أمته، حكاه القاضي حسين، والراغب وجماعة.

وقد بسط ابن القيم رحمه الله الأدلة على هذه الأقوال، فمن أراد الرجوع إليها فعليه بكتابه القيم «جلاء الأفهام».

قال ابن القيم بعدما بسط الأدلة على هذه الأقوال الأربعة: «والصحيح هو القول الأول، ويليه القول الثاني، وأما الثالث والرابع فضعيفان، لأن النبي ﷺ قد رفع الشبهة بقوله: «إن الصدقة لا تحل لآل محمد»، وقوله: «إنما يأكل آل محمد من هذا المال»، وقوله: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا»، وهذا لا يجوز أن يراد به عموم الأمة قطعًا، فأولى ما حمل عليه الآل في الصلاة، الآل المذكورون في سائر ألفاظه، ولا يجوز العدول عن ذلك، وأما تنصيصه على الأزواج والذرية، فلا يدل على اختصاصه الآل بهم، بل هو حجة على عدم الاختصاص بهم لما روى أبو داود من حديث نعيم المجمر عن أبي هريرة رضي الله عنه في الصلاة على النبي ﷺ: «اللهم صلِّ على محمد النبي، وأزواجه أمهات المؤمنين، وذريته، وأهل بيته، كما صليت على آل إبراهيم».

فجمع بين الأزواج والذرية، والأهل، وإنما نص عليهم بتعيينهم، ليبين أنهم حقيقون بالدخول في الآل، وأنهم ليسوا بخارجين منه، بل هم أحق من دخل فيه، وهذا كنظائره من عطف الخاص على العام، وعكسه، تنبيهًا على شرفه وتخصيصًا له بالذكر من بين النوع، لأنه من أحق أفراد النوع بالدخول فيه. اهـ. مختصراً.

وخص هؤلاء بالذكر في هذه الآية من بين الأنبياء لأن الأنبياء والرسل بجميعهم من نسلهم.

ومعنى قوله: «على العالمين»: أي على عالمي زمانهم، في قول أهل التفسير، وقال الترمذي الحكيم أبو عبد الله محمد بن علي: المراد بالعالمين جميع الخلق كلهم، وذلك أن هؤلاء رسل وأنبياء فهم صفوة الخلق.

قال القرطبي: فأما محمد ﷺ فقد جازت مرتبته الاصطفاء لأنه حبيب ورحمة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ فالرسل خلقوا للرحمة، ومحمد ﷺ خلق بنفسه رحمة، فلذلك صار أمانًا للخلق، لما بعثه الله أمانًا للخلق من العذاب إلى نفخة الصور، وسائر الأنبياء لم يحلوا هذا المحل، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «أنا رحمة مهداة»، يخبر أنه بنفسه رحمة للخلق من الله وقوله: «مهداة» أي: هدية من الله للخلق.

ويقال: اختار آدم بخمسة أشياء: أولها أنه خلقه بيده في أحسن صورة بقدرته، والثاني أنه علمه الأسماء كلها، والثالث: أمر الملائكة بأن يسجدوا له، والرابع: أسكنه الجنة، والخامس: جعله أبا البشر.

واختار نوحًا بخمسة أشياء: أولها أنه جعله أبا البشر لأن الناس كلهم غرقوا وصار ذريته هم الباقون، والثاني أنه أطال عمره، ويقال طوبى لمن طال عمره وحسن عمله، والثالث: أنه استجاب دعاءه على الكافرين للمؤمنين، والرابع أنه حمله على السفينة، والخامس أنه كان أول من نسخ الشرائع، وكان قبل ذلك لم يحرم تزويج الخالات والعمات، فبعثه الله تعالى بتحريم البنات والأخوات والعمات والخالات وسائر القرابات.

واختار إبراهيم بخمسة أشياء: أولها: أنه جعله أبا الأنبياء لأنه رُوي أنه خرج من صلبه ألف نبي من زمانه إلى زمن محمد ﷺ، والثاني: أنه اتخذه خليلاً، والثالث: أنه أنجاه من النار، والرابع: أنه جعله إمامًا للناس، والخامس: أنه ابتلاه بالكلمات فوفقه حتى أتمهن.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فضائل ولطائف سورة آل عمران

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فما زال حديثنا متصلاً حول فضائل ولطائف سورة آل عمران، ونتحدث بإذن الله تعالى في هذا العدد عن ثلاث آيات وهي الخامسة والثلاثون، والسادسة والثلاثون، والسابعة والثلاثون: من قول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

«امرأة عمران»: أم مريم، فهي جدة عيسى عليه السلام، وعمران هو ابن ماثان جد عيسى وليس نبيًا وليس بعمران أبي موسى عليه السلام ؛ لأن بينهما ألفاً وثمانمائة سنة، وقيل: كان بين إبراهيم وموسى عليهما السلام ألف سنة، وبين موسى وعيسى عليهما السلام ألفا سنة، وكان بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل وأحبارهم وملوكهم.

سبب قول امرأة عمران

قال القرطبي: قيل: إن سبب قول امرأة عمران هذا أنها كانت كبيرة لا تلد، وكانوا أهل بيت من الله بمكان وإنها كانت تحت شجرة فبصرت بطائر يزق فرخا (أي يطعمه بفيه)، فتحركت نفسها لذلك، ودعت ربها أن يهب لها ولداً، ونذرت أن تجعل ولدها محرراً، أي: عتيقاً لله تعالى، خادماً لبيت المقدس حبيسًا عليه مفرغًا لعبادة الله تعالى، وكان ذلك جائزًا في شريعتهم، وكان أولادهم يطيعونهم، فلما وضعت مريم قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ أي: أن الأنثى لا تصلح لخدمة بيت المقدس، قيل: لما يصيبها من الحيض والأذى. وقيل: لا تصلح لمخالطة الرجال، وكانت ترجو أن يكون ذكرًا، فلذلك حررت.

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾.

قال محمد بن يزيد: التقدير اذكر إذ. وقال الزجاج: المعنى: واصطفى آل عمران إذ قالت امرأة عمران، وهذا التركيب موجود في القرآن كثيرًا، وإنما حذف العامل لدلالة السياق عليه، وتلك قاعدة مشهورة عند النحويين.

فهنا العامل المحذوف معلوم بالسياق، (اذكر إذ قالت)، اذكر هذه الحال التي صدر فيها هذا القول من امرأة عمران: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ﴾ وهي أم مريم، يعني جدة عيسى ابن مريم، وقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾.

«رَبِّ»: منادى حذف منه حرف النداء، وأصله: يا رب، وحذف منه ضمير المتكلم (الياء) تخفيفًا، وأصله: (ربي).

قولها: (نذرت): قال القرطبي: كانت النذور من سيرة العرب تكثر منها. ومعنى النذر في شريعة الإسلام: هو إيجاب المكلف على نفسه من الطاعات ما لو لم يوجبه لم يلزمه. أي أنه لا يَلْزَمُ العبد إلا بأن يُلزم نفسه.

وقول امرأة عمران (نذرت) بمعنى: التزمت أن يكون ما في بطني محررًا من خدمتي ليكون خادمًا للمسجد الأقصى، وكان من عادتهم أن يفعلوا ذلك، أي أن الإنسان منهم ينذر ولده ليكون قائمًا بخدمة المسجد الأقصى تعظيمًا له.

ومعنى (لك) أي: لعبادتك.

وقولها: (ما في بطني)، (ما) اسم موصول يفيد

العموم فيشمل ما لو وضعت واحدًا أو اثنين، ذكرًا أو أنثى.

«محررًا» مأخوذ من الحرية التي هي ضد العبودية، من هذا تحرير الكتاب، وهو تخليصه من الاضطراب والفساد، وعن عكرمة ومجاهد: أن المحرر الخالص لله عز وجل لا يشوبه شيء من أمر الدنيا.

وقوله: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾ يعني: تقبل مني هذا التقرب إليك، بنذر هذا الحمل الذي نذرته ليقوم بخدمة بيتك.

﴿إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: هذه الجملة: استئنافية للتعليل، يعني أني سألتك أن تتقبل مني لأنك السميع العليم.

«السميع»: يشمل هنا سمع الإدراك وسمع الإجابة، يعني أنك تسمع دعائي وتستجيبه، و«سمع» تأتي بمعنى استجاب كما في قول المصلي: «سمع الله لمن حمده» أي: استجاب. وقولها: ﴿إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يعني السامع لدعائي المستجيب له، العليم بما يكون صالحًا، وبكل شيء، لكن العلم هنا لأن الإنسان قد يسأل الشيء وليس من صالحه حصوله، فيسند الأمر إلى علم الله عز وجل، ومن المعلوم أن الداعي إذا دعا فإنه يحصل له واحد من أمور ثلاثة: إما أن يستجيب الله له الدعاء، وإما أن يدخر ذلك له يوم القيامة فيعطيه مثل ما دعا به، وإما أن يصرف عنه من السوء ما هو أعظم، هذا بالإضافة إلى أن الدعاء نفسه عبادة يُثاب عليها الإنسان.

وقوله: «فَلَمَّا وضعتها»، ولم يقل: فلما وضعته، مراعاة للمعنى؛ لأنها وضعت أنثى، فلما وضعتها وكانت قد نذرته محررًا بناءً على أنه ذكر، لما وضعتها اعتذرت لربها، ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾، وهذا اعتذار منها إلى الله أنها وضعتها أنثى، والأنثى ليس من العادة أن تخدم المسجد، فكأنها تعتذر إلى الله عز وجل من هذا النذر.

قال: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ قرأ ابن عامر وشعبة ويعقوب بضم التاء وإسكان العين، وقرأ الباقون (منهم حفص عن عاصم) بفتح العين وإسكان التاء، فعلى قراءة (والله أعلم بما وَضَعْتُ) بضم التاء وإسكان العين جُعل من كلام أم مريم، لاتصال كلامها بما بعد ذلك، وما قبله في قولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾، وقولها: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى﴾، وقولها: ﴿إِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾، وقولها: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ﴾، فكله من كلام أم مريم، فحملَ وسطَ الكلام على أوله وعلى آخره، وذلك حسن في المطابقة والمجانسة كما تقول: ربي قد أذنبت وأنت أعلم بذلك، على طريق التسليم والخضوع، وتكون الجملة من باب الاحتراس، لا يظن أنها تعتقد أن الله لم يعلم. فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾، فلستُ أخبر الله بأمر يخفى عنه، بلى إني أومن بأنه عالم بما وضعتُ.

أما على قراءة (السكون) (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بما وَضَعَتْ) جعله من كلام الله عز وجل، فالكلام من الله وفيه دفاع عن هذه المرأة بأن الله تعالى يعلم أنها لم تقل: «إني وضعتها أنثى» إخبارًا منها لله لأنه سبحانه وتعالى زكاها بقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ هذا من وجه، ومن وجه آخر ليبين عز وجل أن قولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ لا يعني أن الله لا يعلم بما وضعت بل هو عالم عز وجل(أعلم) اسم تفضيل يدل على أن المفضل زائد على المفضل عليه في هذا الوصف، كما لو قلت: فلان أكرم من فلان، معناه أن هذا المفضل وهو فلان زائد في الكرم على المفضل عليه. فـ(أعلم) هنا يعني: أعلم من كل أحد بما وضعت، ففيه إثبات العلم لله عز وجل مع الزيادة، وبهذا التقرير نعلم ضعف قول من قال: إن اسم التفضيل هنا بمعنى اسم الفاعل، وأن معنى قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ أي: (والله عالم بما وضعت)، فإن هذا القول لا شك قصور في تفسير كلام الله، لأن إثبات العلم بلا تفضيل أنقص

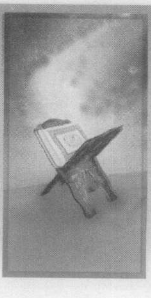

من إثبات العلم مع التفضيل، لأنك إن قلت: فلان عالم لا يمنع أن يكون غيره مساويًا له في العلم وغيره مفضول ولا أدري سبحان الله- كيف يفر بعض العلماء من إثبات المفاضلة بين الله سبحانه وتعالى وبين خلقه، مع أن المفاضلة لا تدل على أي نقص، بل اللفظ الذي يقتضي المشاركة هو الذي قد يحتمل النقص والمماثلة، لكن اللفظ الدال على المفاضلة ليس فيه نقص بوجه من الوجوه، فالله أعلم من كل أحد سواء كان هذا العلم مقيدًا أو مطلقًا.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ (ما): اسم موصول، والضمير العائد مفعول به محذوف، أي: بما وَضَعَتْهُ (بسكون التاء) أو بما وَضَعْتُهُ (بضم التاء) على القراءتين، والمقصود منه: أن الله أعلم منها بنفاسة ما وضعت، وأنها أي مريم خير من مطلق الذكر الذي سألته.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى﴾، وهذا الخبر مستعمل في التحسر لفوات ما قصدته من أن يكون المولود ذكرًا، فتحرره لخدمة بيت المقدس.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ تقوله أمها، وهذا الاسم إما أن يكون مشهورًا عندهم، أو أنها اختارته لأمر يريده الله عز وجل، والله أعلم ما هو السبب أنها اختارت هذا الاسم. وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

«أعيذها» : أي استجير بك لها ؛ لأن الاستعاذة معناها الاستجارة من أمر مكروه، ولهذا نستعيذ من الشيطان الرجيم، ونستعيذ بالله من عذاب جهنم ومن عذاب القبر، وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال، قال أهل اللغة: (العياذ من المكروه، واللياذ في رجاء المحبوب) إذن (أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) يعني استجير بك لها من الشيطان الرجيم، والشيطان هو أبو الجن، كما قال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف: ٥].

و«الرجيم»: بمعنى المرجوم، وأصل الرجم القذف بالحجارة، ومنه: رجم الزاني، وعلى هذا فتكون في الكلام استعارة، أي أننا استعرنا الرجم بالحجارة الدال على إبعاد المرجوم للمُبعَد المطرود فالرجيم هنا: فعيل بمعنى مفعول، أي مطرود مبعد عن رحمة الله.

و«ذريتها» قال القرطبي: يعني عيسى، وهذا يدل على أن الذرية قد تقع على الولد خاصة، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخًا من نسخة الشيطان إلا ابن مريم وأمه». ثم قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم.

قال الله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ تقبل: قال أهل اللغة: بمعنى قَبِل لكن هل تَقَبَّلَ وقَبِلَ بمعنى واحد أو أن في تقبلَّ شدة عناية ومبالغة ؟ قولان: قيل: إن تَقبَّلَ بمعنى قَبِل كتعجَّب بمعنى عجب، وتبرَّأ بمعنى بريء، تقول: تبرأ من فلان بمعنى برئ منه، والقول الثاني: أن تقبل أبلغ من قَبِل، وذلك الغالب أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، ففيها شدة العناية والمبالغة.

وقوله تعالى: (ربُّها) الربُّ: بمعنى الخالق، المالك، المدبر. وربوبية الله نوعان: عامة وخاصة ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [مريم: ٦٥] هذه عامة، والخاصة مثل ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٢]، وهنا (ربَّها) من الخاصة.

قوله تعالى: ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ والقبول الحسن من الله أنه سبحانه وتعالى يسرَّها لليسرى وسهَّل أمرهاوجعلها من خيرة نساء العالمين، حتى ألحقها بالرجال في صلاحها، فقال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

وتأمل أنه قال: من القانتين، ولم يقل: من القانتات، لأنه كما جاء في الحديث: «كمل من الرجال

كثير، ولم يكمل من النساء إلا قليل». رواه البخاري ومسلم.

وقوله: ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ قد يعود إلى المعنى، وقد يعود إلى الحسن، فالمعنى أنبتها نباتًا حسنًا يعني في كمال الأدب والعفة والحشمة وغير ذلك، وقد يكون أنبتها نباتًا حسنًا باعتبار الجسم، يعني أنه نماها تنمية جيدة، لم يتعثر فيها جسمها.

«وكفَّلَها زكريا» هذا أيضًا من التيسير أن الله يسَّر لها من يكفلها من الرسل، ولا شك أن الإنسان إذا كان عنده كافل مستقيم صالح كان هذا من أسباب صلاحه واستقامته، وإذا كان عند فاسق كان بالعكس، ولهذا قال العلماء: لا يجوز أن يترك الطفل المحضون بيد شخص لا يصونه ولا يصلحه.

«وكفلها» قرأها بتشديد الفاء وفتحها عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف، وقرأها الباقون بالفتح بدون تشديد، ومعنى (كَفَّلَهَا) بالتشديد: أي جعل كفيلها زكريا، عليه السلام (كَفَلَهَا) بدون تشديد، أي صار كافلاً لها.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ المحراب مِفْعال من الحرب، وهو مكان العبادة، وليس المحراب هو طاق القبلة كما هو عند الناس، فالمحراب مكان العبادة سواء كان طاقًا أو مربعًا أو حجرة، ولهذا قال الله تعالى في قصة داود: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١]، وسمِّي بذلك لأن المتعبد فيه يحارب الشيطان، ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ وهي امرأة منقطعة للعبادة دائمًا في محرابها ويجد عندها رزقًا، والرزق هنا ما يقوم به البدن، يعني رزقًا تأكله ليقوم بدنها وتحفظ حياتها.

﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾ أي: من أين لك هذا؟ لأنها امرأة لا تكتسب منقطعة للعبادة، والمنقطع للعبادة ولو كان ذكرًا لا يُيَسَّرُ له الرزق، فكان جوابها عجيبًا، ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، وكلمة (من عند الله) لا يلزم أن يكون الله تعالى ينزلها من السماء إليها، بل قد يكون ذلك بتسخير الله لها من يأتيها بذلك الرزق، ولا يلزم أن يكون ينزل من السماء أو يأتي به جبريل.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ الرزق: بمعنى العطاء، والعطاء ينقسم إلى قسمين: عطاء كوني، وعطاء شرعي، فالعطاء الكوني: ما يرزق الله به الإنسان والحيوان، الحلال والحرام، لا يختص بالمؤمنين ولا بالطيب من الرزق.

والعطاء الشرعي: وهو ما يعطاه المؤمن من الرزق الحلال فهو الرزق الخاص الذي ليس فيه تبعة، ويشمل أيضًا العطاء الشرعي ما ثبت إعطاؤه بمقتضى الشرع كإعطاء الفقراء من الزكاة مثلاً، وإعطاء الغانمين من الغنيمة، فهذا عطاء وإيتاء شرعي.

«من يشاء» فالرزق لا يكون إلا بمشيئة الله، وهي مربوطة بحكمة، يعطي من يشاء لحكمة، والدليل على أن كل ما أثبت الله فيه المشيئة فهو مقرون بحكمة، قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

«بغير حساب» أي: بغير مكافأة، يُطْعِم ولا يُطْعَمُ، يَرزقُ ولا يُرزق، ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٧، ٥٨]، بخلاف غيره، فإنه قد يُعطي ليُعطَى، أما الله عز وجل فإنه يعطي لا ليعطى بل يرزق بغير حساب، وأما الحساب على ما أعطاه الله من الرزق من أين اكتسبه وفيم أنفقه وما أشبه ذلك، فإن هذا سوف يكون، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]، يعني: لا يحاسب خلقه ليكافئوه، ولكن يحاسبهم لينظر أو ليعلم عز وجل ماذا فعلوا فيما أعطاهم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

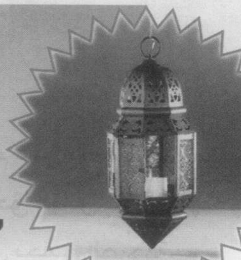

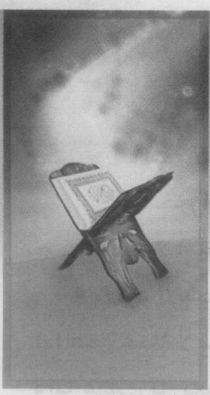

فضائل ولطائف سورة آل عمران

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فنحن ما نزال نتحدث عن فضائل ولطائف سورة آل عمران، وحديثنا بإذن الله تعالى في هذا العدد عن الفوائد المستنبطة من الآيات الكريمة التي تكلمنا عنها في العدد السابق، وهي الآيات الخامسة والثلاثون والسادسة والثلاثون والسابعة والثلاثون:

الفوائد المستنبطة من الآيات الكريمة:

أولاً: من قوله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

١- تعظيم هذه القصة ؛ لأن الله أمر رسوله أن يبينها للناس ؛ إذ التقدير: اذكر إذ قالت امرأة عمران.

٢- جواز النذر في الأمر المجهول، لقولها: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾، ينبني على ذلك أن يقول القائل: لله عليَّ نذر أن أتصدق بما في بطن هذه الشاة أو هذه الناقة، وينفذ النذر.

٣- جواز تصدق المرأة بدون إذن زوجها، ووجهه: أنها نذرت تحرير هذا الولد بدون إذن الزوج، فإن قال قائل: ما دليلكم على أنه بدون إذن زوجها، أفلا يمكن أن تكون استأذنت ؟ الجواب: بلى، لكنه لم يذكر.

فإن قال قائل: عدم الذكر ليس ذكرًا للعدم، فرق بين أن أسكت عن الشيء وبين أن أنفي الشيء، نفي الشيء ذكر لعدمه، لكن السكوت عنه ليس ذكرًا لعدمه.

قال ابن عثيمين رحمه الله: هذا ليس في كل مكان، بل نقول: هذا فيما إذا كان هناك نصوص عامة ثم ادعى أحدٌ إخراجها أو تقييدها أو ما أشبه ذلك.

هذا هو الذي نقول له: عدم الذكر ليس ذكرًا للعدم، وأما إذا جاءت قصة مرسلة ولم يذكر فيها قيود فالأصل عدم القيد، وقد جاءت الشريعة الإسلامية مؤيدة لهذا، أي أن المرأة تتصرف في مالها، فالرسول ﷺ لما خطب النساء يوم العيد وقال: «يا معشر النساء، تصدقن»، فجعلن يلقين من الخواتم والخروص في ثوب بلال. رواه البخاري.

ومن القرآن قال الله تعالى: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ [النساء: ٤]، طبن: أي: النساء. إذن المرأة حرة في مالها تتصرف وليس لزوجها أن يمنعها من أي تصرف شاءت، اللهم إلا في مسألة واحدة، قد يقال إنه يمنعها من التصرف مثل أن يشتري لها حليًا وثياب زينة تتجمل بها له، فهنا ربما نقول: إن له أن يمنعها من التصرف في هذه الثياب وهذا الحلي من بيع أو هبة ؛ لأن ذلك يضر بمقصوده.

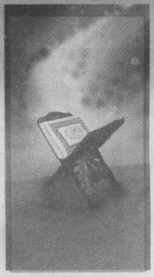

٤- أن الولد يخدم والده من أم أو أب ؛ لأنها قالت: ﴿مُحَرَّرًا﴾، يعني: محررًا من الخدمة بحيث لا أستخدمه ولا أستغل حياته.

٥- طرد الإعجاب بالنفس، وذلك بأن الإنسان إذا عمل عملاً لا يُدلُّ به على الله يقول: أنا عملت وأنا عملت، بل يعمل ويشعر أنه مفتقر إلى الله عز وجل في قبول ذلك العمل، ولهذا قالت: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾، وقال إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، والإنسان إذا علم أنه مفتقر إلى ربه عز وجل في العمل وفي قبول العمل زال عنه الإعجاب، وإذا زال عنه الإعجاب صار حريًا بأن الله تعالى يقبل منه ويثيبه.

٦- إثبات اسمين من أسماء الله وهما: السميع، والعليم. والسميع يكون بمعنى استجابة الدعاء، وبمعنى إدراك المسموع، والعليم هو: إدراك الشيء على ما هو عليه.

ثانيًا: من قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

١- أن الأم تتكلف الحمل كما يشعر به كلمة «وضعتها» أنها حاملة لها، وهو كذلك لا شك أنها تتكلف الحمل، وإذا قدَّرنا أن هذا الطفل الذي في بطنها سيبقى تسعة شهور وهي حاملة له في بطنها، في أرق ما يكون من البدن، قائمة وقاعدة ومستيقظة ونائمة، فماذا نتصور من التعب ؟ ولهذا قال الله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤]، ثم مع ذلك هذا الطفل في البطن يتحرك وهي تحس به، ولولا لطف الله بعباده ما استطاعت أن تحمل هذا، ولكن الله عز وجل يعينها، فيتفرع على هذه الفائدة فائدة أخرى وهي:

٢- عظم حق الأم على ولدها ؛ لأن من أحسن إليك وأتعبته كان أحق الناس ببرك، ولهذا جعلها النبي ﷺ أحق الناس بحسن الصحبة.

٣- اعتذار الإنسان عند ربِّه إذا وقع الأمر خلاف ما أراد ؛ لقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾، فإن هذا شبه اعتذار لقوله: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾، والأنثى لا تخدم المساجد عندهم فلهذا اعتذرت.

٤- التوسل إلى الله تعالى بربوبيته.

٥- أنه من تمام البلاغة الاحتراز عن كل موهم لأمر خطأ، سواء كان في المقال أو في الفعال لقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ على قراءة الضم، والمقال كما هنا، وفي الفعال: لما خرج النبي ﷺ بصفية رضي الله عنها يقلبها حين جاءت إليه وهو معتكف وتحدثت معه، فقامت لتخرج بالليل، فخرج بها صلى الله عليه وسلم، وإذا برجلين من الأنصار يمران، فأسرعا، فقال لهما النبي صلى الله عليه وسلم: «على رسلكما، إنها صفية بنت حيي». فقالا: سبحان الله، ثم قال: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خفت أن يقذف في قلوبكما شرًا- أو قال: شيئًا». رواه البخاري ومسلم.

لا شك أن أبعد الناس عن سوء الظن هو الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا سيما من أصحابه، لا يمكن أن يظنوا به سوءًا، ومع ذلك خاف أن الشيطان يُلقي في قلوبهما شرًا أو شيئًا، ولهذا ينبغي للإنسان أيضًا أن يدرأ الغيبة عن نفسه ما استطاع، لا يقول: أنا لا أبالي بالناس، «حسبنا الله ونعم الوكيل»، هذا طيب، لكن افعل الأسباب التي تدرأ عنك الشر حتى لا يظن الناس بك سوءًا.

٦- إثبات التفضيل في أوصاف الله من قوله:

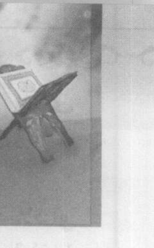

﴿أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ خلافًا لمن منع ذلك وفسَّر أعلم بـ «عالم».

٧- أنه لا يستوي الذكور والإناث، ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى﴾، لا في الطبيعة، ولا في الأخلاق، ولا في المعاملة، بل ولا في الأحكام في بعض الأحيان، فالذكر ليس كالأنثى، وإذا كان الذكر ليس كالأنثى، فالأنثى أيضًا ليست كالذكر.

٨- تسمية المولود حين يولد ؛ لقولها: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾، وهذا هو السنة أن يسمى الإنسان حين يولد، إلا إذا لم يتهيأ الاسم، فإنه يسمى في اليوم السابع، وبهذا تجتمع الأدلة، فإن النبي ﷺ لما ولد إبراهيم قال: «نذبح يوم سابعه، ويحلق ويسمى». رواه أبو داود والترمذي والنسائي. فيكون الجمع أن من كان مهيأ الاسم قبل الولادة فالأفضل أن يسميه حال الولادة، ومن لم يهيأ فالأفضل أن يؤجله إلى اليوم السابع.

٩- مشروعية إعاذة الإنسان أبناءه بالله عز وجل من الشيطان الرجيم، ومن شر الخلق، لقولها: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

١٠- جواز الدعاء للمعدوم من قوله: ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾، لأن ذريتها لم تأت بعد، فيجوز أن يقول: «أصلحك الله وذريتك»، «وغفر الله لك ولذريتك»، وما أشبه ذلك.

١١- أن الشيطان عدو لبني آدم حيث يطلب الإنسان من الله عز وجل أن يعيذه منه.

١٢- بيان قدرة الله سبحانه وتعالى على كل شيء، ومن ذلك الإجارة من الشيطان وإلا لكان الاستعاذة به من الشيطان عبثًا.

ثالثًا: من قوله عز وجل: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

١- أن الله عز وجل سميع، مجيب، لأنها دعت فسمعها الله، ولأنها دعت فأجابها الله، وفي القرآن الكريم: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

٢- أن الله مَنَّ على هذه الطفلة بشيئين: بالقبول الحسن، والنبات الحسن، فصار في ذلك تنمية لأخلاقها ولجسمها وبدنها.

٣- أن تطور الإنسان في حياته بأمر الله، لقوله تعالى: ﴿وَأَنْبَتَهَا﴾، وما الغذاء والعناية بالطفل إلا سبب، والله تعالى هو المسبب، وهو المكون للإنسان والمنبت له.

٤- أن الله عز وجل قد ييسر للإنسان من يكفله من أهل الخير، فيكون ذلك من أسباب إعاذته من الشيطان الرجيم، لقوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.

٥- إثبات الحضانة للطفل، لقوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.

٦- أن هذه الطفلة صارت من العابدات القانتات، لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾.

٧- أن الله عز وجل قد ييسر للإنسان من الرزق ما لا يكون في حسبانه، لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾.

٨- أن لكل ضعف لطفًا، فهذه المرأة الضعيفة التي مَنَّ الله عليها بالاشتغال بالعبادة، يسَّر الله لها من يأتيها بالرزق.

٩- أن الأشياء تضاف إلى الله، وإن كان لها سبب ؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

١٠- أن الأنبياء لا يعلمون الغيب ؛ لقوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾.

١١- إثبات أن الله عز وجل يرزق بغير مكافأة ولا انتظار المكافأة ؛ لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وإلى لقاء إن شاء الله.

مختارات من علوم القرآن فضائل ولطائف

سورة آل عمران

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه ، وبعد:

فحديثنا بإذن الله في هذا العدد يدور حول الآيتين الثامنة والثلاثين والتاسعة والثلاثين من سورة آل عمران، وهما متصلتان بالآيات التي ذكرناها في العددين السابقين، وذلك لتتم الفائدة ؛ لأن الكلام مستأنف والقصة مستقلة، سيقت في تضاعيف حكاية مريم، لما بينهما من قوة الارتباط، وشدة الاشتباك، مع ما في إيرادها من تقرير ما سيقت له حكايتها من بيان أصفياء آل عمران، فإن فضائل بعض الأقرباء أدلة على فضائل الآخرين.

قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

«هنالك»: هذا اسم إشارة إلى المكان، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب، يعني في ذلك الزمن، والإشارة هنا يحتمل أن تكون للزمن، أي في ذلك الزمن، ويحتمل أن تكون للمكان، أي في المكان الذي هو محراب مريم.

«دعا زكريا ربه»: لما رأى زكريا عليه السلام كرامة مريم على الله ومنزلتها منه تعالى، وأن الله يرزقها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء، رغب في أن يكون له من زوجته ولد مثل ولد أختها في النجابة والكرامة، وإن كان شيخًا كبيرًا قد وهن عظمه واشتعل رأسه وكانت امرأته كبيرة عاقرًا، فسأل ربه بنداء خفي: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾.

«هب لي»: أي: أعطني، والهبة: هي التبرع بالشيء بلا عوض، لكن قال العلماء: إن هناك هبة، وهدية وصدقة، فالصدقة: ما أريد به ثواب الآخرة.

والهدية: ما أريد به التودد والتقرب بين المهدي والمهدى إليه.

والهبة: ما قصد به مجرد انتفاع الموهوب له.

«رب هب لي من لدنك»: أي من عندك، وأضاف العندية إلى الله عز وجل ليكون أبلغ وأعظم ؛ لأن هدية الكريم أكرم.

وقوله: «ذرية» بمعنى مذروءة، أي: مخلوقة، وقوله: «طيبة»: أي طيبة في أقوالها وأفعالها، وكذلك في أجسامها، فهو متناول للطيب الحسي والطيب المعنوي.

«إنك سميع الدعاء»: أي مجيبه، والدعاء: هو سؤال العبد ربه حاجته إما بجلب منفعة، وإما بدفع مضرة.

«فنادته الملائكة»: وفي قراءة فناداه الملائكة ؛ لأن الملائكة جمع تسكير، وجمع التكسير يجوز فيه التذكير والتأنيث، ويمكن أن يراد بالملائكة واحد وهو جبريل.

«ناداه» وعبر عنه بالجمع باعتبار الجنس ؛ لأنه واحد منهم، ومعنى فنادته: أي خاطبته وأسمعته وهو قائم يصلي في محراب عبادته.

«وهو قائم يصلي في المحراب»: والمحراب مفعال من الحرب، وهو مكان العبادة أو مكان الصلاة، فهو المسجد كله وليس المحراب هو طاق القبلة أو الفجوة الموجودة في جدار القبلة فهذه محدثة، ما كانت في زمن الرسول ﷺ ولا في زمن صحابته، وقد قيل إن الذي أحدثها هو الوليد بن عبد الملك.

وسمي المحراب بهذا لأنه مكان حرب الشياطين، فإن العبادة حرب للشياطين.

«إن الله يبشرك»: «أنَّ» فيها قراءتان: قراءة بالفتح، وقراءة بالكسر، فأما على قراءة الكسر: «إن الله». فلأن النداء قول، ومقول القول إذا صُدِّر بـ «إن» يجب فيه كسر إن، كقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠]، وأما على قراءة الفتح فهي على تقدير حرف الجر: (فنادته الملائكة بأن الله يبشرك)، ببشرى الله بهذا الابن (يحيى).

أيضًا في قوله تعالى: «يُبَشِّرك»: قراءتان: يَبْشُرُك، يُبَشِّرُك. قال أبو منصور الأزهري في «معاني القراءات»: من قرأ (يُبَشِّرُكَ) فهو من البشارة لا غير، يُقال بَشَّرتُه بِشَارةً بتشديد الشين، والبشارة هي الإخبار بما يسر، وسميت بذلك لتأثر البشرة بالخبر، لأن الإنسان إذا بُشِّرَ بما يسره يفرح ويظهر ذلك على وجهه.

ومن قرأ (يبشرك) فمعناه: يَسُرُّكَ وَيُفْرِحُكَ. يقال: بَشَرْتُه أَبْشُرُه إذا فَرَّحْتَهُ. ومن العرب من يجيز: بشرته وأبشرته وَبَشَرتُه بمعنى واحد. ويقال: بشَرْتُه فابْشَر

وبَشَر، أي سرَّ وفرح.

وكذلك الإخبار بما يسوء بشرى، لأن البشرة تتأثر بذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٨].

قال الله تعالى: «بيحى» هذا المبشر به، ويحيى: قيل إنه من الحياة والله سماه بذلك إشارة إلى أنه سيحيا ويبقى، وعلى هذا فهو ممنوع من الصرف للعلمية ووزن الفعل.

وقوله: «مصدقًا بكلمة من الله وسيدًا»: مصدقًا: أي بعيسى ابن مريم ؛ إذ هو أول من صدق به وعلى سننه ومنهاجه.

«بكلمة من الله» هو عيسى ابن مريم ؛ يعني مصدق بعيسى، لأن عيسى كلمة الله، وسمي بذلك لأنه كان بكلمة الله ولم يكن من أب كما يكون البشر، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

خلقه: أي آدم من تراب، ثم قال له: كن فيكون، ولهذا سمي عيسى بالكلمة ؛ لأنه كان بكلمة الله وليس هو كلمة الله ؛ لأن كلمة الله وصف لله عز وجل، فالكلام وصف للموصوف، ولا يمكن أن يكون وصفُ الله عينًا بائنة منه.

وقوله: «منَ الله» بيان لابتداء الأمر وليست للتبعيض، فالكلمة هنا ليست بعضًا من الله، بل منشؤها منه.

«وسيدًا» معطوفة على «مصدقًا» فتكون منصوبة على الحال، والسيد من ساد غيره وشرف عليه بالعلم والدين والخَلق والمعاملة والخُلق: يشمل كل خلق يسود به الإنسان غيره من الجود والشجاعة والإيثار وغير ذلك.

«وحصورًا»: معطوفة على «مصدقًا»، فهي منصوبة على الحال، «حصورًا» فعول بمعنى فاعل، أي حاصرًا نفسه عن أرازل الأخلاق، فيكون هذا المبشر به موصوفًا بصفات الكمال الدال عليها قوله: «سيدًا»، ومبرًأ من النقص وسوء الأخلاق الدال عليه قوله: «وحصورًا» فيكون جمع له بين النفي والإثبات، وذلك لأن الإنسان لا يكمل إلا بوجود صفات الكمال وانتفاء صفات النقص، وهو أمر نسبي.

وقد ذهب فريق من المفسرين إلى أن الحصور الذي لا يأتي النساء، أو لا ينزل الماء، أو ذكره مثل هُدْبَة الثوب (أي طرف الثوب) أو الممنوع عن إتيان النساء ؛ يعني لا يستطيع على النساء.

قال ابن عثيمين رحمه الله: «فإن في هذا نظرًا واضحًا لأن عدم قدرة الإنسان على النساء ليس كمالاً ؛ إذ إن ذلك ليس منه بتخلق ولكنه عيب».

وقال ابن كثير في تفسيره نقلاً عن القاضي عياض في كتابه «الشفاء»: «اعلم أن ثناء الله على يحيى أنه كان «حصورًا» ليس كما قاله بعضهم... بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين، ونقاد العلماء، وقالوا: هذه نقيصة وعيب، ولا يليق بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب كأنه حصور عنها. إن عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم يمنعها إما بمجاهدة كعيسى عليه السلام، أو بكفاية من الله عز وجل ليحيى عليه السلام، ثم هي في حق من قدر عليها، وقام بالواجب فيها، ولم تشغله عن ربه درجة عليا، وهي درجة نبينا ﷺ الذي لم يشغله كثرتهن عن عبادة ربه، بل زاده ذلك عبادة بتحصينهن وقيامه عليهن، وإكسابه لهن وهدايته إياهن، بل قد صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو، وإن كانت من حظوظ دنيا غيره، فقال ﷺ: «حُبب إليَّ من دنياكم...».

هذا لفظه، والمقصود أنه مدح لحيى بأنه حصور ليس أنه لا يأتي النساء، بل معناه كما قاله هو وغيره: أنه معصوم من الفواحش والقاذورات، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهن وإيلاءهن بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال: ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ كأنه قال: ولدًا له ذرية ونسل وعقب، والله سبحانه وتعالى أعلم. اهـ.

«ونبيًا من الصالحين»: هذه معطوفة أيضًا على «مصدقًا» فهو مصدق ونبي، ولا يلزم من تصديقه بعيسى أن يكون تابعًا له، فها هو محمد عليه الصلاة والسلام مصدق بجميع الأنبياء وهم يتبعونه ولا يتبعهم، ولهذا قال النبي ﷺ: «لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا اتباعي». رواه أحمد.

ولهذا صار إمامًا لهم ليلة المعراج، وإذا نزل عيسى عليه السلام في آخر الزمان يحكم بشريعة النبي ﷺ. المهم أن تصديقه لعيسى ابن مريم لا ينافي أن يكون نبيًا، فهو نبي مصدق بالأنبياء، ولهذا قال: ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾. وقوله: ﴿مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾: أي من جملتهم، وإنما قلنا ذلك لأن النبوة وصف أعلى من الصلاح، لكن هو في جملة الصالحين، فالنبوة صلاح وزيادة، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

من فوائد الآيتين الكريمتين

من فوائد قوله عز وجل: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾:

١- أن جميع الخلق مفتقرون إلى الله، حتى الأنبياء لا يستغنون عن دعاء الله ؛ لقوله: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾.

٢- إثبات القياس ؛ لأنه لما رأى أن الله يرزق هذه المرأة بدون سبب معلوم، علم أن الذي يسوق لها الرزق وهي امرأة منقطعة عن التكسب في محرابها قادر أن يرزقه، إذن هو استدل أو أخذ من هذه القصة عبرة وهو أن يسأل الله أمرًا وإن كان مستبعدًا.

٣- أن الصيغة التي يتوسل بها غالبًا في الدعاء

هي اسم الرب ؛ لقوله: «ربه»، ولم يقل: «الله». ولهذا تجد أكثر الأدعية مصدرة بـ «الرب»، لأن إجابة الداعي من مقتضى الربوبية ؛ لأنها فعل، وكل الأفعال مقتضى الربوبية، فلهذا يتوسل الداعي دائمًا باسم «الرب»، قال النبي ﷺ: «...يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب». رواه مسلم.

٤- أنه لا ينبغي للإنسان أن يسأل مطلق الذرية ؛ لأن الذرية قد يكونون نكدًا وفتنة، وإنما يسأل الذرية الصالحة.

٥- أنه ينبغي للإنسان أن يفعل الأسباب التي تكون بها ذريته طيبة، ومنها دعاء الله، وهو أكبر الأسباب، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى عن الرجل يبلغ أشده أنه يقول: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٣٦].

ولا شك أن صلاح الذرية أمرٌ مطلوب، لأن الذرية الصالحة تنفعك في الحياة، وفي الممات ؛ لقول النبي ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له». رواه الترمذي والنسائي.

٦- التوسل إلى الله تعالى بأسمائه المناسبة للحاجة ؛ لقوله: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أي: مجيبه، وهكذا ينبغي أن تكون الأسماء التي يتوسل بها الإنسان في دعائه مناسبة للمدعو به، فالداعي بالمغفرة يتوسل باسم الغفور وبالرحمة، والداعي بالرزق يتوسل باسم الرازق، وهكذا.

٧- إثبات سمع الله وكرمه وقدرته. وجه ذلك: أنه يسمع الدعاء، ويجيب من دعاه، وقادر على الإجابة، فإن قال قائل: أحيانًا يدعو المرء ولا يستجيب الله دعاءه، وهنا زكريا عليه السلام يقول: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾، وقال إبراهيم: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

فالجواب: أن يقال: إن عدم إجابة الله الدعاء، إما أن يكون لوجود مانع، وإما أن يكون لمصلحة الداعي أو لفوات شرط، فأما إذا تمت الشروط وانتفت الموانع ولم تقتض المصلحة خلاف ما دعا به الداعي، فإن الله تعالى يستجيب الدعاء قطعًا ؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، فإذا دعا الإنسان ربه وقلبه لاهٍ يقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، لكن قلبه مشغول بشيء آخر، فهذا فيه سوء أدب مع الله، فهنا قد تتخلف إجابة الدعوة لعدم وجود الشرط.

ومن الموانع: أن يكون الإنسان آكلاً للحرام- والعياذ بالله-، فإن أكل الحرام من أكبر موانع إجابة الدعاء، وفي الحديث: «إن الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وغُذي بالحرام فأنى يُستجاب لذلك». رواه مسلم.

فهنا قد تتخلف إجابة الدعاء لوجود مانع، وقد تكون لمصلحة الداعي يدخر الله له عنده أعظم مما سأل، أو يعلم الله سبحانه وتعالى أنه لو أجابه لحصل عليه مضرة في دينه، مثل أن تكون إجابته سببًا لفتنته عن دينه فبرحمة الله وحكمته لا يستجيب له هذا الدعاء لمصلحة الداعي.

ولهذا ينبغي للإنسان ألا يضجر إذا دعا الله فلم يستجب له، وألا يسأم ويستحسر.

ومن فوائد قوله عز وجل: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾:

١- إثبات الملائكة، وأنهم عالم غيبي مخلوقون من النور، خلقهم الله عز وجل لما أعدهم له، فقاموا به على حسب ما أراد خالقهم عز وجل، يسبحون الليل والنهار لا يفترون.

وأخبر النبي ﷺ بقوله: «أطت السماء وحُقَّ لها أن تئط (الأطيط: ما يسمع من صرير الرحل على البعير المحمل حملاً ثقيلاً) ما من موضع أربع أصابع إلا وفيه مالك قائم لله أو راكع أو ساجد». رواه أحمد والترمذي.

وإنكار الملائكة حُكْمُه الكفر، لأنه تكذيب للقرآن الكريم.

٢- أن الملائكة تتكلم بصوت مسموع ؛ لقوله: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾.

٣- جواز تكليم المصلي من قوله: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾، لكن المكلَّم وهو يصلي لا يخاطب الآخر وإنما يجيبه بالإشارة، والأفضل تركه إلا لحاجة، وذلك لأنك إذا كلمته وهو يصلي فإنك تشوش عليه وربما ينسى ويخاطبك.

٤- مشروعية تبشير الإنسان بما يسره، لقوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾، وهذا أمرٌ مشروع في نوعه وجنسه.

٥- يستفاد من هذا تقديم التسمية على اليوم السابع، وهذا إذا كان الاسم مُهَيَّئًا، أما إذا كان غير مهيأ فإنه ينبغي أن يؤخر إلى اليوم السابع.

٦- الثناء على من صدق المرسلين ؛ لقوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾، فإن الله قال ذلك على سبيل الثناء على يحيى، ولا شك أن من صدق من قامت البينات على صدقه فإنه محمود.

٨- أن يحيى عليه السلام مع توافر صفات الكمال في حقه بالسيادة فإنه كان ممنوعًا من مساوئ الأخلاق ؛ لقوله تعالى: «وحصورًا»، فإن أصح وأعم ما قيل فيه أنه ممنوع عن مساوئ الأخلاق.

٩- أن الأنبياء من الصالحين، بل هم في أعلى مراتب الصلاح، فإن مراتب الصلاح أربعة: وهي النبوة، والصديقية، والشهادة، والصلاح، هذا إذا ذكرت جميعًا صارت مراتب، وإن لم تذكر جميعًا صار الصلاح عامًا؛ لقول النبي ﷺ: «إذا قلتم: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فقد سلمتم على كل عبد صالح في السماء والأرض». رواه البخاري ومسلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مختارات من علوم القرآن فضائل ولطائف

سورة آل عمران

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فحديثنا بإذن الله تعالى في هذا العدد يدور حول الآيتين الكريمتين الأربعين والواحدة والأربعين من سورة آل عمران، وهما متصلتان بالآيات السابقة، وذلك لتتم الفائدة، ولما بينهما من قوة الارتباط.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٠].

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى﴾ أي: كيف أو من أين، ﴿يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾، أي: أدركني الكبر الكامل المانع من الولادة فأضعفني، ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾، أي ذات عقر، وهو في المعنى مفعول أي معقورة وهي من الصفات الخاصة بالنساء.

فإن قيل: لما كان زكريا، هو الذي سأل الولد ثم أجابه الله تعالى إلى ذلك، فما وجه تعجبه واستبعاده بقوله: ﴿أَنَّى يَكُونُ﴾ من أين يحصل لي غلام؟ فالجواب على ما في الكشاف أن الاستبعاد إنما جاء من حيث العادة. وقيل: إنه دهش من شدة الفرح، فسبق لسانه. ونقل عن سفيان بن عيينة أن دعاءه كان قبل البشارة بستين سنة، فكان قد نسي ذلك السؤال وقت البشارة، فلما سمع البشارة في زمان الشيخوخة استغرب وكان له يومئذ مائة وعشرون سنة، أو تسع وتسعون سنة، ولامرأته ثمان وتسعون سنة.

وقول زكريا عليه السلام: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ يعني: كيف ؟ ليس استبعادًا ولا استكبارًا، ولكن تثبتًا، وإلا فإنا نعلم أن زكريا عليه السلام قد آمن بما بشره الله به، ولا يمكن أن يستبعده، ولكنه قال ذلك من أجل التثبت، ذلك أن الإنسان ناقص في الإدراك والعلم، ويحتاج إلى شيء يثبت به الأمور.

وإبراهيم عليه الصلاة والسلام لا شك أنه يؤمن إيمانًا كاملاً بأن الله تعالى يحيي الموتى، ومع ذلك قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، لأنه ليس الخبر كالمعاينة.

وقوله: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾، قال: «غلام» مع أنه لم يولد بعد، لكن هذا باعتبار ما سيكون، والتعبير بما سيكون أمرٌ سائغ في اللغة وارد في القرآن، ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٣٦]، يعني: أعصر عنبًا يكون خمرًا، لأن الخمر لا يُعصر، فعبَّر عن الشيء بما يؤول إليه.

ثم قال: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾: الواو هذه يسميها العلماء واو الحال، يعني: أنها تدل على أن الجملة التي بعدها في موضع نصب على الحال، يعني والحال أنه قد بلغني الكبر، فهي حال من الياء في قوله: «لي».

﴿بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ يعني: وصل إليَّ الكبرُ، والحقيقة أنه قد يتراءى للإنسان أن في المعنى قلبًا، هل الكبر بلغك أو أنت بلغت الكبر؟ قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨]، فصار هو الذي بلغ الكبر.

وهنا يقول: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ إذن فالتعبير صحيح في هذا وهذا، فأنت إذا بلغت الكبر فقد بلغك الكبر، وإذا بلغك الكبر فقد بلغته، ﴿وَقَدْ

بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ يعني أصابني، وعادة أن الكبير إذا لم يولد له في سن الشباب فإنه لن يرى الأولاد، لأن الإنجاب والإخصاب إنما يكون في حال الشباب، وكلما تقدمت السن بالإنسان من رجل أو امرأة قلَّ انجابه، فيقول: كيف لما كنت شابًا لا يأيتني ولد والآن يأتيني الولد.

قوله: ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾، امرأته عاقر: يعني لا تحمل، وعاقر لفظه مذكر، لكن معناها هنا مؤنث، وتطلق على الذكر والأنثى، يُقال: رجل عاقر، وامرأة عاقر، وهو الذي لا يُولد له، فالآن كل من الزوجين ليس بصدد الولادة، ولكن الله على كل شيء قدير، وإذا أراد شيئًا فإنما يقول له: كن فيكون، ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾، فكل ما شاءه فعله، لأنه عز وجل لا يمنعه مانع كما نقول نحن في دبر كل صلاة: «اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت». [رواه البخاري].

فالله عز وجل يفعل ما يشاء ؛ لأن له الملك المطلق في خلقه، فلا أحد يمنعه، ولا أحد يسأله لِمَ فعلت ؟ ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ [آل عمران: ٤١].

فلما أيقن بأن الله تعالى سيهب له الولد، ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾، أي: صير لي علامة تدل على هذا الولد، وأنه بدأ ينشأ ليزداد طمأنينة فيما بشره الله به.

والآية في اللغة: العلامة، وآيات الله عز وجل كونية وشرعية، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام أُيدوا بالآيات الدالة على صدقهم، الآيات الكونية والآيات الشرعية، وكثير من الناس يسمي آيات الأنبياء معجزات، وهذه التسمية وإن اشتهرت على الألسن لكن فيها قصورًا، والتعبير الصحيح السليم أن نسميها آيات كما سماها الله تعالى، نسمي ما يحصل من خوارق العادات على أيدي الأنبياء، نسميها آيات، ولهذا لا نجد آية في القرآن سمى الله فيها هذه الخوارق معجزات أبدًا، بل كان يسميها آيات.

والمعجزات لو أخذناها على ظاهرها لشملت ما يأتي به السحرة وما تأتي به الجن ؛ لأن ما يأتي به السحرة أو الجن معجز.

قوله تعالى: ﴿قَالَ آيَتُكَ﴾ يعني: الآية التي تدلك، فأضافها إلى زكريا مع أنه ليس هو الذي أوجدها، لكن لأنها علامة له.

﴿أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا﴾ آيتك: يعني العلامة التي أعطيك إياها ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزًا، يعني لا تخاطبهم إلا رمزًا ثلاثة أيام بلياليها ؛ بدليل قوله تعالى في سورة مريم: ﴿أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠].

وقوله: «إلا رمزًا» إلا: هذه أداة استثناء. ورمزًا: أي إشارة بيد أو رأس أو بالشفتين أو بالعينين ونحوها، فهو لن يستطيع أن ينطق بلسانه مع الناس، ولكن يشير إليهم إشارة، ووجه كون هذه آية: أنه عجز عن النطق مع أنه سليم، وأنه عجز عن النطق مع الناس لا مع الله، وهذا الشيء غريب، يعني إنسان يتكلم يقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لم تأته آفة ولا علة في لسانه، ثم لا يستطيع أن يكلم الناس، هذه آية.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾: أمره الله تعالى بأن يذكر ربه كثيرًا ؛ لأنه بذكر الله تطمئن القلوب ويزداد الإيمان ويستنير القلب، فلهذا أمره الله أن يذكر ربه كثيرًا، وفائدة الأمر بالذكر كثيرًا ؛ أن الله لما أخبره بأنه سيمنعه من مكالمة الناس، بشَّره بأنه لن يمتنع من ذكر الله الذي هو أجل وأشرف من مخاطبة الناس وكلامهم، فأراد الله تعالى أن يسري عنه وأن يذهب عنه ما قد يقع في قلبه، فقال له: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾، وهنا لم يقل له: وإنك ستذكر ربك، بل قال: واذكر ربك، فأمره بذكر الله ليكون ذكره لله تعالى في حال امتناع مكالمة الناس عبادة خاصة مأمورًا بها.

﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ العشي: آخر النهار، والإبكار: أول النهار، وهذان الوقتان قد أمر الله بذكره فيهما فقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]. وقال تعالى: ﴿بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨]، وهنا قال: ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾، والآيات في هذا كثيرة، لأن في

الإشراق مستقبل النهار، وفي العشي مستدبر النهار، فيكون الإنسان شاغلاً وقته أوله وآخره بذكر الله.

قال ابن عثيمين رحمه الله: والعشي يبتدئ من زوال الشمس بدليل حديث البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: صلى بنا رسول الله ﷺ إحدى صلاتي العشي وهي: إما الظهر وإما العصر، وقيل: العشي ما بعد صلاة العصر إلى منتصف الليل، ولكن الأول أصح، نعم المساء يطلق من صلاة العصر إلى منتصف الليل، وأما العشي فهو آخر النهار.

وقوله تعالى: «والإبكار»: الإبكار ليست جمعًا لبكر، لأن جمع بكر أبكار، كسبب وأسباب، لكنها مصدر أو اسم لهذا الوقت المعين الذي هو أول النهار، وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ يشمل تنزيه الله عز وجل عن كل ما لا يليق به.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

من فوائد قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.

١- أنه لا حرج على الإنسان في طلب ما تطمئن به نفسه ؛ لأن زكريا عليه السلام لم يشك في خبر الله، لكن أراد أن يتقدم إليه الفرح والاستبشار بقوة البراهين، وخبر الله لا شك أنه برهان، لكن كلما ازدادت البراهين ازدادت قوة اليقين.

٢- جواز وصف الإنسان بما يكره إذا كان المراد مجرد البيان لا القدح والعيب ؛ لقوله: ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾، ونظيره أن رسول الله ﷺ قال: «أما أبو جهم فلا يضع العصا عن عاتقه». وهذا من باب المشورة، ولكن لم يقصد الرسول ﷺ أن يعيب الرجل، بل قصد أن يبين حاله ليكون الإنسان على بصيرة.

٣- إطلاق الجمع على الواحد، على أن قوله: ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ يدل على أن القائل واحد، وأن قوله: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ﴾، ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ﴾، يعني واحد منهم.

٤- إثبات المشيئة لله عز وجل ؛ لقوله: ﴿مَا يَشَاءُ﴾، وهي مقرونة بالحكمة ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

من فوائد قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾.

١- جواز البحث عما يزيد به الإيمان، وإن كان الإيمان موجودًا، بل قد نقول: وجوب البحث عما يزيد به الإيمان ؛ لأن الإنسان مطلوب منه أن يقوي إيمانه بكل وسيلة.

٢- تمام قدرة الله سبحانه وتعالى بخوارق العادات، فإن كون زكريا عليه السلام لا يكلم الناس إلا رمزًا، لكن في باب التسبيح ينطلق لسانه، هذا من آيات الله، ولهذا قال: ﴿آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا﴾.

٣- أن الآية قد تكون على عكس ما طلبت له، فهي قد طلبت لتحقق الوجود فيما بشّر به، والآية كانت على العكس، كانت إعدام موجود وهو الكلام.

٤- أن الإشارة تقوم مقام العبارة ؛ لقوله: ﴿أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا﴾.

وهذه الفائدة مبنية على أن الإشارة تقوم مقام العبارة عند العجز عن التعبير، ووجه المأخذ أن الاستثناء هنا منقطع، فلا يكون كلامًا لكنه يقوم مقامه عند العجز، وكلا الأمرين حق، فالإشارة تقوم مقام العبارة في الإفهام، ولا سيما عند العجز.

٥- أن الإنسان ينبغي له إذا انقطع عن الناس أن يشغل وقته بذكر الله عز وجل ؛ لأنه لما منع من الكلام مع الناس وصار لا يكلمهم إلا رمزًا، ومعلوم أن الإنسان الذي لا يكلم الناس إلا رمزًا سوف لا يكون حريصًا على مكالمتهم لئلا يتعب أو يُتعب، أمره الله فقال: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾.

٦- فضيلة التسبيح والذكر في هذين الوقتين العشي آخر النهار والإبكار أول النهار، ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

سورة آل عمران

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فما يزال حديثنا متصلاً حول فضائل ولطائف سورة آل عمران، ونتحدث بإذن الله تعالى في هذا العدد عن الآيتين الثانية والأربعين والثالثة والأربعين.

قال تعالى: «وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ» [آل عمران: ٤٢، ٤٣].

الواو حرف عطف، «إذ» منصوبة بفعل محذوف تقديره: اذكر، وتضمين الجملة لهذا يدل على العناية بها، وأنه ينبغي إشهارها وإظهارها حتى تتبين وتتضح للناس، وإنما ذكر الله قصة زكريا ومريم هنا وعيسى فيما بعد؛ لأنها نزلت في وفد نجران الذين قدموا على النبي ﷺ وهم من النصارى، فأراد الله أن يبين لنبيه ﷺ قصة المسيح ومن حوله كاملة حتى يتبين له الأمر تمامًا، فإذا احتاج إلى محاجة النصارى كان عنده علم أفضل مما عندهم.

قوله: «وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ»:

قال النيسابوري رحمه الله: والمراد بالملائكة هنا جبريل كما يجيء في سورة مريم، «فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا» [مريم: ١٧]. اهـ.

ونداؤها باسمها نوع من التكريم، إذ لم يقل: يا هذه باسم الإشارة، بل أتى باسمها - الاسم العلم - تكريمًا لها.

«إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ» أي: اختارك واجتباك لطاعته، وما خصك به من كرامته، وذلك لأن «اصطفى» أصلها «اصتفى» بالتاء، لكن لعلة تصريفية قلبت التاء طاء وهي مأخوذة من الصفوة، أي: جعلك من صفوة الخلق، واصطفاؤه إياها سبحانه وتعالى من عدة وجوه:

منها: أنه تقبلها بقبول حسن حين قالت أمها: «إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا» [آل عمران: ٣٥]، مع أن المعروف عندهم أنه لا يخدم المساجد إلا الرجال، لكن هي قبلت، ومن اصطفائه لها أنه أنبتها نباتًا حسنًا.

ومن اصطفائه لها أيضًا أن الله تعالى اختار أن تكون عند نبي من الأنبياء حتى تتربى في بيت نبوة.

قوله: «وطهرك»: الظاهر أنه طهرها من الأرجاس المعنوية، وأنها بالنسبة للأرجاس الحسية كالبول والغائط والحيض كغيرها من النساء، وليس كما ذهب بعض المفسرين أنها كانت لا تحيض، لكنه طهرها من الأرجاس المعنوية، فبرأها الله تعالى مما رماها به اليهود، وكذلك طهرها من سفاسف الأخلاق، حتى كانت دائمًا في عبادة الله سبحانه وتعالى.

ثم قال: «وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ»: أي: ميزك من بينهن. قال النيسابوري في «غرائب القرآن»: ثم إنه تعالى مدحها بالاصطفاء، ثم بالتطهير، ثم بالاصطفاء، ولا يجوز أن يكون الاصطفاآن بمعنى واحد للتكرار والصرف، فحمل المفسرون الاصطفاء الأول على ما اتفق لها من الأمور في أول عمرها، منها قبول تحريرها مع كونها أنثى، ومنها ما قاله الحسن: ما غذتها أمها طرف عين بل ألقتها إلى زكريا وكان رزقها من عند الله.

ومنها تفريغها للعبادة، ومنها إسماعها كلام الملائكة شفاها، ولم يتفق ذلك لأنثى غيرها، إلى غير ذلك من أنواع اللطف والهداية والعصمة في حقها.

وأما التطهير: فتطهيرها عن الكفر والمعصية، كما قال عز وجل في حق أزواج النبي ﷺ وأهل بيته: «وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا»» [الأحزاب: ٣٣]، وعن مسيس الرجال، وعن الأفعال الذميمة.

وأما الاصطفاء الثاني: فهو ما اتفق لها في آخر عمرها من ولادة عيسى بغير أب وشهادته ببراءتها عما قذفها اليهود، قيل: المراد اصطفاؤها على نساء عالمي زمانها ؛ لما روى البخاري ومسلم أنه ﷺ قال: «كَمُلَ من نساء العالمين أربع: مريم، وآسية امرأة فرعون، وخديجة، وفاطمة». فهي من النساء الكُمَّل، رضي الله عنها.

قال القرطبي: قال علماؤنا رحمهم الله: الكمال هو التناهي والتمام، ويقال في ماضيه: «كَمُل» بفتح الميم وضمها، ويكمل في مضارعه بالضم، وكمال الشيء بحسبه، والكمال المطلق إنما هو لله تعالى خاصة، ولا شك أن أكمل بني آدم الأنبياء، ثم يليهم الأولياء من الصديقين والشهداء والصالحين.

ثم قال تعالى: «يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ»» هذا من خطاب الملائكة أيضًا تقول لها: «يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ»»، والقنوت هو دوام الطاعة، واللام في قوله: «لربك» للاختصاص، أي: قنوتًا خالصًا لله، أي: طاعة خالصة له، لأن من شرط الطاعة أن تكون خالصة لله تعالى.

وقوله: «لربك» الربوبية هنا ربوبية خاصة، تختص بمن خصها الله به، وتفيد تربية أكثر اعتناء واختصاصًا من الربوبية العامة.

وقوله: «واسجدي» الواو حرف عطف، واسجدي: يعني السجود المعروف، وقد ثبت عن النبي ﷺ أن هذه الأمة أمرت أن تسجد على سبعة أعضاء، وعطف السجود على القنوت من باب عطف الخاص على العام.

وذكر الخاص بعد العام يدل على فضله ومزيته، ولا شك أن السجود من أفضل أنواع الطاعة، لذلك كان أقرب ما يكون العبد من ربه عز وجل وهو ساجد.

وقوله: «واركعي مع الراكعين» الركوع معروف وهو انحناء الظهر، وقوله: «مع الراكعين» أي في جملتهم، وليس المراد أنها تصلي مع الجماعة ؛ لأن المرأة لا تخاطب بالصلاة مع الجماعة، لكن كوني في جملة الراكعين الذين يركعون لله عز وجل، وقوله: «مع الراكعين»، ولم يقل: مع الراكعات مع أنها أنثى، إما للتغليب، وإما لأن الاقتداء بالرجال حال الاختفاء من الرجال أفضل من الاقتداء بالنساء.

ولأن الكُمَّل من الرجال أكثر من الكُمَّل من النساء، ولهذا لم يَكمُل من النساء إلا أربع، وقدم السجود على الركوع في قوله: «واسجدي واركعي» ؛ لأن هيئة السجود أفضل وأبلغ في الخضوع، فقدمها على الركوع، أما من حيث الترتيب الفعلي بالنسبة للصلاة فإن الركوع قبل السجود.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١- تعظيم شأن مريم عليها السلام، حيث أمر الله نبيه أن يذكر قصتها لهذه الأمة ؛ لأنه كما قلنا: «وإذ قالت» مفعول لفعل محذوف تقديره: «واذكر إذ قالت».

٢- فضيلة مريم، حيث خاطبتها الملائكة بقولها: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ»».

٣- دليل على ما ذهب إليه بعض أهل العلم أن مريم نبية ؛ لأن الملائكة أوحت إليها وقالت: إن الله اصطفاك... إلخ، ولكن في هذا الاستدلال نظر، لأنه ليس بصريح في أنها نبئت، ومجرد خطاب الملائكة لها لا يثبت نبوتها ؛ لأن النبوة إنما هي لمن أوحي إليه بشرع لا لمن أوحي إليه بثناء أو بتهيئة لما سيكون، بل لمن أوحي إليه بشرع، وهي لم يوح إليها بشرع، فالأمر ليس بصريح، ولدينا آية تدل على أنه لا يبعث من النساء نبية، قال الله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى»» [يوسف: ١٠٩].

قوله: «إلا رجالاً» و«إلا»: تفيد الحصر، فتدل على أنه لا يمكن أن تكون امرأة من النساء نبية، وكذلك أيضًا قول النبي ﷺ حين بلغه أن الفرس أمروا عليهم بنت كسرى، قال: «لن يفلح قوم ولوْا أمرهم امرأة». رواه البخاري.

فكيف يمكن أن يرسل الله تعالى امرأة ليفلح

الناس على يديها.

صحيح أن المرأة تكون عالمة، وتكون داعية كما هو الواقع، أما أن تكون نبية يوحى إليها لتتولى السلطة كما يقولون التشريعية والتنفيذية فهذا بعيد، فالصواب أن مريم من الصالحات القانتات، وليست من الأنبياء والرسل.

٤- أن الله تعالى يصطفي من الناس من يشاء؛ لقوله: «﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾» أي: أنه اختارها اختيارًا لم يشاركها فيه أحد، لأنها صارت خادمة لبيت المقدس مع أنه لا يخدمه عندهم إلا الرجال، فهذا نوع من الاصطفاء.

٥- براءة مريم مما ادعاه اليهود من كونها بغيًا؛ لقوله: «وطهرك»، واليهود - قبحهم الله - اعتدوا على مريم وابنها فقالوا في مريم: إنها بغي، وقالوا في ابنها عيسى: إنه ولد زنا، وكذبوه وقتلوه إثمًا لا حقيقة، كيف قتلوه إثمًا لا حقيقة ؟ لأنهم أمضوا هذا الأمر الذي يظنون أنهم قتلوا به عيسى وصلبوه، «﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾» [آء فكانوا قتلة إثمًا لا حقيقة، لأن عيسى باقٍ إلى الآن، قال تعالى: «﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ...﴾».

٦- أن مريم مفضلة على نساء العالمين، ولكن هل هذا يتناول نساء العالمين إلى يوم القيامة، أو نساء العالمين في زمنها ؟ الراجح أن المراد نساء العالمين في زمنها.

٧- بيان أنه كلما مَنَّ الله سبحانه وتعالى على إنسان بشيء كانت مطالبته بالعبادة أكثر، لأن الملائكة لما قالت: «﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾» أمرتها بالقنوت والسجود والركوع، فدلَّ هذا على ذلك شكرًا بالقنوت لله والركوع والسجود وسائر العبادات.

٨- فضيلة القنوت لله، ولكن ما هو القنوت ؟ دوام الطاعة، والخشوع والاشتغال بالطاعة عما سواها، ولهذا لما نزلت هذه الآية: «﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾» [البقرة: ٢٣٨]، أمروا بالسكون ونهو عن الكلام ليشتغلوا بالطاعة عما سواها، فالقنوت دوام الطاعة مع الاشتغال بها عن غيرها.

٩- جواز ترك الترتيب للمصلحة أو لمراعاة شيء آخر، لقوله: «﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي﴾»، ولا يقول قائل: لعل الصلاة في عهدهم يقدم فيها السجود، وفي هذه الشريعة يقدم فيها الركوع، نقول: الأصل خلاف ذلك، لكن نص على السجود وبدأ به، لأنه أبلغ في القنوت من الركوع.

١٠- أن العُبَّاد من الرجال أكثر من العُبَّاد من النساء ؛ لقوله: «﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾»، ولم يقل مع الراكعات إشارة إلى أن الكمال في الرجال، وكثرة العمل في الرجال أظهر منها في النساء، ولهذا كانت النساء أكثر أهل النار كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

إشهار

تشهد مديرية التضامن الاجتماعي بالشرقية، أنه قد تم قيد لائحة النظام الأساسي لجمعية أنصار السنة المحمدية بجزيرة النص بفاقوس شرقية، برقم (١٨٣٥) بتاريخ ٦/٧/٢٠٠٨م، طبقًا للقانون (٨٤) لسنة ٢٠٠٢ بشأن الجمعيات والمؤسسات الأهلية واللائحة التنفيذية لذلك القانون.

إشهار

كما تشهد مديرية التضامن الاجتماعية بكفر الشيخ، أنه قد تم إشهار فرع أريمون - كفر الشيخ، برقم (١٠٤٧)، بتاريخ ٢/١١/٢٠٠٨م والله الموفق.

لطائف من سورة آل عمران

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فما زلنا نتحدث بعون الله ومدده حول لطائف سورة آل عمران، ونتحدث بإذن الله في هذا العدد عن الآية الخامسة والأربعين، قال تعالى: «إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ» [آل عمران: ٤٥].

قوله: «إذ قالت الملائكة يا مريم» يعني: اذكر إذ قالت الملائكة: يا مريم، والمراد جنس الملائكة، والمشهور أنه جبريل.

وقوله: «إن الله يبشرك» ذكرنا في مقال سابق أن معنى البشارة في الأصل الإخبار بما يسر، وأنها قد تطلق على الإخبار بما يسوء، بجامع أن كل ما يسر وما يسوء يُغير البشرى ويؤثر فيها.

وقوله: (بكلمة) تحتمل وجهين:

الوجه الأول: أن الكلمة هي المبشر به كما تقول: بشرته بولد، فتكون الكلمة هي البشرى.

الوجه الثاني: أن المراد بالكلمة هنا الصيغة التي حصلت بها البشارة، أي يبشرك بشارة عن طريق النطق بها، كما تقول: بشرته بالقول لا بالكتابة أي: أن الوسيلة التي حصلت بها البشارة هي الكلمة، يعني أن الله سبحانه وتعالى قال كلمة فيها البشرى بالمسيح عيسى ابن مريم، فالوجهان محتملان. أما على الاحتمال الثاني فلا إشكال أن تقع البشارة بالنطق، لكن على الوجه الأول أن الكلمة هي المبشر به، فكيف يكون المبشر به كلمة مع أنه إنسان ؟ أجاب العلماء عن ذلك بأنه أطلق عليه الكلمة، لأنه كان بالكلمة لا بالوسائل الحسية المعلومة، لأن الولد في العادة يأتي بواسطة النكاح، لكنه لم يأت عليه السلام بالنكاح بل أتى بالكلمة، «إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» [آل عمران: ٥٩]، فلهذا صح أن يطلق عليه الكلمة، وفي هذه الآية إشكال آخر إذا قلنا إن الكلمة تعني المبشر به، فما معنى (منه)، فإن (من) تفيد التبعيض، كما قال ابن مالك رحمه الله في الخلاصة:

بَعِّض وبَيِّن وابتدأ في الأمكنة

بمن وقد تأتي لبدء الأزمنة

الشاهد قوله: (بَعْضٍ) فإن مِنْ تفيد التبعيض، فهل معنى ذلك أن عيسى بعض من الكلمة كما قالت النصارى، الجواب: لا، ليس بعضًا من الله، لأن الله واحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، ولا يقرأ أحد هذه الآية ويدعي البعضية إلا من في قلبه زيغ، «فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ» [آل عمران: ٧]، والنصراني كما اتبع المتشابه في هذه الآية، اتبع المتشابه في قوله: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» [الحجر: ٩]، قال: هذا كلام الله يقول: (إنَّا)، (وإنَّا) تفيد الجمع فاتبع المتشابه، انتصارًا لرأيه الفاسد، ولا يخفى على كل ذي لب أن المراد بقوله: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» [الحجر: ٩]، وما أشبهها التعظيم لا التعدد، كذلك هنا (بكلمة منه: لا يقتضي أن يكون عيسى عليه السلام بعضًا من الله عز وجل، لأنك إن ادعيت أنه بعض من الله، فَلْتدَّع أنه كلمة الله، ومعلوم أنه لا أحد يدعي أن عيسى مجرد كلمة، بل هو بشر له جسم وروح يأكل ويشرب، وهل الكلمة كذلك؟! لا. إذن فيتعين أن تكون (مِنْ) إما ابتدائية وإما بيانية، يعني بكلمة صادرة من الله عز وجل بأن قال: كن فكان، نظير هذه الآية قوله تعالى: «وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ» [الجاثية: ١٣]، هل يدعي أحد أن ما في السماوات وما في الأرض بعض من الله، لا، حتى النصراني لا يدعي ذلك، لكن هنا (مِنْ) إما للابتداء يعني ابتداء التسخير من الله أو للبيان، بيان من المسخِّر، مَنْ جاء بهذا التسخير.

قال تعالى: «بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ».

«اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ» اسم: مبتدأ، والمسيح: خبر، وعيسى: خبر ثاني، وابن مريم: خبر ثالث، وإنما قلنا ذلك لأنك لو أفردت كل واحد عن الآخر لاستقام الكلام، لو قلت: اسمه ابن مريم صحَّ، اسمه عيسى صحَّ، اسمه المسيح صحَّ، وعلى هذا كل واحد منها خبر، وقيل: بل الثلاثة خبر واحد، والآية التي معنا «اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ»، لا يستقيم هذا المعنى فيها، وبناء على ذلك نقول: إن كل واحد منها خبر، مثل قوله تعالى: «وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ» [البروج].

فهذه خمسة أخبار، هذه الأخبار جمعت أنواع العلم، التي أشار إليها ابن مالك بقوله:

واسمًا أتى وكنية ولقبا
وأخِّرن ذا إن سواه صحبا

أي: الاسم عيسى، واللقب: المسيح، والكنية: ابن مريم.

هذه الكلمات الثلاثة قد جمعت أنواع العلم الثلاثة: الاسم، واللقب، والكنية، لكن يبقى عندنا إشكال في قول ابن مالك: (وأخرن ذا) يعني اللقب إن سواه صحبا، فإنه في الآية الكريم قدَّم اللقب فيبقى إشكال إذن: كيف نجمع بين هذا الكلام من هذا العالم في النحو وبين الآية؟ من المعروف أن علماء النحو رحمهم الله لا تضيق عليهم أبدًا، يقولون: حجج النحاة كبيوت اليرابيع (نوع من الفأر) قالوا: الجواب عن الآية: أن اللقب إذا اشتهر به الإنسان حتى صار كالعلم أو كالاسم جاز أن يقدم ولهذا نجد في كلام العلماء: الإمام أحمد بن حنبل، المسيح عيسى ابن مريم على وزن المسيح ابن مريم: الإمام محمد بن إدريس الشافعي، فيقدم الإمام مع أنه لقب، للاشتهار إذن لا إشكال فيه، قال: إنما «اسمه المسيح» واختار الله تعالى له اسم المسيح لأنه كان لا يمسح ذاعاهة إلا برأ، فهو يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيى الموتى ويخرجهم من قبورهم، وهذه الأمور لا تتم لكل أحد، بل لا تتم لأحد أبدًا إلا بإذن الله عز وجل.

«عيسى ابن مريم» ولم ينسبه إلى أب له، لكن لماذا نسبه إلى أمه؟ الجواب: إشارة إلى أن لا يقول قائل إنه ينسب إلى كافله زكريا فبدأت الملائكة وبينت أن هذا الرجل ينسب إلى أمه، عيسى ابن مريم.

«وجيها في الدنيا والآخرة» قوله: «وجيها» هذه منصوبة على الحال، حال من المسيح أي: حال كونه وجيهًا في الدنيا، والوجيه هو ذو الجاه، وهو الشرف والمكانة والسيادة، وقد كان كذلك عليه الصلاة والسلام أما وجاهته في الدنيا فلأنه كان أحد الرسل الكرام، بل هو من أولي العزم وأولو العزم هم أعظم الناس جاهًا في الدنيا والآخرة، كما قال الله تبارك وتعالى عن موسى: «وكان عند الله وجيها» [آل عمران: ٦٩]، وأما وجاهته في الآخرة فلأنه من أولي العزم من الرسل

الذين هم بأعلى درجات الجنة، ولهم بالآخرة مقامات لا تكون لغيرهم.

فإن قيل: من هم أولو العزم من الرسل ؟ فالجواب: أنهم أولو الحزم في الأمور والصبر عليها.

قال تعالى: «فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ» [الأحقاف: ٣٥]. والمشهور في (من) في هذه الآية أنها للتبعيض، وأن أولو العزم هم الخمسة الذين ذكروا في آيتين من القرآن الكريم، وبعضهم جعل (مِنْ) بيانية، وعلى هذا يكون جميع الرسل من أولي العزم، لكن المشهور الأول.

وهم مذكورون في آيتين من القرآن:

الأولى: في سورة الشورى في قوله تعالى: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ» [الشورى: ١٣].

والثانية: في سورة الأحزاب في قوله تعالى: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا» [الأحزاب: ٧].

وقوله: «من المقربين» هذا وصف ثالث، أنه من المقربين إلى الله تعالى في الدنيا والآخرة، لأن المقرب يكون مقربًا في الدنيا ويكون كذلك مقربًا في الآخرة، فعيسى ابن مريم عليه السلام وجيه في الدنيا والآخرة، وكان من المقربين إلى الله عز وجل، ثم قال تعالى: «وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ».

قوله: «وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ» الواو حرف عطف، والجملة معطوفة على ما سبق، «وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ» أي: في حال الصغر، وأصل المهد أو المهاد الفراش يوضع للإنسان فيطؤه ويستريح عليه، وهذا من آيات الله عز وجل، لأن العادة التي أجرى الله سبحانه وتعالى البشر عليها أن لا يتكلم أحد إلا في سن معين، أما في المهد فلم يتكلم إلا ثلاثة، منهم عيسى ابن مريم، وتكلم بكلام من أبلغ الكلام لما جاءت به قومها تحمله: «قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا» [مريم: ٢٧-٣٣]، كلام من أفصح الكلام وأعظمه، وهو في المهد، وهذا من آيات الله عز وجل الدالة على قدرته، ولهذا كانت آيات عيسى كلها تدور حول هذا الأمر حول خوارق العادات في الأمور الكونية، فهو نفسه آية خَلْقٍ بلا أب، وكلم الناس في المهد، ويصنع من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرًا، ويبرئ الأكمه والأبرص، ولا أحد يبرئهما من الأطباء، ويحيي الموتى ويخرجهم من القبور، قال أهل العلم: لأنه بعث في زمن ترقّى فيه الطب ترقيًا عظيمًا، فجاء بآيات من جنس الآيات التي فيها إعجازهم، ومن جنس الأعمال التي يعملونها، فيكون ذلك أبلغ في الإعجاز، كما جاء موسى عليه السلام بالعصا واليد التي تبطل سحر السحرة، وكان السحر في وقته قد زاد وانتشر، وكما أتى محمد ﷺ بكلام هو أبلغ الكلام وأفصحه لانتشار الفصاحة في زمنه وعهده، حتى يعجز هؤلاء البلغاء ويتبين أنه ليس من كلام البشر.

قال: «وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا».

يعني: ويكلمهم وهو كهل من الحادية والثلاثين إلى الأربعين، وفي هذه الحال ليس غريبًا أن يكلم الناس، ولكنه أتى بها لفائدة، وهي أن كلامه في المهد ككلامه وهو كهل، يعني ليس ككلام الصبي الذي يتكلم في المهد كلام أطفال، بل كلامه فصيح من أبلغ الكلام كما يتكلم به وهو كهل.

قال: «وَمِنَ الصَّالِحِينَ».

يعني وهو من الصالحين، والصالح من صلحت سريرته وعلانيته، يعني ظاهره وباطنه، باطنه: بالإخلاص لله والطهارة من كل شرك ونفاق وشك وأحقاد وبغضاء للمؤمنين وما أشبه ذلك.

وظاهره: بالمتابعة للرسول عليه الصلاة والسلام وعدم الابتداع فهو عليه السلام من الصالحين الذين صلحت ظواهرهم وبواطنهم، وإن شئت فقل: سرائرهم وعلانيتهم.

وصلى الله وسلم على محمد وآله وصحبه وسلم.

لطائف من سورة آل عمران

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فلا يزال الحديث متصلاً حول قصة مريم ومعجزة ولادة عيسى عليه السلام، وسنتكلم في هذا العدد حول الآية السابعة والأربعين من سورة آل عمران:

قال تعالى: «قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ».

«قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ» هي الآن تخاطب الله، والذي كان يخاطبها الملائكة أو جبريل، لكنها لما قالوا إن الله يبشرك وعلمت أن الأمر من الله وجهت الخطاب إليه سبحانه وتعالى فقالت: «رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَد»، وتأمل هذا الاستعطاف منها حيث قالت: «رب»، ومعلوم أن كلمة رب هنا مضافة إلى ياء المتكلم التي حذفت للتخفيف وأصلها: «ربي أنَّى يكون لي ولد».

وقولها: «أنى يكون لي ولدٌ» هذا استفهام يعني: من أين يكون لي الولد ولم يمسسني بشر، وهذا الاستفهام ليس على سبيل الشك، وليس على سبيل الاستبعاد، ولكنه على سبيل الاستثبات وزيادة الطمأنينة كقول إبراهيم عليه السلام: « رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى » [البقرة: ٢٦٠]، ولم يكن ذلك عن شك، وقوله: « وَلَمْ يَمْسَسْنِي » جملة حالية، يعني والحال أنه لم يمسسني بشر، أي: لم يجامعني، لأن المس يطلق على الجماع، ويكنى به عنه كما قال تعالى: «لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن» [البقرة: ٢٣٦] أي: تجامعوهن، «ولم يمسسني بشر» فمن أين يكون الولد؟ «قال كذلكِ»، قال الله عز وجل لأنها نادت الله: «رب أنى يكون لي ولد» «... قال كذلكِ»، يعني الأمر كذلك، فالجار والمجرور خبر لمبتدأ محذوف تقديره «الأمر»، وعلى هذا فيحسن الوقوف هنا، أي يحسن أن تقف فتقول: كذلك، ثم تبتدئ فتقول: «الله يخلق ما يشاء»، وهذا التركيب له نظائر في القرآن، مثل قوله: «كذلك وزوجناهم بحور عين» [الدخان: ٥٤]، وإنما تأتي هذه الصيغة للتقرير والتثبيت، يعني الأمر مثلما وقع تماماً.

وقوله سبحانه وتعالى: «الله يخلقُ ما يشاء».

«الله» لفظ الجلالة مبتدأ، وجملة يخلق خبر، أي: أن الله سبحانه يخلق ما يشاء سواء كان على وفق العادة أو على خلاف العادة، فعيسى عليه السلام جاء على خلاف العادة، لكن مثله عند الله كمثل آدم خلقه من تراب - أي خلق آدم من تراب - ثم قال له كن فيكون، فالله على كل شيء قدير.

وقد ذكر أهل العلم أن البشر منهم من خلق بلا أم ولا أب، ومنهم من خلق من أم بلا أب ومنهم من خلق من أب بلا أم، وأكثر الخلق من أم وأب.

فالذي خلق من غير أم ولا أب «آدم»، ومن أب بلا أم «حواء» امرأة آدم، ومن أم بلا أب «عيسى» وسائر الناس من أب وأم.

«الله يخلق ما يشاء» أي: الذي يشاء كمًا وكيفًا وعلى سبب معلوم وعلى سبب غير معلوم، فالله سبحانه لا معقب لحكمه، ويخلق ما يشاء، قلنا: بالكمية والكيفية والسبب المعلوم والسبب غير المعلوم وأيضًا النوعية، والنوعية ما أكثر أنواع الخلق لا يحصيها الإنسان فضلاً عن أفرادها، وما أكثر الخلق، لو أردت أن تحصي الخلائق ما استطعت، والله تعالى قد أحصاهم ورزقهم وأمدهم وأعد كل مخلوق لما خُلق له، قال فرعون: «فمن ربكما يا موسى (٤٩) قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى» [طه: ٤٩، ٥٠]، كل شيء أعطاه الله خلقه المناسب له ثم هداه لما خلق له، انظر أحيانًا تفتش الكتاب للمراجعة فتجد فيه حيوانًا لا يدركه البصر إلا بكلفة ! مَن خلقه؟ الله، ومن أمده برزقه المناسب له ؟ هو الله عز وجل، فما بالك بالخلق الكثير الذي هو أكبر من هذا بكثير؟! الحاصل أن الله يخلق ما يشاء كمًا وكيفًا ونوعًا، وبسبب معتاد وبسبب غير معتاد، لا حَجْرَ على الله عز وجل، يخلق ما يشاء ويفعل ما يشاء.

وعبر هنا بالخلق وفي قصة يحيى بالفعل، حينما قال زكريا عليه السلام: « قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ » [آل عمران: ٤٠] لما أن ولادة العذراء من غير أن يمسها بشر أبدع وأغرب من ولادة عجوز عاقر من شيخ فكان الخلق المنبئ عن الاختراع أنسب بهذا المقام من مطلق الفعل.

«إذا قضى أمرا» هو من كلام الله. وقضى: أي قضاءً كونيًا، لأن القضاء له معنيان كوني وشرعي، فمن أمثلة الشرعي قوله تعالى: «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه» [الإسراء: ٣]، ومن أمثلة الكوني قوله تعالى: «وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا» [الإسراء: ٤] قضينا شرعًا أو كونا؟ الجواب: كونًا، ولا يصح شرعًا، لأن الله لا يقضي شرعًا بالفساد أبدًا، فهو لا يحب الفساد لكنه قضاء كوني.

والفرق بين القضاءين الكوني والشرعي:

١- أن القضاء الشرعي متعلق بما يحبه الله من فعل المأمور أو ترك المحظور، والقضاء الكوني يتعلق فيما أحبه الله وفيما لا يحبه الله.

٢- القضاء الشرعيْ قد يقع وقد لا يقع، قد يقع من المقضى عليه وقد لا يقع، والقضاء الكوني لا بد أن يقع من المقضي عليه.

ومن أمثلة القضاء الكوني: قوله تعالى: «فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ » [سبأ: ١٤]، وقوله تعالى: « وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ » [هود: ٤٤]، وكقوله تعالى: « وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ » [القمر: ٥٠]، وقوله تعالى: «وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا» [النساء: ٤٧]، وقوله تعالى: « وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا » [مريم: ٢١].

وقوله تعالى: « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا » [الإسراء: ١٦].

فهذا قضاء كوني لا قضاء ديني شرعي، فإن الله لا يأمر بالفحشاء، والمعنى قضينا ذلك وقدرناه.

ومن أمثلة القضاء الشرعي: قوله تعالى: « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » [النحل: ٩٠]، وقوله: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى

أَهْلِهَا» [النساء: ٥٨]، وكقوله تعالى: «مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ» [المائدة: ١٠٣] أي: ما شرع ذلك ولا أمر به.

قال تعالى: «إِذَا قَضَى أَمْرًا» «أَمْرًا» مفرد جمعه أمور أم أوامر ؟

الجواب: أمور، لأن المراد هنا الشأن يعني: إذا قضى شأنًا - أي شأن من الشئون - فإنما يقول له كن فيكون، لا يحتاج إلى عمل ولا إلى آلات ولا إلى أي سبب، كل الخلائق مسلمة لله عز وجل: «وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ» [آل عمران: ٨٣]، تنتظر الأوامر، إذا صدر الأمر من الله عز وجل كان المأمور الأمر الكوني: بقول كن فقط فيكون. قال الله تعالى عن البعث، بعث الخلائق كلها: «فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ» [النازعات: ١٣- ١٤].

وبين الله تعالى في سورة القمر كيف هذا الأمر هل يكرر ؟ هل يتأخر المأمور ؟ فقال: «وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ» [القمر: ٥٠]، ولا يوجد تكرار - واحدة - ولا يتأخر المأمور «كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ» [القمر: ٥٠] يعني لو شاء الله عز وجل لأمر هذه الأرض أن تزول ومن فيها بلحظة: «كُنْ فَيَكُونُ»، هذه القدرة التامة العظيمة التي لا تنسب قدرة الخلق إليها.

«إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» أي: فلا يتأخر شيئًا، بل يوجد عقيب الأمر بلا مهلة.

ثم قال تعالى: «وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ» [آل عمران: ٤٨]، «وَيُعَلِّمُهُ» الضمير يعود على عيسى، والفاعل هو الله عز وجل يعلمه الكتاب لأن عيسى كغيره من البشر لا يعلم إلا ما علمه الله، قال الله تعالى: «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ» [الجن: ٢٦، ٢٧].

«الكتاب»: بمعنى المكتوب، وهل المراد أنه يعلمه الكتابة، يعني يحسن الخط أو المراد أنه يعلمه الكتب السابقة ؟

الجواب: كلاهما لا يتنافيان علمه الكتابة فكتب، وعلمه الكتب السابقة وعلمه التوراة والإنجيل، والتوراة من باب عطف الخاص على العام لشرفه، وأما الإنجيل فإنه لم ينزل على أحد قبل عيسى.

وقوله: «والحكمة» يعني الشريعة، لأن الشريعة من الله، وكل ما كان من الله فهو متضمن للحكمة، قال الله تعالى لنبينا محمد ﷺ: «وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا» [النساء: ١١٣]، فالحكمة هي الشرع، وهو موافق لمن فسر ذلك بالسنة ؛ لأن سنة النبي ﷺ هي شرعه الذي جاء به من الله، فعلمه الله عز وجل الحكمة، و«ال» في «الحكمة» للعهد الذهني، يعني الشرع الذي شرعه الله لعيسى وليس كل الحكمة بل الحكمة التي شرعت له.

«والتوراة والإنجيل» التوراة: الكتاب الذي أنزله على موسى والإنجيل الكتاب الذي أنزله الله على عيسى، التوراة كتبها الله تعالى كتابة «وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ» [الأعراف: ١٤٥]، ولهذا قال أهل العلم من علماء السلف: إن الله تعالى غرس جنة عدن بيده، وخلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده سبحانه وتعالى، ونزلت ألواحًا على موسى وفيها ما تقتضيه المصلحة والحاجة والضرورة في ذلك الوقت.

وأما الإنجيل: فهو الكتاب الذي أنزله الله تعالى على عيسى، وهو بالنسبة للتوراة كالمكمل لها كما قال تعالى فيما يأتي من الآيات: «وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ» [آل عمران: ٥٠]، فهو كالمتمم للتوراة، لأنه في الحقيقة نزل على بني إسرائيل الذين أنزلت عليهم التوراة، ومن المعلوم أن حال بني إسرائيل تغيرت من وقت موسى إلى عيسى، فكان في الإنجيل أشياء فيها تعديل أو زيادة فهو متمم للتوراة.

وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

لطائف من سورة آل عمران

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فلا يزال حديثنا متصلاً حول قصة مريم وآية ولادة عيسى عليه السلام، وسنتكلم في هذا العدد بإذن الله تعالى حول الآية التاسعة والأربعين من سورة آل عمران.

قال تعالى: «وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» (آل عمران: ٤٩).

قوله تعالى: «وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ»

«وَرَسُولاً» الواو حرف عطف، «وَرَسُولاً» منصوب بفعل محذوف تقديره: ونجعله رسولاً، وهنا بحث جيد يجدر بنا أن نذكره في هذا المقام وهو الفرق بين النبي والرسول وقد تعددت الأقوال في الفرق بين النبي والرسول، وكلها لا تخلو من مناقشة، ولا تسلم من اعتراضات ترد عليها وسأذكر هنا بعض أقوال أهل العلم في هذه المسألة:

قال ابن عثيمين رحمه الله: الرسول: هو الذي أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه، فإن لم يؤمر بتبليغه فهو نبي، هذا هو المشهور عند عامة العلماء رحمهم الله، وقيل: إن النبي لم يوح إليه بشرع وإنما كان مؤيدًا لشريعة قبله، يعني يوحى إليه بتأييد الشريعة التي قبله، فكانت الأنبياء فيما سبق كالعلماء في هذه الأمة، وقد رجح رحمه الله تعريف الجمهور في النبي والرسول، وقد رد هذا القول العلامة الشنقيطي في أضواء البيان فقال رحمه الله: «إن ما اشتهر على ألسنة أهل العلم، من أن النبي هو من أوحي إليه وحي، ولم يؤمر بتبليغه، وأن الرسول هو النبي الذي أوحي إليه، وأمر بتبليغ ما أوحي إليه غير صحيح، لأن قوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ» الآية، يدل على أن كلا منهما مرسل، وأنهما مع ذلك بينهما تغاير واستظهر بعضهم أن النبي الذي هو رسول أنزل إليه كتاب وشرع مستقل مع المعجزة التي ثبتت بها نبوته، وأن النبي المرسل الذي هو غير الرسول، هو من لم ينزل عليه كتاب وإنما أوحي إليه أن يدعو الناس إلى شريعة رسول قبله، كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا يرسلون ويؤمرون بالعمل بما في التوراة كما بينه تعالى بقوله: «يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا» الآية.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فروقًا كثيرة بين النبي والرسول، وهذه الفروق مبنية على الكتاب والسنة، فخرج تفريقه بين النبي والرسول من أرجح التفريقات ومن أسلمها من الانتقادات.

ويمكن تلخيص هذه الفروق فيما يلي:

١- النبي:

هو من ينبئ بما أنبأه الله به، ولا يُسمى رسولاً عند الإطلاق لأنه لم يُرسل إلى قوم بما لا يعرفونه، بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفونه أنه حق كالعالم، ولهذا قال النبي ﷺ عن العلماء: «العلماء ورثة الأنبياء». إذ النبي يعمل بشريعة من قبله، فقوله: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ» دليل على أن النبي مرسل فالأنبياء يأتيهم وحي من الله بما يفعلونه ويأمرون به المؤمنين الذين عندهم، لكونهم مؤمنين بهم، كما يكون أهل الشريعة الواحدة يقبلون ما يبلغه العلماء عن الرسول، وكذلك أنبياء بني إسرائيل يأمرون بشريعة التوراة وقد يوحى إلى أحدهم وحي خاص في قضية معينة، ولكن كانوا في شرع التوراة كالعالم الذي يفهمه الله في قضية ما معنى يُطابق القرآن.

فالأنبياء ينبئهم الله، فيخبرهم بأمره ونهيه وخبره وهم ينبئون المؤمنين بهم ما أنبأهم الله من الخبر والأمر النهي.

٢- الرسول:

هو من أنبأه الله وأرسله إلى من خالف أمره ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول.

فالرسل من أرسلوا إلى كفار يدعونهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، ولا بد أن يكذب الرسلَ قومٌ، قال تعالى: «كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ»، وقال تعالى: «مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ»، فإن الرسل ترسل إلى مخالفين، فيكذبهم بعضهم.

والرسول يسمى رسولاً على الإطلاق، لأنه يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه، وليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة، فإن يوسف عليه السلام كان رسولا، وكان على ملة إبراهيم عليه السلام وداود وسليمان عليهما السلام كانا رسولين، وكانا على شريعة التوراة.

والإرسال: اسم عامٌ يتناول إرسال الملائكة، وإرسال الرياح وإرسال الشياطين، وإرسال النار، قال تعالى: «يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ» (الرحمن: ٣٥)، وقال تعالى: «جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ» (فاطر: ١)، فهنا جعل الملائكة كلهم رسلاً، والملَك في اللغة: هو حامل الألوكة وهي الرسالة، وقد قال في موضع آخر: «اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ» (الحج: ٧٥)، فهؤلاء الذين يرسلهم بالوحي، كما قال: «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ» (الشورى: ٥١)، وقال تعالى: «أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا» (مريم: ٨٣).

لكن الرسول المضاف إلى الله: إذا قيل: رسول الله، فهم مَنْ يأتي برسالة من الله، من الملائكة، والبشر، كما قال: «اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ»، وقالت الملائكة: «يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ» (هود: ٨١).

وأما عموم الملائكة، والرياح، والجن: فإن إرسالها لتفعل فعلاً لا لتبلغ رسالة، قال تعالى: «اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا» (الأحزاب: ٩).

فرسل الله الذين يبلغون عن الله أمره ونهيه: هم رسل الله عند الإطلاق، وأما من أرسله الله ليفعل فعلاً بمشيئة الله وقدرته: فهذا عامٌ يتناول كل الخلق، كما أنهم كلهم يفعلون بمشيئته وإذنه المتضمن لمشيئته، لكن أهل الإيمان يفعلون بأمره، ما يحبه ويرضاه، ويعبدونه وحده، ويطيعون رسله، والشياطين يفعلون بأهوائهم، وهم عاصون لأمره، متبعون لما يسخطه وإن كانوا يفعلون بمشيئته وقدرته. وأما حكمته في إرسال بشر، فقد ذكر أنه من جنسهم، وأنه بلسانهم فهو أتم في الحكمة والرحمة، وذكر أنهم لا يمكنهم الأخذ عن الملك لأن رؤية الملائكة أمر صعب وخطير وأنه لو نزل ملكًا، لكان يجعله في صورة بشر، ليأخذوا عنه، قال تعالى: «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ» (الأنعام: ٩)، ولهذا لم يكن للملائكة إلا أن تأتي في صورة الآدميين، كما كان جبريل يأتي في صورة دحية الكلبي، وكما أتى مرة في صورة أعرابي.

ولما جاءوا إبراهيم وامرأته حاضرة، كانوا في صورة بشر، وبشروها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، قال تعالى: «وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا».

والرسالة أعلى مرتبة من النبوة، وعدد الأنبياء لا يحصى إذ يزيد عددهم على ما جاء في بعض الآثار مائة وعشرين ألفًا، أما الرسل فهم قلة، والذين ذكروا في القرآن الكريم يجب الإيمان بهم تفصيلاً، وهم خمسة وعشرون وكلهم من الرسل، وهؤلاء الذين ذكروا في القرآن يجب الإيمان بهم تفصيلاً، بمعنى أنه يتعين التصديق برسالتهم بأشخاصهم وأسمائهم، لأنهم ذكروا في القرآن الكريم، أما بقية الأنبياء فيجب الإيمان بهم جملة بمعنى أن نصدق بأن هناك أنبياء غير هؤلاء الذين ذكروا في الكتاب العزيز؛ لأن الله تبارك وتعالى قد أخبر عنهم بقوله: «وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا» (النساء: ١٦٤).

فالأنبياء والمرسلون هم الصفوة المختارة من عباد الله الذين شرفهم الله بالنبوة وأعطاهم الحكمة، ورزقهم قوة العقل، وسداد الرأي، واصطفاهم ليكونوا وسطاء بينه وبين خلقه يبلغونهم أوامر الله عز وجل، ويحذرونهم غضبه وعقابه ويرشدونهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

وهؤلاء الأنبياء والرسل الأطهار ليسوا بدرجة واحدة من الفضل والمكانة، بل بعضهم أفضل من بعض، فقد جعلهم الله تعالى درجات، وفي ذلك يقول الله تعالى: «تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ» (البقرة: ٢٥٣)، ويقول أيضًا: «وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً» (الإسراء: ٥٥).

ومن الرسل الكرام من سماهم القرآن الكريم «أولي العزم» وهم قادة الأنبياء وسادتهم، وقد ذكرهم الله تعالى بالثناء العاطر، وأمر رسوله ﷺ أن يقتدي بهم في جهادهم وصبرهم وإن كان ﷺ منهم فقال عز من قائل: «فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ» (الأحقاف: ٣٥)، وإنما سموا بـ «أولي العزم»؛ لأن عزائمهم كانت قوية، وابتلاءهم كان شديداً، وجهادهم كان شاقًا ومريرًا.

ونرجع إلى ما كنا نتحدث فيه حول آية آل عمران وقوله تعالى: «وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ»: «بني إسرائيل» وهل هذا اسم قبيلة أو اسم أشخاص معينين ؟ الجواب: أنه اسم قبيلة، كما يقال: بنو تميم، والعلماء رحمهم الله يفرقون بين ابن وبني إذا كان اسمًا لقبيلة أو اسمًا لشخص معين، وذكروا ذلك في باب الوقف وفرعوا عليه مسائل، فإذا قلت: هذا وقف على بني فلان وهم قبيلة كبني تميم مثلاً، فهل يعم الجميع ؟ وهل يشمل الذكور والإناث ؟ قالوا: نعم، يعم الجميع ويشمل الذكور والإناث، ولكن لا يجب التعميم فيجوز أن يوزع هذا الوقف على ثلاثة من بني تميم فقط ويجوز أن يعطى ثلاث نساء فقط؛ لأنه لا يختص بالرجال بل يشمل الذكور والإناث، ولأنه لا يستلزم التعميم.

أما لو قلت: هذا وقف على ابن فلان (واحد معين من الناس) فإنه يجب للذكور دون الإناث، لأن الابن غير البنت، ولأن بني فلان المعين يمكن حصرهم فيجب تعميمهم، والتساوي بينهم وإخراج النساء منهم.

فبنو إسرائيل من أي الصنفين ؟ الجواب: من الأول، من القبيلة، وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وهم بنو عم لبني إسماعيل، ولهذا لما بعث النبي ﷺ في بني عمهم - بني إسماعيل - غارت اليهود وأنكروه وكانوا بالأول يستفتحون على الذين كفروا، ويقولون: سيبعث نبي آخر الزمان، وظنوا أنه سيكون من بني إسرائيل، وليس ظنًا حقيقيًا، بل هو وَهْمٌ، لأنهم يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم، ويعلمون أنه سيبعث في مكة، لكن توهموا ذلك، أوهمتهم أنفسهم الكاذبة، فلما بعث في بني إسماعيل أنكروه وكذبوه، ومعنى إسرائيل في السريانية أو في العبرية: عبد الله، والآن تسمى الدولة اليهودية «إسرائيل».

«أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ» يعني بعلامة على صدق قولي، وكما قال ذلك لهم قالوا وما هذه الآية، قال: «أَنِّي أَخْلُقُ» أي أصور وأقدر وأهيئ بيدي - وقوله: «لكم» تقييد لقوله: «أَخْلُقُ» لأنه يدل دلالة ما، على أنه لم يُرد الإيجاد من العدم، ويصرح بذلك قوله: «بِإِذْنِ اللَّهِ»، ومنه قوله تعالى: «وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا» (العنكبوت: ١٧)، قال ابن عباس: هو نحت الأصنام، سماها «إفكًا» توسعًا من حيث يفترون بها الإفك في أنها آلهة، وقال مجاهد: هو اختلاق الكذب في أمر الأوثان وغير ذلك.

«من الطين» يصور من الطين شكل طير، ثم ينفخ فيه فيطير عيانًا بإذن الله عز وجل الذي جعل هذا معجزة له تدل على أنه أرسله.

وقوله: «أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ» أي: كمثله وصورته فينفخ فيه فيكون طيراً، وفي قراءة لنافع وأبي جعفر ويعقوب: «فيكون طائرًا بإذن الله»، والباقون: «فيكون طيرًا»، والقراءتان لكل واحدة منهما معنى يكمل الأخرى، فقوله: «فَيَكُونُ طَيْرًا» أي: طيرًا حيًا بعد أن كان على صورة الطير وليس فيه روح، وقوله: «فيكون طائرًا» أي: يطير، تشاهدونه يطير بالفعل، فعندنا ثلاث مراتب:

١- تصوير على هيئة الطير.

٢- طير فيه روح على قراءة (فيكون طيرًا).

٣- طير يطير بالفعل على قراءة (طائرًا) بإذن الله.

وعلى هذا فيكون: يخلق شيئًا على هيئة الطير فينفخ فيه فيكون فيه روح ثم يطير.

وقوله: «بِإِذْنِ اللَّهِ» هذا من أجل تحقيق التوحيد حتى لا يظن ظان أنه يخلق استقلالاً؛ لأنه لولا هذا التقييد «بإذن الله» لتوهم النصراني وغير النصراني أن عيسى عليه السلام يخلق كما خلق الله آدم من طين على صورته، ثم نفخ فيه الروح فصار بشرًا فيظن الظان أن عيسى يخلق كخلق الله، فلهذا كان يقول عليه السلام: بإذن الله.

وللحديث بقية نستكمله في العدد القادم إن شاء الله. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

لطائف من سورة آل عمران

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

ففي هذا العدد نستكمل الكلام حول لطائف الآية التاسعة والأربعين من سورة آل عمران، حيث تكلمنا في العدد السابق حول شطر الآية الأول، ونتكلم في هذا العدد عن الشطر الثاني، وهو قوله تعالى: «وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

قوله: «وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ».

أبرئ: بمعنى أشفي، والبرء في الأصل من البراءة، والبراءة من الشيء السلامة منه، ومنه برأ من دَيْنه أي سلم من غائلته أي: من غائلة الدين وضيق الدين، فالبرء من المرض يعني السلامة والشفاء منه.

وقوله: «الأكمه»: الأكمه قيل: إنه الذي لا يبصر ليلاً ويبصر نهارًا، وقيل: العكس، وقيل: هو الذي لا يبصر إلا بمشقة، وقيل: الذي ولد بلا عين أي ولد أعمى، فإن كان الأكمه في اللغة العربية يحتمل هذه المعاني كلها، فهو للمعاني كلها، وإن كان لا يحتمل إلا معنى واحدًا، فأقرب الأقوال في ذلك أن الأكمه من وُلِدَ بلا عين أي أعمى، لأن هذا أبلغ في القدرة، لأنه كلما كان أبلغ في القدرة كان أعظم في الآية.

«والأبرص» من به برص، والبرص معروف وهو بياض يظهر في الجلد وهو قد يؤثر على الصحة العامة في البدن، وقد لا يؤثر، لكن البرص ليس له دواء، ولهذا قال: أبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله.

وقوله: «وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ» أحيي الموتى الذين ماتوا، أحييهم بإذن الله، وليس المراد بالموتى هنا موتى معينين بل هو للجنس، فأي واحد من الأموات يمكن أن يقع عليه هذا الأمر، أما قول من قال: إنه أحيا سام بن نوح أو أحيا فلانًا أو أحيا فلانًا، فهذا من الإسرائيليات، لكن الآية أنه يحيي الموتى، أي ميت يقف عليه وهو ميت يأمره فيحيا بإذن الله.

وقوله: «وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ».

أي: أخبركم بما تأكلونه اليوم وما تدخرونه للغد في بيوتكم من غير أن يأتي أحد يخبره بذلك، وهذا فيه شيء من علم الغيب، فأخبرهم أن من جملة آياته أنه يخبر الإنسان يقول: أكلت اليوم كذا وكذا وكذا، وادخرت لغدٍ أو بعد غدٍ كذا وكذا، مع أنه لم يبعث أحدًا يطلّع على ما في البيت، وهذا لا يكون إلا بوحي من الله، فإذا لم يكن هناك بشر يطلعه على ما في البيوت، فإنه يكون من وحي الله، وقد يكون بواسطة الجن، فإن الجن ربما تخدم الإنس فتذهب إلى الأمكنة البعيدة أو تتسور الجدران وتخبر ما في البيوت، لكن الجن الذي على هذا الوصف لا يجوز الاستمتاع به أو الاتصال به ؛ لماذا ؟ لأن اطلاعه على أحوال الناس ظلم وعدوان، ولا يجوز للإنسان أن يستعين بظالم على ظلمه، ولهذا يمتنع هذا التقدير في حقِّ عيسى عليه السلام، يعني لو قال قائل: إن الذين يستعينون بالجن ربما يطلعون على ما يؤكل ويدخر في

البيوت، قلنا: لكن هذا لا يرد بالنسبة إلى عيسى؛ لأن الاستمتاع بالجن على هذا الوجه محرم لما فيه من العدوان والظلم، وعيسى لا يمكن أن يفعل هذا، فتبين أنه يأتيه عن طريق الوحي، والحكمة من إخبارهم بهذا هي:

١- إطلاعهم على أنه عليه السلام يأتيه من الله في أمور خاصة في البيوت.

٢- تحذيرهم - والله أعلم - من أن يأكلوا شيئًا محرمًا عليهم، ولهذا سيأتي أنه قال لهم: «وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ» [آل عمران: ٥٠]. لأنهم إذا كانوا يعلمون أنه يعلم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم فسوف يتوقفون عن الشيء المحرم، وهم إذا توقفوا عن الشيء المحرم ربما ييسر الله لهم فيحله لهم.

وهناك لطيفة ذكرها الشيخ عبد الرحمن باجه جي زاده في كتابه «الفارق بين الخالق والمخلوق»: «واعلم أن تخصيص المسيح عليه السلام بإبراء الأكمه والأبرص لحكمة، هي أن الزمن الذي أرسل فيه المسيح زمنٌ ترقى فيه الطب إلى درجة الكمال، فأيده الله بتلك المعجزات، ليقروا بعجزهم فيما يدعون ويعلموا أن ذلك شيء خارق للعادة وخارج عن طوق قدرتهم، لا يدخل تحت قانونٍ أحكموه ولا اختراع ابتدعوه وليعلموا أنه من عند الله، كما أن معجزات موسى عليه السلام مثل قلب العصا ثعبانًا وانفلاق البحر له ولقومه وهكذا، لحكمةٍ هي أن السحر في زمنه أخذ دورًا عظيمًا في الترقي، ولهذا آمنت السَّحرةُ عندما شهدوا بذلك، إذ علموا أن هذا لا يدخل تحت الأعمال السحرية، وهذا معلومٌ عندكم بالضرورة ومسطور في التوراة.

والحاصل أن الباري جلت حكمته، يؤيد كل نبيٍّ بالمعجزات التي تكون حجة على الأمة المرسل إليها ذلك النبي».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الجواب الصحيح» عن عيسى عليه السلام: «أنه خلق من الطين كهيئة الطير، والمراد به تصويره بصورة الطير، وهذا الخلق يقدر عليه عامة الناس، فإنه يمكن أحدهم أن يصور من الطين كهيئة الطير وغير الطير من الحيوانات، ولكن هذا التصوير محرم، بخلاف تصوير المسيح، فإن الله أذن له فيه، والمعجزة أنه ينفخ فيه الروح فيصير طيرًا بإذن الله عز وجل ليس معجزة مجرد خلقه من الطين،

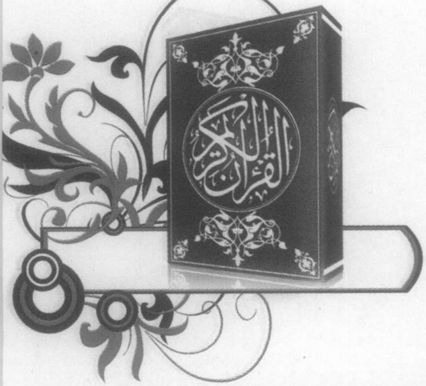

فإن هذا مشترك، وقد لعن النبي ﷺ صورين وقال: «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون». رواه البخاري ومسلم.

وأن الله أخبر المسيح أنه إنما فعل التصوير والنفخ بإذنه تعالى - وأخبر المسيح عليه السلام أنه فعله بإذن الله، وأخبر الله أن هذا من نعمة التي أنعم بها على المسيح عليه السلام، كما قال تعالى: «إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ» [الزخرف: ٩]، وقال تعالى: «يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي» [المائدة: ١١٠].

وهذا كله صريح في أنه ليس هو الله، وإنما هو عبد الله فعل ذلك بإذن الله، كما فعل مثل ذلك غيره من الأنبياء، وصريح بأن الآذن غير المأذون له والمُعلم ليس هو المعلَم، والمُنعم عليه وعلى والدته ليس هو إياه، كما ليس هو والدته.

قوله: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

أي: إن في ذلك؛ المشار إليه ما سبق من عدة أمور، فهذه ثلاث آيات ذكرت في هذه الآية كل آية تدل على صدق عيسى عليه السلام وأنه رسول الله حقًا، لأن مثل هذا لا يستطيعه البشر، وآيات الأنبياء التي جاءت هي علامات على صدقهم لا يستطيع أن يأتي بمثلها البشر، لأن الآية لو أمكن للبشر أن يأتوا بمثلها لم تكن آية، إذ إن كل إنسان يستطيع أن يفعل مثل هذا.

وقوله: «إن كنتم مؤمنين» يعني أنها آية بهذا القيد، أي: إن كنتم مؤمنين، وأما غير المؤمنين فإنه لا ينتفع بالآيات ولا تكون الآية آية له، قال تعالى:

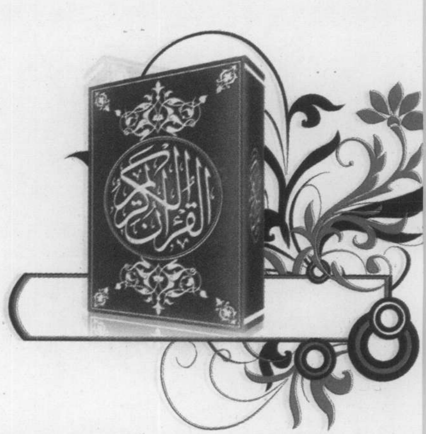

«وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ» [يونس: ١٠١]، لأن قلوبهم قاسية مطبوع عليها – والعياذ بالله – فالمؤمن هو الذي ينتفع بالآيات، بل إن غير المؤمن يرى أن هذه الآيات العظيمة أساطير الأولين: «إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ» [القلم: ١٥]، وذلك بسبب ما كان على قلبه من ظلمات المعاصي والعياذ بالله، لقوله: «كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» [المطففين: ١٤].

والإيمان: معناه التصديق المستلزم للقبول والإذعان وليس مجرد التصديق إيماناً، ودليل ذلك أنه لا يتعدى بما يتعدى به التصديق، فإنه لا يقال: آمنته، ويقال: صَدَّقْتُه، بل إنه يتضمن الإقرار والاعتراف والانقياد والتسليم، ومن صدق ولم يقبل ولم يذعن فليس بمؤمن، فأبو طالب عم النبي ﷺ كان مصدقًا برسالته، لكنه لم يقبل ولم يذعن فلم يكن مؤمنًا، وإلا فإنه مصدق كما يقول بأشعاره وفي أحواله لكنه – والعياذ بالله – ليس بمؤمن، إذن الإيمان معنى زائد على التصديق وليس هو مجرد التصديق.

من فوائد الآية الكريمة:

١- أن عيسى ابن مريم قد جاء بالبينة من الله ؛ لأن كل رسول يرسله الله إلى البشر لا بد أن يأتي بآية، يؤخذ من قوله: «أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ».

٢- الإشارة إلى وجوب قبول رسالته ؛ لقوله: «مِنْ رَبِّكُمْ» يعني: فإذا كان ربكم أوجب أن تكونوا له عبيدًا فتتقبلوا ما جاءت به رسله.

٣- قدرة الله عز وجل حيث جعل عيسى ابن مريم يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله في الحال، بينما في الأحوال العادية لا يكون طيرًا إلا بعد مدة، بعد أن يفقس من البيضة ويترعرع فيطير.

٤- أن ما فعل بأمر الله فهو حلال مباح، وإن كان نظيره بدون أمر حرامًا كقوله: «أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ»، فلو أن أحدًا أراد أن يصنع تمثالاً من الطين على هيئة الطير لكان ذلك حرامًا، لكن لما كان بأمر الله صار هذا حلالاً، ولهذا نظائر، السجود لغير الله، والسجود لغير الله بأمر الله طاعة، ولهذا سجد الملائكة لآدم، فكانوا طائعين، واستكبر عن ذلك إبليس فكان من الكافرين – قتل النفس المحرمة ولا سيما ذو الرحم من كبائر الذنوب، وإذا كان بأمر الله كان مما يقرب إلى الله، فإبراهيم عليه السلام أمر بذبح ابنه إسماعيل فامتثل، وكان امتثاله لذلك طاعة لله عز وجل.

هكذا خلق عيسى كهيئة الطير لينفخ فيها فتكون طيرًا بإذن الله، هذا من الأمور التي أبيحت له بأمر الله عز وجل.

٥- إطلاق وصف الخلق على المخلوق، أي أن المخلوق يكون خالقًا ؛ لقوله: «أَخْلُقُ لَكُمْ»، وهذا له نظائر، قال تعالى: «تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» [المؤمنون: ١٤]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم في المصورين: «يقال لهم: أحيوا ما خلقتم»، لكن خلق غير الخالق ليس خلقًا في الحقيقة، ولكنه تغيير أو تحويل، فالإنسان مثلاً يخلق من الطين صورة لكن الذي خلق الطين هو الله عز وجل لا يمكن أن يخلق جميع الخلق شيئًا على وجه الاستقلال، وإنما خلقهم الأشياء يعني تغيير صورة الأشياء أو تحويلها من شيء إلى شيء أو ما أشبه ذلك.

٦- هذه المعجزة العظيمة لعيسى ابن مريم وهو أنه ينفخ في هذا التمثال حتى يكون طيرًا، وفي قراءة طائرًا، والفرق بينهما هو أن الطير قد يطير وقد لا يطير، ولكنه يطير طيرًا بإذن الله في الحال.

٧- أن من آيات عيسى عليه السلام أنه يبرئ الأكمه والأبرص لكن لا استقلالاً، بل بإذن الله، وإلا فلا أحد يشفي من المرض – أي مرض كان – إلا بإذن الله عز وجل حتى الأشياء التي جعلها الله تعالى بطبيعتها شفاء للأمراض لا تشفي إلا بإذن الله، وكم من دواء كان مفيدًا ونافعًا لهذا المرض المعين ثم يستعمله المريض فلا ينتفع به.

٨- الآية العظيمة وهي إحياء الموتى، وهذا من آيات الله، وفي الآية الأخرى: «وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي» [المائدة: ١١٠] في الآيتين إحياء الموتى وإن كانوا على ظهر الأرض، وإحياء الموتى، وإن كانوا في القبور وإخراجهم منها أحياء، يعني إذا ضممت

هذه إلى هذه استفدت فائدتين، أنه يحيى الموتى وهم على ظهر الأرض ويحييهم وهم في بطن الأرض فيخرجون «وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي» [المائدة: ١١٠]، وفي هذه الآية الكريمة إثبات الحكمة لله عز وجل، وأن الله جعل لعيسى من الآيات ما يكون مناسبًا لزمنه وعصره، حيث أوتي من الآيات ما يعجز عنه من كانوا محل تعظيم الناس في ذلك الوقت وهم الأطباء، ففي عهد عيسى عليه السلام ترقَّى الطب ترقيًا عظيمًا ولكن مع ترقي الطب فإنه لم يصل إلى ما وصل إليه عيسى فإن الأطباء لا يبرئون الأكمه ولا الأبرص ولا يحيون الموتى ولا يخرجونهم من القبور، لكن عيسى عليه السلام يأتي بهذه الآيات بإذن الله عز وجل.

قال أهل العلم: وفي عهد موسى عليه السلام ترقى السحر ترقيًا عظيمًا، فكانت آياته معجزة تقهر السحرة وذلك بالعصا واليد، ومحمد ﷺ وبُعث في قوم يفخرون بالبلاغة والفصاحة ويرونها هي محل التقدير والاحترام، فكانت آياته أن جاء بكلام يعجز عن مثله البشر في بلاغته وفي معانيه وأحكامه... إلى آخر وجوه الإعجاز في القرآن.

٩- إثبات الإذن لله، لا الأذن، الأُذن هي الجارحة أو العضو الذي يكون في الإنسان لتلقي الأصوات، وأما الأذْن فهو الإباحة والترخيص وما أشبه ذلك، أما الأُذن فلا يجوز أن نثبتها لله ولا ننفيها عنه، لأن الصفات توقيف، والله عز وجل لم يثبت لنفسه أذنًا ولم ينف عنه الأذن، وإنما أثبت لنفسه السمع، والسمع ليس بشرط أن يكون من ذي أذن، فها هي الأرض تسمع وتحدث أخبارها وليس لها آذان، المهم أن الإذن هنا غير الأُذن، وإذن الله عز وجل ينقسم إلى قسمين: إذن شرعي، وإذن كوني، فما تعلق بالخلق فهو إذن كوني، وما تعلق بالشرع فهو إذن شرعي، هذا هو الضابط، ففي قول الله تعالى: «أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ» [الشورى: ٢١].

الإذن هنا شرعيٌ وليس كونيًا، وقوله: «مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِه» [البقرة: ٢٥٥]، إذن كوني، وكذلك هنا: «فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ».

١٠- أن الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يملكون شيئًا من الربوبية، وذلك لتقييد فعل عيسى بإذن الله.

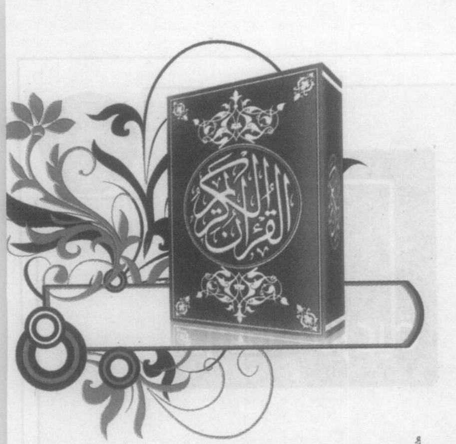

١١- الردُّ على النصارى في زعمهم أن عيسى عليه السلام له حق في الربوبية وكذبوا في ذلك فعيسى عبدٌ، عبد الله ورسوله، قال لقومه: «إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ» [آل عمران: ٥١]، وقال الله تعالى عنه: «إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ» [الزخرف: ٥٩]، فهو عبد لا يملك من الربوبية شيئًا أبدًا ؛ لأن الربوبية من حق الله الخالص الذي لا يشركه فيه أحد.

١٢- إثبات الحكمة لله سبحانه وتعالى في أن الله أطلع نبيه عيسى عليه السلام بما يأكل قومه وما يدخرون مما يخفى على غيره حتى يخافوا أن يخفوا شيئًا لا يرضاه الله ورسوله، يعني إذا كان ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم معناه أنه يطلع على أسرارهم البيتية، وهذا يلزمهم ألا يبيتوا شيئًا لا يرضاه.

١٣- أنه ينبغي التكرار في المقام الهام لقوله: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ»، مع أنه قال في الأول: «قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ» وذلك لأن الأمور الهامة ينبغي تكرارها أولاً من أجل أن يتبين للمخاطب أهميتها عند المتكلم وأنه ذو عناية بها، والثاني من أجل أن ترسخ في الذهن، لأنه كلما تكرر الشيء ازداد رسوخًا.

١٤- أن الإيمان يحمل صاحبه على قبول الآيات التي جاءت بها الرسول لقوله: «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»، وهذا شيء كثير، قد تعلق الأحكام بالأوصاف إما بأدوات الشرط المعروفة، وإما بغير ذلك، المهم أن تعليق الأحكام بالأوصاف سواء عن طريق الشرط أو عن طريق الصفة المعروفة في النحو أو المبدل أو غير ذلك جار في القرآن والسنة.

وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه وسلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

لطائف من

سورة آل عمران

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد: فما يزال حديثنا متصلاً حول قصة عيسى عليه السلام، وما صاحبها من آيات ومعجزات، وسنتكلم في هذا العدد بإذن الله تعالى حول الآيتين الخمسين والواحدة والخمسين من سورة آل عمران.

قال الله تعالى: «وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» [آل عمران: ٥٠، ٥١]، قوله تعالى: «وَمُصَدِّقًا» معطوفة على ما سبق «أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ» أي: حال معطوفة على قوله: «بِآيَةٍ» يعني أنها منصوبة على الحال ومعناها: وجئتكم مصدقًا لما بين يدي من التوراة أي مقررًا لها ومثبتًا.

والمصدق: المخبر بصدق غيره، وأدخلت اللام في «لما» على المفعول للتقوية والدلالة على تصديق مثبت محقق، أي: مصدقًا تصديقًا لا يشوبه شك ولا نسبة إلى الخطأ، وجعل التصديق متعديًا إلى التوراة توطئة لقوله: «وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ».

«وما بين يدي» أي: ما تقدم قبلي، لأن المتقدم السابق يمشي بين يدي الجائي فهو هنا تمثيل لحالة السبق، وإن كان بينه وبين نزول التوراة أزمنة طويلة، قدرها صاحب «فتح البيان» بألف سنة وتسعمائة سنة وخمس وسبعين سنة، لأنها لما اتصل العمل بها إلى مجيئه، فكأنها لم تسبقه بزمن طويل، ويطلق ما بين اليدين على ما سيق، فما بين اليدين يطلق على ما مضى، ويطلق على ما يستقبل، وكذلك يستعمل بين يدي كذا في معنى المشاهد الحاضر كما في قوله تعالى: «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ»، وقيل: المستقبل هو ما بين الأيدي والماضي هو الخلف.

وقيل عكس ذلك، وهما استعمالان مبنيان على اختلاف الاعتبار في تمثيل ما بين الأيدي والخلف، لأن ما بين أيدي المرء هو أمامه، فهو يستقبله ويشاهده ويسعى للوصول إليه، وما خلفه هو ما وراء ظهره، فهو قد تخلف عنه وانقطع ولا يشاهده، وقد تجاوزه ولا يتصل به بعد. وقيل أمور الدنيا وأمور الآخرة، وهو فرع من الماضي والمستقبل.

هذه هي إطلاقات ما بين اليدين والخلف، والذي يعنينا هنا في هذه الآية قول عيسى عليه السلام: «وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ»، وهو ما سبقه، وتقدم قبله من أحكام التوراة.

وقوله: «من التوراة» هي الكتاب الذي أنزله الله على موسى عليه الصلاة والسلام، وهي

أصل الكتب المنزلة على بني إسرائيل وأعظمها، بل هي أعظم الكتب فيما نعلم بعد القرآن.

وقوله: «وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ»:

أي: وجئتكم أيضًا لأحل لكم بعض الذي حُرم عليكم، وقال «بعض» ولم يقل: «كل» والمحرم عليهم ذكره الله في قوله: «وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ» [الأنعام: ١٤٦].

وقال تعالى: «فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ» [النساء: ١٦٠]، فلما حرمت عليهم هذه الطيبات لظلمهم وعدوانهم وبعث الله عيسى عليه السلام أحلَّ لهم بعض ما حرم عليهم، ولم يُذكر في القرآن بيان هذا البعض فيكون باقيًا على إطلاقه، ولو كان لنا مصلحة في تعيين ذلك لبينه الله.

وهناك أقوال نقلها أهل التفسير تبين هذا البعض.

قال ابن كثير - رحمه الله -: فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة وهو الصحيح من القولين، ومن العلماء من قال: لم ينسخ منها شيئًا، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه خطأ، وانكشف لهم عن الغطاء في ذلك.

قال القاسمي: من البعض الذي أحله عيسى عليه السلام لهم فعل الخير في السُّبُوت، وقد كانوا يعتقدون تحريم مطلق عمل يوم السبت. قال قتادة: كان قد حرم عليهم موسى الإبل والثروب (جمع ثرب وهو الشحم الرقيق الذي يغشي الكرش والأمعاء والمصارين من الذبائح والأنعام)، وأشياء من الطير فأحلها عيسى عليه السلام.

وقال الربيع: وأشياء من السمك وما لا مخلب له من الطير، وكان في التوراة محرمات تركها شرع عيسى على حالها.

وقوله: «بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ» الفعل هنا مبني لِمَا لَمْ يسم فاعله للمجهول، ولكن فاعله معلوم وهو الله عز وجل كما قال الله تعالى: «وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ» [الأنعام: ١٤٦].

«وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ» كرر هذا مرة أخرى بعد قوله: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ» [آل عمران: ٤٩]، فإما أن تقتصر على تصديقه لما بين يديه من التوراة وعلى إحلاله بعض الذي حرم عليهم وحينئذ لا يكون في الآية تكرار، وإما أن يقال: إن قوله: «وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ»، يشمل كل ما جاء به من الآيات، ويكون هذا من باب التأكيد وإقامة الحجة عليهم، فكرر مجيئه بالآيات احتجاجًا عليهم لما كذبوا.

قال: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ»:

«اتَّقُوا اللَّهَ»: يعني: اتخذوا وقاية من عذابه، لأن التقوى مأخوذة من الوقاية، فبماذا تكون الوقاية من عذابه؟ تكون بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وهذا هو المعنى الشامل للتقوى عند الإطلاق وإذا قرنت التقوى بالبِرِّ صار المراد بها اجتناب المحارم، مثل قوله تعالى: «وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى» [المائدة: ٢]، وقد عرف أهل العلم التقوى بعدة تعريفات، لكن يجمعها ما ذكرناه من أنها اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

قال: «وَأَطِيعُونِ» أي: وأطيعوني فيما أمرتكم به وفيما نهيتكم عنه، وطاعته من التقوى بلا شك لكن نص عليها لأنها تقوى خاصة فيما جاء به عيسى، لأن التقوى يؤمر بها كل إنسان، فإذا قيل: «أطيعون» صارت تقوى خاصة في طاعة هذا الرسول الذي بعث إلى قومه، والطاعة قال العلماء في تفسيرها: إنها موافقة الأمر تجنبًا للنهي وفعلاً للمأمور، فمن تجنب النهي ناويًا بذلك امتثال الأمر فهو مطيع، ومن فعل الأمر ناويًا بذلك امتثال الأمر أيضًا فهو مطيع، أما من ترك النهي أو بعبارة أصح المنهي عنه عجزًا عنه فإن هذا ليس بمطيع، بل إذا سعى في أسبابه حتى عجز كان كمن فعله ؛ لقول النبي ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار». قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «لأنه كان حريصًا على قتل صاحبه». رواه البخاري ومسلم.

ثم قال: «إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ»:

لما أمرهم بتقوى الله ذكر ما هو كالسبب في ذلك، فقال: «إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ»، والربُّ هو الخالق المالك المتصرف، وتوحيد الله بالربوبية أن نؤمن بأنه لا خالق ولا مالك ولا مدبر إلا الله سبحانه وتعالى، وما يضاف من الخلق أو الملك أو التدبير لغير الله فإنه على وجه ناقص من حيث الشمول ومن حيث التصرف.

فمثلاً الخلق يضاف إلى غير الله، وقد مرَّ علينا قريبًا أن عيسى قال: «أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ»

[آل عمران: ٤٩]، وقال تعالى: «فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» [المؤمنون: ١٤]، وقال الله في الحديث القدسي: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي». رواه البخاري.

وقال النبي ﷺ «أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله». رواه البخاري ومسلم.

وقال عليه الصلاة والسلام: «يقال لهم: أحيوا ما خلقتم». رواه البخاري ومسلم، ولكن الخلق المضاف إلى غير الله عز وجل ناقص ليس إيجادًا حقيقة ولكنه تغيير لصورة، فمثلاً الإنسان يخلق من الخشب بابًا، هل هو خلق الخشب؟ ومن الحديد سيارة هل خلق الحديد؟ كلا، ولكن حوله من حال إلى حال فصار هذا خلقه، لكنه ليس هو الذي أوجد الحديد أو الخشب حتى يقال: إن خلقه كخلق الله. أيضًا: خلق الإنسان أو البشر عمومًا ليس عامًا شاملاً، لأن كل إنسان يخلق ما صنع فقط، وما لم يصنعه فليس من خلقه.

المهم أن الربوبية هي انفراد الله بالخلق والملك والتدبير، ولا يعني ذلك أن لا أحد يشاركه في خلق أو ملك أو تدبير، لكن على وجه لا يماثل ما يثبت للخالق من ذلك، فالإنسان قد يخلق فيقال خالق، ويقال مالك، ويقال مدبر، لكنه كما سبق ناقص ليس إيجادًا حقيقة ولكنه تغيير للصورة كما ذكرنا آنفًا.

قوله: «ربي وربكم» بدأ بنفسه ليكون أول مذعن لهذا الربِّ عز وجل، لأن الربَّ خالق مالك مدبر، فبدأ بنفسه ليكون هو أول من يذعن وينقاد لهذا الرب.

قوله: «فَاعْبُدُوهُ»: الفاء هنا عاطفة وتفيد السببية أيضًا أي: بسبب كونه ربي وربكم اعبدوه، ولهذا نقول: إن الإقرار بتوحيد الربوبية يستلزم الإقرار بتوحيد الألوهية، وأن من أقر بتوحيد الربوبية وأنكر توحيد الألوهية فقد تناقض، ولذلك سفَّه الله المشركين الذين كانوا يقرون بتوحيد الربوبية ثم ينكرون توحيد الألوهية فيقول: «أَنَّى تُصْرَفُونَ» [يونس: ٣٢]، «أَنَّى يُصْرَفُونَ» [غافر: ٦٩]، «أَنَّى يُؤْفَكُونَ» [المائدة: ٧٥].

وما أشبه ذلك مما يدل على أنه من السفه أن يقر الإنسان بأن الله وحده هو الخالق المالك المدبر ثم يعبد غيره.

«فاعبدوه»، وما هي العبادة؟

العبادة: مأخوذة من الذل، عَبَدَ بمعنى ذَلَّ، ومنه قولهم: طريق معبد ؛ أي: مذلل لسالكيه، فأصلها الذل لكنها بالنسبة لله عز وجل ذلٌّ مقرون بمحبة وتعظيم، فكل من تعبد لله فإن تعبده هذا مقرون بهذين الأمرين المحبة والتعظيم، فبالمحبة يكون الطلب، وبالتعظيم يكون الهرب، فالإنسان إذا أحب شيئًا طلبه، وإذا عظَّم شيئًا هابه وخاف منه، ولهذا كانت العبادة مبنية على الرجاء والخوف.

والعبادة تطلق أحيانًا على هذا المعنى الذي ذكرنا باعتبارها مصدرًا وهو أي التذلل لله مع المحبة والتعظيم، وتطلق أحيانًا على اسم المفعول أو على الشيء المتعبد به، وحينئذ نقول: إنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، فالصلاة عبادة، والزكاة عبادة، الصوم عبادة والحج عبادة، وبر الوالدين عبادة، وصلة الأرحام عبادة، وهكذا فأحيانًا تطلق على الفعل، وأحيانًا على المفعول.

قال: «فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ».

هذا المشار إليه إما أقرب مذكور أو كل ما سبق في قوله: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ»، هذا: أي تقوى الله وطاعة رسوله وتحقيق العبادة له.

«صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» أي: طريق، ولا يسمى الطريق صراطًا إلا إذا اجتمع فيه السعة والاعتدال، لأنه مأخوذ من «السَّرط» وهو الابتلاع بسرعة، وإن شئت فقل: من «الزرط» وهو الابتلاع بسرعة والطريق الواسع المستقيم يبتلع سالكيه بسرعة، لأن الضيق لا يمشي الناس فيه إلا رويدًا رويدًا ببطء، وغير المستقيم لا يوصل للغاية إلا ببطء سواء كان انحرافه على اليمين أو الشمال أو من حيث الصعود والنزول، فإنه إذا كان صاعدًا نازلاً أتعب السالك.

إذًا هو: «مستقيم» يعني: لا اعوجاج فيه، ووصفه بالاستقامة بعد أن قلنا إن الصراط هو الطريق الواسع المستقيم الذي ليس فيه اعوجاج من باب التوكيد، كما تقول: هو رجل رجل، ما معنى: رجل رجل؟ يعني: جامع لمعاني الرجولة، كذلك «صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» يعني: جامع لكل معاني الطريق، «هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ».

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

لطائف من سورة آل عمران

إعداد/ مصطفى البصراتي

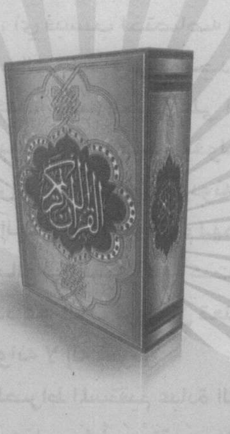

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

ففي هذا العدد نتكلم عن فوائد الآيتين الخمسين والحادية والخمسين من سورة آل عمران وهو قوله تعالى: «وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ».

فوائد الآيتين:

١- جاء عيسى ابن مريم عليه السلام بما يصدق به التوراة، لقوله تعالى: «وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ»، وقد سبق لنا أن معنى «مصدقًا» في قوله تعالى: «وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ» كلمة ذات معنيين: الأول: أنه شاهد بصدق التوراة، وأنها حق.

والثاني: أنه مطابق لما أخبرت به، وإذا جاء الشيء مطابقًا لما أخبر به، فهذا تصديق شاهد بالصدق.

٢- جواز النسخ في الشرائع، لقوله: «وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ»، وهذا نسخ، والنسخ في الشرائع ثابت منذ نوح إلى محمد عليه الصلاة والسلام، وأنكرت اليهود وجود النسخ وقالت: لا يمكن أن ينسخ الله الحكم؛ لأن هذا يستلزم نقصًا في حق الله، فيقال لهم: ومتى وصفتم الله بالكمال - أنقصكم الله وأذلكم ؟-

ألم تقولوا: إن يد الله مغلولة؟ ألم تقولوا: إن الله فقير؟ ألم تقولوا: إن الله استراح حين خلق السماوات والأرض وتعب؟ فكيف تقولون: إن النسخ يستلزم النقص على الله؟

يقولون: لأنه يستلزم العلم بعد الجهل،

كأن الله إذا نسخ الحكم الأول تبين له أن الصواب في الحكم الثاني، وهذا نقص، فنقول لهم: نحن نرد عليكم بشريعتكم، قال الله تعالى: «كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ» [آل عمران: ٩٣]، وقال: «فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ» [النساء: ١٦٠]، وأنتم تعتقدون أن التوراة ناسخة للكتب السابقة المنزلة على بني إسرائيل، وأنه يجب على كل واحد من بني إسرائيل أن يؤمن بها ويتبعها، وهل هذا إلا نسخ، ثم إن النسخ في الحقيقة من مقتضى الحكمة لا منافي للحكمة ؛ لأن الله عز وجل يشرع الأحكام مناسبة للواقع أو ملائمة لمن شرعت له، فقد يكون هذا الحكم ملائمًا في زمن غير ملائم في زمن آخر، أو ملائمًا لقوم غير ملائم لآخرين.

وكون الأحكام تتبع الحكمة هذا هو الكمال وليس النقص، وهنا عيسى ابن مريم قال: «وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ».

٣- جواز نسبة الحكم إلى من بلغه ؛ لأنه قال: «ولأُحِلَّ لَكُمْ» وأصل التحليل والتحريم من عند الله عز وجل، لكن إضافته إلى من أبانه وأظهره لا بأس بها، ولهذا أضاف الله عز وجل القرآن إلى نفسه وإلى جبريل وإلى محمد ﷺ، أما إلى نفسه فقال: «وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ» [التوبة: ٦].

وأما إلى جبريل فقال: «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ» [التكوير: ١٩، ٢٠].

وأما إلى محمد ﷺ فقال: «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ» [الحاقة: ٤٠، ٤١]، لكن الكلام يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئًا، وأما من قاله مبلغًا مؤديًا فإنما يضاف إليه لكونه أظهره وأبانه.

٤- تكرار الأمور الهامة ؛ لقوله في المرة الثالثة: «وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ».

٥- أن الطاعة أمر مشترك بين الرسل وبين الله عز وجل، وأما التقوى فهي خاصة بالله، لقوله: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ»، وطاعة الله هي الأصل، لكن طاعة الرسول طاعة للمرسل الذي أرسله.

٦- أن التقوى واجبة في كل شريعة ؛ لقوله هنا: «فَاتَّقُوا اللَّهَ»، ولكن المتقى به قد يختلف باختلاف الشرائع ؛ لقوله تعالى: «لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا» [المائدة: ٤٨]، يعني هذا الذي يتقي الله به قد يختلف باختلاف الشرائع.

٧- عموم ربوبية الله للبشر، لقوله تعالى: «رَبِّي وَرَبُّكُمْ» وربوبية الله ثابتة لكل السموات والأرض ومن فيهن، «قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا» [المؤمنون: ٨٤]، فالربوبية ؛ ربوبية الله سبحانه وتعالى لكل شيء، لكن عيسى عليه السلام قال: «رَبِّي وَرَبُّكُمْ» ليقيم عليهم الحجة ؛ لأنه إذا كان ربهم سبحانه وتعالى فإنه يشرع فيهم وعليهم ما يشاء ولا أحد يعقب حكمه.

٨- أن عيسى مربوب وليس ربًا ؛ لقوله: «رَبِّي وَرَبُّكُمْ».

٩- الرد على النصارى في دعواهم أن الله ثالث ثلاثة، وقد كفرهم الله بذلك فقال: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ» [المائدة: ٧٣] كفرهم بهذا، وهم بلا شك كافرون مخلدون في نار جهنم أبد الآبدين.

١٠- وجوب العبادة بقوله تعالى: «فاعبدون».

١١- أن الإقرار بالربوبية مستلزم للإقرار بالعبودية، يعني أن من أقر بربوبية الله لزمه أن يقر بعبوديته، ولهذا قال: «فاعبدون» فأتى بالفاء الدالة على السببية، أي فبسبب اختصاصه بالربوبية يجب أن تخصوه بالعبادة، ومن ثَمَّ نجد الله سبحانه وتعالى في كتابه يقيم الحجة على المشركين الذين يقرون بربوبيته لا بألوهيته، يقولون: إنه منفرد بالربوبية لكن في الألوهية لا يفردونه، يتخذون معه آلهة وليس إلهًا واحدًا، كل قوم لهم رب يعبدونه، وهذا لا شك بالغ في السفه فإذا كنت تعلم وتعتقد بأن الله وحده هو الرب لزمك أن تعتقد بأنه وحده الإله المعبود وأنه لا إله غيره.

١٢- أن الصراط المستقيم عبادة الله ؛ لقوله: «فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ»، ولا شك أن أهدى السبل وأقومها عبادة الله، وعبادة الله كما نعلم هي اتباع شرعه سبحانه وتعالى.

هذا والله أعلم.

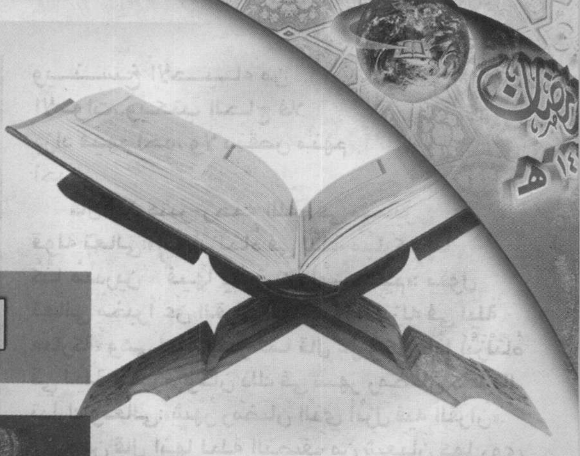

القرآن في رمضان وأحوال الناس

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فلقد أكرم الله عز وجل هذه الأمة بالقرآن الذي فيه نبأ ما قبلها وخبر ما بعدها، وحكم ما بينها، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به ألسنة الضعفاء، ولا يشبع منه العلماء، لا يَخلق عن كثرة الرد ولا تنتهي عجائبه، من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم.

وقد وصفه الله عز وجل بأنه روح تحيا به القلوب «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا» [الشورى: ٥٢]، وهو الذي يهدي للطريق المستقيم ويحمل البشارات العظيمة «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا» [الإسراء: ٩]، وهو الفرقان والنذير: «تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا» [الفرقان: ١]، كما وصفه الله عز وجل بأنه شفاء وهدى ورحمة: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ» [يونس: ٥٧]، وقد وصفه الله تعالى بأنه هدًى للمتقين: «الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ» [البقرة: ١]، وهو هدًى للناس: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ» [البقرة: ١٨٥].

ونحن في هذه الأيام نستقبل هذا الشهر الكريم شهر رمضان، فقد ابتدأ نزول القرآن فيه، وكذلك فإن رمضان هو الذي أنزل فيه القرآن من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا.

فيا له من شهر طيب اختاره الله لنزول القرآن، بل لنزول الكتب السماوية، فعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «أنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضت من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة مضت من رمضان، وأنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان». رواه الطبراني في الكبير وأحمد في مسنده وابن عساكر وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

وقد ارتبط القرآن بهذا الشهر ارتباطًا وثيقًا من حيث نزوله فيه ومن حيث مدارسة جبريل

عليه السلام القرآن مع النبي ﷺ، ففي «الصحيحين» عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: «كان النبي ﷺ أجودَ الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاهُ جبريلُ فيدارسهُ القرآن، وكان جبريل يلقاهُ في كل ليلة من رمضان فيدارسهُ القرآن، فلرسولُ الله ﷺ حين يلقاهُ جبريل أجودُ بالخير من الريح المرسلة».

وقد جعل رسول الله ﷺ هذا الكتابُ له خُلُقا بحيثُ يرضى لرضاه ويسخط لسخطه، ويسارع إلى ما حث عليه، ويمتنع مما زجر عنه، فلهذا كان يتضاعفُ جودهُ وإفضاله في هذا الشهر، لقرب عهده بمخالطة جبريل عليه السلام، وكثرة مدارسته له هذا الكتاب الكريم الذي يحث على المكارم والجُود ولا شك أن المخالطة تؤثر وتورث أخلاقًا من المُخالط.

وفي حديث فاطمة رضي الله عنها عن أبيها ﷺ: «أنه أخبرها: أن جبريل عليه السلام كان يعارضه القرآن كُلَّ عام مرَّة، وأنه عارضه في عام وفاته مرتين». رواه البخاري.

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أن المدارسة بينه وبين جبريل كانت ليلاً». رواه البخاري. فدل على استحباب الإكثار من التلاوة في رمضان ليلاً، فإن الليل تنقطع فيه الشواغل، وتجتمع فيه الهمم ويتواطأ فيه القلبُ واللسانُ على التدبر، كما قال تعالى: «إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً» [المزمل: ٦].

وشهر رمضان له خصوصية بالقرآن، كما قال تعالى: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ» [البقرة: ١٨٥].

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنه أنزل جملةً واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في ليلة القدر، ويشهدُ لذلك قوله تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» [القدر: ١]، وقوله: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ» [الدخان: ٣]، وقد ورد عن عبيد بن عمير أنَّ النبي ﷺ بُدئ بالوحي ونزول القرآن عليه في شهر رمضان.

واعلم أن المؤمن يجتمع له في شهر رمضان جهادان لنفسه، جهاد بالنهار على الصيام، وجهاد بالليل على القيام، فمن جمع بين هذين الجهادين، ووفى بحقوقهما، وصبر عليهما، وُفِّيَ أجره بغير حساب. قال كعبٌ: ينادي يوم القيامة منادٍ: إن كلَّ حارث يُعطي بحرثه ويُزاد غير أهل القرآن والصيام يُعطون أجورهم بغير حساب ويشفعان له أيضًا عند الله عز وجل، كما في المسند عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي ربِّ منعته الطعام والشهوات بالنهار، ويقول القرآنُ: منعتُهُ النوم بالليل فشفعني فيه، فيُشفعان». [صححه الألباني في صحيح الجامع: ٣٨٨٢].

فالصيام يشفع لمن منعه الطعام والشهوات المحرمة كلها، سواءٌ كان تحريمها يختصُّ بالصيام، كشهوة الطعام، والشراب، والنكاح، ومقدماتها، أو لا يختص به، كشهوة فضول الكلام المحرم، والنظر المحرم، والسماع المحرم، والمكسب الحرام، فإذا منعه الصيام هذه المحرمات كلها، فإنه يشفعُ له عند الله يوم القيامة.

وكذلك القرآن إنما يشفعُ لمن منعه النوم بالليل، فإنه من قرأ القرآن وقام به، فقد قام بحقه فيشفع له.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: ينبغي لقارئ القرآن أن يُعرف بليله إذا الناس ينامون وبنهاره إذا الناس يُفطرون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبورعه إذا الناس يخلطون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون، وبحزنه إذا الناس يفرحون.

حال السلف مع القرآن في رمضان

قال ابن عبد الحكم: كان مالك إذا دخل رمضانُ نفر من قراءة الحديث ومجالسة أهل العلم، وأقبل على تلاوة القرآن من المصحف.

وقال عبد الرزاق: كان سفيان الثوري إذا دخل رمضان ترك جميع العبادة وأقبل على تلاوة القرآن.

وكانت عائشة رضي الله عنها تقرأ في المصحف أول النهار في شهر رمضان، فإذا طلعت الشمس نامت.

وقال سفيان: كان زُبيدُ الياجيُّ إذا حضر رمضانُ أحضر المصاحف وجمع إليه أصحابه.

قال ابن رجب الحنبلي: وإنما ورد النهي عن قراءة القرآن في أقل من ثلاث على المداومة على ذلك، فأما في الأوقات المفضلة كشهر رمضان خصوصاً الليالي التي يطلب فيها ليلة القدر، أو في الأماكن المفضلة كمكة - شرفها الله - لمن دخلها من غير أهلها، فيستحبُ الإكثار فيها من تلاوة القرآن، اغتناماً للزمان والمكان.

وهذا قولُ أحمد وإسحاق وغيرهما من الأئمة، وعليه عمل غيرهم: «كان الأسود يختم القرآن في رمضان في كل ليلتين، وكان يختم في غير رمضان في كل ست ليالٍ».

وكان قتادة يختم القرآن في كل سبع ليالٍ مرة، فإذا جاء رمضان ختم في كل ثلاث ليالٍ مرة، فإذا جاء العشر ختم في كل ليلة مرة.

وكان النخعيّ يفعل ذلك في العشر الأواخر خاصة، وفي بقية الشهر في ثلاثة.

والشافعي قال عنه الربيع بن سليمان: «كان محمد بن إدريس الشافعي يختم في شهر رمضان ستين ختمة ما منها شيء إلا في صلاة».

وقال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي يقول: كنت اختم القرآن في رمضان ستين مرة.

حال القلوب الخربة

أما حال المنافقين والكسالى فإن حالهم كما قال أوس بن عبد الله: نقل الحجارة أهون على المنافق من قراءة القرآن.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب». رواه الترمذي. وقال حديث حسن صحيح. ومعنى: «ليس في جوفه شيء من القرآن» أي: الذي لم يحفظ شيئًا من القرآن.

وكذلك من يتمرد من الإنس ويتمحَّض للشر والغواية «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ» [الأنعام: ١١٢] شرهم خالص وخسرانهم خالص.

جبِلاَّت منكوسة موكوسة مطموسة تواصوا بالإفساد وأخذوا يحولون المجتمع إلى فئات غارقة في وحل الجنس والفاحشة والخمور، ديدنهم محاربة المساجد بالمراقص والمعاصي والشركيات.

وختامًا: هذا - يا عباد الله - شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، وفي بقيته للعابدين مستمتع، وهذا كتاب الله يتلى فيه بين أظهركم ويُسمع، وهو القرآن الذي لو أنزل على جبل لرأيته خاشعاً يتصدع، ومع هذا فلا قلبٌ يخشع، ولا عينٌ تدمع، ولا صيامٌ يصانُ عن الحرام فينفع، ولا قيامٌ استقام فيُرجى في صاحبه أن يشفع، قلوبٌ خلت من التقوى فهي خرابٌ، وتراكمت عليها ظلمةُ الذنوب فهي لا تُبصر ولا تسمع، كم تتلى علينا آياتُ القرآن وقلوبنا كالحجارة أو أشد قسوة، وكم يتوالى علينا شهر رمضان وحالنا فيه حال أهل الشِّقوة، لا الشابُ منا ينتهي عن الصَّبوة، ولا الشيخ ينزجرُ عن القبيح فليتحق بالصفوة.

أين نحن من قوم إذا سمعوا داعي الله أجابُوا الدعوة، وإذا تليت عليهم آيات الله جَلَتْ قلوبهم جَلْوة، وإذا صاموا صامت منهم الألسنةُ والأسماع والأبصار؟ فما لنا فيهم أسوة ؟ كم بيننا وبين حال أهل الصفا أبعد مما بيننا وبين الصفا والمروة، كلما حسنت من الأقوال ساءت الأعمال، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فيا من ضيع عمره في غير الطاعة، يا من فرَّط في شهره بل في دهره وأضاعه، يا من بضاعته التسويف، وبئست البضاعة، يا من جعل خصمهُ القرآن وشهر رمضان كيف ترجو ممن جعلته خصمك الشفاعة ؟

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مختارات من علوم القرآن

المحكم والمتشابه في القرآن

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وبعد:

يتنوع القرآن الكريم باعتبار الإحكام والتشابه إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الإحكام العام:

الذي وُصف به القرآن كله، مثل قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، وقوله جل وعلا: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤].

ومعنى هذا الإحكام: الإتقان والجودة في ألفاظه ومعانيه، فهو في غاية الفصاحة والبلاغة، أخباره كلها صدق نافعة، ليس فيها كذب، ولا تناقض ولا اختلاف، وأوامره كلها خير وبركة وصلاح، ونواهيه متعلقة بالشرور والأضرار، والأخلاق الرذيلة، والأعمال السيئة، وأحكامه كلها عدل وحكمة، ليس فيها جَوْر ولا تعارض، فهذا إحكامه.

النوع الثاني: التشابه العام:

الذي وصف به القرآن كله مثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، ومعنى هذا التشابه أن القرآن كله يشبه بعضه بعضًا في الكمال والجودة والغايات الحميدة، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

فألفاظه أحسن الألفاظ، ومعانيه أحسن المعاني.

النوع الثالث: الإحكام الخاص ببعضه والتشابه الخاص ببعضه

مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧]، ومعنى هذا الإحكام أن يكون معنى الآية واضحًا جليًا لا خفاء فيه، مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]، وقوله

جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وقوله سبحانه: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة: ٣]. وأمثال ذلك كثيرة.

فهذا الإحكام والتشابه في القرآن كما قدمنا على ثلاثة أنواع:

١- إحكام عام.

٢- وتشابه عام.

٣- وإحكام خاص، وتشابه خاص.

كله وُصف به القرآن، قال الله تعالى في وصف العام: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]، وقال تبارك وتعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]، فأنت ترى أن القرآن كله وُصف بالحكمة، وأنه حكيم، وحكيم بمعنى محكم وبمعنى حاكم؛ لأن القرآن أداة الحكم. ومعنى هذا الإحكام: الإتقان والجودة في ألفاظه ومعانيه، فكله محكم متقن جيد في أعلى ما يكون، ولكن هل هو يتفاضل في هذا الباب؟

الجواب: أما من حيث المتكلم به فإنه لا يتفاضل؛ لأن المتكلم به واحد وهو الله جل جلاله، أما من حيث الأسلوب والمعنى فإنه يتفاضل، قال النبي ﷺ حين سأل أبي بن كعب: أيّ آية في كتاب الله أعظم؟ قال: آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٤]. فضرب على صدره وقال: «لِيَهْنِكَ العلمُ يا أبا المنذر». [مسلم٨١٠].

وقال في الفاتحة: إنها أعظم سورة في كتاب الله. [البخاري٥٠٠٦].

وقال في ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾: إنها تعدل ثلث القرآن. [البخاري ٥٠١٣، ومسلم ٨١١].

فالقرآن يتفاضل من هذا الوجه، أما من جهة المتكلم به فلا يتفاضل.

أما الثاني: فالتشابه العام، وهو أن القرآن يشبه بعضه بعضًا في الكمال، والجودة والإحكام، والأحكام والأخبار وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣]، ما قال بعضه متشابه، بل كله، فهو يشبه بعضه بعضًا في الكمال والجودة والإتقان وغير ذلك. ولهذا كان جميع القرآن معجزة. [شرح أصول في التفسير لابن عثيمين].

أولاً: المعنى اللغوي:

لهذين اللفظين إطلاقات في اللغة وإطلاقات في الاصطلاح.

فاللغويون يستعملون مادة الإحكام (بكسر الهمز) في معانٍ متعددة، لكنها مع تعددها ترجع إلى شيء واحد، هو المنع، فيقولون: أحكم الأمر أي أتقنه ومنعه عن الفساد. ويقولون: أحكمه عن الأمر أي أرجعه عنه ومنعه منه. ويقولون: حكم نفسه وحكم الناس، أي منع نفسه ومنع الناس عما لا ينبغي، ويقولون: أحكم الفَرَس أي جعل له حَكَمَةً (بفتحات ثلاث)، والحَكَمَةُ ما أحاط بحنكي الفرس من لجام يمنعه من الاضطراب.

وقيل: «آتاه الله الحكمة» أي: العدل أو العلم، أو الحلم أو النبوة، أو القرآن.

وكذلك يستعمل اللغويون مادة التشابه فيما يدل على المشاركة في المماثلة والمشاكلة، والمؤدية إلى الالتباس غالبًا. يقال: تشابها واشتبها، أي: أشْبَهَ كلٌ منهما الآخر حتى التبسا.

ويقال: أمور مشتبهة ومشبِّهة - على وزان معظمة - أي مشكلة.

والشُّبهة بالضم: الالتباس، ويقال: شُبِّهَ عليه الأمر تشبيهًا، أي: لُبِّس عليه (بضم الأول وتشديد الثاني مع كسره في الفعلين (شُبِّهَ ولُبِّس)، ومنه قول الله سبحانه وصفًا لرزق الجنة: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ [البقرة: ٢٥]، أي: يشبه بعضه بعضًا في المنظر، ويختلف في الطعم.

ومنه قوله حكاية عن بني إسرائيل: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٧٠]، أي: اختلط علينا أمرُه والتبس فلا ندري ما المقصود منه. [عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ للسمين الحلبي ٢/٢٤٨].

المعنى الاصطلاحي:

يطلق المحكم في لسان

الشرعيين على ما يقابل المنسوخ تارة، وعلى ما يقابل المتشابه تارة أخرى، فيُراد به على الاصطلاح الأول الحكم الشرعي الذي لم يتطرق إليه نسخ، ويراد به على الثاني ما ورد من نصوص الكتاب أو السنة دالاً على معناه بوضوح لا خفاء فيه، على ما سيأتي تفصيله، وموضوع بحثنا هنا متعلق بالاصطلاح الثاني. [مناهل العرفان للزرقاني ٢/٢٨٩].

أما المتشابه فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى: في المتشابه قولان:

أحدهما: أنها آيات بعينها تتشابه على كل الناس.

والثاني: وهو الصحيح - أن التشابه أمر نسبي، فقد يتشابه عند هذا ما لا يتشابه عند غيره، وسيأتي كلام شيخ الإسلام مفصلاً فيما بعد.

وحتى يتضح المعنى المراد من الإحكام والتشابه لا بد من تأويل آية آل عمران: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧].

قوله: ﴿الْكِتَابَ﴾ هو القرآن، ثم قسّم الله هذا الكتاب؛ فقال: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾. يعني: ومنه أُخر متشابهات، وهنا يتعين أن نقول: «ومنه أُخر» ليتم التقسيم.

فـ «أُخر» مبتدأ خبره محذوف يعني: ومنه أخر متشابهات، نظير قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]، فـ «سعيد» هنا ليست معطوفة على «شقي»؛ لأنها لو كانت معطوفة عليها لفسد التقسيم، ولكن التقدير: منهم شقي ومنهم سعيد.

والاشتباه قد يكون اشتباهًا في المعنى، بحيث يكون المعنى غير واضح، أو اشتباهًا في التعارض، بحيث يظن الظان أن القرآن يعارض بعضه بعضًا، وهذا لا يمكن أن يكون؛ لأن الله عز وجل قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، والقرآن يصدق بعضه بعضًا.

والتعارض الذي قد يفهمه بعض الناس يكون للأسباب التالية:

١- إما لقصور في العلم.

٢- أو قصور في الفهم.

٣- أو تقصير في التدبر.

٤- أو سوء في القصد، بحيث يظن أن القرآن يتعارض، فإذا ظن هذا الظن لم يوفَّق للجمع بين النصوص، فيُحرَم الخير؛ لأنه ظن ما لا يليق بالقرآن، قال الله تعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾: «الآيات»: جمع آية، وهي العلامة، وكل آية في القرآن هي علامة على مُنزلها؛ لما فيها من الإعجاز والتحدي.

وقوله: ﴿مُحْكَمَاتٌ﴾ أي: متقنات في الدلالة والحكم والخبر، فأخبارها وأحكامها متقنة معلومة ليس فيها إشكال.

وقوله: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾: يعني: أن أحكامها غير معلومة، وأخبارها غير معلومة، فصار المحكم هو المتقن في الدلالة، سواء كان خبرًا أو حكمًا، والمتشابه هو الذي دلالته غير واضحة، سواء كان خبرًا أو حكمًا.

ولذلك نجد أن بعض الآيات لا تدل دلالة صريحة على الحكم الذي استُدِل بها عليه، وبعض الآيات الخبرية أيضًا لا تدل دلالة صريحة على الخبر الذي استُدل بها عليه.

قال الله تعالى: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

قدَّم وصف هذه المحكمات وبيان حالها؛ ليتبادر إلى الذهن أول ما يتبادر أنه يرد المتشابهات إلى المحكمات؛ لأنها أمّ، وأمُّ الشيء مرجعه وأصله، كما قال تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]، أي: المرجع وهو اللوح المحفوظ الذي ترجع الكتابات كلها إليه، ومنه سُميت الفاتحة أم الكتاب؛ لأن مرجع القرآن إليها، فهذه المحكمات يجب أن تُرد إليها المتشابهات.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾: ينقسم الناس بالنسبة إلى هذه المتشابهات إلى قسمين:

١- قسم يتبعون المتشابه، ويضعونه أمام الناس، ويعرضونه عليهم؛ فيقولون: كيف كذا؟ كيف كذا؟

٢- وقسم آخر يقولون: آمنا به كل من عند ربنا، فإذا كان من عند ربنا فلا يمكن أن يتناقض، ولا يمكن أن يخالف بعضه بعضًا، بل هو متحد متفق، فيرد المتشابه منه إلى المحكم،

ويكون جميعه محكمًا.

قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ الزيغ: بمعنى الميل، من قولهم: زاغت الشمس إذا مالت عن كبد السماء (أي وسط السماء).

أي في قلوبهم ميل عن الحق، فهم لا يريدون الحق، وإنما يتبعون المتشابه، فتجدهم - والعياذ بالله - يأخذون آيات القرآن التي فيها اشتباه حتى يضربوا بعضها ببعض وما أكثر هؤلاء، ليصدوا عن سبيل الله ويشككوا الناس في كلام الله عز وجل، وأما الذين ليس في قلوبهم زيغ وهم الراسخون في العلم الذين عندهم من العلم ما يتمكنون به أن يجمعوا بين الآيات المتشابهة، وأن يعرفوا معناها، فهؤلاء لا يكون عندهم هذا التشابه، بل يقولون: ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾، فلا يرون في القرآن شيئًا متعارضًا متناقضًا.

وكل أهل البدع من الرافضة (الشيعة) والخوارج والمعتزلة والجهمية وغيرهم كلهم اتبعوا ما تشابه منه، لكن مستقل ومستكثر، فهؤلاء يتبعون ما تشابه لهذين الغرضين، أو لأحدهما:

١- ﴿ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ ﴾ أي: صد الناس عن دين الله؛ لأن الفتنة بمعنى الصد عن دين الله، كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ [البروج: ١٠]، فتنوهم: يعني صدوهم عن دين الله.

٢- ﴿ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ أي: طلب تأويله لما يريدون، فهم يفسرونه على مرادهم لا على مراد الله تعالى. اهـ. [تفسير ابن عثيمين]

واختُلف: هل المتشابه مما يمكن الاطلاع على علمه، أو لا يعلمه إلا الله؟ على قولين: منشؤهما الاختلاف في قوله: ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: ٧]، هل هو معطوف و«يقولون» حال؟ أو مبتدأ، وخبره: «يقولون» والواو للاستئناف؟

فأكثر السلف وقف على قوله: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾، ثم نبتدئ فنقول: ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾، وعلى هذا تكون الواو في: ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ للاستئناف، «والراسخون»: مبتدأ وجملة: «يقولون» خبر المبتدأ، ويصبح المعنى أن هذا المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله عز وجل، وأن الراسخون في العلم لما لم يعلموا تأويله، قالوا: ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾، وليس في كلام ربنا تناقض ولا تضارب، فيسلِّمون الأمر إلى الله عز وجل، لأنه هو العالم بما أراد.

ووصل بعض السلف ولم يقف، فقرأ: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾، فتكون الواو للعطف، والراسخون: معطوفة على لفظ الجلالة، أي: لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم، بخلاف الذين في قلوبهم زيغ فهؤلاء لا يعلمون، والحقيقة أن ظاهر القراءتين التعارض؛ لأن:

القراءة الأولى: تقتضي أنه لا يعلم تأويل هذا المتشابه إلا الله.

والقراءة الثانية: تقتضي أن هذا المتشابه يعلم تأويله الله والراسخون في العلم. فيكون ظاهر القولين التعارض، ولكن الصحيح أنه لا تعارض بينهما، وأن هذا الخلاف مبني على الاختلاف في معنى التأويل في قوله: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾، فإن كان المراد بالتأويل التفسير فقراءة الوصل أولى؛ لأن الراسخين في العلم يعلمون تفسير القرآن المتشابه، ولا يخفى عليهم؛ لرسوخهم في العلم، وبلوغهم عمقه، لأن الراسخ في الشيء هو الثابت فيه المتمكن منه، فهم لتمكنهم وثبوت أقدامهم في العلم وتعمقهم فيه يعلمون ما يخفى على غيرهم.

أما إذا جعلنا التأويل بمعنى العاقبة والغاية المجهولة، فالوقف على «إلا الله» أولى؛ لأن عاقبة هذا المتشابه وما يؤول إليه أمره مجهول لكل الخلق.

والتأويل يكون بمعنى التفسير، وبمعنى العاقبة المجهولة التي لا يعلمها إلا الله، وكلا المعنيين موجود في القرآن.

فمن الأول: قول أحد صاحبي السجن ليوسف عليه السلام: ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٣٦]، أي: بتفسير هذه الرؤية ما معناها؟ ففسرها، ومن ذلك قول الرسول ﷺ في ابن عباس: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل». [رواه أحمد وصححه الشيخ أحمد شاكر].

أي تفسير الكلام ومعرفة معناه.

ومن الثاني: قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ٥٣].

فقوله: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ﴾ يعني: عاقبته وهو ما يؤول إليه.

﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ ﴾ بمعنى: تأتي عاقبته التي وُعدوا بها، ومنه كذلك قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

يعني: أحسن عاقبة ومآلاً. [تفسير ابن عثيمين].

وللحديث بقية إن شاء الله.

مختارات من علوم القرآن

المحكم والمتشابه في القرآن

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فقد ذكرت فيما سبق معاني المحكم والمتشابه وتفسير آية آل عمران: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾، وانتهيت في المقال السابق إلى توضيح معنى التأويل عند أهل العلم، كما قال بعضهم: «والتأويل بمعنى التفسير، وبمعنى العاقبة المجهولة التي لا يعلمها إلا الله، وكلا المعنيين موجود في القرآن».

أما شيخ الإسلام ابن تيمية -عليه رحمة الله- فقد قال في تفسير سورة الإخلاص: «وقد كتبت كلام أحمد بألفاظه -كما ذكره الخلال في كتاب السنة، وكما ذكره من نقل كلام أحمد بإسناده في الكتب المصنفة في ذلك- في غير هذا الموضع، وبيَّن أن لفظ التأويل في الآية إنما أريد به التأويل في لغة القرآن، كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وعن ابن عباس في قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ﴾ تصديق ما وعد في القرآن.

وعن قتادة قال: تأويله: ثوابه. وعن مجاهد: جزاؤه. وعن السُّدِّي: عاقبته. وعن ابن زيد: حقيقته. قال بعضهم: تأويله ما يؤول إليه أمرهم من العذاب وورود النار.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: ٣٩]، قال بعضهم: تصديق ما أوعدوا به من الوعيد، والتأويل ما يؤول إليه الأمر، وعن الضحاك: يعني عاقبة ما وعد الله في القرآن أنه كائن من الوعيد، والتأويل ما يؤول إليه الأمر. وقال يوسف الصديق عليه السلام: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، فجعل نفس سجود أبويه وإخوته له تأويل رؤياه.

وقال قبل هذا: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ [يوسف: ٣٧] أي قبل أن يأتيكما التأويل. والمعنى: لا يأتيكما طعام ترزقانه في المنام؛ لما قال أحدهما: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا﴾ [يوسف: ٣٦]، ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ في اليقظة ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ الطعام. هذا قول أكثر المفسرين، وهو الصواب.

فهذا لفظ التأويل في مواضع متعددة كلها بمعنى واحد.

وقال الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

قال مجاهد وقتادة: جزاءً وثوابًا، وقال السدي وابن زيد وابن قتيبة والزجاج: عاقبة. وعن ابن زيد أيضًا: تصديقًا. كقوله: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾. وكل هذه الأقوال صحيحة. والمعنى واحد، وهذا تفسير السلف جميعًا، ومنه قوله: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]، فلما ذكر له ما ذكر قال: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢]، وهذا تأويل فعله، ليس هو تأويل قوله، والمراد به عاقبة هذه الأفعال بما يؤول إليه ما فعلته، من مصلحة أهل السفينة، ومصلحة أبوي الغلام، ومصلحة أهل الجدار.

التأويل والتفسير عند قدماء المفسرين

وأما قدماء المفسرين فلفظ التأويل والتفسير عندهم سواء، كما كان ابن جرير الطبري -رحمه الله- يقول: القول في تأويل هذه الآية. أي في تفسيرها.

ولما كان هذا معنى التأويل عند مجاهد، وهو إمام التفسير جعل الوقف على قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾؛ فإن الراسخين في العلم يعلمون تفسيره، وهذا القول اختيار ابن قتيبة وغيره من أهل السنة.

وأما متأخرو المفسرين كالثعلبي فيفرقون بين التفسير والتأويل. قال: فمعنى التفسير هو التنوير، وكشف المغلق من المراد بلفظه، والتأويل: صرف الآية إلى معنًى تحتمله يوافق ما قبلها وما بعدها، وتكلم في الفرق بينهما بكلام ليس هذا موضعه، إلا أن التأويل الذي ذكره هو المعنى الثالث المتأخر.

قال أبو الفرج ابن الجوزي -رحمه الله-: اختلف العلماء هل التفسير والتأويل بمعنى واحد؟ أم يختلفان؟ فذهب قوم يميلون إلى العربية: إلى أنهما بمعنى، وهذا قول جمهور المفسرين المتقدمين. وذهب قوم يميلون إلى الفقه: إلى اختلافهما، فهؤلاء لا يذكرون للتأويل إلا المعنى الأول، والثاني، وأما التأويل في لغة القرآن فلا يذكرونه، وقد عُرف أن التأويل في القرآن هو الموجود الذي يؤول إليه الكلام، وإن كان ذلك موافقًا للمعنى الذي يظهر من اللفظ، بل لا يُعرف في القرآن لفظ التأويل مخالفًا لما يدل عليه اللفظ، خلاف اصطلاح المتأخرين.

والكلام نوعان: إنشاء، وإخبار. فالإنشاء: الأمر والنهي والإباحة، وتأويل الأمر والنهي نفس فعل المأمور، ونفس ترك المحظور، كما في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي، يتأولُ القرآن» [متفق عليه]. فكان هذا الكلام تأويل قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ٣].

قال ابن عيينة: السنة تأويل الأمر والنهي.

فالتفسير من جنس الكلام: يفسر الكلام بكلام يوضحه. وأما التأويل فهو فعل المأمور، وترك المنهي عنه، ليس هو من جنس الكلام.

والنوع الثاني: إخبار: فإخبار الرب عن نفسه تعالى بأسمائه وصفاته، وإخباره عما ذكره لعباده من الوعد والوعيد، وهذا هو التأويل المذكور في قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٢-٥٣]، وهذا قولهم: ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]، ومثله قوله: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [المرسلات: ٢٩]، وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ﴾ [الملك: ٢٥-٢٧]، ونظائره متعددة في القرآن.

وكذلك قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: ٣٨-٣٩]، فإن ما وُعدوا به في القرآن لما يأتهم بعد، وسوف يأتيهم.

فالتفسير هو الإحاطة بعلمه، والتأويل هو نفس

ما وعدوا به إذا أتاهم، فهم كذبوا بالقرآن الذي لم يحيطوا بعلمه، ولما يأتيهم تأويله.

وقد يحيط الناس بعلمه، ولما يأتيهم تأويله، فالرسول ﷺ يحيط بعلم ما أنزل الله عليه، وإن كان تأويله لم يأت بعد.

قال شيخ الإسلام معقبًا على الكلام السابق: «وإذا تبين ذلك، فالمتشابه من الأمر لا بد من معرفة تأويله؛ لأنه لا بد من فعل المأمور، وترك المحظور، وذلك لا يمكن إلا بعد العلم، لكن ليس في القرآن ما يقتضي أن في الأمر متشابهًا، فإن الخبر مثل ما أخبر به في الجنة من اللحم واللبن والعسل والماء والحرير والذهب، فإن بين هذا وبين ما في الدنيا تشابهًا في اللفظ والمعنى، ومع هذا فحقيقة ذلك مخالفة لحقيقة هذا، وتلك الحقيقة لا نعلمها نحن في الدنيا، وقد قال الله تعالى: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وفي الحديث الصحيح يقول الله تعالى: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» [متفق عليه]. فهذا الذي وعد الله به عباده المؤمنين لا تعلمه نفس هو من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله، وكذلك وقت الساعة لا يعلمه إلا الله، وأشراطها، وكذلك كيفيات ما يكون فيها من الحساب والصراط، والميزان والحوض، والثواب والعقاب لا يعلم كيفيته إلا الله، فإنه لم يخلق بعدُ حتى تعلمه الملائكة، ولا له نظير مطابق من كل وجه حتى يعلم به، فهو من تأويل المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله.

وكذلك ما أخبر به الربُّ عن نفسه مثل استوائه على عرشه، وسمعه وبصره وكلامه وغير ذلك، فإن كيفيات ذلك لا يعلمها إلا الله.

جميع ظواهر نصوص القرآن مفهومة لدى المخاطبين

لقد أنزل الله تعالى كتابه بلسان عربي مبين، على نبي من العرب، وخاطب به أول من خاطب أمة عربية؛ كي يكون هاديًا ومرشدًا إلى الحق، وهذا يعني أنه مفهوم لدى المخاطبين به، كي تقوم الحجة، وتنقطع المعذرة.

قال ابن جرير الطبري -رحمه الله- عند كلامه على مراتب البيان، وأن القرآن جاء بأعظمها وأعلاها: «فإذا كان كذلك، وكان غير مبين منا عن نفسه مَنْ خاطب غيره بما لا يفهمه عنه المخاطَب - كان معلومًا أنه غير جائز أن يخاطب جل ذكره أحدًا من خلقه إلا بما يفهمه المُخاطبُ، ولا يرسل إلى أحد منهم رسولاً برسالة بلسان وبيان لا يفهمه المرسلُ إليه؛ لأن المخاطب والمرسل إليه إن لم يفهم ما خوطب به وأرسل به إليه؛ فحاله قبل الخطاب وقبل مجيء الرسالة إليه وبعده سواء؛ إذ لم يفده الخطاب والرسالة شيئًا كان به قبل ذلك جاهلاً.

والله جل ذكره يتعالى عن أن يخاطب خطابًا أو يرسل رسالة لا توجب فائدة لمن خوطب أو أرسلت إليه؛ لأن ذلك فينا من فعل أهل النقص والعبث، والله تعالى عن ذلك متعال، ولذلك قال جل ثناؤه في محكم تنزيله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤] فغير جائز أن يكون به مهتديًا، من كان بما يهدي إليه جاهلاً.

وقد جلى هذه المسألة وفصَّلها ورد على المخالفين لها من وجوه عدة، الإمام ابن تيمية في مجموع الفتاوى، ومن ذلك قوله: «والمقصود هنا: أنه لا يجوز أن يكون الله أنزل كلامًا لا معنى له، ولا يجوز أن يكون الرسول ﷺ وجميع الأمة لا يعلمون معناه، كما يقول ذلك من يقوله من المتأخرين، وهذا القول يجب القطع بأنه خطأ، سواء كان مع هذا تأويل للقرآن لا يعلمه الراسخون، أو كان للتأويل معنيان: يعلمون أحدهما، ولا يعلمون الآخر، وإذا دار الأمر بين القول بأن الرسول كان لا يعلم معنى المتشابه من القرآن، وبين أن يقال: الراسخون في العلم يعلمون؛ كان هذا الإثبات خيرًا من ذلك النفي، فإن معنى الدلائل الكثيرة من الكتاب والسنة وأقوال السلف على أن جميع القرآن مما يمكن علمه وفهمه وتدبره، وهذا مما يجب القطع به، وليس معناه قاطعًا على أن الراسخين في العلم لا يعلمون تفسير المتشابه، فإن السلف قد قال كثير منهم: إنهم يعلمون تأويله، منهم مجاهد - مع عظم قدره - والربيع بن أنس، ومحمد بن جعفر بن الزبير، ونقلوا ذلك عن ابن عباس، وأنه قال: أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله».

قالوا: والدليل على ما قلناه: إجماع السلف، فإنهم فسروا جميع القرآن، وقال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته، أقفه عند كل آية، وأسأله عنها، وتلقوا ذلك عن النبي ﷺ. كما قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن عثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي

ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا، وكلام أهل التفسير من الصحابة والتابعين شامل لجميع القرآن إلا ما قد يشكل على بعضهم فيقف فيه، لا لأن أحدًا من الناس لا يعلمه، لكن لأنه هو لم يعلمه.

وأيضًا فإن الله قد أمر بتدبر القرآن مطلقًا، ولم يستثن منه شيئًا لا يُتدبر، ولا قال: لا تدبروا المتشابه، والتدبر بدون الفهم ممتنع، ولو كان من القرآن ما لا يُتدبر لم يُعرف، فإن الله لم يميز المتشابه به بحدٍّ ظاهر حتى يُجتنب تدبره.

وهذا أيضًا مما يحتجون به، ويقولون: المتشابه أمر نسبي إضافي؛ فقد يشتبه على هذا ما لا يشتبه على غيره، قالوا: ولأن الله أخبر أن القرآن بيان وهدًى وشفاء ونور، ولم يستثن منه شيئًا عن هذا الوصف، وهذا ممتنع بدون فهم المعنى، قالوا: ولأن من العظيم أن يقال: إن الله أنزل على نبيه كلامًا لم يكن يفهم معناه، لا هو ولا جبريل، بل وعلى قول هؤلاء كان النبي ﷺ يحدث بأحاديث الصفات والقدر والمعاد، ونحو ذلك، مما هو نظير متشابه القرآن عندهم، ولم يكن يعرف معنى ما يقوله، وهذا لا يظن بأقل الناس.

وأيضًا فالكلام إنما المقصود به الإفهام، فإذا لم يقصد به ذلك كان عبثًا وباطلاً، والله تعالى قد نزَّه نفسه عن فعل الباطل والعبث، فكيف يقول الباطل والعبث ويتكلم بكلام ينزله على خلقه لا يريد به إفهامهم، وأيضًا فما في القرآن آية إلا وقد تكلم الصحابة والتابعون لهم بإحسان في معناها وبينوا ذلك.

الراسخون في العلم يعلمون تفسير المتشابه

وإذا قيل: فقد يختلفون في بعض ذلك؟ قيل: كما قد يختلفون في آيات الأمر والنهي، وآيات الأمر والنهي مما اتفق المسلمون على أن الراسخين في العلام يعلمون معناها.

وهذا أيضًا مما يدل على أن الراسخين في العلم يعلمون تفسير المتشابه، فإن المتشابه قد يكون في آيات الأمر والنهي، كما يكون في آيات الخبر، وتلك مما اتفق العلماء على معرفة الراسخين لمعناها، فكذلك الأخرى، فإنه على قول النفاة لم يعلم معنى المتشابه إلا الله، لا ملك ولا رسول ولا عالم، وهذا خلاف الإجماع في متشابه الأمر والنهي، وأيضًا فلفظ التأويل يكون للمحكم، كما يكون للمتشابه، كما دل القرآن والسنة وأقوال الصحابة على ذلك، وهم يعلمون معنى المحكم، فكذلك معنى المتشابه، وأي فضيلة في المتشابه، حتى ينفرد الله بعلم معناه، والمحكم أفضل منه، وقد بيَّن معناه لعباده، فأي فضيلة في المتشابه، حتى يستأثر الله بعلم معناه، وما استأثر الله بعلمه كوقت الساعة لم ينزل به خطابًا، ولم يذكر في القرآن آية تدل على وقت الساعة، ونحن نعلم أن الله تعالى استأثر بأشياء لم يُطلع عباده عليها، وإنما النزاع في كلام أنزله وأخبر أنه هدًى وبيان وشفاء وأمر بتدبره، ثم يقال: إن منه ما لا يعرف معناه إلا الله، ولم يبين الله ولا رسوله ذلك القدر الذي لا يعرف أحد معناه، ولهذا صار كل من أعرض عن آيات لا يؤمن بمعناها يجعلها من المتشابه بمجرد دعواه.

وبالجملة: فالدلائل الكثيرة توجب القطع ببطلان قول من يقول: إن في القرآن آيات لا يعلم معناها الرسول ولا غيره. إلى آخر ما ذكر رحمه الله.

ومما يدل على ما سبق ما صح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: والذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله، إلا أنا أعلم فيمن أنزلت، ولو أعلم أحدًا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه.[متفق عليه].

وعن مسروق قال: «كان عبد الله يقرأ علينا السورة، ثم يحدثنا فيها ويُفسرها عامة النهار». وعن ابن أبي مليكة قال: «رأيت مجاهدًا يسأل ابن عباس رضي الله عنهما عن تفسير القرآن ومعه ألواحه، فيقول له ابن عباس: اكتب. قال: حتى سأله عن التفسير كله».

قال ابن قتيبة رحمه الله: «ولسنا ممن يزعم أن المتشابه في القرآن لا يعلمه الراسخون في العلم، وهذا غلط من متأوليه على اللغة والمعنى، ولم يُنزل الله شيئًا من القرآن إلا لينفع به عباده، ويدل به على معنًى أراده، فلو كان المتشابه لا يعلمه غيره للزمنا للطاعن مقال، وتعلق علينا بعلة، وهل يجوز لأحد أن يقول: إن رسول الله ﷺ لم يكن يعرف المتشابه؟ وإذا جاز أن يعرفه مع قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته فقد علمهم نبيهم ﷺ التفسير.

وبعدُ: فإنا لم نَرَ المفسرين توقفوا عن شيء من القرآن فقالوا: هذا متشابه لا يعلمه إلا الله، بل أمرُّوه كله على التفسير». [تأويل مشكل القرآن].

وللحديث بقية إن شاء الله.

ما يُستحب في رمضان

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله الذي فتح لنا أبواب الطاعات، ويسرها لنا، ودلنا عليها، وأصلي وأسلم على خير خلقه، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعدُ:

فإن الله عز وجل جعل لنا من الأعمال الفاضلة والطاعات المتتالية ما تقرّ به الأنفس، وتهنأ به الصدور، ويتسابق فيه المتسابقون؛ طمعًا في رضوان الله ورحمته، ورجاء جنته وخوف عقابه، ومن أجمع الأوقات لهذه الأعمال شهر رمضان، وقد جمع فيه رب العالمين سبحانه من الأعمال ما تفرق في غيره، ومن الأعمال التي يُستحب للعبد فعلها في رمضان:

١- يُستحب للصائم تأخير السحور وذلك قبل الفجر:

فقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالسحور وأبان الحكمة في ذلك؛ كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «تسحروا، فإن في السحور بركة» [متفق عليه]، وسَحور بفتح السين؛ ما يُتسحر به وبضمها الفعل، والبركة مضافة إلى كل من الفعل وما يتسحر به جميعًا.

فيأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتسحر، الذي هو الأكل والشرب وقت السحر، استعدادًا للصيام، ويذكر الحكمة الإلهية فيه، وهي حلول البركة، والبركة تشمل منافع الدنيا والآخرة.

فمن بركة السحور؛ ما يحصل به من الإعانة على طاعة الله تعالى في النهار، فإن الجائع والظامئ يكسل عن العبادة.

ومن بركة السحور أن الصائم إذا تسحر لا يمل إعادة الصيام، خلافًا لمن لم يتسحر فإنه يجد حرجًا ومشقة يثقلان عليه العودة إليه.

ومن بركة السحور: الثواب الحاصل من متابعة النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن بركته أيضًا: أن المتسحر يقوم في آخر الليل فيذكر الله تعالى، ويستغفره ثم يصلي صلاة الفجر جماعة، بخلاف من لم يتسحر. وهذا مشاهد.

فإن عدد المصلين في صلاة الصبح مع الجماعة في رمضان أكثر من غيره من أجل السحور.

ومن بركة السحور أنه عبادة، إذا نوى به الاستعانة على طاعة الله تعالى، والمتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم، ولله في شرعه حكم وأسرار.

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «فَصْلُ ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السَّحَر». [مسلم ١٠٩٦].

ويتحقق السحور ولو بجرعة ماء؛ لحديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تسحروا ولو بجرعة من ماء». [رواه ابن حبان بسند حسن وصححه الألباني في صحيح الترغيب ١٠٧١].

والأفضل أن يجعل في سحوره تمرًا؛ لحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «نعم سحور المؤمن التمر». [رواه أبو داود ٢٣٤٥ وصححه الألباني].

ويستحب تأخير السحور إلى آخر الليل وهذا

إجماع، فعن قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن نبي الله صلى الله عليه وسلم وزيد بن ثابت رضي الله عنه تسحَّرا، فلما فرغا من سَحُورهما قام نبي الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة فصلى».

قلنا لأنس: كم كان بين فراغهما من سحورهما ودخولهما في الصلاة؟ قال: «كقدر ما يقرأُ الرجل خمسين آية». [متفق عليه].

ولأن المقصود بالسحور التقوِّي على الصوم، وما كان أقرب إلى الفجر كان أعون على الصوم، وأما الجماع فلا يستحب تأخيره؛ لأنه ليس مما يتقوى به، وفيه خطر وجوب الكفارة، وحصول الفطر به.

٢- ويستحب تعجيل الفطر بعد الغروب، وهذا إجماع؛ لحديث سَهْل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يزالُ الناسُ بخير ما عجلوا الفطر». [متفق عليه].

وعن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر وهو صائم، فلما غربت الشمس قال لبعض القوم: «يا فلان، قم فاجدح لنا». فقال: يا رسول الله، لو أمسيت. قال: «انزل فاجدح لنا». قال: يا رسول الله، فلو أمسيت. قال: «انزل فاجدح لنا». قال: إن عليك نهارًا. قال: «انزل فاجدح لنا». فنزل فجدح لهم، فشرب النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: «إذا رأيتم الليل قد أقبل من هاهنا فقد أفطر الصائم». [البخاري ٤٩٩١]. والجَدْح: أن يُحَرك السَّويق بالماء حتى يستوي.

ويستحب أن يفطر على تمر وإلا فعلى ماء؛ لحديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُفطر على رطبات قبل أن يصلي، فإن لم تكن رطبات فعلى تمرات، فإن لم تكن حَسَا حسواتٍ من ماء. [أبو داود ٢٣٥٦ وصححه الألباني].

٣- ويستحب أن يدعو عند الإفطار:

لقوله صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة لا تُرد دعوتهم..» وذكر منهم: «الصائم حتى يُفطر». [رواه الترمذي وصححه الألباني].

ويستحب أن يدعو بما ورد في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أفطر قال: «ذهب الظمأ، وابتلت العروق، وثبت الأجر إن شاء الله». [رواه أبو داود ٢٣٥٧ وحسنه الألباني].

٤- ويستحب للصائم في رمضان أن يجود بالخير:

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاهُ جبريل فيدارسُه القرآن، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة. [متفق عليه] وأخرجه الإمام أحمد بزيادة في آخره، وهي: «لا يُسأل عن شيء إلا أعطاه». والجودُ هو سعةُ العطاء وكثرته، والله تعالى يوصف بالجود ولِما كان الله عز وجل قد جبل نبيه صلى الله عليه وسلم على أكمل الأخلاق وأشرفها، كما في حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إنما بعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق» [مسند أحمد وصححه الألباني في الصحيحة ٤٥].

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس كلهم، وكان جوده بجميع أنواع الجود، من بذل العلم والمال، وبذل نفسه لله تعالى في إظهار دينه وهداية عباده، وإيصال النفع إليهم بكل طريق، من إطعام جائعهم، ووعظ جاهلهم، وقضاء حوائجهم وتحمل أثقالهم.

وعن أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس، وأشجع الناس وأجود الناس» [متفق عليه]. وفي صحيح مسلم عنه قال: «ما سئِل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام شيئًا إلا أعطاه، فجاءه رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم أسلموا، فإن محمدًا يعطي عطاءَ من لا يخشى الفاقة». [مسلم ٢٣١٢] وقال أنس: إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا فما يُمسي حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها.

وكان يؤثر على نفسه وأهله وأولاده فيعطي عطاءً يعجز عنه الملوك مثل كسرى وقيصر ويعيش في نفسه عيش الفقراء، فيأتي عليه الشهر والشهران لا يوقدُ في بيته نار وربما ربط على بطنه الحجر من الجوع، وكان جوده صلى الله عليه وسلم يتضاعف في شهر رمضان على غيره من الشهور، كما أن جُود ربه يتضاعف فيه أيضًا، فإن الله جبله على ما يحبه من الأخلاق الكريمة، وكان على ذلك من قبل البعثة.

٥- ويستحب الإكثار من تلاوة القرآن الكريم:

وشهر رمضان له خصوصية بالقرآن، كما قال تعالى: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ» [البقرة:١٨٥]، وكان عمر قد أمر أُبيَّ بن كعب وتميمًا الداري أن يقوما بالناس في شهر رمضان، فكان القارئ يقرأ بالمائتين في ركعة، حتى كانوا يعتمدون على العصي من طول القيام. قال ابن عبد الحكم: كان مالك إذا دخل رمضان نفر من قراءة الحديث ومجالسة أهل العلم، وأقبل على تلاوة القرآن من المصحف. وقال عبد الرزاق: كان سفيان الثوري إذا دخل رمضان ترك جميع العبادة وأقبل على تلاوة القرآن، وكانت عائشة رضي الله عنها تقرأ في المصحف أول النهار في شهر

رمضان، فإذا طلعت الشمس نامت.

قال ابن رجب الحنبلي في «لطائف المعارف»: وإنما ورد النهي عن قراءة القرآن في أقل من ثلاث على المداومة على ذلك، فأما في الأوقات المفضلة كشهر رمضان خصوصًا الليالي التي يطلب فيها ليلة القدر أو في الأماكن المفضلة، كمكة شرفها الله لمن دخلها من غير أهلها فيستحب الإكثار فيها من تلاوة القرآن اغتنامًا للزمان».

٦- ويستحب للصائم الجمع بين الأعمال الصالحة:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من أصبح فيكم اليوم صائمًا؟ قال أبو بكر: أنا، قال: من تبع منكم اليوم جنازة؟ قال أبو بكر: أنا، قال: فمن أطعم اليوم مسكينًا؟ قال أبو بكر: أنا، قال: من تصدق بصدقة؟ قال أبو بكر: أنا، قال: فمن عاد منكم مريضًا؟ قال أبو بكر: أنا، قال: ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة» [مسلم ١٠٢٨].

والجمع بين الصيام والصدقة أبلغ في تكفير الخطايا واتقاء جهنم والمباعدة عنها، وخصوصًا إن ضم إلى ذلك قيام الليل، فقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الصيامُ جنة». [رواه النسائي، وهو صحيح، وهو قطعة من حديث أخرجه البخاري].

وفي حديث معاذ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار وقيام الرجل من جوف الليل». يعني أنه يطفئ الخطيئة أيضًا. [ابن ماجه ٣٩٧٣ وصححه الألباني]. وروى البخاري عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال: «اتقوا النار ولو بشق تمرة» [البخاري ١٤١٧].

٧- ويستحب للصائم في رمضان قيام ليله:

قال صلى الله عليه وسلم: «من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه». وقال صلى الله عليه وسلم: «من قام مع الإمام حتى ينصرف كُتب له قيام ليلة». [رواه أبو داود والترمذي، وصححه الألباني].

ويستحب له الاجتهاد في قيام ليالي رمضان كلها ليدرك ليلة القدر، ففي الصحيحين عن أبي هريرة عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه» [متفق عليه].

قال ابن رجب: المعول على القبول لا على الاجتهاد، والاعتبار بما في القلوب لا بعمل الأبدان. رُبَّ قائم حظه من قيامه السهر، كم من قائم محروم، ومن نائم مرحوم هذا نام وقلبه ذاكر، وهذا قام وقلبُه فاجر.

لكن العبد مأمور بالسعي في اكتساب الخيرات والاجتهاد في الأعمال الصالحات، وكل مُيسّر لما خُلق له، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة: «فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى» [الليل:٥- ١٠].

٨- ويستحب للصائم في رمضان الاعتكاف:

فعن عائشة رضي الله عنها: «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله تعالى» [متفق عليه].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف في كل رمضان عشرة أيام، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين» [البخاري ٢٠٤٤]. وإنما كان يعتكف النبي صلى الله عليه وسلم في هذه العشر يطلب فيها ليلة القدر.

والاعتكاف مشروع مستحب باتفاق أهل العلم، وقد حافظ صلى الله عليه وسلم على الاعتكاف في العشر الأواخر كما ورد في حديث عائشة رضي الله عنها المتقدم.

والاعتكاف فرصة عظيمة لتربية النفس، وجهاد الهوى والبعد عن الشواغل والصوارف، وكثرة المطاعم والمآكل والتفرغ لقراءة القرآن والذكر وقيام الليل.

٩- ويستحب في رمضان أداء العمرة للمستطيع:

فمن الأعمال المستحبة في رمضان أداء العمرة ورتب لمن قام بها فضلاً عظيمًا؛ لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «العُمرة إلى العُمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» [متفق عليه].

وفي رمضان يتضاعف هذا الفضل العظيم والأجر الجزيل، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رجع من حجة الوداع قال لامرأة من الأنصار اسمها أم سنان: «ما منعك أن تحجي معنا؟» قالت: أبو فلان - زوجها - له ناضحان، حج على أحدهما، والآخر نسقي عليه، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: «فإذا جاء رمضان فاعتمري، فإن عمرة فيه تعدل حجة». أو قال: «حجة معي». [مسلم ١٢٥٦].

والأعمال المستحبة في رمضان كثيرة ليست محصورة فيما ذكرت، ولكن هذا ما تيسر لي جمعه من كلام أهل العلم، والله أسأل أن يوفقنا إلى طاعته ومرضاته إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دراسات قرآنية

العظمة في القرآن الكريم

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وآله وصحبه ومن والاه، وبعدُ:

فالاشتغال بالقرآن، وخدمته، والتعريف به ونشره، وتحبيبه إلى النفوس، وتشويق الأفئدة إليه، والتبصير به، ولفت الأنظار إليه، والإبانة عن حقائقه وفضله وفضائله وعظمته ومنزلته عند السلف، وأهمية تعلمه وتعليمه، وكيفية قراءته والأحكام التي تدور حوله، وإقامة الحجة به على الآخرين، من أفضل ما يُشتغل به، وتُنفق فيه الأوقات وتُبذل فيه الأموال، ويُضَحَّى فيه بالمُهَج وبكل ما هو أغلى وأنفس.

ومن خلال هذه المعاني سالفة الذكر سيدور حديثنا من خلال سلسلة نتكلم فيها عن عظمة القرآن وفضله، وفضائله، ومنزلته عند السلف، وكل ما هو متعلق بهذا الكتاب الكريم، وسأبدأ الكلام حول عظمة القرآن الكريم، أسأل الله تعالى التوفيق والسداد، فأقول وبالله تعالى التوفيق:

إن الكتاب الذي لا ريب فيه، ولا نقص يعتريه هو القرآن العظيم، روح الأمة الإسلامية، به حياتها وعزها ورفعتها، قال الله تعالى مخاطبًا رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم: «وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾» [الشورى:٥٢].

فالقرآن العظيم روحُ يبعث الحياة، ويحركها، وينمِّيها في القلوب، وفي الواقع العملي المشهود، والأمة بغير القرآن أمة هامدة لا حياة لها ولا وزن ولا مقدار، والقرآن العظيم هو كتاب الهداية، ولغة الحياة، وقصة الكون الصادقة من بدايته إلى نهايته، بل تجديدٌ لميلاد الإنسان على اختلاف الحِقب وتوالي الأجيال، ومرور الدهور والعصور، نزل لمخاطبة النفس البشرية، والأخذ بيدها فهو معها آمرًا وناهيًا مرشدًا، وواعظًا مبشرًا ومنذرًا، مصبرًا ومسليًا، مُعلمًا وموجهًا، سميرًا وجليسًا، صديقًا وأنيسًا، فهو الحياة في سُمُوها والكمال في أسمى معانيه، فقد بلغ الغاية التي لا تدانيها غاية، في الرفعة والعلو والخلود والسُّمو، فما أبدع تراكيبه! وأروع أساليبه! وأسمى معانيه!

والقرآن العظيم هو المعجزة الباقية الخالدة التي نصبها ربُّ العزة تبارك وتعالى شاهدًا حيًا ناطقًا بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم، ولقد تحدى الله به العالم كله، إنسًا وجنًا، فما ثبتوا لهذا التحدي، بل أظهروا عجزًا صارخا، وعيًا بليدًا، وقد سجل الله عليهم نكوصهم عن مجاراة القرآن ومسايرته في آفاقه العالية؛ حيث قال تعالى: « قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾» [الإسراء:٨٨].

عظمة القرآن الكريم

تعريف العظمة:

جاءت (العظمة) في اللغة بمعان عدة، نأخذ منها ما يدل على المقصود. قال ابن فارس: «العين والظاء والميم أصل واحد صحيح يدل على كبر وقوة».

ومن الباب (العَظْمُ) معروف، وقد سُمّي بذلك لقوّته وشدته.

و(العِظَمُ: خلافُ الصِّغر)، و(عَظَّمَهُ تعظيمًا وأعظمَهُ: فَخَّمَهُ وكَبَّرَهُ).

والتعظيم: التبجيل». ونخلص من هذا العرض لمعنى «عَظُمَ» في اللغة أنها تعني: الكبَر، والقوة والزَّهْوَ والحرمة، والوسط والشرف، والكثرة والتبجيل والفخامة.

ما جاء في القرآن من ألفاظ العظمة

وردت لفظة «العظمة» وما يتفرع عنها في الآيات القرآنية في مواطن كثيرة منها:

١- قال الله تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾» [الحجر:٨٧].

نوّه الله تعالى في هذه الآية بعظمة القرآن، ووصفه بأنه نعمة عظمى تتضاءل دونها جميع النعم.

٢- وقال تعالى: «قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾» [ص:٦٧].

لا ريب أن القرآن خبر عظيم، وحديث عظيم؛ لأنه كلام رب العالمين، ولأنه حوّل خط سير البشرية إلى الطريق الأقوم.

٣- قوله تعالى: «وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾» [الواقعة:٧٦- ٧٨].

قال ابن كثير رحمه الله: «قوله: «وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾» [الواقعة:٧٦] أي: وإن هذا القسم الذي أقسمتُ به لقسمٌ عظيم، لو تعلمون عظمته، لعظّمتم المقسم به عليه، «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾» [الواقعة:٧٧] أي: إن هذا القرآن الذي نزل على محمد لكتاب عظيم، «فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾» [الواقعة:٧٨] أي: معظّم في كتاب، معظّم محفوظ موقّر».

٤- قوله تعالى: «ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾» [الحج:٣٢]، المراد بالشعائر: أعلام الدين الظاهرة، ومنها: المناسك كلها، كما قال تعالى: «إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾» [البقرة:١٥٨]. ومعنى تعظيمها: إجلالها والقيام بها، وتكميلها على أكمل ما يقدر عليه العبد.

ومنها: الهدايا، فتعظيمها: باستحسانها واستسمانها، وأن تكون مكملة من كل وجه، فتعظيم شعائر الله أساسه تقوى القلوب، فالمعظم لها، يبرهن على تقواه وصحة إيمانه؛ لأن تعظيمها تابع لتعظيم الله وإجلاله.

وقد ذُكرت القلوب هنا لأن المنافق قد يُظهر التقوى للناس تصنّعًا، وقد يكون قلبه خاليًا منها، فلا يكون مُجدًا في أداء الطاعات، أما المخلص الذي تكون التقوى متمكنة في قلبه، فإنه يُبالغ في أداء الطاعات على سبيل الإخلاص.

٥- قوله تعالى: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾» [الحج: ٣٠].

يخبر الله تعالى أن من يجتنب معاصيه ومحارمه، ويكون ارتكابها عظيمًا في نفسه، فهذا التعظيم يكون له خيراً وثواباً مُدخراً له في الآخرة عند ربه عز وجل.

ولأن تعظيم حرمات الله من الأمور المحبوبة لله، المقرّبة إليه، فمن عظمها وأجلها أثابه الله تعالى ثوابًا جزيلاً، وكانت له خيرًا في الدنيا والآخرة.

وحرمات الله: كل ما له حرمة، أو أمر باحترامه من عبادة أو غيرها، كالمناسك كلها، والحرم والإحرام، وكالهدي والعبادات المأمور بها شرعًا، فتعظيمها هو إجلالها بالقلب، وأداؤها من غير تهاون أو تكاسل أو تثاقل. [تفسير السعدي: ٣١٨/٣].

٦- قوله تعالى: «ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾» [الطلاق:٥].

أخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن من خافه واتقاه، باجتناب معاصيه وأداء فرائضه، يمحو الله تعالى عنه ذنوبه وسيئات أعماله التي اقترفها؛

لأن التقوى من أسباب مغفرة الذنوب، ومعنى: «وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا» [الطلاق:٥] أي: يُعطه أجرًا عظيمًا في الآخرة، وهو الجنة، وقيل: بالمضاعفة. وقيل: إعظام الأجر أن يخلده في الجنة، ولا منافاة بين هذه الأقوال. وحاصلها: أن أجره يعظمُ في الدنيا والآخرة.

٧- قوله تعالى: «ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾» [سورة التوبة:٢٠].

إن الموصوفين بهذه الصفات الأربع في غاية الجلال والرِّفعة؛ لأن الإنسان ليس له إلا مجموع أمور ثلاثة: الروح والبدن والمال.

أما الرُّوح: فلما زال عنها الكفر وحصل فيها الإيمان، فقد وصلت إلى مراتب السعادات اللائقة بها، وأما البدن والمال: فبسبب الهجرة وقعا في النقصان، وبسبب الاشتغال بالجهاد صارا مُعرضين للهلاك والبطلان، ولا شك أن النفس والمال محبوبا الإنسان، والإنسان لا يعرض عن محبوبه إلا للفوز بمحبوب أكمل من الأول، فلولا أن طلب الرضوان أتم عندهم من النفس والمال، وإلا لما رجَّحوا جانب الآخرة على جانب النفس والمال، ولما رضوا بإهدار النفس والمال لطلب مرضاة الله تعالى.

واعلم أنه تعالى لم يقل أعظم درجة من المشتغلين بالسقاية والعمارة؛ لأنه لو عيّن ذكرهم لأوهمَ أن فضيلتهم إنما حصلت بالنسبة إليهم، ولما ترك ذكر المرجوح دل ذلك على أنهم أفضل من كل من سواهم على الإطلاق؛ لأنه لا يعقل حصول سعادة وفضيلة للإنسان أعلى وأكمل من هذه الصفات». [التفسير الكبير: ١٢/١٦].

«فإن قال قائل: كيف يستقيم قوله: «أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّه» [سورة التوبة:٢٠]، وليس للمشركين درجة أصلاً؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أعظم درجة من درجتهم على تقديرهم في أنفسهم، وهذا مثل قوله تعالى: «أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾» [الفرقان:٢٤] ومعناه على تقديرهم في أنفسهم.

والثاني: أن هؤلاء الصنف من المؤمنين أعظم درجة عند الله من غيرهم.

٨- قال تعالى: «وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾» [الحديد:١٠].

ومعنى: «أَعْظَمُ دَرَجَةً» [الحديد:١٠] أي: أعظم منزلة عند الله. وقيل: درجات الجنة تتفاضل، فالذين أنفقوا من قبل الفتح في أفضلها. [زاد المسير: ٨/١٦٤].

فلذلك كان من أسلم قبل الفتح وقاتل، أعظم درجة وأجرًا وثوابًا ممن لم يُسلم ويقاتل وينفق إلا بعد ذلك، كما هو مقتضى الحكمة، ولهذا كان السابقون وفضلاء الصحابة غالبُهم أسلم قبل الفتح.

ولما كان التفضيل بين الأمور قد يتوهم منه نقصٌ وقدح في المفضول احترز تعالى من هذا بقوله: «وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ» [الحديد:١٠] أي: الذين أسلموا وقاتلوا وأنفقوا من قبل الفتح وبعده، كلهم وعده الله الجنة، وهذا يدل على فضل الصحابة كلهم رضي الله عنهم؛ حيث شهد الله لهم بالإيمان ووعدهم الجنة».

٩- قوله تعالى: «وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾» [المزمل:٢٠]، لقد أخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن الصدقة في الدنيا خير من الإمساك وأعظم ثوابًا، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: تجدوه عند الله هو خيرًا وأعظم أجرًا من الذي تؤخره إلى وصيتك عند الموت.

وقال الزجاج رحمه الله: تجدوه عند الله هو خيرًا لكم من متاع الدنيا.

«وليعلم أن مثقال ذرة في هذه الدار من الخير، يقابله أضعاف أضعاف الدنيا، وما عليها في دار النعيم المقيم، من اللذات والشهوات، وإن الخير والبر في هذه الدنيا، مادة الخير والبر في دار القرار، وبذره وأصله وأساسه.

هذا، وبالله التوفيق، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دراسات قرآنية

دلائل عظمة القرآن

إعداد / مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعدُ:

فإن الحديث عن عظمة القرآن الكريم أعظم من أن يحيط به بشر، فكيف بمن يكتب أوراقًا محدودة، في أشهر معدودة، فأنى له أن يفي عمًا يكتب بحقه، أو قريب منه، إنه القمة العليا والتي لن نصل إليها مهما اجتهدنا ولكننا نقترب منها كلما اجتهدنا؛ لأنه كتاب الله، به تكلم، وفيه أودع تلك العظمة، ومع ذلك فلا بد من استجلاء هذه العظمة، وتلك الخصوصية، فقد استولى على العقول، وهيمن على القلوب، فأبدعت الألسن في وصفه وسالت الأقلام في نعته، ولا غرابة في ذلك فهو أحسن الحديث وأعظمه وأطيبه وأحكمه، وهو الكتاب الذي لا ريب فيه، ولا نقص يعتريه؛ لبلاغته وسمو إرشاداته ودقة معلوماته، وقوة دلائله وبياناته، وجمال عباراته:

وسيكون حديثنا حول عظمة القرآن، ومظاهر هذه العظمة ودلائلها على النحو التالي:

١- ثناء الله على كتابه:

أثنى الله تعالى على كتابه العزيز في آيات كثيرة، مما يدل على عظمته كما وصفه «بالعظيم» في قوله تعالى: « وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ »[الحجر:٨٧]، ووصفه «بالإحكام» في قوله تعالى: «الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ » [هود:١].

وذكر هيمنته على الكتب السابقة في قوله تعالى: « وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ » [المائدة:٤٨]، فهذا الكتاب هو المهيمن الحافظ لمقاصد الكتب المنزلة قبله، الشاهد المؤتمن على ما جاء فيها، ووصفه في أم الكتاب بأنه «عليٌّ حكيم» في قوله تعالى: « وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ » [الزخرف:٤]، فهذه شهادةٌ من الله تعالى بعلوِّ شأن القرآن وحكمته.

ولا ريب أن من عظمة القرآن أنه: (عَليٌّ) في محله، وشرفه، وقدره فهو عالٍ على جميع كتب الله تعالى، بسبب كونه معجزًا باقيًا على وجه الدهر.

ومعنى الحكيم: المنظوم نظمًا متقنًا لا يعتريه أيُّ خلل في أي وجه من الوجوه، فهو حكيم في ذاته،

حاكم على غيره.

والقرآن (حكيم) كذلك فيما يشتمل عليه من الأوامر، والنواهي، والأخبار، فليس فيه حكمٌ مخالف للحكمة والعدل والميزان، ومن ثناء الله تعالى على القرآن أن وصفه في ثلاث سور بأنه «كتاب مبارك»، وبركة هذا الكتاب تمتد إلى يوم القيامة، فعطاؤه نام لا ينفد، يواكب الحياة بهذا العطاء، ثم يأتي شفيعًا لأصحابه.

٢- عظمة منزله سبحانه وتعالى:

العظيم: ذو العظمة والجلال في ملكه وسلطانه، كذلك تعرفه العرب في خطبها ومحاوراتها، يقول قائلهم: مَن عظيم بني فلان اليوم؟ أي: مَن له العظمة والرئاسة منهم؟ فيقال: فلان عظيمهم، ويقولون: هؤلاء عظماءُ القوم، أي: رؤساؤهم، وذوو الجلالة والرئاسة منهم، وهناك فرق بين عظمة الخالق والمخلوق، فالمخلوق قد يكون عظيمًا في حال دون حال، وفي زمان دون زمان، فقد يكون عظيمًا في شبابه، ولا يكون كذلك عند شيبه، وقد يكون ملكًا أو غنيًا في قومه، فيذهب ملكه وغناه أو يفارق قومه، وتذهب عظمته معها، لكن الله سبحانه وتعالى هو العظيم أبدًا.

قال الأصبهاني: العظمةُ صفة من صفات الله، لا يقوم لها خلقٌ، والله تعالى خلق بين الخلق عظمة يعظَم بها بعضهم بعضًا، فمن الناس من يعظَم لمال، ومنهم من يُعظَم لفضل، ومنهم من يعظَم لعلم، ومنهم من يعظَم لسلطان، ومنهم من يعظَم لجاه، وكل واحد من الخلق إنما يعظَم بمعنى دون معنى، والله عز وجل يعظم في الأحوال كلها.

فينبغي لمن عرف حق عظمة الله، ألا يتكلم بكلمة يكرهها الله، ولا يرتكب معصية تغضب الله، إذ هو القائم على كل نفس بما كسبت.

فالله تعالى هو العظيم على الإطلاق؛ لأنه عظيم في ذاته، عظيم في أسمائه وصفاته كلها، فلا يجوز قصر عظمته في شيء دون شيء منها؛ لأن ذلك تحكم لم يأذن به الله.

قال ابن القيم في نونيته:

وهو العظيمُ بكل معنىً يوجبُ
التعظيمُ لا يُحصيه من إنسان

فمن عظمته تعالى: أنه لا يشق عليه أن يحفظ السماوات والأرض السبع، ومن فيهما وما فيهما، كما قال تعالى: «ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾» [البقرة:٢٥٥].

وتتجلى عظمة القرآن العظيم في عظمة مُنزله جل جلاله.

٣- فضل من نزل بالقرآن:

نَوَّه الله تعالى بشأن من نزل بالقرآن على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو جبريل عليه السلام، أمين الوحي الإلهي، وذكر فضله في عدة آيات، منها:

- قوله تعالى: « قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ » [النحل:١٠٢]. و(روح القدس): جبريل عليه السلام.

والروح: الملك، كما قال تعالى: « فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ » [مريم:١٧] أي: مَلَكا من ملائكتنا.

والقدس: بضمتين، ويضمُّ فسكون، مصدر، أو اسم مصدر، بمعنى: النزاهة والطهارة أو الطهر، والمراد به هنا: معنياه الحقيقي والمجازي، الذي هو الفضلُ وجلالة القدر، وإضافة الروح إلى القدس، من إضافة الموصوف إلى الصفة، كقولهم حاتمِ الجود، وزيدُ الخير، والمراد: حاتم الجواد، وزيدُ الخيِّر، فالمعنى: الملك المقدس، وقوله تعالى: «وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾» [الشعراء:١٩٢].

وسُمي جبريلُ عليه السلام بالروح لعدة أوجه:

١- لأنه روح مقدسة، فوصفه بذلك تشريفًا له وبيانًا لعلو مرتبته.

٢- لأن الدين يحيا به، كما يحيا البدن بالروح، فهو المتولي لإنزال الوحي إلى الأنبياء.

٣- لأن الغالب عليه الروحانية، وكذلك سائر الملائكة، غير أن روحانيته أتم وأكمل.

وقد وصف الله تعالى جبريل عليه السلام

بخمس صفات في قوله تعالى: «إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾» [التكوير:١٩].

صفات جبريل الأمين عليه السلام:

الصفة الأولى: أنه كريم: فهو رسول كريم وليس كما يقول أعداؤه: إن الذي جاء به شيطان، فإن الشيطان خبيث مخبث، لئيم، قبيح المنظر، عديم الخير، باطنه أقبح من ظاهره، وظاهره أشنع من باطنه، وليس فيه ولا عنده خير، فهو أبعد شيء عن الكرام، والرسول الذي ألقى القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم كريمٌ جميل المنظر، بهيُّ الصورة، كثير الخير، طيب مطيِّب، معلم الطيبين.

الصفة الثانية: أنه ذو قوة:

كما قال تعالى في موضع آخر: «عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾» [النجم:٥]، وفي ذلك تنبيه على أمور:

١- أنه بقوته يمنع الشياطين أن تدنو منه، وأن ينالوا منه شيئًا، وأن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه، بل إذا رآه الشيطان هرب منه ولم يقربه.

٢- أنه مُوالٍ لهذا الرسول الذي كذبتموه، ومُعاضدٌ له، ومُوادٌّ له ومناصر، كما قال تعالى: «إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾» [التحريم:٤].

ومن كان هذا القويُّ وليَّه، ومِنْ أنصاره، وأعوانِه، ومعلمه، فهو المهتدي المنصور والله هاديه وناصره.

٣- أن من عادى هذا الرسول فقد عادى صاحبه ووليه جبريل، ومن عادى ذا القوة والشدة فهو عُرضةٌ للهلاك.

٤- أنه قادر على تنفيذ ما أمر به؛ لقوته، فلا يعجز عن ذلك، مُؤدٍّ له كما أُمر به لأمانته، فهو القوي الأمين، وهذا يدل على عظمة شأن المرسل، والرسول والرسالة، والمرسل إليه، والمرسل به؛ لأنه انتدب له الكريم القوي المكين عنده والمطاع في الملأ الأعلى، فإن الملوك لا ترسل في مهماتها إلا الأشراف، ذوي الأقدار والرتب العالية.

الصفة الثالثة: أنه مكين عند الرب تعالى:

كما قال تعالى: «ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾» [التكوير:٢٠].

والمكين: فعيلٌ، صفةٌ مشبهة من مَكُنَ بضم الكاف، مكانةً، إذا علت رتبتهُ عند غيره، كما قال الله تعالى في قصة يوسف عليه السلام مع الملك: «وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾» [يوسف:٥٤]، وتوسيط قوله: «عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ» [التكوير:٢٠]، بين «ذي قوة» و«مكين» ليتنازعه كلا الوصفين على وجه الإيجاز، أي: هو ذو قوة عند الله، أي جعل الله تعالى مقدرة جبريل عليه السلام تُخوِّله أن يقوم بعظيم ما يوكله الله به مما يحتاج إلى قوة القدرة وقوة التدبير، وهو ذو مكانة عند الله وزلفى.

وعُدِل عن اسم الجلالة إلى (ذي العرش) لتمثيل حال جبريل عليه السلام ومكانته عند الله تعالى بحال الأمير المنفذ لأمر الملك وهو يحمل الكرامة لديه.

فجبريل عليه السلام له مكانة ووجاهة عند الله تعالى، وهو أقرب الملائكة إليه، يشهد له قوله تعالى: «عند ذي العرش» إشارةً إلى علو منزلته، إذ كان قريبًا من ذي العرش سبحانه.

الصفة الرابعة: أنه مطاع في السماوات:

وفي قوله: «مطاع ثم» إشارة إلى أن جنوده وأعوانه من الملائكة الكرام يطيعونه كما يطيع الجيش قائدهم، لنصر صاحبه وخليله محمد صلى الله عليه وسلم.

وفيه إشارة أيضًا إلى أن هذا الذي تكذبونه وتعادونه سيصبح مطاعًا في الأرض، كما أن جبريل مطاعٌ في السماء، وأن كلاً من الرسولين مطاع في محله وقومه، وفيه تعظيم له بأنه بمنزلة الملوك المطاعين في قومهم، فلم ينتدب لهذا الأمر العظيم إلا مثل هذا الملك المطاع.

الصفة الخامسة: أنه أمين:

وفي وصفه بالأمانة إشارة إلى حفظ ما حمله، وأدائه له على وجهه دون نقص ولا تغيير.

وفيما تقدم من عظمة أوصاف جبريل عليه السلام، تبين لنا - بقياس الأولى - عظمة القرآن الذي نزل به، وعلو شأنه، ومنزلته عند الله تعالى.

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دراسات قرآنية

عظمة القرآن

إعداد / مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعدُ:

فما يزال حديثنا متصلاً حول عظمة القرآن، فمن عظمته أنه تنزيل رب العالمين:

القرآن تنزيل رب العالمين

قال الله تعالى: «وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾» [الشعراء:١٩٢ - ١٩٣]، أسند الله - جل جلالُه - إنزال القرآن إلى نفسه في خمسين آية من آيات القرآن المجيد أو يزيد، وفي هذا دلالة على كمال العناية الإلهية بالقرآن، مما يهز المشاعر ويحرك الوجدان، ويبعث على تربية المهابة منه عند سماعه.

كما أن في ذلك تنبيهًا على أنه مُنزَّل من لدن حكيم خبير، وكمال القائل يدل على صدق المقول، وعظمته مكتسبة من عظمة مُنزِّله.

وقال تعالى: «إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴿١﴾» [القدر:١]، وفي إسناد الإنزال إليه تشريف عظيم للقرآن، ولا شك أن هذا «تنويه بشأن القرآن الكريم وإجلال لمحله، بإضماره المؤذن بغاية نباهته المغنية عن التصريح به، كأنه حاضر في جميع الأذهان، وبإسناد إنزاله إلى نون العظمة المنبئ عن كمال العناية به».

فمن عظمة القرآن أنه نزل من الله تعالى وحده لا من غيره، لنفع الناس وهدايتهم فاجتمعت في القرآن العظيم خمس فضائل:

١- أنه أفضل الكتب السماوية.

٢- نزل به أفضل الرسل وأقواهم، الأمين على وحي الله تعالى.

٣- نزل على أفضل الخلق محمد صلى الله عليه وسلم.

٤- نزل لأفضل أمة أُخرجت للناس.

٥- نزل بأفضل الألسنة وأفصحها، وأوسعها، وهو اللسان العربي المبين.

القرآن مستقيم ليس فيه عوج:

أثنى الله تبارك وتعالى - الذي لا نحصي ثناء عليه، هو كما أثنى على نفسه - وذكر أنه مستحق للحمد على إنزاله القرآن العظيم؛ تنبيهًا منه تعالى على أنه أعظم نعمائه؛ لأنه الهادي إلى ما فيه كمال العباد، والداعي إلى ما فيه صلاح المعاش والمعاد، وقد علَّم عبادَهُ كيف يحمدونه على إفاضة هذه النعمة الجليلة، فقال سبحانه: «ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾ قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا

حَسَنًا ﴿٢﴾» [الكهف:١-٢].

قال أهل اللغة: إن العِوَج في المعاني كالعوج في الأعيان، ونفي العوج عن القرآن له عدة أوجه، منها:

الأول: نفي التناقض عن آياته، كما قال تعالى: «وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾» [النساء:٨٢].

الثاني: أن كل ما ذكر الله تعالى في القرآن، من التوحيد والنبوة والأحكام والتكاليف فهو حق وصدق، ولا خلل في شيء منه البتة.

وأخبر تعالى كذلك عن القرآن أنه ليس فيه تضاد ولا اختلاف ولا عيب من العيوب التي في كلام البشر، فقال: « قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » [الزمر:٢٨] أي: ليس فيه خلل ولا نقص بوجه من الوجوه، لا في ألفاظه، ولا في معانيه، وهذا يستلزم كمال اعتداله واستقامته، فقد وصف الله تعالى كتابه العزيز بوصفين عظيمين، مشتملين على أنه الكامل من جميع الوجوه، وعظيمٌ بكل ما تُعبّر عنه الكلمات، وهما:

١- نفي العوج عنه: وهذا يقتضي أنه ليس في أخباره كذب، ولا في أوامره ونواهيه ظلم ولا عبث.

٢- إثباتُ أنه مستقيم مُقيم: فالقرآن العظيم مستقيم في ذاته، مقيم للنفوس على جادة الصواب، وإثبات الاستقامة يقتضي أنه لا يُخبرُ ولا يأمر إلا بأجل الإخبارات، وهي الأخبار التي تملأ القلوب معرفة وإيمانًا وعقلاً، كالإخبار بأسماء الله وصفاته وأفعاله، والإخبار بالغيوب المتقدمة والمتأخرة.

وأن أوامره ونواهيه تزكي النفوس وتطهرها، وتنميها وتكملها؛ لاشتمالها على كمال العدل والقسط، والإخلاص، والعبودية لله رب العالمين وحده لا شريك له.

فحقيق بكتاب موصوف بما ذُكر أن يحمد الله تعالى نفسه على إنزاله.

وبنفي العوج عن القرآن الكريم، وإثبات استقامته، تتجلى عظمته وعلو شأنه ومنزلته عند الله تعالى.

خشوع الجبال وتصدعها

فلقد بلغ من شأن القرآن وعظمته، وشدة تأثيره أنه لو أُنزل على جبل من الجبال وجُعل له عقل كما جعل للبشر، لرأيت الجبل - مع كونه في غاية القسوة والصلابة - خاشعًا متصدعًا من خشية الله، كما قال الله تعالى: « لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾» [الحشر:٢١] أي: لاتَّعظ الجبلُ وتصدع صخره من شدة تأثره من خشية الله.

ففي هذا «بيان حقيقة تأثير القرآن وفاعليته في المخلوقات، ولو كانت جبلاً أشم أو حجرًا أصم».

وضُربَ التَّصدُّع مثلاً لشدة الانفعال والتأثر؛ لأن منتهى تأثُر الأجسام الصلبة أن تنشقَّ وتتصدع ولا يحصل ذلك بسهولة.

والخشوع: هو التَّطأطؤ والركوع، أي لرأيته ينزل أعلاه إلى الأرض.

والتصدع: التَّشقق، أي لَتَزلزَل وتشقق من خوفه سبحانه وتعالى.

ولا شك أن هذا تعظيمٌ لشأن القرآن، وتمثيلٌ لعلوِّ قدره وشِدَّة تأثيره في النفوس؛ لما فيه من بالغ المواعظ والزواجر، ولما اشتمل عليه من الوعد الحق والوعيد الأكيد؛ فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته، لو فهم هذا القرآن - كما فهمتموه - لخشع وتصدع من خوف الله تعالى، فكيف يليق بكم أيها البشر ألاَّ تلين قلوبُكم وتخشع وتتصدع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره، وتدبرتم كتابه.

والمقصود من إيراد الآية: إبراز عظمة القرآن الكريم، والحثّ على تأمُّل مواعظه الجليلة، وأداءُ حق الله تعالى في تعظيم كتابه، وتوبيخُ من لا يحترم هذا القرآن العظيم، وفيه كذلك تمثيل لعلو شأن القرآن وقوة تأثير ما فيه من المواعظ.

انقياد الجمادات لعظمة القرآن

يقول الله تعالى مبينًا ومنبهًا على عظمة القرآن وتأثيره: «وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ» [الرعد:٣١]، فهذا شرط جوابه محذوف، والمراد منه: تعظيم شأن القرآن العظيم.

والمعنى: ولو أن قرآنا سُيِّرت به الجبال عن مقارِّها، وزعزعت عن مضاجعها، أو قُطعت به الأرض حتى تتصدع وتتزايل قطعًا، أو كُلم به الموتى فتسمع وتجيب لكان هذا القرآن؛ لكونه غاية في التذكير ونهاية في الإنذار والتخويف».

وفي بيان المقصود هنا يقول أبو السعود رحمه الله: «والمقصود بيان عظم شأن القرآن العظيم، وفساد رأي الكفرة؛ حيث لم يقدُروا قدره العلي، ولم يعدُّوه من قبيل الآيات فاقترحوا غيره، مما أوتي موسى وعيسى عليهما السلام... فالمعنى: «وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ» [الرعد:٣١] أي: بإنزاله أو بتلاوته عليها، وزُعزعت عن مقارها كما فُعل ذلك بالطور لموسى عليه السلام، «أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ» [الرعد:٣١] أي: شققت وجعلت أنهارًا وعيونًا، كما فُعل بالحجر حين ضربه عليه السلام بعصاه، أو جُعلت قطعًا متصدعة، أو «كُلم به الموتى» أي: بعدما أحييت بقراءته عليها، كما أحييت لعيسى عليه السلام، لكان ذلك هذا القرآن؛ لكونه الغاية القصوى في الانطواء على عجائب آثار قدرة

الله تعالى وهيبته». فمما تقدم يتبين لنا عظمة القرآن وعلو شأنه ومنزلته وتأثيره.

تحدي الإنس والجن بالقرآن

من مظاهر عظمة القرآن وعلوِّ شأنه أن الله تعالى تحدَّى الإنس والجن أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة مثله. قال الله تعالى: « قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾» [الإسراء:٨٨]، «قل» لا يقولها الحق سبحانه بينه وبين رسوله، بل المراد: أعلنها يا محمد على الملأ، وأسمع بها الناس جميعًا؛ لأن القضية قضية تحدٍّ للجميع». ولقد ثبت بما لا يدع ثلمةً لمرتاب أن القرآن العظيم تنزيلٌ من رب العالمين على خاتم المرسلين، وأن الخلق جميعًا لو تضافرت جهودهم واتحد رأيهم على غاية واحدة هي أن يأتوا بمثل هذا القرآن في قمة فصاحته، وذروة بلاغته، وعُمق معناه، وما احتواه من شرائع وآداب، لم ولن يأتوا بمثله.

ولما لم يعتدَّ المُعارضُ بالوحي، ولم يقتنع بما فيه من المعجزات الدالة على كونه من عند الله تعالى، وعلى حقيقة نبوته صلى الله عليه وسلم، فقالوا: إن محمدًا اختلقه عمدًا من تلقاء نفسه، أرخى الله تعالى لهم العنان، وأضرب عز وجل عما قالوه، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم: إن كان الأمر كما تقولون، فأتوا أنتم - أيضا - بعشر سور مثله في البلاغة وحُسن النظم مختلفات من عند أنفسكم - إن صح قولكم: أني اختلقته من عندي - فإنكم أهل العربية وفرسانها، وأقدرُ على ذلك مني، وادعوا من استطعتم دعاءَهُ والاستعانة به - من دون الله - إن كنتم صادقين أني افتريته، فإن لم تفعلوا، فاعلموا أن الذي أنزله هو الله تعالى، واعلموا أيضا أن لا شريك له في الألوهية، ولا يقدر أحد على ما يقدر هو عليه، فهل أنتم مخلصون في الإسلام أو ثابتون عليه؟

يقول الله تعالى: «أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾» [هود:١٣- ١٤]، ومع ذلك كله، ما ثابوا إلى رشدهم، وما وجدوا ما يتكلمون به، فعادوا لما نهوا عنه وقالوا: «اختلقه محمد عمدًا». فاستدرجهم الله تعالى من حيث لا يعلمون، ووصل بهم إلى غاية التبكيت والخذلان، وتحداهم أن يأتوا بسورة مثل القرآن فعجزوا، قال الله تعالى: « أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾» [هود:١٣]، ولما بُهت الذين كفروا، ولم يستسلموا، صاروا كالذي يتخبطه الشيطان من المس، مرة يقولون استهزاء: « وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾» [الأنفال:٣١].

وأخرى يقولون عابثين: «ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ» [يونس:١٥]، وصار أمرهم على ما يقول الله تعالى: «بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ» [يونس:٣٩]، «بَلْ كَذَّبُوا۟» بل سارعوا إلى التكذيب، «بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ» [يونس:٣٩] بالقرآن أول ما سمعوه قبل أن يتدبروا آياته، ويحيطوا بالعلم بشأنه، أو بما جهلوه ولم يحيطوا به علمًا من ذكر البعث والجزاء، وسائر ما يخالف دينهم، «وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ» [يونس:٣٩] ولم يقفوا بعد على تأويله، ولم تبلغ أذانهم معانيه أو: ولم يأتهم بعدُ تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب حتى يتبين لهم أنه صدق أم كذب، والمعنى: أن القرآن معجز من جهة اللفظ والمعنى، ثم إنهم سارعوا بتكذيبه قبل أن يتدبروا نظمه ويتفحصوا معناه، ومعنى التوقع في (لما): أنه قد ظهر لهم بالآخرة إعجازه لما كرر عليهم التحدي فزادوا قواهم في معارضته، فتضاءلت دونها، أو لما شاهدوا وقوع ما أخبر به طبقًا لإخباره مرارًا فلم يُقلعوا عن التكذيب تمردًا وعنادًا «كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ» [يونس:٣٩] أنبياءهم «فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ» [يونس:٣٩] فيه وعيد لهم بمثل ما عُوقب به من قبلهم». انتهى من تفسير البيضاوي.

فهذا القرآن العظيم ليس ألفاظًا وعبارات يحاول الإنس والجن أن يحاكوها، كلا وربي، إنه كلام الله تعالى الذي تحدى به الخلق كلهم، فقال عز من قائل: « قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾» [الإسراء:٨٨]، فهذا تنويه بشرف القرآن وعظمته.

وهذه الآية ونحوها تسمى آيات التحدي، وهو تعجيز الخلق أن يأتوا بمثل هذا القرآن الكريم أو سورة منه، فكما أنه ليس أحد من المخلوقين مماثلا لله في أوصافه، فكلامه من أوصافه، التي لا يماثله فيها أحد، فليس كمثله شيء في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله تبارك وتعالى، فتبًا لمن اشتبه عليه كلام الخالق بكلام المخلوق، وزعم أن محمدًا افتراه على الله واختلقه من نفسه». تفسير السعدي.

فعظمة القرآن وعُلو شأنه لا تجعل للخلق من إنس وجن مطمعًا في الإتيان بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا. وللحديث بقية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دراسات قرآنية

دلائل عظمة القرآن

إعداد / مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه، ومن اهتدى بهداه، وبعد:

فما يزال حديثنا متصلاً حول دلائل عظمة القرآن وكماله وجلاله.

التنويه بالقرآن في مفتتح السُّور:

فمن دلائل عظمة القرآن العظيم أن الله تعالى نوَّه به في مفتتح أربع وثلاثين سورة، منها قوله تعالى: «الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢» [البقرة:١- ٢]، سمَّى الله تعالى القرآن الكريم بأنه (الكتاب)، وكلمة (قرآن) معناها: أنه يُقرأ، وكلمة (كتاب) معناها: أنه لا يُحفظ فقط في الصدور، ولكن يُدوَّن في السطور ويبقى محفوظًا إلى يوم الدين، والقول بأنه (الكتاب) تمييز له عن كل كتب الدنيا، وتمييز له عن كل الكتب السماوية التي نزلت قبل ذلك.

فالقرآن هو الكتاب الجامع لكل أحكام الله تعالى، منذ بداية الرسالات حتى يوم القيامة، وهذا تأكيد لارتفاع شأنه وتفرده وسماويته، ودليل عظيم على وحدانية مُنَزِّله جل جلاله.

ولقد نزلت على الأمم السابقة كُتبٌ تحمل منهج الله تعالى، ولكن كل كتاب نزل وكل رسالة نزلت موقوتة، في زمانها ومكانها حتى جاء الكتاب الخاتم والمهيمن عليها جميعًا، والجامع لمنهج الله سبحانه فيما ذُكر فيها، ولذلك بُشِّرَ في الكتب السماوية السابقة بأن هناك رسولاً سيأتي، ويحمل الرسالة الخاتمة للعالم، وعلى الذين يصدقون بمنهج الله أن يتبعوه، قال الله تعالى: « ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ » [الأعراف:١٥٧].

والقرآن هو الكتاب الوحيد الذي لا يصل إليه أيُّ تحريف أو تبديل أبدًا، فكُتُبُ الله السابقة ائتمن الله البشر عليها، فنسوا بعضها، وما لم ينسوه حرَّفوه، وأضافوا إليه من كلام البشر ما نسبوه إلى الله سبحانه وتعالى ظلمًا وبهتانًا، ولكن كتاب الله العظيم محفوظ من الله تعالى: « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ » [الحجر:٩]، وتأمل ضمائر العظمة في الآية الكريمة لتعلم أنه الأتم في العناية الإلهية غير قابل للاختراق، ومعنى ذلك ألا يرتاب إنسان في هذا الكتاب؛ لأن كل ما فيه من منهج الله محفوظ منذ لحظة نزوله إلى قيام الساعة.

وهذا النزول والحفظ الدائم له يستوجب حمد الله تعالى: «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١» [الكهف:١]، وفي السورة نفسها بيّن الله تعالى أن هذا الكتاب لن يستطيع بشر أن يبدّل منه كلمة واحدة، كما قال الله تعالى: « وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٧ » [الكهف:٢٧]. [تفسير الشعراوي ١/١١٠]

وقوله تعالى: «لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ» [الكهف:٢٧] معناه: «لا مُغَيِّرَ للقرآن».[تفسير النبوى ١٥٨/٣]

وقد نوَّه الله تعالى أيضا بالقرآن العظيم في مفتتح

سورة آل عمران، فقال تعالى: «الٓمٓ (١) اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ (٣)» [آل عمران:١-٣]. وهكذا نعرف أن (الكتاب) نزل ليؤكد لنا أن الله واحد أحد لا شريك له، وأن القرآن يشتمل على كل ما تضمنته الشرائع السماوية من توراة وإنجيل وغيرها من الكتب السابقة.

ونزل القرآن أيضًا ليُفرِّق بين الحق الذي جاءت به الكتب السابقة وبين الباطل الذي أضافه أولئك الذين ائتمنوا عليه.[تفسير الشعراوي ١/١١٣]

الحديث عن القرآن في أواخر السور:

ومن دلائل عظمة القرآن كذلك الحديث عنه في أواخر السور، والتي بلغ عددها ثلاثا وعشرين سورة، من ذلك قوله تعالى: « نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)» [ق:٤٥]، وقوله تعالى: « فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ (٥٠)» [المرسلات:٥٠]، وقوله تعالى: « بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢)» [البروج:٢١، ٢٢].

يعني: ليس القرآن كما يقولون من أنه شعر أو كهانة أو سحر، بل هو قرآن عظيم بلغ ذروة المجد وعلو الشرف حتى صار مهيمنا على سائر الكتب المنزلة، وهو كتاب كريم؛ لأنه كلام رب العالمين، فهو عظيم الكرم فيما يعطي من الخير، جليل القدر، وهو كريم لما يعطي من المعاني الجليلة والدلائل النفيسة.

يقول الشوكاني رحمه الله: «ثم رد الله سبحانه تكذيبهم بالقرآن فقال: « بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ (٢١)» [البروج:٢١]، أي: مكتوب في لوح، وهو أم الكتاب، محفوظ عند الله من وصول الشياطين إليه.[فتح القدير للشوكاني ٥/٥٨٦]

القسم بالقرآن وعليه

ومن دلائل عظمة القرآن العظيم أن الله تعالى أقسم به وعليه، وقد جاء القسم بالقرآن وعليه على صفات ثلاث:

الصفة الأولى: أقسم الله تعالى بالقرآن في ثلاث سور:

في قوله تعالى: «يسٓ (١) وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣)» [يس:١-٣]، وفي قوله تعالى: «صٓ وَالْقُرْءَانِ ذِى الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢)» [ص:١ - ٢]، وفي قوله تعالى: «قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ (١)» [ق:١].

الصفة الثانية: أن الله تعالى أقسم على القرآن في ثلاثة مواضع أيضًا:

منها قوله تعالى: « وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤)» [الطارق:١١ - ١٤].

الصفة الثالثة: أن الله تعالى أقسم بالقرآن وعلى القرآن في موضعين:

في قوله تعالى: «حمٓ (١) وَالْكِتَٰبِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣)»

[الزخرف:١-٣]

ومن المعلوم أن المُخاطَب إن كان على الفطرة التي خُلق عليها، تلقى الخَبَر بالقبول والإذعان فإذا ما اعتراها ما يشوبها، ويكدرها، كانت في حاجة إلى توضيح الخبر وبيانه حتى تؤمن به وتنقاد له، فإذا أصيبت بضعف فوق ضعف، فأنى لها أن تسمع أخبارًا أو تُبْصِر برهانًا بدون قسم وتأكيد.

والمُقسِمُ إذا ما أراد تحقيق أمر أو تأكيد خبر أمام مخاطَب منكِر أو نحو سامع معرض فإنما يُقسِم بأمر عظيم - لأن التعظيم من لوازم القَسَم - وذلك ليزول إنكار المنكر ويقبل المعرض. والله تبارك وتعالى أقسم - مرة - على تحقيق إنزال الكتاب، فقال الله تعالى: «لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠)» [الأنبياء:١٠].

فهذا كلام مستأنف مسوق لتحقيق حقيقة القرآن العظيم، الذي ذكر في صدر السورة الكريمة إعراض الناس عما يأتيهم من آياته واستهزاؤهم به، وتسميتهم تارة سحرًا، وتارة أضغاث أحلام، وأخرى مفترى وشعرًا،...

قد صدر بالتوكيد القسم لمزيد الاعتناء بمضمونه، وإيذانًا بكون المخاطبين في أقصى مراتب النكير، أي: والله لقد أنزلنا إليكم يا معشر قريش (كتابًا) عظيمَ الشأن ينير الأذهان». [تفسير أبي السعود: ٦/٥٨].

وأخرى يقسم جل شأنه - بكل ما في الوجود من صفات حميدة وآيات عجيبة على صدق القرآن وعظمته وأنه أعلى من تسميتهم الكاذبة، وأسمى من افتراءاتهم الباطلة، فيقول تبارك وتعالى: « فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَٰلَمِينَ (٤٣)» [الحاقة:٣٨ - ٤٣].

وقد جمع الله في هذا القسم كل ما الشأن أن يُقسَم به من الأمور العظيمة من صفات الله تعالى ومن مخلوقاته الدالة على عظيم قدرته؛ إذ الأرض والجبال والبحار والنفوس البشرية والسماوات والكواكب، وما لا يبصرون: الأرواح والملائكة وأمور الآخرة.[التحرير والتنوير لابن عاشور ٩٢/١٣٠]

وثالثة يُقسم - عز وجل - بالقرآن على أنه المعجز؛ لكونه من لدنه؛ إذ لو كان من صُنع بشر لما عجزوا عن معارضته؛ لكونهم أرباب اللغة التي نزل بها، أو يقسم على صدق محمد صلى الله عليه وسلم في دعواه الرسالة، يقول الله تعالى: «قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ (٢)» [ق:١، ٢].

ويقول عز وجل: «صٓ وَالْقُرْءَانِ ذِى الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢)» [ص:١-٢]، فقد أقسم الله تعالى بالقرآن قَسَمَ تنويه وتشريف، ووصفه بـ«ذي الذكر»؛ لأن «ذي» تُضاف إلى الأشياء الرفيعة الشأن.

والمختار في جواب القسم وجهان:

أولهما: أنه محذوف دلّ عليه حرف (ص)، فإن المقصود منه التحدي بإعجاز القرآن وعجزهم عن معارضته بأنه كلام بلُغتهم ومؤلَّف من حروفها، فكيف عجزوا عن معارضته؟!

فالتقدير: والقرآن ذي الذكر إنه لمن عند الله، ولهذا عجزتم عن الإتيان بمثله.

وثانيهما: أن الجواب محذوف أيضًا، دل عليه الإضراب الذي في قوله تعالى: « بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢)» [ص:٢]، أي: يجحدون أنه ذكر، ويقولون: سِحرٌ مفترى، وهم يعلمون أنه حق.

ولا ريب أن القسم بالقرآن وعليه، فيه تنويهٌ بشأنه، وإبراز لعظمته وشرفه ومنزلته الرفيعة عند الله تعالى. وللحديث بقية

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دلائل عظمة القرآن

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعدُ:

فما يزال حديثنا متصلاً حول دلائل عظمة القرآن.

تفضل الله بإنزال القرآن:

من مظاهر عظمة القرآن الكريم أن الله تعالى أثنى على نفسه الشريفة لتفضله بإنزاله، وعلَّم عباده أيضًا كيف يثنون عليه تعالى من أجل إنزال الكتاب فقال: «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾» [الكهف: ١].

من أسباب هذا الثناء

أمَّا لماذا تفضل الله عز وجل، ولماذا وجب الحمدُ؟

فهو ما يوضحه الشنقيطي رحمه الله بقوله: «علم الله جل وعلا عباده في أول هذه السورة الكريمة أن يحمدوه على أعظم نعمة أنعمها عليهم وهي إنزاله على نبينا صلى الله عليه وسلم هذا القرآن العظيم، الذي لا اعوجاج فيه، بل هو في كمال الاستقامة، أخرجهم به من الظلمات إلى النور، وبيَّن لهم فيه العقائد، والحلال والحرام، وأسباب دخول الجنة والنار، وحذرهم فيه من كل ما يضرهم، وحضهم فيه على كل ما ينفعهم، فهو النعمة العظمى على الخلق، ولذا علمهم ربُّهم كيف يحمدونه على هذه النعمة الكبرى». [أضواء البيان ٣/٤].

والله عز وجل «يحمد نفسه المقدسة عند فواتح الأمور وخواتمها، فإنه المحمود على كل حال، وله الحمد في الأولى والآخرة». [ابن كثير ٥/١٤١].

وإذا كان من دواعي تفضله تعالى كونه أنزل الكتاب مستقيمًا لا عوج فيه، فإن من الدواعي أيضًا كونه نذيرًا، ومن أنذرك فقد حذرك، ومن حذرك وقاك من الخطر.

«تبارك» من البركة. أي: تقدس الله ربنا، والبركة كثرة الخير وزيادته.

وفي كلمة (تبارك) معنيان:

١- تزايد خيره وتكاثره، وهو المراد من قوله تعالى: «وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ» [إبراهيم: ٣٤].

٢- تزايد عن كل شيء، وتعالى عنه في ذاته وصفاته وأفعاله، وهو المراد من قوله: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» [الشورى: ١١]، وأصل لفظ (تبارك): يدل على البقاء، وهو مأخوذ من بروك البعير، ومن بروك الطير على الماء، وسميت البِرْكَة بِرْكَة لثبوت الماء فيها، والمعنى: أنه سبحانه وتعالى باقٍ في ذاته أزلاً وأبدًا ممتنع التغيرُّ، وباقٍ في صفاته والمبقي لها، وجب وصفه سبحانه بأنه تبارك وتعالى. [التفسير الكبير ٢٤/٣٩، وتفسير البيضاوي ٤/٢٠٥].

فمعنى (تبارك): تعاظم وكَمُلَت أوصافه، وكثرت خيراته، والتي أعظمها وأفضلها أن نزل هذا الفرقان، الفارق بين الحلال والحرام، والهدى والضلال، وأهل السعادة من أهل الشقاوة. [تفسير السعدي ٣/٤٢٥].

اقتران أسماء الله بتنزيل القرآن:

فمن مظاهر ودلائل عظمة القرآن العظيم أن الله تعالى عَرَّف ببعض أسمائه الحسنى ذات الأثر البالغ في حياة العباد عند الحديث عن تنزيل القرآن، ليكون إقبالهم على الكتاب المنزل إقبالَ من يعرف قدره ويدرك شأنه وعظمته ويعلم أن من أنزله يملك تنفيذ وعده ووعيده،

فمن ذلك قوله تعالى: «حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣» [فصلت:١ - ٣].

وقوله تعالى: «وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» [فصلت:٤١-٤٢].

قال الشنقيطي رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى: «تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢» [الجاثية:٢]: «دل استقراء القرآن العظيم على أن الله عز وجل إذا ذكر تنزيله لكتابه، أتبع ذلك ببعض أسمائه الحسنى، المتضمنة صفاته العليا، ففي أول هذه السورة الكريمة، ولما ذكر تنزيله كتابه، بَيَّنَ أن مبتدأ تنزيله كائن منه جل وعلا، وذكر اسمه الله واسمه العزيز، والحكيم، وذكر مثل ذلك في أول سورة الجاثية، في قوله: «حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٍ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣» [الجاثية:١ - ٣]، وفي أول سورة الأحقاف في قوله تعالى: «حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ» [الأحقاف:١- ٣]، وقد تكرر كثيرًا في القرآن ذِكْرُهُ بعض أسمائه وصفاته، بعد ذكر تنزيل القرآن العظيم، ولا يخفى أن ذكرهُ جل وعلا هذه الأسماء الحسنى العظيمة، بعد ذكره تنزيله هذا القرآن العظيم، يدل بإيضاح على عظمة القرآن العظيم وجلالة شأنه وأهمية نزوله. [أضواء البيان: ٤١/٧، ٤٢].

بمعنى: أن عظمة القرآن من عظمة هذه الأسماء الحسنى، والتي ينعكس من جلالها على هذا القرآن ما يجعله وحده (الكتاب)، والكتابُ لا ريب فيه.

نزوله في أفضل الأزمنة

الأزمان ليس لها شأن في ذاتها، وإنما هي بما ينزل فيها، وما يحدث، ومن مظاهر عظمة القرآن العظيم أن الله تعالى نَزَّله في أفضل الأزمنة في شهر رمضان المبارك، قال الله تعالى: «شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ» [البقرة:١٨٥].

وقد نَزَلَ في ليلة مباركة من هذا الشهر المبارك، قال الله تعالى: «إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤» [الدخان:٣]، وهذه الليلة المباركة هي ليلة القدر والشرف والرفعة التي قال فيها: «إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣» [القدر:١ - ٣].

وفي ضمير العظمة وإسناد الإنزال إليه تشريف عظيم للقرآن. [التحرير والتنوير ٤٠٢/٣٠].

فبركة الليلة التي أنزل فيها القرآن بركةٌ قدرها الله لها قبل نزول القرآن ليكون القرآن بابتداء نزوله فيه مُلابسًا لقوت مبارك فيزداد بذلك فضلاً وشرعًا، وهذا من المناسبات الإلهيات الدقيقة التي أنبأنا الله ببعضها. [المصدر السابق].

وسميت ليلة القدر بهذا الاسم؛ لأن قدرها وشرفها عند الله عظيم، ومعلوم أن قدرها وشرفها ليس بسبب ذلك الزمان، لأن الزمان شيء واحد في الذات والصفات فيمتنع أن يكون بعضه أشرف من بعض لذاته فثبت أن قدره وشرفه بسبب أنه حصل فيه أمور شريفة عالية، لها قدر عظيم، ومرتبة رفيعة، ومعلوم أن منصب الدِّين أعلى وأعظم من منصب الدنيا، وأعلى الأشياء وأشرفها منصبًا في الدين هو القرآن، لأجل أن به ثبتت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وبه ظهر الفرق بين الحق والباطل في سائر كتب الله المنزلة وبه ظهرت درجات أرباب السعادات، ودركات أرباب الشقاوات فعلى هذا لا شيء إلا والقرآنُ أعظم قدرًا، وأعلى ذكرًا وأعظم منصبًا منه. [التفسير الكبير ٢٠٣/٢٧- ٢٠٤].

نزوله بأرقى اللغات وأجمعها:

لقد اختار اللهُ عز وجل اللغة العربية لتكون لغة آخر كتبه، وهذا الاختيار من الحق عز وجل - لهذه اللغة العظيمة إنما يعود إلى ما تمتاز به من مرونة واتساع وقدرة على الاشتقاق، والنحت والتصريف، وغنىً في المفردات والصِّيغ والأوزان، فكل دارس للغات العالم يُقرُّ بأن اللغة العربية هي أرقى اللغات وأجمعها للمعاني الكثيرة تحت الألفاظ القليلة وأحسنها تهذيبًا، وأكثرها إيضاحًا وبيانًا للمطلوب، وهذا يدل على عظمة القرآن أنه نزل بأشرف اللغات وأرقاها؛ اللغة العربية.

ولذلك أشار القرآن العظيم بها في عدة آيات منها:

قوله تعالى: «إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ

تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾» [الزخرف:٣-٤].

وقوله تعالى: «إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾» [يوسف:٢].

وقوله تعالى: «وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا» [الرعد:٣٧]، وقوله تعالى: «وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا» [طه:١١٣]. وغيرها كثير من الآيات التي أشارت إلى نزول هذا القرآن باللغة العربية.

وإن سأل سائل فقال: لماذا أنزل القرآن العظيم باللغة العربية دون غيرها من لغات العالم: فجوابه فيما يلي: لقد «أراد الله تعالى أن يكون القرآن كتابًا مخاطبًا به كل الأمم في جميع العصور، لذلك جعله بلغة هي أفصحُ كلام بين لغات البشر وهي اللغة العربية لأسباب منها: أن تلك اللغة أوفرُ اللغات مادة، وأقلها حروفًا، وأفصحها لهجة وأكثرها تصرفًا في الدلالة على أغراض المتكلم، وأوفرُها ألفاظًا، وجعلهُ جامعًا لأكثر ما يمكن أن تتحمله اللغة العربية في نظم تراكيبها من المعاني، في أقل ما يسمع به نظم تلك المعاني، فكان قوام أساليبه جاريًا على أسلوب الإيجاز فلذلك كثُرَ فيه ما لم يكثر مثله في كلام بلغاء العرب. [التحرير والتنوير: ١/٩٥، ٩٦].

فجاء القرآن على أسلوب أبدع مما كانوا يعهدون وأعجب فأعجز بلغاء المعاندين عن معارضته، ولم يسعهم إلا الإذعان سواء في ذلك من آمن منهم مثل: لبيد بن ربيعة وكعب بن زهير والنابغة الجعدي ومن استمر على كفره عنادًا، مثل الوليد بن المغيرة وإذا قيس اللسان بمقاييس علم الألسنة فليس من اللغات لغة أوفى منه بشروط اللغة في ألفاظها، وقواعدها ويحق لنا أن نعتبر أنها أوفى اللغات جميعها، بمقياس بسيط واضح لا خلاف عليه وهو مقياس جهاز النطق في الإنسان فإن اللغة العربية تستخدم هذا الجهاز الإنساني على أتمه وأحسنه ولا تهمل وظيفة واحدة من وظائفه، كما يحدث ذلك في أكثر الأبجديات اللغوية فلا التباس في حرف من حروفها بين مخرجين ولا في مخرج من مخارجها بين حرفين وقد تشاركها اللغات في بعض هذه المزايا ولكنها لا تجمعها كما جمعها، ولا تفوقها في واحدة منها. [التحرير والتنوير (١/٩١)].

قال ابن فارس: «قال بعض الفقهاء: كلام العرب لا يحيط به إلا نبي، وهذا كلام حريٌّ أن يكون صحيحًا، وما بلغنا أن أحدًا ممن مضى ادعى حفظ اللغة العربية كلها».

وللحديث بقية، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

إشهار

تم بحمد الله تعالى إشهار الفروع التالية:

١ - جمعية أنصار السنة المحمدية فرع السيوف بالإسكندرية، تحت رقم (٢٩١٥) وذلك اعتبارًا من تاريخ ٢٠١٢/١/٥م.

٢ - جمعية أنصار السنة المحمدية فرع أبو عبد الله سيدي سالم، تحت رقم (١٧٢)، وذلك اعتباراً من ٢٠١٢/٣/١م طبقًا لأحكام القانون رقم ٨٤ لسنة ٢٠٠٢ بشأن الجمعيات والمؤسسات.

والله الموفق.

دراسات قرآنية

دلائل عظمة القرآن

الحلقة الثانية

إعداد / مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعدُ:

فما يزال حديثنا متصلاً عن دلائل عظمة القرآن الكريم، فمن دلائل عظمته ما يلي:

عالمية القرآن:

لقد زعم أعداء الإسلام أن القرآن العظيم كتاب تاريخي، خاطب عصرًا محددًا فقط، ثم انتهت صلاحيته بعد ذلك، ولم يبق له في الواقع المعاصر أدنى تأثير، ونحن المسلمين نعتقد اعتقادًا جازمًا لا مرية فيه، أن القرآن العظيم هو الكتاب الذي خاطب الله تعالى به جميع البشر إلى يوم القيامة فلم يُقَيَّدْ بزمان، ولا مكان، ولا جنس، ولا طبقة، بل هو موجَّه إلى الثقلين خاطبهم جميعًا بما يسعدهم في الدنيا والآخرة من العقائد الصحيحة، والعبادات الحكيمة، والأحكام الرفيعة، والأخلاق الفاضلة التي تستقيم بها حياتهم.

وقد تضافرت نصوص الكتاب والسنة وإجماع الأمة على عالمية القرآن، ومن الصعوبة بمكان استقصاء جميع الآيات التي تحدثت عن عالمية القرآن.

وقد ذكر بعضهم: «أن عدد الآيات الدالة على عالمية القرآن تزيد على ثلاث مائة وخمسين آية». [دلالة أسماء سور القرآن الكريم من منظور حضاري، د. محمد خليل].

وهناك أربع آيات تعلن بكل وضوح أن القرآن ذكرٌ للعالمين: «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ» [الأنعام: ٩٠، يوسف: ١٠٤، ص: ٨٧، القلم: ٥٢، التكوير: ٢٧].

والمتأمل في ألفاظ هذه الآيات الأربع، وتعبيراتها، يجد المقصود منها دالّ على عالمية القرآن، وقد استنبط بعض علماء التفسير من هذه الآيات ما يلي:

أولا: أنها جاءت بصيغة الحصر. [التحرير والتنوير: ١٢٥/١٧]. فهذه الصيغة الحصرية تنفي عن القرآن كلَّ صفة تنافي عالميته، وتجعل عالميته منصوصًا عليها بكل وضوح.

ثانيًا: أنه مُذكرٌ للعالم أجمع، باعتبار أنه مخاطبٌ به الإنس، فهو يذكرهم ويخاطبهم بما يحتاجون إليه فردًا وأسرةً ومجتمعًا ودولة.

ولفظ: «للعالمين» عام للإنس والجن، ممن عاصروا النبي صلى الله عليه وسلم، وممن جاؤوا بعده إلى قيام الساعة. [تفسير أبي حيان: ٤٨٠/٦، تفسير ابن عطية: ١٩٩/٤].

ثالثا: العالمين جمعُ عُرِّفَتْ بـ (ال) فتدل على معنى الاستغراق، فالجمع المعرف بـ (ال) من صِيغ العموم في اللغة العربية.

ولفظ (عالَم) مفرد العالمين، فهو يَعُمُّ كُلَّ ما في الكون، فإذا جُمع بالواو والنون يكون خاصًا بالعقلاء من الإنس والجن أجمعين.

فدلت لفظة (العالمين) على أن القرآن العظيم ذكرٌ لجميع العقلاء من الإنس والجن بلا تقييد بمكان أو زمان أو طبقة أو جنس.

يقول الرازي رحمه الله: «لفظ العالمين يتناول جميع المخلوقات، فدلت الآية على أنه رسولٌ للخلق عامة إلى يوم القيامة». [التفسير الكبير: ٤٠/٢٤].

ولا ريب أن عموم رسالة النبي صلى الله عليه وسلم يتحقق بعالمية كتابه الذي أرسل به إلى الناس كافة «يتذكرون به ربهم، وما له من صفات الكمال، وما يُنزَّهُ عنه من النقائص

والرذائل والأمثال، ويتذكرون به الأوامر والنواهي وحكمها، ويتذكرون به الأحكام القدرية والشرعية والجزئية. وبالجملة يتذكرون به مصالح الدارين، وينالون به السعادتين». [تفسير السعدي: ٣٧٩/٥].

ومن الآيات التي صرحت بعالمية القرآن الكريم:

١- قوله تعالى: «تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا» [الفرقان: ١].

٢- وقوله تعالى: «وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ» [الأنبياء: ١٠٧].

٣- وقوله تعالى: «وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا» [الإسراء: ٨٩].

٤- وقوله تعالى: «وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» [الزمر: ٢٧].

٥- وقوله تعالى: «إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ» [الزمر: ٤١].

يقول ابن عاشور رحمه الله في «التحرير والتنوير» (١٢١/١٧) في تفسير قوله تعالى: «وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ» [الأنبياء: ١٠٧].

«صِيغت بأبلغ نَظْم إذ اشتملت هذه الآية - مع إيجاز ألفاظها - عَلى مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومدح مُرسِله تعالى، ومدح رسالته بأن كانت مظهر رحمة الله تعالى للناس كافة، وبأنها رحمةُ الله تعالى بخَلقه».

فهي تشتمل على أربعةِ وعشرينَ حرفًا، بدون حرف العطف الذي عُطِفَتْ به، ذُكرَ فيها الرسولُ ومرسلُه والمرسَلُ إليهم والرسالة، وأصاف هؤلاء الأربعة مع إفادة عموم الأحوال، واستغراق المرسل إليهم، وخصوصية الحصر وتنكير (رحمة) للتعظيم؛ إذ لا مقتضى لإيثار التنكير في هذا المقام غير إرادة التعظيم، وإلا لقيل: إلا لنرحم العالمين، أو إلا أنك الرحمة للعالمين، وليس التنكير للإفراد قطعًا؛ لظهور أن المراد جنس الرحمة، وتنكير الجنس هو الذي يعرض له قصد إرادة التعظيم، فهذه اثنا عشر معنى خاصًا بهذه الآية.

ويتحدث ابن القيم رحمه الله عن عموم الآية فيقول (كما في جلاء الأفهام ص١٨١): «أصحُ القولين في هَذه الآية: أنها على عمومها، وفيها على هذا التقدير وجهان:

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته.

أما أتباعه فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة.

وأما أعداؤه المحاربون له: فالذين عُجِّل قتلُهُم وموتُهم خير لهم؛ لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة، وهم قد كُتب عليهم الشقاء فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر.

وأما المعاهدون له: فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمتِه وهم أقلُّ شرًا بذلك العهد من المحاربين له.

وأما المنافقون: فحصل لهم بإظهار الإيمان به حَقْنُ دمائهم، وأموالهم وأهليهم، واحترامُها، وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث، وغيرها.

وأما الأمم النائية عنه: فإن الله سبحانه رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض، فأصاب كُلَّ العالمين النفعُ برسالته.

الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد، لكن المؤمنين قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وأخرى، والكفار رَدُّوها، فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمةً لهم، لكن لم يقبلوها، كما يقال: هذا دواءُ لهذا المرض، فإذا لم يستعمله لم يخرج عن أن يكون دواءً لذلك المرض».

ومما يُفصحُ كذلك عن عالمية القرآن العظيم، ما يذكر في معرض بيان فوائد القصص والأمثال، أنه - تبارك وتعالى - ضرب للناس، أو صَرَّف للناس من كل مثل، فيذكر الناس بصيغة الجمع، المعروف باللام، المفيد للاستغراق كما هو معروف عند أهل العربية.

ومما سبق يتبين لنا أن عالمية القرآن مظهر جليٌّ مِن مظاهر عظمته، والتي تدل بوضوح أيضًا على عظمة مُنزِّله سبحانه وتعالى.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تصديق القرآن لكتب الله وهيمنته عليها

إعداد / مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعدُ:

فلا يزال حديثنا متصلاً حول دلائل عظمة القرآن، ونتناول في هذه المقالة «تصديق القرآن لكتب الله وهيمنته عليها».

قال الله تعالى: « وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ » [المائدة: ٤٨].

معنى «مُصدِّق» في اللغة:

وردت لفظة «مُصدِّق» في اللغة بمعان متعددة ومتنوعة، نأخذ منها ما يدل على المقصود:

جاء في المعجم الوسيط: «صَدَّقَهُ، وَصَدَّقَ به، تَصْديقًا وتصْداقًا: اعترف بصدق قوله، وحققه. وفي التنزيل العزيز: « وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ » [سبأ: ٢٠]. ويقال: صدَّقَ على الأمر: أقرَّه.

وفي معجم أساس البلاغة: «صدقهُ الحديث.. وصادقه ولم يُكاذِبْه، وتصادقا ولم يتكاذبا، وصدَّقه فيما قال... وعنده مصداقُ ذلك، وهو ما يصدقه من الدليل».

قال ابن منظور: «وهنا مِصْدَاقُ هذا أي ما يُصدقه».

وخلاصة المعاني اللغوية لكلمة «مُصدِّق» ما يلي:

١- الاعتراف بصدق الشيء.
٢- الإقرار على الشيء.
٣- الدلالة على صدق الشيء.

معنى «مهيمن» في اللغة:

وردت لفظة: «هيمن» في اللغة بعدة معانٍ أيضًا، نأخذ منها ما له صلة بموضوعنا: جاء في المعجم الوسيط: «هيمن فلان: قال: آمين و-على كذا: سيطر عليه، وراقبه، وحفظه...

والمهيمن: من أسماء الله تعالى، بمعنى الرقيب المسيطر على كل شيء، الحافظ له، وفي التنزيل العزيز: « مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ » [المائدة: ٤٨].

وفي مختار الصحاح: «المهَيمنُ: الشاهدُ».

وخلاصة المعاني اللغوية لكلمة «هيمن» ما يلي:

١- السيطرة ٢- الرقابة ٣- الحفظ ٤- الشهادة.

ووصف القرآن العظيم بأنه مُهيمنٌ ومصدّق لكتب الله يقتضي أنه:

أولاً: مُسيطرٌ عليها:

بمعنى أنه الحاكم والقاضي عليها، فهو الذي يكبح جماحَها إذا جنحت إلى الغلو والباطل، كما قال تعالى - ردًا على ما زعمه النصارى في المسيح وأمّه: «مَا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ» [المائدة: ٧٥].

ثانيًا: رقيبٌ عليها:

بمعنى أنه المصحِّحُ لأخبارها، الممحِّص لحقائقها، كما في قوله تعالى: « وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ» [النساء: ١٥٧].

وذلك ردًا على ما يزعمه النصارى أنه عليه السلام قُتل فوق الصليب، فكان القرآن رقيبًا على ذلك، فأوضح في الآية المتقدمة أن هذا الخبر الذي ألحقه النصارى زورًا وبهتانًا بالإنجيل المحرَّف، هو من مزاعمهم، وليس مما أُنزل على عيسى عليه السلام.

ثالثًا: حفيظ عليها:

وهو قريب من المعنى الثاني.

رابعًا: شهيدٌ عليها:

بمعنى أنه يشهد لها بالصحة والثبات، فيقرر أصولها، ويشهد بما فيها من الحقائق.

خامسًا: أمين عليها:

بمعنى أن ما أخبر به عنها، أو أنه فيها فهو الحقّ، وما عداه مما زعمه أهلُها فباطلٌ لا يُصَدَّق. قال ابن جريج: «القرآن أمينٌ على ما قبله من الكُتب، فما أخبر أهلُ الكتابِ عن كتابهم، فإن كان في القرآن فصدِّقوا، وإلا فكذبوا». [تفسير البغوي ٤٣/٢].

سادسًا: مُعْتَرِفٌ بصدقها:

بمعنى أنه مُعترفٌ بأنها من عند الله تعالى أنزلها على رسله - عليهم السلام - معترِف بما فيها من العقائد الصحيحة، والكليات التي لا يختلف عليها العقلاء، كحُبِّ الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة العدل، وإحقاق الحق...، إلى غير ذلك.

سابعًا: مقرِّرٌ لها على ما جاءت به من الحق:

بمعنى أنه لا ينازعها فيما جاءت به من الحق في العقائد والإخبار، وغيرها.

ثامنًا: دالٌ على صدقها:

بمعنى أنه هو الدليل على أن هذه الكتب من عند الله، وعلى أن أخبارها الصحيحة حق، ذلك أن الكُتب السابقة جاءت -مثلاً- بأوصاف نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأوصاف أمته، وبشّرت بمبعثه صلى الله عليه وسلم.

فجاء القرآن العظيم مصدقًا بما أخبرت به هذه الكتب، ومطابقًا لهذه الأوصاف، فدل ذلك على صدق هذه الكتب فيما أخبرت به في هذا المجال، وصدق كونها من عند الله تعالى. [التفسير الموضوعي للآيات القرآنية المتعلقة بالكتب السماوية، د. عبد العزيز الدردير].

والمتأملُ في هذه المعاني المتقدمة يلحظ أن بعضها يقترب من بعض، إلا أنها كُلها وأكثر منها وردت فيها نصوصٌ كثيرة من القرآن العظيم تفيد أنه تصديق، أو مصدّق لما تقدمه من كتب.

تصديق القرآن لما سبقه من كتب الله:

فبالإضافة لما تقدم ذكره، يكون تصديق القرآن العظيم لما سبقه من كتب الله من جهات متعددة:

الجهة الأولى: أثبت أنه الوحي، وقرر إمكانية وقوعه فعلاً، كما قال تعالى: «إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ» [النساء: ١٦٣]. فهذا تصديقٌ لأصل الوحي وللرسالات السابقة، وبذلك يكون القرآن مصدقًا لما بين يديه، كما قال تعالى: « نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ» [آل عمران: ٣].

الجهة الثانية: إن القرآن العظيم جاء حسب وصفه الموجود في تلك الكتب؛ حيث اشتمل على وصف خاتم الرسل، وأنه يأتي بكتاب من عند الله تعالى، فنزول القرآن على وفق هذه النعوت تصديقٌ لهذه الكتب.

قال ابن كثير رحمه الله في معنى قوله تعالى: « مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ » [آل عمران: ٣]: أي: من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه، وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فكان نزوله كما أخبرت به، مما زادها صدقًا عند حامليها من ذوي البصائر الذين انقادوا لأمر الله، واتبعوا شرائع الله وصدقوا رسل الله». [تفسير ابن كثير: ١٥٢/٣].

الجهةُ الثانية: أن القرآن العظيم وافق الكتب السابقة في مقاصد الدين وأصوله: والتي لا تختلف باختلاف الشرائع والرسالات، ومن هنا نلحظ اتفاق القرآن مع غيره من كُتب الله فيما يلي:

١- الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وما يتصل بذلك من تنزيه

الله تعالى عن النقائص، ووصفه بكل كمالٍ يليق بذاته المقدسة.

٢- تتفق الكتب المنزلة كذلك في: أصول الشرائع كالصلاة، والصيام والزكاة؛ حيث أخبر القرآنُ العظيم أن الله عز وجل تعبَّدَ بها من قبلنا.

فقال في الصوم: « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ » [البقرة: ١٨٣].

وقال في الصلاة والزكاة: « وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَـٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَـٰمَىٰ وَٱلۡمَسَـٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ » [البقرة: ٨٣].

ومن هنا نلحظ أن أصول الشرائع واحدةٌ في جميع الأديان، كما صرح بذلك قوله تعالى: «شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ » [الشورى: ١٣]. وأما تفصيلات الشرائع العملية، فتختلف فيها الكتب السماوية، اختلافًا يتلاءم مع زمان كُلٍ منها، ويتفقُ مع مصالح أتباعها، مصداق ذلك قوله تعالى: «لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا » [المائدة: ٤٨].

٣- تتفقُ الكتب المنزلة كذلك في الدعوة إلى الفضائل، والترغيب فيها، والترهيب من الرذائل والتنفير منها، فكل كتب الله أمرت بالعدل والإحسان، والصدق والصبر، والأمانة والوفاء، والرحمة، وما إلى ذلك من الفضائل ومكارم الأخلاق التي تسعد بها البشرية في كل زمان ومكان، وكل كتب الله كذلك نهت عن الظلم والخيانة والكذب والغدر والقسوة، وما إلى ذلك من الرذائل التي تُورد البشرية موارد الهلاك، ويشهد لذلك قوله تعالى: «وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَـٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَـٰمَىٰ وَٱلۡمَسَـٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا » [البقرة: ٨٣].

وقال تعالى أيضًا في حق إبراهيم وإسحاق وإسماعيل ويعقوب عليهم الصلاة والسلام: «وَجَعَلۡنَـٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَـٰبِدِينَ » [الأنبياء: ٧٣].

الجهة الرابعة من جهات تصديق القرآن لما سبقه من الكُتب: أن الله تعالى قد جمع فيه ما توزع في هذه الكتب من الفضائل، فأنقذ بذلك أصول من سبقه من كتب الله وحفظها وصدقها.

فهذا القرآن هو خُلاصةُ كاملة للرسالات الأولى، وللنصائح التي بُذلت للإنسانية من فجر وجودها، وهذا من أوضح وأبين مظاهر عظمة القرآن.

هيمنة القرآن على ما سبقه من كُتب الله:

وكما جاء القرآن العظيم مُصدِّقًا لما قبله من كتب الله، فقد جاء كذلك مهيمنًا عليها كما صرح بذلك قوله تعالى: « وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَـٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ » [المائدة: ٤٨].

ومعنى قوله: «وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ » [المائدة: ٤٨] أي: أن القرآن العظيم رقيبٌ على الكتب السابقة؛ لأنه يشهد بصحتها ويقرر أصولها، وما يتأبدُ من فروعها، ويبين أحكامها المنسوخة بتعيُّن وقت انتهاء مشروعيتها، أو على معنى أنه الحافظُ لها، فهو الذي حفظ ما جاء فيها من التوحيد وكليات الدين إلى يوم القيامة، أو على معنى أنه دالٌ على صدقها أي هو دليل على أنها من عند الله؛ لأنه جاء كما نعتتهُ هذه الكتب. [تفسير الطبري ٦/٢٦٦].

قال ابن كثير رحمه الله (١٥٣/٣): «وهذه الأقوال كُلُّها متقاربة المعنى، فإن اسم (المهيمن) يتضمن هذا كله، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخرَ الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأحكمها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عليها كلها، وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة، فقال تعالى: « إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ » [الحجر: ٩]».

علاقة الهيمنة بالتصديق:

ومما تقدم ذكره «نستطيع أن نقرر أن مفهوم الهيمنة أتمُّ وأشملُ من مفهوم التصديق؛ لأن الهيمنة لا تقتصر على مجرد الشهادة لهذه الكتب بصحة إنزال أصولها، وتقرير أصولها وشرائعها، بل تتعدى ذلك فتُبينُ ما اعتراها من نسخ أو تحريف، وما عرض لها من زيفٍ وفساد.

فالقرآن بذلك مُهيمن على المعاني الصحيحة التي كانت في تلك الكتب، وشاهدٌ بكونها من عند الله، وبذلك تتلاقى الهيمنة مع التصديق، ولكنه كذلك يشهد على هذه الكتب بما أصابها من تحريف وتسرب إليها من باطل، وبه تنفرد الهيمنة عن التصديق، فمفهومُها إذًا أتم وأشملُ من مفهوم التصديق». [تصديق القرآن الكريم للكتب السماوية وهيمنته عليها ص(٨٥)].

مظاهر هيمنة القرآن على الكُتب السابقة:

لهيمنة القرآن العظيم على كُتب الله المنزلة - فوق ما تقدم من تصديقه لها - مظاهر متعددة من أهمها ما يلي:

١ - إخبارُه بتحريف الكُتب السابقة وتبديلها:

فقد تناولتها أيدي أهل الكتاب الآثمة بالتحريف والتبديل، وتناولوا ما بقي منها بالتأويل الفاسد؛ تبعًا للأهواء والشهوات، أو مُتابعةً لذوي السلطان، أو محاولةً لكسب الجدل على أعدائهم وخصومهم.

بل أخبر القرآنُ كذلك أنهم كتبوا الكتب بأيديهم ونسبوها - زورًا وبهتانًا - إلى الله تعالى: « فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ» [البقرة: ٧٩].

٢ - بيان المسائل الكبرى التي خالفوا فيها الحق:

ففي جانب العقائد - على سبيل المثال - نفى القرآن العظيم ما صرحت به الأناجيل المُحرَّفة من قتل عيسى عليه السلام وصَلبه، فقال: «وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ» [النساء: ١٥٧]. وحكم على النصارى بالكفر؛ لقولهم بالتثليث، وألوهية المسيح، فقال: « لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢) لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» [المائدة: ٧٢، ٧٣].

أما التوراةُ المحرَّفة فإنها تنسبُ إلى الله تعالى كثيرًا من النقائص، والتي جاء القرآن العظيم بدحضها وإبطالها. فلقد أخبر القرآن العظيم أن اليهود نسبوا إلى الله عز وجل الولد، كما وصفهُ اليهود المعاصرونَ للنبي صلى الله عليه وسلم بالفقر، والبخل، وغل اليد.

فأتي القرآن على ذلك بالإبطال والدحض، قال تعالى: « وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ » [سورة التوبة: ٣٠]. وقال تعالى: « لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ» [آل عمران: ١٨١]، وقال تعالى: « وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ» [المائدة: ٦٤].

٣ - بيَّن القرآن كثيرا من المسائل التي أخفوها:

فمن ذلك: أن الدارس لأسفار العهد القديم يرى أنها «قد خلت من ذكر اليوم الآخر ونعيمه وجحيمه - وإذا كانت اليهوديةُ في أصلها تُقَرِّرُ البعث والنشور والحساب والجنة والنار، كما يُنبئ بذلك القرآن - فإن ذلك يَدُلُّ على أن اليوم الآخر وما فيه وما يتصلُ به، من المسائل التي أخفاها أهل الكتاب». [الأسفار المقدسة: علي عبد الواحد].

ومن ذلك أيضًا إخفاؤهم ما يتصل بخاتم الرسل من بشائر ونعوت، وتحريفهم لها بالحذف أو التأويل الفاسد، فجاء القرآن العظيم بالحق في ذلك كله، قال تعالى: « يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ » [المائدة: ١٥].

٤ - أنهى القرآنُ العمل بالكتب السابقة:

فلا اعتبار لها بجانبه؛ لأنه شغل الفراغ كُله بتشريعه المبارك الجديد، وليس لأحد أن يركن إلى هذه الكتب بعدما تسرَّب الباطلُ إليها، ولعبت الأيدي الآثمة بها. وهذا لا ينافي أن القرآن أقر كثيرًا من أحكام هذه الكتب، ولم يتناوله بنسخ، لأنه أمر بهذه الأحكام وأقرها من جديد، فعملُنا ليس متابعة لهذه الكتب، بل لإقرار القرآن لها، وأمره بها، وكلُّ آية دلت على اتحاد الشرائع فهي محمولة على مقاصد الدين وأصول العبادات، والآيات التي تدل على اختلاف الشرائع فمحمولة على الفروع وما يتعلق بظواهر العبادات، ولله الأمر من قبل ومن بعد. [المصدر السابق].

وقد تبين مما سبق ذكره أن تصديق القرآن العظيم لكتب الله السابقة وهيمنته عليها، من أهم مظاهر عظمة القرآن وفضله على كُتب الأنبياء جميعًا.

وختاما:

فبعض المنتسبين للدعوة اليوم - في محاولة للتقريب بين الأديان - يتنازل عن كثير من أمور العقيدة؛ لإرضاء أهل الكفر بسخط الله، ويقول مخاطبًا غيرنا: إيماننا لا يتمُّ إلا بالإيمان بكتبكم - مع أنها محرفة -! وكان عليه أن يكون صريحًا لا مجاملاً أو مدلسًا.

نسأل الله الثبات على الإيمان، وألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دراسات قرآنية

القرآن شفاء

إعداد / مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد:

فإن الغاية التي من أجلها أنزل الله القرآن الكريم، وأمر الناس باتباعه والإيمان به، هي الاهتداء بهديه، والالتزام بتعاليمه وآدابه، قال تعالى عن هذا القرآن: « يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ » [المائدة: ١٦]. فالواجب علينا الإيمان به، والعمل بما فيه، والعناية بتلاوته، وتفهم معانيه على الوجه الأكمل الذي يرضي الله عز وجل.

وتحقيقاً لهذه الغاية اجتهد العلماء قديمًا وحديثًا في تدبُّر كتاب الله، والعمل بتفسيره، والتفكر في مدلولاته، والوقوف على هدايته، ومن الأمور التي وقفوا عليها «تأثير القرآن الكريم أو بعض سوره وآياته في جلب المنافع ودفع المضار أو رفعها، فقد يحصل للبعض بقراءة أو كتابة سورة، أو آيات معينة خاصية يكرمه الله بها؛ نظرًا لما أثبته الله تعالى لها من الأثر، وببركة صدق العبد، وإخلاصه ويقينه، وحُسن توكله على الله، وينتج عن تلك القراءة أو الكتابة فرج أو شفاء، أو حفظ لشيء، أو حل عسير ونحو ذلك.

وكل ذلك له أصل في الشرع من الكتاب والسنة، فقد دلت أكثر من آية على أن القرآن الكريم يُستشفى به، وتُدفع به الأمراض والآفات، ويُستعاذ به مما يخشى شره وضرره، قال الله تعالى: « وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا » [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: «قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى» [فصلت: ٤٤].

وتدبر وصف الله القرآن الكريم بأنه شفاء ولم يصفه بأنه دواء، ذاكم أن الشفاء هو ثمرة الدواء والهدف منه، أما الدواء فقد يفيد وقد يضرّ، فكان وصف القرآن الكريم بأنه شفاء تأكيد وأي تأكيد لثمرة التداوي به. [يُنظر: خصائص القرآن، لفهد الرومي ص١١١ بتصرف يسير].

والأدلة على ذلك:

أولاً: من القرآن الكريم:

١- قال الله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ» [يونس: ٥٧].فالقرآن هو الشفاء التام

من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة، وما كل أحد يؤهل ولا يوفق للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل التداوي به، وضعه على دائه بصدق وإيمان، وقبول تام، واعتقاد جازم، واستيفاء شروطه، لم يقاومه الداء أبدًا، وكيف تقاوم الأدواء كلام رب العالمين الذي لو نُزل على الجبال لصدَّعها أو على الأرض لقطعها، فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه، والحمية منه لمن رزقه الله فهمًا في كتابه، قال الله تعالى: «أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» [العنكبوت: ٥١]. فمن لم يشفه القرآن فلا شفاه الله، ومن لم يكفه القرآن فلا كفاه الله». [زاد المعاد: ٣٥٢/٤].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ» أي: فحصل لها الهداية والرحمة من الله تعالى، وإنما ذلك للمؤمنين به، والمصدقين والموقنين بما فيه. [تفسير ابن كثير].

٢- قال تعالى: «وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا» [الإسراء: ٨٢]. قال ابن القيم: . والصحيح أن «مِنْ» هاهنا لبيان الجنس لا للتبعيض،قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ». أي: يذهب ما في القلوب من أمراض من شك ونفاق، وشرك وزيغ، وقيل: القرآن يشفي من ذلك كله، وهو أيضا رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقه واتبعه فإنه يكون شفاء في حقه ورحمة، وأما الكافر الظالم نفسه بذلك فلا يزيده سماعه القرآن إلا بُعدًا وتكذيبًا وكفرًا، والآفة من الكافر لا من القرآن [تفسير ابن كثير: ٧٠/٩].

٣- قال تعالى: «قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ» [فصلت: ٤٤].

قال الألوسي رحمه الله عند هذه الآية: «والأطباء معترفون بأن من الأمور والرقى ما يشفى بخاصية روحانية، ومن ينكر هذا لا يعبأ به». [روح المعاني للألوسي].

قال السعدي رحمه الله عن هذه الآية: «قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ» [فصلت: ٤٤] أي: يهديهم لطريق الرشد والصراط المستقيم، ويعلمهم من العلوم النافعة، فتحصل به الهداية التامة، وشفاء لهم من الأسقام البدنية، والأسقام القلبية؛ لأنه يزجر عن مساوئ الأخلاق، وأقبح الأعمال، ويحث على التوبة النصوح، التي تغسل الذنوب وتشفي القلب». [تيسير الكريم الرحمن ص٣٧٢].

ثانيًا: من السنة النبوية:

ورد في السنة النبوية أحاديث كثيرة تدل على الاستشفاء بالقرآن الكريم والتداوي به، بل وترغب في ذلك وتحث عليه، فيحصل بذلك من جلب النفع، ودفع الضر ما لا يعلمه إلا الله، وهذا بلا شك من أعظم خواص القرآن الكريم، فهو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية للمؤمنين الصادقين، ومن هذه الأحاديث:

١- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رهطًا (الرهط ما دون العشرة من الرجال) من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلقوا في سفرة سافروها حتى نزلوا بحي من أحياء العرب، فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم، فلدغ (اللدغة: جامعة لكل هامة تلدغ لدغًا) سيد ذلك الحي، فسعوا له بكل شيء لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين قد نزلوا بكم لعله أن يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم فقالوا: يا أيها الرهط، إن سيدنا لُدغ فسعينا له بكل شيء لا ينفعه شيء، فهل عند أحد منكم شيء؟ فقال بعضهم: نعم، والله إني لراقٍ ولكن والله لقد استضفناكم، فلم تضيفونا، فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لنا جُعلاً (الجُعل: ما جعلته للإنسان أجْرًا على عمله)، فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق فجعل يتفُل ويقرأ: «الحمد لله رب العالمين» حتى لكأنما نُشط من عقال فانطلق يمشي ما به شيء.... قال: فأوفوهم جُعلهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقسموا، فقال الذي رقى: لا تفعلوا حتى نأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فنذكر له الذي كان فننظر ما يأمرنا، فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا له، فقال: «وما يدريك أنها رقية؟ أصبتم» اقسموا واضربوا لي معكم بسهم. [رواه البخاري].

ويتضح في هذا الحديث خاصية سورة الفاتحة، وجواز العمل بها، من خلال إقرار النبي صلى الله عليه وسلم لفعل الصحابي الذي عمل بها في قوله عليه الصلاة والسلام: «أصبتم»

بل وختم الحديث بقوله صلى الله عليه وسلم: «اقسموا واضربوا لي معكم بسهم». ويظهر الأثر المترتب على قراءة سورة الفاتحة من خلال الحديث المتقدم، وحصول المنفعة بها، ودفع المضرة أو رفعها.

٢- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: وكلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آتٍ فجعل يحثو من الطعام فأخذته، وقلت: والله لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: إني محتاج، وعلي عيال ولي حاجة شديدة، قال: فخليت عنه، فأصبحت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: « يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة»؟، قال: قلت: يا رسول الله، شكا حاجة شديدة، وعيالا، فرحمته، فخليت سبيله، قال: « أما إنه قد كذبك، وسيعود» فعرفت أنه سيعود، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه سيعود، فرصدته، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: دعني فإني محتاج وعلي عيال، لا أعود، فرحمته، فخليت سبيله، فأصبحت، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك»؟، قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة، وعيالاً، فرحمته، فخليت سبيله، قال: « أما إنه قد كذبك وسيعود» ، فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله، وهذا آخر ثلاث مرات، أنك تزعم لا تعود، ثم تعود قال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: ما هو؟ قال: إذا أويت إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي: «الله لا إله إلا هو الحي القيوم»، حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ما فعل أسيرك البارحة؟»، قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها، فخليت سبيله، قال: « ما هي »، قلت: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية: «الله لا إله إلا هو الحي القيوم»، وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح - وكانوا أحرص شيء على الخير - فقال النبي صلى الله عليه وسلم: « أما إنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة »، قال: لا، قال: «ذاك شيطان». [رواه البخاري].

٣- وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «اقرأوا سورة البقرة؛ فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة». يعني السحرة. [رواه مسلم].

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة». [رواه مسلم]، فهذه من خواص سورة البقرة، فأخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة (يعني السحرة).

٤- عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما: «قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ» [الإخلاص: ١]، و«قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ» [الفلق: ١]، و«قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ» [الناس: ١]، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات». [رواه البخاري].

وفي رواية أخرى: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح بيده رجاء بركتها. [رواه البخاري].

ويظهر في هاتين الروايتين العمل بخواص سور القرآن، فكان عليه الصلاة والسلام إذا أوى إلى فراشه يقرأ بهذه السور الكريمة، بل إذا اشتكى - أيضًا - يقرأ بهن على نفسه وينفث، وفي هذا دليل على جواز العمل بذلك؛ لما يحصل به من النفع الكثير والخير العميم، فسورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن الكريم، والمعوذتين لم ير مثلهن، كما صح بذلك الخبر عن تلك السور، وهذا لا شك من الخواص القرآنية العظيمة في هذه السور وغيرها من سور القرآن الكريم.

فمن خلال ما تقدم تبين لنا أنه قد دلت أكثر من آية على أن القرآن الكريم يُستشفى به وتُدفع به الأمراض والآفات، ويُستعاذ به مما يُخشى شره وضرره، وقرر ذلك القرآن الكريم وفعله النبي صلى الله عليه وسلم وفعله أصحابه رضوان الله عليهم من بعده والتابعون ومن بعدهم إلى يومنا هذا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دراسات قرآنية

القرآن شرف للعرب خاصة وللأمة عامة

إعداد / مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وبعد:

فقد قال الله تعالى عن القرآن: «وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ» [النحل: ١٠٣].

وقال تعالى: «وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ» [الشعراء: ١٩٢- ١٩٥].

وقوله تعالى: «وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا» [الأحقاف: ١٢].

فهذه الآيات السابقة ذكرت أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، فآية النحل «لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ» [النحل: ١٠٣] أي القرآن، أي فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على بني إسرائيل، كيف يتعلم من رجل أعجمي، ويقصدون بالرجل الأعجمي غلام الفاكه بن المغيرة واسمه جبر وكان نصرانيًا روميًا من صقلية، يصنع السيوف، فأسلم، فرد الله عليهم بأن لغة الذي يميلون وينسبون أو يشيرون إليه أعجمية، وهذا القرآن بلغة عربية ذات بيانٍ وفصاحة، فكيف تزعمون أن عربيًا يعلمه أعجمي غير عربي؟!. [انظر الموسوعة القرآنية الميسرة ص٢٨٠، وتفسير مختصر ابن كثير ٢/٤٣٦].

أما آية الشعراء: «وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ» [الشعراء: ١٩٢] فالذي أنزله فاطر السماوات والأرض المربي جميع العالم، العلوي والسفلي، وكما أنه رباهم بهدايتهم لمصالح دنياهم وأبدانهم، فإنه يربيهم أيضًا بهدايتهم لمصالح دنياهم وأخراهم. ومن أعظم ما رباهم به إنزال هذا الكتاب الكريم الذي نزل به جبريل عليه السلام الذي هو أفضل الملائكة وأقواهم (الأمين) الذي قد أُمن أن يزيد فيه أو ينقص على قلب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم «بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ» [الشعراء: ١٩٥]، وهو أفضل الألسنة، بلغة من بُعث إليهم، وباشر دعوتهم أصلاً، اللسان

البين الواضح.
وتأمل كيف اجتمعت هذه الفضائل الفاخرة في هذا الكتاب الكريم، فإنه أفضل الكتب، نزل به أفضل الملائكة، على أفضل الخلق، على أفضل بَضْعة فيه وهي قلبه، على أفضل أمة أخرجت للناس، بأفضل الألسنة وأفصحها وأوسعها، وهو اللسان العربي المبين. [تيسير الكريم الرحمن ص٥٩٧].
أما آية الأحقاف «وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا» [الأحقاف: ١٢] أي: وهذا القرآن مصدِّق لما قبله من الكُتب الإلهية حال كونه بلسان العرب الفصيح ليحذر بها القرآن الذين ظلموا أنفسهم بالكفر وهم مشركو مكة ويبشر المؤمنين المحسنين بالجنة. [الموسوعة القرآنية الميسرة].
لقد كان العرب يعيشون في جاهلية جهلاء؛ حيث عمَّهم الفساد من نواح شتى في العقيدة والعبادة والأحكام والسلوك والنظم الاجتماعية، فانتقل بهم القرآن من أمة بلغت من التخلف والجهل والسُّوء أقصاه إلى أمة تسنمت ذروة المجد والكمال، فكانت خير أمة أخرجت للناس فاعتزوا وسادوا على جميع الأمم.
لقد تكفل الله تعالى بحفظ لغة العرب وذلك بحفظ القرآن الذي نزل بلغتهم، قال الله تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ» [الحجر: ٩]. فباللغة العربية نزل القرآن الكريم، وبها تكلم الصحابة رضوان الله عليهم ودُوِّن التراث العربي الضخم، وبنزول القرآن الكريم ومبعث النبي صلى الله عليه وسلم أصبحت لغة لجميع المسلمين، ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومعلوم أن تعلم العربية، وتعليم العربية فرض على الكفاية، وكان السلف يؤدبون أولادهم عن اللحن، فنحن مأمورون أمر إيجاب أو أمر استحباب أن نحفظ القانون العربي، ونصلح الألسن المائلة عنه، فيحفظ لنا طريقة فهم الكتاب والسنة، والاقتداء بالعرب في خطابها». [مجموع الفتاوى ٣٢/٢٥٢].
فللقرآن العظيم أكبر الفضل على العرب خاصة في نَيْل هذه المنقبة وبلوغ هذه المرتبة، فقد حفظ كيانهم ووجودهم حين حفظ لغتهم، ولولا فضل الله تعالى على العرب بالقرآن لبادوا كما بادت أمم كثيرة.
بل مدَّ القرآن العظيم سلطان العربية إلى حيث بلغ في مناطق الدنيا كآسيا وإفريقيا وأوربا (الأندلس) وغيرها، فأصبحت اللغةُ العربية لغة الحضارة والمدنية، وأصبح كل مسلم يشعر أن العربية لغته؛ إذ إنَّ القرآن قد نزل بها.
فالقرآن الكريم إذن هو أعظم وسيلة لتعريب الشعوب الأعجمية، ولنشر أفكار المسلمين وثقافتهم بين مئات الملايين من الناس غير العرب.
والمسلمون - ولاسيما العربُ منهم - مدعوون في الوقت الحاضر لإنقاذ العالم بقرآنهم العظيم من تكالب الأحزاب المادية المتصارعة لاستذلاله ونهب خيراته، كما أنقذوه بالأمس من سيطرة الإمبراطوريات الطبقية. [انظر: من أسرار عظمة القرآن، د. سليمان بن محمد الصغير ص١١].
وقد وردت ثلاث آيات تدلُّ صراحة على أن القرآن شرف وفخر للعرب خاصة وللأمة عامة، وهي على النحو التالي:
١- قول الله تعالى: «وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ» [الزخرف: ٤٤]، قال القرطبي رحمه الله: «يعني القرآن شرف لك ولقومك قريش؛ إذ نزل بلغتهم على رجل منهم، ونظيره: «لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ» [الأنبياء: ١٠] أي: شرفكم. فالقرآن نزل بلسان قريش وإياهم خاطب، فاحتاج أهل اللغات كلها إلى لسانهم، وكل من آمن بذلك فصاروا عيالاً عليهم، لأن أهل كل لغة احتاجوا إلى أن يأخذوه من لغتهم حتى يقفوا على المعنى الذي عنى به من الأمر والنهي وجميع ما فيه من الأنباء، فشرفوا بذلك على سائر أهل اللغات، ولذلك سُمِّي عربيًا».
وقال ابن كثير في الآية «وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ» [الزخرف: ٤٤] قيل: معناه شرف لك ولقومك. قاله ابن عباس رضي الله عنه.
ونص الآية - كما ذكر المفسرون - يحتمل أحد مدلولين:
١- أن القرآن تذكير للنبي صلى الله عليه

وسلم ولقومه وسيُسألون عنه يوم القيامة، فلا حجَّة لهم بعد التذكير.
٢- القرآن يرفع ذكرك وذكر قومك. وهذا ما حدث حقًا. فأما رفعُه لذكره صلى الله عليه وسلم فإن مئات الملايين من ألسن المؤمنين تلهج بالصلاة والسلام عليه، وتذكره ذكر المحبِّ المشتاق آناء الليل وأطراف النهار منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام، ومئات الملايين من القلوب تخفق بحبه منذ ذلك الزمن البعيد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وأما رفعه لذكر قومه فقد جاءهم هذا القرآن والناس لا يعبأون بهم بل يزدرونهم ويعدونهم من سقط المتاع، فجعل لهم دورهم الأكبر في تاريخ هذه البشرية، فقد واجهوا به الدنيا فعرفتهم ودانت لهم طوال الزمن الذي استمسكوا فيه به. [ظلال القرآن ٦/ ٣١٩١].
٢- قوله تعالى: «لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ» [الأنبياء: ١٠].
فقوله تعالى: «فِيهِ ذِكْرُكُمْ» [الأنبياء: ١٠] أي: شرفكم وفخركم، وارتفاعكم، فإذا امتثلتم ما فيه من الأوامر، واجتنبتم ما فيه من النواهي، ارتفع قدركم وعظم أمركم. قال السعدي في تفسيره: قوله تعالى: «لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ» [الأنبياء: ١٠] أي: شرفكم وفخركم وارتفاعكم، إن تذكرتم به ما فيه من الأخبار الصادقة فاعتقدتموها، وامتثلتم ما فيه من الأوامر، واجتنبتم ما فيه من النواهي ارتفع قدركم، وعظم أمركم «أَفَلَا تَعْقِلُونَ» [الأنبياء: ١٠] ما ينفعكم وما يضركم؟ كيف لا ترضون ولا تعملون على ما فيه ذكركم وشرفكم في الدنيا والآخرة، فلو كان لكم عقل، لسلكتم هذا السبيل، فكما لم تسلكوه، وسلكتم غيره من الطرق، التي فيها ضعتكم وخستكم في الدنيا والآخرة وشقاوتكم فيها علم أنه ليس لكم معقول صحيح ولا رأي رجيح.
وهذه الآية، مصداقها ما وقع، فإن المؤمنين بالرسول، الذين آمنوا بالقرآن وعملوا به من الصحابة فمن بعدهم، حصل لهم من الرفعة والعلو الباهر، والصيت العظيم والشرف على الملوك، ما هو أمر معلوم لكل أحد، كما أنه معلوم ما حصل لمن لم يرفع بهذا القرآن رأسًا، ولم يهتد به من المقت والضعة والتدسية والشقاوة، فلا سبيل إلى سعادة الدنيا والآخرة إلا بالتذكرة بهذا الكتاب.
ولقد كان ذكر العرب ومجدهم بالقرآن حين حملوا رسالته فشرقوا به وغربوا، فلم يكن لهم ذكر قبله.
ولا يملك العربُ من زاد يقدمونه للبشرية سوى هذا الزاد، ولا يملكون من منهج يقدمونه للإنسانية سوى هذا المنهج، فالبشرية لم تعرفهم إلا بكتابهم وعقيدتهم وسلوكهم المستمد من ذلك الكتاب وهذه العقيدة، لم تعرفهم لأنهم عرب فحسب، فذلك لا يساوي شيئًا في تاريخ البشرية.
٣- قوله تعالى: «صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ» [ص: ١]. قال السعدي رحمه الله: «أي: ذي القدر العظيم، والشرف، المذكر للعباد، كل ما يحتاجون إليه من العلم، بأسماء الله وأفعاله، ومن العلم بأحكام الله الشرعية، ومن العلم، بأحكام المعاد والجزاء، فهو مذكر لهم في أصول دينهم وفروعه».
وهنا لا يُحتاج إلى ذكر المقسم عليه، فإن حقيقة الأمر، أن القسم به وعليه شيء واحد، وهو: هذا القرآن، الموصوف بهذا الوصف الجليل، فإذا كان القرآن بهذا الوصف، عُلِمَ أن ضرورة العباد إليه فوق كل ضرورة.
بعد هذا كله فماذا عسانا أن نقول في فضل كتاب أنقذ الله به أمة من جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، دأبهم السلب والنهب، ومعبودهم الأوثان والحجارة، وديدنهم توارث العداوات والأحقاد، فجعلهم الله به خير أمة أخرجت للناس.
لقد أراد الله تعالى أن يكون القرآن كتابًا مخاطبًا به كلَّ الأمم في جميع العصور، لذلك جعله بلغة هي أفصحُ كلام بين لغات البشر وهي اللغة العربية، وأصبحت اللغة العربية لغة الحضارة والمدنية.
إذًا فللقرآن الكريم أكبر الفضل على العرب فقد حفظ كيانهم ووجودهم حين حفظ لغتهم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دراسات قرآنية

تدبر القرآن

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد:

فلا شك أن تلاوة القرآن والاستماع له، والتدبر في آياته من أبر الأعمال وأفضل العبادات، متى رُوعيت عند تلاوته والاستماع له حرمته، وحفظت حقوقه، وصينت كرامته، وعُرفت منزلته، ولبس كل من التالي والسامع رداء الخشية والتوقير للمتلو والمسموع.

وحسب التالين من الفضل قوله تعالى: «إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ» [فاطر: ٢٩- ٣٠].

وينبغي لقارئ القرآن أن يتخلق بأخلاق القرآن ظاهرًا وباطنًا، وأن يكون عمله موافقا لما يتلو من أوامره، وأن يكون أبعد الناس عن نواهيه وزواجره، فليس يليق بمن يقرأ القرآن أن يقع في شيء من محارمه، أو يقصر في شيء مما أمر به، وأن يستحضر عند تلاوته أن يتلو كلام ربه، المنزل على رسوله للاهتداء والعمل والتدبر والذكرى؛ لتكون تلاوته أوقع في نفسه ونفوس السامعين، وليكون أقرب إلى الخشية عند التلاوة، فإنه متى استحضر في نفسه عظمة القرآن وعظمة من أنزله، وعظمة من نزل به، وعظمة من أنزل عليه، علته الخشية وغشيته الرحمة، وحفته الملائكة.

وينبغي للقارئ أيضًا أن يتذكر عظمة القرآن، وأنه كتاب جاء للهداية والإرشاد فليفرغ قلبه من الشواغل لتدبره، والاعتبار بما فيه، ولا يصرف نفسه عنه بمراعاة الألحان المحدثة والأنغام المبتدعة، وليكن حال القراءة والاستماع للقرآن في خشية وخشوع، متأملاً لما يُتلى من عظات بالغة وعِبَر نافعة، وليسأل نفسه عما يسمع من الأوامر: هل قام بها، ووفى حقها؟ فإن كان فليحمد الله، وإن رأى في نفسه تقصيرًا عالجه، وأخذ عليها العهد بالامتثال لما سمعت من الأوامر، والانتهاء عما يُتلى عليه من النواهي؛ ليكون القرآن حجة له ونورًا وهدى وشفاء لمرض نفسه، وجلاءً لصدأ قلبه.

معنى التدبر

معنى تدبر القرآن: هو تفهم معاني ألفاظه، والتفكر فيما تدل عليه آياته، وما دخل في ضمنها، وما لا تتم تلك المعاني إلا به.

قال الطبراني رحمه الله في قوله تعالى: «كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ» [ص: ٢٩]: «ليتدبروا حجج الله التي فيه، وما شرع الله فيه من الشرائع، فيتعظوا ويعملوا به». اهـ.

وقال أبو بكر بن طاهر: «تدبر في لطائف خطابه، وطالب نفسك بالقيام بأحكامه، وقلبك بفهم معانيه، وسرك بالإقبال عليه». [الجامع لأحكام القرآن ٣٨/١٩].

والتدبر يتعدى إلى المتأمل فيه بنفسه، يقال: تدبر الأمر. فمعنى «يتدبرون القرآن»: يتأملون دلالته. [التحرير والتنوير ١٣٧/٣].

أهمية تدبر القرآن:

تبرز أهمية تدبر القرآن الكريم في أمور كثيرة، وكل أمر كاف وحده أن يكون داعيًا لتدبر القرآن، والتأمل في معانيه، والتأثر عند قراءته، ولعل من أهمها الأمور التالية:

أولا: بركة القرآن:

وصف الله كتابه بأوصاف عظيمة منها أنه كتاب عزيز مبارك، وأنه نور وفرقان ورحمة وبرهان، وبصائر وشفاء، وهدى وبشرى، قال الله تعالى: «هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» [الأعراف: ٢٠٣]، وكثيرًا ما يقرن الله هذه الأوصاف بالحث على التدبر والاعتبار والتذكر، قال الله سبحانه: «كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ» [ص: ٢٩]، والمعنى: كتاب كثير الخير والبركة. [فتح القدير للشوكاني ٤٣٠/٤]، وقال عنه سبحانه: «قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ» [المائدة: ١٥- ١٦].

ويقول سبحانه: «أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ

لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» [العنكبوت: ٥١]، ويبين الآجري رحمه الله: بركة القرآن على العبد الذي أقبل على كتاب ربه بأدب واعتبار فيقول: «من تلا القرآن وأراد به متاجرة مولاه الكريم، فإنه يُربحه الربح الذي لا بعده ربح، ويعرفه بركة المتاجرة في الدنيا والآخرة ويبين الرسول صلى الله عليه وسلم أثر بركة القرآن وقوة تأثيره وتميزه عن باقي معجزات الأنبياء، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة». [رواه البخاري].

ثانيًا: حاجة القلب إلى تدبر القرآن:

إن في القلب حاجة لا يسدها إلا ذكر الله والتلذذ بكريم خطابه، وإن فيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بكتابه، وإن فيه قلقًا وخوفًا لا يؤمنه إلا السكون إلى ما بشر الله به عباده، وإن فيه فاقة لا يغنيها إلا التزود من حكم القرآن وأحكامه، وإن فيه لحيرة واضطرابًا لا ينجيه منها ويهديه إلى سواء الصراط إلا الاهتداء بنور ربه وبرهان كتابه العزيز قال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾) [يونس: ٥٨]، وإن العبد المؤمن مهما بلغ من العلم مكانة ومن التقوى منزلاً، فإنه لا يستغني عن القرآن مثبتًا وهاديًا ومعينًا - ولذلك قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وحاجة الأمة ماسة إلى فهم القرآن لصلاح قلوبها، وثباتها على الهدى والدين».

والله سبحانه وتعالى - حينما عاتب الصحابة رضي الله عنهم - في خشوع قلوبهم، والتأثر بكلامه حذرهم أن مغبة التمادي في هجر تدبر كتابه هي قسوة القلوب، فقال: (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) [سورة الحديد آية: ١٦]. والتدبر حال سماع القرآن يزيد القلب نورًا وإيمانًا.

قال جندب بن عبد الله رضي الله عنه: «كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ونحن فتيان فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيمانًا». رواه ابن ماجه.

قال ابن القيم رحمه الله: «فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر، فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يورِّث المحبة والشوق، والخوف والرجاء، والإنابة والتوكل، والرضا والتفويض، والشكر والصبر، وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله».

وقال رحمه الله: «فليس أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل، وجمع فيه الفكر على معاني آياته، فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر.. وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه وتوطد أركانه.. وتعطيه قوة في قلبه، وحياةً وسعةً وانشراحًا وبهجة وسرورًا فيصير في شأن والناس في شأن آخر، فلا تزال معانيه تنهض بالعبد إلى ربه، وتثبت قلبه عن الزيغ والميل عن الحق، وتناديه كلما فترت عزماته، وونى في سيره: تقدم الركب وفاتك الدليل، وفي تأمل القرآن وتدبره أضعاف أضعاف ما ذكرنا من الحِكَم والفوائد». [مدارك السالكين ١/٤٥١].

ثالثًا: ذم من ترك تدبر القرآن ولم يتأثر به:

وقد ذم الله في كتابه حال من هجر تدبر القرآن، ولم يفقه الآيات، ولم يدبِّر القول في صيغ مختلفة، قال سبحانه: «أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ» [المؤمنون: ٦٨]، وقال سبحانه: (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) [سورة الفرقان آية: ٣٠]، قال ابن كثير رحمه الله: «وترك تدبره من هجرانه». [تفسير ابن كثير ٦/١٠٨].

وقال القرطبي في تفسيره قوله تعالى: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ) [سورة محمد آية: ٢٤]: «عاتب المنافقين بالإعراض عن التدبر في القرآن والتفكر فيه وفي معانيه».

وقد عد العلماء التدبر للقرآن والوقوف عند أحكامه والاعتبار بأمثاله من النصح له، وقد تنوعت عباراتهم في ذلك فقد قال الإمام النووي رحمه الله في بيان النصح لكتابه: «قال العلماء رحمهم الله - النصيحة لكتاب الله تعالى: هي الإيمان بأنه كلام الله تعالى... ثم تعظيمه وتلاوته حق تلاوته، وتحسينها والخشوع عندها، وإقامة حروفه في التلاوة.. والوقوف مع أحكامه، وتفهم علومه وأمثاله، والاعتبار بمواعظه، والتفكر في عجائبه، والعمل بمحكمه، والتسليم بمتشابهه، والبحث عن عمومه وخصوصه وناسخه ومنسوخه، ونشر علومه والدعاء إليه». [التبيان في آداب حملة القرآن ص١١٣].

جعلنا الله ممن يتلوه حق تلاوته، ويتدبره حق تدبره، وجعله شفيعًا لنا يوم القيامة، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دراسات قرآنية

تدبر القرآن

الحلقة الثانية

إعداد / مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد: فقد تكلمنا في العدد السابق عن معنى التدبر بمعناه اللغوي والاصطلاحي، وكذلك أهمية تدبر القرآن، وفي هذا العدد نتكلم بعون الله تعالى عن:

أهم طرق تدبر القرآن الكريم:

لا تجد أي مؤمن يحقق الغاية الكبرى، من تلاوة كتاب الله عز وجل، وهي التدبر والتأمل، متفهمًا للمعاني، ناظرًا في المقاصد، إلا لامست شغاف قلبه، فينبض بالإيمان، ويخشع ويخضع للخالق سبحانه وتعالى، ويتأثر هذا القلب، ويكون له الأثر على الجوارح: فبصلاحه يصلح الجسد كله، وبفساده يفسد الجسد كله، كما جاء من قول النبي صلى الله عليه وسلم: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب» [صحيح البخاري]. وبعد هذا العرض نذكر أهم الطرق الموصلة لهذه الغاية:

١ - استشعار عظمة القرآن الكريم:

فأعظم ما يستشعره المؤمن من فضل القرآن أنه كلام رب العالمين - مُنزل - غير مخلوق، كلام من ليس كمثله شيءٌ، وصفة من ليس له شبيه ولا ندٌ، وكتابُ إله العالمين، ووحي خالق السموات والأرضين، وهو هادي الضالين ومنقذ الهالكين، ودليل المتحيرين، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو السراج المنير، وهو الحق المبين، وهو الصراط المستقيم. (الرعاية لمكي بن أبي طالب (ص٥٥)].

والله تعالى أثنى على نفسه الشريفة لتفضله بإنزال الكتاب، وعلَّم عباده أيضًا كيف يثنون عليه تعالى حمدًا وشكرًا على إنزاله، فقال: « ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا» [الكهف: ١].

أما لماذا تفضل عز وجل، ولماذا وجب الحمدُ؟ فهو ما يوضحه الشنقيطي رحمه الله بقوله: «علم الله جل وعلا عباده في أول هذه السورة الكريمة أن يحمدوه على أعظم نعمة أنعمها عليهم، وهي إنزاله على نبينا صلى الله عليه وسلم هذا القرآن العظيم، الذي لا اعوجاج فيه، بل هو في كمال الاستقامة، أخرجهم به من الظلمات إلى النور، وبيّن لهم فيه العقائد، والحلال والحرام، وأسباب دخول الجنة والنار وحذّرهم فيه من كل ما يضرهم، وحضهم فيه على كل ما ينفعهم، فهو النعمة العظمى على الخلق، ولذا علمهم ربهم كيف

يحمدونه على هذه النعمة الكبرى». [أضواء البيان للشنقيطي ٣/٤].

٢ - تخصيصه بالخطاب القرآني:

ينبغي لتالي القرآن أن يعلم أنه هو مقصود بخطاب القرآن ووعيده، وأن القصص لم يرد بها السمر بل العبر، فليتنبه لذلك، فحينئذ يتلو تلاوة عبد كاتَبَه سيدُه بمقصود، وليتأمل الكتاب ويعمل بمقتضاه. [مختصر منهاج القاصدين ص٥٤].

قال ابن القيم: «أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمُّنه له، ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثا، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن، ولعمر الله! إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم أو شر منهم أو دونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك». [مدارج السالكين ٣٤٣/١].

فمن أراد الانتفاع فليجعل القرآن خطابًا موجهًا له، وليُقدِّر أنه المقصود كما قال الله تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩]. قال محمد بن كعب القرظي: «من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله عز وجل». [ابن أبي شيبة ١٥٦/٧].

٣ - صدق النية والاستعانة بالله:

إن العبد إذا استمع إلى كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام بنية صادقة على ما يحب الله، أفهمه كما يحب وجعل له في قلبه نورًا. [الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦٠/١١].

ومن صدق النية الاستعانة بالله، بأن يكون العبد «تاركًا للمعهود من علمه ومعقوله، متبرئًا من حوله وقوته، ومعظمًا للمتكلم، مفتقرًا إلى التفهم، بحال مستقيم وقلب سليم، وقوة علم، وتمكن سمع لفهم الخطاب وشهادة غيب الجواب، بدعاء وتضرع وابتئاس وتمسكن، وانتظار للفتح عليه من عند الفتاح العليم». [البرهان للزركشي ١٨١/٢].

ومن الاستعانة بالله على تدبر كتابه: أن يبدأ تلاوته بالاستعاذة بالله، كما قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨]، وهي «الالتجاء إليه والاستجارة بجنابه من الشيطان الرجيم». [تفسير ابن كثير ٢٥/١].

الشيطان لا يفتر عن الوسوسة، ويُشغل عن كل خير، «وإن أجل الأمور التي يلقي الشيطان وسوسته فيها قراءة القرآن؛ لأن من قرأ القرآن ونوى به عبادة الرحمن، وتفكر في وعده ووعيده وآياته وبيناته، ازدادت رغبته في الطاعات، ورهبته عن المحرمات، فلهذا السبب صارت قراءة القرآن من أعظم الطاعات، فلا جرم كان سعي الشيطان في الصد عنه أبلغ، وكان احتياج العبد إلى من يصونه عن شر الشيطان أشد، فلهذه الحكمة اختصت قراءة القرآن بالاستعاذة، فإنه لا يكفيه إلا الله. [التفسير الكبير للرازي ٩١/١].

وكذلك المحافظة على قراءة: «بسم الله الرحمن الرحيم» في أول كل سورة سوى «براءة» أي سورة التوبة، ومعنى البسملة: «أدخل في هذا الأمر: من قراءة أو دعاء، أو غير ذلك (بسم الله) لا بحولي ولا بقوتي، بل أفعل هذا الأمر مستعينًا بالله، متبركًا باسمه تبارك وتعالى، هذا في كل أمر تسمّي في أوله من أمر الدين، وأمر الدنيا، فإذا أحضرت في نفسك أن دخولك في القراءة بالله مستعينًا به متبرئًا من الحول والقوة، كان هذا أكبر الأسباب في حضور القلب وطرد الموانع من كل خير». [مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب].

٤ - حضور القلب وقطع العلائق:

إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧]، وذلك أن تمام التأثر لما كان موقوفًا على مؤثر مقتض، ومحل قابل، وشرط لحصول الأثر وانتفاء المانع الذي يمنع منه، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد، فقوله: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ [ق: ٣٧] إشارة إلى ما تقدم من أول السورة إلى هنا، وهذا هو المؤثر، وقوله: ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ [ق: ٣٧]، فهذا هو المحل القابل، والمراد به: القلب الحي الذي يعقل عن الله، كما قال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ [يس: ٦٩، ٧٠] أي: حي القلب، وقوله: ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ ﴾ [ق: ٣٧] أي: وجه سمعه، وأصغى حاسة سمعه إلى ما

يُقال له، وهذا شرط التأثر بالكلام، وقوله: «وَهُوَ شَهِيدٌ» أي: شاهد القلب، حاضر غير غائب.

قال ابن قتيبة: استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساهٍ، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يُقال له والنظر فيه وتأمله، فإذا حصل المؤثر وهو القرآن والمحل القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء وانتفى المانع وهو غفلة القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر. [الفوائد لابن القيم ٣/١].

وقيل في تفسير قوله تعالى: «يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ» [مريم: ١٢] أي: بجد وحرص واجتهاد. [محاسن التأويل ٨٨/٧]. وأخذه بالجد أن يكون متجردًا له عند قراءته، منصرف الهمة إليه عن غيره، وهذه الصفة متولدة من التعظيم فإن المعظم للكلام الذي يتلوه يستبشر به ويستأنس ولا يغفل عنه، ففي القرآن ما يستأنس به القلب. [إحياء علوم الدين للغزالي ٢٨١/١].

٥- القراءة بترتيل وترسل:

إن أهم المداخل للتدبر: أن تكون القراءة مرتلة صحيحة، وليست العبرة في التلاوة أن يقرأ القرآن مرات متعددة دون أن يصاحبها إدراك لما يقرأ، والترتيل والتدبر مع قلة مقدار القراءة أفضل من سرعة القراءة مع كثرتها؛ لأن المقصود من القراءة الفهم والتدبر والعمل.

والإسراع في القراءة يدل على عدم الوقوف على المعنى بصورة كاملة، وبالشكل المطلوب، ومن أجل ذلك كانت القراءة بتمهل خطوة نحو التدبر، وقد ندَّد الله تعالى بصورة الاستفهام بمن لا يفتح عقله وقلبه لتفهم القرآن من أجل إدراك ما فيه من حكم وأسرار ومواعظ وتشريعات، فقال تعالى: «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ» [محمد: ٢٤]. (دعوة إلى تدبر القرآن ص٤١).

وإن الذي يقرأ القرآن بلا فهم كالمذياع يرتل قرآنًا دون أن يفهم مما رتل شيئًا، وهو مخالف لهدف القرآن العظيم، فآيات كثيرة تشير إلى أن القرآن يُتلى لعلنا نتفكر، لعلنا نتدبر، لعلنا نعقل، لعلنا نبصر، كما قال تعالى: «كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» [البقرة: ٢٤٢]، وقال تعالى: «كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» [يونس: ٢٤]، وقال تعالى: «إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» [يوسف: ٢]، أما الذي تسمع أذنه ولا يسمع عقله، أو تنظر عينه ولا يبصر قلبه، أو يتكلم لسانه ولا يعي فكره فهو أصم أبكم أعمى.

قال الله تعالى: «وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ» [يونس: ٤٣]. وفي الآية إشادة واضحة إلى أن سماع القرآن وتلاوته ليس هدفًا بذاته، بل هو وسيلة لهدف، فقد كان المشركون يستمعون إلى القرآن ثم ينصرفون لا يحرك فيهم ساكنًا تمامًا كما يفعل بعض المسلمين اليوم يستمعون إلى القرآن الكريم كل يوم من المذياع ثم ينصرفون لا يحرك فيهم ساكنًا، إذ يبقى المطفف مطففًا، ويبقى الكاذب كاذبًا، ويستمر المرابي في رباه، ويواصل الفاسق فسوقه، فلقد أصبح سماع القرآن عادة، ولقد ذم الله المشركين مع استماعهم للقرآن لأنهم لا يعقلون، ولأنهم لا يبصرون». [عظمة القرآن ص٥٩٥].

وفي قوله تعالى: «سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ» [الأعراف: ١٤٦]. قال سفيان بن عيينة: أنزعُ عنهم فهم القرآن. [الإتقان في علوم القرآن ٤٨٠/٢].

٦- تكرار الآية وترجيعها:

«الترجيع: هو تقارب ضروب الحركات في القراءة، وأصله الترديد، وترجيع الصوت: ترديده في الحلق». إن الهدف من التكرار هو التوقف لاستحضار المعاني، وكلما كثر التكرار زادت المعاني التي تفهم من النص، والتكرار - أيضًا - قد يحصل تعظيمًا أو إعجابًا بما قرأ، فهو نتيجة وثمرة للفهم والتدبر، وهو وسيلة إليه حينما لا يوجد. [مفاتح تدبر القرآن لخالد اللاحم ٦٢].

قال ابن قدامة: «إن التدبر هو المقصود من القراءة، وإن لم يحصل التدبر إلا بترداد الآية، فليرددها». [مختصر منهاج القاصدين ص٥٣).

وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين.

الأمثال في القرآن

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله الذي أنزل القرآن الكريم لينتظم به صلاح المعاش والمعاد، وجعله منزهًا عن العوج، وضرب الله فيه للناس من كل مثل ، لتتحقق لهم الموعظة، وليتجنبوا المضار، ويأخذوا المنافع كما قال تعالى: « وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » [الزمر: ٢٧، ٢٨].

والصلاة والسلام على من تلقاه من ربه، وبلغه وبيَّنه، حتى تركنا على المحجة البيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك، المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد النبي الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعدُ:

فهذه سلسلة جديدة نتكلم فيها عن «الأمثال في القرآن»، ولقد ضرب الله عز وجل في كتابه العزيز أمثالاً للناس لعلهم يتذكرون ويتفكرون ويتقون، فالمثل اذن تقريب لمفهوم أعمق من المثل ، لصورة أوسع منه ، وتوضيح وفهْمُ هذه الأمثال على الوجه الذي يريده الله عز وجل نعمة عظيمة من أجل النعم، فذلك يورث تفكرًا وتدبرًا، ويحمل على التقوى بإذن الله.

والذين يعقلون هذه الأمثال وصفهم الله عز وجل بـ «العالمون» إذ قال عز وجل: « وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ » [العنكبوت: ٤٣]، ولا يخفى على ذي لب ما جعل الله في الأمثال من الحكمة وأودع فيها من الفائدة وناط بها من الحاجة، فإن ضرب الأمثال في القرآن يُستفاد منه أمور كثيرة منها:

لفت النظر إلى أمثال القرآن:

لقد لفت الله نظر عباده إلى أمثال القرآن في قوله سبحانه: «وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » [إبراهيم: ٢٥]، وقوله جل وعلا: «وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » [النور: ٣٥]، وقوله سبحانه: «وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ » [إبراهيم: ٤٥]، وقوله تبارك وتعالى: « وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ » [العنكبوت: ٤٣]، ولفت الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم نظرنا كذلك إليها، وأمرنا بالاعتبار بها في الأحاديث الشريفة مثل

حديث البخاري ومسلم عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مثل الذي يذكرُ ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت» [متفق عليه]. وفي لفظ لمسلم: «مثل البيت الذي يُذكرُ الله فيه والبيت الذي لا يُذكر الله فيه مثل الحي والميت». وقد عدّ الإمام الشافعي -رحمه الله- أمثال القرآن من الأمور التي يجب على المجتهد معرفتها من علوم القرآن، فقال: «ثم ما ضرب فيه من الأمثال الدوال على طاعته؛ المثبتة لاجتناب معصيته، وترك الغفلة عن الحفظ والازدياد من نوافل الفضل». [البرهان للزركشي ١/٤٨٦].

وقال الماوردي: «من أعظم علم القرآن علم أمثاله، والناس في غفلة عنه لانشغالهم عن الامثال، وإغفالهم المثلات». [الإتقان للسيوطي ٤/٣٨].

تعريف المثل:

أصل المثل في اللغة: قال الخليل بن أحمد: «المثلِ ما يُشَبَّهُ به الشيء ليُفهم». والعرب تقول: مَثلٌ، ومِثل ونظيرهما من الكلام الشَبه والشبَه والإثر والأثر والبدل. [لسان العرب ٨/٢٠٠، والقاموس المحيط ٤/٥٥].

والناس يعلمون ما حلّ بمن خلا قبلهم من الأمم التي عصت ربها، وكذبت رسله من عقوبات، فمن أمة مُسخت قردة وخنازير، إلى أمة أُهلكت بالرجفة، وأخرى بالريح أو الخسف أو الغرق، وذلك هو المثلات، والمثلات: العقوبات واحدها مثلة - بفتح الميم، وضم الثاء - كصدقة وصدقات. وقال مجاهد: المثلات: الأمثال. والتمثيلُ من المُثلَة، وهو: جدع الأنف والأذن، وجَبُّ المذاكير (أي استئصالها). قال ابن منظور رحمه الله: مثلت بالحيوان: أمثُل به مثلاً، إذا قطعت أطرافه وشوهت به ومثلت بالقتيل: إذا جدعت أنفه وأذنه وشوهت به.

أنواع المثل في القرآن:

يرى بعض الباحثين أن الأمثال القرآنية تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: الأمثال المصرحة أو القياسية. وهي التي صرح فيها بلفظ المثل أو ما يقوم مقامه كقوله تعالى: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا» [البقرة: ١٧]. «مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ» [الرعد: ٣٥]، «مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ» [النور: ٣٥]، «وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ» [النور: ٣٩]، «أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ» [النور: ٤٠].

والثاني: ما يُسمى بالأمثال المرسلة، وهي جمل قد أُرسلت إرسالاً من غير تصريح بلفظ التشبيه وكثر التمثل بها؛ لما فيها من العظة والعبرة والإقناع، وقد اكتسبت صفة المثلية بعد نزول القرآن الكريم وشيوعها عند المسلمين ولم تكن أمثالاً في وقت نزوله، وهي في جملتها مبادئ خُلقية ودينية مركزة مثل قوله تعالى: «لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ» [آل عمران: ٩٢]، «لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ» [النجم: ٥٨]، «ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ» [يوسف: ٥١]، «وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ» [يس: ٧٨]، «ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ» [الحج: ١٠]، «قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ» [يوسف: ٤١]، «أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ» [هود: ٨١]، «وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ» [سبأ: ٥٤]، «لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ» [الأنعام: ٦٧]، «وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ» [فاطر: ٤٣]، «قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ» [الإسراء: ٨٤]، «وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ» [البقرة: ٢١٦]، «كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ» [المدثر: ٣٨]، «مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ» [المائدة: ٩٩]، «مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ» [سورة التوبة: ٩١]، «هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ» [الرحمن: ٦٠]، «كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً» [البقرة: ٢٤٩]، «ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ» [يونس: ٩١]، «تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ» [الحشر: ١٤]، «وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ» [فاطر: ١٤]، «كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ» [المؤمنون: ٥٣]، «وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ» [الأنفال: ٢٣]، «وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ» [سبأ: ١٣]، «لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا» [البقرة: ٢٨٦]، «قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ» [المائدة: ١٠٠]، «ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ» [الروم: ٤١]، «ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ» [الحج: ٧٣]، «لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ» [الصافات: ٦١]، «وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ» [ص: ٢٤]، «فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ» [الحشر: ٢].

الثالث: ما يسمى بالأمثال الكامنة، وهي أمثال لم تُضرب لبيان حال خاصة، ولا لصفة معينة، ولا لتلخيص حادثة ووقعت في زمن من الأزمان لم يصرح فيها بالتمثيل من قريب ولا من بعيد، ولكن يدل مضمونها على معنى يشبه مثلا من أمثال العرب المعروفة، أي: أنها أمثال بمعانيها لا بألفاظها، فالتمثيل فيها كامن غير ظاهر، لهذا أسموها بالأمثال الكامنة.

قال الماوردي: سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن مضارب يقول: سمعت أبي يقول: سألت الحسين بن الفضل فقلت: إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن، فهل تجد في كتاب الله: «خير الأمور أوساطها». قال: نعم في أربعة مواضع، قوله تعالى: «لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ» [البقرة: ٦٨]، «وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ

ذَٰلِكَ قَوَامًا » [الفرقان: ٦٧]، وقوله تعالى: «ولاتجعل يدك مغلولة الي عنقك ولاتبسطها كل البسط» وقوله: «وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا » [الإسراء: ١١٠].

قلت: فهل تجد في كتاب الله: «من جهل شيئًا عاداه»؟ قال: نعم في موضعين قوله تعالى: «بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ » [يونس: ٣٩]، وقوله: «وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ » [الأحقاف: ١١].

قلت: فهل تجد في كتاب الله: «احذر شر من أحسنت إليه». قال: نعم. قوله عز وجل: «وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ » [سورة التوبة: ٧٤].

قلت: فهل تجد في كتاب الله «ليس الخبر كالعيان». قال: في قوله تعالى: «قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي » [البقرة: ٢٦٠]. قلت: فهل تجد «في الحركات البركات» قال: في قوله تعالى: «وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً » [النساء: ١٠٠]. قلت: فهل تجد (كما تدين تدان)، قال: في قوله تعالى: «مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ » [النساء: ١٢٣]. قلت: فهل تجد فيه قولهم: «حين تقلي تدري»؟ قال: «وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا » [الفرقان: ٤٢]. قلت فهل تجد فيه: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين». قال: «قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ » [يوسف: ٦٤].

قلت: فهل تجد فيه: «من أعان ظالمًا سُلِّط عليه»؟. قال: «كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ » [الحج: ٤]. قلت فهل تجد فيه قولهم : لاتلد الحية الا حية؟ ، قال في قوله تعالى: «وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا » [نوح: ٢٧]. قلت: فهل تجد فيه «للحيطان آذان» قال: في قوله تعالى: «وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ » [سورة التوبة: ٤٧]. إلى غير ذلك مما نقله السيوطي في الإتقان.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن النوع الثالث ليس داخلًا في الأمثال على أي صورة من الصور؛ لخلوّه من وجه المشابهة بين الممثل والممثل له، وقالوا: إن ما ذكره السيوطي وغيره عن الحسين بن الفضل، ضرب من تدريب القريحة على استخراج النظائر القرآنية لبعض ما تتمثل به العرب في عصورهم المختلفة من الأقوال الحكيمة التي أوجزت حادثة من الحوادث أو دلت على معنى من المعاني المعقولة.

وأما النوع الثاني: فهو من قبيل التشبيهات الضمنية، التي تؤكد المعاني وتبرزها إبرازًا يجعلها متميزة في النفس أكمل تمييز، أو هو من قبيل الكنايات التي تأتي بالمعنى مصحوبًا بدليله فتجري مجرى الحكم وهو كثير في القرآن.

ومقصودنا في هذا البحث إنما هو النوع الأول؛ إذ هو المراد عند الإطلاق، ويأتي النوع الثاني تبعًا له ويدخل في سياقه ضمنًا، على وجه من وجه التشبيه. [الأمثال القرآنية دراسة تحليلية، د. محمد بكر إسماعيل].

ضرب الأمثال من طبائع الناس

وضرب الأمثال مما فُطر عليه الناس على اختلاف شعوبهم وأزمانهم، بناء على التجارب والوقائع في أحداث الحياة، وفي تشبيه بعضهم ببعض، وكذلك فعل الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن المحظور على الناس أن يشبّهوا الله بشيء من خلقه، أي أن يجعلوا الله مثلاً يشركون به أو يقيسون عليه، فإن ضرب المثل تشبيه حال بحال، لقوله تعالى: «فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ » [النحل: ٧٤]، وهذا مثل قوله تعالى: «فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ » [البقرة: ٢٢] أي: تعلمون ببداهة العقول أن الخالق لا يشبه المخلوق، وتعلمون بوحي الله أن الله ليس كمثله شيء.

ويقول البيضاوي في تفسير تعليله سبحانه نهي عباده أن يضربوا لله مثلاً بقوله: «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » [النحل: ٧٤]، أي: إن الله يعلم فساد ما تعولون عليه من القياس، أو يعلم كنه الأشياء وأنتم لا تعلمون، أو يعلم كيف تضربون الأمثال وأنتم لا تعلمون ذلك حق العلم، وما ضربه صلى الله عليه وسلم من أمثال الله تعالى، كقوله في الحديث الشريف: «لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره، وقد أضله في أرض فلاة» [رواه البخاري ومسلم]؛ فذلك من باب إظهار مدى رحمة الله بعباده.

ضلال الكفار في ضربهم الأمثال:

وكما ضل الكفار في ضربهم الأمثال لله عز وجل، وقد نهاهم الله عن ذلك، ضلوا في ضربهم المثل للرسول صلى الله عليه وسلم حتى قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم: «انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا » [الإسراء: ٤٨]، فقد عجب الله من صنيعهم كيف قالوا عنه تارة: إنه ساحر، وتارة إنه مجنون، وتارة إنه شاعر، فضلوا؛ لتناقض كلامهم في قولهم: مجنون، ساحر، شاعر. وضلوا عن الحق، فلا يجدون سبيلاً إلى الهدى، ولا يجدون حيلة في صدّ الناس عنك يا أيها النبي.

وللحديث بقية، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الأمثال في القرآن الكريم

الحلقة الثانية

إعداد/ مصطفى البصراتى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وبعدُ:

ففي المقال السابق تحدثنا عن مقدمة في «الأمثال في القرآن»، وفي هذا المقال نبدأ الحديث عن المثل الأول في القرآن، وهو من سورة البقرة الآية السابعة عشرة، وهي قوله تعالى: « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ » [البقرة: ١٧- ١٨].

تفسير آية المثل:

«مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا» حال المنافقين الذين آمنوا ظاهرًا لا باطنًا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، ثم كفروا فصاروا يتخبطون في ظلمات ضلالهم وهم لا يشعرون ولا أمل لهم في الخروج منها.

قال القاسمي في محاسن التأويل: «ولما جاء بحقيقة صفتهم (أي في الآيات السابقة) عقّبها بضرب المثل - زيادة في الكشف وتتميمًا للبيان - فقال تعالى: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ» مثلهم: أي: مثالهم في نفاقهم، وحالهم فيه كمثل الذي استوقد أي أوقد نارًا في ظلمة - والتنكير للتعظيم، وقال الراغب: المستوقد: طالب الوقود، ولذلك قال ابن عثيمين: «كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا»، أي طلب من غيره أن يُوقد له نارًا، أو طلب من غيره ما يُوقد به النار بنفسه، « فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ» أي أنارت ما حول المستوقد واستدفأ، وأمن مما يخافه « ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ» أي: أطفأ الله نارهم - التي هي مدار نورهم - فبقوا في ظلمة وخوف، و«لما» حرف شرط، و«أضاءت» فعل الشرط، و«ذهب الله» جواب الشرط، والمعنى: أنه بمجرد الإضاءة ذهب النور؛ لأن القاعدة أن جواب الشرط يلي المشروط مباشرة.

الضمائر مختلفة والمرجع واحد:

وفي هذه الآية نجد اختلافًا في

الضمائر: «استوقد»: مفرد، «حوله»: مفرد، «بنورهم»: جمع، «تركهم» جمع، «لا يبصرون» جمع.

وقد يقول القائل: كيف يجوز في أفصح الكلام أن تكون الضمائر مختلفة والمرجع فيها واحد؟

الجواب من وجهين:

الأول: أن اسم الموصول يفيد العموم، وإذا كان يفيد العموم فهو صالح للمفرد والجمع، فتكون الضمائر في «استوقد»، و«حوله» عادت إلى اسم الموصول باعتبار اللفظ، وأما «نورهم»، و«تركهم»، و«لا يبصرون» فعادت إلى الموصول باعتبار المعنى.

الوجه الثاني: أن الذي استوقد النار كان مع رفقة، فاستوقد النار له ولرفقته، ولهذا قال تعالى: « أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ » إلخ، وعلى الوجه الثاني تكون الآية ممثلة لرؤساء المنافقين مع أتباعهم؛ لأن رأس المنافقين هو الذي استوقد النار، وأراد أن ينفع بها أقرانه، ثم ذهبت الإضاءة وبقيت الحرارة، والظلمة، وتركهم جميعًا في ظلمات لا يبصرون.

«وتركهم في ظلمات» أي: وتركهم في ظلمات لا يبصرون ما حولهم - متحيرين- عن الطريق خائفين-؛ جمعها لتضمنها ظلمات عديدة.

أولها: ظلمة الليل؛ لأن استيقاد النار للإضاءة لا يكون إلا في الليل؛ لأنك إذا استوقدت نارًا بالنهار فإنها لا تضيء.

الثانية: ظلمة الجو إذا كان غائمًا.

الثالثة: الظلمة التي تحدث بعد فقد النور، فإنها تكون أشد من الظلمة الدائمة.

و«لا يبصرون» تأكيد من حيث المعنى لقوله تعالى: « فِي ظُلُمَاتٍ » دالّ على شدة الظلمة، قال قتادة: «هذا مَثَل في المنافقين»، « فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ » هي لا إله إلا الله، أضاءت لهم فأكلوا بها وشربوا، وأمنوا في الدنيا، ونكحوا النساء، وحقنوا دماءهم حتى إذا ماتوا أذهب الله نورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون.

قال ابن القيم: وحصول الظلمات التي هي الضلالة والرضى بها عن النور الذي هو الهدى، فبدّلوا الهدى والنور وتعوضوا عنه بالظلمة والضلالة، فيا لها من تجارة ما أخسرها!! وصفقة ما أشد غبنها!!

وتأمل كيف قال الله سبحانه وتعالى: « ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ » فوحّده، ثم قال: « وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ » فجمعها؛ فإن الحق واحد وهو صراط الله المستقيم الذي لا صراط يوصل إليه سواه، وهو عبادته وحده لا شريك له بما شرعه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم لا بالأهواء والبدع وطرق الخارجين عما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم من الهدى ودين الحق بخلاف طرق الباطل؛ فإنها متعددة متشعبة.

قوله تعالى: « صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ » [البقرة: ١٨].

فقوله تعالى في وصفهم: «صمّ» خبر لمبتدأ محذوف - أي: هم صم، و«صم» جمع أصم.

و«الأصم» الذي لا يسمع، لكنه هنا أريد به شيء معين: أي هم صم عن الحق، فلا يسمعون، والمراد نفي السمع المعنوي - وهو السمع النافع، لا الحسي وهو الإدراك؛ لأن كلهم يسمعون القرآن ويفهمون معناه، لكن لما كانوا لا ينتفعون به صاروا كالصم الذين لا يسمعون، وذلك مثل قول الله تعالى: « وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ » [الأنفال: ٢١].

قوله تعالى: «بكم» جمع أبكم، وهو الذي لا ينطق، والمراد أنهم لا ينطقون بالحق، وإنما ينطقون بالباطل، و«عمي» جمع أعمى، والمراد أنهم لا ينتفعون بما يشاهدونه من الآيات التي تظهر على أيدي الرسل عليهم الصلاة والسلام.

فبهذا سُدّت طرق الحق أمامهم؛ لأن الحق إما مسموع وإما مشهود، وإما معقول؛ فهم لا يسمعون، ولا يشهدون، كذلك أيضًا، فلا يُؤخذ منهم حق؛ لأنهم لا ينطقون بالحق، لأنهم

بكم فهم لا ينتفعون بالحق من غيرهم، ولا ينفعون غيرهم بحق، قال الله تعالى: «فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ»: الفاء هذه عاطفة، لكنها تفيد السببية - أي بسبب هذه الأوصاف الثلاثة لا يرجعون عن غيِّهم، فلا ينتفعون بسماع الحق، ولا بمشاهدته، ولا ينطقون به.

المعنى الإجمالي:

شبَّه سبحانه وتعالى أعداءه المنافقين بقوم أوقدوا نارًا لتضيء لهم وينتفعوا بها، فلما أضاءت لهم النار، فأبصروا من خلال ضوئها ما ينفعهم ويضرهم، وأبصروا الطريق بعد أن كانوا حيارى تائهين، فهم كقوم سفر ضلوا عن الطريق فأوقدوا النار لتضيء لهم الطريق، فلما أضاءت لهم فأبصروا وعرفوا طفئت تلك الأنوار، وبقوا في الظلمات لا يبصرون، قد سُدت عليهم أبواب الهدى الثلاث، فإن الهدى يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب: مما يسمعه بأذنه، ويراه بعينه، ويعقله بقلبه.

وهؤلاء قد سُدت عليهم أبواب الهدى فلا تسمع قلوبهم شيئًا، ولا تبصره، ولا تعقل ما ينفعها، وقيل: لما لم ينتفعوا بأسماعهم وأبصارهم وقلوبهم نُزِّلوا بمنزلة من لا سمع له ولا بصر ولا عقل.

وقال في صفتهم «فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ» لأنهم قد رأوا في ضوء النار وأبصروا الهدى، فلما طفئت عنهم لم يرجعوا إلى ما رأوا وأبصروا، وقال سبحانه: «ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ»، ولم يقل ذهب نورهم، وفيه سر بديع وهو انقطاع سر تلك المعية الخاصة التي هي للمؤمنين من الله سبحانه وتعالى.

فإن الله تعالى مع المؤمنين، وإن الله مع الصابرين، وإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، فذهاب الله بذلك النور انقطاع لمعيته التي خصَّ بها أولياءه، فقطعها بينه وبين المنافقين، فلم يبقَ عندهم بعد ذهاب نورهم ولا معهم. فليس لهم نصيب من قوله: «لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا»، ولا من: «كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ».

الفوائد:

١- من فوائد الآيتين: بلاغة القرآن، حيث يضرب للمعقولات أمثالاً محسوسات؛ لأن الشيء المحسوس أقرب إلى الفهم من الشيء المعقول، لكن من بلاغة القرآن أن الله تعالى يضرب الأمثال المحسوسة للمعاني المعقولة حتى يدركها الإنسان جيدًا، كما قال تعالى: «وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ» [العنكبوت: ٤٣].

٢- من فوائد التشبيه قصد تفظيع المُشبَّه.

٣- ومنها: ثبوت القياس، وأنه دليل يؤخذ به؛ لأن الله أراد منا أن نقيس حالهم على حال من يستوقد، وكلّ مَثَل في القرآن فهو دليل على ثبوت القياس.

٤- ومنها أن هؤلاء المنافقين ليس في قلوبهم نور، لقوله تعالى: «كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا» [البقرة: ١٧] فهؤلاء المنافقون يستطعمون الهدى والعلم والنور، فإذا وصل إلى قلوبهم- بمجرد ما يصل إليها- يتضاءل، ويزول؛ لأن هؤلاء المنافقين إخوان للمؤمنين من حيث النسب، وأعمام وأخوال، وأقارب، فربما يجلس إلى المؤمن حقًا، فيتكلم له بإيمان حقيقي، ويدعوه، فينقدح في قلبه هذا الإيمان، ولكن سرعان ما يزول.

٥- ومن فوائد الآيتين: أن الإيمان نور له تأثير حتى في قلب المنافق؛ لقوله تعالى: «فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ» [البقرة: ١٧]، الإيمان أضاء بعض الشيء في قلوبهم، ولكن لما لم يكن على أسس لم يستقر، ولهذا قال تعالى في سورة المنافقين- وهي أوسع ما تحدث الله به عن المنافقين-: «ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ» [المنافقون: ٣].

٦- ومنها: أنه بعد أن ذهب هذا الضياء حلت الظلمة الشديدة، بل الظلمات.

٧- ومنها: أن الله تعالى جازاهم على حسب ما في قلوبهم: «ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ» [البقرة: ١٧] كأنه أخذه قهرًا.

والحمد لله رب العالمين.

دراسات قرآنية

الأمثال في القرآن

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحلقة الثالثة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد:

في هذا المقال نتحدث عن المثل الثاني في القرآن، وهو من سورة البقرة في الآيتين: التاسعة عشرة والعشرين، وهو قوله تعالى: « أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ۖ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » [البقرة: ١٩ - ٢٠].

التفسير المفصل:

قوله تعالى: « أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ ...» «أو» هنا للتنويع لأن المثل الثاني نوع آخر، والكاف اسم بمعنى «مثل»- و«أو» عطفت لفظ (صيب) على الذي (استوقد نارًا).

إذن المثل هنا في قوله تعالى: « أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ » [البقرة: ١٩] عطف على التمثيل السابق وهو قوله تعالى: « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا » [البقرة: ١٧] أعيد تشبيه حالهم بتمثيل آخر وبمراعاة أوصاف أخرى، فهو تمثيل لحال المنافقين المختلطة بين جواذب ودوافع؛ حين يجاذب نفوسهم جاذب الخير عند سماع مواعظ القرآن وإرشاده، وجاذب الشر من أعراق النفوس والسخرية بالمسلمين، بحال صيب من السماء اختلطت فيه غيوث وأنوار ومزعجات وأكدار، جاء على طريقة بلغاء العرب في التفنن في التشبيه.

و(الصيب): المطر النازل من السماء يصيب البلاد فتحيا به.

قال القاسمي: الصيب: هو المطر الذي يصوب (أي ينزل) من علو إلى أسفل - فشبَّه الهدى - الذي هدى الله به عباده بالصيب؛ لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر، ونصيب المنافقين من الهدى بنصيب من لم يحصل له نصيب من الصيب إلا ظلمات ورعد وبرق، ولا نصيب له فيما وراء ذلك - مما هو المقصود بالصيب من حياة البلاد والعباد والشجر والدواب، وأن تلك الظلمات التي فيه وذلك الرعد والبرق، مقصود لغيره، وهو وسيلة إلى كمال الانتفاع بذلك الصيب.

و«السماء»: قال الشيخ ابن عثيمين: المراد بـ«السماء» هنا العلو، وقال الشوكاني في فتح القدير: والسماء في الأصل كل ما علاك فأظلك، ومنه قيل لسقف البيت: سماء، والسماء أيضًا: المطر، سمي به لنزوله منها.

وقال ابن عاشور: والسماء تُطلق على الجو المرتفع فوقنا الذي تخاله قبة زرقاء، وعلى الهواء المرتفع، قال الله تعالى: « كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ » [إبراهيم: ٢٤]، وتطلق على السحاب، وتطلق على المطر نفسه، ففي الحديث: «خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم على إثر سماء كانت من الليلة...» والحديث متفق عليه.

قوله تعالى: «فيه ظلماتٌ» أي: معه ظلمات؛ لأن الظلمات تكون مصاحبة له، وهذه الظلمات ثلاث: ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، والدليل على أنها ظلمة الليل قوله تعالى بعد ذلك: « يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ » [البقرة: ٢٠]، وقوله تعالى: « كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ » [البقرة: ٢٠]، وهذا لا يكون إلا في الليل. والثاني: ظلمة السحاب؛ لأن السحاب الكثير يتراكم بعضه على بعض، فيحدُث من ذلك ظلمة فوق ظلمة. والثالث: ظلمة المطر النازل؛ لأن المطر النازل له كثافة تُحدث ظلمةً، هذه ثلاث ظلمات، وربما تكون أكثر، كما لو كان في الجو غبار.

قوله تعالى: « وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ » [البقرة: ١٩] التنوين في

الكل للتفخيم والتهويل - كأنه قيل: فيه ظلماتٌ داجية، ورعدٌ قاصف، وبرق خاطف. [قاله القاسمي في محاسن التأويل].

و«الرعد» هو الصوت الذي نسمعه من السحاب، أما (البرق)، فهو النور الذي يلمع في السحاب، فهؤلاء عندهم ظلمات في قلوبهم- فهي مملوءة ظلمة من الأصل. أصابها صيب- وهو القرآن- فيه رعد، والرعد هو وعيد القرآن، إلا أنه بالنسبة لهؤلاء المنافقين وخوفهم منه كأنه رعد شديد، وفيه برق - وهو وعد القرآن، إلا أنه بالنسبة لما فيه من نور وهدى يكون كالبرق؛ لأن البرق ينير الأرض. (قاله ابن عثيمين).

قوله تعالى: «يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ» [البقرة: ١٩] الضمير في «يجعلون» يعود على أصحاب الصيب، ففيها حذف المضاف، والتقدير: أصحاب الصيب؛ لأنه ليس المشبه به هنا هو الصيب، وإنما المشبه به الذين أصابهم الصيب.

«أصابعهم» أصابع جمع أصبع - قاله النيسابوري في غرائب القرآن- وإنما لم يقل أناملهم مع أنها هي التي تُجعل في الآذان؛ لأن في ذكر الأصابع من المبالغة ما ليس في ذكر الأنامل، ولأن اسم الكل قد يُطلق على البعض، نحو: «فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا» [المائدة: ٣٨]، والمراد إلى الرسغ، وليس بعض الأصابع، كالمسبحة مثلاً يجعلها في الآذان- أولى من بعض حتى يقال: لم ذكر العام والمراد الخاص؟ قال مقاتل: «يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم» [البقرة: ١٩]، يقول: مثل المنافق إذا سمع القرآن صَمَّ على أذنيه كراهةً للقرآن، بمنزلة الذي يجعل أصبعيه في أذنيه من شدة الصاعقة.

قال ابن عثيمين رحمه الله: وقد قيل: إن في الآية مجازًا من وجهين؛ الأول: أن الأصابع ليست كلها تُجعل في الآذان، والثاني: أنه ليس كل الأصبع يدخل في الأذن، والتحقيق: أنه ليس في الآية مجاز، أما الأول: فلأن «أصابع» جمع عائد على قوله تعالى: «يَجْعَلُونَ» فيكون من باب توزيع الجمع على الجمع - أي يجعل كل واحد منهم أصبعه في أذنه، وأما الثاني: فلأن المخاطب لا يمكن أن يفهم من جعل الأصبع في الأذن أن جميع الأصبع تدخل في الأذن، وإذا كان لا يمكن ذلك امتنع أن تُحمل الحقيقة على إدخال جمع الأصبع، بل الحقيقة أن ذلك إدخال بعض الأصبع، وحينئذ لا مجاز في الآية.

على أن القول الراجح أنه لا مجاز في القرآن أصلاً؛ لأن معاني الآيات تُدرك بالسياق، وحقيقة الكلام: ما دل عليه السياق - وإن استُعملت الكلمات في غير أصلها، وبحث ذلك مذكور في كتب البلاغة وأصول الفقه. انتهى كلام ابن عثيمين.

قوله تعالى: «مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ» [البقرة: ١٩]، «من» سببية - أي يجعلونها بسبب الصواعق، و«الصواعق» جمع صاعقة، وهي تصعق- أي تُهلك من أصابته، هذه الصواعق معروفة بآثارها، فهي نار تنطلق من البرق، فإذا أصابت أحدًا أو شيئًا أو حرقته، وغالبًا تسقط على النخيل، وتحرقها، وترى فيها النار والدخان، وأحيانًا تسقط على المنازل وتهدمها؛ لأنها كتلة نارية تنطلق بشدة لها هواء تدفعه أمامها، فيجعلون أصابعهم في آذانهم من هذه الصواعق لئلا يموتوا، ولكنهم لا ينجون منها بهذا الفعل، إلا أنهم كالنعامة إذا رأت الصياد أدخلت رأسها في الرمل لئلا تراه، وتظن أنها إذ لم تره نجت منه، وكذلك الذين يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق لا يسلمون بهذا، إذا أراد الله تعالى أن يصيبهم أصابهم، ولهذا قال الله تعالى: «وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ» [البقرة: ١٩] فلن ينفعهم.

وروى ابن جرير الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم» [البقرة: ١٩]، أي هم في ظلمات ما هم فيه من الكفر والحذر من القتل - على الذي هم عليه من الخلاف والتخويف منكم- على مثل ما وصف من الذي هو في ظلمة الصيب، فجعل أصابعه في أذنيه من الصواعق حذر الموت.

(يكاد البرق يخطف أبصارهم) أي: لشدة ضوء الحق- كلما أضاء لهم مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا، أي يعرفون الحق ويتكلمون به، فهم من قولهم به على استقامة، فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا متحرين. اهـ.

قال ابن عطية في المحرر الوجيز: قال جمهور المفسرين: «مثل الله تعالى القرآن بالصيب؛ لما فيه من الإشكال عليهم، والعمى: هو الظلمات، وما فيه من الوعيد والزجر هو الوعد، وما فيه من النور والحجج الباهرة التي تكاد أن تبهرهم وهو البرق وتخوفهم وتروعهم، وحذرهم هو جعل أصابعهم في آذانهم، وفضح نفاقهم، واشتهار

كفرهم، وتكاليف الشرع التي يكرهونها من الجهاد والزكاة ونحوه هي الصواعق». اهـ.
قوله تعالى: « يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ»: ولما بيّن الله شدة الصوت، وأنهم لفرارهم منه، وعدم تحملهم إياه يجعلون أصابعهم في آذانهم بيّن شدة الضوء عليهم، فقال تعالى: « يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ» [البقرة: ٢٠] أي يقرب أن يخطف أبصارهم- أي يأخذها بسرعة، فتعمى؛ وذلك لقوته وضعف أبصارهم، فالله تعالى شبّههم في كفرهم ونفاقهم بقوم كانوا في مفازة وسواد في ليلة مظلمة أصابهم مطر فيه ظلمات، من صفتها أن الساري لا يمكنه المشيُ فيها، ورعد من صفته أن يضع السامعون أصابعهم في آذانهم من هوله، وبرق من صفته أن يقرب من أن يخطف أبصارهم ويعميها من شدة توهجه.

المعنى الإجمالي

فهذا مَثَل ضربه الله للقرآن، وصنيع الكافرين والمنافقين معه، فالمطر: القرآن؛ لأنه حياة القلوب كما أن المطر حياة الأبدان، والظلمات: ما في القرآن من ذكر الكفر والشرك، والرعد: ما خُوِّفوا به من الوعيد وذكر النار، والبرق ما فيه من الهدى والبيان والوعد وذكر الجنة، فالكافرون يسدون آذانهم عند قراءة القرآن مخافة ميل القلب إليه؛ لأن الإيمان عندهم كفر، والكفر موت، يكاد البرق يخطف أبصارهم أي: القرآن يبهر قلوبهم، وقيل: هذا مثل ضربه الله للإسلام، فالمطرُ: الإسلام، والظلمات: ما فيه من البلاء والمحن، والرعدُ: ما فيه من الوعيد والمخاوف في الآخرة، والبرق: ما فيه من الوعد.
(يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم)، يعني: أن المنافقين إذا رأوا في الإسلام بلاء وشدة هربوا حذرًا من الهلاك، والله محيط بالكافرين: جامعهم، يعني: لا ينفعهم هربُهُم؛ لأن الله تعالى من ورائهم يجمعهم فيعذبهم.
يكاد البرق، يعني: دلائل الإسلام تزعجهم إلى النظر لولا ما سبق لهم من الشقاوة. قوله تعالى: « كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ» [البقرة: ٢٠]، فكأنهم ينتهزون فرصة الإضاءة ولا يتأخرون عن الإضاءة طرفة عين، كلما أضاء لهم - ولو شيئًا يسيرًا- مشوا فيه، وقيل: معناه كلما نالوا غنيمة وراحة في الإسلام ثبتوا وقالوا: إنا معكما، وإذا أظلم عليهم، يعني: إذا رأوا شدة وبلاء قاموا (أي تأخروا) ووقفوا (أو قعدوا) كما قال الله تعالى: « وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ» [الحج: ١١]. قاله البغوي.
قوله تعالى: «وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ» [البقرة: ٢٠] دون أن تحدث الصواعق، ودون أن يحدث البرق؛ لأن الله تعالى على كل شيء قدير، فهو قادر على أن يُذهب السمع والبصر بدون أسباب: فيذهب السمع بدون صواعق، والبصر بدون برق، قال الحسن: «ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم» عقوبة لهم حين أظهروا الإيمان، وأسروا الشرك.
قوله تعالى: « إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ» [البقرة: ٢٠]، فهو سبحانه قدير قادر مقتدر والقدير أبلغ في الوصف من القادر. قاله الزجاجي. وإنما خص هنا تعالى صفته التي هي القدرة بالذكر دون غيرها، لأنه تقدم ذكر فعل مُضمنهُ الوعيد والإخافة، فكان ذكر القدرة مناسبًا لذلك، والله أعلم. [قاله القرطبي].

الفوائد:

١- من فوائد الآيتين: تهديد الكفار بأن الله محيط بهم ؛ لقوله تعالى: «وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ » [البقرة: ١٩].
٢- ومنها: أن البرق الشديد يخطف البصر، ولهذا يُنهى الإنسان أن ينظر إلى البرق حال كون السماء تبرق، لئلا يخطف بصره.
٣- ومنها: أن من طبيعة الإنسان اجتناب ما يهلكه؛ لقوله تعالى: «وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ» [البقرة: ٢٠].
٤- ومنها: إثبات مشيئة الله؛ لقوله تعالى: «وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ» [البقرة: ٢٠].
٥- ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يلجأ إلى الله عز وجل أن يمتّعه بسمعه وبصره؛ لقوله تعالى: «وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ» [البقرة: ٢٠] وفي الدعاء المأثور: «اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا أبدًا ما أحييتنا». أخرجه الترمذي وحسنه الألباني.
٦- ومنها: أن من أسماء الله أنه «قدير» على كل شيء.
٧- ومنها: عموم قدرة الله تعالى على كل شيء، فهو جل وعلا قادر على إيجاد المعدوم، وإعدام الموجود، وعلى تغيير الصالح إلى فاسد، والفاسد إلى صالح، وغير ذلك. والله أعلم.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الأمثال في القرآن

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحلقة الربعة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعدُ:

ففي هذا المقال نتحدث عن المثل الثالث في القرآن، وهو من سورة البقرة من الآية السادسة والعشرين، وهي قوله تعالى: «إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ» [البقرة: ٢٦].

التفسير المفصل

ذكر ابن كثير نقلاً عن السدي في تفسيره عن ابن عباس وابن مسعود وعن ناس من الصحابة لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين يعني قوله تعالى: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا» [البقرة: ١٧]، وقوله: «أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ» [البقرة: ١٩] الآيات الثلاث، قال المنافقون: الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال، فأنزل الله هذه الآية إلى قوله تعالى: «هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ» [البقرة: ٢٧]، وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: لما ذكر الله تعالى العنكبوت والذباب، قال المشركون: ما بال العنكبوت والذباب يُذْكَران؟! فأنزل الله: «إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا» [البقرة: ٢٦].

قوله تعالى: «إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا» [البقرة: ٢٦]، أي: لا يمنعه الحياء من أن يضرب مثلاً حقيرًا ما دام يثبت به الحق، فالعبرة بالغاية.

أما قوله: «أن يضرب مثلاً» فإن معناه: يبين، وفيه قوله سبحانه: «وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ» [إبراهيم: ٢٥]، «وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ» [الروم: ٥٨].

والضرب في اللغة على وجوه: فمنها التبيين، ومنها النوع، تقول العرب أخذ فلان في ضرب من الكلام، أي: نوع منه، ومنها السير، قال الله تعالى: «وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ» [المزمل: ٢٠]، وقال تعالى: «وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ» [النساء: ١٠١]، ومنها الرجل الخفيف اللحم [قال طرفة]:

أنا الرجال الضربُ الذي تعرفونه
خشاش لرأس الحية المتوقد

ومنها الضرب المعروف باليد وغيرها، قال الله تعالى لأيوب: «وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ» [ص: ٤٤]، والعرب تقول: ضربت الذكر عن فلان صفحًا إذا لم تذكره، ومنها الإلزام نحو قوله تعالى: «وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ» [البقرة: ٦١].

«مثلاً»: الأمثال في اللغة: الأشباه والنظائر والصفات.

و«ما» يقولون: إنها نكرة واصفة. أي: مثلاً أي مثل.

«بعوضة»: عطف بيان لـ (ما) أي: مثلاً بعوضة، والبعوض صغار البق، الواحدة بعوضة، سُميت بذلك لصغرها، قاله الجوهري وغيره، وهو من عجيب خلق الله في غاية الصغر شديد اللسع. [قاله صديق حسن خان في فتح البيان].

قوله تعالى: «فما فوقها»: هل المراد بما فوق- أي فما فوقها في الحقارة، فيكون المعنى أدنى

من البعوضة، أو فما فوقها في الارتفاع، فيكون المراد ما هو أعلى من البعوضة؟
الجواب: يمكن أن يكون معنى الآية: «فما فوقها» أي فما دونها؛ لأن الفوقية تكون للأولى وللأعلى، كما أن الوراء تكون للأمام وللخلف، كما في قوله تعالى: «وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا» [الكهف: ٧٩] أي: كان أمامهم.
قوله تعالى: «فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ» [البقرة: ٢٦] أي: المثل الذي ضربه الله، «الحق من ربهم»، ويؤمنون به، ويرون أن فيه آيات بينات.
قوله تعالى: «وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا» [البقرة: ٢٦] لأنه لم يتبين لهم الحق لإعراضهم عنه.
قوله تعالى: «ماذا»: «ما» هنا اسم استفهام مبتدأ، و«ذا» اسم موصول بمعنى «الذي» خبر المبتدأ- أي: ما الذي أراد الله بهذا مثلا.
قوله تعالى: «يضل به كثيرًا»: الجملة استئنافية لبيان الحكمة من ضرب المثل بالشيء الحقير، ولهذا ينبغي الوقوف على قوله تعالى: «مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا» [البقرة: ٢٦]، و«يضل به» أي: بالمثل، «كثيرًا» أي من الناس. وقال صديق حسن خان: «يُضل به كثيرًا» أي من الكفار، وذلك أنهم يكذبونه فيزدادون به ضلالا، «ويهدي به كثيرًا» يعني المؤمنين يصدقون ويعلمون أنه الحق.
قوله تعالى: «وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ» [البقرة: ٢٦] المراد به هذه الآية الكفر.

التفسير الإجمالي:

قال ابن القيم رحمه الله: وهنا جواب اعتراض اعترض به الكفار على القرآن، وقالوا: إن الرب أعظم من أن يذكر الذباب والعنكبوت ونحوها من الحيوانات الخسيسة، فأجابهم سبحانه وتعالى بأن قال: «إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا» [البقرة: ٢٦]، فإن ضرب الأمثال بالبعوضة فما فوقها، إذا تضمن تحقيق الحق وإيضاحه، وإبطال الباطل وإدحاضه كان من أحسن الأشياء، والحسن لا يُستحيا منه، فهذا جواب الاعتراض، فكأن معترضًا اعترض على هذا الجواب أو طلب حكمة ذلك، فأخبر سبحانه وتعالى عما له في ضرب تلك الأمثال من الحكمة، وهي إضلال من شاء وهداية من شاء.
ثم كأن سائلاً عن حكمة الإضلال لمن يُضله بذلك فأخبر سبحانه وتعالى عن حكمته وعدله، وأنه إنما يضل به الفاسق: «ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ» [البقرة: ٢٧]، فكانت أعمالهم القبيحة التي ارتكبوها سببًا لأن أضلهم وأعماهم عن الهدى. [بدائع الفوائد ٤/١٥٤٩].

الفوائد:

١- من فوائد الآية: إثبات الحياء لله عز وجل لقوله تعالى: «إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا» [البقرة: ٢٦]، ووجه الدلالة أن نفي الاستحياء عن الله في هذه الحال دليل على ثبوته فيما يقابلها، وقد جاء ذلك في السنة، كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن ربكم حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفرًا» رواه أبو داود وصححه الألباني.
والحياء الثابت لله ليس كحياء المخلوق، لأن حياء المخلوق انكسار من الشيء الذي يستحيا منه، وهو صفة ضعف ونقص إذا حصل في غير حاجة.
٢- ومن فوائد الآية: أن الله تعالى يضرب الأمثال ؛ لأن الأمثال أمر محسوس يستدل بها على الأمور المعقولة، انظر إلى قوله تعالى: «مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا» [العنكبوت: ٤١]، وهذا البيت لا يقيها من حر، ولا برد ولا مطر ولا رياح، «وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ» [العنكبوت: ٤١]، وقال تعالى: «وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ» [الرعد: ١٤]، إنسان بسط كفيه إلى غدير مثلاً، أو نهر يريد أن يصل الماء إلى

فمه هذا لا يمكن، هؤلاء الذين يمدون أيديهم إلى الأصنام، كالذي يمد يديه إلى النهر ليبلغ فاه، فالأمثال لا شك أنها تقرّب المعاني إلى الإنسان، إما لفهم المعنى، وإما لحكمتها، وبيان وجه هذا المثل.

٣- ومن فوائد الآية: أن البعوضة من أحقر المخلوقات؛ لقوله تعالى: «بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا» [البقرة: ٢٦]، ومع كونها من أحقر المخلوقات فإنها تقضّ مضاجع الجبابرة، وربما تُهلك، ولو سُلطت على الإنسان لأهلكته، وهي هذه الحشرة الصغيرة المهينة.

٤- ومنها: رحمة الله بعباده؛ حيث يقرر لهم المعاني المعقولة بضد الأمثال المحسوسة لتتقرر المعاني في عقولهم.

٥- ومنها: أن القياس حجة؛ لأن كل مثل ضربه الله في القرآن الكريم، فهو دليل على ثبوت القياس.

٦- ومنها فضيلة الإيمان، وأن المؤمن لا يمكن أن يعارض ما أنزل الله عز وجل بعقله، لقوله تعالى: «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ» [البقرة: ٢٦]، ولا يعترضون، ولا يقولون: لم؟ ولا: كيف؟ وإنما يقولون: سمعنا وأطعنا، وصدقنا، لأنهم يؤمنون بأن الله عز وجل له الحكمة البالغة فيما شرع، وفيما يقدر.

٧- ومنها إثبات الربوبية الخاصة؛ لقوله تعالى: «من ربهم» واعلم أن ربوبية الله تعالى تنقسم إلى قسمين: عامة وخاصة، فالعامة هي الشاملة لجميع الخلق، وتقتضي التصرف المطلق في العباد، والخاصة هي التي تختص بمن أضيفت له، وتقتضي عناية خاصة، وقد اجتمعتا في قوله تعالى: «قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ» [الأعراف: ١٢١]، فالأولى ربوبية عامة والثانية خاصة، بموسى وهارون، كما أن مقابل ذلك «العبودية» تنقسم إلى عبودية عامة، كما في قوله تعالى: «إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا» [مريم: ٩٣]، وخاصة كما في قوله تعالى: «تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ» [الفرقان: ١]، والفرق بينهما أن العامة هي الخضوع للأمر الكوني، والخاصة هي الخضوع للأمر الشرعي، وعلى هذا فالكافر عبدٌ لله بالعبودية العامة، والمؤمن عبدٌ لله بالعبودية العامة والخاصة.

٨- ومن فوائد الآية: أن ديدن الكافرين الاعتراض على حكم الله ؛ لقوله تعالى: «وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا» [البقرة: ٢٦]، وكل من اعترض ولو على جزء من الشريعة ففيه شَبَه بالكفار، فمثلاً لو قال قائل: لماذا ينتقض الوضوء بأكل لحم الإبل، ولا ينتقض بأكل لحم الخنزير إذا جاز أكله للضرورة، مع أن الخنزير خبيث نجس؟!

فالجواب: أن هذا اعتراض على حكم الله عز وجل، وهو دليل على نقص الإيمان، لأن لازم الإيمان التام التسليم لحكم الله عز وجل إلا أن يقول ذلك على سبيل الاسترشاد والاطلاع على الحكمة، فهذا لا بأس به.

٩- ومن فوائد الآية: أن لفظ (الكثير) لا يدل على الأكثر لقوله تعالى: «يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا» [البقرة: ٢٦]، فلو أخذنا بظاهر الآية لكان الضالون والمهتدون سواء، وليس كذلك ؛ لأن بني آدم تسعمائة وتسعة من الألف ضالون، وواحد من الألف مهتد، فكلمة (كثير) لا تعني الأكثر، وعلى هذا لو قال إنسان: عندي لك دراهم كثيرة، وأعطاه ثلاثة لم يلزمه غيرها؛ لأن «كثير» يطلق على القليل وعلى الأكثر.

١٠- ومن فوائد الآية: أن إضلال من ضل ليس لمجرد المشيئة، بل لوجود العلة التي كانت سببًا في إضلال الله ذلك العبد؛ لقوله تعالى: «وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ» [البقرة: ٢٦]، وهذا كقوله تعالى: «فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» [الصف: ٥].

١١- ومنها الرد على القدرية الذين قالوا: إن العبد مستقل بعمله لا علاقة لإرادة الله تعالى به؛ لقوله تعالى: «وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ» [البقرة: ٢٦].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

رمضان والدعاء

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعدُ:

فإن شهر الصوم شهر خضوع ومسكنة ودموع، يتقرب فيه المسلم إلى الله عز وجل بأنواع العبادات وأجل القربات من صلاة وصيام ودعاء وصدقة وغيرها. قال بعض السلف: كانوا يدعون الله ستة أشهر أن يبلغهم شهر رمضان، ثم يدعون الله ستة أشهر أن يتقبله منهم.

والصائم ليله ونهاره في عبادة، ويُستجاب دعاؤه في صيامه، وعند فطره، فهو في نهاره صائم صابر وفي ليله طاعم شاكر.

الدعاء عبادة وقربة:

واعلم أن الله سبحانه جعل الدعاء عبادة وقربة، وأمر عباده المؤمنين بالتوجه إليه لينالوا عنده منزلة رفيعة وزلفى، أمر بالدعاء وجعله وسيلة الرجاء، فكل من خلقه يفزع في حاجته إليه، ويعول عند الحوادث والكوارث عليه.

وحقيقته: إظهار الافتقار إليه، والتبرؤ من الحول والقوة، وهو سمة العبودية، واستشعار الذلة البشرية، وفيه معنى الثناء على الله وإضافة الجود والكرم إليه. [كتاب شأن الدعاء للخطابي].

وقد قال صلى الله عليه وسلم: «الدعاء هو العبادة».

فالدعاء شأنه عظيم وأثره كبير، ومعانيه ودلالته واسعة.

فضل الدعاء:

١- قال الله تعالى: «وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ» [غافر: ٦٠].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الدعاء هو العبادة». وقرأ: «وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ» [غافر: ٦٠]. رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وصححه الألباني.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء». رواه الترمذي وابن ماجه وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

ثمرات الدعاء

١- عن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما من مسلم يدعو الله بدعوةٍ ليس فيها إثمٌ ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث؛ إما أن تُعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها». قالوا: إذن نُكثر. قال: «الله أكثر». رواه أحمد والترمذي وحسنه الألباني.

٢- وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن ربكم حييٌ كريمٌ يستحي مِنْ عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفرًا». رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وصححه الألباني.

والدعاء من أقوى الأسباب في دفع المكروه، وحصول المطلوب، وهو من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء، يدافعه ويعالجه، ويمنع نزوله، ويرفعه، أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن.

٣- وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء». رواه أحمد والحاكم وصححه الألباني.

٤- وعن سلمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يردُّ القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر». رواه الترمذي والحاكم

وحسنه الألباني.

وللدعاء مع البلاء ثلاثة مقامات:

أ- أن يكون الدعاء أقوى من البلاء؛ فيدفعه.
ب- أن يكون أضعف من البلاء فيقوي عليه البلاء فيُصاب به العبد، ولكن قد يخففه وإن كان ضعيفًا.
جـ- أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه. [الجواب الكافي لابن القيم ص٤].

شروط الدعاء وموانع الإجابة:

قال ابن القيم في «الجواب الكافي»: «الأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه، لا بحدّه فقط، فمتى كان السلاح سلاحًا تامًّا لا آفة به، والساعدُ ساعدًا قويًا، والمانع مفقودًا، حصلت به النكاية في العدو، ومتى تخلف واحدٌ من هذه الثلاثة، تخلف التأثير، فإن كان الدعاء في نفسه غير صالح، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه، أو كان ثم مانعٌ من الإجابة، لم يحصل التأثير». اهـ.

أما عن شروط الدعاء وموانع الإجابة فهي كما يلي:

أولا: شروط الدعاء:

من أعظم وأهم شروط قبول الدعاء ما يأتي:

الشرط الأول: الإخلاص: وهو تصفية الدعاء والعمل من كل ما يشوبه، وصرف ذلك كله لله وحده لا شريك له، ولا رياء ولا سمعة ولا طلبًا للعرض الزائل، ولا تصنعًا وإنما يرجو العبد وجه الله ويخشى عقابه، ويطمع في رضاه. [مقومات الداعية الناجح لعبدالله القطحاني].

وقد أمر الله تعالى بالإخلاص في كتابه الكريم، فقال تعالى: « قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ » [الأعراف: ٢٩]، وقال تعالى: «فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» [غافر: ١٤].

وقال سبحانه: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ» [البينة: ٥].

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «يا غلام، إني أعلمك كلمات؛ احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله...» الحديث. رواه أحمد والترمذي وقال: حسن صحيح.

وسؤال الله تعالى: هو دعاؤه والرغبة إليه كما قال تعالى: «وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا » [النساء: ٣٢].

الشرط الثاني: المتابعة: وهو شرط في جميع العبادات؛ لقوله تعالى: « قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » [الكهف: ١١٠].

والعمل الصالح هو ما كان موافقًا لشرع الله تعالى ويرادُ به وجه الله سبحانه، فلا بد أن يكون الدعاء والعمل خالصًا لله صوابًا على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم. [تفسير ابن كثير ٣/١٠٩].

وقال تعالى: «وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ » [لقمان: ٢٢].

فإسلام الوجه: إخلاصُ القصد والدعاء والعمل لله وحده، والإحسان فيه: متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته. [مدارج السالكين ٢/٩٠].

لحديث عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو ردّ». [رواه البخاري ومسلم].

الشرط الثالث: الثقة بالله تعالى واليقين بالإجابة:

فمن أعظم الشروط لقبول الدعاء: الثقة بالله تعالى، وأنه على كل شيء قدير ؛ لأنه تعالى يقول للشيء كن فيكون، قال الله سبحانه: «إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ » [النحل: ٤٠]، فالمسلم إذا علم ذلك فعليه أن يدعو الله وهو موقن بالإجابة، لما تقدم، ولحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة». رواه الترمذي وحسنه الألباني.

الشرط الرابع: حضور القلب والخشوع والرغبة فيما عند الله من الثواب، والرهبة مما عنده من العقاب، فقد أثنى الله تعالى على زكريا وأهل بيته فقال تعالى: «إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ »[الأنبياء: ٩٠]، فلا بد للمسلم في دعائه أن يحضر قلبه، وهذا أعظم شروط قبول الدعاء كما قال ابن رجب رحمه الله في «جامع العلوم والحكم»، وقد جاء في حديث أبي هريرة: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلبٍ غافلٍ لاهٍ». أخرجه الترمذي وحسنه

الألباني. وقد أمر الله تعالى بحضور القلب والخشوع في الذكر والدعاء، فقال سبحانه: «وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ» [الأعراف: ٢٠٥].

الشرط الخامس: العزم والجزم والجدُّ في الدعاء: فإن المسلم إذا سأل ربه فإنه يجزم ويعزم بالدعاء، ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الاستثناء في الدعاء، فقد روى البخاري ومسلم: عن أنس رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِذَا دَعَوْتُمْ اللَّهَ فَاعْزِمُوا فِي الدُّعَاءِ، وَلَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ إِنْ شِئْتَ فَأَعْطِنِي فَإِنَّ اللَّهَ لَا مُسْتَكْرِهَ لَهُ. وفي رواية: «فَإِنَّ اللَّهَ لا مُسْتَكْرِهَ لَه».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلَا يَقُلْ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، وَلَكِنْ لِيَعْزِمْ الْمَسْأَلَةَ وَلْيُعَظِّمْ الرَّغْبَةَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ». [أخرجه البخاري ومسلم].

موانع إجابة الدعاء

المانع: لغة: الحائل بين الشيئين.

المانع الأول: التوسع في الحرام: أكلاً وشربًا، ولبسًا وتغذيةً. [جامع العلوم].

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ «يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ»، وَقَالَ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ»، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!».

المانع الثالث: ارتكاب المعاصي والمحرمات: قال ابن رجب: قد يكون ارتكاب المحرمات الفعلية مانعة من الإجابة، ولهذا قال بعض السلف: لا تستبطئ الإجابة وقد سددت طريقها بالمعاصي، ولا شك أن الغفلة والوقوع والشهوات المحرمة من أسباب الحرمان.

المانع الرابع: ترك الواجبات التي أوجبها الله: فكما أن فعل الطاعات يكون سببًا لاستجابة الدعاء فكذلك ترك الواجبات يكون مانعًا من موانع استجابة الدعاء. [جامع العلوم والحكم].

ولهذا جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم هذا المعنى، عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنْ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ. [رواه الترمذي وحسنه].

المانع الخامس: الدعاء بإثم أو قطيعة رحم.

المانع السادس: الحكمة الربانية فقد يمنع الله العبد من الشيء الذي يرغبه ويعطيه أفضل مما سأل.

بعض الأدعية والأذكار المتعلقة بشهر رمضان:

ما يقول إذا رأى الهلال: يقول مستقبل القبلة: «اللَّهُمَّ أَهِلَّهُ عَلَيْنَا بِالْأَمْنِ وَالْإِيمَانِ وَالسَّلَامَةِ وَالْإِسْلَامِ رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ» رواه الحاكم وصححه وأقره الذهبي.

ويقول عند الإفطار: «ذهب الظمأ، وابتلت العروق، وثبت الأجراء إن شاء الله» رواه أبو داود وحسنه الألباني. وهذا أفضله لأنه دعاء النبي صلى الله عليه وسلم ويمكن له أن يدعو به.

وعن معاذ بن زهرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أفطر قال: «اللهم لك صمت، وعلى رزقك أفطرت». رواه أبو داود مرسلاً، وقال الألباني: «له شواهد يتقوى بها».

وكان ابن عمر يقول عند فطره: «اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تغفر لي». رواه أبو داود.

وروى البيهقي عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاث دعوات لا ترد: دعوة الوالد، ودعوة الصائم، ودعوة المسافر». [وصححه الألباني في صحيح الجامع ٣٠٣٢].

قالت عائشة رضي الله عنها للنبي صلى الله عليه وسلم: «أرأيت إن وافقت ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال: قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني». [الترمذي وقال حسن صحيح وصححه الألباني].

وختامًا: ينبغي أن يُختم صيام رمضان بالاستغفار: «كتب عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار يأمرهم بختم شهر رمضان بالاستغفار والصدقة، صدقة الفطر، فإن صدقة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث والاستغفار يُرفع ما تخرّق من الصيام باللغو والرفث».

نسأل الله تعالى أن يتقبل منا ومنكم الصيام والقيام والدعاء. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دراسات قرآنية

الأمثال في القرآن

الحلقة الخامسة

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعدُ:

ففي هذا المقال نتحدث عن مثل آخر من الأمثال في القرآن، وهو من سورة البقرة الآية الرابعة عشرة بعد المائتين، وهي قوله تعالى: « أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ » [البقرة: ٢١٤].

المعنى الإجمالي:

قال ابن القيم في زاد المعاد (١١/٣) وهو يتكلم عن آيات الابتلاء: «فليتأمل العبد سياق هذه الآيات وما تضمنته من العِبَر وكنوز الحِكَم، فإن الناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين؛ إما أن يقول أحدهم: آمنَّا، وإما ألا يقول ذلك، بل يستمر على السيئات والكفر، فمن قال آمنَّا امتحنه ربه وابتلاه وفتنه، والفتنة الابتلاء والاختبار ليتبين الصادق من الكاذب، ومن لم يقل آمنَّا فلا يَحْسب أنه يُعجزُ الله ويفوتُه ويسبقه فإنه إنما يطوي المَراحل في يديه.

وكيف يفر المرء عن ذنبه إذا
كان تُطوى في يديه المراحل

فمن آمن بالرسل وأطاعهم، عاداه أعداؤهم، وآذوه فابتلي بما يؤلمه، وإن لم يؤمن بهم ولم يطعهم عُوقب في الدنيا والآخرة، فحصل له ما يؤلمه، وكان هذا المؤلم له أعظم ألمًا وأدوم من ألم اتباعهم، فلا بد من حصول الألم لكل نفس آمنت أو رغبت عن الإيمان، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداءً ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، والمعرض عن الإيمان تحصل له اللذة ابتداءً ثم يصيرُ إلى الألم الدائم.

والله سبحانه وتعالى ابتلى أولي العزم من الرسل، فلما صبروا مكَّنهم؛ فلا يَظنّ أحد أنه يخلص من الألم البتة، وإنما يتفاوت أهل الآلام في العقول، فأعقلهم من باع ألمًا مستمرًا عظيمًا بألم منقطع يسير، وأشقاهم من باع الألم المنقطع اليسير بالألم العظيم المستمر. اهـ.

وقد حصل من هذا جانب عظيم للصحابة رضي الله عنهم في يوم الأحزاب، كما قال الله تعالى: « إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا » [الأحزاب: ١٠- ١١]، ولما سأل هرقل أبا سفيان: هل قاتلتموه؟ قال: نعم. قال: فكيف كانت الحرب بينكم؟ قال: سجالًا، يُدَال علينا ونُدَال عليه. قال: كذلك الرسل تُبْتَلى ثم تكون لها العاقبة. [تفسير ابن كثير ٣٢٨/١].

التفسير المفصل:

قوله تعالى: «أم حسبتم»، «أم» من حروف العطف، وهي هنا منقطعة بمعنى «بل»، يقدر بعده همزة الاستفهام أي: بل أحسبتم، فهي إذًا للإضراب الانتقالي، وهو الانتقال من كلام إلى آخر، فعلى هذا معنى الاستفهام هنا التقرير والإنكار أي أحسبتم دخولكم الجنة واقعًا، والغرض من هذا التوبيخ تشجيعهم على الصبر وحثهم عليه، وحسب هنا من أخوات ظن، وقد تستعمل في اليقين. [انظر تفسير ابن عثيمين وفتح البيان].

قال ابن عطية في المحرر الوجيز: «أحسبتم دخولكم الجنة خلوًا من أن يصيبكم ما أصاب من قبلكم» ؛ لأن «خلوا» حال، والحال هنا إنما تأتي بعد توفية المفعولين، والمفعولان هما الابتداءُ والخبر قبل دخول حسب، و«البأساءُ» في المال، و«الضراءُ» في البدن، و«خَلَوا» معناه: انقرضوا، أي صاروا في خلاء من الأرض.

وهذه الآية نزلت في قصة الأحزاب حين حصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في المدينة، هذا قول قتادة والسدي وأكثر المفسرين، وقالت فرقة: نزلت الآية تسلية للمهاجرين الذين أصيبت أموالهم بعدهم في بلادهم وفُتنوا هم قبل ذلك. (المحرر الوجيز لابن عطية ٥١٥/١-٥١٦].

قوله تعالى: «أن تدخلوا الجنة»، «الجنة» هي الدار

التي أعدها الله للمتقين فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

قوله تعالى: «ولما يأتكم»، «ولما» حرف نفي، وجزم، وقلب، والفرق بينهما وبين «لم»: أن «لما» للنفي مع توقع وقوع المنفي، و«لم» للنفي دون ترقب وقوعه، مثاله: إذا قلت: «لم يقم زيد» فقد نفيت قيامه من غير ترقب لوقوعه، ولو قلت: «لما يقم زيد»، فقد نفيت قيامه مع ترقب وقوعه، ومنه قوله تعالى: «بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ» [ص: ٨]. [تفسير ابن عثيمين].

و«مثل» معناه: شبه، فالتقدير: أي شبه الذين خلوا، وقوله تعالى: «مستهم البأساء والضراء» بيان لهذا المثل، كأنه قيل، ما ذلك المثل؟ قيل: مستهم البأساء والضراء، فليس لهذه الجملة محل إعراب؛ لأنها تفسير لما قبلها، وفي الآية استدعاء للصبر الذي هو وسيلة النصر كما قال الله تعالى: «أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ» [البقرة: ٢١٤]، أي من الصابرين. «المحرر الوجيز» (٥١٦/١).

وقوله تعالى: «مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟» [البقرة: ٢١٤]، هذه ثلاثة أشياء: «البأساء»: قالوا: إنها شدة الفقر مأخوذة من البؤس، وهو الفقر الشديد، و«الضراء»، قالوا: إنها المرض، والمصائب البدنية، و«زلزلوا» «الزلزلة» هنا ليست زلزلة الأرض، لكنها زلزلة القلوب بالمخاوف والقلق والفتن العظيمة، والشبهات، والشهوات، فتكون الإصابات هنا في ثلاثة مواضع: في المال، والبدن، والنفس. اهـ.

قوله تعالى: «حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ» [البقرة: ٢١٤] أي: استمر ذلك إلى غاية هي قول الرسول ومن معه أي صاحبوه في الإيمان، و(حتى) بمعنى إلى وأن مضمرة أي: إلى أن يقول، وهي غاية لما تقدم من المس والزلزال؛ وذلك لأن الرسل أثبت من غيرهم وأصبر، وأضبط للنفس عند نزول البلايا، وكذلك أتباعهم المؤمنين.

قوله: «مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ» [البقرة: ٢١٤] «متى» ظرف زمان لا ينصرف إلا بجره بحرف والرسول هنا قيل هو محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: شعياء، وقيل: هو كل رسول بعث إلى أمته، وقالت طائفة في الكلام تقديم وتأخير، أي: حتى يقول الذين آمنوا متى نصر الله، ويقول الرسول: «ألا إن نصر الله قريب».

وقال ابن عباس: أخبر الله المؤمنين أن الدنيا دار بلاء، وأنه مبتليهم فيها، وأخبرهم أنه هكذا فعل بأنبيائه وصفوته لتطيب أنفسهم، والمعنى أنه بلغ بهم الجهد والشدة والبلاء ولم يبق لهم صبر، وذلك هو الغاية القصوى في الشدة، فلما بلغ الحال في الشدة إلى هذه الغاية، واستبطئوا النصر قيل لهم: «أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ» [البقرة: ٢١٤] إجابة لهم في طلبهم.

والمعنى هكذا كان حالهم لم يغيّرهم طول البلاء والشدة عن دينهم إلى أن يأتيهم نصر الله، فكونوا يا معشر المسلمين كذلك، وتحملوا الأذى والشدة والمشقة في طلب الحق؛ فإن نصره سبحانه قريب إتيانه لا بعيد، وفيه إشارة إلى أن المراد بالقرب الزماني، وفي إيثار الجملة الاسمية الفعلية المناسبة لما قبلها، وتصديرها بحرف التنبيه والتأكيد من الدلالة على تحقيق مضمونها وتقرر ما لا يخفى. [فتح البيان لصديق حسن القنوجي ٣٠٠/١].

من فوائد الآية:

١- عناية الله عز وجل بهذه الأمة، حيث يسليها بما وقع بغيرها؛ لقوله تعالى: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم» [البقرة: ٢١٤]، وهكذا كما جاء في القرآن جاء في السنة، فالرسول صلى الله عليه وسلم لما جاءه أصحابه يشكون إليه بمكة فأخبرهم: «قد كان من قبلكم يُؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه، وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه». رواه البخاري؛ تثبيتًا للمؤمنين.

٢- من الفوائد: إثبات الجنة.

٣- ومنها: أن الإيمان ليس بالتمني ولا بالتحلي، بل لا بد من نية صالحة وصبر على ما يناله المؤمن من أذى في الله عز وجل.

٤- ومنها: حكمة الله عز وجل؛ حيث يبتلي المؤمنين بمثل هذه المصائب العظيمة امتحانًا حتى يتبين الصادق من غيره، كما قال الله تعالى: «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ» [محمد: ٣١]، فلا يُعرف زيف الذهب إلا إذا أذبناه بالنار، ولا يُعرف طيب العود إلا إذا أحرقناه بالنار، أيضا لا يُعرف المؤمن إلا بالابتلاء والامتحان، فعليك يا أخي بالصبر، قد تُؤذى على دينك، قد يُستهزأ بك، وربما تُلاحَظ وربما تُرَاقب، ولكن اصبر، واصدق وانظر إلى ما حصل من أولي العزم من الرسل.

٥- ومنها: أنه ينبغي للإنسان ألا يسأل النصر إلا من القادر عليه، وهو الله عز وجل؛ لقوله تعالى: «مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ» [البقرة: ٢١٤].

٦- ومنها: أن المؤمنين بالرسل منهاجهم منهاج الرسل، يقولون ما قالوا ؛ لقوله تعالى: «حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ» [البقرة: ٢١٤].

٧- ومنها: تمام قدرة الله عز وجل لقوله تعالى: «أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ» [البقرة: ٢١٤].

٨- ومنها: أن الصبر على البلاء في ذات الله عز وجل من أسباب دخول الجنة؛ لأن معنى الآية: اصبروا حتى تدخلوا الجنة.

١٠- ومنها: تبشير المؤمنين بالنصر ليتقووا على الاستمرار في الجهاد ترقبًا للنصر المبشرين به.

١١- ومنها: الإشارة إلى ما جاء في الحديث الصحيح: «حُفت الجنة بالمكاره». رواه مسلم- لأن هذه مكاره، ولكنها هي الطريق إلى الجنة.

١٢- ومنها: أنه لا وصول إلى الكمال إلا بعد تجرع كأس الصبر؛ لقوله تعالى: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ» [البقرة: ٢١٤].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

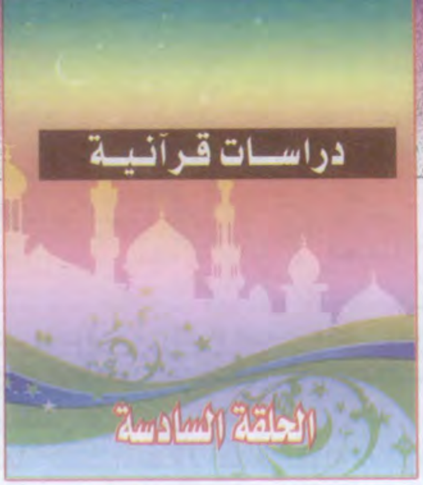

الأمثال في القرآن

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد:

ففي هذا المقال نتحدث عن مثل آخر من أمثال القرآن وهو من سورة البقرة الآية مئتان وستون وواحد، وهي قوله تعالى:

(مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (البقرة:٢٦١).

التفسير المجمل

هذا المثل ضربه الله تعالى لبيان ما للمُنفق من الأجر العظيم، الذي يبدأ من مضاعفته من عشرة أضعاف إلى سبعمائة ضعف، كمثل حبة زرعت فأنبتت سبع سنابل (فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ) فتكون الحبة الواحدة أنتجت سبعمائة حبة.

كل هذا الخير أُعد للمُنفِق شرط أن يبتغي به وجه الله سبحانه وتعالى وأن يخلص في صدقته.

وثواب الإنفاق يتفاوت بحسب نفع الإنفاق ومصارفه، وبحسب طيب المُنفق وزكاته. وعلى المُنفق في سبيل الله أن يتجرد من حالات الإنفاق التي تؤذيه، وتعرضه لغضب الله ولبطلان الأجر والثواب، كالذي لا يعطي ماله إلا بالربا، أو ينفقه كارهًا أو مرائيًا أو يُتبع ما يُنفق منًا وأذى، أو يقدم الرديء من ماله ويحتجز الجيد.

إن هذا المثل الرباني هو صورة حية لمشهد المزرعة الواهبة الطيبة للأرض الزكية، والمُنفقِ ماله الطيب هو المزارع الرابح في الدنيا والآخرة (تفسير آيات الأمثال - لسمير الجميلي)

التفسير المفصل:

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في التفسير:(الإنفاق) معناه البذل، و(أموال) جمع مال، وهو كل ما يتموله الإنسان من أعيان، او منافع، الأعيان كالدراهم، والدنانير، والسيارات، والدور، وما أشبه ذلك، والمنافع كمنافع العين المستأجرة فإن المستأجر مالك للمنفعة.

وقوله تعالى: (في سبيل الله) سبيل: بمعنى طريق، وسبيل الله سبحانه وتعالى هو شرعه، لأنه يهدي إليه، ويوصل إليه، قال تعالى: (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ) [الأنعام ١٥٣] وأضيف إلي الله لسببين:

السبب الأول: أنه هو الذي وضعه لعباده وشرعه لهم

السبب الثاني: أنه مُوصلٌ إليه، ويضاف (السبيل) أحيانًا إلى سالك السبيل، فيقال: سبيل المؤمنين، كما قال الله تعالى: (وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ) [النساء ١١٥] ولا تناقض بينهما، لأنه يضاف إلى المؤمنين باعتبار أنهم هم الذين سلكوه، وإلى الله باعتبار أنه الذي شرعه، وأنه مُوصل إليه.

قوله تعالى: (كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مائَةُ حَبَّةٍ) قال ابن كثير(١/٤١٣): وهذا المَثل أبلغ في

النفوس من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لأصحابها كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة، وقد وردت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف.

قوله تعالى: (وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاء). قال صديق حسن خان في فتح البيان: يحتمل أن يكون المراد يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء أو يضاعف هذا العدد فيزيد عليه أضعافه لمن يشاء لا لكل الناس، وهذا هو الراجح، وقد ورد في القرآن بأن الحسنة بعشر أمثالها.

قوله تعالى: (وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ). أي ذو سعة في جميع صفاته فهو واسع العلم، والقدرة، والرحمة، والمغفرة، وغير ذلك من صفاته، فإنها صفات واسعة عظيمة عليا، و(عليم) أي ذو علم وهو واسع فيه وعلمه شامل لكل شيء جملة وتفصيلاً حاضرًا ومستقبلاً وماضيًا.

من فوائد هذه الآية:

ضرب الأمثال، وهو تشبيه المعقول بالمحسوس لأن ذلك أقرب إلى الفهم.

ومنها: أن القرآن على غاية ما يكون من البلاغة، والفصاحة، لأن الفصاحة هي الإفصاح بالمعنى، وبيانه، وضرب الأمثال من أشد ما يكون إفصاحًا وبيانًا: قال تعالى: (وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ) [العنكبوت ٤٣]

ومنها: فضيلة الانفاق في سبيل الله لأنه ينمو للمنفق حتى تكون الحبة سبعمائة حبة.

ومنها: الإشارة إلى الإخلاص لله في العمل، لقوله تعالى: (فِي سَبِيلِ اللَّهِ) بأن يقصدوا بذلك وجه الله عز وجل.

ومنها الإشارة إلى موافقة الشرع، لقوله تعالى: (فِي سَبِيلِ اللَّهِ) لأن (في) للظرفية، والسبيل بمعنى الطريق، وطريق الله: شرعه، والمعنى: أن هذا الإنفاق لا يخرج عن شريعة الله، والإنفاق الذي يكون موافقا للشرع هو ما ذكره بقوله تعالى: (وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا) [الفرقان ٦٧].

ومعنى إنفاقهم في شرع الله أن يكون ذلك إخلاصًا لله، واتباعًا لشرعه، فمن نوى بإنفاقه غير الله فليس في سبيل الله.

ومنها: إثبات الملكية للإنسان لقوله تعالى (أموالهم) فإن الإضافة هنا تفيد الملكية.

ومنها: وجه الشبه في قوله تعالى: (كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ) فإن هذه الحبة أنبتت سبع سنابل، وشبهها الله بذلك، لأن السنابل غذاء للجسم والبدن، كذلك الإنفاق في سبيل الله غذاء للقلب والروح.

ومنها: أن ثواب الله، وفضله أكثر من عمل العامل، لأنه لو عومل العامل بالعدل لكانت الحسنة بمثلها، لكن الله يعامله بالفضل والزيادة فتكون الحبة الواحدة سبعمائة حبة بل أزيد لقوله تعالى: (وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاء وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ).

ومنها: إثبات الصفات الفعلية - التي تتعلق بمشيئة الله عز وجل لقوله تعالى: (يضاعف) و(المضاعفة) فعل.

ومنها: إثبات مشيئة الله لقوله تعالى: (لمن يشاء)، ودليله قوله تعالى: (وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) [الإنسان ٣٠]

ومنها: أن الله له السلطان المطلق في خلقه، ولا أحد يعترض عليه، لقوله تعالى: (وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاء).

ومنها: إثبات هذين الإسمين من أسماء الله (الواسع) و (العليم) لقوله تعالى: (واسع عليم) وإثبات ما تضمناه من صفة، وهما السعة والعلم.

ومنها: الحث والترغيب في الإنفاق في سبيل الله يؤخذ هذا من ذكر فضيلة الإنفاق في سبيل الله، فإن الله لم يذكر هذا إلا من أجل هذا الثواب فلا بد أن يعمل له.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

دراسات قرآنية

الأمثال في القرآن

المنّ والأذى يُحبِط الصدقة

الحلقة السابعة

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعدُ:

ففي هذا المقال نتحدث عن مثل آخر من الأمثال في القرآن، وهو من سورة البقرة، الآية الرابعة والستون بعد المائتين وهي قوله تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ » [البقرة: ٢٦٤].

المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآية الإخبار بأن المن والأذى يُحبط الصدقة، وهذا دليل على أن الحسنة قد تُحبَط بالسيئة كما في قوله تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ » [الحجرات: ٢]. (الجامع لأمثال القرآن: ص٧٣).

وقد مثّل الله هذا الذي يمن ويؤذي بحسب مقدمة نيته بالذي يخرج ماله ليراه الناس، فيثنوا عليه، وهو لا يؤمن بالله ولا يوقن باليوم الآخر، فمثل ذلك مثل حجر أملس عليه تراب هطل عليه مطر غزير فأزاح عنه التراب، فتركه أملس، لا شيء عليه فكذلك هؤلاء المراؤون تضمحل أعمالهم عند الله، ولا يجدون شيئًا من الثواب على ما أنفقوه، والله لا يوفق الكافرين لإصابة الحق في نفقاتهم وغيرها. (التفسير الميسر ص٤٤) بتصرف.

قال ابن عطية: ثم مثل الله هذا الذي يمن ويؤذي بحسب مقدمة نيته بالذي ينفق رياءً لا لوجه الله، والرياءُ مصدر من الرؤية، كأن الرياء تظاهر وتفاخر بين مَن لا خير فيه من الناس. قال المهدوي: والتقدير: كإبطال الذي ينفق رياءً.

وقوله تعالى: « وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ » [البقرة: ٢٦٤]، يحتمل أن يريد الكافر الظاهر الكفر، إذ ينفق ليقال جواد، وليثني عليه بأنواع الثناء ولغير ذلك، ويحتمل أن يريد المنافق الذي يظهر الإيمان.

ثم مثّل هذا الذي ينفق رياءً بصفوان عليه

تراب، فيظنه الظان أرضًا منبته طيبة، كما يظن قوم أن صدقة هذا المرائي لها قدر أو معنى، فإذا أصاب الصفوانَ وابلاً من المطر انكشف ذلك التراب، وبقي صلبًا، فكذلك هذا المرائي إذا كان يوم القيامة، وحضرت الأعمال، وانكشف سره، وظهر أنه لا قدر لصدقته ولا معنى.

فالمن والأذى والرياءُ يكشف عن النية، فيبطل الصدقة، كما يكشف الوابل الصفا فيذهب ما ظُنَّ أرضًا. [المحرر الوجيز ٢/٦٣].

المعنى المفصل:

قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا»: تصدير الخطاب بالنداء يدل على الاهتمام به؛ لأن النداء يحصل به تنبيه المخاطب، فيدل على العناية بموضوع الخطاب، ولهذا فإن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «إذا سمعت الله يقول: «يا أيها الذين آمنوا» فأرعها سمعك، فإنه خير تُؤمر به، أو شر تُنْهَى عنه». وصدق رضي الله عنه.

قوله « لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم » [البقرة: ٢٦٤]، الإبطال للشيء يكون بعد وجوده، فالبطلان لا يكون غالبًا إلا فيما تم، و«الصدقات» جمع صدقة، وهي ما يبذله الإنسان تقربًا إلى الله.

قوله تعالى: «بالمن والأذى» الباء للسببية، و«المن» إظهار أنك مانٌ عليه، وأنك فوقه بإعطائك إياه، و«الأذى» أن تذكر ما تصدقت به عند الناس فيتأذى به.

قال مقاتل بن حيان: «لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى» هو الرجل يمنَ بصدقته، ويؤذي الذي يتصدق عليه فهو بمنزلة « كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ » [البقرة: ٢٦٤] يعني به المنافق .

فضرب الله لتلك الصدقة عمل المنافق مثلاً، وضرب الله لهما مثلاً أيضًا، فقال: مثلهم «كمثل صفوان عليه تراب» يعني الحجر، «فأصابه وابل» يعني: المطر ترك الحجر نقيًا من التراب. [انظر: تفسير ابن عثيمين ٣/٣١٩- أمثال القرآن للماوردي ص١٤٩].

قوله تعالى: « كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ » [البقرة: ٢٦٤] الكاف هنا للتشبيه، وهي خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: مثلكم كالذي ينفق ماله رئاء الناس، و«رئاء» مفعول لأجله، وهي مصدر راءى يرائي رئاءً ومراءاة، كقاتل يقاتل قتالاً ومقاتلة، وجاهد يجاهد جهادًا ومجاهدة، و«الرياء» فعل العبادة ليراه الناس فيمدحوه عليها.

قال ابن كثير ١/٤١٥ في قوله تعالى: «كالذي ينفق ماله رئاء الناس» أي: لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كما تبطل صدقة من راءى الناس بما ظهر لهم أنه يريد وجه الله، وإنما قصده مدح الناس له، أو شهرته بالصفات الجميلة ليُشْكَر بين الناس، أو يُقال: إنه كريم، ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية، مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه. اهـ.

قوله تعالى: « وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ » [البقرة: ٢٦٤] معطوف على قوله تعالى: «ينفق»، وهذا الوصف ينطبق على المنافق، فالمنافق- والعياذ بالله- لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، ولا ينفق إلا رياء للناس، ومع ذلك لا ينفق إلا وهو كاره، كما قال تعالى: « وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ » [النساء: ١٤٢]، وقال في سورة التوبة: « وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ » [التوبة: ٥٤]، هؤلاء لا ينفقون إلا وهو كارهون، لأنهم لا يرجون من هذا الإنفاق ثوابًا؛ إذ إنه لا إيمان عندهم.

«فمثله»: أي مثل الذي ينفق رئاء الناس أو المانّ المعطي، وقد عدل عن خطاب إلى غيبة ومن جمع إلى إفراد «كمثل صفوان» الصفوان الحجر الكبير الأملس الصلب، وفيه لغتان أشهرهما سكون الفاء والثانية فتحها، قال الأخفش: صفوان جمع صفوانة، وقال الكسائي: صفوان واحد وجمعه صفي، وأصفى وأنكره المبرد، وقال النحاس: يجوز أن يكون جمعًا وأن يكون واحدًا وهو أولى لقوله: «عليه تراب» أي: استقر على الصفوان.

«فأصابه» أي: الصفوان أو التراب «وابل» أي: مطر، والوابل المطر الشديد العظيم القطر، والمطر أوله رش، ثم طش، ثم طل، ثم نضح ثم هطل ثم وبل، يقال وبلت السماء وبلاً، ووبولا اشتد مطرها، وكان الأصل وبل مطر السماء فحذف للعلم به، ولهذا يقال للمطر: وابل، مثل الله سبحانه هذا المنافق بصفوان عليه تراب يظنه الظان أرضًا منبتة طيبة فإذا أصابه

وابل من المطر أذهب عنه التراب، «فتركه» أي: الصفوان يعني بقي «صلدًا» أي: أجرد نقيًا من التراب الذي كان عليه، وأملس ليس عليه شيء من الغبار أصلاً، وكذلك حال هذا المرائي يوم القيامة فإن نفقته لا تنفع ، قال ابن عباس: صلدًا أي يابسًا قاسيًا لا ينبت شيئًا. [تفسير فتح البيان لصديق خان القنوجي ١/٣٨٨ بتصرف].

قوله تعالى: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ [البقر: ٢٦٤]، صح عود واو الجماعة في «يقدرون» على «الذي» في قوله: «كالذي ينفق ماله» لأن «الذي» اسم موصول يفيد العموم، فهو بصيغته اللفظية مفرد، وبدلالته المعنوية جمع؛ لأنه عام، ومعنى «يقدرون» يريد به الذين ينفقون رياءً، أي: لا يقدرون على الانتفاع بثواب شيء من إنفاقهم ذلك، وهو كسبهم- وجاءت العبارة بيقدرون على معنى الذي، وسمى الله عز وجل ما أنفقوا كسبًا باعتبار ظنهم أنهم سينتفعون به.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، قال ابن عطية في المحرر الوجيز ١/٦٥: إما عموم يراد به الخصوص في الموافي على الكفر، وإما أن يُراد به أنه لم يهدهم في كفرهم، بل هو ضلال محض، وإما أن يريد أنه لا يهديهم في صدقاتهم وأعمالهم وهم على الكفر.

وقال ابن عثيمين رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤] أي: لا يهدي سبحانه الكافرين هداية توفيق، أما هداية الدلالة فإنه سبحانه لم يدع أمة إلا بعث فيها نبيًا، لكن الكافر لا يوفقه الله لقبول الحق، و«الكافرين» أي الذين حقت عليهم كلمة الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

من فوائد الآية:

١- من فوائد الآية: تحريم المن والأذى في الصدقة لقوله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

٢- ومنها: بلاغة القرآن، حيث جاء النهي عن المن والأذى بالصدقة بهذه الصيغة التي توجب النفور، وهي: «لا تبطلوا صدقاتكم» فإنها أشد وقعًا من «لا تَمُنُّوا»، ولا تؤذوا بالصدقات.

٣- ومنها: أن المن والأذى بالصدقة يبطل ثوابها لقوله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾.

٤- ومنها: أن المن والأذى بالصدقة كبيرة من كبائر الذنوب . وجه ذلك: ترتيب العقوبة على الذنب يجعله من كبائر الذنوب ، وقد قال شيخ الإسلام في حد الكبيرة: «كل ذنب رُتب عليه عقوبة خاصة، كالبراءة منه، ونفي الإيمان، واللعنة، والغضب، والحد وما أشبه ذلك، وهذا فيه عقوبة خاصة، وهي إبطال العمل، ويؤيد ذلك ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب».

٥- ومنها: أن المن والأذى بالصدقة مناف لكمال الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤] كأنه يقول: «إن مقتضى إيمانكم أن لا تفعلوا ذلك وإذا فعلتموه صار منافيًا لهذا الوصف، ومنافيًا لكماله».

٦- ومنها: تشبيه المعقول بالمحسوس ليقربه إلى الذهن لقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤]. إلخ.

٧- ومنها: تحريم مراءاة الناس بالعمل الصالح، لقوله تعالى: ﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، والتسميع كالمراءاة، والفرق بينهما أن المراءاة فيما يُرى- كالأفعال- والتسميع بما يقال.

٨- ومنها: أن من راءى الناس بإنفاقه ففي إيمانه بالله، وباليوم الآخر نقص، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٦٤]؛ لأن الذي يرائي لو كان مؤمنًا بالله حق الإيمان لجعل عمله لله خالصًا، ولو كان يؤمن باليوم الآخر حق الإيمان لم يجعل عمل الآخرة للدنيا؛ لأن مراءاة الناس قد يكسب بها الإنسان جاهًا في الدنيا فقط، مع أنه لا بد أن يتبين أمره، وإذا تبين أنه مراء نزلت قيمته في أعين الناس: أنت

لا تظن أنك إذا راءيت الناس أنك ستبقى مخادعًا لهم، بل إن الله سبحانه وتعالى سيُظهر ذلك، فما أسرَّ إنسان سريرة إلا أظهرها الله سبحانه على صفحات وجهه وفلتات لسانه.

٩- ومنها: بلاغة القرآن في التشبيه، لأنك إذا طابقت بين المشبه والمشبه به، وجدت بينهما مطابقة تامة.

١٠- ومنها: إثبات كون القياس دليلاً صحيحًا، وجه ذلك: التمثيل والتشبيه، فكل تمثيل في القرآن فإنه دليل على القياس؛ لأن المقصود به نقل حكم هذا المشبه به إلى المشبه.

١١- ومنها: أن الرياء مبطل للعمل، وهو نوع من الشرك، لقوله تعالى في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، مَن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه». رواه مسلم

فإن قصد بعمله إذا رآه الناس أن يتأسى الناس به، ويسارعوا فيه فهي نية حسنة لا تنافي الإخلاص؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم صعد المنبر وقال: «إني صنعت هذا لتأتموا بي، ولتعلموا صلاتي» رواه البخاري ومسلم

وفي الحج كان صلى الله عليه وسلم يقول: «لتأخذوا عني مناسككم». رواه مسلم، وهو داخل في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة». رواه مسلم

١٢- ومن فوائد الآية: الإشارة إلى تحسر هؤلاء عند احتياجهم إلى العمل، وعجزهم عنه؛ لقوله تعالى: « لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا» [البقرة: ٢٦٤]، وعجز الإنسان عن الشيء بعد محاولة القدرة عليه أشد حسرة من عدمه بالكلية، ألم تر إلى قوله تعالى: « أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا» [الواقعة: ٦٣- ٦٥]، وكونه حطامًا ينظرون إليه أشد حسرة من كونه لم ينبت أصلاً، وقوله تعالى: « أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا» [الواقعة: ٦٨- ٧٠]، أجاجًا: أي شديد الملوحة، وكونه بين أيديهم أجاجًا لا يستسيغون شربه أشد مما لو لم يوجد أصلاً، والإنسان العاقل يجعل العمل لله، فالذي يحب أن يخرج للناس في ثوب جميل، لا بأس أن يتجمل ليراه الناس على هذا الحال، لكن لا يصلي ليراه الناس؛ لأن العمل لله يجب أن يكون لله لا يشاركه فيه أحد.

١٣- ومن فوائد الآية: أن من قضى الله عليه بالكفر لا تمكن هدايته؛ لقوله تعالى: «وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ» [البقر: ٢٦٤] ، فإن قلت: كيف تجمع بين هذا وبين الواقع من أن الله سبحانه وتعالى هدى قومًا كافرين كثيرين؟ فالجواب أن من هدى الله لم تكن حقت عليهم كلمة الله، فأما من حقت عليه كلمة الله فلن يُهدى، كما قال تعالى: « إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ» [يونس: ٩٦، ٩٧].

١٤-ومنها: أن المنافق كافر، لقوله تعالى: «وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ» [البقرة: ٢٦٤]، بعد أن ذكر ما يتعلق بصفة المنافق، وهو الذي ينفق ماله رئاء الناس، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، وهذا ينطبق تمامًا على المنافقين، ولا ريب أن المنافقين كفار- وإن تظاهروا بالإسلام-، ولكن هل نعاملهم معاملة الكفار؟

الجواب: لا نعاملهم معاملة الكفار؛ لأن أحكام الدنيا تجري على الظاهر وأحكام الآخرة تجري على الباطن والسرائر، كما قال تعالى: « أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ» [العاديات: ٩- ١٠]، وقال تعالى: «يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ» [الطارق: ٩]، ولأنه لو عُومل الناس في الدنيا على السرائر لكان في ذلك تكليف ما لا يُطاق من وجه، وكان في ذلك الفوضى التي لا نهاية لها من وجه آخر، أما تكليف ما لا يُطاق فلأننا لا نعلم ما في صدور الناس، فلا يمكن أن نحكم عليهم، وأما الفوضى فلأنه يستطيع كل ظالم له ولاية أن يعاقب هذا الرجل، أو يعدم هذا الرجل بحجة أنه مبطن للكفر، ولما استؤذن النبي صلى الله عليه وسلم في قتل المنافقين قال: «لا أقتلهم، لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه» رواه البخاري.

وهذه الفوائد السابقة من كلام العلامة ابن عثيمين رحمه الله بتصرف.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دراسات قرآنية

الأمثال في القرآن الكريم

حال المنفق ابتغاء مرضات الله

الحلقة الثامنة

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعدُ:

ففي هذا المقال نتحدث عن مثل آخر من أمثال القرآن، وهو من سورة البقرة الآية الخامسة والستون بعد المائتين وهي قوله تعالى: «وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» [البقرة: ٢٦٥].

المعنى الإجمالي

قال ابن عطية في «المحرر الوجيز»: من أساليب فصاحة القرآن أنه يأتي فيه ذكر نقيض ما تقدم ذكره، لتستبين حال التضاد بعرضها على الذهن، فلما ذكر الله صدقات القوم الذين لا خلاق لصدقاتهم، ونهى المؤمنين عن مواقعة ما يشبه ذلك بوجه ما، عقب في هذه الآية بذكر نفقات القوم الذين تركوا صدقاتهم وهي على وجهها في الشرع فضرب لها مثلاً.

وتقدير الكلام: ومثل نفقة الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل غراس جنة؛ لأن المراد بذكر الجنة غراسها، أو يقدر الإضمار في آخر الكلام، دون إضمار نفقة في أوله، كأنه قال: كمثل غارس جنة.

وقال الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير» (٥٠/٣): «عطف» «وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ» [البقرة: ٢٦٥] على «كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ» [البقرة: ٢٦٤]؛ لزيادة بيان ما بين المرتبتين من البَوْن، وتأكيدًا للثناء على المنفقين بإخلاص، وتفننًا في التمثيل فإنه قد مثله فيما سلف بجنة أنبتت سبع سنابل، ومثَّله فيما سلف تمثيلاً غير كثير التركيب لتحصل السرعة بتخيّل مضاعفة الثواب، فلما مَثَّل حال المنفق رئاءً بالتمثيل الذي مضى أُعيد تمثيل حال المنفق ابتغاء مرضات الله بما هو أعجب في حسن التخيل، فإن الأمثال تبهج السامع كلما كانت تركيبًا وضمنت الهيأة المشبه بها أحوالاً حسنة تُكسبها حُسنًا ليرى ذلك التحسين إلى المشبه، وهذا من جملة مقاصد التشبيه.

والتثبيت المذكور في الآية «وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ» [البقرة: ٢٦٥] هو تحقيق الشيء وترسيخه، وهو تمثيل يجوز أن يكون لكبح النفس عن التشكيك والتردد، أي: أنهم يمنعون أنفسهم من التردد في الإنفاق في وجوه البر، ولا يتركون مجالاً لخواطر الشحّ، وهذا من قولهم ثبت قدمه أي: لم يتردد ولم ينكص، فإن ترويض النفس على فعل ما يشق عليها لها أثر في رسوخ الأعمال حتى تعتاد الفضائل وتصير لها ديدنًا.

وإنفاق المال من أعظم ما ترسخ به الطاعة في النفس؛ لأن المال ليس أمرًا هينًا على النفس، وتكون «من» على هذا الوجه للتبعيض لكنه تبعيض مجازي باعتبار الأحوال، أي تثبيتًا لبعض أحوال النفس، ويجوز أن يكون تثبيتًا تمثيلاً للتصديق أي تصديقًا لوعد الله وإخلاصًا في الدين ليخالف حال المنافقين، فإن امتثال الأحكام الشاقة لا يكون إلا عن تصديق للآمر بها، أي: يدلون على تثبيت من أنفسهم.

فالإيمان يأمر بالصدقة وأفعال البر، والذي يأتي تلك المأمورات يثبت نفسه بأخلاق الإيمان، وعلى هذا الوجه تصير الآية تحريضًا على تكرير الإنفاق.

ومُثل هذا الإنفاق بجنة بربوة.. إلخ، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من مجموع أشياء تكامل بها تضعيف المنفعة، فالهيئة المشبّهة هي النفقة التي حفّ بها طلب رضا الله والتصديق بوعده هي هيئة

وفرق آخر بين الدَّولة المسلمة والدَّولة العصريَّة: وهو أنَّ الإنسان في الدَّولة العصريَّة ينفذ القانون ما دام في الدَّولة، والرَّقيب عليه هو الدَّولة، وأجهزة الدَّولة، الفرد في الدَّولة المسلمة ينفذ القانون سواء وُجِدَت الدَّولة أم لم توجد، أنفَّذت الدَّولة القانونَ الإسلامي أم لم تُنَفِّذْ، أراقبَت الدَّولة أم لم تراقب؛ لأنَّ الرِّقابة هنا في الدَّولة مزدوجة: رقابة الدَّولة من ناحية، ومراقبة الله- عزَّ وجلَّ- وهي الأهم من رقابة الدَّولة، وبذلك نستطيع أن نفسِّر: لماذا لم يكن فساد عصرنا موجودًا في الدَّولة الإسلاميَّة سابقًا؟

زكاة النقود الورقيَّة:

هذه قواعد عامَّة نرجو أن نفهمها بالنِّسبة للزَّكاة، ونبدأ في الزَّكاة بزكاة النقود الورقيَّة: النقود الورقيَّة لم تكن موجودةً في عصر الرَّسول- صلَّى الله عليه وسلَّم- ففي عصر التَّشريع كانت النقود الموجودة من الذَّهب- وهي الدَّنانير- أو من الفضَّة- وهي الدَّراهم- والرَّسول- صلَّى الله عليه وسلَّم- حدَّد النِّصاب والمقدار؛ فالنِّصاب: مائتا درهم من الفضَّة، ونصاب الذَّهب عشرون دينارً ذهبيًا. النقود بعد هذه تطورت إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه الآن، فكيف نحسب النِّصاب في عصرنا؟ وما مقدار الزَّكاة الآن؟

مقدار الزَّكاة حُدِّدَ أيام الرَّسول- صلَّى الله عليه وسلَّم- وهو (٢,٥٪)؛ أي: ربع العُشْر، ولكن كيف نحسب النِّصاب؟ كيف تعرف أنَّ الرِّيالات أو الجنيهات التي معنا الآن وصلت إلى النِّصاب؟

بالبحث وُجِدَ أنَّ عشرين دينارًا ذهبيًا تَزِنُ خمسة وثمانين جرامًا من الذَّهب، وأنَّ مائتَي درهم من الفضَّة تَزِنُ خمسة وتسعين جرامًا من الفضَّة، فعُرِضَ على مجمع البحوث موضوع النِّصاب: كيف نحدده بالنسبة للعملة الورقيَّة الآن؟ فقال: نحدِّد النِّصاب بالذَّهب؛ لأنه أكثر ثباتًا، فما بلغتْ قيمته عشرين مثقالاً ذهبيًا وَجَبَتْ فيه الزَّكاة.

فلو أنَّ معي ريالات أو جنيهات ؛ كيف أحسب الزَّكاة وأعرف النِّصاب؟ أنظرُ إلى سِعْر الذَّهب: كم ثمن الجرام؟ ثم أنظرُ إلى ما معي: هل أستطيع بهذا المبلغ الذي معي أن أشتري (٨٥) جرامًا من الذَّهب؟

إذا وصل إلى هذا المقدر؛ فقد أصبحتَ من الأغنياء، ووَجَبَت الزَّكاة على هذه النقود.

بعد ذلك نترك الذهب وننظر إلى ما معي؟ كم ريالاً معي؟ الألف نُخرج منه خمسة وعشرين، خمسة آلاف نخرج منها مئة وخمسة وعشرين.. وهكذا، فأنا أَحْسبُ ما معي من الجنيهات - أو أيِّ عملة من العملات- وأخرج عنها (٢,٥٪)؛ هذه زكاةُ النقود.

زكاة الذهب:

أما الذهب الآن: فنصابه هو النِّصاب السابق بلا خلاف، ولكنَّ الذَّهب الآن نراه في أيِّ شيء؟ كنَّا نجده في النقود، والآن لا توجد نقود ذهبيَّة، نراه الآن في حُلِيِّ النِّساء كما كان، وحديثًا أيضًا نراه في حُلِيِّ أُناس ينتسبون إلى الرِّجال، أشكالهم أشكال رجال، ولكنهم يتشبَّهون بالنِّساء؛ فلعنهم الرسول- صلَّى الله عليه وسلَّم- ونراه أيضًا في عصرنا في أوانٍ وملاعقَ وشوَكٍ وتحف، وغير ذلك من سَرَفِ العصر وسَفَهِه.

حليُّ النِّساء:

فأمَّا حليُّ النِّساء: فهي حلالٌ لهنَّ، واختلف الفقهاء هنا في وجوب الزَّكاة عليها، بعضهم قالوا: تَجِبُ زكاتها، لِبْسُها حلالٌ ولكنَّها فيها زكاةٌ، ولَكِنَّ أكثر الفقهاء يرون أنه ما دامت المرأة تلبسها، ولا يزيد ما تلبس عن حدِّ المعقول؛ فلا زكاة فيها، فإذا زادت عن المعقول؛ وَجَبَت فيها الزَّكاة. فالحليُّ التي لا تُلْبَس، أو التي تزيد عن حدِّ المعقول والمعروف، أو التي تشترى بقَصْد الادِّخار تجب فيها الزَّكاة.

والرِّجال الذين خرجوا عن رجولتهم في عصرنا ولبسوا هذه الحليَّ عليهم زكاتُها، وهم آثمونَ ملعونون؛ لأنهم متشبِّهون بالنِّساء، ولأنهم استخدموا الذهب في غير ما يُستخدم له.

والحمد لله رب العالمين.

الجنة الطيبة المكان التي جاءها المطر فزكا ثمرها، وتزايد فأكملت الثمرة، أو أصابها طل فكانت دون ذلك. [التحرير والتنوير، بتصرف].
فمثَّل حال القسمين وأعمالهم بالجنة على الربوة، ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوابل والطل، وكما أن كل واحد من المطرين يوجب زكاء أكل الجنة ونموه بالأضعاف، فكذلك نفقتهم- كثيرة أو قليلة- بعد أن صدرت عن ابتغاء مرضات الله والتثبيت من نفوسهم فهي زاكية عند الله نامية مضاعفة. [الجامع لأمثال القرآن لابن القيم ص٧٧].

المعنى المفصل

«مثل»: مبتدأ، وخبره قوله تعالى: «كَمَثَلِ جَنَّةٍ» [البقرة: ٢٦٥].
«ينفقون»: أي يبذلون.
«ابتغاء مرضات الله»: طلب رضا الله.
«وتثبيتًا»: معطوفة على «ابتغاء»، وقوله تعالى: «من أنفسهم»: «من ابتدائية»، يعني: تثبيتًا كائنًا في أنفسهم لم يحملهم عليه أحد.
ومعنى يثبتونها: يجعلونها تثبت، وتطمئن، أي: لا تتردد في الإنفاق، ولا تشك في الثواب، وهذا يدل على أنهم ينفقون طيبة نفوسهم بالنفقة.
وقال ابن عطية: و«تثبيتًا» معناه: وتيقنًا، أي: أن نفوسهم لها بصائر متأكدة، فهي تثبتهم على الإنفاق في طاعة الله تثبيتًا.
وقيل: على يقين بإخلاف الله عليهم، وقال قتادة: «وتثبيتًا»: وإحسانًا من أنفسهم.
قوله تعالى: «كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ» [البقرة: ٢٦٥] «الجنة»: البستان الكثير الأشجار، وسميت بذلك؛ لأنها تجن من فيها، أي: تستره.
وقال الطاهر ابن عاشور في التحرير (٣/٥٢): والجنة مكان من الأرض ذو شجر كثير بحيث يجن أي: يستر الكائن فيه، فاسمها مشتق من جنَّ إذا ستر، وأكثر ما تطلق الجنة في كلامهم على ذات الشجر المثمر المختلف الأصناف، فأما ما كان مفروشًا نخيلاً بحتًا فإنما يسمى حائطًا.
والمشتهر في بلاد العرب من الشجر المثمر غير النخيل هو الكرم، وثمره العنب أشهر الثمار في بلادهم بعد التمر، فقد كان الغالب على بلاد اليمن والطائف ومن ثمارهم الرمان، فإن كان النخل معها قيل لها جنة أيضًا كما في الآية التي بعد هذه، ومما يدل على أن الجنة لا يُراد بها حائط النخل، قوله تعالى: في سورة الأنعام: «وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ» [الأنعام: ١٤١]، فعطف النخل على الجنات وذكر العريش وهو مما يُجعَل للكرم، هذا ما يُستخلص من كلام علماء اللغة. اهـ. (التحرير والتنوير ٣/٥٢.
قوله تعالى: «بربوة»: بفتح الراء وقرئت أيضًا بالضم، وهي المكان المرتفع، من ربا الشيء إذا زاد وارتفع، كما في قوله تعالى: «فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ» [الحج: ٥]، ومنه الرابية؛ لأن أجزاءها ارتفعت ومنه الربو إذا أصابه نفس في جوفه زائدًا، ومنه الربا، لأنه الزيادة.
قال المفسرون: إن البستان إذا كان في ربوة من الأرض كان أحسن وأكثر ريعًا. [اللباب في علوم الكتاب ٤/٣٩٩].
قال ابن القيم في الجامع لأمثال القرآن: والجنة بربوة- وهو المكان المرتفع- لأنها أكمل من الجنة المستسفلة التي بالوهاد والحضيض، لأنها إذا ارتفعت كانت بمدرجة الأهوية والرياح، وكانت ضاحية للشمس وقت طلوعها واستوائها وغروبها، فكانت أنضج ثمرًا وأطيبه وأحسنه وأكثره؛ فإن الثمار تزداد طيبًا وزكاءً بالرياح والشمس، بخلاف الثمار التي تنشأ في الظلال. وإذا كانت الجنة بمكان مرتفع لم يخش عليها إلا من قلة الشرب.
قوله تعالى: «أصابها وابل» أي نزل عليها وابل، والوابل: المطر الشديد، جنة كهذه بربوة مرتفعة للهواء بائنة ظاهرة للشمس، أصابها وابل، فإن هذه الجنة ستثمر ثمرًا عظيمًا، ولهذا قال الله تعالى: «فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ» [البقرة: ٢٦٥] «الأكل» بمعنى الثمر الذي يؤكل: قال الله تعالى: «أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا» [الرعد: ٣٥] يعني ثمرها الذي يؤكل، و«ضعفين» أي: مضاعفًا وزائدًا.
قوله تعالى: «فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ» [البقرة: ٢٦٥]: الجملة شرطية، الشرط: «إن» وفعل الشرط: «لم يصبها»، و«طل» أي فهو طل، والجملة جواب الشرط، والمعنى: فإن لم يصبها المطر الشديد أصابها طل، وهو المطر الخفيف، ويكفيها عن المطر الكثير؛ لأنها في أرض خصبة مرتفعة بينة للشمس، والهواء، والمثل منطبق: فقد شبَّه هذا الذي ينفق ماله ابتغاء مرضات الله وتثبيتًا من نفسه بهذه الجنة. [تفسير القرآن لابن عثيمين: ٣/٣٢٦- ٣٢٧].
وقال ابن القيم في الجامع لأمثال القرآن: الوابل: وهو دون الطل فهو يكفيها لكرم منبتها وطيب مغرسها، فتكتفي في إخراج بركتها بالطل.

وهذا حال الأبرار المقتصدين في النفقة وهم درجات عند الله.

فأصحاب الوابل أعلاهم درجة، وهم الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًا وعلانية، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وأصحاب الطل مقتصدوهم. اهـ.

قوله تعالى: «وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ» [البقرة: ٢٦٥]: قدم الجار والمجرور- وهو متعلق بـ «بصير» لإفادة الحصر، ومراعاة الفواصل، والحصر هنا إضافي للتهديد؛ لأن الله بصير بما نعمل، وبغيره، فيشمل ما نعمله من الأقوال، ويشمل ما في قلوبنا، قال الله تعالى: «وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥ» [ق: ١٦]. اهـ.

من فوائد الآية من تفسير ابن عثيمين ٣٢٧/٣

١- من فوائد الآية: أنه لا إنفاق نافع إلا ما كان مملوكًا للإنسان؛ لقوله تعالى: «أموالهم»؛ فلو أنفق مال غيره لم يُقبل منه إلا أن يكون بإذن من الشارع، أو المالك.

فإن قال قائل: عندي مال محرم لكسبه، وأريد أن أتصدق به فهل ينفعني ذلك؟

فالجواب: إن أنفقه للتقرب إلى الله به: لم ينفعه، ولم يسلم من وزر الكسب الخبيث؛ والدليل قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا» [صحيح مسلم ١٠١٥]. وإن أراد بالصدقة به التخلص منه، والبراءة من إثمه: نفعه بالسلامة من إثمه، وصار له أجر التوبة منه، لا أجر الصدقة.

ولو قال قائل: عندي مال اكتسبته من ربا فهل يصح أن أبني به مسجدًا، وتصح الصلاة فيه؟

فالجواب: بالنسبة لصحة الصلاة في هذا المسجد هي صحيحة بكل حال؛ وبالنسبة لثواب بناء المسجد: إن قصد التقرب إلى الله بذلك لم يُقبل منه، ولم يسلم من إثمه؛ وإن قصد التخلص سلم من الإثم، وأثيب- لا ثواب باني المسجد- ولكن ثواب التائب.

٢- ومن فوائد الآية: بيان ما للنية من تأثير واشتراطها في قبول الأعمال؛ لقوله تعالى: «ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ» [البقرة: ٢٠٧].

٣- ومنها: أن الإنفاق لا يفيد إلا إذا كان على وفق الشريعة؛ لقوله تعالى: «ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ»؛ وجه ذلك أن من ابتغى شيئًا فإنه لا بد أن يسلك الطريق الموصل إليه؛ ولا طريق يوصل إلى مرضات الله إلا ما كان على وفق شريعته في الكمّ، والنوع، والصفة؛ كما قال تعالى في الكمّ: «وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا» [الفرقان: ٦٧]، وقال تعالى في النوع: «وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ» [الحج: ٣٤]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يقبل الله إلا الطيب» [صحيح مسلم]. وفي الصفة قال الله تعالى: «كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ» [البقرة: ٢٦٤].

٤- ومن فوائد الآية: إثبات رضا الله؛ لقوله تعالى: «مرضات الله»، وهو من الصفات الفعلية.

٥- ومنها: بيان أن تثبيت الإنسان لعمله، واطمئنانه به من أسباب قبوله؛ لقوله تعالى: «وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ» [البقرة: ٢٦٥]؛ لأن الإنسان الذي لا يعمل إلا كارهًا فيه خصلة من خصال المنافقين؛ كما قال تعالى: «وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ» [سورة التوبة: ٥٤].

٦- ومنها: فضل الإنفاق على وجه التثبيت من النفس؛ لأنه يندفع بدافع نفسي؛ لا بتوصية من غيره، أو نصيحة.

٧- ومنها: إثبات القياس؛ لقوله تعالى: «مثل.. كمثل..»، وقد ذكرنا قاعدة فيما سبق أن كل مثال في القرآن سواء كان تمثيليًا، أو إفراديًا، فهو دليل على ثبوت القياس.

٨- ومنها: أنه يحسن في التعليم أن يبين المعقول بالمحسوس؛ لقوله تعالى: «كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ» [البقرة: ٢٦٥]؛ وهذا من البلاغة؛ لأنه يقرب المعقول إلى أذهان الناس.

٩- ومنها: اختيار المكان الأنفع لمن أراد أن ينشئ بستانًا؛ لقوله تعالى: «كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ» [البقرة: ٢٦٥].

١٠- ومنها: بركة آثار المطر؛ لقوله تعالى: «فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ» [البقرة: ٢٦٥]؛ ولهذا وصف الله المطر بأنه مبارك في قوله تعالى: «وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ» [ق: ٩] الآيتين.

١١- ومنها: أنه إذا كان مكان البستان طيبًا فإنه يكفي فيه الماء القليل؛ لقوله تعالى: «فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞ» [البقرة: ٢٦٥].

١٢- ومنها: إثبات علم الله، وعمومه؛ لقوله تعالى: «إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ» [البقرة: ١١٠].

١٣- ومنها: التحذير من مخالفة الله عز وجل؛ لكونه عالمًا بما نعمل. [تفسير ابن عثيمين ٣٢٧/٣].

والله الموفق وهو من وراء القصد.

الحلقة التاسعة

مثال الذي يعمل خيرًا ثم يحبطه

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعدُ:

ففي هذا المقال نتحدث عن مثل آخر من أمثال القرآن، وهو من سورة البقرة؛ الآية السادسة والستون بعد المائتين، وهي قوله تعالى: «أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ» [البقرة: ٢٦٦].

المعنى الإجمالي:

هذا المثل: «أيود أحدكم..» والمثلان السابقان(سبق ذكرهما في حلقتين خلتا)، ثلاثة أمثال ضربها الله سبحانه وتعالى متتالية، في كل واحد منها عبرٌ وعظات لا يستغني عنها كل مؤمن يحبُّ أن يكون حصاد زرعه في الآخرة مثمرًا رضا الله وجنته.

فالمثل الأول: ضربه الله محذرًا من إحباط أجر الصدقات، وضياع ثواب الإنفاق بالمن والأذى، فالذي يفعل ذلك فعمله كعمل الذي ينفق ماله رياءً، ليقال عنه: كريم أو محسن!.. فالمنّ والأذى يُبطل الثواب، والرياء يمنع سبب الثواب.

فالمنفق رئاء الناس لا يؤمن بالله، ولا يبتغي الأجر ليوم القيامة فيكون عمله خالصًا للدنيا، «فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ» [البقرة: ٢٦٤]، أي: فعلُ ذلك المرائي بإنفاقه كمثل الحجر الأملس الذي عليه شيء من التراب يظنه من يراه أرضًا طيبة منبتة.

«فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا» [البقرة: ٢٦٤] أي: فإذا أصابه مطر شديد ذهب عنه ذلك التراب، فيبقى الحجر صلدًا أملس، لا يستقر عليه ماءً، ولا يُنبتُ نباتًا ينتفع به الناس أو الحيوان، كذلك هذا المنفق يظنُ أن أعماله صالحة، فإذا كان يوم القيامة لم يجد أجرًا لعمله ينجيه من العذاب، ولهذا قال الله تعالى: «لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا» [البقرة: ٢٦٤] أي: لا يجدون ثوابًا في الآخرة، فلا ينتفع بشيء منها أصلاً.

«وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» [البقرة: ٢٦٤] أي: لا يهديهم إلى طريق الخير والرشاد.

وأما المثل الثاني: فيخص الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتًا من أنفسهم واثقين مما يفعلون، فهؤلاء مثلهم «كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ» [البقرة: ٢٦٥] أي: مثلهم كالبستان في أرض مرتفعة، كثيرة الشجر، وخصت بالربوة لحسن شجرها وثمرها «أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ» [البقرة: ٢٦٥] أي: أصابها مطر غزير، تأخذ منه ما يكفي، وتطرح الباقي، ولا يؤذيها.

«فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ» [البقرة: ٢٦٥]، وإن لم يصبها مطر غزير أصابها الطل، وهو المطر الخفيف، أو ما يتكاثف ليلاً على الأشجار فترتوي منه، وهي لطيب أرضها وكرمها تؤتي أكلها ضعفين بالوابل والطل.

«وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» [البقرة: ٢٣٤] أي: لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد.

فالمثل الأول: هو القلب الصلد، والمثل الثاني: هو القلب العامر بالإيمان. [تفسير آيات الأمثال للجميلي ص١٨، ١٩].

أما المثل الثالث: فمثل للعبد إذا عمل بطاعة الله ثم أتبعها بما يبطلها ويفسدها من معاصي الله، كانت كالإعصار ذي النار المحرق للجنة التي غرسها بطاعته وعمله الصالح.

فلو تصور العامل بمعصية الله بعد طاعته هذا المعنى حق تصوره وتأمله كما

ينبغي لما سوّلت له نفسه- والله- إحراق أعماله الصالحة وإضاعتها، ولكن لا بد أن يغيب عنه علمه بذلك عند المعصية، ولهذا استحق اسم الجهل؛ فكل من عصى الله فهو جاهل. [الجامع لأمثال القرآن لابن القيم ص٨٢].

وقال ابن القيم في «طريق الهجرتين» (٨٠٦/٢) و«إعلام الموقعين» (٣١٦/٢): «ضرب سبحانه وتعالى المثل لمن عمل بطاعة الله مخلصًا نيته لله، ثم عرض له ما أبطل ثوابه، بالجنة التي هي من أحسن الجنات وأطيبها وأزهاها، ثم سلط عليها الإعصار الناري فأحرقها، فإن هذا نبت له شيء وأثمر له عمله ثم احترق، والأول لم يحصل له شيء يدركه الحريق.

فتبارك من جعل كلامه حياة للقلوب وشفاءً للصدور وهدى ورحمة. اهـ. بتصرف.

قال ابن عباس: هذا مَثَل من أعطي الدنيا والقوة والشباب فلم يعمل حتى انزوت عنه.

ونقل ابن قتيبة رحمه الله في «تأويل مشكل القرآن» ص٣٢٤ عن الكلبي والقتيبي أن المراد بالمثال في هذه الآية هو الكافر والمنافق.

قال ابن عباس : هذا مثل ضربه الله للكافر، كرجل غرس بستانًا وأكثر فيه من الثمر، وكانت معيشته ومعيشة عياله من ذلك البستان فأصابه الكبر، وله ذرية ضعفاء، أي عجزة عن الحيلة، «فأصابها» يعني الجنة، «إعصار فيه نار» فاحترقت الجنة، فلم تكن عنده قوةٌ فيغرس مثل بستانه، ولم يقدم خيرًا فيعود عليه كما لم يجد هذا الكبير عند ولده خيرًا، فيعود على أبيهم، فكذلك الكافر إذا رُدَّ إلى الله تعالى يوم القيامة لا كرَّة له فيستعتب، كما أنه ليس عند هذا الكبير قوة غرس بستانه، فحرم أجره أفقر ما كان إليه، كما حُرمَ هذا نفع بستانه أحوج ما كان إليه حين كَبر سنه (تفسير القرطبي ٣٢٠/٣).

وقال القتيبي: هذا مثل ضربه الله للمنافقين والمرائين بأعمالهم، يقول: يردون يوم القيامة على أعمال قد محقها الله وأبطلها، ووكلهم في ثوابها إلى من عملوا أحوج ما كانوا إلى أعمالهم، وقد ضرب لهم مثلاً في هذا المعنى بعينه، فقال: «كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ» [البقرة: ٢٦٤]، «فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ» [البقرة: ٢٦٤]، ثم ضرب مثلاً للمخلصين: «الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» [البقرة: ٢٦١].

وقال مقاتل: كما أن الشيخ لم تكن له قوة من كبره أن يدفع عن جنته، ولم تستطع ذريته الصغار ذلك، ولم تكن للشيخ قوة أن يغرس مثل جنته ولا لذريته أن يعودوا على أبيهم، كذلك الكافر إذا لقي ربه غدًا لا يجد خيرًا، ولا يدفع عن نفسه عذاب الله. [تفسير مقاتل ٢٢١/١].

قال الحسن: هذا مثل قل والله من يعقله من الناس، شيخ حين كبر سنه وضعف جسمه، وكثر عياله، أفقر ما كان إلى جنته، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت الدنيا عنه ومضت حال بالها (البحر المحيط ٢٣٧/٢).

قال ابن جريج: هذا مثل ضرب للعمل، أن الإنسان يعمل عملاً صالحًا فيكون مثلاً للجنة، ثم يُسيء في آخر عمره، ويتمادى في الإساءة حتى يكون على ذلك، فيكون الإعصار الذي فيه النار المحرقة مثلاً لإساءته التي مات عليها.

وقال الزجاج: هذا مثل ضربه الله لهم في الآخرة، وأعلمهم أن حاجتهم إلى الأعمال الصالحة كحاجة هذا الكبير الذي له ذرية ضعفاء فاحترقت جنته فانقطع، فكذلك من لم يكن له في الآخرة عمل صالح يدخله الجنة فحسرته في الآخرة كحسرة الكبير المنقطع به في الدنيا. [معاني القرآن للزجاج ٣٤٨/١].

المعنى المفصل:

قوله تعالى: «أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ» [البقرة: ٢٦٦] أخرجه مخرج الاستفهام الإنكاري، وهو أبلغ من النفي والنهي، وألطف موقعًا، كما ترى غيرك يفعل فعلاً قبيحًا فتقول: أيفعل هذا عاقل؟ أيفعل هذا من يخاف الله والدار الآخرة؟ (الجامع لأمثال القرآن لابن القيم ص ٨٠).

و«يود» أي يحب، و«الود» خالص المحبة.

فقوله: «أيود أحدكم» بلفظ الواحد لتضمنه معنى الإنكار العام، كما تقول: أيفعل هذا أحد فيه خير؟ وهو أبلغ في الإنكار من أن يقال: أيودون.

وقوله: «أن تكون له جنة من نخيل وأعناب» خصَّ هذين النوعين من الثمار بالذكر؛ لأنهما أشرف أنواع الثمار وأكثرها نفعًا، فإن منهما القوت والغذاء والدواء والشراب والفاكهة والحلو والحامض، ويؤكلان رطبًا ويابسًا ومنافعهما كثيرة جدًا، وقد اختلف في الأنفع والأفضل منهما فرجحت طائفة النخيل،

ورجحت طائفة العنب، وذكرت كل طائفة حجًا لقولها. [مفتاح دار السعادة ٢/١١٧].

وقوله تعالى: «تجري من تحتها الأنهار» جمع الأنهار باعتبار تفرقها في الجنة وانتشارها في نواصيها، إذن يعتبر هذا البستان كاملاً من كل النواحي: نخيل وأعناب، ومياه، وثمرات، وهو أيضا جنة كثيرة الأشجار والأغصان والزروع وغير ذلك.

قوله تعالى: «وأصابه الكبر» أي أصاب صاحب الجنة الكبر، فعجز عن تصريفها والقيام عليها، «وله ذرية ضعفاء» يعني صغارًا، أو عاجزين، فالأب كبير، والذرية ضعفاء- إما لصغرهم، أو عجزهم.

قوله تعالى: «فأصابها» أي: أصاب هذه الجنة «إعصار» أي ريح شديدة، «فيه نار» أي: حرارة شديدة، مر الإعصار على هذه الجنة «فاحترقت» حتى تساقطت أوراقها. وثمراتها، ويبست أغصانها وعروقها، فماذا يكون حال هذا الرجل؟ يكون في غاية ما يكون من البؤس؛ لأنه فقد هذه الجنة في حال الكبر، والذرية الضعفاء، فهو في نفسه لا يكتسب وذريته لا يكتسبون له ولا لأنفسهم، فتكون عليه الدنيا أضيق ما يكون من التحسر.

«كذلك» أي: كما بين ما ذكر من أمر النفقة المقبولة وغيرها.

«يبين الله لكم الآيات» قال ابن عباس: يعني في زوال الدنيا وإقبال الآخرة.

«لعلكم تتفكرون» أي: تعتبرون.

فوائد الآية:

(مستفادة من شرح ابن عثيمين للآية ٣/٣٣٢- ٣٣٣) :

١ - من فوائد الآية: بيان تثبيت المعاني المعقولة بالأمور المحسوسة؛ لأنه أقرب إلى الفهم؛ وجه ذلك أن الله سبحانه وتعالى ضرب مثلاً للمانّ بالصدقة بصاحب هذه الجنة؛ ووجه الشبه سبقت الإشارة إليه.

٢ - ومنها: جواز ضرب المثل بالقول؛ فهل يجوز ضرب المثل بالفعل - وهو ما يسمى بالتمثيل؟

الجواب: نعم، يجوز لكن بشرط ألا يشتمل على شيء محرم؛ ولنضرب لذلك أمثلة للأشياء المحرمة في التمثيل:

أولاً: أن يكون فيه قيام رجل بدور امرأة، أو قيام امرأة بدور رجل؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لعن المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال. (البخاري ٥٨٨٦).

ثانياً: أن يتضمن ازدراء ذوي الفضل من الصحابة، وأئمة المسلمين؛ لأن ازدراءهم واحتقارهم محرم؛ والقيام بتمثيلهم يحط من قدرهم - لا سيما إذا عُلم من حال الممثل أنه فاسق؛ لأن الغالب إذا كان فاسقاً وقد تقمص شخصية هذا الرجل التقي الذي له قدره، وفضله في الأمة، فإن هذا قد يحط من قدره بهذا الذي قام بدور في التمثيلية.

ثالثاً: أن يكون فيه تقليد لأصوات الحيوانات: مثل أن يقوم بدور تمثيل الكلب، أو الحمار؛ لأن الله لم يذكر التشبيه بالحيوانات إلا في مقام الذم، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ﴾ [الجمعة: ٥]، وقوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦] الآيتين؛ وكذلك السنة لم تأت بالتشبيه بالحيوان إلا في مقام الذم، كقول النبي صلى الله عليه وسلم: «الذي يتكلم والإمام يخطب يوم الجمعة كمثل الحمار يحمل أسفاراً» (أخرجه أحمد في المسند ٢٠٣٣ وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده حسن)، وقوله: «العائد في هبته كالكلب يقيء ثم يعود في قيئه»(صحيح البخاري ٢٥٨٩).

رابعاً: أن يتضمن تمثيل دَور الكافر، أو الفاسق؛ بمعنى أن يكون أحد القائمين بأدوار هذه التمثيلية يمثل دَور الكافر، أو دَور الفاسق؛ لأنه يخشى أن يؤثر ذلك على قلبه: أن يتذكر يوماً من الدهر أنه قام بدور الكافر، فيؤثر على قلبه، ويدخل عليه الشيطان من هذه الناحية؛ لكن لو فعل هل يكون كافراً؟

الجواب: لا يكون كافراً؛ لأن هذا الرجل لا ينسب الكفر إلى نفسه؛ بل صور نفسه صورة من ينسبه إلى نفسه، كمن قام بتمثيل رجل طلق زوجته؛ فإن زوجة الممثل لا تطلق؛ لأنه لم ينسب الطلاق إلى نفسه؛ بل إلى غيره.

وقد ظن بعض الناس أنه إذا قام بدور الكافر فإنه يكفر، ويخرج من الإسلام، ويجب

عليه أن يجدد إسلامه، واستدل بالقرآن، وكلام أهل العلم؛ أما القرآن فاستدل بقوله تعالى: « وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ » [التوبة: ٦٥، ٦٦]: وهؤلاء القوم يدّعون أنهم يخوضون، ويلعبون؛ يعني: على سبيل التسلية ليقطعوا بها عناء الطريق؛ ويقول أهل العلم: إن من أتى بكلمة الكفر - ولو مازحاً - فإنه يكفر؛ قالوا: وهذا الرجل مازح ليس جاداً؟

فالجواب أن نقول: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ثلاث جدّهن جدّ وهزلهن جد: النكاح، والطلاق، والرجعة»(سنن أبي داود ١٣٨٤ وصححه الألباني): فلو قال الرجل لزوجته: أنت طالق يمزح عليها فإنها تطلق؛ فهل تقولون: إذا قام الممثل بدور رجل طلق امرأته فإنها تطلق امرأته؟ سيقولون: لا؛ وكلنا يقول: لا؛ والفرق ظاهر؛ لأن المازح يضيف الفعل إلى نفسه، والممثل يضيفه إلى غيره؛ ولهذا لا تطلق زوجته لو قام بدور تمثيل المطلق؛ ولا يكفر لو قام بدوره تمثيل الكافر؛ لكن أرى أنه لا يجوز من ناحية أخرى؛ وهي أنه لعله يتأثر قلبه في المستقبل، حيث يتذكر أنه كان يوماً من الدهر يمثل دور الكافر؛ ثم إنه ربما يعَيَّر به فيقال مثلاً: أين أبو جهل؟! إذا قام بدوره.

ويمكن أن نأتي بدليل على جواز التمثيل؛ وذلك في قصة الثلاثة من بني إسرائيل: الأقرع، والأعمى، والأبرص؛ فالملك أتى الأبرص، والأقرع، والأعمى، وسألهم ماذا يريدون؛ كل ذكر أمنيته؛ فأعطاه الله سبحانه وتعالى أمنيته؛ ثم عاد إليهم المَلَك مرة أخرى؛ عاد إلى الأبرص بصورته، وهيئته - يعني أبرص فقيراً - وقال له: «إني رجل فقير، وابن سبيل قد انقطعت بي الحبال في سفري؛ فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك»(صحيح مسلم ٢٩٦٤)؛ فالملك يمثل دور رجل فقير - وهو ليس بفقير - وأبرص - وليس بأبرص - وكذلك بالنسبة للأقرع، والأعمى؛ فبعض العلماء استدل بهذا الحديث على جواز التمثيل.

فعليه نقول إذا كان التمثيل لا يشتمل على شيء محرم من الأمثلة التي ذكرناها، أو غيرها، فإنه لا بأس به، وليس من الكذب في شيء؛ لأن الكذب يضيف الإنسان الأمر إلى نفسه، فيأتي إليك يقرع الباب؛ تقول: مَن؟ يقول: أنا زيد - وليس هو بزيد؛ فهذا كاذب؛ لكن يأتي إنسان يقول: أنا أمثل دور فلان، ويعرف الناس أنه ليس فلاناً؛ فليس بكذب؛ لكنه إذا نسب القول إلى شخص معيَّن فهذا يحتاج إلى ثبوت هذا القول عن هذا الشخص المعين؛ أما إذا حكى قصة رجل بوصفه - لا بعينه - فليس بكذب. وهذا رأي شيخنا العلامة ابن عثيمين رحمه الله. (تفسير القرآن لابن عثيمين ٣/٣٣٢).

٣ - ومن فوائد الآية: أن الله سبحانه وتعالى يبين لعباده الآيات الشرعية، والكونية؛ كلها مبينة في كتابه سبحانه وتعالى أتم بيان.

٤ - ومنها: الحث على التفكر، وأنه غاية مقصودة؛ لقوله تعالى: «لعلكم تتفكرون»؛ فالإنسان مأمور بالتفكر في الآيات الكونية، والشرعية؛ لأن التفكر يؤدي إلى نتائج طيبة؛ لكن هذا فيما يمكن الوصول إليه بالتفكر فيه؛ أما ما لا يمكن الوصول إليه بالتفكر فيه فإن التفكر فيه ضياع وقت، وربما يوصل إلى محظور، مثل التفكر في كيفية صفات الله عز وجل: هذا لا يجوز؛ لأنك لن تصل إلى نتيجة؛ ولهذا جاء في الأثر: «تفكروا في آيات الله ولا تفكروا في ذات الله»(أخرجه الطبراني في الأوسط ٦٣١٩ وفي سنده ضعف)؛ لأن هذا أمر لا يمكن الوصول إليه؛ وغاية لا تمكن الإحاطة بها، كما قال تعالى: « لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ » [الأنعام: ١٠٣]؛ فلا يجوز لأحد أن يتفكر في كيفية استواء الله عز وجل على العرش؛ بل يجب الكف عنه؛ لأنه سيؤدي إلى نتيجة سيئة؛ إما إلى التكييف، أو التمثيل، أو التعطيل - ولا بد؛ وأما التفكر في معاني أسماء الله فمطلوب؛ لأن المعنى كما قال الإمام مالك - رحمه الله - لما سئل: «الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ » [طه: ٥]: كيف استوى؟ قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

والفوائد السابقة مستفادة من كلام الشيخ ابن عثيمين في تفسير الآية (تفسير القرآن لابن عثيمين ٣/٣٣٢).

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى

الأمثال في القرآن

الحلقة العاشرة

إعداد / مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعدُ:

ففي هذا المقال نتحدث عن مثل آخر من الأمثال في القرآن، وهو من سورة آل عمران، الآية التاسعة والخمسون، والآية الستون، قال الله تعالى: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ) [آل عمران: ٥٩- ٦٠].

المعنى الإجمالي:

يقول جل وعلا (إن مثل عيسى عند الله) في قدرة الله حيث خلقه من غير أب (كمثل آدم) حيث خلقه من غير أب ولا أم ، بل (خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون)، فالذي خلق آدم من غير أب قادرٌ على أن يخلق عيسى بطريق الأولى والأحرى، وإن جاز ادعاء البنوة في عيسى؛ لكونه مخلوقًا من غير أب، فجواز ذلك في آدم بطريق الأولى.

ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل، فدعواه في عيسى أشد بطلانًا، وأظهر فسادًا، ولكن الرب جل جلاله أراد أن يُظهر قدرته لخلقه حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى، ولهذا قال تعالى في سورة مريم: (ولنجعله آية للناس) وقال هاهنا: (الحق من ربك فلا تكن من الممترين) أي: هذا هو القول الحق في عيسى الذي لا محيد عنه ولا صحيح سواه، وماذا بعد الحق إلا الضلال) (انظر: تفسير ابن كثير (١/٣٦٨)، ط:دار الفكر).

المعنى المفصل

قوله تعالى: «إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ » [آل عمران: ٥٩].

قوله تعالى: «إن مثل عيسى» جملة مستأنفة لا تعلق لها بما قبلها تعلقًا صناعيًا بل معنويًا، وقال الطاهر ابن عاشور (في التحرير والتنوير ٣/٢٦٣): «استئناف بياني بُيِّن به ما نشأ من الأوهام عند النصارى عن وصف عيسى بأنه كلمة من الله فضلوا بتوهمهم » ا.هـ فأراد الله أن يزيل هذا التوهم من نفوسهم فضرب لهم هذا المثل.

- وقوله تعالى: «كمثل آدم» قال صديق حسن القنوجي في فتح البيان (١/٤٧٧): «كمثل آدم» في الخلق والإنشاء تشبيه عيسى بآدم في كونه مخلوقًا بغير أب كآدم ولا يقدح في التشبيه اشتمال المشبه به على زيادة وهو كونه لا أم له كما أنه لا أب له، فذلك أمر خارج عن المراد بالتشبيه وإن كان المشبه به أشد غرابة من المشبه وأعظم عجبًا وأغرب أسلوبًا، وعبارة الكرخي هو تشبيه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأوقع في النفس، « ا.هـ

فائدة: قال الماوردي في «أمثال القرآن» (ص١٦٨): وفي الآية دليل على جواز التمثيل، ورد الشيء إلى نظيره في القياس، وإن قل التشابه بينهما.

وقال ابن عثيمين في تفسيره لسورة آل عمران (١/٣٥١) في قوله تعالى: «إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ » [آل عمران: ٥٩]، يعني شأنه- أي شأن عيسى- عند الله عز وجل من غير أب ولا أم- والنصارى يؤمنون بهذا- فما بال النصارى يقولون: كيف خلق الله عيسى بلا أب؟! ما هو إلا ابنه، نعوذ بالله. فقالوا ابن الله جزء منه، ولم يقولوا: إن آدم ابن الله مع أنه لو كان أحد يدعي البنوة في أحد من البشر لكان الأحق بها آدم، لأنه ليس له أم ولا أب.. أما عيسى فله أم، والأم أحد الوالدين فإذا كنا نقول: لا يمكن أن يوجد أحد من أب بلا أم، أو من أم بلا أب ؟! فلنقل: ولا أحد يوجد بدون أم ولا أب، فأنتم أيها النصارى أقررتم بأن آدم ليس ابنًا لله فيلزمكم أن تقروا بأن عيسى ليس ابنا لله، لأن مثل عيسى كمثل آدم.

«خلقه من تراب» خلقه يعني ابتدأ خلقه من تراب، وضمير المفعول في «خلقه» يعود على آدم لأنه مخلوق من التراب، خلقه أي: خلق آدم من تراب، «ثم قال له كن فيكون»، ابتدأ خلقه ثم قال: كن، والأمر هذا لتمام الخلق، وإنما قلنا ذلك لئلا يقول قائل: كيف تكون كلمة: «كن» بعد الخلق؟ لأن الترتيب العقلي يقتضي أن تكون كلمة «كن» قبل الخلق، كن فكان؟

فنقول: إن معنى خلقه أي: ابتدأ خلقه من تراب ثم قال له: كن بشرًا فكان بشرًا، وهل هذا القول: «كن» قدر كوني أو قدر شرعي، والجواب: أنه قدري، والقول القدري لا يتخلف عنه المقول، لأنه أمر حتمي بخلاف القول الشرعي، فإن من الناس من يستكبر عنه ، يقول الله: « وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ » [البقر: ٤٣]، فيقول: لا، لا أقيم الصلاة. أما القول الكوني فإنه لا مرد له: «كن فيكون»، ولم يقل: فكان، على حكاية الحال يعني لما قال: كن فعلاً شرع بالكينونة حتى تمت. اهـ.

فائدة: قال القرطبي: دلت هذه الآية على صحة القياس والتشبيه واقع على أن عيسى خُلق من غير أب كآدم، لا على أنه خلق من تراب، والشيء قد يُشبَّه بالشيء- وإن كان بينهما فرق كبير بعد أن يجتمعا في وصف واحد».ا.هـ.

فائدة: قال الإمام الطبري في تفسيره (٣٢١/٣): «فإن قال قائل: فكيف قال: «كمثل آدم خلقه»، وآدم معرفة، والمعارف لا توصل؟ قيل: إن قوله: «خلقه من تراب» غير صلة لآدم، وإنما هو بيان عن أمر على وجه التفسير عن المثل الذي ضربه، وكيف كان .

وقوله تعالى: «ثم قال له كن فيكون»، فإنما قال: «فيكون» وقد ابتدأ الخبر عن خلق آدم، وذلك خبر عن أمر تقضى.

وقد أخبر الخبر عنه مخرج الخبر عما قد مضى، فقال جل ثناؤه: « خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ » [آل: ٥٩]، لأنه بمعنى الإعلام من الله نبيه أن تكون فيه الأشياء بقوله: «كن»، ثم قال: «فيكون» خبر مبتدأ، وقد تناهى الخبر عن أمر آدم عند قوله: «كن»، فتأويل الكلام إذن: « إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ » [آل عمران: ٥٩].

واعلم يا محمد أن ما قال له ربك: كن فهو كائن.

فلما كان في قوله: «كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون». دلالة على أن الكلام به إعلام نبي الله صلى الله عليه وسلم وسائر خلقه أنه كائن ما كونه ابتداءً من غير أصل ولا أول ولا عنصر، استغنى بدلالة الكلام عن المعنى، وقيل: «فيكون». فعطف بالمستقبل على الماضي على ذلك المعنى، وقد قال أهل العربية: فيكون على الابتداء، ومعناه: كن فكان، فكأنه قال: فإذا هو كائن « ا.هـ من تفسير الطبري.

الفوائد [مستفادة من تفسير ابن عثيمين لسورة آل عمران ٣٥٢/١]:

١- في هذه الآية: «إن مثل عيسى...» بيان إقامة الحجة بمثل ما يحتج به الخصم، لأنه أقام الحجة على النصارى بمثل ما احتجوا به، فقال: إذا قلتم: إن عيسى ابن الله، لأنه خلق بلا أب، فقولوا إن آدم ابن الله، وإلا فأنتم متناقضون.

٢- بيان قدرة الله تعالى حيث خلق آدم من غير أم ولا أب وخلق عيسى من أم بلا أب، وهناك أيضا صنفان آخران من خلق من أب بلا أم وهي حواء، ومن خلق بين أب وأم وهم سائر البشر.

٣- إثبات القياس، من أين يؤخذ «كمثل آدم»، وكل مثل مضروب في القرآن فإنه دليل على ثبوت القياس، لأنه إلحاق المورد بالمضروب، يعني أنك ألحقت الممثل بالممثل به.

٤- إثبات القول للرب عز وجل، لقوله: «ثم قال له».

٥- أن قول الله بصوت مسموع، وبحروف مرتبة، لقوله: «قال له كن»، فسيسمع هذا القول بحرف مرتب.

٦- إثبات صفة الخلق لله (خلقه) والخلق صفة ذاتية أو فعلية؟ فعلية، من الصفات الفعلية لكن جنس الصفات الفعلية ذاتية، لأن الله لم يزل ولا يزال فعّالاً.

٧- أن الله تعالى لا يصدر منه إلا الحق «الحق من ربك».

٨- النهي عن الشك فيما أخبر الله به لقوله: «فلا تكن من الممترين».

٩- جواز التعريض، أو جواز المخاطبة بالتعريض لأن قوله: «فلا تكن من الممترين»، لا يعني أن الرسول يمكن أن يكون منهم ، بل هو تعريض بهؤلاء وأنهم ذوو خلق سيئ، فلا تكن منهم ، وإن كان هو ليس منهم لا باعتبار الواقع ولا المستقبل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الأمثال في القرآن

مثل ما ينفق الكافر في الدنيا

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعدُ:

ففي هذا المقال نتحدث عن مثل آخر من الأمثال في القرآن وهو من سورة آل عمران، الآية السادسة عشر بعد المائة والسابعة عشر بعد المائة، قال الله تعالى: «إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» [آل عمران: ١١٦- ١١٧].

المعنى الإجمالي:

قال ابن القيم في «الجامع لأمثال القرآن» (ص٩٠):

هذا مثل ضربه الله تعالى لمن أنفق ماله في غير طاعته ومرضاته، فشبَّه سبحانه ما ينفقه هؤلاء من أموالهم في المكارم والمفاخر وكسب الثناء وحسن الذكر لا يبغون به وجه الله، وما ينفقونه ليصدوا به عن سبيل الله واتباع رسله عليهم الصلاة والسلام؛ بالزرع الذي زرعه صاحبه يرجو نفعه وخيره فأصابته ريح شديدة البرد جدًا يهلك بردها ما يمر عليه من الزرع والثمار، فأهلكت ذلك الزرع وأيبسته.

المعنى المفصل:

قوله تعالى: «إن الذين كفروا» قال ابن عثيمين في تفسير آل عمران ٢/٨٦: «إن الذين كفروا» يشمل كل من كفر بالله من يهودي أو نصراني أو شيوعي أو دهري أو مسلمٍ ارتد، المهم أن كل من كفر بالله فهذا حكمه.

فائدة (مستفادة من شرح ابن عثيمين): والكفر ذَكَر أهل العلم أنه قسمان: كفر مخرج عن الملة، وكفر غير مخرج عن الملة، وعليه يتنزل قول ابن عباس في قوله: «وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ» [المائدة: ٤٤]، قال: كفر دون كفر، ومن أمثلة هذا النوع أعني الذي لا يُخرج من الملة قول النبي صلى الله عليه وسلم: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر» رواه البخاري ومسلم.

فإن قتال المسلم ليس بكفر أي: ليس بكفر مخرج عن الملة ولكنه كفر دون كفر؛ لأنه لا أحد يقدم على قتل المسلم إلا الكافر، فإذا أقدم المسلم على قتل أخيه المسلم فقد أتى بخصلة من خصال الكفر، والدليل على أن قتال المسلم ليس بكفر مخرج من الملة قوله تعالى: «وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ» [الحجرات: ٩]، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت». [رواه مسلم]. ولها أمثلة. المهم أن هذا كفر أصغر لا يُخرج من الإسلام، وأما الكفر الأكبر فهو الكفر الذي يُخرج من الإسلام مثل قوله تعالى: «مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّ

بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا» [النحل:١٠٦].

وقال ابن عطية: وقال البغوي (في معالم التنزيل ٢٦٩/١): في قوله: «لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ» [آل عمران :١٠] أي: لا تدفع أموالهم بالفدية وأولادهم بالنصرة من الله شيئا، أي: من عذاب الله، وخصهما بالذكر لأن الإنسان يدفع عن نفسه تارة بفداء المال وتارة الاستعانة بالأولاد.

«أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ» [الأعراف:٣٦] وإنما جعلهم من أصحابها لأنهم أهلها لا يخرجون منها ولا يفارقونها، كصاحب الرجل لا يفارقه. اهـ. البغوي.

فـ «أصحاب النار» أي: أهلها الملازمون لها، «وهم فيها خالدون» أي: ماكثون. نسأل الله السلامة.

قوله: «مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ» [آل عمران: ١١٧].

قال ابن عثيمين رحمه الله: «هذا تشبيه تمثيلي، بمعنى أن تشبّه الهيئة بالهيئة، يكون المشبه شيئًا مؤلفًا من عدة أمور، والمشبه به كذلك يكون شيئًا مؤلفًا من عدة أمور، فيسمى عند البلاغيين تشبيهًا تمثيليًا،

«كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ» الصورة الآن: ريح شديدة فيها برودة عظيمة ولها صرير من شدتها أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم، فالتشبيه مركب الآن من ريح شديدة باردة أصابت حرث قوم يعني: زرعهم.

وقوله: «كمثل ريح» قال الطاهر ابن عاشور في «التحرير والتنوير» (٨٥/٢) هو من آيات الخالق وعظيم قدرته؛ لأن هبوب الريح وركودها آية، واختلاف مَهَابِّها آية، فلولا الصانع الحكيم الذي أودع أسرار الكائنات لما هبت الريح أو لما ركدت، ولما اختلفت مهابها، بل دامت من جهة واحدة، وهذا موضع العبرة. اهـ

«فيها صرٌ»: قال ابن عطية: الصِّرُّ: البرد الشديد المحرق لكل ما يهب عليه، وهو معروف، قال ابن عباس وجمهور المفسرين: الصرُّ: البرد، وذهب الزجاج وغيره إلى أن اللفظة من التصرير من قولهم: صرَّ الشيء، ومنه الريح الصرصر، قال الزجاج: فالصرّ: صوت النار التي فيها الريح. اهـ.

قوله: «أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ»: تنبه على أن سبب إصابتها لحرثهم هو ظلمهم فهو الذي سلط عليهم الريح المذكورة حتى أهلكت زرعهم وأيبسته ، فظلمهم هو الريح التي أهلكت أعمالهم ونفقاتهم. [انظر: تهذيب التفسير وتجريد التأويل ٤٥/٣-٤٨].

«الحرث» قال الطاهر ابن عاشور: والحرث أصله مصدر حرث الأرض إذا شقّها بآلة ليزرع فيها أو يغرس، وأطلق هذا المصدر على المحروث فصار يطلق على الجنات والحوائط وحقول الزرع.

«ظلموا أنفسهم» أي: استحقوا أن يعذّبهم الله عز وجل بهذه الريح فأهلكته، فإذا هبت الريح العاصفة الباردة القوية انتقامًا من بني آدم فإنها سوف تُهلك هذا الحرث.

ووجه الشبه ظاهر؛ لأنهم سلطوا على أموالهم تسليطًا عظيمًا لكن لم ينتفعوا بهذا التسليط، وضاعت هباءً كما قال الله تعالى: « إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ» [الأنفال: ٣٦].

هذه حال الكفار إذا أنفقوا أموالهم لن ينتفعوا بها إطلاقًا، كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته.

قوله: «وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون» قال في التحرير والتنوير: الضمائر فيه عائدة على الذين كفروا، والمعنى أن الله لم يظلمهم حين لم يتقبل نفقاتهم، بل هم تسببوا في ذلك؛ إذ لم يؤمنوا لأن الإيمان جعله الله شرطا في قبول الأعمال، فلما أعلمهم بذلك وأنذرهم لم يكن عقابه بعد ذلك ظلمًا لهم، وفيه إيذان بأن الله لا يخلف وعد من نفى الظلم عن نفسه.

وهكذا يتقرر: أن لا جزاء على بذل، وأن لا قيمة لعمل إلا أن يرتبط بمنهج الله، وإلا أن يكون باعثه الإيمان بالله سبحانه وتعالى.

من فوائد هاتين الآيتين الكريمتين [مستفادة من تفسير ابن عثمين ٩٠/٢]:

١ . بيان أن الكفار مهما بلغوا في القوة عدداً ومدداً فإن قوتهم لن تغنيهم من الله شيئاً، عدداً لقوله: «أولاد» ومدداً لقوله: «أموال»، مهما كثرت قوتهم عدداً ومدداً فإنها لن تغني عنهم من الله شيئاً.

٢ . تمام قدرة الله وسلطته على العباد حيث إن الكفار العتاة لا يستطيعون أن يدفعوا شيئاً بأموالهم وأولادهم مما قضاه الله عز وجل، فإن قال

قائـل: مفهوم الآية أن المؤمنـين تغني عنهم أموالهم وأولادهـم مـن الله شـيئاً، قلنـا: هذا غير مـراد؛ لأن الآية سـيقت فـي الرد علـى الكفار الذيـن يفتخرون بأموالهم وأولادهـم، فبيّن الله أن أموالهم وأولادهم لا تغنـي عنهم من الله شـيئاً، أمـا المؤمنون فقد قال تعالـى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ» [المنافقـون: ٩]، ولا أحـد ينفعـه مالـه وولـده إلا أن يكون عوناً له على طاعة الله.

٣. أن الكفار في النار؛ لقوله تعالى: «وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ».

٤. أنهـم مخلـدون فيها؛ لقوله: «هُمْ فِيهَـا خَالِدُونَ»، والجملة اسـمية تدل على الـدوام والثبوت، فإن قال قائل: هل هذا الخلود أبدي أم له غاية؟

فالجواب: أنه أبدي وليس له غاية، ودليل ذلك في كتاب اللـه في ثلاث آيات منه في النسـاء والأحزاب والجن، ففي النساء يقول الله تعالى: «إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا» [النساء: ١٦٨، ١٦٩] وفي سـورة الأحزاب يقول تعالـى: «إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا» [الأحزاب: ٦٤، ٦٥]، وفي سورة الجن: «وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِيـنَ فِيهَا أَبَدًا» [الجن: ٢٣]، وليس بعد هذه الآيات قول يُقال، بل لو قاله قائل فقوله مردود عليه؛ لأن هذا أمر غيبي لا يُعلم إلا من قبل الشرع والوحي، والوحي كما ترون نزل بأنهم خالدون فيهـا أبداً، وإذا جاء النص فلا قياس، فمن ادَّعى أنهم يخلدون فيها إلى أمد فإنه لولا تأويله لكان أمره خطيراً جداً، لكنه تأوّل واشتبهت عليه بعض الآيات، لأن ظاهر هذا القول تكذيب القرآن، والأمر خطير جداً، ولكنه صدر من أناس نعلم نصحهم لكتاب الله ولسنة نبيه ولأئمة المسلمين وعامتهم على وجه تأولـوا فيه، والله يغفر لهم تأويلهم، لكن بالنسـبة للعقيدة التي بين الإنسان وبين ربّه إذا تبين له خطأ عالم من العلماء وجب عليه مخالفته، أمّا بالنسبة للعالم فنرجو له المغفرة والرحمة إذا علم بالنصح للأمة لأنه غير معصوم، والعصمة في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

٥. إثبـات القيـاس؛ لقوله: «مَثَلُ مَـا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ»، ووجه ذلك: أن المثل إلحاق للأصل بالفرع، إلحاق للمشـبه بالمشبه به، وهذا هو أصـل القيـاس، إلحـاق فـرع بأصـل في حكـم لعلة جامعـة، فـكل مثال ضربه الله في القـرآن ففيه دليل على القياس إذ إنه إلحاق المشـبه بالمشبه به، وعليه يكون في هذه الآية إثبات القياس.

٦. حسن أو تمام بلاغة القرآن، وذلك بقياس الغائب علـى الشـاهد، ووجهـه أن الريـح التـي فيهـا صِرٌّ وأصابـت حـرث قوم ظلموا أنفسـهم كل يعرف أنها مدمـرة ومهلكة، فكذلك أعمال الكافرين هالكة لا خير فيهـا؛ لأن الكفـر مدمر لهـا، «وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ» [التوبـة: ٥٤].

٧. أن الكافـر لـن ينتفع بما عمل في الآخرة، ووجهه أنـه إذا هلـك مـا عمله وزال فإنـه لن ينفعـه لكن قد ينفعـه فـي الدنيا، فيدفـع الله عنه به مـن البلاء ما يدفـع، أو يحصل مـن الخير الذي يرجوه ما يحصل بسبب الإنفاق الذي أنفقه من ماله.

٨. انتفاء الظلم عن الله؛ لقوله: «وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ».

٩. إثبـات أن اللـه تعالـى موصـوف بالنفي كما هو موصـوف بالإثبات. وصـف الله بالإثبـات كثير في القـرآن، ووصفه بالنفي أقل لكنه موجود، هذا النفي الذي وصف الله به نفسه هل هو نفي محض مجرد؟ لا، بـل هو نفي متضمـن لثبوت، وهو كمال ضد ذلك الشـيء، فـإذا قـال اللـه عـن نفسـه: «وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ» [فصلـت: ٤٦] قلنـا: لكمال عدلـه. وإذا قال: «وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ» [البقـرة: ١٤٤] قلنـا: لكمـال مراقبته. وإذا قال: «وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ» [ق: ٣٨] قلنا: لكمال قوته وقدرته، وهلمَّ جرا، لا يمكن أن يوجد في صفات اللـه نفي محض بل هو نفي متضمن لثبوت ضـده على وجه الكمال، يقول العلمـاء رحمهم الله: ولا بـد من هذا التقدير إثبات كمال الضد؛ لأن مجرد النفـي إن كان لعـدم القابلية فلا مـدح فيه، وإن كان للعجز المنفي فهو نقص.

لو قلنا: إن الله لا يظلم لأنه لا يسـتطيع أن يظلم، لا شـك أنه نقص، إذن فالقاعدة فيما وصف الله به من النفـي أنه ليس نفياً محضـاً بل هو متضمن لإثبات الكمال، الكمال ضد ذلك المنفي.

١٠. أن نفس الإنسـان عنـده أمانـة يلحقهـا ظلمُه وغشـمُه، ويلحقها بره وإحسـانه، فيجـب أن يرعى هـذه الأمانة حقها، وإذا كان يجب على الإنسـان أن يرعـى الأمانـة فـي ولده وأهلـه ففي نفسـه من باب أولـى، ولهـذا قـال تعالـى: «وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ» [البقرة: ١٩٥] هـذه وصية منه تعالى لنا بأنفسـنا وقـال: «يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ» [النسـاء: ١١] فأوصانـا اللـه بأولادنـا وصيـة منـه لنـا بأولادنا، والولد بضعة من أبيه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

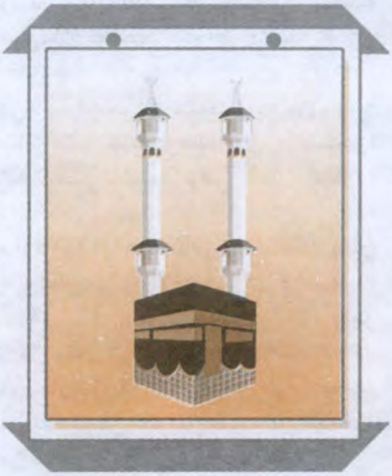

الأمثال في القرآن

«مثل المكذب بآيات الله تعالى»

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعدُ:

ففي هذا المقال نتحدث عن مثل آخر من الأمثال في القرآن وهو من سورة الأنعام الآية التاسعة والثلاثون وهي قوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) [الأنعام: ٣٩].

المعنى الإجمالي:

قال القاسمي في محاسن التأويل (٢٣٠٩/٦): في قوله تعالى: «وأما الذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات» أي: مثلهم في جهلهم، وعمى فهمهم، وسوء حالهم، كمثل الصم (جمع أصم وهو الذي لا يسمع، والبكم (جمع أبكم وهو الذي لا يتكلم)، وهم مع ذلك في ظلمات لا يبصرون، فكيف يهتدي مثلهم إلى الطريق أو يخرج مما هم فيه؟!

وقد كثر تشبيههم بذلك في التنزيل؛ إعلامًا ببيان كمال عراقتهم في الجهل، وانسداد باب الفهم والتفهيم بالكلية، ثم أشار إلى أنهم من أهل الطبع بقوله: «مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ» أي: فهو المتصرف في خلقه بما يشاء، فمن أحب هدايته وفقه بفضله وإحسانه للإيمان، ومن شاء ضلالته تركه على كفره، «ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور». اهـ. القاسمي.

وقال ابن كثير في تفسير الآية: «والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات» أي: مثلهم في جهلهم، وقلة علمهم، وعدم فهمهم، كمثل أصم، وهو الذي لا يسمع، أبكم وهو الذي لا يتكلم، وهو مع هذا في ظلمات لا يبصر، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق؟!

المعنى التفصيلي:

قال ابن عثيمين في تفسير سورة الأنعام ص٢١٠: قوله: «والذين كذبوا بآياتنا» هذه الجملة معطوفة عطف جمل، أي: قالوا إنها كذب ولم يصدقوا بها، جاءوا للآيات الكونية، وقالوا: هذه سحر، وكما قال الله عز وجل عن قريش: (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ) [القمر: ١، ٢]، فكذبوا بالآيات الكونية، وكذبوا كذلك بالآيات الشرعية، ووصفوا الرسل بالكَذبة وبالشعراء وبالكهنة وبالمجانين وبالمسحورين، وما أشبه ذلك، وهذا تكذيب بالآيات الشرعية.

هؤلاء الذين كذبوا بآيات الله «صم وبكم في الظلمات»، فلهم ثلاثة أحوال:

«صم» بآذانهم لا يسمعون الكتاب سماع انتفاع، فانسد طريق الحق عنهم من جهة السماع.

«وبكم» جمع أبكم وهو الذي لا ينطق فلا ينطقون

بالحق، ولكنهم ينطقون بالباطل.

«في الظلمات» لا يبصرون، الظلمات محيطة بهم من كل جانب؛ لأن «في» تدل على الظرفية، والظرف محيط بمظروفه، فانسدت عليهم أبواب العلم والمعرفة: السمع والبصر والنطق، والعياذ بالله، وفي هذا قال الله عز وجل في سورة البقرة: « صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ».

وقال صديق حسن القنوجي في فتح البيان (٢/٣٧٠): «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا» أي: بالقرآن (صم وبكم) أي لا يسمعون بأسماعهم، ولا ينطقون بألسنتهم، نزلهم بمنزلة مَن لا يسمع ولا ينطق؛ لعدم قبولهم لما ينبغي قبوله من الحجج الواضحة والدلائل الصحيحة.

وقال أبو علي: يجوز أن يكون صممهم وبكمهم في الآخرة.

«في الظلمات» أي في ظلمات الكفر والجهل والحيرة والعناد والتقليد؛ لا يهتدون لشيء مما فيه صلاحهم، والمعنى كائنين في الظلمات التي تمنع من إبصار المبصرات، فضموا إلى الصمم والبكم عدم الانتفاع بالأبصار؛ لتراكم الظلمة عليهم، فكانت حواسهم كالمسلوبة التي لا يُنتفع بها بحال.

وقال الشيخ ابن عثيمين في تفسير قوله تعالى: (مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) [الأنعام: ٣٩]: «من يشأ الله يضلله» الجملة شرطية فعل الشرط «يشأ»، وجوابه «يضلله»، أي: من يشأ الله إضلاله يضلله؛ لأن الأمر أمرُه عز وجل، لا معقِّب لحكمه، ولا اعتراض عليه، ولا يُسأل عما يفعل، فنسأل الله أن يهدينا فيمن هدى.

«يضلله» فيعمى عن الحق ولا يصل إليه.

قوله: « وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ »، ونقدر هنا «ومن يشأ» هدايته «يجعله»، أي: يُصيره على «صراط مستقيم»، أي: لا عوج فيه وهو الإسلام.

قال القرطبي في تفسيره (٦/٢٧٢): «من يشأ الله يضلله» دل على أنه شاء ضلال الكافر وأراده لينفذ فيه عدله، ألا ترى أنه قال: «ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم» أي: على دين الإسلام لينفذ فيه فضله، وفيه إبطال لمذهب القدرية، والمشيئة راجعة إلى الذين كذبوا، فمنهم من يضلله، ومنهم من يهديه.

من فوائد الآية:

الفائدة الأولى: بيان حال الذين كذبوا بآيات الله، وأنه لا سبيل إلى هدايتهم؛ لأنهم صم لا يسمعون الحق سماع انتفاع، وكذلك هم في الظلمات، وأنهم لا ينطقون بالحق.

ولو قال قائل: الذين يحرفون الآيات هل يدخلون في قوله تعالى: «والذين كذبوا بآياتنا»؟

والجواب: التحريف بمعنى التأويل، فإذا كان تأويل إنكار فربما يدخلون في هذه الآية، أما إذا كان تأويلاً عن اجتهاد فهم لا يدخلون في هذه الآية، وليسوا بمعاندين، والتأويل يُقبل إذا كان اللفظ يحتمله، وهناك ما يرجح المعنى الآخر، لكن إذا كان لا يحتمله اللفظ فهم معاندون فيشبهون الذين جحدوا، وهل الذين لا يعملون بهذه الآيات يدخلون في الذين كذبوا بآيات الله؟!

الجواب: لا يدخلون، هؤلاء مستكبرون.

الفائدتان الثانية والثالثة: أن من شاء الله هدايته اهتدى، وأن من شاء إضلاله ضل، ويتفرع على هذه الفائدة أن يلجأ الإنسان إلى ربه تبارك وتعالى بطلب الهداية، والاستعاذة من الغواية؛ لأن الأمر بيد الله، فإن قيل: وهل هذه المشيئة مشيئة مجردة بدون حكمة، أو أنها مشيئة مقرونة بالحكمة؟

فالجواب: أنها مشيئة مقرونة بحكمة، وهذا هو المتعين؛ لأن جميع أفعال الله- تبارك وتعالى- وأحكامه كلها مقرونة بالحكمة، انظر في أحكام الله، قال الله تعالى في آية المواريث: (فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) [سورة: ٦٠]، وقال تعالى في الأمور القدرية: (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) [الإنسان: ٣٠]، فلا مشيئة مجردة في أفعال الله وأحكامه، بل هي مقرونة بالحكمة.

فإن قيل: وهل هذه الحكمة معلومة للخلق؟

فالجواب: قد تكون معلومة، وهذا- والحمد لله- هو الأكثر، وقد تكون مجهولة لبعض الناس دون بعض، وقد تكون مجهولة لجميع الناس؛ لأنهم لا يحيطون بالله علمًا.

الفائدة الرابعة: أن الصراط هو دين الإسلام مستقيم لا اعوجاج فيه ولا انحراف فيه، ولا شقاء فيه، ويضاف إلى ذلك أنه لا تناقض فيه؛ لأنه لو كان فيه تناقض لم يكن مستقيمًا.

فإن قال قائل: هل للإنسان حُجة على الله إذا أضله وهدى آخرين؟

فالجواب: لا؛ لأن الهداية فضل من الله عز وجل، وفضل الله يؤتيه من يشاء، والإضلال لا بد أن يكون مبنيًا على حال العبد؛ لقوله تعالى: (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) [الصف: ٥]، ولقوله تعالى: (فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ) [المائدة: ٤٩]، فالحاصل أن الله تعالى يضل ويهدي من يشاء لحكمة، ولا بد أن يكون الإضلال من جراء فعل العبد.

انتهت الفوائد من كلام ابن عثيمين تفسير الأنعام ص٢١١.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دراسات قرآنية

الأمثال في القرآن

مثل الذي كفر بعد إيمانه

مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعدُ:

ففي هذا المقال نتحدث عن مثل آخر من الأمثال في القرآن وهو من سورة الأنعام (الآية الحادية والسبعون): « قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » [الأنعام:٧١].

المعنى الإجمالي:

قال ابن جرير الطبري رحمه الله: وهذا مَثَل ضربه الله تعالى ذكره لمن كفر بالله بعد إيمانه، فاتبع الشياطين، من أهل الشرك بالله، وأصحابه الذين كانوا أصحابه في حال إسلامه، المقيمون على الدين الحق يدعونه إلى الهدى الذي هم عليه مقيمون، والصواب الذي هم به متمسكون، وهو له مفارق وعنه زائل، يقولون له: «ائتنا» فكن معنا على استقامة وهدى، وهو يأبى ذلك ويتبع دواعي الشيطان ويعبد الآلهة والأوثان. اهـ. الطبري.

وقال الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير»: «هو تمثيل لحال المرتد إلى الشرك بعد أن أسلم بحالِ من خرج في مُهِمٍّ فرجع على عقبيه ولم يقضِ ما خرج له». اهـ.

المعنى المفصل

قل: فعل أمر- والفاعل أنت- والهمزة للاستفهام الإنكاري، «قل أندعوا» قال قتادة في الآية: خصومة علَّمها الله محمدًا صلى الله عليه وسلم وأصحابه يخاصمون بها أهل الضلالة. لا يظهر أن مراده أن المشركين قالوا ذلك مرة واحدة لبعض المؤمنين أو لجميعهم، بل كانوا يفتنون المسلمين دائمًا ويدعونهم للعود إلى الكفر، ومنه ما رُوي من دعوة عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما لأبيه إلى الشرك؛ فنزلت الآية ردًّا عليهم، فلقنهم الله تعالى هذه الحُجة المؤثرة- بما فيها من المثل الجَليِّ الواضح لحالي الشرك وضلاله والتوحيد وهدايته- في سياق حجج الحق الكثيرة في هذه السورة التي نزلت دُفعةً واحدة.

والاستفهام للإنكار والتعجُّب، والمعنى: قل أندعو- متجاوزين دعاء الله القادر على استجابة دعائنا- ما لا يضرنا ولا ينفعنا

كالأصنام وسائر ما عُبد من دون الله-، ونرد على أعقابنا بالعود إلى ضلالة الشرك الفاضحة بعد إذ هدانا الله إلى الإسلام. [تفسير المنار لمحمد رشيد رضا].

وقال القاسمي في محاسن التأويل: «قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا»، أي أنعبد من دونه ما لا يقدر على نفعنا إن دعوناه ولا ضرّنا إن تركناه، ونَرَد على أعقابنا عطف على «ندعو» داخل في حكم الإنكار والنفي، أي: ونرد إلى الشرك، والتعبير عنه بالرد على الأعقاب، لزيادة تقبيحه بتصويره بصورة ما هو علم في القبح، مع ما فيه من الإشارة إلى كون الشرك حالة قد تركت ونُبذت وراء الظهر. اهـ.

وقال السدي: قال المشركون للمسلمين: اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد، فقال تعالى: (قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله) فنكون كرجل كان مع قوم على طريق، فضلَّ فحيَّرته الشياطين، وأصحابه على الطريق يدعونه: يا فلان هلم إلينا فإنا على الطريق، فيأبى. [زاد المسير لابن الجوزي].

«ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله»:

قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» في قوله: «ونرد على أعقابنا» تشبيه؛ وذلك أن المردود على العقب هو أن يكون الإنسان يمشي قدمًا وهي المشية الجيدة فيرد يمشي القهقرى، وهي المشية الدنية، فاستعمل المثل بها فيمن رجع من خير إلى شر، ووقع في هذه الآية تمثيل الراجع من الهدى إلى عبادة الأصنام، وهدانا بمعنى أرشدنا.

وقال الطبري وغيره: الرد على العقب يُستعمل فيمن أمَّل أمرًا فخاب أمله، والردُّ: الإجماع إلى المكان الذي يؤتى منه، كقوله تعالى: «رُدُّوهَا عَلَيَّ» [ص:٣٣].

والعرب تقول لكل طالب حاجة لم يظفر بها: «رُدَّ على عقبيه»، وقال الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير»: والأعقاب: جمع عقب وهي مؤخر القدم، وعقب كل شيء طرفه وآخره، ويقال: رجع على عقبه وعلى عقبيه ونكص على عقبيه، بمعنى رجع إلى المكان الذي جاء منه؛ لأنه كان جاعلا إياه وراءه فرجع.

وحرف «على» فيه للاستعلاء، أي رجع على طريق جهة عقبه كما يقال: رجع وراءه، ثم استُعمل تمثيلاً سائغًا في التلبس بحالة ذميمة كان فارقها صاحبها، ثم عاد إليها وتلبس بها، وذلك أن الخارج إلى سفر أو حاجة فإنما يمشي إلى غرض يريده فهو يمشي القدمية؛ فإذا رجع قبل الوصول إلى غرضه، فقد أضاع مشيه؛ فيمثل حاله بحال من رجع على عقبيه. اهـ التحرير والتنوير.

قال الشوكاني في «فتح القدير» قال أبو عبيدة: يقال لمن رُدَّ عن حاجته ولم يظفر بها قد رُدَّ على عقبيه، وقال المبرد: تعقب بالشر بعد الخير، وأصله من المعاقبة والعقبى، وهما ما كان تاليًا للشيء واجبًا أن يتبعه، ومنه: والعاقبة للمتقين، ومنه: عقب الرجل، ومنه العقوبة لأنها تالية للذنب. [فتح القدير للشوكاني].

قوله تعالى: «بعد إذ هدانا الله» أي: للإسلام والتوحيد وأنقذنا من عبادة الأصنام فنصير كالمستمر على الضلال، بل كالذي استهوته الشياطين أي: استمالته عن الطريق الواضح.

قوله تعالى: «كالذي استهوته الشياطين في الأرض». قال ابن قتيبة في «غريب القرآن» أي: هوت به، وذهب حيران، له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا، يقولون له: ائتنا؛ نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر، وأصحابه: أبوه وأمه.

وقال ابن الجوزي في «زاد المسير»: ومعنى «استهوائها» قولان: أحدهما: أنها هوت به وذهبت. قاله ابن قتيبة، وقال أبو عبيدة: تُشبِّه له الشياطين فيتبعها حتى تهوى به في الأرض فتضله، والثاني: زيَّنت له هواه، قاله الزجاج.

والكاف في «كالذي» إما نعت مصدر محذوف، أي نرد على أعقابنا ردًا كالذي، أو في محل نصب على الحال من فاعل نرد: أي نرد حال كوننا مشبهين للذي استهوته الشياطين أي ذهبت به مردة الجن بعد أن كان من بني الإنسان. اهـ. ابن الجوزي.

قوله تعالى: «حيران» حالٌ: أي حال كونه متحيرًا تائها حيرةً وحيرورةً إذا تردد وسمى الماء المستنقع الذي لا منفذ له حائرًا.

قوله: «له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا»:
قال الشوكاني في «فتح القدير» صفة لحيران، أو حاليَّةٌ أي له رُفقةٌ يدعونه إلى الهدى يقولون ائتنا فلا يجيبهم ولا يهتدي بهديهم. اهـ.

قوله تعالى: «قل إن هدى الله هو الهدى»:
قال ابن الجوزي: هذا ردٌ على من دعا إلى عبادة الأصنام وزجرٌ عن إجابته، كأنه قيل له: لا تفعل ذلك؛ لأن هدى الله هو الهدى لا هدى غيره.
وقال الشوكاني في فتح القدير: أمره الله سبحانه بأن يقول لهم: إن هدى الله أي دينه الذي ارتضاه لعباده هو الهدى وما عداه باطل، ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يُقبل منه.
قوله تعالى: «وأمرنا لنسلم لرب العالمين»:
«وأمرنا» معطوف على الجملة الاسمية: أي من جُملة ما أمره الله بأن يقوله، واللام هي لنسلم هي لام العلة، والمعلل هو الأمر أي: أمرنا لأجل أن نسلم لرب العالمين.
وقال الفراء: المعنى أمرنا بأن نسلم لأن العرب تقول أمرتك لتذهب، وبأن تذهب. [فتح القدير للشوكاني].

فوائد الآية:

١- إنَّ دُعَاءَ غَيْرِ اللهِ تَعَالَى تَحَوُّلٌ وَارْتِدَادٌ مِنْ دُعَاءِ الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الذي يَكْشِفُ مَا يُدْعَى إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ - إِلَى دُعَاءِ الْعَاجِزِ الذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى نَفْعٍ وَلَا ضُرٍّ.
٢- إِنَّ دُعَاءَ غيرِ الله نُكُوصٌ عَلَى الْأَعْقَابِ، وَتَقَهْقُرٌ إِلَى الْوَرَاءِ، وَالْأَصْلُ فيه رُجُوعُ الْهَزِيمَةِ أَوِ الْخَيْبَةِ وَالْعَجْزِ عَنِ السَّيْرِ الْمَحْمُودِ، ثُمَّ صَارَ يُطْلَقُ عَلَى كُلِّ تَحَوُّلٍ مَذْمُومٍ.
٣- التَّعْبِيرُ بِـ(نُرَدُّ) الْمَبْنِيِّ لِلْمَجْهُولِ بَدَلَ التَّعْبِيرِ بِـ «نَرْتَدُّ» أَوْ «نَرْجِعُ»، وَالنُّكْتَةُ فيه أَنَّ هَذَا التَّحَوُّلَ الْمَذْمُومَ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَقَعَ مِنْ عَاقِلٍ؛ لِأَنَّ الْعَاقِلَ إِذَا وَصَلَ إِلَى مَرْتَبَةٍ عَالِيَةٍ مِنَ الْعِلْمِ وَالْكَمَالِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَخْتَارُ الرُّجُوعَ عَنْهَا، وَاسْتِبْدَالَ الذي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَأَعْلَى، فَإِذَا كَانَتْ فِطْرَتُهُ وَعَقْلُهُ يَأْبَيَانِ عَلَيْهِ هَذِهِ الرِّدَّةَ وَالنُّكُوصَ، فَكَيْفَ يُرَدُّ وَهُوَ لَا يَرْتَدُّ؟
٤- إِنَّ مَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ الْقَدِيرُ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطِ السَّعَادَةِ بِمَا أَرَاهُ مِنْ آيَاتٍ فِي الْأَنْفُسِ وَالْآفَاقِ، وَمَا شَرَحَ بِهِ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ، فَمَنْ يَقْدِرُ أَنْ يُضِلَّهُ بَعْدَ إِذْ هَدَاهُ اللهُ؟
« وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ » (الزمر: ٣٧).
٥- الْمَثَلُ الذي يُصَوِّرُ الْمُرْتَدَّ فِي أَقْبَحِ حَالَةٍ كَانَتْ تَتَصَوَّرُهَا الْعَرَبُ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا) قَرَأَ حَمْزَةُ « اسْتَهْوَاهُ » بِأَلِفٍ مُمَالَةٍ، وَكَانُوا يَرْسُمُونَهَا يَاءً كَأَصْلِهَا وَإِنْ تَكُنْ طَرَفًا، وَرَسْمُهَا فِي الْمُصْحَفِ الْإِمَامِ هَكَذَا (اسْتَهْوَتْهُ) وَهُوَ يَحْتَمِلُ الْقِرَاءَتَيْنِ. وَتَقْدِيرُ التَّشْبِيهِ فِي الْكَلَامِ أَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ تِلْكَ الْهِدَايَةِ مِثْلَ رَدِّ الَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ، أَوْ مُشَبَّهِينَ بِالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ - إلخ!. قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ: ذَهَبَتْ بِهَوَاهُ وَعَقْلِهِ، وَقِيلَ: اسْتَهَامَتْهُ وَحَيَّرَتْهُ. وَقِيلَ: زَيَّنَتْ لَهُ هَوَاهُ.
٦- اليقين بأن هُدَى الله الَّذِي أَنْزَلَ بِهِ آيَاتِهِ، وَأَقَامَ عَلَيْهِ حُجَجَهُ وَبَيِّنَاتِهِ - هُوَ الْهُدَى الْحَقُّ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، لَا مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ مِنْ أَهْوَائِكُمْ اتِّبَاعًا لِمَا أَلْفَيْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ، وَهَذَا الْهُدَى الْمَعْقُولُ هُوَ الَّذِي دُعِينَا إِلَيْهِ فَأَجَبْنَا، وَأُمِرْنَا بِهِ فَأَطَعْنَا، (وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) فَأَسْلَمْنَا.
٧- تعلق هذه الآية بما بعدها وهي قوله تعالى: «وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ» أَيْ: أُمِرْنَا بِأَنْ نُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَبِأَنْ أَقِيمُوا الصلاةَ وَاتَّقُوهُ، أَيْ قِيلَ لَنَا ذَلِكَ، وَقَدَّرَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا بِالْإِسْلَامِ وَبِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَالتَّقْوَى، وَإِقَامَةُ الصَّلَاةِ: الْإِتْيَانُ بِهَا عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي شُرِعَتْ لِأَجْلِهِ، وَهُوَ كَوْنُهَا تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَتُزَكِّي النَّفْسَ بِمُنَاجَاةِ اللهِ وَذِكْرِهِ (وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ).
وَالتَّقْوَى: اتِّقَاءُ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى مُخَالَفَةِ دينِ الله وَشَرْعِهِ وَتَنَكُّبِ سُنَنِهِ فِي خَلْقِهِ مِنْ ضَرَرٍ وَفَسَادٍ، فَهَذَا أَوْسَعُ مَعْنًى مِنْ تَفْسِيرِهَا بِامْتِثَالِ الْأَمْرِ وَاجْتِنَابِ النَّهْيِ.
٨- ثم خَتمت هَذه الآيَة وهذا المثال بختام رائع في قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) أَيْ: تُجْمَعُونَ وَتُسَاقُونَ إِلَى لِقَائِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ دُونَ غَيْرِهِ، فَيُحَاسِبُكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ، وَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهَا. وَإِذَا كَانَ الْحَشْرُ إِلَيْهِ وَحْدَهُ، وَالْجَزَاءُ بِيَدِهِ وَحْدَهُ، فَمِنَ الْجُنُونِ أَنْ يُعْبَدَ غَيْرُهُ وَيُدْعَى، أَوْ يُخَافَ أَوْ يُرْجَى.
والفوائد مستفادة من تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله (٧/ ٤٤٠ - ٤٤٢)، مع تصرف يسير، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دراسات قرآنية

الأمثال في القرآن

مثل الذي هداه اللّه من بعد الضلالة

مصطفى البصراتي

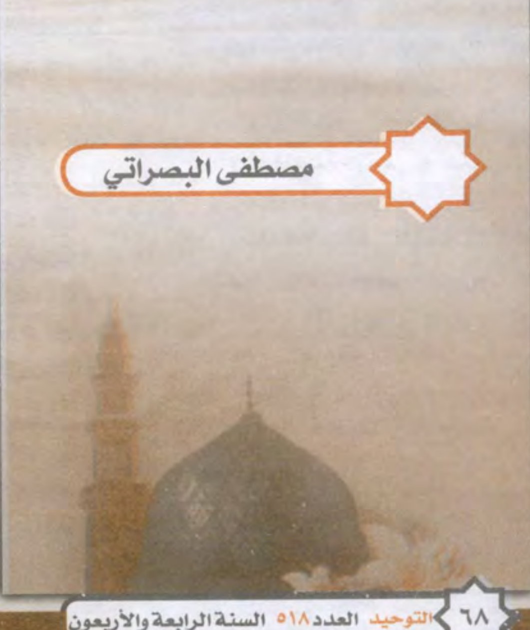

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد:

ففي هذا المقال نتحدث عن مثل آخر من الأمثال في القرآن، وهو من سورة الأنعام الآيتان الثانية والعشرون بعد المائة والثالثة والعشرون بعد المائة، وهما: قال الله تعالى: «أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ» [الأنعام:١٢٢- ١٢٣].

المعنى الإجمالي

قال ابن كثير رحمه الله ٢٣٢/٢: «هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتاً، أي في الضلالة هالكاً حائراً، فأحياه الله أي أحيا قلبه بالإيمان، وهداه له ووفقه لاتباع رسله».

وقال النيسابوري في «غرائب القرآن» (١٥٦/٣): «إنه سبحانه بعد أن ذكر أن المشركين يجادلون المؤمنين ضرب مثلاً للفريقين فبين أن المؤمن المهتدي بمنزلة من كان ميتاً فجعله الله حياً وأعطاه نوراً يهتدي به في مصالحه، وأن الكافر بمنزلة من هو في الظلمات منغمس فيها لا خلاص له منها فيكون متحيراً على الدوام».

المعنى التفصيلي:

الواو في قوله: «أومن كان ميتا» عاطفة لجملة الاستفهام على جملة «وإن أطعتموهم إنكم لمشركون» لتضمن قوله: «وإن أطعتموهم» أن المجادلة المذكورة من قبل مجادلة في الدين بتحسين أحوال أهل الشرك وتقبيح أحكام الإسلام التي منها تحريم الميتة، وتحريم ما ذكر اسم غير الله عليه، فلما حذر الله المسلمين من دسائس أولياء الشياطين ومجادلتهم بقوله: «وإن أطعتموهم إنكم لمشركون» أعقب ذلك بتفظيع حال المشركين، ووصف حسن حالة المسلمين حين فارقوا الشرك، فجاء بتمثيلين للحالتين، ونفى مساواة إحداهما للأخرى ؛ تنبيها على سوء أحوال أهل الشرك وحسن حال أهل الإسلام.

والهمزة للاستفهام المستعمل في إنكار تماثل الحالتين: فالحالة الأولى حالة الذين أسلموا بعد أن كانوا مشركين، وهي المشبهة بحال من كان ميتا مودعا في ظلمات فصار حيا في نور واضح، وسار في الطريق الموصلة للمطلوب بين الناس.

والحالة الثانية حالة المشرك وهي المشبهة بحالة من هو في الظلمات ليس بخارج منها ؛ لأنه في ظلمات. [التحرير والتنوير لابن عاشور ٤٣/٥].

وقوله: «وجعلنا له نورًا يمشي به في الناس» النور عبارة عن الهداية والإيمان، وقيل هو القرآن وقيل الحكمة، وقيل هو النور المذكور في قوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [التحريم:١٢]، وقيل: المراد به اليقين، «يمشي» أي: يستضيء «به في الناس» ويهتدي إلى قصد السبيل، والضمير في (به) راجع إلى النور «كمن مثله» أي صفته «في الظلمات» أي: لا يستويان. وقيل: «مثل» زائدة، والمعنى كمن في الظلمات كما تقول أنا أكرم من مثلك، أي منك، ومثله: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ [المائدة:٩٥]، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، وقيل: المعنى كمن مثله مثل من هو في الظلمات، والمعنى كمن هو خابط في ظلمة الكفر وظلمة الجهالة وظلمة عمى البصيرة.

وقوله: «كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها»:

قال ابن جرير الطبري ٣٠/٨: «كمن مثله في الظلمات...» لا يدري كيف يتوجه، وأي طريق يأخذ ؛ لشدة ظلمة الليل وإضلاله الطريق. فكذلك هذا الكافر الضال في ظلمات الكفر، لا يبصر رشدا ولا يعرف حقا، يعني في ظلمات الكفر. يقول: أفطاعة هذا الذي هديناه للحق وبصرناه الرشاد، كطاعة من مثله مثل من هو في الظلمات متردد، لا يعرف المخرج منها في دعاء، هذا إلى تحريم ما حرم الله، وتحليل ما أحل، وتحليل هذا ما حرم الله، وتحريمه ما أحل؟

وقد ذكر أن هذه الآية نزلت في رجلين بأعيانهما معروفين: أحدهما مؤمن، والآخر كافر، ثم اختلف أهل التأويل فيهما، فقال بعضهم: أما الذي كان ميتا فأحياه الله، فعمر بن الخطاب رضي الله عنه. وأما الذي مثله في الظلمات ليس بخارج منها، فأبو جهل بن هشام. اهـ.

وقال ابن عاشور في «التحرير والتنوير» ٤٥/٥: والمراد بـ«الظلمات» ظلمة القبر لمناسبته للميت، وبقرينة ظاهرة «في الظلمات» من حقيقة الظرفية وظاهر حقيقة فعل الخروج.

ولقد جاء التشبيه بديعًا إذ جعل حال المسلم، بعد أن صار إلى الإسلام، بحال من كان عديم الخير، عديم الإفادة كالميت، فإن الشرك يحول دون التمييز بين الحق والباطل، ويصرف صاحبه عن السعي إلى ما فيه خيره ونجاته، وهو في ظلمات لو أفاق لم يعرف أين ينصرف، فإذا هداه الله إلى الإسلام تغير حاله فصار يميز بين الحق والباطل ويعلم الصالح من الفاسد، فصار كالحي وصار يسعى إلى ما فيه صلاحه، ويتنكب عن سبيل الفساد، فصار نورًا يمشي به في الناس.

وقد تبين بهذا التمثيل تفصيل أهل استقامة العقول على أضدادهم.

وجملة «ليس بخارج منها» حال من الضمير المجرور بإضافة «مثل» أي ظلمات لا يرجى للواقع فيها تنور بنور ما دام في حالة الإشراك.

وجملة «كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون» استئناف بياني، لأن التمثيل المذكور قبلها يثير في نفس السامع سؤالا، أن يقول: كيف رضوا لأنفسهم البقاء في هذه الضلالات، وكيف لم يشعروا بالتوبة بين حالهم وحال الذين أسلموا، فإذا كانوا قبل مجيء الإسلام في غفلة عن انحطاط حالهم في اعتقادهم وأعمالهم، فكيف لما دعاهم الإسلام إلى الحق ونصب لهم الأدلة والبراهين، بقوا في ضلالهم لم يقلعوا عنه، وهم أهل العقول فطنة، فكان حقيقًا بأن يبين له السبب في دوامهم على الضلال، وهو أن ما عملوه كانت تُزينُه لهم الشياطين، هذا التزين العجيب، الذي لو أراد أحد تقريبه لم يجد ضلالا مزينا أوضح منه وأعجب فلا يشبَّه ضلالهم إلا بنفسه على حد قولهم: «والسفاهة كاسمها».

قوله تعالى «كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» قال ابنَ جرير الطبَري (٨/٣٢): يقول تعالى ذكره ما معناه: كما خذلت هذا الكافر الذي يجادلكم أيها المؤمنون بالله ورسوله، في أكل ما حرّمت عليكم من المطاعم عن الحق، فزينت له سوءَ عمله فرآه حسنًا، ليستحق به ما أعددت له من أليم العقاب، كذلك زيّنت لغيره ممن كان على مثل ما هو عليه من الكفر بالله وآياته، ما كانوا يعملون من معاصي الله، ليستوجبوا بذلك من فعلهم، ما لهم عند ربهم من النّكال.

وفي هذا أوضح البيان على تكذيب الله الزاعمين أن الله فوَّض الأمور إلى خلقه في أعمالهم، فلا صنع له في أفعالهم، وأنه قد سوَّى بين جميعهم في الأسباب التي بها يصلون إلى الطاعة والمعصية. لأن ذلك لو كان كما قالوا، لكان قد زَيَّن لأنبيائه وأوليائه من الضلالة والكفر، نظيرَ ما زيّن من ذلك لأعدائه وأهل الكفر به، وزيّن لأهل الكفر به من الإيمان به، نظيرَ الذي زيّن منه لأنبيائه وأوليائه. وفي إخباره جل ثناؤه أنه زين لكل عامل منهم عمله، ما ينبئ عن تزيين الكفر والفسوق والعصيان، وخصّ أعداءه وأهل الكفر، بتزيين الكفر لهم والفسوق والعصيان، وكرّه إليهم الإيمان به والطاعة. انتهى.

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٢] عطف على جملة: «كذلك زيّن للكافرين ما كانوا يعملون» فلها حكم الاستئناف البياني، لبيان سبب آخر من أسباب استمرار المشركين على ضلالهم، وذلك هو مكر أكابر قريتهم بالرّسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين وصرفهم الحيل لصدّ الدهماء عن متابعة دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمشار إليه بقوله: «وكذلك» أولياء الشياطين بتأويل «كذلك» المذكور.

والمعنى: ومثل هذا الجعل الذي جعلناه لمشركي مكّة جعلنا في كل قرية مضت أكابرَ يصدّون عن الخير، فشبّه أكابر المجرمين من أهل مكّة في الشرّك بأكابر المجرمين في أهل القرى في الأمَم الأخرى، أي أنّ أمر هؤلاء ليس ببدع ولا خَاصّ بأعداء هذا الدّين، فإنّه سنّة المجرمين مع الرسل الأوّلين. [التحرير والتنوير ٥/١٨٧].

(وكذلك) أي مثل ذلك الجعل بمكة (جعلنا في كل قرية أكابر) الأكابر جمع أكبر قيل هم الرؤساء والعظماء وخصهم بالذكر لأنهم أقدر على الفساد والغدر وترويج الباطل بين الناس من غيرهم، وإنما حصل ذلك لأجل رياستهم، وذلك سنة الله أنه جعل في كل قرية أتباع الرسل ضعفاءها وجعل فساقها أكابر (مجرميها)، قال الواحدي في الآية تقديم وتأخير أي مجرميها أكابر، وإنما جعل المجرمين أكابر لأن ما فيهم من السعة أدعى لهم إلى المكر والكفر.

(ليمكروا فيها) بالصد عن الإيمان، واللام على ظاهرها أو للعاقبة أو للعلة مجازاً، قال أبو عبيدة: المكر: الخديعة والغدر والحيلة والفجور، وزاد بعضهم الغيبة والنميمة والأيمان الكاذبة وترويج الباطل، قال ابن عباس: ليقولوا فيها الكذب، عن عكرمة قال: نزلت في المستهزئين، وقيل المعنى ليتجبروا على الناس فيها ويعملوا بالمعاصي، دليله ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الشورى: ٢٧]. انتهى من فتح البيان.

قوله تعالى: «وَمَا يَمْكُرُونَ إلا بأَنْفُسهمْ وَمَا يَشْعُرُونَ» قال ابن كثير(٢/٢٣٣): أي: وما يعود وبال مكرهم ذلك وإضلالهم من أضلوه إلا على أنفسهم، كم قال تعالى: « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ » [العنكبوت: ١٣]، وقال « وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ »[النحل: ٢٥].

وقوله تعالى: " وما يشعرون " أي ما يعلمون وهي لفظة مأخوذة من الشعار وهو الشيء الذي يلي البدن فكأن الذي لا يشعر نَفى عنه أن يعلم علم حس وفي ذلك مبالغة في صفة جهله إذ البهائم تعلم علوم الحس وأما هذه الآية فإنما نفى فيها الشعور في نازلة مخصوصة. (المحرر الوجيز لابن عطية ٣/ ٤٥٤).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الأمثال في القرآن

مثل شرح الصدر بالهداية وضيقه بالضلال

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

ففي هذا المقال نتحدث عن مثل آخر من الأمثال في القرآن وهو من سورة الأنعام الآية الخامسة والعشرون بعد المائة والسادسة والعشرون بعد المائة، وهما: «فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ» (الأنعام:١٢٥-١٢٦).

المعنى الإجمالي:

قال الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير (٥/٦٢): هذا تمثيل لحال هدى القرآن بالصراط المستقيم الذي لا يجهد متبعه، فهذا ضد لحال التمثيل في قوله: «كأنما يصعد في السماء».

وتمثيل الإسلام بالصراط المستقيم يتضمن تمثيل المسلم بالسالك صراطًا مستقيمًا، فيفيد توضيحًا لقوله: «يشرح صدره للإسلام».

وعطفت هذه الجملة مع أنها بمنزلة بيان الجملة التي قبلها لتكون بالعطف مقصوده بالإخبار، وهو إقبال على النبي صلى الله عليه وسلم بالخطاب.

والإشارة بـ «هذا» إلى حاضر في الذهن وهو دين الإسلام، والمناسبة قوله: «يشرح صدره للإسلام»، والصراط حقيقته الطريق وهو هنا شأن المضاف، فيعلم أنه خير صراط، وإضافة الرب إلى ضمير الرسول تشريف للمضاف إليه (ربك)، وترضية للرسول صلى الله عليه وسلم، بما في هذا السن من بقاء بعض الناس غير متبعين دينه.

المعنى التفصيلي:

قوله: «فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ»:

«فمن» الفاء مرتبة الجملة التي بعدها على مضمون ما قبلها من قوله «أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ» (الأنعام: ١٢٢) وما ترتب عليه من التفاريع والاعتراض. وهذا التفريع إبطال لتعللاتهم بعلة «حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ» (الأنعام: ١٢٤). وأن الله منعهم ما علقوا إيمانهم على حصوله، فتفرع على ذلك بيان السبب المؤثر بالحقيقة إيمان المؤمن وكفر الكافر، وهو: هداية الله المؤمن، وإضلاله الكافر، فذلك حقيقة التأثير، دون الأسباب الظاهرة، فيعرف من ذلك أن أكابر المجرمين لو أوتوا ما سألوا لما آمنوا، حتى يريد الله هدايتهم إلى الإسلام، كما قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ» (يونس: ٩٦، ٩٧) وكما قال «وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ» (الأنعام: ١١١). (التحرير والتنوير لابن عاشور ٥/٥٧).

و«من» أداة شرط و" يشرح " جواب الشرط والآية نص في أن الله عز وجل يريد هدى المؤمن وضلال الكافر وهذا عند جميع أهل السنة بالإرادة القديمة التي هي صفة ذاته تبارك وتعالى. (المحرر الوجيز لابن عطية: ٣/٤٥٥).

والمقصود من الإرادة في هذا المقام الكريم هي الإرادة الكونية القدرية، والمراد من الهداية هنا هو التوفيق والإعانة والتسديد.

ومعنى: «يشرح صدره للإسلام» أي: يفسح قلبه ويوسعه لقبول الحق الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويُهوِّنه عليه ويسهله له ويزينه فيه ويفرحه به بلطفه ومعونته حتى ينير الإسلام في قلبه فيضيء له ويحس بحلاوته ولذته، وتخالط بشاشته شغاف قلبه فلا يُقدم عليه نفسًا ولا والدًا ولا ولدًا ولا بلدًا ولا شيئًا من متاع الحياة الدنيا مهما كان. (تهذيب التفسير وتجريد التأويل لشيبة الحمد ٥/٧١).

والهدى في هذه الآية هو خلق الإيمان في القلب واختراعه، وشرح الصدور هو تسهيل الإيمان وتحبيبه وإعداد القلب لقبوله وتحصيله، والهدى لفظة مشتركة تأتي بمعنى الدعاء كقوله عز وجل: «وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ

صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ» (الشورى:٥٢).
قال ابن الأعرابي: الشرح: الفتح. قال ابن قتيبة: ومنه يقال: شرحت الأمر، وشرحت اللحم، إذا فتحته. وقال ابن عباس: «يشرح صدره» أي: يوسع قلبه للتوحيد. «زاد المسير» لابن الجوزي (١٢٦/٣).

١-«والإسلام» هو دين الله، الذي لا دين له سواه، ولقد تكفل سبحانه وتعالى بنصره وتمكينه وإظهاره على الدين كله.

فالله سبحانه وتعالى، لم ينزل ديانات مختلفة، وإنما أنزل على عباده المرسلين دينًا واحدًا، وهو الإسلام قال تعالى: « إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ » (آل عمران: ١٩).
وهو الرسالة الخالدة، فقد جاء عامًا شاملاً صالحًا لكل زمان ومكان ما بقي هذا الزمان وذلك المكان.

٢-والإسلام: «هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك وأهله»، هذا تعريف الإسلام.

وأسلم: معناه استسلم، فهو الاستسلام لله جل وعلا- بتوحيده وإخلاص العبادة له دون سواه، فمن لم يستسلم لله فهو مستكبر ومن استسلم لله وغيره فهو مشرك، وأما من استسلم لله وحده فهو الموحد، ولهذا قال: «هو الاستسلام لله بالتوحيد»، والتوحيد: هو إفراد الله جل وعلا بالعبادة بأن يجعل المعبود واحدًا بدل أن يكون المعبود آلهة متفرقة يكون إلهًا واحدًا. (نواقض الإسلام لمحمد بن عبد الوهاب ص١٤).
قوله: «ومن يرد أن يضله» من يُرد دوام ضلاله بالكفر، أو من يُرد أن يضله عن الاهتداء إلى الإسلام، فالمراد ضلال مستقبل، إما بمعنى دوام الضلال الماضي، وإما بمعنى ضلال عن قبول الإسلام، وليس المراد أن يضله بكفره القديم؛ لأن ذلك قد مضى وتقرر. (التحرير والتنوير ٥٧/٥).
قوله: «يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ» (الأنعام:١٢٥) أي: يجعل قلبه ضيقًا أشد الضيق لا يتسع لشيء من الهدى، ولا يخلص إليه شيء من الإيمان ولا ينفذ فيه، كأنه كلف بالصعود إلى السماء حيث يعجز وينقطع تنفسه.
وقد أدرك العلماء في عصرنا أن في هذه الآية معجزة من معجزات القرآن بعد أن تمكن البشر من الصعود إلى طبقات العلا بالطائرات والصواريخ وأدركوا يقينًا أن طبقات الجو العليا أقل كثافة في الهواء من الطبقات التي هي أسفل منها، وأنه كلما صعد الإنسان إلى طبقة أعلى شعر بضيق التنفس والحرج الشديد في الصدر. (تهذيب التفسير وتجريد التأويل لشيبة الحمد ٧١/٥).
قال الزجاج: الحرج في اللغة: أضيق الضيق.
وقال ابن عطية: «يجعل صدره ضيقًا حرجًا» ألفاظ مستعارة تضاد شرح الصدر للإسلام، و«يجعل»- في هذا الموضع- تكون بمعنى: يحكم له بهذا الحكم، كما تقول: «هذا يجعل البصرة مصرًا» أي يحكم له بحكمها، والمراد بـ «يجعل البصر مصرًا» أي يجعل البصرة مثل مصر ويحكم لها بحكمها. (المحرر الوجيز لابن عطية ٤٥٦/٣).
واتباع الضيق بالحرج: لتأكيد معنى الضيق، لأن في الحرج من معنى شدة الضيق ما ليس في ضيق، والمعنى يجعل صدره غير متسع لقبول الإسلام، بقرينة مقابلته بقوله: «يشرح صدره للإسلام».
وزاد حالة المضلل عن الإسلام تبيينًا بالتمثيل، فقال: «كأنما يصعد في السماء».
قوله: « كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » (الأنعام:١٢٥). قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (١٢١/٣): قوله تعالى كذلك أي مثل ما قصصنا عليك يجعل الله الرجس وفيه خمسة أقوال:
أحدها: أنه الشيطان، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس يعني أن الله يسلطه عليهم.
والثاني: أنه المأثم. رواه أبو صالح عن ابن عباس.
والثالث: أنه ما لا خير فيه. قاله مجاهد.
والرابع: أنه العذاب. قاله عطاء وابن زيد وأبو عبيدة.
والخامس: أنه اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة. قاله الزجاج، وهذه الآية تقطع كلام القدرية إذ قد صرحت بأن الهداية والإضلال متعلقة بإرادة الله تعالى. اهـ. (زاد المسير ١٢/٣).
وقال ابن عاشور في «التحرير والتنوير» (٦١/٥): والرجس: الخبث والفساد، ويطلق على الخبث المعنوي والنفسي. والمراد هنا خبث النفس وهو رجس الشرك، كما قال تعالى: « وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ » (التوبة: ١٢٥) أي مرضا في قلوبهم زائدا على مرض قلوبهم السابق، أي: أرسخت المرض في قلوبهم، وتقدم في سورة المائدة (٩٠): « إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ» فالرجس يعم سائر الخباثات النفسية، الشاملة لضيق الصدر وحرجه، وبهذا العموم كان تذييلا، فليس خاصا بضيق الصدر حتى يكون من وضع المظهر موضع المضمر.
وقوله: «كذلك» نائب عن المفعول المطلق المراد به التشبيه، والمعنى: يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون جعلاً كهذا الضيق والحرج الشديد الذي جعله

في صدور الذين لا يؤمنون.

و «عَلَى» في قوله: «عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ» تفيد تمكن الرجس من الكافرين، فالعلاوة مجاز في التمكن، مثل: «أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ» (البقرة: ٥) والمراد تمكنه من قلوبهم وظهور آثاره عليهم. وجيء بالمضارع في «يَجْعَلُ» لإفادة التجدد في المستقبل، أي هذه سنة الله في كل من ينصرف عن الإيمان، ويعرض عنه.

و «الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ» موصول يومئ إلى علة الخبر، أي يجعل الله الرجس متمكنا منهم لأنهم يعرضون عن تلقيه بإنصاف، فيجعل الله قلوبهم متزائدة بالقساوة. والموصول يعم كل من يعرض عن الايمان، فيشمل المشركين المخبر عنهم، ويشمل غيرهم من كل من يدعى إلى الإسلام فيعرض عنه، مثل يهود المدينة والمنافقين وغيرهم. اهـ. (التحرير والتنوير).

قوله تعالى: «وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ» (الأنعام:١٢٦).

«وهذا» إشارة إلى القرآن والشرع الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، قال ابن عباس: والصراط: الطريق، وإضافة الصراط إلى الرب على جهة أنه من عنده وبأمره، و«مستقيمًا» حال مؤكدة، وليست كحال في قولك: جاء زيد راكبًا، بل هذه المؤكدة تتضمن المقصود. (المرجع السابق).

أسباب شرح الصدر:

١- التوحيد وعلى حسب كماله، وقوته، وزيادته يكون انشراح صدر صاحبه. قال الله تعالى: «أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه» (الزمر: ٢٢). وقال تعالى: «فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ» (الأنعام: ١٢٥).

فالهدى والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر، والشرك والضلال من أعظم أسباب ضيق الصدر وانحراجه.

٢- ومنها: النور الذي يقذفه الله في قلب العبد، وهو نور الإيمان، فإنه يشرح الصدر ويوسعه، ويفرح القلب. فإذا فقد هذا النور من قلب العبد، ضاق وحرج، وصار في أضيق سجن وأصعبه.

فيصيب العبد من انشراح صدره بحسب نصيبه من هذا النور، وكذلك النور الحسي، والظلمة الحسية، هذه تشرح الصدر، وهذه تضيقه.

٣- ومنها: العلم، فإنه يشرح الصدر، ويوسعه حتى يكون أوسع من الدنيا، والجهل يورثه الضيق والحصر والحبس، فكلما اتسع علم العبد، انشرح صدره واتسع، وليس هذا لكل علم، بل للعلم الموروث عن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو العلم النافع، فأهله أشرح الناس صدرا، وأوسعهم قلوبا، وأحسنهم أخلاقا، وأطيبهم عيشا.

ومنها: الإنابة إلى الله سبحانه وتعالى، ومحبته بكل القلب، والإقبال عليه، والتنعم بعبادته، فلا شيء أشرح لصدر العبد من ذلك. حتى إنه ليقول أحيانا: إن كنت في الجنة في مثل هذه الحالة، فإني إذا في عيش طيب.

وللمحبة تأثير عجيب في انشراح الصدر، وطيب النفس، ونعيم القلب، لا يعرفه إلا من له حس به، وكلما كانت المحبة أقوى وأشد، كان الصدر أفسح وأشرح، ولا يضيق إلا عند رؤية البطالين الفارغين من هذا الشأن، فرؤيتهم قذى عينه، ومخالطتهم حمى روحه.

٣- ومن أسباب شرح الصدر دوام ذكره على كل حال، وفي كل موطن، فللذكر تأثير عجيب في انشراح الصدر، ونعيم القلب، وللغفلة تأثير عجيب في ضيقه وحبسه وعذابه.

ومنها: الإحسان إلى الخلق ونفعهم بما يمكنه من المال، والجاه، والنفع بالبدن، وأنواع الإحسان، فإن الكريم المحسن أشرح الناس صدرا، وأطيبهم نفسا، وأنعمهم قلبا.

ومنها: الشجاعة، فإن الشجاع منشرح الصدر، متسع القلب، والجبان: أضيق الناس صدرا، وأحصرهم قلبا، لا فرحة له ولا سرور، ولا لذة له، ولا نعيم إلا من جنس ما للحيوان البهيمي.

ومنها: ترك فضول النظر، والكلام، والاستماع، والمخالطة، والأكل، والنوم، فإن هذه الفضول تستحيل آلاما وغموما، وهموما في القلب، تحصره، وتحبسه، وتضيقه، ويتعذب بها، بل غالب عذاب الدنيا والآخرة منها، فلا إله إلا الله ما أضيق صدر من ضرب في كل آفة من هذه الآفات بسهم، وما أنكد عيشه، وما أسوأ حاله، وما أشد حصر قلبه، ولا إله إلا الله، ما أنعم عيش من ضرب في كل خصلة من تلك الخصال المحمودة بسهم، وكانت همته دائرة عليها، حائمة حولها، فلهذا نصيب وافر من قوله تعالى: «إن الأبرار لفي نعيم» (الانفطار: ١٣) ولذلك نصيب وافر من قوله تعالى: «وإن الفجار لفى جحيم» (الانفطار: ١٤) وبينهما مراتب متفاوتة لا يحصيها إلا الله تبارك وتعالى.

وهذه الفوائد مستفادة من كتاب زاد المعاد لابن القيم (٢/ ٢٤).

نسأل الله أن يشرح صدورنا لما فيه رضاه،

والحمد لله رب العالمين.

الأمثال في القرآن

مثل المؤمن والكافر

دراسات قرآنية

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعدُ:

ففي هذا المقال نتحدث عن مثل آخر من الأمثال في القرآن، وهو من سورة الأعراف الآيتان السابعة والخمسون، والثامنة والخمسون، وهما: «وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ» (الأعراف:٥٨).

المعنى الإجمالي:

فقد تضمنت الآية الثانية مثلاً ضربه الله تعالى للعبد المؤمن والكافر إثر بيان قدرته على إحياء الناس بعد موتهم،

قال الشيخ عبد القادر شيبة الحمد في «تهذيب التفسير» (٥/٢٠١): «قال المفسرون: هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر، فالمؤمن إذا سمع القرآن وعقله انتفع به وبان أثره عليه فَشُبِّه بالبلد الطيب الذي يُمرع ويُخصب ويحسن أثر المطر عليه». اهـ. «تهذيب التفسير».

المؤمن إذا سمع القرآن وعقله انتفع به وبان أثره عليه فَشُبِّه بالبلد الطيب الذي يُمرع ويُخصب ويحسن أثر المطر عليه.

والبلد الذي تربته خبيثة سبخة أو حمأة عندما ينزل به المطر لا يخرج نباته إلا نكدًا قليلا غير صالح وهذا مثل الكافر عندما يسمع الآيات القرآنية لا يقبل عليها ولا ينتفع بها في خلقه ولا سلوكه فلا يعمل خيرًا ولا يترك شرًا (أيسر التفاسير للشيخ أبو بكر الجزائري ٢/١٨٥، بتصرف).

ومعنى: «كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ» (الأعراف:٥٨). أي: كذلك نبين الحجج ونصرف البراهين آية بعد آية ونضرب مثلاً بعد مثل لقوم يستجيبون للحق ويعترفون بنعم الله. اهـ. «تهذيب التفسير شيبة الحمد».

المعنى التفصيلي:

قوله تعالى: «وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ» (الأعراف:٥٧). الرياح: جمع ريح، وهو الهواء المتحرك- وجملة: «وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ» (الأعراف:٥٧)، عطف على جملة: «يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ» (الأعراف:٥٤)، وقد حصلت المناسبة بين آخر الجمل المعترضة وبين الجملة المعترض

بينها وبين ما عُطفت عليه بأنه لما ذكر قرب رحمته من المحسنين ذكر بعضًا من رحمته العامة وهو المطر.

فذكر إرسال الرياح هو المقصود الأهم لأنه دليل على عظم القدرة والتدبير، ولذلك جعلناه معطوفًا على جملة «يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ» (الأعراف:٥٤)، أو على جملة: «أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ» (الأعراف:٥٤)، وذكر بعض الأحوال المقارنة لإرسال الرياح يحصل منه إدماج الامتنان في الاستدلال. (التحرير والتنوير لابن عاشور ١٧٨/٥).

والإرسال في الريح هو بمعنى الإجراء والإطلاق والإرسال، ومنه الحديث: «فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة». (رواه البخاري ومسلم).

والريح تجمع في القليل: أرواح، وفي الكثير: رياح، لأن العين من الريح واو انقلبت في الواحد ياءً للكسر الذي قبلها، وكذلك في الجمع الكثير وصحت في القليل لأنه لا شيء فيه يوجب الإعلال. (المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي ٤٧٩/٢).

وقال الشيخ أبو بكر الجزائري في «أيسر التفاسير» في قوله: «وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا» (الأعراف:٥٧)، وهو أي ربكم الحق الذي لا إله إلا هو وبشرًا أي مبشرات ونشرًا أي تنشر الرياح تحمل السحب الثقال ليسقي الأرض الميتة فتحيا بالزروع والنباتات لتأكلوا وترعوا أنعامكم، وبمثل التدبير في إنزال المطر واحياء الأرض بعد موتها يحييكم بعد موتكم فيخرجكم من قبوركم أحياءً ليحاسبكم على كسبكم في هذه الدار ويجزيكم به الخير بالخير والشر بمثله جزاء عادلاً لا ظلم فيه وهذا الفعل الدال على القدرة والرحمة ولطف التدبير يُريكموه فترونه بأبصاركم لعلكم به تذكرون أن القادر على إحياء موات الأرض قادر على إحياء موات الأجسام فتؤمنون بلقاء ربكم وتوقنون به فتعملون بمقتضى ما يسعدكم ولا يشقيكم فيه.

قال الإمام الطبري ٢٧٣/٥: فمعنى الكلام إذن: والله الذي يرسل الرياح لينا هبوبها، طيبًا نسيمها، أمام غيثه الذي يسوقه بها إلى خلقه، فينشئ بها سحابا ثقالاً، حتى إذا أقلتها، والإقلال بها حملها، كما يقال: استقل البعير بحمله وأقلّه: إذا حمله فقام به ساقه الله لإحياء بلد ميت قد تعفت مزارعه ودرست مشاربه وأجدب أهله، فأنزل به المطر وأخرج به من كل الثمرات. اهـ.

قال الشيخ عبد القادر شيبة الحمد في «تهذيب التفسير» ٢٠٠/٥: تنبيه إلى بعض الآيات الكونية التي يسوقها الله عز وجل للدلالة على أنه على كل شيء قدير، وأنه يحيي الموتى، وأنه الرزاق ذو القوة المتين، فبين عز وجل أنه هو وحده الذي يبعث الرياح ويرسلها إرسالاً كونيًا مبشرات بمجيء المطر ونزول الغيث بعدها فهي تثير السحاب ويسوقه الله إلى الأرض الجرز المرتفعة الشامخة، ويُشاهدُ هذا السحابُ الثقال الذي يزن آلاف آلاف القناطير وهو يجري في طبقات الجو حتى ينزله الله بقدر مقدر على ما يشاء من الأرض فيخرج الله به

الكافر عندما يسمع الآيات القرآنية لا يُقبل عليها ولا ينتفع بها في خُلقه ولا سلوكه فلا يعمل خيرًا ولا يترك شرًا.

من كل الثمرات ويحيي به الأرض بعد موتها وقوله: «كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» (الأعراف:٥٧): أي كذلك الذي أحيا الأرض بعد موتها لمحيي الموتى، فعلى العقلاء أن يتذكروا نعمة الله عليهم وقدرته على التصرف فيهم بما يشاء والحكم فيهم بما يريد. اهـ.

قوله: «وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ» (الأعراف:٥٨). قال الإمام الطبري (٢٧٤/٥): يقول تعالى ذكره: والبلد الطيب تربته العذبة مشاربه، يخرج نباته إذا أنزل الله الغيث وأرسل عليه الماء بإذنه طيبًا ثمره في حينه ووقته، «وَالَّذِي خَبُثَ».... تربته وملحت مشاربه، «لا يخرج» نباته «إلا نكدًا». وقال ابن عباس: «فهذا مثل ضربه للمؤمن يقول: هو طيب وعمله طيب كما البلد الطيب ثمره طيب، ثم ضرب مثل الكافر كالبلدة السبخة المالحة التي لا تخرج منها البركة، فالكافر هو الخبث وعمله خبيث». اهـ الطبري.

والنكد وصف من النكد- بفتح الكاف وهو مصدر نكد الشيء إذا كان غير صالح يجر على مستعمله شرًا.

والمراد بالقوم الذين يشكرون: المؤمنون؛ تنبيهًا على أنهم مورد التمثيل بالبلد الطيب، وأن غيرهم مورد التمثيل بالبلد الخبيث، وهذا كقوله تعالى: «وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ» (العنكبوت:٤٣). (التحرير والتنوير لابن عاشور ١٨٦/٥).

وقال الماوردي في «أمثال القرآن»: قوله: «والبلد الطيب يخرج نباته» يعني: المكان الطيب الزاكي من الأرض «يخرج نباته» يعني: ريعه في غير كد ولا عناء، «والذي خبث» يعني الأرض السبخة لا تخرج ريعها إلا في كد وعناء ومشقة، كذلك المؤمن والكافر، ضرب الله مَثَلَهُمَا، فمثل المؤمن كمثل الأرض الزكية، تخريج ريعها في غير كد ولا عناء، ومثل الكافر كالأرض السبخة لا ترج ريعها إلا في كل مشقة، كذلك الكافر عَمَله إلا في كد وشدة لغير الله. اهـ. «أمثال القرآن» للماوردي (ص١٧٧).

بمثل التدبير الإلهي في إنزال المطر وإحياء الأرض بعد موتها يحييكم بعد موتكم فيخرجكم من قبوركم أحياءً ليحاسبكم على كسبكم في هذه الدار ويجزيكم به الخير بالخير والشر بمثله جزاء عادلاً لا ظلم فيه.

وفي تفصيل معنى الآية ما أخرجه البخاري (١٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢) عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتْ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتْ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ».

فوائد الآيتين:

١- أن الرياح تنشر السحاب، وأنها تأتي من جهات مختلفة تتعاقب فيكون ذلك سبب امتلاء السحب بالماء، وأنها تحيي الأرض بعد موتها، وأنها تبشر الناس بهبوبها، فيدخل عليهم بها السرور. (التحرير والتنوير لابن عاشور ١٨٠/٥ وما بعدها).

٢- تقريع المشركين وتفنيد إشراكهم،

ويتبعه تذكير المؤمنين واثارة اعتبارهم،لأن المشركين يعلمون أن للرياح مُصرفًا وأن للمطر مُنزلاً، غير أنهم يذهلون أو يتذاهلون عن تعيين ذلك الفاعل، ولذلك يجيئون في الكلام بأفعال نزول المطر مبنية إلى المجهول غالبًا، فيقولون: مطرنا بِنَوء الثريا«المصدر السابق».

٣- عالجت الآية ٥٧ قضية البعث بضرب المثل بالآية الكونية الموجودة؛ فالرياح التي تحمل السحاب، والسحاب يساق إلى بلد ميت وينزل منه الماء فيخرج به الزرع. والأرض كانت ميتة ويحييها الله بالمطر وهكذا الإخراج بالبعث وهذه قضية دينية. (تفسير الشعراوي).

٤- مثل هذا اختلاف حال إخراج النبات من الأرض اختلافُ حال الناس الأحياء في الانتفاع برحمة هدى الله، فموقع قوله: «والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه» كموقع قوله: «كذلك نخرج الموتى»، ولذلك ذُيل هذا بقوله: «كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون»، كما ذُيل ما قبله بقوله: «كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون»، كما ذُيل ما قبله بقوله: «كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون».(التحرير والتنوير لابن عاشور ٥/ ١٨٠ وما بعدها).

٥- الغرض المسوق له الكلامُ في قوله: «والبلد الطيب...» يجمع بين أمرين: العبرة بصنع الله، والموعظة بما يماثل أحواله، فالمعنى: كما أن البلد الطيب يخرج نباته سريعًا بهجًا عند نزول المطر، والبلد الخبيث لا يكاد ينبت فإن أنبت أخرج نبتًا خبيثًا لا خير فيه. «المصدر السابق».

٦- عبر هنا بالشكر؛ لأن هذه الآية موضوعها الاهتداء بالعلم والعمل والإرشاد ، بينما عبر في الآية السابقة عليها بالتذكر لأن موضوعها يتعلق بالاعتبار والاستدلال على قدرة الله - تعالى - في إحياء الموتى. (التفسير الوسيط محمد سيد طنطاوي).

بعض الآيات الكونية يسوقها الله عز وجل للدلالة على أنه على كل شيء قدير، وأنه يحيي الموتى، وأنه الرزاق ذو القوة المتين.

٧- (كذلك) أي مثل ذلك التصريف البديع نصرف الآيات أي نرددها ونكررها لقوم يشكرون نعمة الله تعالى فيتفكرون فيها ويعتبرون بها وهذا كما ترى مثل لإرسال الرسل عليهم بالشرائع التي هي ماء حياة القلوب إلى المكلفين المنقسمين إلى المقتبسين من أنوارها والمحرومين من مغانم آثارها وقد عقب ذلك بما يحققه ويقرره من قصص الأمم الخالية بطريق الاستئناف. (تفسير أبي السعود- أبو السعود).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

عزاء واجب

توفي إلى رحمة الله تعالى الشيخ أحمد حنيش مؤسس فرع أنصار السنة بالملايقة (قرية الشيخ صفوت نور الدين رحمة الله) بمحافظة الشرقية، وأسرة تحرير مجلة التوحيد تتقدم بخالص العزاء إلى أهل المتوفى، وتدعو له بالمغفرة والرحمة.

مثل عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه

ففي هذا المقال نتحدث عن مثلٍ آخر من الأمثال في القرآن وهو من سورة الأعراف الآيات الخامسة والسبعون بعد المائة والسادسة والسبعون بعد المائة والسابعة والسبعون بعد المائة.

إعداد/ مصطفى البصراتي

قوله تعالى: « وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ» (الأعراف ١٧٥-١٧٧).

المعنى الإجمالي:

«شبّه سبحانه من أتاه كتابه وعلمه العلم الذي منعه غيره فترك العمل به واتبع هواه وآثر سخط الله على رضاه، ودنياه على آخرته، والمخلوق على الخالق؛ بالكلب الذي هو من أخبث الحيوانات وأوضعها قدرًا وأخسها نفسًا وهمته لا تتعدى بطنه وأشدها شرهًا وحرصًا. ومن حرصه أنه لا يمشي إلا وخطمُه في الأرض، يتشمم ويتروح حرصًا وشرهًا ولا يزال يشم دبره دون سائر أجزاءه، وإذا رميت له بحجر رجع إليه ليعضه من فرط نهمته وهو من أمهن الحيوانات وأحملها للهوان وأرضاها بالدنايا، والجيف القذرة المروحة أحب إليه من اللحم الطري، والعذرة أحب إليه من الحلوى، وإذا ظفر بميتة تكفي مائة كلب، لم يدع كلبًا يتناول معه منها شيئًا إلا عز عليه وقهره لحرصه وبخله وشرهه، ومن عجيب أمره وحرصه أنه إذا رأى ذا هيئة رثة وثياب دنية وحالٍ رذية، نبحه وحمل عليه كأنه يتصور مشاركته له ومنازعته في قوته، وإذا رأى ذا هيئة حسنة وثيابٍ جميلة وضع له خطمه بالأرض، وخضع له ولم يرفع إليه رأسه !!

تشبيه من آثر الدنيا وعاجلها على الله والدار الآخرة مع وفور علمه بالكلب في حال لهثه سرٌ بديع، وهو أن هذا الذي حاله ما ذكره اللَّه من انسلاخه من آياته واتباعه هواه إنما كان لشدة لهفه على الدنيا لانقطاع قلبه عن الله سبحانه وتعالى والدار الآخرة، فهو شديد اللهف عليها ولهفه نظير لهف الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه، واللهف واللهث شقيقان وأخوان في اللفظ والمعنى.

قال ابن جريج: الكلب منقطع الفؤاد، لا فؤاد له، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، فهو مثل الذي يترك الهدى لا فؤاد له، إنما فؤاده منقطع، قال ابن القيم: ومراده بانقطاع فؤاده أنه ليس له فؤاد يحمله على الصبر وترك اللهث، وهكذا الذي انسلخ من آيات الله لم يبقى معه فؤادٌ يحمله على الصبر عن الدنيا وترك اللهف عليها، فهذا يلهف على الدنيا من قلة صبره عنها، وهذا يلهث من قلة صبره عن الماء، فالكلب من أقل الحيوانات صبرًا عن الماء، وإذا عطش أكل الثرى من العطش وإن كان صبر على

الجوع، وعلى كل حالٍ فهو من أشد الحيوانات لهثًا، يلهث قائمًا وقاعدًا وماشيًا وواقفًا، ذلك لشدة حرصه، فحرارة الحرص في كبده توجب له دوام اللهث، فهكذا مشبهه شدة حرارة الشهوة في قلبه توجب له دوام اللهث، فإن حملت عليه الموعظة والنصيحة فهو يلهف، وإن تركته ولم تعظه فهو يلهف.
قال مجاهد: وذلك مثل الذي أوتي الكتاب ولم يعمل به». (قاله ابن القيم في الجامع لأمثال القرآن صـ١٠٤).

المعنى التفصيلي

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ): أعقب ما يفيد أن التوحيد جعل في الفطرة بذكر حالة اهتداء بعض الناس إلى نبذ الشرك في مبدأ أمره، ثم تعرض وساوس الشيطان له لتحسين الشرك.

ومناسبتها للتي قبلها إشارة العبرة من حال أحد الذين أخذ الله عليهم العهد بالتوحيد والامتثال لأمر الله، وأمده الله بعلم يعينه على الوفاء بما عاهد الله عليه في الفطرة ثم لم ينفعه ذلك كله حين لم يقدر الله له الهدى المستمر.

وشأن القصص المفتتحة بقوله (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ) أن يقصد منها وعظ المشركين بصاحب القصة بقرينة قوله (ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ) إلخ، ويحصل من ذلك أيضًا تعليم المثل قوله، (واتل عليهم نبأ نوح - واتل عليهم نبأ إبراهيم - نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق)، ونظائر ذلك، فضمير (عَلَيْهِمْ) راجع إلى المشركين الذين وجهت إليهم العبر والمواعظ من أول هذه السورة وقصت عليهم قصص الأمم مع رسلهم على أن توجيه ضمائر الغيبة إليهم أسلوب متبع في مواقع كثيرة من القرآن.

ومناسبة فعل التلاوة لهم في قوله (وَاتْلُ) أنهم قوم تغلب عليهم الأمية، فأراد الله أن يبلغ إليهم من التعليم ما يساوون به حال أهل الكتاب في التلاوة، فالضمير المجرور بـ "على" عائد إلى معلوم بالسياق وهم المشركون، وكثيرًا ما يجيئ ضمير جمع الغائب في القرآن مرادًا به المشركون، كقوله (عم يتساءلون).

أما عن المعني به في الآية، فقيل: إنه أمية بن أبي الصلت الثقفي، وروي هذا عن عبد الله بن عمرو بن العاص بأسانيد كثيرة عند الطبري وعن زيد بن أسلم، وقال القرطبي في التفسير هو الأشهر وهو قول الأكثر، ذلك أن أمية بن أبي الصلت الثقفي كان ممن أراد اتباع دين غير الشرك طالبًا دين الحق، ونظر في التوراة الإنجيل فلم يرى النجاة في اليهودية ولا النصرانية، وتزاهد وتوخى الحنيفية دين إبراهيم، وأخبر أن الله يبعث نبيًا في العرب، فطمع أن يكون هو، ورفض عبادة الأصنام وحرم الخمر.

فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم أسف أن لم يكن هو الرسول المبعوث في العرب وقد اتفق أن خرج إلى البحرين قبل البعثة وأقام هناك ثمان سنوات، ثم رجع إلى مكة فوجد البعثة وتردد في الإسلام، ثم خرج إلى الشام ورجع بعد وقعة بدر فلم يؤمن بالنبي صلى الله عليه وسلم حسدًا ورثى من قُتل من المشركين يوم بدر وخرج إلى الطائف بلاد قومه فمات كافرًا، وقد قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: كاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم.

ومعنى (آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا) أن الله ألهم أمية كراهية الشرك وألقى في نفسه طلب الحق ويسر له قراءة كتب الأنبياء وحبب إليه الحنيفية، فلما انفتح له باب الهدى وأشرف نور الدعوة المحمدية، كابر وحسد وأعرض عن الإسلام، فلا جرم أن كانت حاله أنه انسلخ عن جميع ما يُسر له ولم ينتفع به عند إبان الانتفاع فكان الشيطان هو الذي صرفه عن الهدى فكان من الغاوين إذ مات على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم.

وقيل نزلت في أبي عامر بن صيفي الراهب واسمه النعمان الخزرجي، وهو قول سعيد بن المسيب، وذهب كثير من المفسرين إلى أنها نزلت في رجل من الكنعانيين وكان في زمن موسى عليه السلام يقال له بلعام بن باعور، فخلطوا وغيروها واختلفوا فيها، والتحقيق أن بلعام هذا كان من صالحي أهل مدين وعرافيهم في زمن مرور بني إسرائيل على

أرض (مؤاب)، ولكنه لم يتغير عن حال الصلاح، فلا ينبغي الالتفات إلى هذا القول لاضطرابه واختلاطه.

والإيتاء هنا مستعار للإطلاع وتيسير العلم، مثل قوله (وآتاه الله العلم والحكمة).

والآيات (دلائل الوحدانية). (التحرير والتنوير للطاهر لابن عاشور ١٧٣/٥).

(فَانسَلَخَ مِنْهَا) كفر بها وتركها وراء ظهره مبتعدًا عنها، وقال ابن عباس: نُزع منه العلم، والانسلاخ هو التعري من الشيء.

(فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ) أي عند انسلاخه عن الآيات، أي لحقه فأدركه وصار قرينًا له أو فأتبعه خطواته وصيره تابعًا لنفسه، وقيل اتبعه بمعنى استتبعه.

(فَكَانَ مِنْ الْغَاوِينَ) أي المتمكنين في الغواية وهم الكفار. (فتح البيان لصديق حسن القنوجي ٦١٧/٢).

وقوله تعالى: (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا) أفاد أن تلك الآيات شأنها أن تكون سببًا للهداية والتزكية، لو شاء الله له التوفيق ووعصمه من كيد الشيطان وفتنته فلم ينسلخ عنها، وهذه عبرة للموفقين ليعلموا فضل الله عليهم في توفيقهم، فالمعنى: ولو شئنا لزاد في العمل بما آتيناه من الآيات فلرفعه الله بعمله.

والرفعة مستعارة لكمال النفس وذكائها؛ لأن الصفات الحميدة تخيل صاحبها مرتفعًا على من دونه، أي لو شئنا لاكتسب بعمله بالآيات فضلاً وذكاءً وتميزًا بالفضل، فمعنى "لرفعناه" ليسرنا له العمل بها الذي يشرف به.

وقوله (وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ) أي ركن ومال إلى الأرض، والكلام تمثيل لحال المتلبس بالنقائص والكفر بعد الإيمان والتقوى بحال من كان مرتفعًا عن الأرض، فنزل من اعتلاء إلى الأسفل، فبذكر الأرض علم أن الإخلاد هنا ركون إلى السُفل، أي تلبس بالنقائص والمفاسد، وأصل الإخلاد: اللزوم، يقال أخلد فلان بالمكان، إذا قام به ولزمه، والمعنى أنه مال وسكن إلى الدنيا ورغب فيها ورضي بها واطمئن وآثرها على الآخرة.

ومعنى (إِلَى الأَرْضِ) هي هنا عبارة عن الدنيا لأن بها المفاوز والقفار والمدن والضياع والمعادن والنبات ومنها يُستخرج ما يُعاش به في الدنيا، فالدنيا كلها هي الأرض.

وقوله (وَاتَّبَعَ هَوَاهُ) أي ما يهواه وترك العمل بما يقتضيه العلم الذي علمه الله وهو حطام الدنيا، وقيل كان هواه مع الكفار، وهذه الآية من أشد الآيات على العلماء الذين يريدون بعلمهم الدنيا وشهوات النفس ويتبعون الهوى.

وقوله تعالى (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ) قال ابن عاشور في التحرير والتنوير (١٧٧/٥): وهذا التمثيل من مبتكرات القرآن، فإن اللهث حالة تؤذن بحرج الكلب من جراء عثر تنفسه عن اضطراب باطنه إن لم يكن لاضطراب باطنه سبب آت من غيره، فمعنى (إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ) أي إن تطارده وتهاجمه، مشتق من الحمل الذي هو الهجوم على أحد لقتاله، يقال حمل فلان على القوم حملة شعواء أو حملة منكرة، وقد أغفل المفسرون توضيحه وأغفل الراغب في مفردات القرآن هذا المعنى لهذا الفعل.

فهذا تشبيه تمثيل مركب منتزعة فيه الحالة المشبهة والحالة المشبه بها، فهذا التمثيل بأن يشبه الضال بالكلب، ويشبه شقاؤه واضطراب أمره في مدة البحث عن الدين بلهث الكلب في حالة تركه في دعة، تشبيه المعقول بالمحسوس، ويشبه شقاؤه في إعراضه عن الدين الحق عند مجيئه بلهث الكلب في حالة طرده وضربه تشبيه المعقول بالمحسوس.

والكلب حيوان من ذوات الأربع ذو أنياب وأظفار كثير النبح في الليل قليل النوم فيه كثير النوم في النهار يألف من يعاشره ويحرس مكانه من الطارقين الذين لا يألفهم ويحرس الأنعام التي يعاشرها ويعدو على الذئاب ويقبل التعليم ويلهث إذا أتعب أو اشتد عليه الحر، ويلهث بدون ذلك لأن في خلقته ضيقًا في مجاري النفس يرتاح له باللهث، واللهث سرعة التنفس مع امتداد اللسان لضيق النفس.

قال صديق حسن القنوجي في فتح البيان: والمعنى مثله كمثل الكلب حال كونه متصفًا بهذه الصفة: أي إن هذا المنسلخ عن الآيات لا يرعوي عن المعصية في جميع أحواله سواءً وعظه الواعظ وذكره المذكر وزجره الزاجر أو

لم يقع شيء من ذلك.

قال القتيبي: كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال وحال الراحة وحال المرض وحال الصحة وحال الري وحال العطش فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته فقال إن وعظته ضل وإن تركته ضل، فهو كالكلب إن تركته لهث وإن طردته لهث، كقوله تعالى (وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ) (الأعراف ١٩٣).

وقوله تعالى (ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا)، (ذلك) أي التمثيل بتلك الحالة الخسيسة، (مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) من اليهود بعد أن علموا بها وعرفوها فحرفوا وبدلوا وكتموا صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذبوا بها، وقيل: عم هذا المثل جميع من كذب بآيات الله وجحدها وهو الحق لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

(فَاقْصُصِ الْقَصَصَ) الذي هو صفة الرجل المنسلخ عن الآيات عليهم، فإن مثل المذكور كمثل هؤلاء القوم المكذبين من اليهود الذين نقص عليهم.

(لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) في ذلك ويُعملون فيه أفهامهم فينزجرون عن الضلال ويقبلون على الصواب، وقيل هذا المثل لكفار مكة ولا وجه لتخصيصه لفرد دون فرد والأولى هو العموم.

(ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون)

(ساء مثلاً) هذه الجملة متضمنه لبيان حال هؤلاء القوم البالغة في القبح إلى الغاية، يقال ساء الشئ، قبح، فهو لازم، وساءه يسوءه مساءة، فهو متعد وهو من أفعال الذم كبئس والمخصوص بالذم.

(القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون) أي ما ظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم، لا يتعداها ظلمهم إلى غيرها ولا يتجاوزها، وقيل المعنى أنهم جمعوا بين التكذيب بآيات الله وظلم أنفسهم وهذا أفيد. (فتح البيان لصديق حسن القنوجي ٢/٦١٩).

فوائد الآيات

١- قوله (آتيناه آياتنا)، فأخبر سبحانه أنه هو الذي آتاه آياته، فإنها نعمة والله هو الذي أنعم بها عليه فأضافها إلى نفسه ثم قال: (فانسلخ منها) أي خرج منها كما تنسلخ الحية من جلدها، وفارقها فراق الجلد ينسلخ عن اللحم، ولم يقل فسلخناه منها، لأنه هو الذي تسبب إلى انسلاخه منها باتباعه هواه.

٢- ومنها قوله تعالى (فأتبعه الشيطان) أي لحقه وأدركه كما قال سبحانه (فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ) (الشعراء ٦٠). وكان محفوظا محروسًا بآيات الله محمي الجانب بها من الشيطان، لا ينال منه شيئًا إلا على غرة وخطفة، فلما انسلخ من آيات الله ظفر به الشيطان ظفر الأسد بفريسته، فكان من الغاوين العاملين بخلاف علمهم الذين يعرفون الحق ويعملون بخلافه كعلماء السوء.

٣- ومنها أنه سبحانه وتعالى قال (ولو شئنا لرفعناه بها)، فأخبر سبحانه أن الرفعة عنده ليست بمجرد العلم، وإنما هي باتباع الحق وإيثاره وقصد مرضاة الله، فإن هذا كان من أعلم أهل زمانه ولم يرفعه الله بعلمه ولم ينفعه به، فنعوذ بالله من علم لا ينفع، وأخبر سبحانه أنه هو الذي يرفع عبده بما شاء بما آتاه من العلم وإن لم يرفعه الله فهو موضوع لا يرفع أحدًا به رأسًا، فإن الخافض الرافع هو الله سبحانه وتعالى، خفضه ولم يرفعه، والمعنى: لو شئناه فضلناه وشرفناه ورفعنا قدره ومنزلته بالآيات التي آتيناها. (هذه الفوائد الثلاثة لابن القيم في الجامع لأمثال القرآن صـ ١٠٧).

٤- ومنها أن المَعْنِي بالآية فارق الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبدًا، فإنه انسلخ من الآيات بالجمله كما تنسلخ الحية من قشرها ولو بقي معه منها شيء لم ينسلخ منها.

٥- أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه، ولهذا قال (فأتبعه الشيطان) ولم يقل (تبعه)، فإن في معنى أتبعه، أدركه ولحقه، وهو أبلغ من (تبعه) لفظًا ومعنى.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الأمثال في القرآن

(مثل الحياة الدنيا)

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعدُ:

ففي هذا المقال نتحدث عن مثل آخر من الأمثال القرآنية، وهو من سورة يونس، الآيتان الرابعة والعشرون والخامسة والعشرون، وهما: «إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ» (يونس: ٢٤- ٢٥).

المعنى الإجمالي:

هذا مثل ضربه الله تعالى للحياة الدنيا في تزينها في عين الناظرين، فتبهرهم بزينتها وتُعجبهم فيميلوا إليها، اغترارًا بها، حتى إذا ظنوا أنهم مالكون لها قادرون عليها سُلبوها بغتة أحوجَ ما كانوا إليها، وحيل بينهم وبينها، فشبهها بالأرض التي ينزل الغيث عليها فتعشبُ، ويحسن نباتها، ويروق (أي يُعجبُ) منظرها للناظر، فيغتر به، ويظن أنه قادر عليها مالك لها، فيأتيها أمر الله فتدرك نباتها الآفةُ بغتة، فتصبح كأن لم تكن قبلُ فيخيب ظنهُ، وتصبح يداه صفرًا منها، فهكذا حال الدنيا، والواثقُ بها سواءٌ، وهذا من أبلغ التشبيه والقياس. (انظر: الجامع لأمثال القرآن ص١١٢).

ولما كانت الدنيا عرضة لهذه الآفات، والجنة سليمةً منها، قال الله تعالى: «وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ» (يونس ٢٥)، فسماها هنا دار السلام لسلامتها من هذه الآفات التي ذكرها في الدنيا، فعمَّ بالدعوة إليها، وخص بالهداية من شاء، فذاك عدلهُ وهذا فضله.

المعنى التفصيلي:

قوله تعالى: «إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ» (يونس: ٢٤)، إنما ليست للحصر الحقيقي، بل للحصر الإضافي (المجازي)؛ لأنه تعالى ضرب للحياة الدنيا أمثالاً غير هذا، وليس المشبه به هو ما دخله الكاف في

قوله: «كماء»، بل ما يفهم من الكلام.
«مثل»: قال ابن فارس في «معجم مقاييس اللغة» (٥/٢٩٦): المَثَل والمِثَال في معنى واحد، وربما قالوا: مَثِيل كشبيه.
وقال الفيروزآبادي في البصائر (٤/٤٨١): المَثَل، والمِثْل، والمَثِيل- كالشَّبَه، والشِّبْه، والشَّبِيه، لفظًا ومعنى، والجمع أمثال..
وقد يستعمل المثل- بكسر الميم- عبارة عن المشابه لغيره في معنى من المعاني أي معنى كان». اهـ.
والمَثَـلُ- بفتح الميم والثاء- يستعمل غالبًا في الأمور المعنوية لتقريبها بالمعاني الحسية، لهذا قال الله تعالى: «لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (النحل: ٦٠)، وقال الراغب في «مفرداته» (ص٤٦٢): «المَثَل: عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره. وعلى هذا الوجه ما ضرب الله تعالى من الأمثال، فقال: «وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» (الحشر: ٢١). اهـ «مفردات الراغب».
وأكثر أمثال القرآن الكريم نجد وجه الشبه فيها منتزعًا من هيئة مركبة فيها الصوت واللون والحركة، ويحتاج البليغ في إدراكه إلى إعمال فكر وإمعان نظر، فإذا استطاع أن يدرك وجه الشبه بين الطرفين- نوع إدراك- ملك عليه التمثيل مشاعره، وبهره ما فيه من جمال التعبير ودقة التصوير وروعة البيان، فالأمثال القرآنية مقاييس عقلية، تخلو من التكلف والاعتساف، وقواعد كلية للمبادئ الخلقية الصالحة لكل زمان ومكان والأصل في المثل- كما عرفنا- أنه يقوم على تشبيه شيء بشيء لوجود عنصر تشابه بينهما أو أكثر.
والمثل القرآني أسلوب بياني يجمع في طياته نماذج حية مستمدة من الواقع المشاهد، لتكون هذه النماذج أقيسة عامة للحقائق المجردة أو الأعمال المجرية، أو الأمور التي لا تقع تحت الحس والإدراك في الدنيا، والتي يترتب عليها أحكام شمولية، ويبنى عليها صلاح أمر الناس في الدنيا والآخرة. (الأمثال القرآنية، دراسة تحليلية، د. محمد بكر إسماعيل ص١٩).
«الحياة الدنيا»: الدنيا دار التكليف والخلافة في الأرض، وقد سُميت دنيا إما لدناءتها، وإما لدنوها وقرب زوالها، أو سميت بذلك للمعنيين معًا.
ولما كانت الدنيا تغر وتمر في سرعة البرق الخاطف أو الريح العاصف وفيها من ألوان البهجة والزينة والزخرف ما يحمل الإنسان على التمسك بها والتشبث بمتاعها، والتعلق بزخارفها مما يجعله ينسى الدار الآخرة التي هي دار القرار والنعيم الأبدي لمن آمن وعمل صالحا ثم اهتدى، لما كان أمر الدنيا كذلك- وأمر الإنسان فيها على ما ذكر- ضرب لها الحق سبحانه مثلاً يكشف عن حقيقتها، وسرعة زوالها، فقال سبحانه: «إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» الآية. (الأمثال القرآن دراسة تحليلية بتصرف).
«كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ» وهو المطر.
«فَاخْتَلَطَ بِهِ» الباء هنا للسببية، أي: بسببه.
«نَبَاتُ الْأَرْضِ» بأن اشتبك بعضه ببعض لكثرته حتى بلغ إلى حد الكمال، ويحتمل أن يُراد أن النبات كان في أول بروزه ومبدأ حدوثه غير مهتز، ولا مترعرع فإذا نزل الماء اهتز، ورَبَا حتى اختلط بعض الأنواع ببعض.
«مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ» وصف لنبات الأرض الذي منه أصناف يأكلها الناس من الخضروات والبقول، وأصناف تأكلها الأنعام من العشب والكلأ، وذلك يشبَّه به ما ينعم به الناس في الحياة من اللذات، وما ينعم به الحيوان، فإن له حظاً في نعيم الحياة بمقدار نطاق حياته.
ولما كان ذلك قد تضمن المأكول والآكل صح أن تُشبه به رغبات الناس في تناول لذائذ الحياة على حسب اختلاف مراتب الهمم، وذلك يتضمن تشبيه معالي الأمور من نعيم الدنيا، التي تسمو إليها الهمم العوالي بالنبات الذي يقتاته الناس، وتشبيه سفاسف الأمور بالنبات الذي يأكله الأنعام، ويتضمن تشبيه الذين يجنحون إلى تلك السفاسف بالأنعام، كقوله تعالى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ». والمعنى: أن الأرض

أخذت لونها الحسن المشابه للون الذهب، وبعضه للون الفضة، وبعضه للون الزمرد.
قال في الصحاح: الزخرف الذهب ثم يشبه كل مموه. اهـ.
وفي القاموس: الزخرف بالضم الذهب وكمال حسن الشيء، ومن القول حسنه، ومن الأرض ألوان نباتها، والمعنى أن الأرض استوفت واستكملت لونها الحسن المشابه بعضه للون الذهب وبعضه للون الفضة.
و«حتى» غاية لمحذوف، أي ما زال ينمو ويزهر حتى أخذت حسنها ونضارتها وبهجتها، وأظهرت ألوان زهرها من أبيض وأخضر وأحمر وأصفر وغير ذلك. اهـ. القاموس.
وقال القرطبي في تفسيره (٣٢٥٤/٤) في تفسير قوله تعالى: «حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا» (يونس: ٢٤): أيْ حُسْنَهَا وَزِينَتَهَا. وَالزُّخْرُفُ كَمَالُ حُسْنِ الشَّيْءِ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلذَّهَبِ: زُخْرُفٌ.
(وَازَّيَّنَتْ) أَيْ: بِالْحُبُوبِ وَالثِّمَارِ وَالْأَزْهَارِ، وَالْأَصْلُ تَزَيَّنَتْ أُدْغِمَتِ التَّاءُ فِي الزَّايِ وَجِيءَ بِأَلِفِ الْوَصْلِ، لِأَنَّ الْحَرْفَ الْمُدْغَمَ مَقَامُ حَرْفَيْنِ الْأَوَّلُ مِنْهُمَا سَاكِنٌ وَالسَّاكِنُ لَا يُمْكِنُ الِابْتِدَاءُ بِهِ. اهـ.
وإطلاق أخذت الأرض زخرفها على حصول الزينة فيها استعارة مكنية، شبهت الأرض بالمرأة حين تريد التزين فتحضر فاخر ثيابها من حلي وألوان، والعرب يطلقون على ذلك التناول اسم الأخذ، قال الله تعالى: «يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ».
وقال بشار بن برد:

وخُذي مَلابس زينة ومُصبَّغاتٍ وهي أفخرُ

قوله: «وظن أهلها»: أي: أهل تلك الأرض الآخذة زخرفها.
«أنهم قادرون عليها»: أي: غلب على ظنونهم، أو تيقنوا أنهم قادرون على حصادها والانتفاع بها محصلون لثمرتها رافعون لغلتها متمكنون من قطافها، والضمير في (عليها) للأرض، والمراد النبات الذي هو عليها. (فتح البيان لصديق حسن القنوجي ٢٢٦/٣).
وقال ابن عاشور في «التحرير والتنوير» (١٤٣/٦): ومعنى «أنهم قادرون عليها» أنهم مستمرون على الانتفاع بها محصلون لثمراتها، فأطلق على التمكن من الانتفاع ودوامه لفظ القدرة على وجه الاستعادة.
قوله: «أتاها أمرنا» أي: قضاؤنا أو أمرنا بهلاكها.
«ليلاً أو نهارًا» أو للتنويع أي تارة يأتي قضاؤنا وعذابنا ليلاً، وتارة يأتي نهارًا، «فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا» أي: جعلنا زرعها شبيهًا بالمحصود في قطعه من أصوله.
قال أبو عبيدة: الحصيد: المستأصل وقيل المقطوع بالمناجل.
واعلم أن في قوله تعالى: «أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا» إشارة لإرادة الاستئصال فهو ينذر بالتهديد للكافرين ويجعل التمثيل أعلق بحياتهم، كقوله تعالى: «حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ» لا سيما وقد ضرب هذا المثل لتمتع الكافرين ببغيهم وإمهالهم عليه، ويزيد تلك الإشارة وضوحًا قوله: «وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا» المؤذن بأن أهلها مقصودون بتلك الإصابة.
والحصيد: المحصود، وهو الزرع المقطوع من منابته، والإخبار عن الأرض بحصيد على طريقة المجاز العقلي وإنما المحصود نبأتها. ومعنى: «كأن لم تغن» أي: كأن لم يكن زرعها موجودًا فيها بالأمس مخضرًا طريًا.
والباء في «بالأمس» للظرفية، والأمس: اليوم الذي قبل يومك، واللام فيه مزيدة لتملية اللفظ مثل الذي في كلمة الآن. والمراد بالأمس في الآية مطلق الزمن الذي مضى لأن (أمس) يستعمل بمعنى ما مضى من الزمان، كما يستعمل الغد في معنى المستقبل واليوم في معنى الحال.
قوله: «كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».
«كذلك» أي: مثل ذلك التفصيل البديع.
وهذه الجملة تذييل جامع، أي: مثل هذا التفصيل نفصل أي نبين الدلالات كلها الدالة على عموم العلم والقدرة وإتقان الصنع، فهذه آية من الآيات المبينة وهي واحدة من عموم الآيات، وتقدم نظيره في قوله تعالى: «وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ» (الأنعام: ٥٥)، واللام في «لقوم يتفكرون» لام الأجل، أي: لأجل أن يتفكروا.
والتفكر: التأمل والنظر، وهو تفعل مشتق من الكفر وقد مر عند قوله تعالى: «قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ» (الأنعام: ٥٠)، وفيه تعريض بأن الذين لم ينتفعوا بالآيات

ليسوا من أهل التفكر ولا كان تفصيل الآيات لأجلهم.

قوله: «والله يدعو إلى دار السلام»:

قال ابن عاشور في التحرير والتنوير (١٤٤/٦): «الجملة معطوفة على جملة: «كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» أي: نفصل الآيات التي منها آية الدنيا وتقضيها، وندعو إلى دار الإسلام دار الخلد». اهـ. وقال ابن كثير: «لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها، رغب في الجنة ودعا إليها وسماها دار السلام، أي: من الآفات والنقائص والنكبات، فقال: «وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ». اهـ».

وقال صديق حسن خان القنوجي في «فتح البيان» (٢٢٨/٣): لما نفر عباده عن الميل إلى لدنيا بما ضربه من المثل السابق، رغبهم في الدار الآخرة بإخبارهم بهذه الدعوة منه عز وجل إلى دار السلام، قال الحسن وقتادة: السلام هو الله تعالى، وداره الجنة. وقال الزجاج: والمعنى: والله يدعو إلى دار السلامة، ومعنى السلام والسلامة واحد كالرضاع والرضاعة».

وقيل: أراد السلام الذي هو التحية لأن أهلها ينالون من الله السلام بمعنى التحية كما في قوله: «تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ» (إبراهيم: ٢٣).

وقيل: السلام اسم لأحد الجنان السبع أحدها: دار السلام، والثانية: دار الجلال، والثالثة: جنة عدن، والرابعة: جنة المأوى. والخامسة: جنة الخلد، والسادسة: جنة الفردوس. والسابعة: جنة النعيم. وقيل: أراد دار للسلام الواقع من المؤمنين بعضهم على بعض في الجنة، وقد اتفقوا على أن دار السلام هي الجنة، وانما اختلفوا في سبب التسمية بدار السلام.

وقال أحمد بن عبد الرحمن القاسم في «تفسير القرآن بالقرآن» (١٢٧/٣): «والله يدعو» في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، «إلى دار السلام» والنعيم بالإيمان وصالح الأعمال واجتناب ما ينالي ذلك من الشرك والمعاصي بخلاف دعاة الضلال والشر والفاسد الذين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف من المنافقين الذين هم بين أظهر المسلمين في كل زمان ومكان فإنهم يدعون إلى النار بالكلام المعسول، وسماها تعالى دار السلام لسلامتها من جميع الآفات والمؤذيات من الحر والبر والسباع والمجرمين والفساق والسُّراق والحشرات والبعوض والذباب، وسلامة أهلها من الأمراض والهرم والموت والتعب والجوع والعطش، وسلامة قلوبهم قلوبهم من الهم والغم والحسد، بخلاف دار الدنيا التي لا تخلو من الآفات والمصائب والأحزان والكوارث والمنغصات. اهـ.

قوله: «ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم»:

والهداية التي هي الإرشاد مختصة بمن قدر إيمانه.

قال أبو العالية: يهديهم للمخرج من الشبهات والفتن والضلالات.

«إلى صراط مستقيم» أي: دين الإسلام، جعل سبحانه الدعوة إلى دار السلام عامة والهداية خاصة بمن يشاء أن يهديه تكميلاً للحجة وإظهارًا للاستغناء عن خلقه. اهـ.

وللحديث بقية إن شاء الله، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تهنئة

تتقدم أسرة تحرير مجلة التوحيد بخالص التهنئة للأستاذ جلال عبد الحميد محمد بيومي غالي، لحصوله علي الدكتوراه بتقدير مرتبة الشرف الأولي من كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة وقد تكونت لجنة المناقشة من أ.د/ صابر احمد طه مشرفا ود. اسماعيل عبدالعليم مشرفا متابعا.

وتهنئة خاصة من الاستاذ حسين عطا القراط مدير تحرير مجلة التوحيد متمنيا له دوام التقدم والرقي.

دراسات قرآنية

الأمثال في القرآن

مثل الأعمى والأصم والبصير والسميع

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعدُ:

ففي هذا المقال نتحدث عن مثل آخر من الأمثال في القرآن وهو قول الله تعالى: «مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» (هود:٢٤)، وقبل أن نتحدث عن التفسير الإجمالي فهناك مدخل ومقدمة للكلام حول هذه الآية وهذا المثل.

فقد أنزل الله تعالى على نبيه محمد عليه الصلاة والسلام كتابًا عزيزًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فاستمع إليه المؤمنون بآذانهم ووعته قلوبهم، وانشرحت له صدورهم وامتلأت به مشاعرهم، واقشعرت لجلاله أفئدتهم ولانت من خشيته جلودهم فكانوا به على هدى من ربهم ونور.

أما المشركون الذين طمس الله على أبصارهم وبصائرهم، وأهل الكتاب الذين أضلهم الله على علم، وختم على سمعهم وقلوبهم وجعل على أبصارهم غشاوة- أما هؤلاء وأولئك ممن غضب الله عليهم ولعنهم- فهم والمؤمنون على طرفي نقيض لا يجتمعان على خير، ولا يلتقيان على هدى، ولا يشتركان في مصير.

وقد ضرب الله مثلاً بليغًا يبين فيه الفرق بينهما ويكشف عن حال كل منهما فقال جل وعلا في سورة هود: «مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» (هود:٢٤). (الأمثال القرآنية دراسة تحليلية، د/محمد بكر إسماعيل ص١٢٩).

المعنى الإجمالي:

قال ابن كثير في تفسيره: لما ذكر الله تعالى الأشقياء ثَنَّى بذكر السعداء وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات فآمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة قولاً وفعلاً، من الإتيان بالطاعات وترك المنكرات، وبهذا ورثوا الجنان المشتملة على الغرف العاليات والسُّرر المصفوفات، والقُطوف الدانيات، والفرش المرتفعات والحسان الخيرات، والفواكه المتنوعات، والمآكل المشتهيات، والمشارب المستلذات، والنظر إلى خالق الأرض والسماوات، وهم في ذلك خالدون لا يموتون، ولا يهرمون، ولا يمرضون، ولا ينامون ولا يتغوطون، ولا يبصقون ولا يتمخطون، إن هو إلا رشح مسك يعرقون.

ثم ضرب تعالى مثلاً للكافرين والمؤمنين، فقال: «مثل الفريقين»، أي: الذين وصفهم أولاً بالشقاء، والمؤمنين بالسعادة، فأولئك

كالأعمى والأصـم، وهـؤلاء كالبصير والسميع، فالكافر أعمى عن وجه الحق في الدنيا والآخـرة لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه، أصم عن سماع الحجج فلا يسمعُ ما ينتفع به، « وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ » (الأنفال:٢٣).

وأما المؤمنُ: ففطنٌ ذكيٌ لبيبٌ بصيرٌ بالحقِّ يُميزُ بينه وبين الباطل، فيتبعُ الخير ويتركُ الشرَّ للحُجة يفرقُ بينها وبين الشبهة فلا مُروَّج عليه باطل، فهل يستوي هذا وهذا. اهـ. (من تفسير ابن كثير بتصرف).

المعنى التفصيلي:

قوله: «مثل» والمثل بالتحريك: الحالة والصفة كما في قوله تعالى: « مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ » (الرعد:٣٥)، أي: حالة الفريقين المشركين والمؤمنين تشبه حال الأعمى الأصم من جهة وحال البصير السميع من الجهة الأخرى، فالكلام تشبيه وليس استعارة لوجود كاف التشبيه وهو أيضًا تشبيه مفرد لا مركب، والفريقان هما المعهودان في الذكر في هذا الكلام، وهما فريق المشركين وفريق المؤمنين، إذ سيق ما يؤذن بهذين الفريقين من قوله: « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا » (العنكبوت:٦٨)، ثم قوله: « إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ » (هود:٢٣).

والفريق: الجماعة التي تفارق، أي: يخالف حالها حال جماعة أخرى في عمل أو نحلة (أي صفة)، وتقدم عند قوله تعالى: « فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ » (الأنعام:٨١).

شبه حال فريق الكفار في عدم الانتفاع بالنظر في دلائل وحدانية الله الواضحة من مخلوقاته بحال الأعمى، وشبهوا في عدم الانتفاع بأدلة القرآن بحال من هو أصم.

وشبه حال فريق المؤمنين في ضد ذلك بحال من كان سليم البصر سليم السمع فهو في هدى ويقين. (التحرير والتنوير لابن عاشور: ٦/ ٤٠).

قال ابن القيم في قوله: « مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ » (هود:٢٤) فإنه ذكر الكفار ووصفهم بأنهم ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون.

ثم ذكر المؤمنين، ووصفهم بالإيمان والعمل الصالح والإخبات إلى ربهم فوصفهم بعبودية الظاهر والباطن، جعل أحد الفريقين كالأعمى والأصم من حيث كان قلبُه أعمى عن رؤية الحق أصم عن سماعه فشبه بمن بَصَرُه أعمى عن رؤية الأشياء، وسمعه أصم عن سماع الأصوات، والفريق الآخر بصيرُ القلب سميعُه كبصير العين وسميع الأذن، فتضمنت الآية قياسين وتمثيلين للفريقين، ثم نفى التسوية عن الفريقين بقوله: « هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا » (هود:٢٤). (إعلام الموقعين ٢/ ٢٧٥).

وقوله: « هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا » (هود:٢٤) أي: هل يستوي هذان الفريقان على اختلاف حالتيهما في أنفسهما عندكم أيها الناس؟ كلا، فإنهما لا يستويان، فكذلك حال الكافر والمؤمن لا يستويان عند الله.

«مثلاً» أي: حالاً وصفة. قال ابن عطية في المحرر الوجيز و«مثلاً» نصب على التمييز، ويجوز أن يكون حالاً.

وقال أبو حيان: والظاهر التمييز، وأنه منقول من الفاعل، وأصله هل يستوي مثلاهما؟ ولم يذكر القرطبي في إعرابه غير التمييز.

قوله: «أفلا تذكرون» أي: أفلا تعتبرون وتتعظون أيها المشركون والملحدون والمنافقون فتتوبون إلى ربكم في هذه الحياة وتستقيمون على ما فيه صلاحكم

وسعادتكم في الدنيا والآخرة إن كانت لكم عقول تعقلون بها وآذان تسمعون بها وأعين تبصرون بها. (تفسير القرآن بالقرآن لأحمد القاسم ٣/١٧٧).

والهمزة في قوله: «أفلا» استفهام وإنكار انتفاء تذكرهم واستمرارهم في ضلالهم. والمقصود تنبيه المشركين لما هم فيه من الضلالة لعلهم يتداركون أمرهم فلذلك فرع عليه بالفاء جملة «أفلا تذكرون».

وقرأ الجمهور «تذكرون» بتشديد الذال وأصله تتذكرون، فقلبت التاء دالاً لقرب مخرجيهما وليتأتى الإدغام تخفيفًا. وقرأه حفص وحمزة والكسائي- بتخفيف الذال- على حذف إحدى التاءين من أول الفعل. (التحرير والتنوير ٦/٤٣).

من فوائد الآية:

١- أن الداعي إلى عطف صفة (الأصم) على صفة (الأعمى) أنه ملحوظ فيه أن فريق الكفار حالين كل حال منهما جدير بتشبيهه بصفة من تينك الصفتين على حدة، فهم يُشبهون الأعمى في عدم الأهتداء إلي الدلائل التي طريقة ادراكها البصر ويشبهون الأصم في عدم فهم المواعظ النافعة التي طريق فهمها السمع، فهم في حالتين كل حال منهما مشبّه به.

ففي قوله تعالى: «كالأعمى والأصم»، تشبيهان مفرقان، والذي في الآية تشبيه معقولين بمحسوسين، واعتبار كل حال من حالي فريق الكفار لا محيد عنه لأن حصول أحد الحالين كاف في جر الضلال إليهم حال اجتماعهما، إذ المشبه بهما أمر عدمي فهو في قوة المنفي.(التحرير والتنوير).

٢- أن الداعي إلى العطف في صفتي (البصير والسميع) بالنسبة لحال فريق المؤمنين فبخلاف ما قررنا في حال فريق الكافرين لأن حال المؤمنين تشبه حالة مجموع صفتي (البصير السميع)، إذ الاهتداء يحصل بمجموع الصفتين فلو ثبتت إحدى الصفتين وانتفت الأخرى لم يحصل الاهتداء إذ الأمران المشبه بهما أمران وجوديان، فهما في قوة الإثبات فتعين أن الكون الداعي إلى عطف (السميع) على (البصير) في تشبيه فريق المؤمنين هو المزاوجة في العبارة لتكون العبارة عن حال المؤمنين مماثلة للعبارة عن حال الكافرين في سياق الكلام والمزاوجة من محسنات الكلام ومرجعها إلى فصاحته. (المصدر السابق بتصرف). وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

إشهار

تم بحمد الله تعالى قيد جمعية أنصار السنة المحمدية فرع كفر أشليم مركز قويسنا محافظة المنوفية؛ طبقًا لأحكام القانون رقم (٨٤) لسنة ٢٠٠٢ تحت إشراف إدارة الجمعيات بمديرية الشئون الاجتماعية برقم (١٩٧٤) بتاريخ ٢٠١٦/١/٢٧م.

إنا لله وإنا إليه راجعون

تحتسب جماعة أنصار السنة المحمدية بمنشأة البكاري بالجيزة اثنين من رجالها الأوائل وهما: الشيخ حافظ رزق حافظ، والشيخ محمد عبود أبو فاطمة، رحمهما الله رحمة واسعة، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا؛ وانا لله وإنا إليه راجعون.

دراسات قرآنية

الأمثال في القرآن

«مثل الذين يدعون من دون الله»

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعدُ:

ففي هذا المقال نتحدث عن مثل آخر من الأمثال في القرآن، وهو قول الله تعالى: «لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ» (الرعد:١٤).

المعنى الإجمالي:

هذا مثل ضربه الله تبارك وتعالى أن الذي يدعو من دون الله الوثن والحجر لا يستجيب له بشيء أبدًا في الدنيا، ولا يسوق إليه خيرًا، ولا يدفع عنه سواء، حتى يأتيه الموت كمثل الذي بسط ذراعيه إلى الماء ليبلغ فاه ولا يبلغ فاه ولا يصل ذلك إليه حتى يموت عطشًا. رواه ابن جرير.

والآية الكريمة تفيد إخباره تبارك وتعالى أن له دعوة الحق بعبادته وحده الذي يجيب دعاء الداعي دون غيره من المعبودات بقوله: «لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ» (الرعد:١٤)، فهو الإله الحق الذي بيده خزائن السماوات والأرض، فيجيب سائله لما فيه نفعه وصلاحه في دينه ودنياه وآخرته، ويدفع عنه الضر والشر. (تفسير القرآن بالقرآن، لأحمد بن عبد الرحمن القاسم).

المعنى التفصيلي:

قوله تعالى: «لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ» (الرعد:١٤)، الضمير في «له» عائد على اسم الله تبارك وتعالى.

و«الدعوة» طلب الإقبال، وكثرة إطلاقها على طلب الإقبال للنجدة أو للبذل، وذلك متعين فيها إذا أُطلقت في جانب الله لاستحالة الإقبال الحقيقي، فالمراد طلب الإغاثة أو النعمة، وإضافة الدعوة إلى الحق إما من إضافة الموصوف إلى الصفة إن كان الحق بمعنى مصادفة الواقع، أي الدعوة التي تصادف الواقع، أي استحقاقه إياها، وإما من إضافة الشيء إلى منشئه كقولهم: برود اليمن، أي الدعوة الصادرة عن حق وهو ضد الباطل، فإن دعاء الله يصدر عن اعتقاد الوحدانية وهو الحق، وعبادة الأصنام تصدر عن اعتقاد الشرك وهو الباطل، واللام للمُلك المجازي وهو الاستحقاق، وتقديم الجار والمجرور على المبتدأ لإفادة التخصيص، أي دعوة الحق ملكه لا ملك غيره، وهو قصر إضافي.

وقد صُرح بمفهوم جملة القصر بجملة «وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ» (الرعد:١٤)، فكانت بيانًا لها، وكان مقتضى الظاهر أن تُفصل ولا تُعطف، وإنما عُطفت لما فيها من التفصيل والتمثيل، فكانت زائدة على مقدار البيان، والمقصود بيان عدم استحقاق الأصنام أن يدعوها الداعون.

واسم الموصول صادق على الأصنام، وضمير «يدعون» للمشركين، ورابط الصلة ضمير نصب محذوف.

والمراد بـ «باسط كفيه» من يغترف ماء بكفين مبسوطتين غير مقبوضتين؛ إذ الماء لا يستقر فيهما.

وهذا كما يقال: هو كالقابض على الماء، في تمثيل إضاعة المطلوب، وأنشد أبو عبيدة:

فأصبحت فيما كان بيني وبينها
من الودّ مثل القابض الماء باليد

و«إلى» للانتهاء لدلالة «باسط» على أنه مدٌّ إلى الماء كفيه مبسوطتين، واللام في «ليبلغ» للعلة.

وضمير «يبلغ» عائد إلى الماء، وكذلك ضمير «هو»، والضمير المضاف إليه في «بالغه» للفم.

ومعنى الكلام: والذين يدعونهم الكفار في حوائجهم ومنافعهم لا يجيبون بشيء.

ثم مثل تعالى مثالاً لإجاباتهم بالذي يبسط

كفيه نحو الماء ويشير إليه بالإقبال إلى فيه، فهو لا يبلغ فمه أبدًا، فكذلك إجابة هؤلاء والانتفاع بهم لا يقع. (ما سبق مستفاد من المحرر الوجيز لابن عطية (م٥)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (م٧».

وقال صديق حسن خان في «فتح البيان»:

أعلم الله سبحانه أن دعاءهم الأصنام كدعاء العطشان إلى الماء يدعوه إلى بلوغ فمه، وليس الماء ببالغه، وقيل: إنه كباسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه فلا يحصل في كفه شيء منه، وقد ضرب العرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلاً بالقبض على الماء، وقال الفراء: إن المراد بالماء هنا ماء البئر؛ لأنها معدن للماء، وأنه شبهه بمن مدَّ يديه إلى البئر بغير رشًا.

ضرب الله سبحانه هذا مثلاً لمن يدعو غيره من الأصنام، عن عليّ قال: "كان الرجل العطشان يمد يده إلى البئر ليرتفع الماء إليه وما هو ببالغه"، وعن ابن عباس قال: "هذا مثل المشرك الذي عبَد مع الله غيره، فمثله كمثل الرجل العطشان الذي ينظر إلى خياله في الماء من بعيد وهو يريد أن يتناوله ولا يقدر عليه. (انتهى من «فتح البيان» ٣/٩٤).

قوله تعالى: «وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ»:

هذه الجملة عطف على جملة: «والذين يدعون من دونه» لاستيعاب حال المدعو وحال الداعي، فبينت الجملة السابقة حال عجز المدعو عن الإجابة، وأعقبت بالتمثيل المشتمل على كناية وتلميح، واشتمل ذلك أيضًا بالكناية عن خيبة الداعي.

وبينت هذه الجملة الثانية حال خيبة الداعي بالتصريح عقب تبينه بالكناية، فباختلاف الفرض والأسلوب حَسُن العطف وبالمآل حصل توكيد الجملة الأولى وتقريرها، وكانت الثانية كتفصيل للجملة الأولى.

قوله تعالى: «إلا في ضلال»: الضلال: التلف والضياع، (وفي) للظرفية المجازية لدلالة على التمكن في الوصف أي إلا ضائع ضياعًا شديدًا.

والضلال خسران؛ لأن الداعي محروم من الإجابة في الدنيا والآخرة، ومقطوع الصلة بالله، ومحروم من دخول الجنة مقطوع له بدخول النار والخلود فيها إذا مات على شركه وضلاله، والعياذ بالله منها. (مستفاد من التحرير والتنوير ٧/١٠٩-١١٠، وتفسير القرآن بالقرآن ٣/٢٨٩).

فوائد الآية:

١- التمثيل في الآية هيئة منتزعة من عدة أوصاف تتألف منها صورة كلية لا تتجزأ إلا مع شيء من التكلف، كأن يقال: شبَّه الله حال الكافر، وهو يبسط يده إلى الأصنام بالدعاء برجل باسط كفيه إلى الماء، فلا الأصنام تسمع ولا الماء يجيب.

٢- وشبَّه الكافر في انقطاع أمله من إجابة الأصنام التي يدعوها بانقطاع أمل طالب الماء دون أن يبذل جهدًا في رفعه إلى فيه.

٣- وشبَّه الداعي إلى الأصنام في سفهه وحمقه- بالذي يبسط كفيه إلى الماء دون أن يضعها فيه، فيغترف منه غرفة يرفعها إلى فيه، فأي حمق هذا؟!

إنها صورة معبرة عن حال مزرية للكافر ألغى عقله حتى أصبح معقولاً عن التفكير، واستمسك بما وجد عليه آباءه من غير وعي ولا إدراك ولا نظر فيما جاءتهم به الرسل، فضلوا وأضلوا عن سواء السبيل، واستوجبوا بذلك الخسران المبين في الدنيا والآخرة.

٤- الغرض من إيراد هذا المثل على هذا النحو البديع- التنفير من دعاء غير الله، والإقناع بلفت النظر إلى الحقيقة عن طريق صورة مشابهة، ومن الواضح في هذا المثل دقة التصوير مع إبراز العناصر المهمة من الصور التمثيلية، وصدق المماثلة بين المثل والممثل له، والتنويع في عرض المثل، فقد جاء هنا عقب استثناء يُشعر في مقدمته بحصول شيء من الاستجابة، فإذا بالمثل يؤكد في مضمونه عدم حصول أي مقدار من الاستجابة.

٥- لما انتهى عرض لوحة المثل طُويت، واستمر النص يبني ما يستدعيه المثل له، فقال تعالى: «وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ»، أي: في خسران وضياع. (الفوائد مستفادة من كتاب الأمثال القرآنية، للدكتور محمد بكر إسماعيل).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الأمثال في القرآن

ثلاثة أمثال مضروبة في مَثَل

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وبعدُ:

ففي هذا المقال نتحدث عن مثل آخر من الأمثال في القرآن الكريم، وهو في قوله تعالى: « أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ » (الرعد:١٧).

تفسير المفردات:

الماء: يريد به المطر.

الأودية: جمع وادٍ وهو كل منفرج بين جبلين أو نحوهما يسيل الماء فيه بكثرة، فاتسع فيه، واستعمل للماء الجاري فيه، وتنكيرها هنا لأن المطر يأتي على تناوب بين البقاع، وإذا نزل لا يعم جميع الأرض ولا يسيل في كل الأودية، بل ينزل في أرضٍ دون أرض، ويسيل في وادٍ دون واد.

بقدَرها: والقدَر- بفتحتين-: التقدير. فقوله: «بقدرها» في موضع الحال من «أودية» وذكره لأنه من مواضع العبرة.

وهو أن كانت أخاديد الأودية على قدر ما تحتمله من السيول بحيث لا تفيض عليها، وهو غالب أحوال الأودية، وهذا الحال مقصود في التمثيل؛ لأنه مثال انصراف الماء لنفع لا ضر معه؛ لأن من السيول جواحف تجرفُ الزرع والبيوت والأنعام.

«فاحتمل السيل زبدًا رابيًا» أي: فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زبدٌ عالٍ عليه، هذا مثل. (تفسير ابن كثير).

«ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله»: وهذا مثل ثاني وهو المثل الناري.

وهذا كالحديد والنحاس والفضة والذهب وغيرها، فإنها تدخل الكير تتمحص وتخلص من الخبث فيخرج خبثها فيرمي به ويطرح ويبقى خالصها فهو الذي ينفع الناس.

«ابتغاء حلية أو متاع»: مفعول لأجله متعلق بـ «توقدون» ذكر لإيضاح المراد من الصلة ولإدماج ما فيه من منة تسخير ذلك للناس لشدة رغبتهم فيهما.

و«الحلية»: ما يُتحلى به، أي يتزين وهو المصوغ.

و«المتاع» ما يتمتع به وينتفع وذلك المسكوك الذي يتعامل به الناس من الذهب والفضة.

«كذلك يضرب الله الحق والباطل»: إشارة «كذلك» هي إلى التمثيل السابق في جملة «أنزل من السماء ماءً» أي: مثل ذلك الضرب البديع يضرب الله الأمثال وهو المقصود بهذا التنزيل، والإشارة للتنويه بذلك المثل وتنبيه الأفهام إلى حكمته وحكمة التمثيل، وما فيه من المواعظ والعبر، وما جمعه من التمثيل والكناية التعريضية وإلى بلاغة القرآن وإعجازه وذلك تحدٍ للمشركين. (تفسير المفردات مستفاد من تفسير ابن كثير والمحرر الوجيز وبدائع التفسير والتحرير والتنوير وفتح البيان بتصرف).

مما تجدر الإشارة إليه أن هذه الآية وهي السابعة عشرة من سورة الرعد اشتملت على ثلاثة أمثال ضربها الله تعالى في مثل واحد، وقد بحثت وتأملت في كُتب التفسير فوجدت كلامًا رائعًا للمفسرين في تفسير وتوضيح هذه الأمثلة في الآية المذكورة فرأيت من الضرورة بمكان أن أنقل بعض هذه النقول المهمة من هذه الأقوال حتى يستفيد القارئ من كلام المفسرين

فكل مفسر له بعض الإشارات واللطائف التي لا يستغني عنها طالب العلم وغيره ممن له اهتمام بعلم التفسير وبالأخص «الأمثال في القرآن»، فرأيت أن أنقل بعض هذه الإشارات واللطائف تتميمًا للفائدة، والله أسأل أن يوفقني في اختيار هذه اللطائف والإشارات التي تفيد القارئ.

المعنى الإجمالي:

قال ابن القيم في الجامع لأمثال القرآن (ص١١٦): «هذه ثلاثة أمثال ضربها الله في مثل واحد، يقول: كما اضمحل هذا الزبد فصار جُفاء لا ينتفع به ولا تُرجى بركته، كذلك يضمحل الباطل عن أهله كما اضمحل هذا الزبد وكما مكث هذا الماء في الأرض، فأمرعت هذه الأرض وأخرجت نباتها، كذلك يبقى الحق لأهله كما بقي هذا الماء في الأرض، فأخرج الله به ما أخرج من النبات.

وقد شبه الوحي الذي أنزله لحياة القلوب والأسماع والأبصار بالماء الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات.

وشبه القلوب بالأودية، فقلب كبير يسعُ علمًا عظيمًا كواد كبير يسعُ ماءً كثيرًا، وقلبٌ صغيرٌ إنما يسعُ بحسبه كالوادي الصغير فسالت أودية بقدرها، واحتملت قلوب من الهدى والعلم بقدرها، وكما أن السيل إذا خالط الأرض ومر عليها احتملت غثاءً وزبدًا فكذلك الهدى والعلم إذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشهوات والشبهات ليقلعها ويذهبها، كما يثير الدواء وقت شربه من البدن أخلاطه فيتكدرُ بها شاربه، وهي من تمام نفع الدواء، فإنه أثارها ليذهب بها، فإنه لا يجامعها ولا يساكنها، وهكذا ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ (الرعد:١٧).

ثم ذكر المثل الناري فقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ (الرعد:١٧)، وهو الخبث الذي يخرج عند سبك الذهب والفضة والنحاس والحديد فتخرجه النار وتميزه وتفضله عن الجوهر الذي ينتفعُ به فيرمى ويطرح ويذهب جفاءً، فكذلك الشهوات والشبهات يرميها قلب المؤمن ويطرحها ويجفوها كما يطرح السيل والنارُ ذلك الزبد والغثاء والخبث، ويستقرُ في قرار الوادي الماء الصافي الذي يستقي منه الناس ويزرعون ويسقون أنعامهم، كذلك يستقر في قرار القلب وجذره الإيمان الخالص الصافي الذي ينفع صاحبه وينتفع به غيره، ومن لم يفقه هذين المثلين ولم يتدبرهما ويعرف ما يرادُ منهما فليس من أهلهما، والله الموفق. (انتهى بتصرف، من الجامع في أمثال القرآن لابن القيم).

المعنى التفصيلي:

وأبدأ بكلام رائع للعلامة ابن رجب الحنبلي في روائع التفسير (١/١٥٨٠) يقول رحمه الله: «ولما كانت هذه الشريعة خاتمة الشرائع وعليها تقومُ الساعة، ولم يكن بعدها شريعة ولا رسالة أخرى، تُبيِّنُ ما تبدَّل منها وتجدد ما دَرَسَ من آثارهما، كما كانت الشرائع المتقدمة تجدد بعضها آثارَ بعض، وتبينُ بعضها ما تبدل من بعض، تكفلَ الله بحفظ هذه الشريعة ولم يجمع أهلها على ضلالة، وجعل منهم طائفة قائمة بالحق لا تزال ظاهرةً على من خالفها حتى تقوم الساعة، وأقامَ لها من يحملها ويذبُّ عنها بالسيف واللسان والحجة والبيان، فلهذا أقام الله لهذه الأمة من خلفاء الرسل وحملة الحجة في كل زمان من يعتني بحفظ ألفاظ الشريعة وضبطها وصيانتها عن الزيادة والنقصان ومن يعتني بحفظ معانيها، ومدلولات ألفاظها وصيانتها عن التحريف والبهتان.

والأولون أهل الرواية، وهؤلاء أهل الدراية والرعاية وقد ضرب النبيُّ صلى الله عليه وسلم مثل الطائفتين. كما ثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب الأرض فكانت منها طائفة قبلت الماءَ فانبتت الكلأ والعُشب الكثير، وكانت منها أجادبُ أمسكت الماء فنفع الله بها ناسًا فشربوا وزرعوا، وأصابت طائفةً منها أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تُنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني به ونفع به فَعَلِمَ وعَلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به».

فمثل النبي صلى الله عليه وسلم العلم والإيمان الذي جاء به بالغيث الذي يصيبُ الأرض، وهذا المثل كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ﴾

«بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا» (الرعد:١٧)، فمثل تعالى ما أنزله من العلم والإيمان إلى القلوب بالماء الذي أنزله من السماء إلى الأرض، وهو سبحانه وتعالى يمثل العلم والإيمان تارة بالماء كما في هذه الآية، وكما في المثل الثاني المذكور في أول سورة البقرة، وتارة يمثله بالنور كما في المثل المذكور في سورة النور، والمثل الأول المذكور في سورة البقرة وكذلك في هذه الآية التي في سورة الرعد، وذكر مثلاً ثانيًا يتعلق بالنار وهو قوله: «وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ» (الرعد:١٧)، فإن الماء والنور مادة حياة الأبدان، ولا يعيش حيوان إلا حيث هما موجودان، كما أن العلم والإيمان مادة حياة القلوب هما للقلوب كالماء والنور، فإذا فقدهما القلب فقد مات.

وقوله تعالى: «فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا» (الرعد:١٧)، شبَّه القلوب الحاملة للعلم والإيمان بالأودية الحاملة للسيل، فقلبٌ كبيرٌ يسعُ علمًا عظيمًا، كوادٍ كبيرٍ يسع ماءً كثيرًا، وقلبٌ صغير يسعُ علمًا قليلاً، كوادٍ صغير يسعُ ماءً قليلاً، فحملت القلوب من هذا العلم بقدرها كما سالت الأودية من الماء بقدرها.

فهذا تقسيم للقلوب بحسب ما تحمله من العلم والإيمان إلى متسع وضيق، والذي ذكره النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أبي موسى تقسيمٌ لها بحسب ما يردُ عليها من العلم والإيمان إلى قابل لإنبات الكلأ والعشب وغير قابل لذلك، وجعلها ثلاثة أقسام:

القسم الأول: قسمٌ قبل الماء، فأنبت الكلأ والعشب الكثير، وهؤلاء هم الذين لهم قوة الحفظ والفهم والفقه في الدين، والبصر بالتأويل، واستنباط أنواع المعارف والعلوم من النصوص، وهؤلاء مثل: الخلفاء الأربعة، وأبي بن كعب، وأبي الدرداء، وابن مسعود، ومعاذ بن جبل، وابن عباس، ثم كالحسن، وسعيد بن المسيب، وعطاء، ومجاهد، ثم كمالك، والليث، والثوري، والأوزاعي، وابن المبارك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأبي عبيد، وأبي ثور، ومحمد بن نصر المروزي، وأمثالهم من أهل العلم بالله وأحكامه وأوامره ونواهيه، وكذلك مثل: أويس، ومالك بن دينار، وإبراهيم بن أدهم، والفضيل بن عياض، وأبي سلمان، وذي النون، ومعروف، والجنيد بن محمد، وسهل بن عبد الله والحر بن أسد، وأمثالهم من أهل العلم بالله وأسمائه وصفاته وأيامه وأفعاله.

القسم الثاني: وقسمٌ حفظ الماء، وأمسكه حتى ورد الناس فأخذوه فانتفعوا به وهؤلاء هم الذين لهم قوة الحفظ والضبط والإتقان، دون الاستنباط، والاستخراج، وهؤلاء كسعيد بن أبي عروبة، والأعمش، ومحمد بن جعفر غندر، وعبد الرزاق، وعمرو الناقد، ومحمد بن بشار بندار، ونحوهم.

القسم الثالث: وقسمٌ ثالثٌ وهم شرُّ الخلق، ليس لهم قوة الحفظ ولا قوة الفهم، لا دراية، ولا رواية، وهؤلاء الذين لم يتقبلوا هدى الله ولم يرفعوا به رأسًا.

والمقصود هاهنا أن الله تعالى حفظ هذه الشريعة بما جعل لها من الحملة، أهل الدراية، وأهل الرواية، فكان الطالب للعلم والإيمان يتلقى ذلك ممن يدركه من شيوخ العلم والإيمان، فيتعلم الضابط القرآن والحديث، ممن يعلمُ ذلك، ويتعلمُ الفقه في الدين من شرائع الإسلام الظاهرة وحقائق الإيمان الباطنة، ممن يُعلم ذلك. (اهـ. من روائع التفسير لابن رجب ١/ ٥٨٠).

وقال الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير ٧/ ١١٦: «جملة «أنزل من السماء ماءً» استئناف ابتدائي أفاد تسجيل حرمان المشركين من الانتفاع بدلائل الاهتداء التي من شأنها أن تهدى من لم يطبع الله على قلبه فاهتدى بها المؤمنون.

وجيء في هذا التسجيل بطريقة ضرب المثل بحالي فريقين في تلقي شيء واحد انتفع فريق بما فيه من منافع وتعلق فريق بما فيه من مضار وجيء في ذلك التمثيل بحالة فيها دلالة على بديع تصرف الله تعالى.

ليحصل التخلص من ذكر دلائل القدرة إلى ذكر عبر الموعظة، فالمركب مستعمل في التشبيه التمثيلي بقرينة قوله: «كذلك يضرب الله

الحق»، شبه إنزال القرآن الذي به الهدى من السماء بإنزال الماء الذي به النفع والحياة من السماء، وشبه ورود القرآن على أسماع الناس بالسيل يمر على مختلف الجهات فهو يمر على التلال والجبال فلا يستقر فيها، ولكنه يمضي إلى الأودية والوهاد فيأخذ منه كل بقدر سعته، وتلك السيول في حال نزولها تحمل في أعاليها زبدًا، وهو رغوة الماء التي تربو وتطفو على سطح الماء، فيذهب الزبد غير منتفع به، ويبقى الماء الخالص الصافي ينتفع به الناس للشراب والسقي، ثم شُبهت هيئة نزول الآيات وما تحتوي عليه من إيقاظ النظر فيها، فينتفع به من دخل الإيمان قلوبهم على مقادير قوة إيمانهم وعملهم ويمر على قلوب قوم لا يشعرون به وهم المنكرون المعرضون، ويخالط قلوب قوم فيتأملونه فيأخذون منه ما يثير لهم شبهات وإلحادًا، كقولهم: «هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ » (سبأ:٧)، ومنه الأخذ بالمتشابه، قال الله تعالى: «فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ » (آل عمران:٧).

شبه ذلك كله بهيئة نزول الماء فانحداره على الجبال والتلال وسيلانه في الأودية على اختلاف مقاديرها، ثم ما يدفع من نفسه زبدًا لا ينتفع به ثم لم يلبث الزبد أن ذهب وفني، والماء بقي في الأرض للنفع. ولما كان المقصود التشبيه بالهيئة كلها جيء في حكاية ما ترتب على إنزال الماء بالعطف بفاء التفريع في قوله: «فسالت»، وقوله: «فاحتمل»، فهذا تمثيل صالح لتجزئة التشبيهات التي تركب منها وهو أبلغ التمثيل. (التحرير والتنوير لابن عاشر ١١٧/٧).

وقال البغوي في معالم التنزيل: وقيل: قوله: «أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً» هذا مثل للقرآن والأودية مثلٌ للقلوب، يريد ينزل القرآن، فيحتمل منه القلوب على قدر اليقين والعقل والشك والجهل، فهذا أحد المثلين والمثل الآخر قوله عز وجل: «وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ » (الرعد:١٧) أي: ومن الذي توقدون عليه في النار، والإيقاد جعل النار تحت الشيء ليذوب، ابتغاء حلية أي لطلب زينة وأراد الذهب والفضة؛ لأن الحلية تُطلب منهما، أو متاع، أي: طلب متاع وهو ما ينتفع به، وذلك مثل الحديد والنحاس والرصاص، تذاب فيتخذ منها الأواني وغيرها مما ينفع بها.

«زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ » (الرعد:١٧) أي: وإذا أذيب فله أيضًا زبد مثل زبد الماء، فالباقي الصافي في هذه الجواهر مثل الحق والزبد الذي لا ينتفع به مثل الباطل.

«فَأَمَّا الزَّبَدُ » (الرعد:١٧) الذي علا السيل فيذهب جفاء أي: ضائعًا باطلاً، والجفاء ما رقى به الوادي من الزبد إلى جنباته.

معناه: إن الباطل وإن علا في وقت فإنه يضمحل، وقيل: جفاءً أي متفرقًا، يقال: جفأت الريح الغيم إذا فرقته وذهبت به، وأما ما ينفع الناس يعني: الماء والفلز من الذهب والفضة والنحاس فيمكث في الأرض أي يبقى ولا يذهب، كذلك يضرب الله الأمثال جعل هذا مثالاً للحق والباطل، يعني: أن الباطل كالزبد يذهب ويضيع، ويبقى الحق. (معالم التنزيل للبغوي).

وقال ابن الجوزي في زاد المسير: وفيما ضرب له هذان المثلان ثلاثة أقوال:

أحدها: القرآن، شُبه نزوله من السماء بالماء، وشبه قلوب العباد بالأودية تحمل منه على قدر اليقين والشك والعقل والجهل فيستكن فيها، فينتفع المؤمن بما في قلبه كانتفاع الأرض التي يستقر فيها المطر، ولا ينتفع الكافر بالقرآن لمكان شكه وكفره فيكون ما حصل عنده من القرآن كالزبد وخبث الحديد لا ينتفع به. الثاني: أنه الحق والباطل، فالحق شبه بالماء الباقي الصافي، والباطل مشبه بالزبد الذاهب، فهو وإن علا على الماء فإنه سيمحق كذلك الباطل، وإن ظهر على الحق في بعض الأحوال، فإن الله سيبطله. الثالث: أنه مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فمثل المؤمن في اعتقاده وعمله كالماء المنتفع به، ومثل الكافر واعتقاده وعمله كالزبد. (زاد المسير).

والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل.

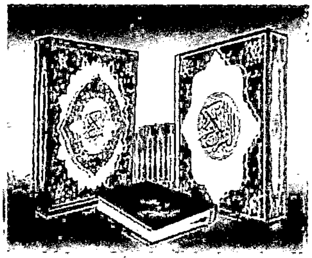

دراسات قرآنية

الأمثال في القرآن الكريم
مثل الجنة

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعدُ:

ففي هذا المقال نتحدث عن مثل آخر من الأمثال في القرآن الكريم، وهو في قوله تعالى: « مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ» (الرعد:٣٥).

التفسير الإجمالي:

ذكر الله تعالى في الآية السابقة عقاب الكفار وثواب الأبرار، فقال بعد إخباره عن حال المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك: « لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ» (الرعد:٣٤) أي: بأيدي المؤمنين قتلاً وأسرًا، « وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ» (الرعد:٣٤) أي: المدَّخر مع هذا الخزي في الدنيا «أشقّ» أي: من هذا بكثير، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمتلاعنين: «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة». (صحيح). وهو كما قال صلى الله عليه وسلم- فإن عذاب الدنيا له انقضاءٌ، وذاك دائم أبدًا في نار هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفًا، كما قال تعالى: « فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ» (الفجر:٢٥-٢٦).

ولهذا قرن هذا بهذا، فقال: « مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ» (الرعد:٣٥) أي: صفتها ونعتها، « تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ» (الرعد:٣٥) أي: سارحةٌ في أرجائها وجوانبها، وحيث شاء أهلها يفجرونها تفجيرًا، أي: يصرفونها كيف شاؤوا وأين شاؤوا، وقوله: « أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ» (الرعد:٣٥) أي: فيها الفواكه والمطاعم والمشارب لا انقطاع ولا فناء، قوله: « تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ» (الرعد:٣٥) أي: تلك عاقبة الذين اتقوا الله فاجتنبوا معاصيه وأدوا فرائضه، « وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ» (الرعد:٣٥)، أي: عاقبة الكافرين بالله النار وبئس القرار، يعني مصير المؤمنين الجنة، ومصير الكفار النار. (مستفاد من صحيح تفسير ابن كثير (٢/٥١٠)، وتفسير الطبري (١٦/٤٧٢)).

تفسير المفردات:

المثل: هنا الصفة العجيبة، قيل: هو حقيقة من معاني المثل، كقوله تعالى: « وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ» (النحل:٦٠)، وقيل: هو مستعار من المثل الذي هو الشبيه في حالة عجيبة أطلق على الحالة العجيبة غير الشبيهة؛ لأنها جديرة بالتشبيه بها. (قاله ابن عاشور ٧/١٥٥).

وقال ابن عطية (٥/٢٠٨): قوله تعالى: « مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ» الآية (الرعد:٣٥)، قال قوم: «مثل» معناه: صفة، وهذا من قولك: «مثلت الشيء»، إذا وصفته لأحد وقربت عليه فهم أمره، وليس بضرب مثل لها، وهو كقوله سبحانه: « وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ» (النحل:٦٠) أي: الوصف الأعلى، ويظهر أن المعنى الذي يتحصل في النفس مثالاً للجنة هو جري الأنهار، وأن « أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ» (الرعد:٣٥) يعني ما يؤكل فيها فهو دائم لأهلها لا ينقطع عنهم ولا يزول ولا يبيد، ولكنه ثابت إلى غير نهاية، وظلها كذلك لأنه لا شمس فيها.

« تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ» (الرعد:٣٥)، الجنة الموصوفة بالصفات المتقدمة، وهو مبتدأ خبره «عقبى» أي: تلك عاقبة الذين اتقوا الله فاجتنبوا معاصيه وأدّوا فرائضه.

« وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ» (الرعد:٣٥)، أي: عاقبة الكافرين بالله النار وبئس القرار. (تفسير الطبري ١٦/٤٧٢)، يعني مصير المؤمنين الجنة ومصير الكفار النار.

الجنة التي وعد الرحمن عباده ليس لها في عالمنا

هذا شبيه تقاس عليه؛ لأنه ليس للعقل مجال في إدراك حقيقتها وحقيقة ما فيها مما أعده الله للمؤمنين، ولكن الله عز وجل ضرب لها مثلاً يستطيع العقل بواسطته أن يتصورها ويتصور ما فيها تصورًا يرضي غريزته، ويبعث في نفسه كوامن الشوق إليها، ويرغبه في طلبها بطاعته جل شأنه والإخلاص في عبادته.

فالإنسان بطبعه محبّ للاطلاع، فهو يريد أن يعرف كل ما هو مغيَّب عنه، ولو معرفة مجملة، فأشبع الله في نفسه هذه الغريزة، فضرب له مثلاً في سورة الرعد، يكشف له عن طبيعة هذه الدار، وما تتميز به عن غيرها من جنات الدنيا، فقال: « مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ » (الرعد:٣٥). (الأمثال القرآنية دراسة تحليلية، للدكتور محمد بكر إسماعيل ص١٤١).

فوائد الآية:

١- الأمثال الواردة في شأن الجنة من الكتاب والسنة كلها تقريب لأوصافها، وأمور الآخرة- كما هو معلوم- مغيبة عنا، وبالتالي لا يكون للعقل مجال في البحث عنها والكشف عن حقائقها إلا بالقدر الذي يسمح به الشرع، فهي أمور تُسمع من قِبله، ولا تُعقل إلا على وجه من التصور.

٢- قال الرازي رحمه الله: «... إنه لما وصف الجنة بهذه الصفات الثلاثة (أي المذكورة في الآية) بين أن ذلك عقبى الذين اتقوا، يعني: عاقبة أهل التقوى الجنة، وعاقبة الكافرين النار، وحاصل الكلام في هذه الآية: أن ثواب المتقين منافع خالصة عن الشوائب موصوفة بصفة الدوام». (الأمثال في القرآن لمحمد جابر فياض ص٢١٦).

٣- الواقع أن مثل الشيء أو مثاله يمكن أن ينتزع من وصف الشيء ذاته إذا ما تعذر العثور على نظير له، أما مع توفر النظير، أو المثيل، فليس هناك ما يدعو إلى العدول عن هذا المثيل، واتخاذ وصف الشيء ذاته مثالاً له، وجنة الآخرة تماثل جنة الحياة الدنيا وإن تميزت عنها، فهذا وجه من أوجه التفسير في هذه الآية.

٤- والغرض من ضرب المثل- فوق ما ذُكر- الترغيب في نعيمها والإشارة إلى ما يوصلهم إليه، وهو التقوى، فليس هناك وسيلة غيرها تحقق لهم ما يرجونه من رحمة ربهم، فالجنة إنما أعدت للمتقين كما صرح به هنا وفي سورة آل عمران، وفي سورة محمد صلى الله عليه وسلم.

والتقوى: هي طلب الوقاية من عذاب الله عز وجل في الدنيا وفي الآخرة باتباع أوامر الله واجتناب نواهيه، فهي الطاعة في أرقى معانيها وأبهى صورها، قال الله تعالى: « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ » (الحجرات:١٣).

٥- وفي هذا المثل- أيضا- ما يدعو المتأمل إلى الموازنة بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة، فإنه لو حاول المرء أن يقيس هذا على ذاك- لم يجد بينهما شبهًا يذكر، فيخرج بعد الموازنة بأنه لا موازنة ولا معادلة بين هذين النعيمين لو قلنا: إن في الدنيا نعيمًا، وأي نعيم هذا وهو سريع الزوال- وعندئذ يعزم المؤمن عزمًا مؤكدًا على أن يعمل عملاً صالحًا يهوّن عليه شأن الدنيا ويقوّي طمعه في تلك الجنة، التي أعدها الله لمن اشتراها بنفسه وماله، وجعل رضوان الله مبلغ همه ومنتهى أمله، وهو أكبر من نعيم الجنة وأعظم. (الأمثال القرآنية، د. محمد بكر إسماعيل).

نسأل الله تعالى أن يدخلنا وإياكم الجنة، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

عزاء واجب

توفي إلى رحمة الله تعالى الشهر الماضي أثناء طباعة المجلة الأستاذ محمد رجب القراط، موجه عام العلوم والرياضيات بالأزهر الشريف سابقًا، وعم الأستاذ حسين القراط، مدير التحرير، ومعلمي وأستاذي في المرحلة الإعدادية.

نسأل الله العلي القدير له الرحمة والمغفرة، وأن يجمعنا به في مستقر رحمته.

رئيس التحرير

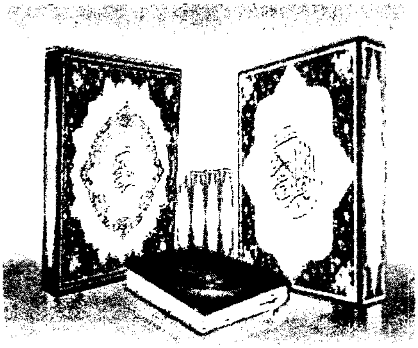

الأمثال في القرآن

مثل الذين كفروا بربهم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد:

ففي هذا المقال نتحدث عن مثل آخر من الأمثال في القرآن وهو في قوله تعالى: «مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ» (إبراهيم:١٨).

مصطفى البصراتي

المعنى الإجمالي:

قال ابن كثير في تفسيره: «هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا مع الله غيره، وكذبوا رسله وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح، فانهارت وعدموها أحوج ما كانوا إليها، فقال تعالى: «مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ» (إبراهيم:١٨) أي: مثل أعمالهم يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى؛ لأنهم كانوا يحسبون أنهم كانوا على شيء، فلم يجدوا شيئًا، ولا ألفوا حاصلاً إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة (في يوم عاصف) أي: ذي ريح شديدة عاصفة قوية فلم يقدروا على شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد في هذا اليوم، كقوله تعالى: «وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا» (الفرقان:٢٣)، وقوله تعالى: «مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» (آل عمران:١١٧)، وقوله تعالى في هذه الآية: «ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ» (إبراهيم:١٨)، أي: سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما كانوا إليه، «ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ» (إبراهيم:١٨). (صحيح تفسير ابن كثير ٥٢٦/٢).

معاني المفردات:

«مثل»: المثل: الحالة العجيبة، أي: حال الذين كفروا العجيبة أن أعمالهم كرماد.. إلخ.

«أعمالهم»: الصالحة كالصدقة، وصلة الأرحام وفك الأسير، وإقراء الضيف وبر الوالدين، ونحو ذلك أو عبادتهم الأصنام في عدم الانتفاع بها، أو الأعمال التي أشركوا فيها غير الله تعالى.

«كرماد»: والرماد ما يبقى من احتراق الحطب والفحم، وجمعه في الكثرة على رُمُد، وفي القلة على أرمِد.

«اشتدت به الريح»: حملتْهُ بشدةٍ وسرعةٍ فنسفته وطيرته ولم تبق منه شيئًا.

«في يوم عاصف»: العصف شدة الريح وصف به زمانها مبالغة؛ كما يقال يوم حار ويوم بارد، والبرد والحر فيهما لا منهما، ووجه الشبه أن الريح العاصفة تطير الرماد وتفرّق أجزائه بحيث لا يبقى له أثر، فكذلك كفرهم أبطل أعمالهم

وأحبطها بحيث لا يبقى لها أثر.
وجملة: «لا يقدرون مما كسبوا على شيء» بيان لجملة التشبيه أي ذهبت أعمالهم سدى فلا يقدرون أن ينتفعوا بشيء منها.
وجملة: «ذلك هو الضلال البعيد» تذييل جامع لخلاصة حالهم، وهي أنها ضلال بعيد، ومعنى «ذلك» أي: ما دل عليه التمثيل من هذا البطلان لأعمالهم وذهاب أثرها، والمراد بالبعيد البالغ نهاية ما تنتهي إليه ماهيته، أي بعيد في مسافات الضلال فهو كقولك: أقصى الضلال. (المعاني مستفادة من فتح البيان لصديق خان، والتحرير والتنوير لابن عاشور بتصرف).

التفسير التفصيلي:

قال جل شأنه: «فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا» (الكهف:١١٠).
أما من كفر بالله وأعرض عن ذكره، فإنه يأخذ ثواب عمله في دنياه وليس له في الآخرة من نصيب.
وقد ضرب الله هذا المثل يبين فيه حال الذين كفروا يوم القيامة، ويكشف عن خيبة آمالهم وبطلان أعمالهم وسوء مآلهم.
فجعل مثلاً لأعمالهم كرماد حملته الرياح بشدة في يوم عاصف، أي: ذي ريح عاصفة قوية لا تبقي ولا تذر.
فإذا كانوا يقدرون على كل شيء مما كسبوه في حياتهم الدنيا، فإنما يكون حالهم كحال من جمع رمادًا في أرض فضاء فهبت عليه الريح العاصفة من كل صوب وحدب، فطيرته في الجو هباء لا تراه عين، ولا تستنشقه الأنوف. (كتاب الأمثال القرآنية ص١٤٤، لمحمد بكر إسماعيل، بتصرف).

فوائد الآية:

الأولى: دخلت أداة التشبيه على الذين كفروا بينما نجد الأعمال هي المشبهة، ليشمل التشبيه الأعمال وأصحابها.
والمعنى: صفة الذين كفروا في انتظار الجزاء على أعمالهم ورجاء الحصول عليها، ليسعدوا بها، فإذا هم يرون أنفسهم مفلسين عاجزين عن تحصيل ذرة من أعمالهم، وعن تحقيق أي شيء من آمالهم- كرماد... إلخ.
فلفظ «مثل»- كما قال سيبويه- مبتدأ خبره مضمر تقديره: فيما يتلى عليكم أو يقص عليكم «مثل الذين كفروا بربهم»، ثم ابتدأ فقال: «أعمالهم كرماد»، وقال الزجاج: أي: مثل الذين كفروا فيما يتلى عليكم أعمالهم كرماد.
الثانية: شبّه الحق سبحانه وتعالى أعمالهم بالرماد لخفته وخسته وعدم نفعه غالبًا، ولما فيه من إيحاء بالنار التي يتخلف عنها فهو لفظ يشعر بتشاؤم الكفار من سوء المنتظر.
الثالثة: قوله تعالى: «ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ» (إبراهيم:١٨) معناه- كما في لسان العرب- أسرعت وعدت، فإذا كانت الرياح عاصفة والرماد خفيفًا، فماذا يبقى منه بعد اشتدادها به؟
الرابعة: في وصف اليوم بالعاصف مبالغة في الشدة والسرعة، وهذا كقوله تعالى: «إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ» (الذاريات:٥)؛ حيث أسند الصدق لما يوعدون به، والمعنى: لذو صدق، وهكذا يقال في قوله جل شأنه: «في يوم عاصف» أي: ذو ريح عاصفة أو ذوي عاصفة، بمعنى: أن العصف يقع فيه.
الخامسة: في قوله تعالى: «لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ» (إبراهيم:١٨)، ففي هذه الفقرة من الآية إبراز لما ينطوي عليه المثل، فالمثل يضرب ثم يطوى ليكشف عن المراد من ضربه لتتضح المعاني أكمل اتضاح.
فالمثل يفيد أن أعمال الكفار باطلة كلها، ليس لهم عليها ثواب، فمهما اعتذروا فلن يُقبل عذرهم، فهم إلى النار وبئس القرار، وما كسبوه في الدنيا من عمل لا يقدرون على تحصيل شيء من ثوابه البتة، ولفظ الكسب يدل على العمل النافع الذي عملوه في الدنيا- وقد نفعهم في الدنيا- فهي دار جزائهم، ولكن لا ينفعهم في الآخرة، لفقدان شرط صحته وهو الإيمان.
السادسة: في قوله تعالى: «ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ» (إبراهيم:١٨)، توكيد لمضمون الآية كما هو الشأن في خواتيم الآيات، فأي ضلال أبعد عن التعقل وأوغل في السفه من الكفر بالله عز وجل وتوجه القلوب إلى غيره في العبادة والدعاء؟
السابعة: هذا المثل بمثابة حثّ للمؤمنين على الإنفاق، وتحذيرهم من أن يُتبعوا ما أنفقوا شيئًا مما يبطل أجره وثوابه، وأن ما ينفقونه إنما هو ذخر لهم، ينتفعون به غاية النفع، أحوج ما يكون إليه.

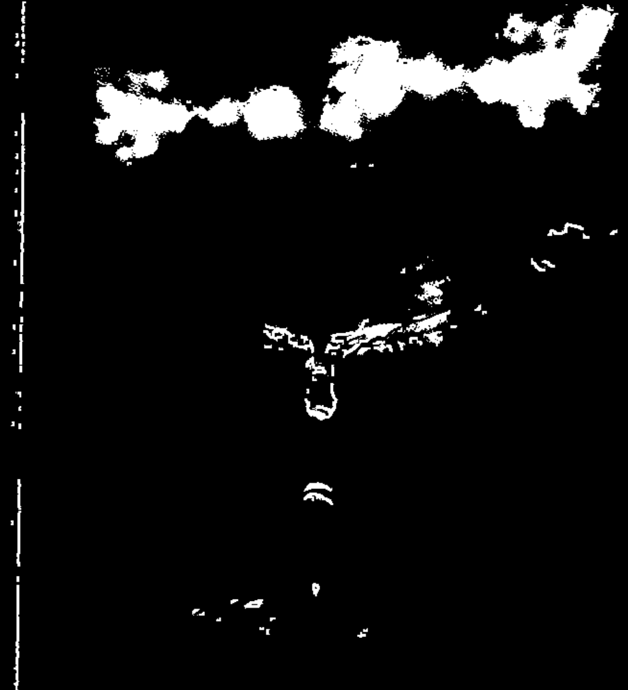

البكاء من خشية الله تعالى

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد:

فالبكاءُ من خشية الله عز وجل يعني خوفًا منه وشوقًا إليه تبارك وتعالى، وذلك أن البكاء له أسباب: تارة يكون الخوف، وتارة يكون الألم، وتارة يكون الشوق، وغير ذلك من الأسباب التي يعرفها الناس. ولكن البكاء من خشية الله إما خوفا منه وإما شوقا إليه تبارك وتعالى، فإذا كان البكاء من معصية فعلها الإنسان، فهذا البكاء سببه الخوف من الله عز وجل، وإذا كان عن طاعة فعلها، كان هذا البكاء شوقًا إلى الله سبحانه وتعالى. (شرح رياض الصالحين لابن عثيمين ٣٤٣/٣).

والبكاء أنواع:

١- بكاء خشية من الله تعالى.
٢- بكاءُ عند سماع القرآن.
٣- بكاءُ الاعتبار والتدبر والخوف من الوعيد.
٤- بكاء الرحمة لفقدان عزيز.
٥- بكاء التصنع وهو غير مستحب.
٦- بكاءُ الاعتراض وهو المصحوب بحركات وأصوات تدلُ على الاعتراض على قدر الله، وهذا مذموم محرم.
٧- بكاء الخوف من حوادث الدنيا وتغيراتها وتقلباتها وهو يولد المرض والاكتئاب.

البكاء بين المدح والذم:

ينبغي أن يكون البكاءُ خشيةً من الله تعالى، وخوفًا منه، وطمعًا في رحمته، فهذا هو البكاء المحمود، أو يكون البكاءُ من سماع القرآن وما فيه من تدبُّره وتأمله، أو أن يكون لمعنى إنساني نبيل كما فعل سيدُ البشر صلى الله عليه وسلم حين مات ابنه إبراهيمُ، وهذا كله من البكاء المحمود المشروع.

أما بكاءُ التصنع وما فيه، سواء كان ذلك لإثبات صدق قول أو دعوى أو ما إلى ذلك كما فعل إخوة يوسف، عليه السلام، فهذا من البكاء المذموم، لأنه لا يكادُ يدل على صدق الإنسان في فعله أو فعاله، وقد قيل: إن المصنوع لا يخفى، وقال حكيم:

إذا اشتبكت دموعٌ في خدود
تبين من بكى ممن تباكى

(انظر: نضرة النعيم: ٨٣٢/٣).

لقد كان في رسول الله صلى الله عليه وسلم القدوةُ الحسنة والمثل الصالح بما منَّ الله به عليه من الخلق الحسن والأدب الجم، فجعل من الاقتداء به سبيلاً إليه لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، يقول الله عز

وجل: «لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا» (الأحزاب:٢١). قال ابن كثير رحمه الله: «هذه الآية الكريمة أصلٌ كبيرٌ في التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وأحواله». (تفسير ابن كثير ٦/٣٩١).

ولقد أثنى الله عز وجل على الأنبياء الذين ذُكروا في سورة مريم بأنه سبحانه وتعالى أنعم عليهم وذريتهم بأنهم إذا تُليت عليهم آيات الرحمن خرُّوا سُجدًا وبُكيًّا؛ خشيةً من الله وخوفًا منه وطلبًا لرضاه سبحانه وتعالى، فقال سبحانه: «أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا» (مريم:٥٨).

وهذه الآية وغيرها من الآيات تبيِّن كيف كان أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم يتضرعون إليه في قضاء حوائجهم، ويتوسلون إليه بتمام فقرهم إليه ورغبتهم، فكانوا يكثرون عن ذكر الله في كل الأوقات، وكانوا يُخبتون لربهم سبحانه، ويتضرعون له، ويدعونه دعاءً متواصلاً، مع كثرة عبادتهم، وطولها وتنوعها وبكائهم الدائم من خشية الله تعالى.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سيد المرسلين وحبيب رب العالمين أخشاهم لله تعالى وأبكاهم من خشية الله، كان صلى الله عليه وسلم يقول: «والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله». (رواه البخاري ومسلم).

وكان صلى الله عليه وسلم يقول: «يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك». (الترمذي وصححه الألباني).

وأما بكاؤه صلى الله عليه وسلم: فكانت تدمع عيناهُ حتى تَهْمَلا، ويُسمعُ لصدره أزيزٌ كأزيز المرجل من البكاء (وهو صوت الماء أو الزيت أثناء غليانه في القدر).

وكان بكاؤه عليه الصلاة والسلام تارة رحمة للميت، وتارة خوفًا على أمته وشفقة عليها، وتارة من خشية الله، وتارة عند سماع القرآن، وهو بكاء اشتياق ومحبة وإجلال، وهو مصاحبٌ للخوف، والخشية، ولما مات ابنُه إبراهيمُ، دمعت عيناه وبكى رحمة به، وبكى لما شاهد إحدى بناته ونفسها تفيض. (مسند الإمام أحمد ٢/٢٧٢).

وبكى لما قرأ عليه ابنُ مسعود سورة النساء، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: «اقرأ عليَّ القرآن». قلتُ: يا رسول الله، اقرأ عليك، وعليك نزل؟ قال: «إني أحب أن أسمعه من غيري». فقرأت عليه سورة النساء، حتى جئت إلى هذه الآية: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا» (النساء:٤١)، قال: «حسبك الآن». فالتفت إليه، فإذا عيناه تذرفان. يبكي عليه الصلاة والسلام خوفًا من هذه الحالة الرهيبة العظيمة. ففي هذا دليل على البكاء من قراءة القرآن وأن الإنسان يبكي من قراءة القرآن.

وعن عطاء قال: «دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة رضي الله عنها فقال عبد الله بن عمير: حدثينا بأعجب شيء رأيتيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فبكت، وقالت: قام ليلة من الليالي فقال: يا عائشة ذريني أتعبد لربي، قالت: قلت: والله إني لأحبُ قربك، وأحب ما يسرك، قالت: فقام فتطهر، ثم قام يصلي، فلم يزل يبكي حتى بل حجره، ثم بكى، فلم يزل يبكي حتى بل الأرض، وجاء بلال يؤذن بالصلاة فلما رآه يبكي، قال: يا رسول الله، تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبدًا شكورًا، لقد نزلت عليَّ الليلة آيات ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها: «إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ» (آل عمران: ١٩٠) الآية. رواه أبو الشيخ ابن حبان في أخلاق النبي، وابن حبان في «صحيحه»، وصححه الألباني.

أما عن بكاء الصحابة فالأمثلة عليه كثيرة:

ومهما سطر القلم وخط المداد، ومهما أوتينا من لسن وفصاحة فلن نوفي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حقهم، وصدق الله تعالى إذ يقول: «وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ» (التوبة:١٠٠)، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحُد ذهبًا ما أنفق مُد أحدهم ولا نصيفه». رواه البخاري ومسلم.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه صلى الله عليه وسلم». رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير ورجاله موثقون.

وهذا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يبكي لمجرد

ذكر أصحابه، فعن إسماعيل السدي قال: صليتُ مع عليَ رضي الله عنه صلاة الفجر، فلما سلم انفتل (أي انصرف) عن يمينه، ثم مكث كأن عليه كآبة، ثم قال: والله لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، فما أرى اليوم شيئًا يشبههم، لقد كانوا يصبحون شُعثًا غُبرًا، بين أعينهم أمثال رُكب المعزى (يعني من أثر السجود) قد باتوا لله سُجدًا وقيامًا، يتلون كتاب الله، يراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا الله مادوا كما تميد الشجرة في يوم الريح، وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين، ثم نهض، فما رُئي بعد ذلك مُفترًا يضحك حتى ضربه ابن مُلجم». (ذكره ابن كثير في البداية ١١/١١، وابن الجوزي في منهاج الصالحين ١١٨٢/٣).

وانظر إلى أبي بن كعب سيّد القراء رضي الله عنه ورقته وبكائه:

فقد روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بن كعب رضي الله عنه: «إن الله عز وجل أمرني أن أقرأ عليك: « لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا » (البينة:١). قال: وسماني؟ قال: نعم. فبكى أُبَيّ». وفي رواية: فجعل أُبَيّ يبكي.

وانظر إلى بكاء الصديق وعمر وهما عند أم أيمن لما بكوا لانقطاع الوحي بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال أبو بكر لعمر رضي الله عنه بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم: انطلق بنا إلى أم أيمن رضي الله عنها نَزُرْهَا كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها، فلما انتهينا إليها بكت، فقالا لها: ما يبكيك، أما تعلمين أن ما عند الله تعالى خيرٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: إني لا أبكي أني لا أعلم أن ما عند الله خيرٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكني أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء، فهيَّجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها». رواه مسلم.

وأما عثمان بن عفان رضي الله عنه فقد قال الحافظ ابن كثير في تفسير سورة الزمر: «وقد روي من غير وجه أنه صلى بالقرآن العظيم في ركعة واحدة عند الحجر الأسود أيام الحج، وقد كان هذا من دأبه رضي الله عنه، ولهذا روينا عن ابن عمر أنه قال في قوله تعالى: « أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ » (الزمر:٩): نزلت في عثمان.

والمقال لا يتسع لذكر أحوال الصحابة جميعًا في البكاء من خشية الله فهذا غيض من فيض، وأكتفي بهذا القدر لعل فيه الكفاية.

ثواب من بكى من خشية الله:

قال الله تعالى: « وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ » (المائدة:٨٣- ٨٤)، وقال تعالى: « إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ » (الإسراء:١٠٧- ١٠٩)، وقال تعالى: « أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا » (مريم:٥٨).

وفي حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله. فذكر منهم: «ورجال ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه». والحديث رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ليس شيءٌ أحب إلى الله من قطرتين وأثرين؛ قطرةُ دموع من خشية الله، وقطرة دم تهراق في سبيل الله، وأما الأثران فأثر في سبيل الله وأثر فريضة من فرائض الله». رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من ذكر الله ففاضت عيناه من خشية الله حتى يصيب الأرض من دموعه لم يعذب يوم القيامة». رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبنُ في الضرع ولا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودخان جهنم». رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح والنسائي والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، ما النجاة؟ قال: «أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابكِ على خطيئتك». رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من مؤمن يخرج من عينيه دموعٌ وإن كان مثل رأس الذباب من خشية الله، إلا حرَّمه الله على النار». رواه ابن ماجه بإسناده.

نسأل الله تعالى أن يتقبل منا ومنكم الصالحات، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دراسات قرآنية

الأمثال في القرآن

مثل الكلمة الطيبة

إعداد: مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد:

ففي هذا المقال نتحدث عن مَثَل آخر من الأمثال في القرآن، وهو في قوله تعالى: «ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء (٢٤) تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون» (إبراهيم:٢٤، ٢٥).

المعنى الإجمالي:

شبَّه الله سبحانه وتعالى الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة؛ لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح، والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع.

وهذا ظاهر على قول جمهور المفسرين الذين يقولون: الكلمة الطيبة هي شهادة أن لا إله إلا الله؛ فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة، فكل عمل صالح مرضيٌ لله عز وجل ثمرة هذه الكلمة. (الجامع في أمثال القرآن لابن القيم ص١٢٥).

إنها الشجرة الطيبة أصلها ثابت راسخ، عميق الجذور، متماسك في الأرض مهما عصفت بها الرياح، واشتدت عليها الأنواء، وتقاطرت عليها من كل جانب الصواعق والعواصف فلا تؤثر فيها، ولا تهزّ أصولها، بل تظل قوية شديدة، شامخة الرأس، عالية الهامة فروعها في السماء، وأغصانها تمتد حتى تبلغ الجوزاء، لا تنحني ولا تميل، لا تضطرب ولا تهتز، وهكذا حامل كلمة الإيمان.

معاني المفردات:

ألم تر: بمعنى: ألم تعلم- وقال بعضهم: (ألم تر) بعين قلبك فتعلم علم يقين بإعلامي إياك- والاستفهام في «ألم تر» إنكاري نَزَّل المخاطب منزلة من لم يعلم فأنكر عليه عدم العلم، أو هو مستعمل في التعجب من عدم العلم بذلك مع أنه مما

تتوفر الدواعي على علمه، أو هو للتقرير، ومثله في التقرير كثير، وهو كناية عن التحريض على العلم بذلك.

كيف: هنا للدلالة على أن حالة ضرب هذا المثل ذات كيفية عجيبة من بلاغته وانطباقه.

ضرب الله مثلاً: أي اختار مثلاً وضعه في موضعه اللائق به.

وإسناد «ضرب» إلى اسم الجلالة لأن الله أوحى به إلى رسوله عليه الصلاة والسلام. (الجامع في أمثال القرآن ص١٢٥).

كلمةً طيبة: قال عبد الله بن عباس رضي الله عنه وغيره: الكلمة الطيبة هي «لا إله إلا الله» مثلها الله بالشجرة الطيبة، وهي النخلة في قول أكثر المتأولين. (المحرر الوجيز لابن عطية ٢٤٣/٥).

والطيبة: النافعة: استعير الطيب للنفع لحسن وقعه في النفوس كوقع الروائح الذكية.

كشجرة طيبة: وهي النخلة أفضل الأشجار وأحسنها وأقربها شبهًا بالمؤمن.

أصلها ثابت: وصف الشجرة بأن أصلها ثابت أي: راسخ آمن من الانقلاع بسبب تمكنها من الأرض بعروقها.

والفرع: ما امتد من الشيء وعلا، مشتق من الافتراع وهو الاعتلاء، وفرع الشجرة: غصنها، وأصل الشجرة: جذرها.

والسماء: مستعمل في الارتفاع، وذلك مما يزيد الشجرة بهجة وحسن منظر.

تؤتي أكلها: أي ثمرها.

كل حين: أي كل وقت، والحين في اللغة: الوقت يطلق على القليل والكثير، واختلفوا في مقداره.

بإذن ربها: أي بإرادته ومشيئته وأمره.

ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون: في ضرب الأمثال زيادة تذكير وتفهيم وتصوير للمعاني وتقريب لها من الحس ومواعظ لمن تذكر واتعظ. (معاني المفردات مستفادة من تفسير ابن كثير، وفتح البيان لصديق حسن، والمحرر الوجيز لابن عطية بتصرف).

المعنى التفصيلي:

لما ذكر الله سبحانه مَثل أعمال الكفار وأنها كرماد اشتدت به الريح، ثم ذكر نعيم المؤمنين وما جازاهم الله به من إدخالهم الجنة خالدين فيها وتحية الملائكة لهم، ذكر تعالى هاهنا مثلاً للكلمة الطيبة وهي كلمة الإسلام أي: لا إله إلا الله أو ما هو أعمّ من ذلك من كلمات الخير، وذكر مثلاً للكلمة الخبيثة وهي كلمة الشرك أو ما هو أعم من ذلك من كلمات الشر. (فتح البيان لصديق حسن ٥٤٢/٣).

روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن من الشجر شجرةً لا يسقط ورقها، وهي مَثَل المسلم، حدِّثوني ما هي؟» فوقع الناس في شجرة البادية، ووقع في نفسي أنها النخلةُ، قال عبد الله: فاستحييتُ، فقالوا: «هي النخلة». قال عبد الله: فحدثت أبي بما وقع في نفسي، فقال: لأن تكون قلتها أحبُ إليّ من أن يكون لي كذا وكذا».

وفي تفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «كلمة طيبة» شهادة أن لا إله إلا الله، «وكشجرة طيبة» وهو المؤمن «أصلها ثابت» قول: لا إله إلا الله، في قلب المؤمن. «وفرعها في السماء» يقول: يُرفع بها عمل المؤمن إلى السماء، وأصلها الثابت الذي لا يزول الإخلاص فيه، وفرعه في السماء خشية الله".

والتشبيه على هذا القول أصح وأظهر وأحسن فإنه سبحانه شبَّه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل الباسقة الفرع في السماء علوًا التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقًا لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب التي فروعها من الأعمال الصالحة الصاعدة إلى السماء، ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت بحسب ثباتها في القلب ومحبة القلب لها وإخلاصه فيها ومعرفته بحقيقتها وقيامه بحقوقها ومراعاتها حق رعايتها.

فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها

التي هي حقيقتها واتصف قلبه بها وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغة منها فعرف حقيقة الإلهية التي يثبتها قلبه لله ويشهد بها لسانه وتصدقها جوارحه، ونفى تلك الحقيقة ولوازمها عن كل ما سوى الله، وواطأ قلبُه لسانه في هذا النفي والإثبات، وانقادت جوارحه لمن شهد له بالوحدانية طائعة سالكة سبل ربه ذللاً غير ناكبة عنها ولا باغية سواها بدلاً كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلاً.

فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الله كل وقت، فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى، وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلامًا كثيرًا طيبًا يقارنه عمل صالح فيرفع العمل الصالح إلى الكلم الطيب كما قال تعالى: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ».

فأخبر سبحانه أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، وأخبر أن الكلمة الطيبة تثمر لقائلها عملاً صالحًا كل وقت.

وقال الربيع بن أنس: "أصلها ثابت وفرعها في السماء"، قال: "ذلك المؤمن ضرب مثله في الإخلاص لله وحده وعبادته وحده لا شريك له أصلها ثابت"، قال: "أصل عمله ثابت في الأرض وفرعها في السماء" قال: ذكره في السماء.

ولا اختلاف بين القولين والمقصود بالمثل المؤمن والنخلة مشبّهة به وهو مشبه بها وإذا كانت النخلة شجرة طيبة فالمؤمن المشبه بها أولى أن يكون كذلك"، ومن قال من السلف: "إنها شجرة في الجنة؛ فالنخلة من أشرف أشجار الجنة". (الجامع في أمثال القرآن لابن القيم ص١٢٨).

من فوائد الآية:

١- أن كلمة التوحيد هي التي تربط الأرض بالسماء، وتجعل الكون كله وحدة موحدة تدين لخالقها طوعًا وكرهًا، وتسبح بحمد بارئها صباحًا ومساءً بلسان الحال وبلسان المقال.

٢- أنها مفتاح السماوات والأرض، بها كان الخلق وبها كان كل شيء في عالم الملك والملكوت، إنها الشجرة التي تمد المؤمنين بنورها الصافي كما جاء معنى ذلك في سورة النور في قوله تعالى: «مثل نوره..» إلى أن قال سبحانه: «لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ» (النور:٣٥).

٣- جلال المعنى في قوله جل شأنه: «وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ» (إبراهيم:٢٤)، فإنه يفيد أن السماء من أولها إلى آخرها ظرف لهذا الفرع الممتد، ولو قال إلى السماء لما أدى ذلك المعنى، ولم يقل: وفروعها، بل قال: «فرعها» لمناسبة كلمة التوحيد، وليرتبط اللفظ بالمعنى، كما نلاحظ ذلك في مناسبة الألفاظ للمعاني في مثل قوله تعالى: «رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ» (المزمل:٩)، فقد وحد المشرق والمغرب لمناسبة الوحدانية هناك، بينما جمعهما في آيات أُخر فقال في سورة المعارج «فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ» (المعارج:٤٠)، ليناسب قوله تعالى: «مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ» (المعارج:٣) ليناسب قوله: «رَبُّ الْمَشَارِقِ» وقال: «وَرَبُّ الْمَشَارِقِ» (الصافات:٥).

وقال: «رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ» (الرحمن:١٧) في سورة الرحمن؛ لأن الخطاب في السورة للجن والإنس، فثناهما مراعاةً لتثنية الخطاب، فتأمل ذلك وقس عليه.

٤- قوله تعالى: «تُؤْتِي أُكُلَهَا» (إبراهيم:٢٥) أقوى دلالة من قوله: «تؤتي ثمرها»؛ لأن الثمر قد لا يؤكل لمرارته مثلاً، وفي قوله: «بِإِذْنِ رَبِّهَا» (إبراهيم:٢٥)، إشارة إلى أن كل شيء في هذا الكون لا يقع إلا بإذنه، وأن الزارع مهما بذل في الأرض من جهد، ومهما كان لديه من خبرة في شئون الزراعة فإنه لا يستطيع أن يُخرج من الأرض حبة واحدة، كيف وهو لا يعلم أين استقرت عندما بذرها، ولا يعلم متى تخرج وكيف تخرج وكيف تنمو وتترعرع، لا علم لهم بشيء من ذلك، وبالتالي لا يكون له قدرة على إنبات حبة في الأرض مهما بذل من جهد وخبرة.

قال الله تعالى: «أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ» (الواقعة:٦٣-٦٤). (الفوائد مستفادة من كتاب الأمثال القرآنية للدكتور محمد بكر إسماعيل).

والحمد لله رب العالمين.

مثل الكلمة الخبيثة

إعداد مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد:

ففي هذا المقال نتحدث عن مثل آخر من الأمثال في القرآن، وهو في قوله تعالى: « وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ » (إبراهيم:٢٦، ٢٧).

المعنى الإجمالي:

قال ابن القيم رحمه الله: "ذكر سبحانه الكلمة الخبيثة فشبهها بالشجرة التي « اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ » (إبراهيم:٢٦)، فلا عرق ثابت، ولا فرع عالٍ، ولا ثمرة زاكية، فلا ظل، ولا جَنى، ولا ساق قائم، ولا عرق في الأرض ثابت، فلا أسفلها مُغدق، ولا أعلاها مُونق، ولا جَنى لها، ولا تعلو بل تُعلى. (إعلام الموقعين عن رب العالمين١/١٣٥)

قال الربيع بن أنس: مثل الشجرة الخبيثة مثل الكافر، ليس لقوله ولا لعمله أصل ولا فرع، ولا يستقر قوله ولا عمله على الأرض، ولا يصعد إلى السماء.

ثم أخبر سبحانه عن فضله وعدله في الفريقين أصحاب الكلم الطيب والكلم الخبيث، فأخبر أنه يثبت الذين آمنوا بإيمانهم بالقول الثابت أحوج ما يكونون إليه في الدنيا والآخرة، وأنه يضل الظالمين وهم المشركون عن القول الثابت، فأضل هؤلاء بعدله لظلمهم، وثبت المؤمنين بفضله لإيمانهم".

معاني المفردات:

كلمة خبيثة: أي كلمة باطلة، كلمة كفر وضلال كشجرة فاسدة غير نافعة لا تستحق إلا القطع والإزالة. (القاموس القويم ١/١٨٥).

قال ابن عباس: « وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ » (إبراهيم:٢٦) وهي الشرك « كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ » (إبراهيم:٢٦) يعني الكافر. (تفسير الطبري).

وقال ابن كثير: « وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ » (إبراهيم:٢٦) هذا مثل كفر الكافر، لا أصل له ولا ثبات، وشبه بشجرة الحنظل، ويقال لها: «الشريان». (رواه شعبة عن معاوية بن قرة، عن أنس بن مالك: أنها شجرة الحنظل).

« اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ » (إبراهيم:٢٦) اجتثت: أي: استؤصلت وأخذت جثتها بالكلية من فوق الأرض أي: لأن عروقها قريبة منه ما لها من قرار أي: استقرار.

« مَا لَهَا مِن قَرَارٍ » (إبراهيم:٢٦). قال البغوي: ما لها من قرار: ثبات، معناه وليس لها أصل ثابت في الأرض ولا فرع صاعد إلى السماء، كذلك الكافر لا خير فيه ولا يصعد له قول طيب ولا عمل صالح.

« يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ » (إبراهيم:٢٧) قال البغوي في تفسيره: قوله تعالى: « يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ »: كلمة التوحيد، وهي قول لا إله إلا الله، في الحياة الدنيا، يعني قبل الموت، وفي الآخرة، يعني في القبر هذا قول أكثر المفسرين، وقيل: في الحياة الدنيا عند السؤال في القبر وفي الآخرة عند البعث، والأول أصح.

« فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ » (إبراهيم:٢٧) قال ابن عطية في الوجيز: الحياة الدنيا هي مدة حياة الإنسان، وفي الآخرة هي وقت سؤاله في قبره.

« وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ » (إبراهيم:٢٧) قال القاسمي في محاسن التأويل: ويضل الله الظالمين: أي يخلق فيهم الضلال عن الحق الذي ثبت المؤمنين عليه حسب إرادتهم واختيارهم، ووصفهم بالظلم لوضعهم الشيء في غير موضعه أو لظلمهم أنفسهم حيث بدلوا فطرة الله التي فطر الناس عليها.

« وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ » (إبراهيم:٢٧) أي من التثبيت والإضلال حسبما تقتضيه حكمته البالغة.

المعنى التفصيلي:

قال صاحب التفسير القرآني أثناء حديثه حول الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة: "وليست الكلمة في ذاتها، من حيث هي كلمة هي التي يكون لها هذا الوصف من الطيب، أو تكون لها تلك الأوصاف من الخبث، وإنما الكلمة- طيبة كانت أو خبيثة- لا يظهر طيبها أو خبثها، إلا إذا التقت بعقل الإنسان، ونفذت إلى قلبه، وَسَرَتْ في مشاعره وسكنت إلى وجدانه- عندئذ تخرج خبأها وتصرِّح عن مكنوها وتعطي الثمر الطيب أو الخبيث الذي كان مستودعًا في كيانها- إنها أشبه بالنواة من الشجرة والبذرة من النبات لا ينكشف ما بها حتى تعلق بالأرض وتترعرع وتنمو ثم تزهر وتثمر، وكما أنه بالتجربة والاختيار قد عرف مقدمًا ما تعطيه نواة هذه الشجرة أو تلك من ثمر حلو أو مر، إذا هي غرست في مغارسها وتهيأت لها أسباب الحياة والنماء، كذلك يعرف الكلام الطيب وما يثمر من ثمر طيب، والكلام الخبيث وما يثمر من خبيث، إذا هو وقع من النفوس الموقع، الذي يهيئ له حياة، ويقيم له وجودًا.

فدعوات الرسل والمصلحين والقادة والعلماء والحكماء، ليست إلا كلمات، تحمل في كيانها معاني الحق والخير، وترسم من مفاهيمها مناهج العدل والإحسان.. ثم تدع للناس أن يتناولوها كيف شاؤوا، أو يتعاملوا معها حسب ما أرادوا.. فمنهم من يجد فيها هداه وصلاح أمره في الدين والدنيا جميعًا.. ومنهم من لا يقيم لها وزنًا ولا يرفع لها رأسًا ولا يمد نحوها يدًا.

وبهذا تختلف حظوظ الناس من هذا الخير المتاح لهم.. فمنهم من يأخذ حظه كاملاً، ومنهم من لا ينال شيئًا.. وهكذا تتفرق السبل بين مهتد وضال ومستقيم ومنحرف وسعيد وشقي.

قال العلماء: "وإن الكلمة الخبيثة- كلمة الباطل- لكالشجرة الخبيثة قد تهيج وتتعالى وتتشابك ويخيل إلى بعض الناس أنها أضخم من الشجرة وأقوى، ولكنها تظل نافشة هشة، وتظل جذورها في التربة قريبة حتى لكأنها على وجه الأرض.. وما هي إلا فترة ثم تجتث من فوق الأرض، فلا قرار لها ولا بقاء.

ليس هذا وذلك مجرد مثل يضرب، ولا مجرد عزاء للطيبين وتشجيع: إنما هو الواقع في الحياة، ولو أبطأ تحققه في بعض الأحيان.

والخير الأصيل لا يموت ولا يذوي مهما زحمه الشر وأخذ عليه الطريق، والشر كذلك لا يعيش إلا ريثما يستهلك بعض الخير المتلبس به-فقلما يوجد الشر الخالص-، وعندما يستهلك ما يلابسه من الخير فلا تبقى فيه منه بقية، فإنه يتهالك ويتهشم مهما تضخم واستطال.

فهي أمثال مصداقها واقع في الأرض، ولكن الناس كثيرًا ما ينسونه في زحمة الحياة". انتهى بتصرف.

قال القطان في تيسير التفسير: "وإن الكلمة الخبيثة، كلمة الباطل كالشجرة الخبيثة التي لا تنفع الناس، ليس لها قرار ثابت وقد اقتلعت من فوق الأرض؛ لأن جذورها غير قوية، فكما أن هذه الشجرة لا ثبات لها ولا دوام، فكذلك الباطل لا يدوم ولا يثبت". اهـ.

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (إبراهيم:٢٧):

قال القرطبي: نزلت في عذاب القبر؛ يقال: من ربك؟ فيقول: ربي الله وديني دين محمد، فذلك قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ (إبراهيم:٢٧)، قلت (أي القرطبي): وقد جاء هكذا موقوفًا في بعض طرق مسلم عن البراء والصحيح فيه الرفع كما في صحيح مسلم وكتاب النسائي وأبي داود وابن ماجه وغيرهم...».

وقيل معنى: «يثبت الله» يديمهم الله على القول الثابت.

وقيل: يثبتهم في الدارين جزاءً لهم على القول الثابت. وقال القفال وجماعة: في «الحياة الدنيا» أي في القبر؛ لأن الموتى في الدنيا إلى أن يبعثوا وفي الآخرة عند الحساب. وحكاه الماوردي عن البراء قال: المراد بالحياة الدنيا المسألة في القبر، وبالآخرة المسألة في القيامة.

﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (إبراهيم:٢٧) أي: عن حجتهم في قبورهم. اهـ. القرطبي.

وقال ابن عاشور في التحرير والتنوير في قوله تعالى: ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (إبراهيم:٢٧) أي: المشركين؛ أي يجعلهم في حيرة وغماية في الدنيا والآخرة، والضلال: اضطراب وارتباك فهو الأثر المناسب لسببه، أعني الكلمة التي اجتُثت من فوق الأرض كما دلت عليه المقابلة، والظالمون: المشركون، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (لقمان:١٣). اهـ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

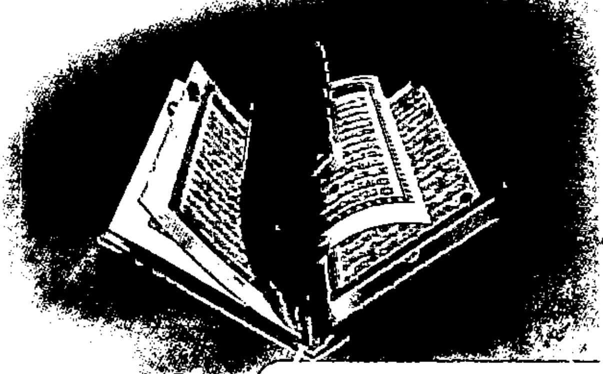

دراسات قرآنية

الأمثال في القرآن

المثلُ الأعلى

إعداد: مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعدُ:

ففي هذا المقال نتحدث عن مثل من الأمثال القرآنية وهو في قوله تعالى: « لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » (النحل:٦٠).

المعنى الإجمالي:

قال ابن القيم: فجعل مَثَل السوء المتضمن للعيوب والنقائص وسلب الكمال للمشركين وأربابهم، وأخبر أن المثل الأعلى المتضمن لإثبات الكمالات كلها له وحده، ولهذا كان المثل الأعلى وهو أفعل تفضيل، أي: أعلى من غيره فكيف يكون أعلى وهو عدم محض ونفي صرف، وأي مثل أدنى من هذا؟ تعالى الله عن قول المعطلين علوًا كبيرًا.

فمثل السوء لعادم صفات الكمال، ولهذا جعله مثلاً للجاحدين لتوحيده وكلامه، وحكمته، لأنهم فقدوا الصفات التي من اتصف بها كان كاملاً، وهي: الإيمان، والعلم، والمعرفة، واليقين، والعبادة، والتوكل عليه والإنابة إليه، والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، والصبر، والرضا، والشكر وغير ذلك من الصفات التي اتصف بها من آمن بالآخرة، فلما سُلبت تلك الصفات عنهم، وهي صفات كمال صار لهم مَثَل السوء، فمن سُلبَ صفات الكمال عن الله، وعلوه على خلقه، وكلامه وعلمه وقدرته ومشيئته وحياته، وسائر ما وصف به نفسه، فقد جعل له مثل السوء، ونزّهه عن المثل الأعلى فإن مثل السوء هو العدم، وما يستلزمه، وضده المثل الأعلى، وهو: الكمال المطلق المتضمن للأمور الوجودية والمعاني الثبوتية التي كلما كانت أكثر في الموصوف وأكمل كان أعلى من غيره، ولما كان الرب سبحانه وتعالى هو الأعلى، ووجهه الأعلى وكلامه الأعلى، وسمعه الأعلى، وبصره وسائر صفاته عليا، كان له المثل الأعلى، وكان أحق به من كل ما سواه، بل يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى اثنان، لأنهما إن تكافآ لم يكن أحدهما أعلى من الآخر، وإن لم يتكافآ فالموصوف بالمثل الأعلى أحدهما وحده، ويستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى مثل أو نظير.

وهذا برهان قاطع على إثبات صفات الكمال لله وعلى استحالة التمثيل والتشبيه، فتأمله فإنه غاية الظهور والقوة، ونظير هذا القهر المطلق، مع الوحدة فإنهما متلازمان، فلا يكون القهار إلا واحدًا، إذا كان معه كفؤ له، فإن لم يقهره لم يكن قهارًا على الإطلاق وإن قهره لم يكن كفؤًا، وكان القهار واحدًا، فتأمل كيف كان قوله سبحانه: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » (الشورى:١١)، وقوله: «وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى » (الروم:٢٧)، من أعظم الأدلة على ثبوت صفات كماله سبحانه. (الجامع لأمثال القرآن ص١٤٣).

المعنى التفصيلي:

« لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى » (النحل:٦٠) كما تقدم، فهي بمنزلة جملة (سبحانه)، غير أن جملة سبحانه جواب بتنزيه الله عما نسبوه إليه، وهذا جواب بتحقيرهم

عما يعاملون به البنات مع نسبتهم إلى الله، هذا الصنف المحقر عندهم.

وقد جرى الجواب على استعمال العرب عندما يسمعون كلامًا مكروهًا أو منكرًا أن يقولوا للناطق به: بفيك الحجر، ويقولون: تَرِبت يداك، وتربت يمينُك، واخسأ.

وكذلك جاء قوله تعالى: «لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ» (النحل:٦٠) شتمًا لهم، والمثل: الحال العجيبة في الحسن والقبح، وإضافته إلى السوء للبيان، وعُرِّفوا بـ «الذين لا يؤمنون بالآخرة» لأنهم اشتهروا بهذه الصفة بين المسلمين، كقوله تعالى: «فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ» (النحل:٢٢)، وقوله: «بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ» (سبأ:٨).

وجملة: «ولله المثل الأعلى» عطفت على جملة: «للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء»؛ لأنها بها تكملة إفساد قولهم وذم رأيهم، إذ نسبوا إلى الله الولد وهو من لوازم الاحتياج والعجز.

ولما نسبوا إليه ذلك خصوه بأخسّ الصنفين عندهم، كما قال الله تعالى: «وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ» (النحل:٦٢)، وإن لم يكن كذلك في الواقع، ولكن هذا جرى على اعتقادهم ومؤاخذة لهم برأيهم.

و(الأعلى) تفضيل، وحُذِفَ المفضل عليه لقصد العموم، أي أعلى من كل مثل في العلو بقرينة المقام.

و(السُّوءُ) بضم السين، الاسم تقدم في قوله تعالى: «يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ» (البقرة:٤٩).

و(وهو العزيز الحكيم):

والعزيز: فعيلٌ من عزَّ إذا قوي ولم يُغلب، وأصله من العزة وهو ضدٌ فكان العلم بأنه تعالى عزيزٌ مستلزمٌ تحققهم أنه مُعاقبهم لا يُفلتهم؛ لأن العزيز لا ينجو مَنْ يُناوئه.

والحكيم: يجوز أن يكون اسم فاعل من حكم أي قوي الحكم، ويحتمل أنه المُحكم للأمور فهو من مجيء فعيل بمعنى مُفعل، ومناسبته هنا أن المتقن للأمور لا يُفلتُ مستحقَ العقوبة، فالكلام وعيد وإلا فإن الناس كُلهم يعلمون أن الله عزيز حكيم. (التحرير والتنوير لابن عاشور) بتصرف.

وقال ابن كثير: «لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ» (النحل:٦٠) أي: النقص إنما ينسب إليهم، «وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى» (النحل:٦٠) أي: الكمال المطلق من كل وجه وهو منسوبٌ إليه، «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (النحل:٦٠). اهـ. بتصرف.

قال ابن القيم رحمه الله: "المثل الأعلى يتضمن الصفات العليا، وعلم العالمين بها ووجودها العلمي والخبر عنها وذكرها، وعبادة الرب سبحانه بواسطة العلم والمعرفة القائمة بقلوب عابديه وذاكريه؛ فهاهنا أربعة أمور:

الأول: ثبوت الصفات العليا لله سبحانه وتعالى في نفس الأمر علمها العباد أو جهلوها وهذا معنى قول من فسره بالصفة.

الثاني: وجودها في العلم والتصور، وهذا معنى قول من قال من السلف والخلف: إنه ما في قلوب عابديه وذاكريه من معرفته وذكره ومحبته وإجلاله وتعظيمه، وهذا الذي في قلوبهم من المثل الأعلى لا يشترك فيه غيره معه، بل يختص به في قلوبهم كما اختص في ذاته.

وهذا معنى قول من قال من المفسرين: أهل السماء يعظمونه ويحبونه ويعبدونه، وأهل الأرض يعظمون ويجلونه، وإن أشرك به من أشرك وعصاه من عصاه، وجحد صفاته من جحدها، فكل أهل الأرض معظمون له مُجلُّون له خاضعون لعظمته مستكينون لعزته وجبروته، قال الله تعالى: «لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ» (البقرة:١١٦)، فلست تجد أحدًا من أوليائه وأعدائه إلا والله أكبر في صدره وأكمل وأعظم من كل ما سواه.

الثالث: ذكر صفاته والخبر عنها وتنزيهها عن النقائص والعيوب والتمثيل.

الرابع: محبة الموصوف بها وتوحيده والإخلاص له والتوكل عليه والإنابة إليه، وكلما كان الإيمان بالصفات أكمل، كان هذا الحب والإخلاص أقوى، فعبارات السلف تدور حول هذه المعاني الأربعة لا تتجاوزها". (الصواعق المرسلة (١٠٣٠/٢ وما بعدها)، وانظر: «الفوائد» (ص٣٨) وما بعدها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دراسات قرآنية

الأمثال في القرآن

«ضرب الأمثال»

مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعدُ:

«فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» (النحل:٧٤).

المعنى الإجمالي:

قال ابن القيم عليه رحمة الله في «إغاثة اللهفان» (٢٣٠/٢): «فنهاهم أن يضربوا له مثلاً من خلقه، ولم ينههم أن يضربوه هو مثلاً لخلقه، فإن هذا لم يقله أحد، ولم يكونوا يفعلونه، فإن الله سبحانه أجلُّ وأعظمُ وأكبرُ من كلِّ شيءٍ في فطَر الناس كلهم، ولكنَّ المشبهون المشركون يُغْلُونَ فيمن يعظمونه فيشبهونهم بالخالق، والله سبحانه وتعالى أجلُّ في صدور جميع الخلق من أن يجعلوا غيره أصلاً ثم يشبهونه سبحانه بغيره، فالذي يشبهه بغيره إن قصد تعظيمه لم يكن في هذا تعظيم لأنه مثل أعظم العظماء بما هو دونه، بل بما ليس بينه وبينه نسبة وشبه في العظمة والجلالة، وعاقل لا يفعل هذا.

وإن قصد التنقيص شبهه بالناقصين المذمومين لا بالكاملين الممدوحين، ومن هنا يعلم أن إثبات صفات الكمال لا يتضمن التشبيه والتمثيل لا بالكاملين ولا بالناقصين، وأن تلك الصفات يستلزم تشبيه بأنقص الناقصين، فانظر إلى الجهمية وأتباعهم جاؤوا إلى التشبيه المذموم فأعرضوا عنه صفحًا، وجاؤوا إلى الكمال والمدح فجعلوه تشبيهًا وتمثيلاً عكس ما يثبته القرآن، وجاء به من كل وجه. اهـ.

المعنى التفصيلي:

قال الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير: «فَلاَ تَضْرِبُوا للّه الأَمْثَالَ إِنَّ الله يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ» (النحل:٧٤)، تفريع على جميع ما سبق من الآيات والعبر والمنن، إذ قد استقام من جميعها انفراد الله تعالى بالإلهية، ونفي الشريك له فيما خلق وأنعم، وبالأولى نفي أن يكون له ولد وأن يشبه بالحوادث فلا جَرَمَ استتب للمقام أن يفرع على ذلك زجر المشركين عن تمثيلهم غير الله بالله في شيء من ذلك، وأن يمثلوه بالموجودات.

وهذا جاء على طريقة قوله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ

﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٢١، ٢٢).

وقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ (يس:٧٨)، والأمثال هنا جمع مثل- بفتحتين- بمعنى المماثل، كقولهم: شبَه بمعنى مشابه وضربُ الأمثال شاع استعمالُهُ في تشبيه حالة بحالة وهيئة بهيئة، وهو هنا استعمال آخر.

ومعنى الضرب في قولهم: ضرب كذا مثلاً مستعمل مجازًا في الوضع والجعل من قولهم ضرب خيمة وضرب بيتًا، قال الفرزدق:

ضَرَبتْ عليك العنكبوتُ بِنَسْجِهَا
وقضى عليك به الكتابُ المنزلُ

أي: جعل شيئًا مثلاً أي شبها، قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ (الروم:٢٨)، ووجه كون الإشراك ضرب مثل الله أنهم أثبتوا للأصنام صفات الإلهية وشبهوها بالخالق، فإطلاق ضرب المثل عليه مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾ (الزخرف:٥٨)، وقد كانوا يقولون عن الأصنام هؤلاء شفعاؤنا عند الله، والملائكة هُن بنات الله من سَرَوات الجن، فذلك ضرب مثل.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٢١٦) استدعاءٌ لإعمال النظر الصحيح ليصلوا إلى العلم البريء من الأوهام. اهـ. بتصرف من التحرير والتنوير.

وفي «التفسير القرآني للقرآن»: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ (النحل:٧٤)، الأمثال جمع مثل وهو شبيه الشيء ونظيره. وضرب المثل: مقابلته بمثله، حين يجمع بين النظير ونظيره، أو الشيء وضده كما يقول سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ (الرعد:١٧)، والأمر هنا موجه على المشركين، الذين يضربون أمثالاً يقيمون منها حججًا لضلالهم، وهي أمثال باطلة فاسدة تولدت من عقول مريضة وقلوب سقيمة كما يحكي القرآن بعض أمثالهم في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ (يس:٧٨).

أما الأمثال التي يضربها الله تعالى فهي التي تكشف الطريق إلى الحق والخير لأنها أمثال مستندة إلى علم الله المحيط بكل شيء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل:٧٤). اهـ. التفسير القرآني للقرآن.

وقال في «روح البيان»: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ (النحل:٧٤) أي: فلا تشبهوا الله بشيء من خلقه وتشركوا به، قال ضرب المثل تشبيه حال بحال وقصة بقصة والله تعالى واحد حقيقي لا شبه له أزلاً وأبدًا.

قال في الإرشاد: أي لا تشبهوا بشأنه تعالى شأنًا من الشئون.

وفي تفسير أبي السعودي (١٢٨/٥): قوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ (النحل:٧٤) أي: لا تمثلوا لله الأمثال، ولا تشبهوا له الأشياء فإنه لا مثيل له ولا شبيه له، والقصد من ذلك النهي (أي لا تشركوا به شيئًا، وقيل: لا تشبهوا بشأنه تعالى شأنًا من الشئون».

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل:٧٤) أي: أنه تعالى يعلم كُنه الأشياء وأنتم لا تعلمونه، فدعوا رأيكم، وقفوا مواقف الامتثال لما ورد عليكم من الأمر والنهي ويجوز أن يكون المراد: فلا تضربوا لله الأمثال: إن الله يعلم كيف تضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون ذلك فتقعون فيما فيه من مهاوي الردى والضلال. اهـ

وقال ابن كثير: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ (النحل:٧٤) أي: لا تجعلوا له أندادًا وأشباهًا وأمثالاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل:٧٤) أي: أنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا الله وأنتم بجهلكم تشركوا به غيره.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دراسات قرآنية

بحث في «المراد بضرب الأمثال»

بقلم مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد:

فهذا بحث في المراد بضرب الأمثال في القرآن، ومناسبته أنني ذكرت في العدد السابق عن ضرب الأمثال في القرآن آية: «فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» (النحل:٧٤)، وكذلك الآيات التي تأتي بعد في سورة النحل والإسراء والكهف والحج والعنكبوت والروم ويس والزخرف والتحريم، ففيها ذكر لفظ (ضرب الأمثال)، فأحببت أن أجمع كلمات حول المراد بضرب الأمثال في القرآن؛ لتتم الفائدة.

المراد بضرب الأمثال:

يستخدم لفظ «ضرب» في اللغة كثيرًا، وقد جمع أغلب تلك الاستخدامات الراغب الأصفهاني حيث قال: «الضرب إيقاع شيء على شيء، ولتصور اختلاف الضرب خولف بين تفاسيرها؛ كضرب الشيء باليد والعصا والسيف، ونحوها، وضرب الأرض بالمطر، وضرب الدراهم.. والضرب في الأرض الذهاب فيها وهو ضربها بالأرجل.. وضرب الفحل الناقة تشبيها بالضرب بالمطرقة كقولك طرقها تشبيهًا بالطرق بالمطرقة، وضرب الخيمة بضرب أوتادها بالمطرقة.. وضرب اللبن بعضه على بعض بالخلط، وضرب المثل هو من ضرب الدراهم وهو ذكر شيء أثره يظهر في غيره». (المفردات في غريب القرآن ص٢٦٤، ٢٩٥).

وضرب المثل يرجع إلى أربعة معان رئيسة، وهي:

أولا: نصب المثال وإظهاره للمخاطبين لتستدل عليه خواطرهم كما تستدل على الشيء المنصوب نواظرهم. (الأمثال العربية لقطامش ص١٢).

وهو مأخوذ من ضرب الخيمة، أي: نصبها.

وهذا المعنى هو الألصق بالأمثال الأنموذجية، والشواهد والحجج المنصوبة للاعتبار أو الاستدلال بها.

ثانيًا: التقدير:

قال ابن تيمية رحمه الله: «فالأصل فيهما- الذي يقاس عليه- هو المثل، والقياس هو ضرب المثل وأصله- والله أعلم- تقديره، فضرب المثل للشيء تقديره له كما أن القياس أصله تقدير الشيء». (دقائق التفسير لابن تيمية: ١/ ٢٠٣).

وهذا الأصل لمعنى ضرب المثل الذي ذكره ابن تيمية رحمه الله صالح لأن يُرجع إليه ضرب الأمثال بمختلف أنواعها.

حيث يكون أصل ضرب المثل، هو تقدير المعنى، أو الحكمة والحجة والعبرة والقدرة بألفاظ المثل، أو بمعنى آخر: ضرب المثل: هو إنشاء ألفاظ المثل التي يتم بها تقدير الحكمة أو الصفة أو الحجة أو نحوها للمخاطب، أو تقدير المشابه أو الأنموذج أو الأصل الذي يتوصل المخاطب المقايسة والمقارنة والاعتبار به إلى استخلاص البرهان والعبرة ونحوها.

وقد أرجع ابن تيمية رحمه الله جميع المعاني التي استخدم فيها المثل في اللغة إلى معنى التقدير. (دقائق التفسير: ١/ ٢٠٣).

وهذا المعنى مأخوذ من ضرب الدراهم وهو تقديرها ، وضرب الجزية والخراج وهو تقديرهما.

ثالثًا: ضرب المثل: بمعنى قوله وإطلاقه والتمثل به في الحالات التي تشبه الحالة الأولى ، وهو ألصق بالأمثال السائرة، مأخوذ من المعنى العام للضرب وهو: إيقاع شيء على شيء، حيث يتم إيقاع المثل السائر على الحالة المناسبة للتشابه بينهما.

والمثل السائر هو الذي يشبّه مضربه بمورده.

وهو مأخوذ من التمثيل أي: الإنشاد.

ويراد بمضرب المثل: الحالات والمواقف المتجددة التي يمكن أن يستعمل فيها المثل، لما بينها وبين مورد

المثل من التشابه.
ومورد المثل يراد به: الحالة التي قيل فيها ابتداءً. (الأمثال العربية لعبد المجيد قطامش ص١٤).
رابعًا: الضرب للمثل بمعنى التلقيح:
قال ابن تيمية رحمه الله: «وضرب المثل لما كان جمعًا بين علمين يطلب منهما علم ثالث كان بمنزلة ضراب الفحل الذي يتولد عنه الولد، ولهذا يقسمون الضرب إلى ناتج وعقيم كما ينقسم ضرب الفحل للأنثى إلى ناتج وعقيم». (دقائق التفسير ٢٠٤/١).
وهذا النوع مأخوذ من ضرب الفحل الناقة وهو ألصق بالأمثال القياسية التشبيهية والأنموذجية. فالأمثال القياسية- من جهة- تلقح الأفكار وتنبهها على القياس والتفكر والاعتبار.
ومن جهة أخرى يتم فيها التلقيح بين الفرع والأصل ليحصل النتيجة الموجبة وهي التي تسمى الناتج حيث يُعطي حكم الأصل للفرع، أو تكون نتيجة الاعتبار سالبة وهي العقيم التي لا يلحق بها الفرع بالأصل في الحكم لوجود مانع.
خلاصة هذا المطلب:
وخلاصة هذا المطلب أن المراد بضرب الأمثال يختلف باختلاف أنواع المثل فقد يكون المراد بضرب المثل: هو قوله والتمثل به كما في الأمثال السائرة، وقد يكون نصبه وإشخاصه أمام العقول كما في الأمثال القياسية، وقد يكون معنى الضرب يعود إلى تقدير ما فيه من المعاني والحكم والحجج، كما يراعى في معنى الضرب ما ينتج عنه من تلقيح الأفكار والخواطر وإخصابها أو لما يتولد عنه من النتائج.

اشتمال المثل على القياس:
القياس هو التقدير: يقال قاس الشيء إذا قدره، ويستعمل أيضًا في التشبيه، أي في تشبيه الشيء بالشيء، يقال هذا قياس ذاك، إذا كان بينهما تشابه، والقياس اللغوي رد الشيء إلى نظيره.
فالقياس على هذا أوسع مدلولا من التشبيه، فقد يكون القياس بأسلوب تشبيهي أو بغيره.
والقياس في الأمثال يكون بطريقتين:
أحدهما: التشبيه- كقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ (الأعراف:١٧٦)، وهذا النوع يقوم فيه المتكلم بإجراء القياس بتشبيه الفرع بالأصل وبيان وجه المشابهة، وغالبًا ما يوجد فيه أداة من أدوات التشبيه.
الثاني: إبراز النموذج- الذي يراد أن يحتذى به- والشاهد والحجة ليقاس عليها ويعمم حكمها لكل من تحقق فيه وصفها، كقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ (التحريم:١١).
وهذا النوع من الأمثال يبرز فيه الأنموذج أو الشاهد أو الحجة أو القصة ويترك للسامع تدبرها وإجراء القياس بإلحاق النظير بالحكم أو الوصف العام المدلول عليه المثل، وغالبًا ما يرد لفظ «ضرب» في أمثلة هذا النوع، نحو: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ (الزمر:٢٩)، وقوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ (يس:١٣)، وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى إلى هذين النوعين من الأمثال وأنهما يتضمنان نوعي القياس- قياس التمثيل وقياس الشمول- حيث قال: «وضرب الأمثال في المعاني نوعًا القياس:
أحدهما: الأمثال المعينة التي يقاس فيها الفرع بأصل معين موجود أو مقدر.
الثاني: (الأمثال الكلية) وقال: «والصواب ما عليه السلف من اللغة الموافقة لما في القرآن.. كليهما قياس وتمثيل واعتبار، وهو في قياس التمثيل ظاهر، أما قياس الشمول فلأنه قياس كل واحد من الأفراد بذلك المقياس العام الثابت في العلم والقول وهو الأصل.
فالأصل فيهما هو المثل والقياس ضرب المثل». (مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ٥٥/١٤).
فقول شيخ الإسلام: «فالأصل فيهما هو المثل»: أي أن العلم المدلول عليه بألفاظ المثل المبين لأوصاف الممثل به وحكمه أو حاله هو الأصل الذي يلحق به الفرع في الحكم كما قال قبل ذلك: «فلأنه يقاس كل واحد من الأفراد بذلك المقياس العام الثابت في العلم والقول وهو الأصل».
أما قوله: «والقياس ضرب المثل» أي أن ذلك العلم المدلول عليه بألفاظ المثل ينصب ويبرز للعقول- بضربه مثلاً- ليلحق به ما يشابهه أو يندرج تحته من أفراده في الأحكام والأوصاف المعتبرة من المثل وهذا هو القياس. (الأمثال القرآنية للدكتور عبد الله الجربوع ٩٦/١).
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الأمثال في القرآن
(مثل العبد المملوك)

دراسات قرآنية

إعداد: مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد:

فهذا مَثَل من الأمثال القرآنية، وهو في قوله تعالى من سورة النحل: « وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ » (النحل: ٧٥- ٧٦).

المعنى الإجمالي:

قال ابن القيم رحمه الله: هذان مثلان متضمنان قياسين من قياس العكس، وهو نفي الحكم لنفي علته وموجبه، فإن القياس نوعان:

قياس طرد: يقتضي إثبات الحكم في الفرع لثبوت علة الأصل فيه.

وقياس عكس: يقتضي نفي الحكم عن الفرع لنفي علة الحكم فيه. (إعلام الموقعين).

فالمثل الأول ضربه الله سبحانه لنفسه وللأوثان، فالله سبحانه هو المالك لكل شيء، ينفق كيف يشاء على عبيده سرًا وجهرًا وليلاً ونهارًا، «يمينه مَلأى لا تغيضها نفقة، سحاءُ الليل والنهار». (الأمثال في القرآن لابن القيم).

(ومعنى (سحاء) السح الصب الدائم- ومعنى (لا تغيضها) أي لا ينقصها). قاله النووي في «شرح مسلم» (٨١/٤).

والأوثان المملوكة عاجزةٌ لا تقدرُ على شيء، فكيف تجعلونها شركاء لي وتعبدونها من دوني مع هذا التفاوت العظيم والفرق المبين؛ هذا قول مجاهد وغيره.

وقال ابن عباس: هو مثل ضربهُ الله للمؤمن والكافر، ومثل المؤمن في الخير الذي عنده ثم رزقه منه رزقًا حسنًا فهو ينفق منه على نفسه وعلى غيره سرًّا وجهرًا، والكافر بمنزلة عبد مملوك عاجز لا يقدر على شيء؛ لأنه لا خيرَ عنده، فهل يستوي الرجلان عند أحدٍ من العقلاء. (تفسير الطبري ٦٢٢/٧).

والقول الأول أشبه بالمراد، فإنه أظهر في بطلان الشرك، وأوضح عند المخاطب وأعظم في إقامة الحجة، وأقرب نسبًا بقوله: «وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » (النحل: ٧٣-٧٤).

وأما المثل الثاني: فهو مثل ضربه الله سبحانه لنفسه ولما يعبدون من دونه أيضًا، فالصنم الذي يعبدون من دونه بمنزلة رجل أبكم لا يعقل ولا ينطق بل هو أبكم القلب واللسان، قد عدم النطق القلبي واللساني، ومع هذا فهو عاجز لا يقدر على شيء البتة، ومع هذا فأينما أرسلته لا يأتيك بخير ولا يقضي لك حاجة، والله سبحانه حي قادر متكلم، يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم، وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد.

فإن أمره العدل- وهو الحق- يتضمن أنه سبحانه عالم به، معلمٌ له، راض به، آمرٌ لعباده به، محبٌ لأهله، لا يأمرُ سواه، بل تنزه عن ضده الذي هو الجَورُ والظلم والسفه والباطل، بل أمره وشرعه عدلٌ كله، وأهل العدل هم أولياؤه وأحباؤه، وهم المجاورون عن يمينه على منابر من نور، وفي هذا المقال نتكلم عن المثل الأول وهو الآية (٧٥ من سورة النحل)، (التفسير القيم ١٦/٢)، وسوف نتكلم عن المثل الثاني وهو الآية

(٧٦ من نفس السورة) في العدد القادم بإذن الله.

المعنى التفصيلي

المثل الأول:

قال الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير (٢٢٣/٧): «أعقب زجرهم عن أن يشبهوا الله بخلقه أو أن يشبهوا الخلق بربهم بتمثيل حالهم في ذلك بحال من مثل عبدًا بسيده في الإنفاق، فجملة «ضرب الله مثلاً عبدًا» إلخ مستأنفة استئنافًا بيانيًا ناشئًا عن قوله تعالى: «وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ» (النحل:٧٣).

فشبَّه حال أصنامهم في العجز عن رزقهم بحال مملوك لا يقدر على تصرُّف في نفسه ولا يملك مالاً، وشبَّه شأن الله في رزقه إياهم بحال الغني المالك أمر نفسه بما شاء من إنفاق وغيره، ومعرفة الحالين المشبهين يدل عليها المقام، والمقصود نفي المماثلة بين الحالتين.

معاني مفردات المثل الأول:

العبد: الإنسان الذي يملكه إنسان آخر بالأسر أو بالشراء أو بالإرث وقد وصف «عبدًا» هنا بقوله: «مملوكًا» تأكيدًا للمعنى المقصود، وإشعارًا لما في لفظ عبد عن معنى المملوكية المقتضية أنه لا يتصرف في عمله تصرف الحرية.

لا يقدر على شيء: وجملة «لا يقدر على شيء» صفة «عبدا» أي عاجزًا عن كل ما يقدر عليه الناس، كأن يكون أعمى وأصم، بحيث يكون أقل العبيد فائدة، فهذا مثل لأصنامهم، كما قال الله تعالى: «وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ» (النحل:٢١)، وقوله: «إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا» (العنكبوت:١٧). (انظر: تفسير الطبري ٣٧٦٢/٦).

و«من» موصولة، و«الرزق» هنا اسم للشيء المرزوق به. و«الحسن» الذي لا يشوبه قبح في نوعه مثل قلة وجدان وقت الحاجة ووجه الشبه هو المعنى الحاصل في حال المشبه به من الحقارة وعدم أهلية التصرف والعجز عن كل عمل، ومن حال الحرية والغنى والتصرف كيف يشاء.

«فهو ينفق منه»: مفرَّعة على التي قبلها دون أن تجعل صفة للرزق للدلالة على مضمون كلتا الجملتين مقصود لذاته، كمال في موصوفه، فكونه صاحب رزق حسن كمال، وكونه يتصرف في رزقه بالإعطاء كمال آخر، وكلاهما بضد نقائص المملوك الذي لا يقدر على شيء من الإنفاق ولا ما ينفق منه.

«سرًّا وجهرًا» حالان من ضمير «ينفق»، وهما مصدران مؤولان بالصفة أي مُسرًا وجاهرًا بإنفاقه والمقصود من ذكرهما تعميم الإنفاق، وهذا مثل لغنى الله تعالى.

«هل يستوون» وجملة «هل يستوون» بيان لجملة «ضرب الله مثلاً»، فبين غرض التشبيه بأن المثل مراد منه عدم تساوي الحالين ليستدل به على عدم مساواة أصحاب الحالة الأولى لصاحب الصفة المشبهة بالحالة الثانية والاستفهام مستعمل في الإنكار.

«الحمد لله»: جملة «الحمد لله» معترضة بين الاستفهام المفيد للنفي وبين الإضراب بـ «بل» الانتقالية، والمقصود من هذه الجملة أنه تبين من المثل اختصاص الله بالإنعام، فوجب أن يختص بالشكر وأن أصنامهم لا تستحق الشكر، ولما كان الحمد مظهرًا من مظاهر الشرك في مظهر النطق جعل كناية عن الشكر هنا، إذ كان الكلام على إخلال المشركين بواجب الشكر إذ أثنوا على الأصنام وتركوا الثناء على الله.

جيء بهذه الجملة البليغة الدلالة المفيدة انحصار الحمد في ملك الله تعالى.

«بل أكثرهم لا يعلمون»: أسند نفي العلم إلى أكثرهم لأن منهم من يعلم الحق ويكابر استبقاء للسيادة واستجلابًا لطاعة دهمائهم، فهذا ذمٌّ لأكثرهم بالصراحة، وهو ذم لأقلهم بوصمة المكابرة والعناد بطريق التعريض. (التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٢٤/١ وما بعده).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

إعداد: مصطفى البصراتي

الحمد لله مدبِّر الليالي والأيام، ومصرِّف الشهور والأعوام، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين؛ نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعدُ:

فالصيام من أعظم العبادات التي يتجلى فيها الإخلاص، وله أبلغ الأثر في التخليص؛ والإخلاص لله هو أساس كل عمل، وغاية كل مريد، فعملٌ بلا إخلاص لا أجْرَ له، وصلاةٌ بلا إخلاص لا ثواب لها، وصوم بلا إخلاص لا فائدة فيه، وصدقة بلا إخلاص لا قيمة لها.

حقيقة الإخلاص:

الإخلاص: إفرادُ الحق بالقصد.

قال إبراهيم بن أدهم: الإخلاص صدق النية مع الله، وقال سهل بن عبد الله: أن يكون سكون العبد وحركاته لله، وقال أبو عثمان: نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخلق، فالمخلص هو الذي يعمل لا يحب أن يحمده الناس.

وقال يعقوب المكفوف: المخلص: مَن يكتم حسناته كما يكتم سيئاته.

وقيل: المخلص: مَن يستوي عنده مادحُه وذامُّه.

والإخلاص فرض واجبٌ في حق كل مسلم ومسلمة. وقد أمر الله عباده بالإخلاص في العبادة، قال الله تعالى: «وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ» (البينة:٥)، بل أَمَر النبي صلى الله عليه وسلم ذاته بإخلاص العبادة لله، فقال الله تعالى: «إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ» (الزمر:٢).

وأمر الله عباده بإخلاص الدعاء له، قال الله تعالى: «وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ» (الأعراف:٢٩)، بل إن نبينا صلى الله عليه وسلم أخبرنا أن الإخلاص يطهِّر القلب من الحقد والغلّ والحسد، روى أحمد وابن ماجه وصحَّحه الألباني عن زيد بن ثابت رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ثلاث

لا يَغِلُّ عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، والمناصحة لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم». والمعنى أن هذه الثلاثة لو تمسك بها العبد طهَّر قلبه من الحقد والغل والخيانة.

والإخلاص طريق النصر: روى النسائي بسند صحيح عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم». فأخلص العمل لله تَنَلْ الرفعة في الدنيا والنعيمَ في الآخرة. (الثمار اليانعة لأبي بكر الحنبلي ص٣٤).

الإخلاص عنوان الصوم:

ولما كان الصيام من أعظم العبادات التي يتجلى فيها الإخلاص كان له أبلغ الأثر في التخليص (التقوى)؛ فأحلى أعطيات الصوم وأغلى معانيه الإخلاص، والإخلاص لله خَلاصٌ وتجرُّد بعيد عن أوحال الأرض. والصوم هو العبادة الوحيدة التي خُصَّت بالنسبة إلى الله «...إلا الصيام فإنه لي». (جزء من حديث صحيح متفق عليه).

وكما قال الإمام أحمد: «لا رياء في الصوم، فلا يدخله الرياء في فعله، من صَفَّى صُفِّيَ له، ومن كَدَّر كُدِّرَ عليه، من أحسن في ليله كوفئ في نهاره، ومن أحسن في نهاره كوفئ في ليله، وإنما يُكال للعبد كما كَالَ».

والصوم يُعلِّم الناس الإخلاص، فما صام منافق، فما أحوجنا إلى الصيام والإخلاص!، ما أحوجنا إلى الفرار من الرياء، والصيام خير عون!. (فقه الصوم وفضل رمضان للعفاني ١/١٢ بتصرف).

المقصود من الصيام:

قال ابن القيم في زاد المعاد (٢/٢٨): «لما كان المقصود من الصيام حبس النفس عن الشهوات وفطامها عن المألوفات، وتعديل قوتها الشهوانية لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها وقبول ما تزكو به مما فيه حياتها الأبدية، ويكسر الجوع والظمأ من حدتها وسورتها، ويُذَكِّرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين وتضيق مجاري الشيطان من العبد بتضييق مجاري الطعام والشراب، وتحبس قوى الأعضاء عن استرسالها لحكم الطبيعة فيما يضرها في معاشها ومعادها، ويسكن كل عضو منها وكل قوة عن جماحه وتلجم بلجامه فهو لجام المتقين وجُنَّة المحاربين ورياضة الأبرار والمقربين وهو لرب العالمين من بين سائر الأعمال؛ فإن الصائم لا يفعل شيئًا، وإنما يترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده فهو ترك محبوبات النفس وتلذذاتها إيثارًا لمحبة الله ومرضاته، وهو سرٌّ بين العبد وربه لا يطلع عليه سواه، والعباد قد يَطَّلِعُون منه على ترك المفطرات الظاهرة، وأمَّا كونه ترك طعامه وشرابه وشهوتهِ من أجل معبوده فهو أمر لا يطلع عليه بَشَر، وذلك حقيقة الصوم». اهـ. (زاد المعاد)

لذا فقد قال ربنا عن الصوم في الحديث القدسي: «كل عمل ابن آدم له إلا الصيام؛ فإنه لي وأنا أجزي به». (رواه البخاري: ٣/٢٦، ومسلم: ٢/٨٠٧).

وذكر سبحانه أن الصوم الذي يتجلى فيه الإخلاص يستجلب التخليص (التقوى)، فيعين العبد على أن يجعل بينه وبين ما يغضب الله وقاية ويتخلص منه، فيقول الله تعالى: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (البقرة:١٨٣).

ولذا وصف النبي صلى الله عليه وسلم

الصوم بأنه «جُنَّة» أي: وقاية وحماية، فقال صلى الله عليه وسلم: «الصيام جُنَّة». رواه مسلم. وأوصى صلى الله عليه وسلم من أراد التخلص من آثار غلبة الشهوة بالصوم، فقال: «من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصنُ للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجَاءٌ (أي: قاطع للشهوة)». رواه البخاري.

وفي الصوم الخالص من تحرير الإرادة، والتخلي عن العلائق والعوائد والمألوفات، ما يجعل التخلص من المباحات أو المكروهات أو المحرمات أيسر وأكمل، ففيه يكون العبد قد وفقه الله للتخلي عن أشياء نافعة له، فكيف يزعم أنه لا يقدر على التخلص مما يضره؟ ويكون الإنسان قد وفقه الله للتخلي عن أشياء، يعتبر تعلق النفس وميلها لها أكبر ما يكون، لأنها من ضروريات الحياة، فكيف يزعم العبد بعدها أنه لا يقدر على التخلص مما هو دونها في تعلق النفس به وإلفها له؟ ولا يكون كل ذلك إلا في الصوم الذي أخلص فيه العبد لله؛ لأنه يحرر العبد من هواه، ويعيد ترميم وتقوية همته وبعث عزيمته، بما يكون فيه من تجارب ناجحة انتصر فيها العبد على نفسه وأعدائه الذين يتربصون به. (بالوحي نحيا، د. شرف طه يونس ص٩).

ولهذا أكثر المؤمنين لو ضُرب على أن يُفطر في شهر رمضان لغير عُذر لم يفعل؛ لعلمه بكراهة الله لفطره في هذا الشهر، وهذا من علامات الإيمان أن يكره المؤمن ما يلائمه من شهوات إذا علم أن الله يكرهه، فتصيرُ لذته فيما يرضي مولاه، وإن كان مخالفًا لهواه، ويكون ألمه فيما يكرهه مولاه، وإن كان موافقًا لهواه، وإذا كان هذا فيما حُرِّمَ لعارض الصوم من الطعام والشراب ومباشرة النساء؛ فينبغي أن يتأكد ذلك فيما حُرِّمَ على الإطلاق كالزنا وشرب الخمر، وأخذ الأموال أو الأعراض بغير حق، وسفك الدماء المحرمة، فإن هذا يُسخط الله على كل حال وفي كل زمان ومكان، فإذا كمل إيمانُ المؤمن كره ذلك كله أعظم من كراهته للقتل والضرب، ولهذا جعل النبي صلى الله عليه وسلم من علامات وجود حلاوة الإيمان أن يكره أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يُلْقَى في النار. (لطائف المعارف، لابن رجب الحنبلي ص٢٨٨).

الإخلاص في النية:

إذن لا بد من إخلاص النية، وصدق التوجه إلى الله عز وجل، واحذر وأنت تعمل الطاعات مداخلَ الرياء والسمعة، فإنها داء خطير قد يُحْبِط العمل، واكتم حسناتك، وأخفها كما تكتم وتخفي سيئاتك وعيوبك، واجعل لك خبيئة من عمل صالح لا يعلم به إلا الله عز وجل، من صلاة نافلة، أو دمعة في ظلمة الليل، أو صدقة سر، واعلم أن الله عز وجل لا يتقبل إلا من المتقين، فاحرص على التقوى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة:٢٧). ولا تكون ممن يَأْبَوْنَ دخول الجنة، كما ذكر ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا مَن أبَى». قالوا: ومَن يأبى يا رسول الله؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبَى». رواه البخاري. (دروس رمضان، لعبد الملك القاسم ص١٢).

أسأل الله تعالى أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، وأن يتقبل منا ومنكم الصالحات، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الأمثال في القرآن

مثل الرجلين (الأبكم، والآمر بالمعروف)

أعده: مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فهذا هو المثل التالي للمثل السابق من سورة النحل، وقد ذكرنا في المثال السابق الآية (٧٥ من سورة النحل) مثل العبد المملوك، وفي هذا العدد نتكلم عن الآية: (٧٦ من نفس السورة وهو قول الله تعالى: « وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ » (النحل:٧٦).

المعنى الإجمالي:

قال ابن القيم: «هذا مثلٌ ضربه الله سبحانه لنفسه ولما يعبدون من دونه؛ فالصنم الذي يعبدون من دونه بمنزلة رجل أبكم لا يعقل ولا ينطق، بل هو أبكم القلب واللسان، قد عَدِمَ النطق القلبي واللساني، ومع هذا فهو عاجزٌ لا يقدر على شيء ألبتة، ومع هذا فأينما أرسلته لا يأتيك بخير، ولا يقضي لك حاجة، والله سبحانه حي قادر متكلمٌ، يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم، وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد، فإن أمره-وهو الحق- يتضمن أنه سبحانه عالم به مَعَلِّمٌ له، راضٍ به، آمرٌ لعباده به، مُحبٌ لأهله، لا يأمر سواه، بل تنزه عن ضده الذي هو الجور والظلم والسفه والباطل، بل أمره وشرعه عدل كله، وأهل العدل هم أولياؤه وأحباؤه، وهم المجاورون عن يمينه على منابر من نور، أمره بالعدل يتناول الأمر الشرعي الديني والأمر القدري الكوني وكلاهما عدل لا جور فيه بوجه ما. (الجامع في أمثال القرآن، لابن القيم ص١٥٠)».

مفردات الآية:

الأبكم: الموصوف بالبَكَم- بفتح الباء والكاف- وهو الخرس في أصل الخلقة من وقت الولادة بحيث لا يَفهم ولا يُفهم.

وقال أبو زيد: الأبكم الأقطع اللسان وهو الذي لا يحسن الكلام.

وقال مجاهد: الأبكم مثل الصنم لأنه لا ينطق ألبتة، وكذلك لا يقدر على شيء.

وروى ثعلب عن ابن الأعرابي: الأبكم الذي لا يعقل.

وقال الزجاج: الأبكم المطبق الذي لا يسمع ولا يبصر. (مفاتيح الغيب للرازي تفسير سورة النحل آية ٧٦).

لا يقدر على شيء: إشارة إلى العجز التام والنقصان الكامل.

والكَلّ: بفتح الكاف: العالة على الناس. قال أهل المعاني: أصله من الغلظ الذي هو نقيض الحدة، فقوله: كَلٌّ على مولاه: أي غليظ على مولاه.

والمولى: الذي يلي أمر غيره. والمعنى: هو عالة على كافله لا يدبِّر أمرَ نفسه.

أينما يوجهه لا يأت بخير: أي أينما يرسله، ومعنى التوجيه أن ترسل صاحبك في وجه معين من الطريق، يقال: وجهته إلى موضع كذا فتوجه إليه، وقوله: لا يأتِ بخير: معناه لأنه عاجز لا يحسن ولا يفهم.

يأمر بالعدل: دلت صلة «يأمر بالعدل» على أنه حكيم عالم بالحقائق ناصح الناس يأمرهم بالعدل لأنه لا يأمر بذلك إلا وقد علمه وتبصر به.

والعدل: الحق والصواب الموافق للواقع.

والصراط المستقيم: المحجة التي لا التواء فيها، وأطلق هنا على العمل الصالح، لأن العمل يشبه بالسيرة والسلوك، فإذا كان صالحا كان السلوك في طريق موصلة للمقصود واضحة فهو لا يستوي مع من لا يعرف هدى ولا يستطيع إرشادًا بل هو محتاج إلى من يكفله. (انظر: مفاتيح الغيب، والتحرير والتنوير بتصرف).

المعنى التفصيلي:

هذا المثل مضروب لبيان الحق والباطل وحال من يتمسك بواحد منهما.

فهذان رجلان: أحدهما لا ينطق ولا يفهم، وهو عاجز لا يقدر على شيء يعود عليه أو على غيره بالنفع أو الضرر «كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ» (النحل:٧٦)، عالة عليه، يثقل كاهله بنفقاته دون أن يجد منه مولاه عونًا في شيء من شئونه، وهو سفيه لا إدراك له ولا خير فيه ألبتة، «أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ» (النحل:٧٦) كلمة: خير نكرة في سياق الإثبات: فالتنكير للتقليل والتحقير.

والآخر رجل مقتصد معتدل السلوك، لا يفرط في أمره ولا يبالغ فيه، بل يسلك طريقًا وسطًا في جميع شئونه، ويأمر غيره بذاك، وهو على صراط مستقيم، لا تزل قدمه ولا تتعثر خطاه، ولا يضل به الطريق، فهل يستوي الرجلان؟

وهل هما في ميزان الحياة وفي تقدير العقلاء على سواء؟

ذلك ما لا يقوله عاقل، ولا ينزل على حكمه إلا أحمق سفيه.

فإذا كان الناس يفتقرون بالضرورة إلى الله الواحد القهار، وهو المالك لكل شيء المتصرف في كل شيء، وغيره كل عاجز، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، فضلاً عن غيره فكيف يتركون عبادة الخالق ويعبدون آلهة صنعوها بأيديهم، وهي لا تسمعهم إذ يدعون ولا تبصرهم إذ يرفعون إليها أكفَّ الضراعة خاشعين.

وكيف يعارضون الحق الذي جاءتهم به الرسل، ويجادلون بالباطل في أمر فطروا عليه وشهدوا على أنفسهم به: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ» (الأعراف:١٧٢). (الأمثال القرآنية للدكتور محمد بكر إسماعيل ص١٥٥).

وقال الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير (٢٢٧/٧): في قوله تعالى: «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ» (النحل:٧٦)، هذا تمثيل ثانٍ للحالتين، بحالتين باختلاف وجه الشبه، فاعتبر هنا المعنى الحاصل من حال الأبكم، وهو العجز عن الإدراك، وعن العمل، وتعذر الفائدة منه في سائر أحواله، والمعنى الحاصل من حال الرجل الكامل العقل والنطق في إدراكه الخير وهديه إليه واتقان عمله وعمل من يهديه؛ ضربه الله مثلاً لكماله وإرشاده الناس إلى الحق، ومثلاً للأصنام الجامدة التي لا تنفع ولا تضر، وقد قرن في التمثيل هنا حال الرجلين ابتداءً، ثم فصل في آخر الكلام مع ذكر عدم التسوية بينهما بأسلوب من نظم الكلام بديع الإيجاز، إذ حذف من صدر التمثيل ذكر الرجل الثاني للاقتصار على ذكره في استنتاج عدم التسوية تفننًا في المخالفة بين أسلوب هذا التمثيل وأسلوب سابقه الذي في قوله: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا» (النحل:٧٥)، ومثل هذا التفنن من مقاصد البلغاء كراهيةَ للتكرير؛ لأن تكرير الأسلوب بمنزلة تكرير الألفاظ.

وقد مثّل هنا، الأول مثل الأصنام الجامدة التي لا تفقه وهي محتاجة إلى مَن يحرسها وينفض عنها الغبار والوسخ، والثاني مثل لكماله تعالى في ذاته وإضفائه الخير على عباده. اهـ. (التحرير والتنوير).

وإذا كان سبحانه هو الذي جعل رُسُلَه عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم على الصراط المستقيم في أقوالهم وأفعالهم فهو سبحانه أحق أن يكون على صراط مستقيم في قوله وفعله، وإن كان صراط الرسل وأتباعهم هو موافقة أمره فصراطه الذي هو سبحانه عليه هو ما يقتضيه حمده وكماله ومجده من قول الحق وفعله، وبالله التوفيق، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الوفاء بالعهد والتحذير من نقضه

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعدُ:

فهذا مَثل من الأمثال القرآنيَّة، وهو في قوله تعالى من سورة النحل: « وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » (النحل:٩١، ٩٢).

المعنى الإجمالي:

لما أمر الله المؤمنين بملاك المصالح ونهاهم عن ملاك المفاسد بما أومأ إليه قوله: «يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» (النحل:٩٠)، فكان ذلك مناسبة حسنة لهذا الانتقال الذي هو من أغراض تفنين القرآن، وأوضح لهم أنهم قد صاروا إلى كمال وخير بذلك الكتاب المبين لكل شيء.

وقد ذكرهم الوفاء بالعهد الذي عاهدوا الله عليه عندما أسلموا.

وهو ما بايعوا عليه النبي صلى الله عليه وسلم مما فيه: "ألا يعصوه في معروف، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يأخذ البيعة على كل من أسلم من وقت ابتداء الإسلام في مكة، وتكررت البيعة قبيل الهجرة وبعدها على أمور أخرى، مثل النصرة التي بايع عليها الأنصار ليلة العقبة ومثل بيعة الحديبية- والخطاب للمسلمين في الحفاظ على عهدهم بحفظ الشريعة، ثم نهاهم عن أن يكونوا مضرب مَثل معروف في العرب بالاستهزاء وهو المرأة التي تنقض غزلها بعد شد فتله- فعيَّر سبحانه مَن نقض شيئًا بعد أن أثبته- فدلَّ على أن كل ما

إعداد مصطفى البصراتي

كان إثباته مؤديًا إلى نفيه وإبطاله كان باطلًا. (انظر: التحرير والتنوير ٧/٢٦٠، إعلام الموقعين لابن القيم ٤/٢٠٩ بتصرف).

معاني المفردات:

وأوفوا: الوافي الذي بلغ التمام- وَفَى بعهده يفي وفاءً، وأوفى إذا تمم العهد ولم ينقض حفظه، واشتقاق ضده وهو الغدر يدل على ذلك وهو الترك والقرآن جاء بأوفى. (معجم مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني).

بعهد الله: عهد الله: كل ما يجب الوفاء به، من التزام أحكام الإسلام والوعود، وتنفيذ العقود والمشاركات والالتزامات والعهد: الحلف. (التفسير الوسيط للدكتور وهبة الزحيلي ٢/١٢٩٥).

في قوله: «وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ» (النحل:٩١) إبطال المحلوف عليه لا إبطال القسم، فجُعل إبطال المحلوف عليه نقضا لليمين؛ تهويلا وتغليظا للنقض لأنه نقض لحرمة اليمين.

إذا: لمجرد الظرفية؛ لأن المخاطبين قد عاهدوا الله على الإيمان والطاعة، فالإتيان باسم الزمان لتأكيد الوفاء، فالمعنى: أن مَن عاهد وجب عليه الوفاء بالعهد. (التحرير والتنوير لابن عاشور).

عاهدتم: وعهد الله: لفظ لجميع ما يُعقد باللسان ويلزمه الإنسان، من بيع أو صلة أو مواثقة في أمر موافق للديانة.

ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها: أي بعد تشديدها وتغليظها وتوثيقها بزيادة الأسماء والصفات، وقيل: إن تأكيد اليمين هو حلف الإنسان على الشيء الواحد مرارًا- والتوكيد: التوثيق.

(فتح البيان لصديق حسن خان ٤/٧٢).
وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً: الكفيل: الشاهد والضامن والرقيب على الشيء المراعي لتحقيق الغرض منه، والمعنى أن القسم باسم الله إشهاد لله وكفالة به، وقد كانوا عند العهد يحلفون ويشهدون الكفلاء بالتنفيذ.
إن الله يعلم ما تفعلون: من وفاء العهد ونقضه فيجازيكم بحسب ذلك إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، وفيه ترغيب وترهيب. (فتح البيان للقنوجي ٤/٧٣).
ولا تكونوا: فيما تصنعون من النقض بعد التوكيد.
كالتي نقضت غزلها: أي ما غزلته، والغزل هنا مصدر بمعنى المفعول أي المغزول.
والقوة: إحكام الغزل، أي نقضته مع كونه محكم الفتل لا موجب لنقضه، فإنه لو كان فتله غير محكم لكان عذرٌ لنقضه.
والإنكاث: جمع نكث-بكسر النون وسكون الكاف- ما ينكث فتله ليغزل ثانيًا بمعنى منكوث أي منقوض- قال ابن قتيبة: هذه الآية متعلقة بما قبلها والتقدير: وأوفوا بعد الله ولا تنقضوا الأيمان فإنكم إن فعلتم ذلك كنتم مثل امرأة غزلت غزلاً وأحكمته ثم جعلته أنكاثًا أي أقطاعًا وأجزاءً.
تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم: قال الجوهري: الدخل المكر والخديعة، وقال أبو عبيدة: كل أمر لم يكن صحيحًا فهو دخل، وقيل: الدخل ما أدخل في الشيء على فساده.
وقال الزجاج: غشًا وغلاً، وقيل أحبل الدخل العيب، والعيب ليس من الشيء الذي يدخل فيه. (فتح البيان ٤/٧٣).
«أن تكون أمة» والمعنى التعليل، وهو علة لنقض الأيمان المنهي عنه، أي تنقضون الأيمان بسبب أن تكون أمة أربى من أمة، أي أقوى وأكثر.
والأمة: الطائفة والقبيلة، والمقصود طائفة المشركين وأحلافهم.
أربى: جماعة، أي أكثر عددًا منها وأوفر مالاً، يقال ربى الشيء يربو إذا كثر.
«إنما يبلوكم الله به»: أي يختبركم بكونكم أكثر وأوفر لينظر هل تتمسكون بحبل الوفاء أم تنقضون اغترارًا بالكثرة.
«وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون»: فيوضح الحق والمحقين ويرفع درجاتهم ويبين الباطل والمبطلين فينزل بهم من العذاب ما يستحقونه.

(انظر: فتح البيان والتحرير والتنوير، بصرف).

المعنى التفصيلي:

روى ابن جرير الطبري عن بُريدة، في بيان سبب نزول آية « وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ » (النحل:٩١)، قال: نزلت هذه الآية في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم، وروى ابن جرير أيضًا: أن الآية نزلت في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم كان من أسلم يبايع على الإسلام، فقال تعالى: « وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ »... (النحل:٩١)، فلا تحملنكم قلة جند محمد وأصحابه، وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام وإن كان المسلمين قلة وفي المشركين كثرة. (التفسير الوسيط لوهبة الزحيلي ٢/١٢٩٥).
والمقصود من هذه الجمل كلها من قوله: « وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ » (النحل:٩١) إلى: «إِنَّ الله يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ» (النحل:٩١)، تأكيد الوصاية بحفظ عهد الأيمان، وعدم الارتداد إلى الكفر، وسدّ مداخل فتنة المشركين إلى نفوس المسلمين إذ يصدونهم عن سبيل الله بفنون الصد كقولهم: « نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ » (سبأ:٣٥)، كما أشار إليه قوله تعالى: « وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ » (الأنعام:٥٣)، وقد تقدم ذلك في سورة الأنعام. (التحرير والتنوير ٧/٦٣).
وأما قوله تعالى: « وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ » (النحل:٩٢) شبهت هذه الآية الذي يحلف أو يعاهد ويبرم عقده بالمرأة التي تغزل غزلها وتفتله محكمًا، وشبّه الذي ينقض عهد بعد الإحكام بتلك الغازلة إذ نقضت قويَّ ذلك الغزل فحلته بعد إبرامه.
ويروى أن امرأة حمقاء كانت بمكة تُسمى رَيْطة بنت سعد كانت تفعل ذلك، فبها وقع التشبيه. قاله عبد الله بن كثير، والسدوسي، ولم يسميا المرأة. (المحرر الوجيز لابن عطية ٥/٤٠٢).
فلا يجوز نكث العهد مع الاستقامة على الإسلام بل يجب الوفاء به ويحرم الخروج عليه وإن كان فاسقًا، ثم قال تعالى: «إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ» (النحل:٩٢) أي يختبركم بما أمركم به من الوفاء بالعهد ليتبين الصادق في عهد ومحافظته عليه من الناكث، ثم يحكم بينكم بحكمه العدل فيجازي المحسن بإحسان بدخول دار السلام، والمسيء بإساءته بدخول دار الجحيم. (تفسير القرآن بالقرآن ٣/٤١٦).
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مثل القرية التي كفرت بأنعم الله

إعداد مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعدُ:

فهذا مثل من الأمثال القرآنية وهو في قوله تعالى من سورة من النحل: « وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ » (النحل: ١١٢).

المعنى الإجمالي:

قال ابن كثير رحمه الله: هذا مثل أريد به أهل مكة، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة، يُتخطف الناس من حولها، ومن دخلها فهو آمن لا يخاف، كما قال الله تعالى: « وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا » (القصص: ٥٧)، وهكذا قال هاهنا: «يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا» (النحل: ١١٢) أي: هنيئًا سهلاً، «مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ» (النحل: ١١٢) أي: جحدت آلاء الله عليها وأعظم ذلك بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم إليهم، كما قال الله تعالى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ » (إبراهيم: ٢٨-٢٩)، ولهذا بدلهم الله بحاليهم الأولين خلافهما، فقال: «فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ » (النحل: ١١٢) أي: ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يُجبى إليهم ثمرات كل شيء، ويأتيها رزقها رغدًا من كل مكان، وذلك لما استعصوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوا إلا خلافه، فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف، فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم، فأكلوا العِلهز- وهو: وبر البعير، يجعل بدمه إذا نحروه.

معاني المفردات:

وضرب بمعنى: جعل- وجُعل المثلُ قريةً موصوفة بصفات تبين حالها المقصود من التمثيل، فاستغنى عن تعيين القرية.

«قرية»: قال ابن عباس، ومجاهد وقتادة: القرية المضروب بها المثل مكة، والمراد بالقرية أهلها إذ هم المقصود من القرية، كقوله: « وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ » (يوسف: ٨٢). (تفسير المحرر الوجيز لابن عطية والتحرير والتنوير بتصرف).

«آمنة»: أصل الأمن طمأنينة النفس وزوال الخوف- والأمن السلامة من تسلط العدو. (معجم مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني).

«مطمئنة»، غير منزعجة، أي: لا يخاف أهلها، ولا ينزعجون. (فتح البيان لصديق الفتوحي).

«يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان»: يُحمل إليها من البر، والبحر، والرزق: الأقوات، والرغد: الوافر الهنيء. (تفسير البغوي بتصرف من كل مكان بمعنى من أمكنة كثيرة).

«فكفرت»: أي: كفر أهلها (بأنعم الله) التي أنعم بها عليهم، وهي جمع نعمة كالأشد جمع شدة، وقيل: كالأدرع جمع درع.

«فأذاقها الله»: الإذاقة: حقيقتها إحساس اللسان بأحوال الطعوم، وهي مستعارة هنا وفي مواضع من القرآن إلى إحساس الألم والأذى إحساسًا مكينًا كتمكن ذوق الطعام من فم ذائقه لا يجد له مدفعًا.

«واللباس»: حقيقته الشيء الذي يُلبس، واضافته إلى الجوع، والخوف قرينة على أنه مستعار إلى ما يغشى من حالة إنسان ملازمة له كملازمة اللباس لابسه، كقوله تعالى: «هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ» (البقرة: ١٨٧) بجامع الإحاطة والملازمة. (التحرير والتنوير لابن عاشور).

«الجوع»: ابتلاهم الله بالجوع سبع سنين وقطعت العرب عنهم الميرة. والجوع : الألم الذي ينال الإنسان من خلو المعدة من الطعام. (معجم مفردات ألفاظ القرآن بتصرف).

«الخوف»: توقع مكروه عن أمارة مظنونة، أو معلومة، ويضاد الخوف: الأمن، ويستعمل ذلك في الأمور الدنيوية والأخروية. (المصدر السابق).

«بما كانوا يصنعون»: أي: فعلنا بهم ما فعلنا بسبب تكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

المعنى التفصيلي:

هذا مَثَلٌ صريحٌ ضَرَبه الله عبرةً للأمم والبلاد والجماعات، والقرية المضروب بها المثل هي مكة، كانت بهذه الصفة التي ذكر الله، آمنة من غارات الأعداء، مطمئنة مستقرة ليس فيها مخاوف ولا مشكلات أمنية أو اقتصادية، يأتيها رزقها رغدًا، أي هنيئًا سهلاً واسعًا، من سائر البلاد، فكفر أهلها بنعم الله، وجحدوا بها، فعمهم الله بالجوع والخوف، وبُدِّلوا بأمنهم خوفًا وبغناهم جوعًا وفقرًا، وبسرورهم ألمًا وحزنًا، وذاقوا مرارة العيش بعد السعة، بسبب أفعالهم المنكرة، وعبادتهم الأوثان، وتنكرهم للقرآن والشرع والهداية، ومن أتم النعم الإلهية عليهم: أنه جاءهم رسول كريم من جنسهم عربي قرشي هاشمي، فكذبوه فيما أخبرهم به من أنه رسول إليهم، مبلغ عن ربه بأن يعبدوه ويطيعوه، ويشكروه على النعمة، فجاءهم العذاب بسبب ظلمهم. لقد أصابتهم السنون، أي القحط وتعرضوا للخوف، وهاجمتهم سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب الكفر والتكذيب، جزاءً لسوء صنيعهم وظلمهم.

وإذا كانت مكة في رأي ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما هي التي ضربت مثلاً فإنما ضربت لغيرها مما يأتي بعدها، ليحذر أهلها أن يقعوا فيما وقعت هي فيه وقد اختلف المفسرون هل المراد بهذا القرية قرية معينة أو المراد قرية غير معينة. قال الزمخشري: بل كل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم ذكر النعمة فكفروا وتولوا فأنزل الله بهم نقمته، ونحوه البيضاوي.

وقال القرطبي: إنه مثل مضروب لأي قرية كانت على هذه الصفة من سائر القرى، فيجوز أن تراد قرية مقدرة على هذه الصفة، ويجوز أن تكون في قرى الأولين قرية كانت هي حالها فضربها الله مثلاً لمكة إنذارًا من مثل عاقبتها وذهب الأكثرون إلى الأول وصرحوا بأنها مكة، وذلك لما دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف». رواه البخاري ومسلم.

وقال صاحب فتح البيان صديق حسن القنوجي (٨٥/٤): "وأيضًا يكون الوعيد أبلغ والمثل أكمل وغير مكة مثلها، وعلى فرض إرادتها ففي المثل إنذار لغيرها من مثل عاقبتها، والآية عند عامة المفسرين نازلة في أهل مكة وما امتحنوا به من الخوف والجوع بعد الأمن والنعمة بتكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم، فتقدير الآية ضرب الله مثلاً لقريتكم، أي بين الله لها شبهًا، ثم وصف القرية بأنها (كانت آمنة) غير خائفة". اهـ من فتح البيان.

والهدف من هذا المثل الذي أرشدت إليه الآية: هو وجوب الإيمان بالله وبالرسل، والتوجه نحو عبادة الله وحده وشكره على نعمه وآلائه الكثيرة، والمعرفة الثابتة بأن العذاب الإلهي لاحقٌ بكل من كفر بالله وعصاه وجحد نعمة الله عليه.

وهذا إنذار ووعيد لأهل كل قرية اتصفوا بالظلم، أي بالكفر والعصيان إذ لا ظلم أشد من ظلم الكفر والمعصية في حق الله تعالى. (التفسير الوسيط لوهبة الزحيلي).

نسأل الله تعالى أن يردنا إلى دينه ردًا جميلاً، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دراسات قرآنية

الأمثال في القرآن

ضرب المشركين المَثل بالنبي صلى الله عليه وسلم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعدُ:

فهذا مثل منْ الأمثال القرآنية، وهو في قوله تعالى: «انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا» (الإسراء:٤٨)، والآية متعلقة بالآيات قبلها، وسنذكر ذلك فيما يلي:

المعنى الإجمالي

قال ابن القيم رحمه الله في كتابه «بدائع الفوائد» (٧٤٤/٢): في قوله تعالى: «انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا» (الإسراء:٤٨). الخطاب في الآية للنبي صلى الله عليه وسلم أي: «مثلوك بالشاعر مرة، والساحر أخرى، والمجنون مرة، والمسحور أخرى، فضلوا في جميع ذلك ضلال من يطلب في تيهه وتحيره طريقًا يسلكه فلا يقدر عليه، فإن أي طريق أخذها فهي طريق ضلال وحيرة أعداء رسول الله معه، حتى ضربوا له أمثالاً برأه الله منها، وقد علم كل عاقل أنها كذب وافتراء وبهتان». اهـ. بتصرف.

إعداد: مصطفى البصراتي

المعنى التفصيلي

تعددت ألوان الأذى من الكفرة أهل مكة التي ارتكبوها في حق النبي صلى الله عليه وسلم، فلم تقتصر مؤذياتهم على شخصه وصدّ الناس عن دعوته، وإنما كانوا يؤذونه في أخص أحواله الشخصية، في وقت قراءته القرآن وصلاته في المسجد الحرام، ولكن الله تعالى حماه من كيدهم وإضرارهم، وأنقذه في أحيان كثيرة من إصابته بسوء، أو النجاح في ثنيه عن رسالته وتبليغ وحي ربه، ولننظر إلى آي القرآن تحدثنا عن بعض هذه المؤذيات.

قال الله تعالى: «وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٤٧) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا» (الإسراء:٤٥-٤٨).

والخطاب في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ (الإسراء:٤٥) للرسول صلى الله عليه وسلم.

وهو عطف جملة على جملة وقصة على قصة، فإنه لما نوّه بالقرآن في قوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (الإسراء:٩)، ثم أعقب بما اقتضاه السياق من الإشارة إلى ما جاء به القرآن من أصول العقيدة وجوامع الأعمال، وما تخلل ذلك من المواعظ والعبر؛ عاد هنا إلى التنبيه على عدم انتفاع المشركين بهدي القرآن؛ لمناسبة الإخبار عن عدم فقههم دلالة الكائنات على تنزيه الله تعالى عن النقائص، وتنبيهًا للمشركين على وجوب إقلاعهم عن عبثهم وعنادهم، وتأمينًا للنبي صلى الله عليه وسلم- عن مكرهم به وإضمارهم إضراره، وقد كانت قراءته القرآن تغيظهم وتثير في نفوسهم الانتقام وحقيقة الحجاب: الساتر الذي يحجب البصر عن رؤية ما وراءه، وهو هنا مستعار للصرفة التي يصرف الله بها أعداء النبي عليه الصلاة والسلام عن الإضرار به والإعراض الذي يعرضون به عن استماع القرآن وفهمه.

وجعل الله الحجاب المذكور إيجاد ذلك الصارف في نفوسهم بحيث يهمّون ولا يفعلون وذلك من فور الإرادة والعزيمة بحيث يخطر الخاطر في نفوسهم ثم لا يصممون، وتخطر معاني القرآن في أسماعهم ثم لا يتفهمون، وذلك خلق يسري إلى النفوس تدريجيًا تغرسه في النفوس بادئ الأمر شهوةُ الإعراض وكراهية المسموع منه ثم لا يلبث أن يصير مَلَكة في النفس لا تقدر على خلعه ولا تغييره ووصف الحجاب بالمستور مبالغة في حقيقة جنسه، أي حجابًا بالغًا الغاية في حجب ما يحجبه هو حتى كأنه مستور بساتر آخر، فذلك في قوة أن يقال: جعلنا حجابًا فوق حجاب ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ (الفرقان:٢٢) أي: مانعًا ممنوعًا مستورًا، أو أريد أنه حجاب من غير جنس الحجب المعروفة فهو حجاب لا تراه الأعين ولكنها ترى آثار أمثاله. (انظر: التفسير الوسيط لوهبة الزحيلي ١٣٥٢/٢).

وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ (الأنعام:٢٥) أي: وجعلنا على قلوبهم أغطية، بحيث لا يتسرب إليها فهم مدارك القرآن ومعرفة أسراره وغاياته، وجعلنا في آذانهم ثقلاً، أو صممًا يمنع من سماع الصوت، وهذه كلها استعارات للإضلال الذي حقَّهم الله به، فعبَّر عن كثرة ذلك وعظمه بأنهم بمثابة من غُطّي قلبه، وصُمَّت أذانه، والإضلال الذي سلكوه، وساروا في فلكه بغيًا وعنادًا.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ (الإسراء:٤٦). بيان لرذيلة أخرى من رذائلهم المتعددة. أي: وإذا ذكرت أيها الرسول الكريم- ربك في القرآن وحده، دون أن تذكر معه آلهتهم المزعومة انفضوا من حولك، ورجعوا على أعقابهم نافرين شاردين، ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ (المدثر:٥٠- ٥١).

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد صوّرتا قبائح المشركين المتنوعة أبلغ تصوير لتزيد في فضيحتهم وجهلهم، ولتجعل المؤمنين يزدادون إيمانًا على إيمانهم. (التفسير الوسيط لوهبة الزحيلي ١٣٥٣/٢، والتفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوي ١٢٣/١٤ بتصرف).

وقوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا ﴾ (الإسراء:٤٧) أي: بالحال الذي «يَسْتَمِعُونَ» القرآن «به» الباء للسببية أو بمعنى اللام وعبارة الكواشي (بما يستمعون به هازئين).

وقال الزمخشري: يستمعون بالهزء (إذ يستمعون إليك) ظرف لأعلم وفيه تأكيد للوعيد.

«وإذ هم نجوى» أي: ونحن أعلم بما يتناجون به فيما بينهم وقت تناجيهم وقد كانوا يتناجون بينهم بالتكذيب والاستهزاء، «إذ يقول الظالمون» أي: الوليد بن المغيرة وأصحابه.

«إن تتبعون» أي: يقول كل منهم الآخرين عن تناجيهم ما تتبعون «إلا رجلاً مسحورًا» أي: سحر به فاختلط عقله وزال عن حد الاعتدال. (فتح البيان صديق حسن القنوجي ج٤).

قول الله تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ (الإسراء:٤٨) جملة مستأنفة

استئنافًا ابتدائيًّا ونظائرها كثيرة في القرآن والتعبير بفعل النظر إشارة إلى أنه بلغ من الوضوح أن يكون منظورًا، والاستفهام بـ«كيف» للتعجب من حالة تمثيلهم للنبي صلى الله عليه وسلم، وأصل «ضرب» وضع الشيء وتثبيته، يقال: ضرب خيمة، ويُطلق على صوغ الشيء على حجم مخصوص، يقال: ضرب دنانير، وهو هنا مستعار للإبراز والبيان تشبيهًا للشيء المبرز المبين بالشيء المثبت، واللام في «لك» للتعليل والأجل، أي: ضربوا الأمثال لأجلك أي: لأجل تمثيلك، أي: مثلوك. يقال: ضربت لك مثلاً بكذا.

وأصله مثلتك بكذا، أي أجد كذا مثلاً لك، قال الله تعالى: « فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ » (النحل:٧٤)، وقال: « وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ » (يس:١٣) أي: اجعلهم مثلاً لحالهم، وجمع «الأمثال» هنا، وإن كان المحكي عنهم أنهم مثلوه بالمسحور، وهو مثل واحد؛ لأن المقصود التعجب من هذا المثل ومن غيره فيما يصدر عنهم من يقولهم: هو شاعر، هو كاذب، هو مجنون، هو ساحر، هو مسحور، وسميت أمثالاً باعتبار حالهم لأنهم تحيروا فيما يصفونه به الناس لئلا يعتقدوه نبيًا، فجعلوا يتطلبون أشبه الأحوال بحاله في خيالهم فيلحقونه به، كمن يدرج فردًا غريبًا في أشبه الأجناس به، كمن يقول في الزرافة: إنها الأفراس أو من الإبل أو من البقرة.

وفُرِّع ضلالُهم على ضرب أمثالهم؛ لأن ما ضربوه من الأمثال كله باطل وضلال وقوة في الكفر، فالمراد تفريع ضلالهم الخاص ببطلان تلك الأمثال، أي فظهر ضلالهم في ذلك، كقوله: «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا» (القمر:٩)، ويجوز أن يراد بالضلال هنا أصل معناه، وهو الحيرة في الطريق وعدم الاهتداء، أي ضربوا لك أشباهًا كثيرة لأنهم تحيروا فيما يعتذرون به عن شأنك العظيم، وتفريع « فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا » (الإسراء:٤٨) على «فضلوا» تفريع لتوغلهم في الحيرة على ضلالهم في ضرب تلك الأمثال.

والسبيل: الطريق، واستطاعته استطاعة الظفر به، فيجوز أن يراد بالسبيل سبيل الهدى على الوجه الأول في تفسير الضلال، ويجوز أن يكون تمثيلاً لحال ضلالهم بحال الذي وقف في صحراء لا يدري من آية جهة يسلك إلى المقصود، على الوجه الثاني في تفسير الضلال.

والمعنى على هذا: أنهم تحيروا كيف يصفون حالك للناس لتوقعهم أن الناس يكذبوهم، فلذلك جعلوا ينتقلون في وصفه من صفة إلى صفة؛ لاستشعارهم أن ما يصفونه به باطل لا يطابقه الواقع. (التحرير والتنوير ١٢١/٧).

وقال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٤٩٠/٥): ضرب المثل له على قولهم: مسحور ساحر، مجنون، متكهن؛ لأنه لم يكن عندهم متيقنًا بأحد من هذه، فإنما كانت منهم على جهة التشبيه، ثم رأى الوليد بن المغيرة أن أقرب الأمور على تخيُّل الطارئين عليهم هو أنه ساحر، ثم حكم الله تبارك وتعالى عليهم بالضلال.

وقوله تعالى: « فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا » (الإسراء:٤٨) يحتمل معنيين:

أحدهما: لا يستطيعون سبيلاً إلى الهدى والنظر المؤدِّي إلى الإيمان، فتجري الآية مجرى قوله تعالى: « وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً » (الإسراء:٤٦)، ونحو هذا.

والآخر: لا يستطيعون سبيلاً إلى إفساد أمرك، وإطفاء نور الله بضربهم الأمثال لك واتباعهم كل حيلة في جهتك.

وحكى الطبري أن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة وأصحابه. اهـ. بتصرف.

وقال صاحب «التفسير الوسيط للقرآن الكريم» الدكتور سيد طنطاوي (١٢٥/١٤): قوله تعالى: « انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا » (الإسراء:٤٨): «تسلية عظيمة للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، كيف أن هؤلاء المشركين قد بلغ بهم الجحود والفجور أنهم مثلوا لك الأمثال، فوصفوك تارة بأنك مسحور، وتارة بأنك شاعر، وهم في وصفهم هذا، قد ضلوا عن الحق ضلالاً بعيدًا، وصاروا كالحيران الذي التبست عليه الطرق، فأمسى لا يعرف السبيل الذي لا يسلكه». اهـ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دراسات قرآنية

الأمثال في القرآن

مثل الرجلين: المؤمن والكافر صاحب الجنتين

الحلقة الأولى

إعداد: مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعدُ:

فهذا مثل من الأمثال القرآنية لمن يعتز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة المؤمنين الفقراء، وهو محكيٌّ في اثنتي عشرة آية من سورة الكهف، وهي من قوله تعالى: «وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا» (الكهف: ٣٢) إلى الآية (٤٤)، وهي قول الله تعالى: «هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا» (الكهف:٤٤).

المعنى الإجمالي للآيات:

قال صاحب التفسير الوسيط دكتور سيد طنطاوي، رحمه الله: «واضرب-أيها الرسول الكريم- مثلاً للمؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، وللكافرين الذين غرتهم الحياة الدنيا ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيَّ عن بينة».

وقال ابن عطية في «المحرر الوجيز»: الضمير في (واضرب لهم) عائد على الطائفة المتحيرة التي أرادت من النبي صلى الله عليه وسلم أن يطرد فقراء المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، وعلى أولئك الداعين أيضًا، فالمثل مضروب للطائفتين؛ إذ الرجل الكافر صاحب الجنتين هو بإزاء متجبِّري قريش، أو بني تميم، على الخلاف المذكور أولاً، والرجل المقر بالربوبية هو بإزاء بلالٍ وعمارٍ وصهيب وأقرانهم». اهـ.

ونقل محقق «الجامع في أمثال القرآن» لابن القيم عن بعض المفسرين: «بيِّن-أيها الرسول- في شأن الكفار الأغنياء مع المؤمنين الفقراء مثلاً وقع فيما سلف بين رجلين: كافر ومؤمن، وللكافر حديقتان من أعناب، وأحطناهما بالنخيل زينة وجعلنا بين الجنتين زرعًا نضرًا مثمرًا.

وقد أثمرت كل واحدة من الجنتين ثمرها ناضجًا موفورًا، ولم تنقص منه شيئًا، وفجرنا نهرًا ينساب خلالهما، وكان لصاحب الجنتين أموال أخرى مثمرة، فداخله الزهو بتلك النعم، فقال لصاحبه المؤمن في غرور وهما يتناقشان: أنا أكثر منك مالاً وأقوى عشيرة ونصيرًا، ثم دخل إحدى جنتيه مع صاحبه المؤمن وهو مأخوذ بغروره، فقال: ما أظن أن تفنى هذه الجنة أبدًا، وما أظن القيامة حاصلة، ولو فُرض ورجعت إلى ربي بالبعث كما تزعم، لأجدن خيرًا من هذه الجنة عاقبة لي، لأنني أهل للنعيم في كل حال، فهو يقيس الغائب على الحاضر، ولا يعلم أن الغائب فيه الجزاء على الإيمان وفعل الخير.

قال صاحبه المؤمن مجيبًا له: أتُسوِّغ لنفسك أن تكفر بربك الذي خلق أصلك آدم من تراب، ثم من نطفة مائية، ثم صورَّك رجلاً كاملاً، فإن اعتززت بمالك وعشيرتك، فاذكر ربك وأصلك الذي هو من طين.

لكن أقول: إن الذي خلقني وخلق هذا العالم كله هو الله ربي، وأنا عبده وحده، ولا أشرك معه أحدًا.

ولولا قلت عند دخولك جنتك والنظر إلى ما فيها: ما شاء الله، ولا قوة لي على تحصيله إلا بمعونة الله، فيكون ذلك شكرًا كفيلاً بدوام نعمتك.

ثم قال له: إن كنت تراني أقل منك مالاً وأقل ولدًا ونصيرًا، فلعل ربي يعطيني خيرًا من جنتك في الدنيا أو الآخرة، ويرسل على جنتك قدرًا قدَّره لها كصواعق من السماء، فيصير أرضًا ملساء لا ينبت فيها شيء، ولا يثبت عليها قدَم.

أو يصير ماؤها غائرًا في الأرض لا يمكن الوصول إليه، فلا تقدر على إخراجه لسقيها، وقد عاجل الله الكافر، وأحاطت المهلكات بثمار جنته، وأهلكتها، وأبادت أصولها، فأصبح يقلب كفيه ندمًا وتحسرًا على ما أنفق في عمارتها، ثم عاجلها الخراب، فتمنى أن لم يكن أشرك بربه أحدًا.

عند هذه المحنة لم تكن له عشيرة تنصره من دون الله كما كان يعتز وما كان هو بقادر على نصرة نفسه، فإن النصرة في كل حال ثابتة لله الحق وحده، وهو سبحانه خير لعبده المؤمن يجزل له الثواب ويحسن له العاقبة». (هامش كتاب الجامع في أمثال القرآن لابن القيم ص٥٩).

معاني مفردات الآيات:

«وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا» (الكهف:٣٢) المثل في اللغة: الشبيه والنظير، وهو في عرف القرآن الكلام البليغ المشتمل على تشبيه بديع.

وضرب المثل: إيراده، وعبر عن إيراده بالضرب، لشدة ما يحدث عنه من التأثير في نفس السامع. (تفسير الوسيط د/ طنطاوي).

«جعلنا لأحدهما»: هو الكافر، جنتين: أي بستانين، ولم يعين سبحانه مكانهما، لأنه لم يتعلق بهذا التعيين غرض.

«من أعناب»: بيان لما في الجنتين أي من كروم متنوعة جمع عنب والعنبة الحبة.

«وحففناهما بنخل»: أي جعلنا النخل محيطًا بهما مطبقًا بحوافهما: أي جانبيهما، يقال حفه القوم: أي طافوا به، ومنه قوله: «حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ» (الزمر:٧٥)، وحففته بهم إذا جعلتهم حافين حوله. (تفسير المراغي).

«وجعلنا بينهما زرعًا»: أي جعلنا حول الأعناب النخيل ووسط الأعناب الزرع، وقيل: بينهما أي بين الجنتين زرعًا يعني لم يكن بين الجنتين موضع خراب.

«كلتا الجنتين آتت»: أي أعطت كل واحدة من الجنتين ثمرها وبلغت مبلغًا صالحًا للأكل. (تفسير أبي السعود).

«ولم تظلم منه شيئًا»: أي لم تنقص من أكلها شيئًا في بعض السنين، بل في كل سنة يأتي ثمرها وافيًا، يقال: ظلمه حقه أي أنقصه.

«وفجرنا»: أي أجرينا وشققنا، «خلالهما» أي: وسط الجنتين.

«نهرًا»: يجري بينهما دائمًا من غير انقطاع.

«وكان له»: أي لصاحب الجنتين.

«ثمرٌ»: بفتح الثاء والميم وكذا قرأوا في قوله: «أحيط بثمره»، قرأ عاصم وأبو جعفر ويعقوب: «ثَمَرٌ» بفتح الثاء والميم، وقرأ أبو عمرو البصري:

«ثُمُرٌ» بضم الثاء وسكون الميم، وقرأ باقي القراء: «ثُمُرٌ»-بضم الثاء والميم- قال الجوهري: الثمرة واحدة الثمر وجمع الثمر ثمار مثل جبل وجبال، وقال الفراء: وجمع الثمر ثمر مثل كتاب وكتب، وجمع أثمار مثل عنق وأعناق. اهـ.

والثمر هو الحمل الذي تخرجه الشجرة سواء أكل أو لا.

قال الزهري: أثمر الشجر أطلع ثمره أول ما يخرجه فهو مثمر، ومن هنا قيل لما لا نفع فيه ليس له ثمرة، وقيل الثمر جميع المال من الذهب والفضة والحيوان وغير ذلك، سمي ثمرًا لأنه يثمر ويزيد مأخوذ من ثمَّر ما له بالتشديد إذا كثّره.

«فقال» الكافر «لصاحبه» المؤمن «وهو يحاوره» أي: والكافر يحاور المؤمن، والمعنى يراجعه الكلام ويجاوبه، والمحاورة والمراجعة والتحاور: التجاوب. «أنا أكثر منك مالاً وأعز نفرًا» النفر الرهط وهو ما دون العشرة، وأراد هاهنا الأتباع، والخدم والأولاد والعشيرة. (انظر فتح البيان لصديق حسن القنوجي، والميسر في القراءات الأربعة عشر).

«ودخل جنته» قيل: أخذ بيد أخيه المؤمن يطيف به فيها ويُريه إياها.

«وهو ظالم لنفسه» أي بكفره، وهو جملةٌ في موضع الحال، ومن أدخل نفسه النار بكفره فهو ظالم لنفسه. (انظر تفسير القرطبي).

«قال ما أظن أن تبيد هذه أبدًا» أنكر فناء الدنيا، وفناء جنته، وأنكر البعث والجزاء بقوله: «وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً» (فصلت:٥٠)، وهذا شك منه في البعث، وتبيد: يعني تفنى.

«ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرًا منها منقلبًا»: أي: ولئن كان معاد ورجعة إلى الله ليكونن لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي وأنه كما كان غنيًّا في الدنيا سيكون غنيًّا في الآخرة اغترارًا منه بما صار فيه من الغنى الذي هو الاستدراج له من الله. (انظر: المراغي، وتفسير فتح البيان).

«قال له صاحبه» أي المسلم «وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب» أي قال له صاحبه المؤمن واعظًا وزاجرًا عما هو فيه من الكفر: أكفرت بالذي خلقك من تراب، أي: خلق آدم الذي هو أصله من التراب. (تفسير المراغي وأضواء البيان).

«ثم من نطفة»: إشارة إلى مادته القريبة، «ثم سواك رجلاً» أي: عدلك بشرًا سويًّا ذكرًا، «لكنا هو الله ربي» لفظ «لكنا» كتب في المصحف بألف بعد نون، واتفق القراء العشرة على إثبات الألف في النطق في حال الوقف، وأما في حال الوصل فقرأه الجمهور بدون نطق الألف، و«لكنا» أصله لكن أنا وضمير «هو» للشأن والمعنى أنا أقول «الله ربي» فيه تقديم وتأخير مجازه لكن الله هو ربي، و «لا أشرك بربي أحدًا»، فيه إشارة إلى أن أخاه كان مشركًا، « وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ » (الكهف:٣٩).

توبيخ ووصية من المؤمن للكافر ورد عليه، إذ قال: «ما أظن أن تبيد هذه أبدًا». قال الفراء والزجاج: هلا قلت حين دخلتها الأمر بمشيئة الله وما شاء الله كان، فالمؤمن يحض الكافر على الاعتراف بالعجز، وأن ما تيسر له من عمارتها وحسنها ونضارتها إنما هو بمعونة الله لا بقوته وقدرته.

«إن ترنِ أنا أقل منك مالاً وولدًا» «إن» شرط «ترن» مجزوم به، والجواب: «فعسى ربي» و«أنا» فاصلة لا موضع لها من الإعراب.

والمعنى: إن ترن-أيها المغرور- أنا أقل منك مالاً وولدًا، فعسى ربي أن يؤتين خيرًا من جنتك، «فعسى» بمعنى لعل، أي: فلعل «ربي أن يؤتين خيرًا من جنتك» أي في الآخرة، وقيل في الدنيا «ويرسل عليها» أي: على جنتك، «حسبانًا» أي: مقدارًا قدره الله وحسبه، وهو الحكم بتدميرها من صواعق وآفات، «من السماء» علوية. (محاسن التأويل).

«فتصبح صعيدًا زلقًا» أي: فتصبح جنة الكافر بعد إرسال الله سبحانه عليها حسبانًا أرضًا جرداء ملساء لا نبات فيها ولا يثبت عليها قدم.

وللحديث بقية في العدد القادم إن شاء الله تعالى.

دراسات قرآنية

الأمثال في القرآن

الحلقة الثانية

مثل الرجلين: المؤمن والكافر صاحب الجنتين

إعداد مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعدُ:

فما زلنا في هذا المثل «مثل الرجلين: المؤمن والكافر صاحب الجنتين»، ونستكمل ما بدأناه في الحلقة السابقة، فنقول في هذا المثال-وبالله تعالى التوفيق-:

قال الله تعالى: «أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا» (الكهف:٤١) أي: ذاهبًا في الأرض لا تناله الأيدي ولا الدِّلاء ولا سبيل إليه، والغور الغائر، والمعنى: أنها تصير عادمة للماء بعد أن كانت واجدة له، وكان خلالها ذلك النهر يسقيها دائمًا.

«فلن تستطيع له طلبًا» أي: لن تستطيع طلب الماء الغائر، فضلاً عن وجوده ورده ولا تقدر عليه بحيلة من الحيل تدركه بها، وقيل: المعنى فلن تستطيع طلب غيره عوضًا عنه. «وأحيط بثمره» أي: أمواله كالنقد والمواشي، وهذا راجع لقوله: «وكان له ثمر» وهي عبارة عن إهلاكه وإفنائه.

«فأصبح» أي: صار صاحبها الكافر «يقلب كفيه» أي يضرب إحدى يديه على الأخرى ويصفق بكفٍ، على كفٍ وهو كناية عن الندم والتحسر كأنه قيل: فأصبح يتندم «على ما أنفق فيها» أي: في عمارتها وإصلاحها من الأموال، «وهي خاوية على عروشها» أي: خالية قد سقط بعضها على بعض. والخاوية الخالية، أي: وهي خالية من الشجر والزرع، والعروش: السُقُف. (انظر: تفسير القرطبي، والتحرير والتنوير).

«ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدًا» فأخبر الله تعالى أنه لما سلبه ما أنعم به عليه وحقق ما أنذره به أخوه في الدنيا ندم على شركه حين لا تنفعه الندامة. (تفسير زاد المسير).

«ولم تكن له فئة» أي: جماعة، «ينصرونه من دون الله» يمنعونه من عذاب الله، «وما كان منتصرًا» ممتنعًا منتقمًا لا يقدر على الانتصار لنفسه، وقيل: لا يقدر على رد ما ذهب عنه. (تفسير البغوي).

«هنالك الولاية لله الحق»، والمعنى: (هنالك) أي: في ذلك المقام، وتلك الحال التي وقع فيها الإهلاك؛

النصرة لله وحده لا يملكها غيره، ولا يستطيعها أحد سواه، و«الولاية» بفتح الواو- مصدر ولي، إذا ثبت له الولاء، وبكسر الواو، وهي اسم للمصدر أو اسم بمعنى السلطان والملك، والأخيرة (بكسر الواو) قراءة حمزة، والكسائي، وخلف.

و(الحق) قرأه الجمهور بالجر، على أنه وصف لله تعالى، كما وصف بذلك في قوله تعالى: «وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ» (يونس:٣٠)، وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وخلف: «الحق» بالرفع، صفة للولاية فـ«الحق» بمعنى: الصدق؛ لأن ولاية غيره كذب وباطل، «هو خير ثوابًا» أي: الله خير ثوابًا في الدنيا والآخرة لمن آمن به. «وخير عقبًا» عاقبة الأمر: آخره وما يصير إليه منها، والمعنى: عاقبة طاعته خير من عاقبة طاعة غيره، فهو خير إثابة. (التفسير الوسيط- وتفسير البغوي بتصرف).

المعنى الإجمالي للآيات:

«وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا» إلى قوله: «هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا» (الكهف:٣٢- ٤٤).

قال صاحب تفسير اللباب: لما افتخر الكفار بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين بيَّن الله تعالى أن ذلك مما لا يوجب الافتخار؛ لاحتمال أن يصير الغني فقيرًا والفقير غنيًّا، وأما الذي تجب المفاخرة به فطاعة الله وعبادته وهي حاصلة لفقراء المسلمين، وبين ذلك بضرب هذا المثل، «وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ». قال القرطبي: قوله تعالى: «وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ»، هذا مثل لمن يتعزز بالدنيا ولا يستنكف عن مجالسة المؤمنين وهو متصل بقوله: «وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا» (الكهف:٢٨)، وقال صاحب التفسير الوسيط دكتور سيد طنطاوي: «واضرب-أيها الرسول الكريم- مثلاً للمؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، وللكافرين الذين غرتهم الحياة الدنيا، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

وقال الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير: في قوله: «وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ»، عطف على جملة: «وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ» (الكهف:٢٩) الآيات، فإنه بعد أن بيَّن لهم ما أعد لأهل الشرك، وذكر ما يقابله مما أعده للذين آمنوا، ضرب مثلاً لحال الفريقين بمثل قصة أظهر الله فيها تأييده للمؤمن وإهانته للكافر، فكان لذلك المثل شبه بمثل قصة أصحاب الكهف من عصر أقرب لعل المخاطبين من عصر أهل الكهف، فضرب مثلاً للفريقين؛ للمشركين وللمؤمنين بمثل رجلين كان حال أحدهما معجبًا مؤنقًا، وحال الآخر بخلاف ذلك، فكانت عاقبة صاحب الحال المؤنقة تَبابًا وخسارة، وكانت عاقبة الآخر نجاحًا، ليظهر للفريقين ما يجره الغرور والإعجاب والجبروت إلى صاحبه من الازدراء، وما يلقاه المؤمن المتواضع العارف بسنن الله في العالم من التذكير والتدبر في العواقب فيكون معرض للصلاح والنجاح. اهـ.

وقد اختُلفَ في الرجلين؛ هل هما مقدران أو محققان؟

فقال بالأول بعض المفسرين، وقال بالآخر بعض آخر، فإن كان حال هذين الرجلين الممثل به حالاً معروفًا (أي محققًا)، فالكلام تمثيل حال محسوس بحال محسوس، واختلفوا في تعيينهما. فقيل: هما أخوان من بني إسرائيل أحدهما مؤمن واسمه يهوذا في قول ابن عباس، وقيل: تلمليخا والآخر كافر واسمه قيطوس، وهما اللذان وصفهما الله في سورة الصافات بقوله: «قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ» (الصافات:٥١). قيل: هما أخوان مخزوميان من أهل مكة أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن عبد يا ليل، والآخر كافر وهو الأسود بن عبد الأسد، وقيل: هذا مثل لعيينة بن حصن وأصحابه مع سلمان وأصحابه. (فتح

البيان بتصرف).
وإن كان حال الرجلين حالاً مفروضًا، كما جوَّزه بعض المفسرين فيما نقله عنه ابن عطية؛ فالكلام على كل حال تمثيل محسوس؛ لأن تلك الحالة متصورة متخيلة. قال ابن عطية: فهذه الهيئة التي ذكرها الله تعالى لا يكاد المرء يتخيل أجمل منها في مكاسب الناس، وعلى هذا الوجه يكون هذا التمثيل كالذي في قوله تعالى: «وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ» (البقرة:٢٦٥).

قال الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير»: «والأظهر-من سياق الكلام وصنع التراكيب مثل قوله: «قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ» إلخ، فقد جاء (قال) غير مقترن بفاء وذلك من شأن حكاية المحاورات الواقعة ومثل قوله: «وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا»- أن يكون هذا المثل قصة معلومة؛ ولأن ذلك أوقع في العبرة والموعظة مثل المواعظ بمصير الأمم الخالية، وممن ذهب إلى هذا الرأي العلامة الألوسي في تفسيره، فقال: والمراد بالرجلين: إما رجلان مقدران على ما قيل، وضرب المثل لا يقتضي وجودهما، وإما رجلان موجودان وهو المعول عليه. اهـ.

وقيل: هو مثل لجميع من آمن بالله وجميع من كفر. (انظر: تفسير القرطبي وفتح القدير للشوكاني بتصرف).

قوله تعالى: «واضرب لهم» الضمير في «لهم» عائد على الطائفة المتحيرة التي أرادت من النبي صلى الله عليه وسلم أن يطرد فقراء المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، وعلى أولئك الداعين أيضًا، فالمثل مضروب للطائفتين، إذ الرجل الكافر صاحب الجنتين هو بإزاء متجبري قريش، أو بني تميم، والرجل المؤمن المقر بالربوبية هو بإزاء بلال وعمار وصهيب وأقرانهم.

«جعلنا لأحدهما» أي: الكافر «جنتين من أعناب»، أي: بستانين من كروم العنب، «وحففناهما» أحطناهما، يقال: حفه بكذا، إذا جعله حافًا به، أي: محيطًا، قال تعالى: «وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ» (الزمر:٧٥)، ومن محاسن الجنات أن تكون محاطة بالأشجار المثمرة.

وتأمل هذه الهيئة التي ذكر الله تعالى، فإن المرء لا يكاد يتخيل أجلَّ منها في مكاسب الناس: جنتا عنب أحاط بها نخلٌ بينهما فسحة هي مزدرعٌ لجميع الحبوب والماء الجاري على وجه الأرض يسقي جميع ذلك من النهر الذي جمَّل هذا المنظر وعظَّم النفع، وقرب الكد، وأغنى عن النواضح وغيرها. (تفسير المحرر الوجيز لابن عطية بتصرف).

«كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا»؛ أي: أن كل واحدة من الجنتين آتت أكلها، أي: أعطت ثمارها التي يأكلها الناس من العنب والتمر وغيرها من صنوف الزرع، «ولم تظلم منه شيئًا»، ولم تنقص من هذا المأكول شيئًا في سائر السنين، بل كان أكل كل واحدة منهما وافيًا كثيرًا في كل سنة، على خلاف ما جرت به عادة البساتين، فإنها في الغالب تكثر ثمارها في أحد الأعوام وتقل في عام آخر، وفي التعبير بكلمة: «تظلم» بمعنى: تنقص وتمنع، مقابلة بديعة لحال صاحبهما الذي ظلم نفسه بجحوده لنعم الله تعالى واستكباره في الأرض.

ثم بين سبحانه أن صاحب هاتين الجنتين كانت له أموال أخرى غيرهما فقال: «وكان له ثمر»، والثمر-بضم الثاء، والميم-: المال الكثير المختلف من النقدين (الذهب، والفضة) والأنعام والجنات والمزارع، والمعنى: وكان لصاحب الجنتين مالٌ، أي غير الجنتين، «فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا»، و«الصاحب» هنا بمعنى المقارن في الذكر حيث انتظمهما خبر المثل، أو أريد به المُلابس المُخاصم، «وهو يحاوره» أي يخاطبه.

وللحديث بقية إن شاء الله،

والحمد لله رب العالمين.

فضائل رمضان

إعداد: مصطفي البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبعدُ: فلله تعالى في خلقه فاضل ومفضول، وهو يخلق ما يشاء ويختار؛ فقد فضَّل بعض الرسل على بعض، وجعل الناس بعضهم فوق بعض درجات، وكرَّم بني آدم وسخَّر لهم كثيرًا من خلقه وفضَّل ربنا سبحانه وتعالى بعض الأوقات على بعض فميَّز يوم الجمعة على سائر الأسبوع، وفضَّل ليلة القدر على سائر الليالي، وكذا فضَّل شهر رمضان على سائر الشهور، ففيه الكثير من الفضل والعظيم من الأجر؛ ففيه ليلة هي خير من ألف شهر، وفيه عبادة الصوم التي هي من أعظم القربات إلى الله عز وجل يضاعف الله ثوابه بغير حصر فهو شهر الصبر، وقال تعالى: (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ) (الزمر:١٠).

ولهذا الشهر جملة من الفضائل التي ينبغي للمسلم العلم بها ليهيئ نفسه ويعزم بقلبه على العمل بها واغتنام ثوابها فلا يخرج من هذا الشهر إلا وقد غفر الله له ذنوبه وأجمل ثوابه.

فمن فضائل هذا الشهر العظيم ما يلي:

١- أن الصيام أحد أركان الإسلام الخمسة التي لا يقوم الإسلام إلا بها، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (بني الإسلام على خمس؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان) رواه البخاري ومسلم.

٢- إن رمضان مكفِّر لما بينه وبين رمضان الآخر من الذنوب، قال صلى الله عليه وسلم (الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتُنبت الكبائر) رواه البخاري ومسلم.

٣- الصوم سبب لتكفير الذنوب، قال صلى الله عليه وسلم: (فتنة الرجل في أهله وماله وجاره تكفرها الصلاة والصوم والصدقة) رواه البخاري ومسلم.

٤- الصوم جُنَّة ووقاية من النار؛ فعن جابر رضي الله قال: قال صلى الله عليه وسلم: (الصوم جُنَّة يستجنّ بها العبد من النار) رواه أحمد وحسنه الألباني كما في صحيح الترغيب والترهيب.

٥- إضافته لله تعالى تشريفًا لقدره وتعريفًا بعظيم فخره، فعن أبي هريرة رضي الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل عمل ابن آدم له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله عز وجل إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به؛ يدع شهوته وطعامه من أجلي، للصائم فرحتان فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ولخلوف فم الصائم عند الله أطيب

من ريح المسك) متفق عليه.

وهذا الحديث يدل على عظيم فضل الصيام من وجوه عديدة:

الأول: اختصاص الله عز وجل الصوم له، وذلك تشريف للصيام ومزية خاصة له دون سائر الأعمال، وسبب ذلك أنه سِرٌ بين العبد وربه لا يطَّلع عليه أحد فلو أراد أن يفطر دون أن يعلم به أحد من الخلق لاستطاع، ولكنه لا يفعل ذلك خوفًا من الله الذي يطلع عليه ويعلم سره وعلانيته ورغبة في ثوابه على الصيام فيكون الصيام أقرب إلى الإخلاص من سائر الأعمال؛ ولذا قال الله في الحديث القدسي المتقدم: (يدع شهوته وطعامه من أجلي) فكأنه تعليل لما سبقه؛ أي الصيام لي، لأنه ترك طعامه وشهوته من أجلي.

الثاني: أن الأعمال تضاعف بأعداد معلومة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم فإن الله تعالى قال: (وأنا أجزي به)؛ فليس للجزاء به عدد معين والكريم الجواد يعطي على قدر كرمه وجوده. فهذا يدل على أن جزاءه بغير تحديد ولا حساب والله تعالى أكرم الأكرمين وأجود الأجودين.

الرابع: أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وخلوف فم الصائم تغيُّر رائحته بسبب الصيام لخلو المعدة من الطعام والشراب؛ فهذا التغير لما كان ناشئًا من طاعة الله عز وجل كان جزاؤه أن جعله عنده أطيب من ريح المسك، كما صح أن الشهيد يأتي يوم القيامة وريح دمه كريح المسك كما صح أن الشهيد يأتي يوم القيامة وريح دمه كريح المسك، وإن كان ذلك أمرًا مكروهًا عند الناس.

الخامس: أن للصائم فرحتين؛ فرحة عند فطره بتمام صومه، وإكمال هذه العبادة العظيمة، وهذا من أعظم نعم الله عليه، وكذلك يفرح بتناول ما أباح الله له من الطعام والشراب والنكاح الذي منع منه وقت الصيام وهذا من فضل الله تعالى عليه.

وفرحة عند لقاء ربه بما يجد من ثواب الصوم الذي لا حدّ له ولا حصر بعدد معين-كما تقدم- ويجده مدخرًا له أحوج ما يكون إليه، (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) (الشعراء: ٨٨-٨٩).

لسادس: أن شهر رمضان له خصوصية بالقرآن، كما قال تعالى: (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدي للناس وبينات من الهدي والفرقان)(البقرة ١٨٥)، وقد قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: إنه نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في ليلة القدر. ويشهد لذلك قوله تعالى: (إنا أنزلناه في ليلة القدر)، وقوله (إنا أنزلناه في ليلة مباركة) (الدخان ٣).

السابع: أن المؤمن يجتمع له في شهر رمضان جهادان لنفسه؛ جهاد بالنهار على الصيام، وجهاد بالليل على القيام؛ فمن جمع بين الجهادين ووفَّى بحقوقهما وصبر عليهما وُفِّيَ أجره بغير حساب. (لطائف المعارف لابن رجب الحنبلي ص٣١٩).

الثامن: من فضائل الصوم ما جاء في الصحيحين من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن في الجنة بابًا يقال له الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة لا يدخل منه أحد غيرهم. يقال: أين الصائمون؟ فيقومون، لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد" وزاد النسائي وابن خزيمة "من دخل شرب، ومن شرب لم يظمأ أبدًا".

هذه بعض فضائل الصيام الذي فرضه الله في هذا الشهر الكريم، فاحمدوا الله على نعمة بلوغ هذا الشهر واشكروه بالجد والاجتهاد، وعمارة أوقاته بأنواع الطاعات من الصيام والقيام والذكر والدعاء وتلاوة القرآن والعمرة إلى البيت الحرام.

تقبل الله منا ومنكم صالح الأعمال، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دراسات قرآنية

الأمثال في القرآن

الحلقة الثالثة

مثل الرجلين: المؤمن والكافر صاحب الجنتين

إعداد: مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعدُ:

فهذه هي الحلقة الثالثة في هذا المَثَل «مثلين الرجلين المؤمن والكافر صاحب الجنتين»، وهو مضروب لمن يتعزز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة المؤمنين الفقراء- وهو محكي في اثني عشر آية من سورة الكهف كما ذكرنا سابقًا، وهي من قوله تعالى: «وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا» (الكهف:٣٢)، وهي في قوله تعالى: « هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا» (الكهف:٤٤).

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله في أضواء البيان: «ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة عن هذا الرجل الكافر الظالم لنفسه، الذي ضربه مثلاً مع الرجل المؤمن في هذه الآيات لرؤساء الكفار، الذين افتخروا بالمال والجاه على ضعفاء المسلمين الفقراء كما تقدم - أنه دخل جنته في حال كونه ظالماً لنفسه وقال: إنه ما يظن أن تهلك جنته ولا تفنى؛ لما رأى من حسنها ونضارتها؟ وقال: إنه لا يظن الساعة قائمة، وإنه إن قدر أنه يبعث ويرد إلى ربه ليجدن عنده خيرًا من الجنة التي أعطاه في الدنيا.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة: من جهل الكفار واغترارهم بمتاع الحياة الدنيا، وظنهم أن الآخرة كالدنيا ينعم عليهم فيها أيضًا بالمال والولد، كما أنعم عليهم في الدنيا - جاء مبيناً في آيات أخر، كقوله: في فصلت: « وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ» (فصلت: ٥٠)، وقوله: في مريم: «أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا» (مريم: ٧٧)، وقوله: في سبأ: « وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ» (سبأ: ٣٥). وقوله: في هذه السورة الكريمة: «فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا » (الكهف: ٣٤). وبيَّن جل وعلا كذبهم واغترارهم فيما ادعوه: من أنهم يجدون نعمة الله في الآخرة». (أضواء البيان للشيخ محمد الأمين الشنقيطي بتصرف).

قال أبو حيان في «البحر المحيط»: في قوله: «ودخل جنته» إخبار من الله تعالى بدخول ذلك الكافر جنته فلا بد أن قصد في الإخبار أنه دخل إحدى جنتيه إذ لا يمكن أن يدخلهما معًا في وقت واحد،

والمعنى: ودخل جنته يرى صاحبه ما هي عليه من البهجة والنضارة والحسن، وهو ظالم لنفسه جملة حالية: أي وهو كافر بنعمة ربه مغتر بما ملكه شاكٌ في نفاد ما خوَّله وفي البعث الذي حاوره فيه صاحبه. والظاهر: أن الإشارة بقوله: «هذه» إلى الجنة التي دخلها، وعني (بالأبد): أبد حياته وذلك لطول أمله وتمادي غفلته ولحسن قيامه عليها بما أوتي من المال والخدم فهي باقية مدة حياته على حالها من الحسن والنضارة، ثم أقسم على أنه إن رُدّ إلى ربه على سبيل الفرض والتقدير وقياس الأخرى على الدنيا وكما يزعم صاحبه ليجدن في الآخرة خيرًا من جنته في الدنيا تطمعًا وتمنيًا على الله وادعاء لكرمته عليه ومكانته عنده، وأنه ما أولاه الجنتين إلا لاستحقاقه، وأن معه هذا الاستحقاق أينما توجه كقوله: «إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ» (فصلت:٥٠)، وهذا لا شك باطل وجهل من صاحب الجنتين الكافر واغترارٌ منه بمتاع الحياة الدنيا وظنه أن الآخرة كالدنيا ينعم فيها بالمال والولد، وهذا جهل واغترار، وقد قدمنا الأدلة التي استدل بها الشنقيطي على كلام صاحب الجنتين. انتهى بتصرف.

وقوله: «قال له صاحبه» حكاية أن المؤمن من الرجلين لما سمع كلام الكافر وقفه- على جهة التوبيخ- على كفره بالله تعالى، وقوله: «من تراب» إشارة إلى آدم عليه السلام، وقوله: «ثم سواك رجلاً» كما تقول: سواك شخصًا أو حيًا أو نحو هذا من التأكيدات، والنطفة: ماء الرجل، مشتقة من النطف وهو السيلان، و«سواك» عدَّل خلقك أي جعله متناسبًا في الشكل والعمل وإنما جعل كفره بالبعث كفرًا بالله؛ لأن منشأ الشك في كمال قدرة الله، فلذلك رتب الإنكار على خلقه إياه من التراب، وفي هذا تلويح بالدليل على البعث، وأن القادر على الابتداء قادر على الإعادة، ولفظ: «لكنا» مركب من «لكن» بسكون النون الذي هو حرف استدراك، ومن ضمير المتكلم «أنا»، أصله: لكن أنا، فحذفت الهمزة تخفيفًا كما قال الزجاج، أي على غير قياس لا لعلة تصريفية، ولذلك لم يكن للهمزة حكم الثابت فلم تمنع من الإدغام الذي يمنع منه ما هو محذوف لعلة بناء على أن المحذوف لعلة بمنزلة الثابت، ونقلت حركتها إلى نون «لكنْ» الساكنة دليلاً على المحذوف التقى نونان متحركتان فلزم إدغامهما فصار «لكنا» مقولة «لكنا هو الله ربي»، إقرار بتوحيد الله وأنه لا يشرك به غيره.

ثم نفى عن نفسه الشرك بالله تعالى، فقال: «وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا» (الكهف:٣٨) فيه إشارة إلى أن أخاه كان مشركًا. (البحر المحيط بتصرف).

وقوله تعالى: «وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ» (الكهف:٣٩) وصية من المؤمن للكافر، و«لولا» تحضيض بمعنى: هَلاَّ قلت عندما دخلتها: «مَا شَآءَ ٱللَّهُ» (الكهف:٣٩)، قال الفراء والزجاج: هلا قلت حين دخلتها الأمر بمشيئة الله وما شاء الله كان.

وقوله: «لا قوة إلا بالله» من جملة مقول، أي: هلا قلت هاتين الجملتين تحضيضًا له على الاعتراف بأنها وما فيها بمشيئة الله تعالى، إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها، وعلى الاعتراف بالعجز، وأن ما تيسر له من حسنها ونضارتها إنما هو بمعونة الله لا بقوته وقدرته، وهذا نصح من المؤمن للكافر وتوبيخ له على قوله: «مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا» (الكهف:٣٥) قال الزجاج: لا يقوى أحد على ما في يده من ملك ونعمة إلا الله، ولا يكون إلا ما شاء الله.

ثم لما علمه الإيمان وتفويض الأمور إلى الله سبحانه أجابه عن افتخاره بالمال والنفر، فقال: «إِن تَرَنِ» (الكهف:٣٩) الرؤية علمية أو بصرية، «أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا» (الكهف:٣٩) أي: لأجل ذلك تكبرت وتعظمت عليَّ، «فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ» (الكهف:٤٠) أي: إن ترني أفقر منك فأنا أرجو أن يرزقني الله سبحانه جنة «خَيْرًا منْ جَنَّ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ» تكَ» (الكهف:٤٠) في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما، وفي الأول يكون الكافر أشد غيظًا وحسرة، وهذا رجاء من المؤمن وقرع على مقالة الكافر الأولى.

«وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا» (الكهف:٤٠) أي: على جنتك «حسبانًا» هو مصدر بمعنى الحساب كالغفران أي مقدارًا قدره الله عليها أي يرسل عليها عذاب الحساب، وهو حساب ما كسبت يداك، وقال الأخفش: «حسبانًا» أي: مرامي، وقيل: نارًا، «من السماء»، «فتصبح صعيدًا زلقًا» مثل الجزر. قاله ابن عباس، أي فتصبح جنة الكافر بعد

إرسال الله سبحانه عليها حسبانًا أرضًا جراء ملساء لا نبات فيها ولا يثبت عليها قدم.

« أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا » (الكهف:٤١) أي: ذاهبًا في الأرض لا تناله الأيدي ولا الدلاء ولا سبيل إليه، والغور الغائر، والمعنى أنها تصير عادمة للماء بعد أن كانت واجدة له وكان خلالها ذلك النهر يسيقها دائمًا.

«فلن تستطيع له طلبًا» أي: لن تستطيع لطلب الماء الغائر فضلاً عن وجوده ورده ولا تقدر عليه بحيلة من الحيل تدركه بها، وقيل: المعنى فلن تستطيع طلب غيره عوضًا عنه. (فتح البيان لصديق خان).

قوله تعالى: «وأحيط بثمره» هذا خبر من الله تعالى عن إحاطة العذاب بحال هذا الممثل به والإحاطة كناية عن عموم العذاب والفساد.

«ويقلب كفيه» يريد: يضع بطن إحداهما على ظهر الأخرى، وكذلك فعْلُ المتلهف المتأسف على فائت أو خسارة أو نحوهما.

وقوله: «وهي خاوية على عروشها» يريد أن السقوف وقعت وهي العروش ثم تهدمت الحيطان عليها فهي خاوية والحيطان على العروش.

«ويقول يا يلتني لم أشرك بربي أحدًا» و«ليتني» تمنّ مراد به التندم، وهذا ندم على الإشراك فيما مضى وهو يؤذن بأنه آمن بالله وحده حينئذ، وقوله: «ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله» موعظة وتنبيه على جزاء قوله: «وأعز نفرًا» والفئة: الجماعة، وجملة «ينصرون»: صفة، أي: لم تكن له فئة هذه صفتها فإن فئته لم تغن عنه من عذاب الله.

وقوله: «وما كان منتصرًا» أي: ولا يكون له انتصار وتخلص من العذاب. (انظر: المحرر الوجيز لابن عطية، والتحرير والتنوير لابن عاشور، بتصرف).

«هنالك الولاية لله الحق» أي في ذلك المقام، وتلك الحال تكون الولاية من كل أحد لله، لأن الكافر إذا رأى العذاب رجع إلى الله وعلى هذا المعنى فالآية كقوله تعالى: « فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ » (غافر:٨٤)، ونحو ذلك.

هذا وجه- والوجه الثاني: أن الولاية في مثل ذلك المقام وتلك الحال لله وحده فيوالي فيه المسلمين ولاية رحمة كما في قوله تعالى: « ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ » (البقرة:٢٥٧)، وقوله: « ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ » (محمد:١١)، وله على الكافرين ولاية الملك والقهر كما في قوله: « وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ » (يونس:٣٠)، وقوله: « يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ » (النور:٢٥) إلى غير ذلك من الآيات.

و«الحق» قرأه الجمهور بالجر، على أنه وصف لله تعالى كما وصف بذلك في قوله تعالى: « وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ » (يونس:٣٠)، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف: «الحق» بالرفع- صفة للولاية الحق- بمعنى الصدق لأن ولاية غيره كذب وباطل.

قوله: «هو خير» يجوز أن يكون بمعنى أخير فيكون التفضيل في الخيرية على ثواب غيره وعُقب غيره، فإن ما يأتي من ثواب من غيره ومن عقبى إما زائف مفض إلى خير، وإما زائل، وثواب الله خالص دائم وكذلك عقباه، ويجوز أن يكون «خير» اسمًا ضد الشر، أي هو الذي ثوابه وعُقبه خير وما سواه فهو شر.

و«عُقبًا» أي: عاقبة طاعته خير من عاقبة طاعة غيره فهو خير إثابة، وعاقبة: طاعة. (أضواء البيان للشنقيطي، والتحرير والتنوير، والمحرر الوجيز بتصرف).

وبذلك نرى أن هذه القصة التي ضربها الله تعالى مثلاً للأخيار والأشرار قد بينت لنا بأسلوب بليغ أخاذ، صورة عاقبة الجاحدين المغرورين وحسن عاقبة الشاكرين المتواضعين، كما بينت لنا الآثار الطيبة التي تترتب على الإيمان والعمل الصالح والآثار السيئة التي يُفضي إليها الكفر وسوء العمل كما بينت لنا المتفرد بالولاية والقدرة هو الله عز وجل؛ فلا قوة إلا قوته، ولا نصر إلا نصره، ولا مستحق للعبادة أحد سواه، ولا ثواب أفضل من ثوابه، ولا عاقبة لأوليائه خير من العاقبة التي يقدّرها لهم، هذا وبالله التوفيق، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الأمثال في القرآن

«مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» (الكهف: ٤٥)

إعداد مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعدُ:

فمع مثلٍ جديد من الأمثال القرآنية، وهو في الآية (٤٥) من سورة الكهف، وهي قوله تعالى: «وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا» (الكهف:٤٥).

المعنى العام:

هذه الآية ضرب الله تعالى فيها مثل الحياة الدنيا، فالله تعالى كثيرًا ما يضرب الأمثال في كتابه وكذلك الرسول صلى الله عليه وسلم يضرب الأمثال في سنته، وذلك لأن المثل يقرب المعقول فيكون كالمحسوس، وكان كثيرًا من السلف يبكي إذا لم يعلم المثل لقول الله تعالى: «وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ» (العنكبوت:٤٣).

فالمثل ينتقل بالإنسان من الشيء المعقول إلى الشيء المحسوس الموجود،

والله تعالى ضرب مثل الحياة الدنيا بماء مطر أنزله من السماء على الأرض فأنبتت الأرض، «فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ» (الكهف:٤٥)، وصار أخضر ثم سرعان ما يبس وذبل وكذلك الدنيا فهي سريعة الزوال والإنسان في هذه الحياة الدنيا في شبابه وفي صحته سرعان ما تنتهي ويصل إلى الأجل، والدنيا كلها سريعة الانقضاء، فعن عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مسعود قَالَ: نَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حَصِيرٍ فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً فَقَالَ مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا. (أخرجه الترمذي، واللفظ له (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩)، وأحمد (٣٧٠٩)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي).

فهذه هي الدنيا، فالإنسان كالمتنزه الذي

يذهب للنزهة مدة ثم ينصرف، فكذلك الدنيا يمكث الإنسان فيها ما شاء الله ثم يرحل. (شرح تفسير ابن كثير للراجحي).

فأحوال الدنيا تظهر أولاً في غاية الحسن والنضارة ثم تتزايد قليلاً قليلاً، ثم تأخذ في الانحطاط إلى أن تنتهي إلى الهلاك والفناء، ومثل هذا الشيء ليس للعاقل أن يبتهج به. (مفاتيح الغيب للرازي).

معاني المفردات:

«واضرب» يا محمد للناس، «مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» (الكهف:٤٥) في زوالها وفنائها وانقضائها، «كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ» (الكهف:٤٥) أي: أنها تشبه حال النبات الذي أنبته الله بماء كثير، أنزله من السماء فاختلط بهذا الماء نبات الأرض بعد أن روى منه وامتلأت به عروقه، فنما وكثر واختلط بسبب الماء نبات الأرض.

فالتفت بعضه ببعض بعد أن كثر واستوى على سوقه.

هذا النبات الجميل الناضر لم يلبث حتى أسرع إليه الفناء بدون بطاء ويشير إلى ذلك الإتيان بفاء العاقبة في قوله سبحانه: «فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ» (الكهف:٤٥) أي: فأصبح متكسرًا متفتتًا من اليبس، تفرقه الرياح وتنسفه وتذهب به وتجيء.

فالمشبه في الآية: الحياة الدنيا في جمالها وزينتها ثم فنائها.

والمشبه به: الهيئة المنتزعة من الجملة وهي حال النبات يكون أخضر مهتزًا ثم يصير هشيمًا تطيره الرياح حتى كأنه لم يكن.

«وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا» (الكهف:٤٥) أي: أنه سبحانه على كل شيء من الأشياء ومن جملتها الإيجاد والإفناء- كامل القدرة يفعل ما يشاء جل شأنه.

قال ابن الجوزي في زاد المسير: «والمقتدر» مُفتعل، من قدرت، قال المفسرون: وكان الله على كل شيء من الإفناء الإبقاء مقتدرًا.

المعنى التفصيلي:

قال العلامة الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير ٣٠٣/٧:

«كان أعظم حائل بين المشركين وبين النظر في أدلة الإسلام انهماكهم في الإقبال على الحياة الزائلة ونعيمها، والغرور الذي غرّ الطغاة أهل الشرك وصرفهم عن إعمال عقولهم في فهم أدلة التوحيد والبعث كما قال تعالى: «وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا» (المزمل:١١)، وقال تعالى: «أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» (القلم:١٤، ١٥)، وكانوا يحسبون هذا العالم غير آيل إلى الفناء، «وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ» (الجاثية:٢٤)، وما كان أحد الرجلين اللذين تقدمت قصتهما إلا واحدًا من المشركين إذ قال: «وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً» (الكهف:٣٦)، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يضرب لهم مثل الحياة الدنيا التي غرتهم بهجتها.

والحياة الدنيا: تطلق على مدة بقاء الأنواع الحية على الأرض وبقاء الأرض على حالتها، فإطلاق اسم (الحياة الدنيا) على تلك المدة لأنها مدة الحياة الناقصة غير الأبدية لأنها مقدر زوالها، فهي دُنيا.

وتطلق الحياة الدنيا على مدة حياة الأفراد، أي حياة كل أحد، ووصفها بـ(الدنيا)، بمعنى القريبة، أي الحاضرة غير المنتظرة، كنى عن الحضور بالقرب والوصف للاحتراز عن الحياة الآخرة وهي الحياة بعد الموت.

والكاف في قوله: «كماء» في محل الحال من (الحياة) المضاف إليه (مثل) أي: اضرب لهم مثلاً لها حال أنها كماء أنزلناه.

وهذا المثل منطبق على الحياة الدنيا بإطلاقيهما، فهما مرادان منه.

وضمير «لهم» عائد إلى المشركين كما دل عليه تناسق ضمائر الجمع الآتية في قولهم وحشرناهم فلم نغادر منهم- وعرضوا- بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدًا.

واختلاط النبات، وفرته والتفاف بعضه ببعض من قوة الخصب والازدهار- والباء في قوله: (به) باء السببية، والضمير عائد إلى (ماء). (التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور).

وفي التعبير بقوله: «فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ» (الكهف:٤٥) دون قوله: «فاختلط بنبات الأرض» إشارة إلى كثرة الماء النازل من السماء وإلى أنه السبب الأساسي في ظهور هذا النبات، وفي بلوغه قوته ونضارته.

وقوله: «فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ» (الكهف:٤٥) بيان لما صار إليه هذا النبات من يبوسته وتفتته، بعد اخضراره وشدته وحسنه، و«تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ» (الكهف:٤٥) أي: تفرقه وتنسفه أي فأصبح النبات بعد إخضراره يابسًا متفتتًا، تفرقه الرياح وتنسفه وتذهب به حيث شاءت وكيف شاءت. (التفسير الوسيط للدكتور سيد طنطاوي بتصرف).

ووجهه الشبه: المصير من حال حسن إلى حال سيئ.

وهذا تشبيه معقول بمحسوس لأن الحالة المشبهة معقولة إذ لم ير الناس بوادر تقلص بهجة الحياة، وأيضًا شبهت هيئة إقبال نعيم الدنيا في الحياة مع الشباب والجدة وزخرف العيش لأهله، ثم تقلص ذلك وزوال نفعه ثم انقراضه اشتاتًا بهيئة إقبال الغيث منبت الزرع ونشأته عنه ونضارته ووفرته ثم أخذه في الانتقاص وانعدام التمتع به ثم تطايره أشتاتًا في الهواء، تشبيهًا لمركب محسوس بمركب محسوس ووجه الشبه كما علمت.

وجملة «وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا» (الكهف:٤٥)، جملة معترضة في آخر الكلام موقعها التذكير بقدرة الله تعالى على خلق الأشياء وأضدادها وجعل أوائلها مفضية إلى أواخرها، وترتيبه أسباب الفناء على أسباب البقاء وذلك اقتدار عجيب، وقد أفيد ذلك على أكمل وجه العموم الذي في قوله: «على كل شيء»، وهو بذلك العموم أشبه التذييل.

والمقتدر: القوى القدرة. (التحرير والتنوير بتصرف ٧/ ٣٣٠).

فأحوال الدنيا تظهر أولاً في غاية الحسن والنضارة ثم تتزايد قليلاً قليلاً ثم تأخذ في الانحطاط إلى أن تنتهي إلى الهلاك والفناء، ومثل هذا الشيء ليس للعاقل أن يبتهج به. (مفاتيح الغيب للرازي).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.